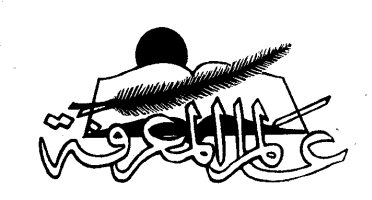


١٩٧

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

اليهود في البلدان الإسلامية

(١٨٥٠-١٩٥٠)

تحريــــر: صموئيل أتينجر

تــأليــف: ميخال أفيطبول
شالوم بر - آشير
يعقـوب برنـاي
يـوسف طـوبي

تـــرجمة: د. جمـال الرفـاعي

مراجعـة: د. رشاد الشامي

ذو الحجة ١٤١٥ هـ - مايو / أيار ١٩٩٥ م

المراسلات

توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

فاكس: ٤٨٧٣٦٩٤، ص.ب: ٢٣٩٩٦ - الصفاة - الكويت 13100

اليهود في البلدان الإسلامية

(١٨٥٠ ـ ١٩٥٠)

المحتويات

رقم الصفحة

المحتويات

رقم الصفحة

المحتويات

رقم الصفحة

مدخل

بقلم
صموئيل أتينجر

اتسم تاريخ المجتمعات اليهـودية في البلدان الإسلامية منـذ القرن السادس عشر وحتى الثامن عشر بسيطرة الطابع التقليدي الـواضح عليه، سواء فيما يتصل بتحديد موقف الغـالبية المسلمة لأوضـاع اليهود القـانونية، أو فيما يتصل بأنماط حيـاة اليهود والتنظيم الـداخلي الخاص بهم، وعلى خلاف هـذه الفترة شهد المجتمع اليهـودي في القرن التاسع عشر، خاصة في نصفه الثاني ، بدايـــات لتحــولات جذرية عديدة. ولا يعني هذا أن طريقة حياة غالبية يهود البلدان الإسلامية قد تغيرت خلال المائة عام الأخيرة، فالعكس هو الأقرب إلى الصحة حيث كان من أبرز سمات المجتمع اليهودي في ذلك الحين أن غالبية اليهود ظلوا يتبعـون نظمهم الاجتماعية وطرقهم المعيشية التي تحددت ملامحهـا منذ أقدم الأجيال، ولكن المؤثـرات الخارجية بدأت في زعزعـة هذه النظم، وسـاعدت على ظهـور جماعـات انضـوت تحت لواء الأخـذ بـالفكر الغـربي ومظاهر الحداثة.

وترجع أصول كـافة هذه التحولات التي طرأت على حياة يهود البلـدان الإسلامية في هذه الفترة إلى المؤثرات الغـربية الأوروبية التي دخلت المنطقة سـواء بشكل مباشر أو بطـرق غير مبـاشرة. وقـد أدت اتجاهات الانتشـار الاستعماري للقـوى الأوروبيـة العظمى إلى سيطـرتها على العـديد من البلـدان الإسـلاميـة في شمال أفريقيـا والمشرق العربي، وتطبيقها لأنظمة الحكم الأوروبية في هذه الدول، وهي الأنظمة التي لم تؤت ثمارها في مجالات كثيرة من الحيـاة. أما البلـدان الإسلاميـة التي لم تقع تحت الاحتلال الأوروبي المباشر مثل الدولـة العثمانية فقد أسفرت الضغـوط التي تعرضت لها من قبل

القوى العظمى عن إدخالها للعـديد من الإصلاحات على أنظمة حكمهـا، وبالرغم من أنها لم تتحقق بكاملها في كافة أنحاء الدولة، إلا أنها ساهمت إلى حد ما في اقتراب سكانها من طابع الحياة الغربية.

وكـان يهود البلـدان الإسـلاميـة من أكثـر سكان هـذه البلـدان إحسـاسـا بهذه التوجهـات الحديثة، فقـد أتاح المحتل أمـام أعداد كبيرة منهم فـرص مزاولـة أنشطة اقتصـاديـة جديـدة، والانـدمـاج في الأجهزة الحكـوميـة في بـلادهم. كما أسهمت امتيازات الحماية القنصلية التي منحتهـا القوى الأوروبيـة لرعـاياها مـن الأجانب في كافـة أنحاء الدولة العثمانيـة في حصول أعداد كبيرة من اليهود، سـواء من بين الذين قدموا من أوروبا إلى البلدان الإسلاميـة أو من بين الذين استقروا منذ أجيال بعيدة في منطقة الشرق الأوسط، على جنسية الدول الأوروبيـة وحمايتها، الأمر الذي تسبب في تضاؤل قيمة ارتباط اليهود بقسوة الحكام المحليين، وتحررهم من الأوضاع المذلة التي عاشوا فيها على مدى مئات السنين.

وبطبيعــة الحال فحينما نشبت المواجهــة بين السلطـة الاستعماريــة والسكــان المحليين، عقد اليهود آمالهم على السلطة وحمايتهـا لهم، الأمر الذي تسبب بالضرورة في تدهـور علاقاتهم بـالسكان المسلمين الذين كانـوا مشبعين بتقاليد عـدم التسامح الديني والعداء الاجتماعي.

ومن الملاحظ أنه كلما كانت السيطرة الاستعماريـة تنجح أكثر في فرض سيادتها، وكلما كان اليهود ينـدمجون أكثر في النظم الحديثة التي طبقتها السلطة، كـانت تتزايد في المقابل قوة عداء الغالبية المسلمـة تجاه اليهود. ومع هذا واجه يهود هذه البلدان في العصر الحديث أعداء جـددا أكثر شراسة من عامـة المسلمين، ونعني بهؤلاء الأعداء أولئك التجار والموظفين المسيحيين بالدولة العثمانية، الذين كان معظمهم من اليونان والأرمن، ومن المستـوطنين الأوروبيين في دول شمال أفـريقيـا. وتمثلت أسبـاب هـذا العـداء في إحساس هـذه الجماعات أن اليهـود سينـافسونهم في أنشطتهم، ولـذلك فكلما كانت تتـزايد في أوساط اليهـود قوة الطبقة اليهوديـة النشيطة اقتصاديـا والمتبنية لأسس النهج الغربي في التفكير، كان يتزايد في المقابل عداء المسيحيين لهم. وكان من

بين مظاهر مثل هـذه الحالة من العداء تعرض اليهـود في العصر الحديث للعديد من الحوادث التي لم يكن لها أي وجود بـالبلدان الإسـلامية في العصور الـوسطى، وكان حصـول يهود الجزائر، على سبيل المثـال، على حقوق المواطنـة الفـرنسيـة، بمقتضى «قانون كرميه»، من بين أسباب ظهور العداء لليهود في هذا البلد، الذي تحول خلال عقد التسعينيـات من القرن التـاسع عشر وبدايـات القرن العشرين إلى أحـد المراكز الرئيسية لحركة العداء لليهود.

وفي واقع الأمر ينبغي ألا ننظر إلى الارتباط الوثيق بين السلطة على أنه تحول حدث في الشرق مع العصر الاستعماري، حيث إنـه في العصور السـابقة، سـواء في البلدان الإسلامية أو في البلدان المسيحية كان الوجـود اليهودي في هذه البلدان يرتبط إلى حد كبير بحمايـة السلطات ودفـاعهـا عن اليهود في مـواجهـة غضب الجماهير وتحريض المتعصبين دينيا.

وقد كـان اليهود منذ عصـور بعيدة يبتهلـون في صلواتهم «بالأدعيـة لحكامهم»، ولكن في العصر الحديث تزايدت قـوة ارتباط اليهود بالسياسات الغـربية التي كانت تتبعها السلطات الاستعمارية، وبأنشطة القوى العظمى في الشرق.

وكان من بين العـوامل التي ساهمت في تزايد ارتبـاط اليهود بالدول الأوروبيـة أنه تزايـدت في العصر الحديث قوة العلاقـات بين هؤلاء اليهود وبين يهود أوروبـا الذين كان بمقـدورهم تقديم يـد المساعـدة لإخوانهم يهود الشرق بفضل وضعهم القـانوني الجيد وأوضاعهم الاقتصادية والثقافية.

وكـان كل من مونتيفيـوري وأدولف كرميـه من أبرز الشخصيـات اليهوديـة التي عملت لمصلحـة يهود الشرق، فعملا، على سبيل المثـال، لصـالح يهود دمشق على أثر تعـرضهم لإحدى الحوادث، وتزايد منـذ هذا الحين تدخل يهود أوروبـا في شؤون الطوائف اليهـودية بالشرق، الـذي تجاوز في بعض الأحيان حـدود التدخل من أجل إخـوانهم في الـدين وحـدود مطـالبة القـوى العظمى بتـوفير الحمايـة ليهـود البلـدان الإسـلاميـة. فبعـد أن أقيمت في بلـدان الشرق في عـام ١٨٦٠ جماعـة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» تطلع اليهود الأوروبيون لإصـلاح طابع حياة يهود الشرق، وكانت

الأولوية في هذا الإطـار لإقامة مؤسسات تعليمية حـديثة على النمط الأوروبي. وعند النظـر إلى الأنشطة التي قـامت بها المؤسسات التعليميـة التـابعة لجماعـة «كل شعب إسرائيل أصـدقاء» نجـد أنها عبرت عن إيمانها بتفـوق الثقافـة الأوروبية وعلى رأسهـا الثقافة الفرنسية على ثقافة يهود الشرق التقليدية. وفي حقيقة الأمر حظيت هذه الرؤية بتأييد وقبول أبناء الطبقة المستنيرة من يهود الشرق التي كانت تضم في صفوفها خريجي هـذه المؤسسات التعليميـة. ونظرا لأن الأفكـار الأوروبيـة كانت على قـدر كبير من الانتشار في أوسـاط أعداد كبيرة من أبنـاء القيادات اليهوديـة في البلدان الإسـلامية، يمكننـا تفهم الأسباب التي جعلـت حاخـامـات يهود الشرق يتبنون رد فعل معتـدلا (بالمقارنة برد فعل الحاخـامات الأشكناز في فلسطين) إزاء أنشطة المؤسسات الصحية والتعليمية العاملة في بلدانهم والتي كانت ذات توجهات غربية.

ونتيجة لكل هـذه العوامل سـالفة الـذكر زادت الهوة بين التطـورات التي مر بها المجتمع الإسـلامي وتلك التي مـر بها المجتمع اليهـودي. وعلى ضوء هـذا كـان من الضروري أن يكون هناك تـواؤم ملموس بين المجتمعين، لاسيما أن يهود الشرق، على خلاف يهود أوروبا، كـانوا أكثر اندمـاجا في مجتمعاتهم فكانـوا يعرفون اللغة العـربية والإبـداع الفني وأيضـا معتقـدات وأفكـار جيرانهم المسلمين. ورغم أنـه ظهـرت في أوساط المسلمين بعض الأفكـار الحديثة نتيجـة لتأثرهم بـالفكر الغـربي، إلا أن قوة مكانـة الدين في المجتمع الإسـلامي، واستقرار الأسس المحـافظة في النظم العـائلية وطرق المعيشـة، حالا دون انـدماج أعـداد كبيرة من اليهود في مسيرة الحداثـة داخل المجتمع الإسلامي.

وحينما قامت في دول المشرق حـركات قوميـة معادية لـلاستعمار كان للمسيحيين وجود قوى فيها، ولكن لم يشارك فيهـا اليهود، خاصة أن المجتمع الإسلامي أحس، وكما كان عليه الحال في شرق أوروبا، أن اليهود من أنصـار الثقافة الغربية الأجنبية، وأنهم يوالون الجهات الأوروبية العاملة في المجالات الاجتماعية والاقتصادية، والحكام الأجانب. وقـد ساهم انضمام اليهود الشبـان إلى المنظمات الشيوعية أو الصهيـونية في مجتمعاتهم في زيادة إحساس مجتمع الأغلبية بـالاغتراب عن اليهود. وعلى هذا النحو فإن الصراع اليهـودي العربي النـاجم عن الأنشطة التي مـارستها الحركـة الصهيونيـة

السياسيـة التي اعتمدت على تأييـد بريطـانيا والقوى الأوروبيـة ساهـم في إبـراز هذا الإحساس الذي ترجع أصوله إلى الفترة السابقة لظهور الصهيونية السياسية، وقبل أن تتكشف مطامعها للرأي العام العربي والإسلامي.

ونعتقـد أن الطابع العـام لهذه التحولات يشير مجددا إلى وحـدة التطور التـاريخي للطـوائف اليهوديـة في كافـة أنحاء الشتـات خلال القـرن الماضي. فمن الملاحظ أن التحولات التي شهـدها المجتمع اليهودي في أوروبـا إبان نهايات القـرن الثامن عشر وبدايات القـرن التاسع عشر هي نفس التحولات التي شهـدها المجتمع اليهودي في الشرق خلال النصـف الثاني من القرن التـاسع عشر وفي القرن العشرين. وكـان من بين السمات المميـزة لتاريخ يهود الشرق إبـان هـذه الفترة حدوث زيـادة ملحوظـة في تعداد السكان اليهود، وتزايد معدلات الهجرة إلى المدينة، وظهور فئة «الانتليجنسيا» الحديثة، واتساع نطاق وتنوع أنشطة اليهود الاقتصادية. وكان من بين السمات المميزة أيضا تطور الصحـافة اليهودية والأدب العبري اللذين أثـرا في نشر الأفكار الحديثة في أوساط المجتمعات اليهودية النائية التي لم يتأثر أبناؤها بالفكر الغربي.

وعلى صعيد آخر تسببت مسيرة الحداثـة في تزايد حدة الفروق الاجتماعيـة والثقافية في أوسـاط يهود دول الشرق، كما تسبب في اتسـاع حجم الهوة الفاصلـة بين الطبقـات المستقـرة اقتصـاديـا التي كانـت تضـم في صفـوفها أعـدادا غير قليلـة من ذوي الثـراء الفاحش والمثقفين ذوي التـوجهات الغربيـة وبين الطبقات الشعبية التي كـانت تزداد فقـرا. ولم تقتصر هذه الفـروق على طريقـة حيـاة كل طبقة، وإنما شملت أيضـا القيم الثقافية والفنيـة والفكرية لكل طبقة. ومن هنـا فإن نظرة الاستعـلاء إلى يهود الشرق لم تقتصر على يهود أوروبـا، الـذين أحسـوا أنـه من الضروري الإسراع بتصـديـر أسس ثقـافتهم الغربيـة إليهم، وإنما شملت أيضـا يهود الشرق الذين تبنـوا أساليب الحيـاة الغربيـة. ونظرا لارتباط يهود الشرق والأثـرياء منهم خاصة بـالثقافة الغـربية، فإنهم لم يبدوا اهتماما ضخما بالتيارات الفكرية والسياسية الحديثة أو بمندوبي الحركة الصهيونية السيـاسية الـذين قـدموا إلى الشرق، أمـا الطبقات اليهـوديـة الفقيرة فقد تصـورت أن الأفكار الصهيـونية هي استمـرار للتطلعات المسيحـانية التقليديـة، أو هي تعبير عن العلاقة العميقة بالأرض المقدسة والاستيطان اليهودي القديم بفلسطين.

وشكلت أهوال الحرب العالمية الثانية التي مست يهود اليونان ودول شمال أفريقيا عاملا مهماً ساهم بدوره في إثارة مشاعر التضامن اليهودي التي ضعفت في أوساط نفوس أبناء بعض الطوائف اليهودية إما نتيجة لحصولهم على حق المواطنة بالبلدان التي أقاموا بها أو لتبنيهم أساليب الحياة الغربية. وقد عقد العالم العربي إبان هذه الفترة آمالاً ضخمة على انتصار ألمانيا في الحرب مما زاد من حدة روح العداء لليهود الذي تجلت مظاهره في تعرض يهود العراق وليبيا، على سبيل المثال، لأضرار بالغة. ولذلك بات من الواضح أنه ليس من الممكن أن يبقى اليهود في البلدان الإسلامية، كما أنه سرعان ما اتضح أنه في حال حصول دول الشرق على استقلالها سيصبح مصير اليهود شبيها بمصير المستوطنين الأوروبيين، وسائر الجماعات التي ارتبط وجودها في هذه البلدان بوجود المستعمر. وكما هو معروف فإن النزاع اليهودي العربي وتأسيس دولة إسرائيل قد ساهم في ازدياد حدة هذه الاتجاهات. ومن هنا كانت حركة الهجرة اليهودية التي تدثرت بالإيمان المسيحاني التقليدي من البلدان الإسلامية بمنزلة هجرة إنقاذ لها ما يبررها، وقد تكون هجرة الغالبية العظمى من يهود الجزائر إلى فرنسا خير دليل على صحة هذا الحكم. وفيما يتعلق بالعدد القليل من اليهود الذين تبقوا في البلدان الإسلامية فإنهم يعيشون تحت رحمة الحكام الذين يحتاجون لخدماتهم، كما أن مصيرهم مازال مرتبطا بأهواء الحكام ومدى قدرتهم على الدفاع عن يهودهم.

وقد تغيرت الحياة الداخلية للطوائف اليهودية هي الأخرى نتيجة للتحولات التي حدثت إبان الفترة التي نبحثها. ولم تنجح أي طائفة خلال هذه الفترة في الحفاظ على أطرها التنظيمية التقليدية بكاملها، كما أثمرت ظاهرة التخلي عن التقاليد والأخذ بأساليب الحياة الحديثة في كل طائفة. وقد بدأ التراث الديني يفقد أهميته بشكل أوضح، واقتصرت جهود بعض الطوائف على الحفاظ على عاداتها وتقاليدها الشعبية المختلفة التي ترجع أصول بعضها إلى التقاليد الدينية اليهودية ويرجع بعضها الآخر إلى التقاليد الدينية الشعبية الإسلامية. وقد واجهت غالبية الطوائف اليهودية بالشرق حتى من قبل تأسيس دولة إسرائيل مشكلات عديدة نجم معظمها عن صعوبة التكيف مع نظم الحياة الحديثة، ولم تظهر في المجتمع اليهودي في هذا الحين أية أشكال جديدة للنظم الاجتماعية والدينية. وكانت النظم الجديدة متأثرة في معظمها

بالتيارات والمنظمات اليهودية في شرق أوربا . ولكن بدأت تظهر في إسرائيل بعد هجرة يهود البلدان الإسلامية إليها أنماط معيشية وثقافية جديدة ساعدتهم على الحفاظ على التراث الثقافي والاجتماعي ليهود الشرق .

وبعد تأسيس دولة إسرائيل ، ومع تزايد قوة الاتجاهات القومية في البلدان العربية تم إسدال الستار على المراكز اليهودية بالبلدان الإسلامية . وبغض النظر عن مدى حفاظ يهود الشرق سواء في إسرائيل أو في الدول الأخرى التي استقروا بها مثل فرنسا وإسبانيا وأمريكا الشمالية والجنوبية على تراثهم الثقافي ، إلا أنه من الواضح أنهم أصبحوا أكثر تقبلا ، وبشكل سريع ، لقيم الثقافة الغربية . ونتيجة لأن بقاء اليهود كوحدة قومية ذات وعي مشترك يرتبط بالحفاظ على تراث الماضي ، فلا شك أن تراث يهود البلدان الإسلامية الذي ساهم في إغناء التاريخ الثقافي لليهود سيظل مركبا حيويا في التاريخ العام لنتاجنا القومي الشامل .



الجزء الأول

المراكز اليهودية في آسيا

الفصل الأول

تحولات ديموغرافية واقتصادية

توزيع الطوائف اليهودية

تنقسم الطوائف اليهودية في بلدان المشرق إلى سبعة مراكز رئيسية، هي: العراق وكردستان و إيران وأفغانستان وبخارى ـ الواقعة بوسط آسيا ـ واليمن وعدن. ويتفق هذا التقسيم مع التقسيم السياسي بشكل عام، بالرغم من أن معظم يهود كردستان، على سبيل المثال، يعيشون داخل حدود العراق، كما أن أرض كردستان نفسها ويهودها موزعون في دول أخرى: إيران وسوريا وتركيا. كذلك فإن يهود بخارى موزعون بدءاً من عقد العشرينيات من هذا القرن في خمس جمهوريات سوفييتية وهي: أوزبكستان، وطاجيكستان، وتركستان، وكيرجيستان، وكازاختستان. ومن ناحية أخرى، فإن يهود كردستان ويهود أرام النهرين (العراق) بالرغم من أنهم يحيون ضمن حدود وحدة سياسية واحدة، إلا أنهم يشكلون وحدتين متمايزتين من الناحية اليهودية. وترجع أصول هذا التقسيم إلى الماضي السحيق. وتشكلت ملامحه بشكل نهائي خلال المائة والخمسين عاما الماضية، بتأثير التغييرات السياسية والتغييرات الاجتماعية اللاحقة بها، الأمر الذي ساهم في تزايد حدة الفروق بين طائفة وأخرى، ومن ذلك على سبيل المثال اختلاف يهود عدن عن يهود اليمن بعد سقوط عدن تحت الاحتلال البريطاني في عام ١٨٣٩.

ويرجع هذا التقسيم إلى سبعة مراكز لعوامل اختلاف اجتماعية سادت بين الطوائف في مجالات اللغة والأنشطة الاقتصادية وشكل الملابس وطرق المعيشة، والتقاليد اليهودية التي سادت بين يهود الشرق في نطق اللغة العربية، وفي طريقة أداء

الصلوات والشريعة اليهودية . وعلى سبيل المثال فإن يهود كردستان يتحدثون اللغة الآرامية الحديثة ، بينما يتحدث يهود العراق العربية . كما أنه بينما يتحدث يهود اليمن وعدن اللغة العربية فإن لهجة يهود عدن كانت مليئة بالألفاظ الإنجليزية والهندية ، وذلك لأن يهود عدن كانوا أكثر اختلاطا بالإنجليز والهنود الذين أقاموا في عدن . أما يهود إيران وأفغانستان وبخارى فقد تحدثوا الفارسية ، ولكن كان هناك تفاوت ضخم بين اللغة الفارسية التي استخدمها يهود إيران وأفغانستان وبين اللغة الطاجيقية ـ فارسية الأصل ـ اللهجة الخاصة بيهود بخارى .

ويكمن المغزى الرئيسي من الناحية الاجتماعية وراء هذا التقسيم ليهود المشرق إلى سبعة مراكز في أن أبناء الطوائف المختلفة في كل مركز كان لديهم إحساس بالشراكة فيما بينهم ، مع شعور بالاختلاف عن أبناء الطوائف في المراكز الأخرى .

وقد نبعت هذه المشاعر من التقسيم السياسي الذي اتبعوه في الماضي ومن العوامل الاجتماعية المشار إليها سابقا . وقد تجلت هذه الأمور ، في وجود طائفة رئيسية واحدة ، كانت هي مقر القيادة اليهودية الإقليمية . سواء فيما يتصل بالحياة الداخلية ، أي تلك الأمور المتصلة بالمحكمة الكبرى أو حكماء التوراة ، أو فيما يتصل بالعلاقات مع السلطات . وبشكل عام ، فإن هذه الطائفة تكون هي أكبر الطوائف اليهودية في هذا المركز ، وبطبيعة الأمور ـ وإن كانت هذه ليست قاعدة ـ فإن هذه الطائفة كانت تقيم في العاصمة : بغداد في العراق ، وصنعاء في اليمن ، وبخارى في إمارات وسط آسيا ، وبعد ذلك في طشقند عاصمة جمهورية أوزبكستان وهارات في أفغانستان . وعلاوة على ذلك ، فإنه إذا كان من المألوف حدوث انتقالات داخلية لأسباب اقتصادية وغيرها داخل حدود نفس المركز ، فإنه لم يكن من الشائع حدوث انتقال من مركز لآخر .

وبالرغم من أنه كان لكل طائفة من الطوائف السابقة خصوصيتها إلا أنه كانت توجد بعض العلاقات فيما بينها ، فكانت هناك علاقات قوية بين يهود العراق ويهود كردستان ، وبين يهود فارس ويهود أفغانستان وبخارى ، وبين يهود اليمن وعدن . ولم تنشأ هذه العلاقات نتيجة لعامل القرب الجغرافي فحسب ، وإنما نتيجة للعديد من

العوامل التاريخية ـ الاجتماعية، فكانت عدن على سبيل المثال حتى بداية القرن الثامن عشر جزءاً لا يتجزأ من المملكة اليمنية، أما المراكز الإيرانية الثلاثة (إيران وأفغانستان وبخارى) فقد جمعتها وحدة اللغة الفارسية بلهجاتها المختلفة التي كانت مفهومة لكل أبناء الطوائف هناك.

ويحدث أحيانا أن يكون أصل اليهود في أحد المراكز هو أحد المراكز المجاورة: فالغالبية العظمى من يهود بخارى هاجرت من إيران، كما أن يهود أفغانستان هاجروا من نفس البلد عام ١٨٣٥، كذلك فإن طائفة عدن نشأت في عام ١٨٣٩م من مهاجرين من اليمن ذاتها. وعلى هذا الأساس، فإننا نجد أن يهود كردستان يقبلون بالزعامة الروحانية لطائفة بغداد، كما أن يهود عدن يقرون بهذه الزعامة لطائفة صنعاء.

وتوجد معظم الطوائف اليهودية في الشرق في البلدان التي ساد بها الإسلام السني مثل العراق وكردستان وبخارى وأفغانستان وعدن، بينما توجد باقي الطوائف في البلدان التي ساد بها الإسلام الشيعي مثل إيران واليمن. ويمكن القول بشكل عام إن أهل السنة من المسلمين كانوا أكثر تسامحا من الشيعة تجاه اليهود، ولكن كان هناك عامل آخر حدد وضع اليهود، وهو مركزية السلطة، حيث إنه كلما كانت السلطة مركزية أكثر وقادرة على الهيمنة بكفاءة على مقاليد القوة المختلفة في المملكة، وخاصة إذا كانت هذه السلطة أجنبية كان وضع اليهود مريحا أكثر، ففي العراق نعم يهود العراق بالأمن عندما تولى الولاة الأتراك مقاليد السلطة، وشعر يهود عدن أيضا بالاستقرار في ظل الاحتلال البريطاني وفي بخارى منذ أن حكمها الروس. أما في كردستان فإن قادة القبائل لم يتوقفوا عن اضطهاد اليهود أكثر مما كان عليه الأمر في البلاد الأخرى. ولكن هذا الأمر كان له استثناء: ففي اليمن وحيث ضعفت هناك السلطة المركزية في صنعاء، وسيطر عليها زعماء القبائل القوية ـ حاشد ونجيل ـ كان اليهود ينعمون بوضع مريح، لأن العلاقات بين المسلمين واليهود هناك كانت تقوم على التقاليد القبلية لأهل البلاد ولم تكن قائمة على الشريعة الإسلامية.

ومن الواضح أن يهود الشرق كانوا يتعرضون لأضرار بالغة في الأماكن والفترات التي كانت تعجز فيها السلطة المركزية عن السيطرة على مجريات الأمور أو التي كانت

تتزايد فيها حـدة النزاعات بين الحكام المحليين فكان اليهود يعيشـون بأعداد ضخمة في البلدان التي كـانت السلطة تنجح فيها في الإمسـاك بزمام الأمور وفي المقـابل كان تعـداد اليهود ضئيـلاً في البلـدان التي كانت تعجـز السلطـة فيها عن السيطـرة على الأوضاع الداخلية. ومن ذلك على سبيل المثال، الوضع خلال فترة طويلة من القرن التاسع عشر في اليمن وفي فترة الثورة الكردية ضد السلطة العثمانية في الربع الثاني من القرن التاسع عشر.

تغيرات ديموغرافية

عنـد بحث الوضع الـديموغـرافي لليهود إبـان الفترة الممتدة من منتصف القـرن التـاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، فإنـه لا يسع الباحث سـوى ملاحظـة بعض الظواهر التي قد يكـون من أهمها ظاهرة استقرار تعداد السكـان اليهود بالرغم من ازدياد أعـداد النسل، وهي إحدى السمات المميـزة للطوائف اليهوديـة عن سائر سكان البـلاد التي يعيشون فيها، والظاهـرة الثانية هي حـرص اليهود على العيش في إطار طوائف مركزية نظرا لاتجاهات التمدن التي كانت سائدة في بلدان الشرق.

الاستقرار في تعداد السكان

كـان الاستقرار في تعـداد السكـان اليهود في الشرق نتيجـة طبيعيـة للعديـد من العوامل المتناقضـة التي حيد كل منها الآخر. وقد شهدت الحقبـة التاريخية التي هي محل بحثنا هذا زيادة في تعداد السكان، وكانـت هذه الزيادة نتيجة للتطور الملموس الذي شهدته الأوضاع الصحية في الشرق طيلة الفترة الممتدة من النصف الثاني للقرن التاسع عشر وحتى النصف الأول من القرن العشرين. وتجلت مظاهر هذا التطور في عـدن التي احتلتهـا بـريطانيـا في عـام ١٨٣٩، وفي العـراق التي كـانت جـزءا من الإمبراطـورية العثمانيـة، والتي أسس بها اليهود العـديـد من المستشفيات وتم أيضـا إرسال المثقفين من يهود العراق لدراسة الطب في نهاية القرن الماضي في القسطنطينية. ولاشك أن مسيرة الحداثة التي شهـدتها كل من عدن والعراق ووسط آسيا منـذ القرن التـاسع عشر ساعـدت على تحسين الأوضاع الصحيـة التي تطورت بعـد أن أنشأت

السلطات الأجنبية بها نظما حديثة، لتوصيل المياه، وللصرف الصحي، وطورت شبكات مواصلات حديثة كما كان من مظاهر التطور اعتبارا من العشرينيات أنه أنشئت في كل من العراق وإيران وأفغانستان، بعد القضاء على أنظمة الحكم المحافظة فيها، العديد من المشروعات الاجتماعية التي ساهمت بدورها في تحسين ظروف المعيشة، والتقليل من معدل الوفيات، وساهمت في حدوث زيادة مطردة في تعداد السكان.

أما الطوائف اليهودية التي عاشت في اليمن وكردستان وفي المدن الإيرانية الواقعة خارج طهران فإنه لم يطرأ أي تغيير على نظم حياتها التقليدية. وفي صنعاء أنشيء أثناء الحكم التركي لليمن مستشفى واحد فقط، واستفاد اليهود وغير اليهود أيضاً من الخدمات الصحية التي كان يقدمها الجيش التركي، ثم ألغيت كل هذه الخدمات بعد أن انتقلت السلطة إلى يدي الإمام يحيى، وكان الوضع الصحي في القوى اليمنية متدهوراً للغاية حتى إبان فترة الحكم التركي، وبهذا يمكننا فهم ظاهرة تزايد معدلات وفيات الأطفال في اليمن والتي وصلت إلى ٥٠٪ من مجمل عدد الأطفال. وفيما يتعلق بالطوائف اليهودية التي استقرت في كردستان وفي المناطق الريفية بإيران فإنها كانت بعيدة عن المراكز المدنية، ولذلك فإنها لم تنعم بالخدمات الطبية الحديثة.

وكانت الأمراض والأوبئة منتشرة في العراق وإيران واليمن، وقد راح ضحيتها أعداد كبيرة من اليهود وغير اليهود. وانتشرت الأمراض بوجه خاص في العراق، ولكن الحكومة العراقية بدأت منذ العشرينيات في تحصين المواطنين ضد الأوبئة مما أدى إلى انخفاض معدل الوفيات، بينما ظلت الأوبئة منتشرة في اليمن حتى منتصف القرن العشرين.

وعلاوة على انتشار الأمراض وعدم توافر الخدمات الصحية، كانت هناك عوامل ساهمت بدورها في تدهور أوضاع اليهود الديموغرافية، فقد تفشت المجاعات في أوساط اليهود وغيرهم من السكان، وفي تزايد معدل وفيات الأطفال، وانتشرت هذه المجاعات بسبب مواسم الجفاف الطويلة التي واجهتها اليمن، كما أدى عدم اهتمام السلطات باستيراد الحبوب بشكل منتظم من الخارج علاوة على عدم اشتغال اليهود

بالـزراعة إلى إلحاق أشد الضرر بـاليهود خاصـة إبان الفترات التي كـانت تتفشى فيها المجـاعـات . وعـلاوة على مواسـم الجفاف التي أدت إلى حـدوث حـالـة من عـدم الاستقـرار، شهدت اليمـن خلال الفترة ١٩٠٣ ـ ١٩٠٥ (حـوزة النفر) حـالـة من القـلاقل والاضطـرابـات نجمت عن استمـرار القتال بين القـوات التركيـة والقـوات الزيـدية المتمردة . وازداد الـوضع سوءاً في عام ١٩٠٥ خـاصة بعد أن فـرضت قوات الإمام يحيى حصاراً صارماً على صنعاء التي تمركز بها الأتراك . ويفيد أحد المصادر أنه لم يتبق في المدينة خـلال هذه الفترة سـوى ستمائة يهودي من بين الثلاثين ألف يهودي الذين كانوا يقيمـون فيها من قبل . وهناك مصدر آخر يقدر عدد اليهـود الذين ماتوا بأكثر من خمسة آلاف يهودي .

وعند دراسـة وضع اليهود الديمـوغرافي فإنه من الضروري أن نـولي قدرا كبيرا من الاهتمام لظاهرة تغيير اليهود لديـانتهم ، التي شاعت في أوساط يهود اليمن وكردستان وبخـارى ، والتي انتشرت بشكل ملحـوظ في أوسـاط الطـائفة اليهـوديـة في إيـران ، فشهدت الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر اعتناق أعداد كبيرة من يهود إيران للإسلام ، ومع ذلك لا توجـد في حوزتنا المعطيات التي من شأنها مساعدتنـا على تعرف حجم ظاهرة تغيير اليهود لديـانتهم ، ولكن كما يبدو أن أعدادا كبيرة من يهود إيران واليمن فضلت أن تعتنق الإسـلام لأسباب اجتماعية ـ اقتصـادية لا يتسع المجال لذكرها .

وشهدت الطـائفة اليهودية في إيـران بدءا من منتصف القرن التاسع عشر ظـاهرة اعتناق بعض اليهـود للديانة البهائيـة . وفي الوقت الذي يرى فيـه بعض البـاحثين أن عشرات الآلاف من يهود إيـران اعتنقوا هـذه الديـانة فإن البعض الآخـر يرى أن قلـة قليلة منهم اعتنقت البهائية . وقد أثيرت في إيران قضية الهوية بشكل واضح في الفترة التي تولت فيها عائلة بهلوي مقاليد السلطة ، وأثيرت هذه القضية بعد أن تمتع اليهود بحق المسـاواة مع الآخـرين ، وبعـد أن تم السماح لهم بـالاندمـاج في حيـاة المجتمع الاجتماعية والاقتصادية . ومن المعروف أن يهود إيران حرصوا طيلة الفترة السابقة لحكم عائلـة بهلوي على إخفـاء هويتهم اليهوديـة ، وقطع صلاتهم مع الطـائفة اليهـودية ، وتبنيهم لأسماء فارسيـة إسلاميـة . وفي الواقع فإننـا لا نجد أثـرا لمثل هذه الظـاهرة في

العراق أو عدن . ونعتقد أن أسباب حرص يهود إيران على قطع صلاتهم بطوائفهم تكمن في إحساسهم بعداء المجتمع الإسلامي لهم ، وعدم إحساسه بالارتياح إزاء حصولهم على المساواة في الحقوق . وربما يكمن هنا أحد أوجه التشابه بين يهود إيران وبين يهود أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية الذين حرصوا أيضا على تغيير أسمائهم ، وقطع صلاتهم بالطائفة من أجل الاندماج بالمجتمع . ولكن لم تسد مثل هذه الظاهرة في سائر بلدان الشرق أو في كردستان واليمن حيث سادت علاقات طيبة بين اليهود والمسلمين حتى فترة الهجرات الكبرى مع قيام دولة اسرائيل .

وفي إطار دراستنا لأوضاع اليهود الديموغرافية فليس من الممكن أن نغفل أهمية عامل سلبي ثالث وهو الهجرة اليهودية ، ولا نعني هنا حركة الهجرة إلى فلسطين بقدر ما نعني حركة الهجرة اليهودية داخل بلدان الشرق أو خارجها . وكان اليهود عادة ما يهاجرون إما لأسباب اجتماعية أو للبحث عن مصادر رزق جديدة ، فهاجرت أعداد كبيرة من يهود إيران إلى البلدان المجاورة وخاصة إلى بخارى ، وقد هاجر يهود مشهد إلى أفغانستان عام ١٨٣٩م ، ومن هنا فإن الغالبية العظمى من يهود أفغانستان تعود أصولها إلى إيران . وقد هاجر يهود اليمن والعراق في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر إلى الهند وبلدان الشرق الأقصى خاصة بعد أن أصبحت هذه البلدان تحت سيطرة القوى الأوروبية عامة وبريطانيا على وجه الخصوص . وهاجرت إبان نفس الفترة أعداد غير قليلة من يهود اليمن إلى الهند بغرض القيام ببعض العمليات التجارية ، وكان يهود العراق الذين هاجروا مثل سائر يهود الشرق إلى الهند ، ومعظمهم من يهود بغداد ، وخاصة في عصر الحاكم المستبد داود باشا ، على قدر كبير من القوة الاقتصادية بالمقارنة بسائر المهاجرين . وقد حافظ هؤلاء المهاجرون على علاقاتهم الاجتماعية والاقتصادية بالعراق ، وبصفة خاصة من الناحية الدينية . وخير شاهد على هذا عشرات الاستفسارات التي وجهت من طوائف المهاجرين إلى الحاخام يوسف حاييم الذي كان يعيش في بغداد للاستفسار عن بعض القضايا الدينية الفقهية ، وهي الاستفسارات التي تضمنها كتابه عن الفتاوى الدينية .

وكان العامل الاقتصادي في العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين واحداً

من أهم دوافع حركة الهجـرة اليهودية من العراق إلى إيران، ونجح هـؤلاء المهاجرون في الحفاظ على خصوصيتهم اللغـوية والاجتماعية، وحرصوا على عدم الانـدماج مع باقي الطوائف. وهناك ظـاهرة مشابهة معروفة من وسط آسيـا، حيث نشأت طوائف يهودية إشكنازيـة من روسيا الأوروبية في أعقـاب احتلال الروس للمنطقـة في الستينيات من القـرن التاسـع عشر. وبهذه الطريقـة فإن عـدد اليهود الأوروبيين في وسـط آسيا كـان مسـاويـا لعـدد اليهود المحليين، وقـد حـافظ هـؤلاء بـدورهم على طـابعهم اللغـوي والاجتماعي والديني الخاص بهم. كما جذبت عدن ومصر اللتان سقطتا تحت الاحتلال البريطاني أعدادا كبيرة من يهود اليمن، سواء لأسباب سيـاسية أو لأسباب اقتصادية، وتعود أصـول أكثر من نصف يهود عـدن إلى أصول يمنيـة، وخاصـة من جنوبها. كما هاجر كثيرون من يهود الشرق وأوروبا إلى عدن نتيجـة لازدهار الوضع الاقتصادي بها. وهاجر كثيرون من يهود اليمن إلى مصر وأقـاموا في مدنها الساحلية الرئيسيـة التي نذكر منها بور سعيد والسويس والإسكندرية.

وبـالـرغم من أن الشرق شهـد في العصر الحديث تحسنـا ملمـوسـا في الأوضـاع الصحية وانخفاضا كبيرا في معدل وفيات الأطفـال إلا أنه لم تحدث أية زيادة ملموسة في تعـداد السكان اليهـود، ويرجع ذلك إلى تغيير أعـداد كبيرة من اليهـود لديـانتهم عـلاوة على هجـرة اليهـود المستمـرة من بلـدانهم، ولكن تعـداد اليهـود ازداد بشكل ملموس في العراق ووسط آسيا وعدن، ففي العراق على سبيل المثال قدر تعداد اليهود في عـام ١٩١٧ بـ ٨٥ ألف نسمـة، ووصل تعدادهم في عـام ١٩٤٧ إلى ١١٨ ألف نسمة بينما كـان تعدادهم في النصف الثـاني من القرن التـاسع عشر حوالي ٥٠ ألف نسمة، وفي وسط آسيا كان تعداد اليهود في عام ١٨٥٦ يقدر بعشرة آلاف نسمة، ثم قـدر في عـام ١٩٢١ بـ ٤٥ ألف نسمـة، ولم تحدث هذه الـزيـادة نتيجـة للعـوامل الطبيعية وإنما نتيجة لهجرة الكثيرين من اليهود الأشكناز من روسيا الأوروبية إلى هذه المنطقة. وفي عدن ارتفع تعداد اليهود بشكل ملمـوس، وخير شاهد على هذا هو أنه بينما قدر عددهم في عام ١٨٣٩ بـ ٢٥٠ يهوديـا فإن تعدادهم قدر في عام ١٩٤٦ بـ ٧٣٠٠ يهودي. وفي الحقيقة فإنـه يجب دراسة التطور الديمـوغرافي ليهود الشرق على ضوء التغيرات التي طـرأت على تعداد اليهـود بالمقارنـة بتعداد السكـان غير اليهود.

ويجب أن نضع في اعتبـارنا أن الطـائفة اليهـوديـة ظلت أقلية في المجتمع حتى إبـان الفترات التي شهـدت فيها زيـادة ملحوظـة في تعـداد السكان، ويـرجع ذلك إلى أن تحسن الأوضاع الصحية والمعيشية في الشرق أدى إلى ارتفـاع تعداد السكان من اليهود وغير اليهود أيضا، ولكن ليس لنا أن نغفل أن تغيير أعـداد كبيرة من اليهود لديانتهم واعتنـاقهم للإسـلام قد أديـا إلى تضاؤل تعـدادهم في المجتمع، علاوة على هـذا فإن حـرص اليهـود على تحديـد النسل أكثـر من المسلمين لعب دورا مهما في تضـاؤل تعدادهم. وحتى تتضح معالم الصورة فإنه يكفينا في هذا المجال معرفة أن يهود بغداد في العصر الحديث لم يشكلوا سوى ٤٩,٩٪ من التعداد الكلي لسكان العراق.

ظاهرة التمدن:

ونعني بهذه الظـاهـرة الانتقـال من ا لقـرية إلى المدينـة، وهي إحـدى الظـواهـر الاجتماعية الـديموغرافيـة التي شاعت في بلدان الشرق طيلـة القرن الماضي، ولم يكن لهذه الظـاهرة وجـود ملحوظ في كل من اليمـن وكردستـان، ولكنها شـاعت بشكل واضح في العراق فشهـد النصف الأول من القرن العشرين تـزايدا ملحوظـا في تعداد اليهـود المقيمين في بغـداد والبصرة، فأظهـر التعداد السكـاني الأول الـذي أجـري في العراق في عام ١٩٢٠ أن تعداد يهود العراق يقدر بـ ٨٧ ألف يهودي، وأظهر أيضاً أن ٥٠٣٠٠ يهودي يقيمون في بغداد، وأن ٧ آلاف يقيمـون في البصرة. وفي عام ١٩٤٧ وصل تعـداد يهود العـراق إلى ١١٨ ألف نسمـة، فكـان تعداد يهود بغـداد يقـدر بـ ٧٧,٥٠٠ نسمة، وكـان تعداد يهود البصرة يقـدر بـ ١٠,٥٠٠ نسمـة. وبينما ازداد تعداد اليهـود بشكل ملحوظ في مدينتي بغداد والبصرة فإنـه انخفض بشكل ملحوظ في سـائر المحافظـات، وخير دليل على هذا أن تعـدادهم في عـام ١٩٣٠ قدر بستـة آلاف نسمة في محافظة الديوانية بينما وصل تعدادهم في نفس المكان في عام ١٩٤٧ إلى ٨٠٩ أنسام، وينطبق نفس الـوضع على محافظة «العمارة» حيث كان تعـداد سكانها من اليهود في عـام ١٩٢٠ يقدر بثـلاثة آلاف يهودي، ولكن وصل تعـداد سكانها في عام ١٩٤٧ إلى ٢١٤٥ نسمة.

وتكمن أسباب استقرار تعداد اليهود في بغداد والبصرة في أنه كانت تتمركز ببغداد كل الجهات الحكومية والإدارية، وأن البصرة كانت مركزا إداريا وتجارياً ضخما، ولذلك شكلت هذه الأماكن قوة جذب اقتصادية لليهود. ولم تشكل بغداد والبصرة مركز جذب ليهود المحافظات الجنوبية فقط، بل هاجر إليهما أيضا يهود كردستان بل ويهود إيران. وإذا كان العامل الاقتصادي قد لعب دورا مهما في حركة الهجرة فإن موقف المجتمع الإسلامي بالعراق تجاه اليهود كان أفضل بكثير من موقف المجتمع الإسلامي في كل من كردستان وإيران تجاه اليهود مما شجع بالطبع على تزايد قوة حركة الهجرة اليهودية إلى العراق.

وشهد إقليم كردستان حركة هجرة ضخمة من القرى إلى المدن الواقعة بجنوب الإقليم مثل الموصل، وأثرت حركة الهجرة هذه في تزايد تعداد السكان اليهود في الموصل، فبينما قدر تعداد يهود الموصل في عام ١٩٠٦ بـ ٣٣٠٠ يهودي فإن هذا العدد قدر في عام ١٩٤٦ بـ ٨٢٠٠ يهودي، ولكن أدى تدهور أوضاع اليهود الاقتصادية والاجتماعية في كردستان خاصة بعد استقلال المملكة العراقية إلى هجرة الكثيرين منهم إلى بغداد.

وشهد اليمن إبان فترة الحكم التركي الممتدة من عام ١٨٧٢ حتى عام ١٩١٨م تزايد قوة حركة الهجرة من القرى إلى المدن وخاصة إلى صنعاء. وكان من بين أسباب تزايد قوة حركة الهجرة إلى صنعاء أنه قد ساد بها قدر كبير من الأمان والاستقرار إبان الحكم التركي الأمر الذي شجع اليهود على الاستقرار بها، وعلاوة على هذا فإن تمركز الإدارات والقوات التركية بصنعاء خلق حالة من الانتعاش الاقتصادي لم تعرف صنعاء مثيلا لها من قبل. وفي المقابل فإن عودة الإمام يحيى إلى السلطة أدت إلى خلق حالة من الركود الاقتصادي باليمن.. وبالرغم من أنه لا توجد في حوزة الباحثين معلومات دقيقة عن تعداد يهود اليمن إبان عهد الإمام يحيى (١٩١٨ ـ ١٩٤٨) إلا أنه من المتصور أنه كان ضئيلا للغاية. أما في إيران فقد تزايدت في العصر الحديث قوة حركة الهجرة إلى المدن، ولم تكن الطائفة اليهودية في طهران وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر بمنزلة أكبر طائفة يهودية في إيران، إذ كان اليهود يتمركزون حتى هذا الحين في مدن شيراز وهمدان وأصفهان وكرمنشاه، ولكن مع بدايات القرن العشرين

أصبح معظم اليهود يتمركزون في طهران . ولم يكن ازدهار الحياة الاقتصادية في طهران بالسبب الوحيد الذي شجع اليهود على الهجرة إليها ، وإنما كان الإحساس بالأمان والاستقرار من أهم العوامل التي شجعت اليهود على الاستقرار في طهران . وقد قدر عدد يهود طهران في عام ١٩٧٠ بخمسين ألف يهودي ، وفي المقابل كان عددهم في شيراز يقدر بـ ٨٥٠٠ يهودي ، وفي أصفهان بـ ٣٥٠٠ يهودي ، أما في مدينة عبدان فلم يتجاوز عددهم في عام ١٩٧٠ الألف نسمة . وهكذا فإن التجمعات اليهودية الصغيرة صفيت تماما تقريبا ، بينما لم تعد الطوائف الأكبر إلا بمنزلة ظل باهت مقارنة بحجمها في الماضي ، مما كان له أكبر الأثر في التنظيم الطائفي .

وكانت حركة الهجرة إلى المدن في العصر الحديث في بعض الأحيان نتيجة حتمية للسياسات التي كانت السلطات تنتهجها إزاء اليهود ، فبينما عاش يهود أفغانستان وآسيا الوسطى الذين اشتغلوا بالتجارة طيلة القرن التاسع عشر في طوائف متفرقة ، فإن يهود أفغانستان تمركزوا في العصر الحديث في مدينتي كابول وهرات ، كما تمركز يهود وسط آسيا في طشقند وسمرقند وبخارى ، وكان تمركزهم في المدن نتيجة طبيعية للسياسة المركزية التي انتهجتها السلطات السوفييتية إزاء اليهود .

تزايد الفروق بين طبقات المجتمع اليهودي

أدت ظاهرتا الهجرة الداخلية وتحسن الأوضاع الاقتصادية إلى تزايد حدة الفروق بين طبقات المجتمع اليهودي خاصة في المدن الكبيرة التي عاش فيها معظم اليهود . وكان من بين مظاهر هذه الفروق أنه في الوقت الذي ازداد فيه في المدن عدد أثرياء اليهود فإنه ازداد في المقابل عدد الفقراء منهم الذين لم يتمكنوا من الاندماج في حياة المدينة .

ولم يكن العامل الاقتصادي هو العامل الوحيد الذي خلق هذه الفروق الطبقية في المجتمع ، فكانت هذه الفروق ناجمة عن بعض العوامل العرقية - الدينية لاسيما أنه كانت للمهاجرين عادات وتقاليد تختلف في طبيعتها عن عادات سكان المدن ، فكان سكان المدن يشعرون دائما بأنه أفضل من المهاجرين القادمين من القرى ، وترسخ هذا الشعور في أذهانهم لأن الوعي الثقافي في المدينة كان أكثر انتشارا منه في القرية .

وأثـرت الفروق الطبقيـة والثقافيـة بـالطبع في وحدة المجتمع اليهـودي وأدت إلى انقسامه إلى طبقـات عديدة، وسنعرض هنـا بعض النماذج التي تدل على اتساع الهوة الثقافية والاجتماعية بين فئات المجتمع اليهـودي. فبينما كان معظم يهود إيران ينتمون إلى الطبقتين المتوسطة والبرجـوازية وبينما كان بعضهم على قدر كبير مـن الثراء عاش بعضهم الآخرفي حالـة لا مثيل لها من الفقر، وكان لهذه الفروق الاجتماعيـة تأثيرها في الأوضاع الثقـافية، فبينما كان أبنـاء الطبقات الثريـة أكثر تأثـراً بالفكر الغـربي وأكثر اندماجا في المجتمع، وأقل حرصاً على التمسك بـالتقاليد والهوية كان أبناء الطبقات الفقيرة أكثر تمسكاً بالتقاليد اليهودية، وأكثر حماساً لفكرة الهجرة إلى فلسطين.

وقد ظهرت في طهـران طبقة من المهاجرين اليهود القـادمين من العراق بحثا عن ظروف معيشية أفضل، وتزايد تعداد هـؤلاء المهاجرين بشكل مطرد فبلغ تعدادهم ٣ آلاف مهـاجـر في عـام ١٩٧٠. ولم يستطع هؤلاء المهـاجـرون أن ينـدمجوا مع اليهـود الإيـرانيين فحـافظـوا على لغتهم وتقـاليـدهـم الـدينيـة، وعملـوا على إنشـاء بعض المؤسسات الخاصة بهم مثل المعـابد والمدارس. وحقيقة الأمر أن الفـروق الثقافية بين يهود طهران وبين أبناء الطـوائف الأخرى كانت ضخمة للغاية خـاصة أن يهود طهران كانوا أكثر اطلاعا من غيرهم على الفكر الأوروبي الحديث.

وكانت الفروق الناجمة عن العوامل العرقيـة ـ الطائفية واضحة بشكل بارز في كل من بغداد (التي هاجر إليها يهود كردستان) وفي عدن (التي هاجر إليها يهود اليمن). وكانت هـذه الفروق في بغـداد ضخمة بسبب اختلاف اللغـة، فكان يهود كـردستان يتحدثون اللغة الآراميـة الحديثة، بينما كان يهود بغداد يتحدثون العـربية. أما في عدن فلم تكن الفـروق بـارزة خاصـة أن حـركـة الهجرة مـن اليمن إلى عدن كـانت دائمـة ومستمرة علاوة على أن يهود البلدين كانوا يتحدثون اللغة العربية.

وسـادت في وسط آسيـا فـروق ضخمـة بين يهود بخـارى الـذين تحدثـوا اللغـة الطاجيقيـة وبين المهاجرين الأشكناز الـذين هاجروا في الستينيات من القـرن التاسع عشر من روسيا أو شرق أوروبا وسط آسيـا. ونظرا لوجود تباينات ثقـافية ضخمة بين يهود بخارى وبين المهـاجرين من اليهـود كانت لكل طائفـة مؤسسـاتها الخاصة بها،

واتخذت الفروق الدينية والحضارية بين الطائفتين طابعا قوميا في العشرينيات من هذا القرن خاصة بعد أن طالب اليهود الأشكناز باستخدام اللغة الطاجيقية «اليديش» * في المدارس اليهودية بدلا من اللغة العبرية ، وأعرب مؤيدو الشيوعية من يهود بخارى عن تأييدهم لهذا المطلب الذي تم فيها بعد تطبيقه في المدارس اليهودية .

وعلاوة على الفروق الاقتصادية والعرقية التي تسببت في خلق حالة لا مثيل لها من التوتر بين طبقات المجتمع اليهودي ، فقد شهد المجتمع اليهودي أيضا خلافات كثيرة بين الاتجاه الداعي إلى التمسك بالتقاليد اليهودية وبين الاتجاه العلماني .

الاقتصاد

تزايد أنشطة اليهود الاقتصادية

كان شأن الطوائف اليهودية في الشرق وحتى منتصف القرن التاسع عشر شأن كل الأقليات الأخرى ، فقد انحصرت أنشطتهم الاقتصادية في ممارسة عدد محدود من المهن فلم يكن يسمح بالعمل في بعض المجالات إما بسبب بعض التشريعات أو بسبب موقف السكان تجاههم . وإذا استثنينا يهود العراق وأفغانستان من هذه القاعدة نجد أن يهود سائر البلدان عملوا في المهن اليدوية أو بالتجارة . ولم يتسع حجم أنشطة اليهود الاقتصادية في هذه البلدان إلا بعد أن تزايد في نهايات القرن التاسع عشر حجم تدخل القوى الأجنبية التي ساهمت في تحسن أوضاع اليهود الاقتصادية والتي أتاحت لهم العمل في كافة الهيئات الإدارية والحكومية .

---

* اليديش : اللغة التي تحدث بها اليهود «الاشكنازيم» اعتبارا من نهاية القرن العاشر أو بداية القرن الحادي عشر. وهي لغة مركبة من عناصر لغوية مختلفة : العبرية ، الأرامية ، والرومانية القديمة ، والألمانية (وهي الأكثر شيوعا) والسلافية . وبمرور الأجيال استوعبت اليديش عناصر لغوية من الإنجليزية والإسبانية ولغات أمريكا الجنوبية .
وقد مرت بمراحل تطور مختلفة : من القرن العاشر وحتى الثالث عشر، ومن منتصف الثالث عشر حتى نهاية الخامس عشر، وخلال القرنين ١٦ ، ١٧ ، والمرحلة الأخيرة من القرن الثامن عشر فصاعدا . كتب بها أدب وشعر وصدرت بها صحف كثيرة وكانت لغة الثقافة بين يهود شرق أوروبا منذ القرن الثامن عشر (المراجع) .

وقد رأت السلطات الأجنبية أنه من الممكن أن تضع ثقتها في اليهود، فاستغل اليهود هذا الوضع بشكل أفضل من المسلمين المحافظين، مما أدى إلى تزايد حدة التوتر بينهم وبين المجتمع المحيط بهم، ولكن لعبت بعض العوامل القومية والسياسية والدينية دورا ضخما في التصعيد من حدة التوتر بين الطرفين، وفي الإضرار بوضع اليهود الاقتصادي.

وازدهرت أوضاع اليهود الاقتصادية في الشرق إبان الفترات التي كانت تقوم فيها القوى العظمى إما باحتلال بلدان الشرق أوبفرض نفوذها عليها. وحينما كانت تسقط هذه البلدان تحت الاحتلال، كان يتم السماح لليهود بالتوسع في أنشطتهم الاقتصادية مما كان يؤدي بطبيعة الحال إلى تحسن أوضاعهم الاقتصادية بشكل ملموس، وفي المقابل كان نجاح القوى الوطنية في التخلص من الاحتلال يؤدي إلى تقلص أنشطة اليهود الاقتصادية.

وحينما سقطت عدن عام ١٨٣٩ في أيدي البريطانيين ألغى الكابتن هاينز Haines الجزية ورفع عنهم كافة القيود الخاصة بالعمل في فروع التجارة، ورحب اليهود بهم، وعملوا على تزويد الجيش البريطاني بالمعلومات التي يحتاجونها عن عدن، كما حرص اليهود أيضا على التقرب إلى السلطة البريطانية، وعلى توفير الأطعمة وكافة احتياجات الجيش البريطاني، وأدى ارتفاع مستوى معيشة الجنود البريطانيين إلى انتعاش التجارة في عدن، ومع مضي الوقت بدأ اليهود في العمل في قطاعي التجارة والخدمات.

وأدى تطوير ميناء عدن الذي أصبح أهم ميناء في الإمبراطورية البريطانية إلى توسع أنشطة اليهود التجارية التي شملت بلدان الساحل الشرقي من افريقيا والمدن الواقعة على قناة السويس والشرق الأقصى. وبينما سمح البريطانيون لليهود بالعمل في مجال التجارة إلا أنه لم يُسمح لهم بالعمل في قطاعي الخدمات والمهن الحرة، حيث فضل البريطانيون تشغيل الموظفين الهنود في هذين المجالين. وذلك بسبب ضرورة العمل يوم السبت، وهو ما لم يكن اليهود يسمحون به. وفيما يتعلق بنشاط اليهود في المجال الصناعي فإنه اقتصر على إنتاج الملابس والسجائر وطباعة الكتب.

وتدهورت أوضـاع اليهود الاقتصادية في عدن بشكل واضح في عقـد الثلاثينيات الذي شهـد تدهـور الوضع الاقتصادي في العـاصمة، عـدن، ولا يمكننا تجاهل أن النـزاع العربي الإسرائيلي ورغبـة عدن في نيل استقـلالها قـد ساهما في تـدهور أوضـاع اليهـود الاقتصاديـة، فشهـدت عـدن آنذاك منـافسـة اقتصـادية عنيفـة بين العـرب واليهـود، اعتمـد العـرب خـلالها على مقـاطعـة المنتجـات اليهـوديـة، وشن بعض العمليات الفدائية ضد التجار اليهود.

وهـاجر معظم يهود عـدن إلى إسرائيل في عامي ١٩٤٨ و١٩٤٩ خـاصة بعـد أن تدهورت أوضاعهم الاقتصادية، ولم يتبق في عدن في نوفمبر عام ١٩٤٩ سوى١٣٠٠ يهودي معظمهم من التجـار الـذين بقـوا لتصفيـة أعمالهم بينما أرسلـوا عـائلاتهم إلى إسرائيل. وعنـدما حصلت عـدن على استقـلالها هاجـر من تبقى من يهود عـدن إلى إنجلترا وليس إلى إسرائيل.

أمـا في اليمن فقـد تحسنت أحـوال اليهـود الاقتصـاديـة بعـد أن سقط اليمن تحت الاحتلال التركـي في عام ١٨٧٢، وعانـى يهود اليمن طيلة الفترة السـابقة للاحتـلال من القلاقل والاضطـرابات التي كـانت تعم صنعاء نتيجة للنـزاعات المستمـرة على السلطة، ومن الغارات التي كـانت تشنها القبائل على العـاصمة اليمنية صنعـاء. ونعم اليمن إبان فترة الحكم التركي بقـدر كبير من الاستقـرار السيـاسي والأمني، وشهـد قـدرا كبيرا من الازدهار الاقتصادي. وساعد هذا الوضع بالطبع على نجاح اليهود في ترويج منتجاتهم. وكان لـوجود أعـداد كبيرة من الموظفين والجنود الأتراك بـاليمن أثر كبير في تنشيط حـركة التجارة. فاستقـرت أعداد كبيرة من التجار اليهود في المدن التي كان فيها لـلأتراك سيطرة شبه مطلقة على مجريـات الأمور، وكان من بين هذه المدن: صنعـاء وعمران وشبام وضمار مناخه. وكان يهود هذه المدن يقدمون خدماتهم التجارية للأتراك وللسكان المحليين، كما عملت قلة قليلة منهم في المجالات الإدارية.

وتـدهـورت أوضـاع اليهود بشكل ملحـوظ خـلال الفترة ١٩٠٣ و١٩٠٥ نتيجـة لما تعـرض له اليمن في هـذا الحين من مـوسم جفاف طـويل أدى إلى حـدوث مجاعة، هـذا بالإضـافة إلى أنه تزايـدت آنذاك قوة الاتجاهـات القومية اليمنية الـداعية إلى التخلص من الاحتلال التركي، كما أن استيراد اليمن لعـدد كبير من السلع من الخارج أدى إلى الإضرار بمصالح التجار اليهود الذين لم يستطيعوا منافسة أسعار المنتجات المستوردة.

وازداد الوضع سوءاً في أعقاب الحرب العالمية الأولى خاصة بعد أن تولى الإمام يحيى كل مقاليد السلطة في اليمن، وبينما وفر الإمام الأمن اللازم لليهود إلا أنه عمل على تحجيم أنشطة اليهود الاقتصادية رغبة منه في السيطرة على كل المصادر الاقتصادية، ولم يكن من الممكن أن تتطور التجارة إبان حكم الإمام خاصة أنه ألغى سياسة الانفتاح التي انتهجها الأتراك، وسعى إلى السيطرة أيضاً على التجارة الداخلية.

ولم يشهد اليمن أية حركة صناعية، واقتصر النشاط الصناعي بها على إنتاج الذخيرة اللازمة للجيش. وبالرغم من أن اليهود بذلوا بعض المحاولات في مجال إنتاج الصابون والحلويات إلا أن هذه الأنشطة لم تغير من وضع اليهود الاقتصادي، وهكذا يمكننا فهم الأسباب التي شجعت يهود اليمن على الهجرة إلى إسرائيل خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٨ و١٩٤٨، وهجرة معظم يهود اليمن خلال السنوات (١٩٤٩ ـ ١٩٥١).

أما في العراق فلم تعد أنشطة اليهود الاقتصادية بدءا من القرن التاسع عشر مقصورة على المجالات التقليدية، فاشتغل اليهود منذ هذا الحين في مجالات كثيرة. وتفيد كتابات الرحالة التي يرجع تاريخها إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى أن غالبية يهود العراق كانوا يعملون في المهن اليدوية والصرافة وفي إنتاج الصابون والزيوت والحلويات والنبيذ، كما عملوا أيضا بالتجارة. وشهدت هذه الفترة ازدياد معدل هجرة العراق إلى الخارج، وخاصة إلى بلدان الشرق الأقصى التي عملوا فيها في مجالي التجارة الداخلية والخارجية؛ وبالرغم من هجرة الكثيرين منهم إلا أنهم حرصوا على الحفاظ على علاقاتهم الاقتصادية والتجارية مع الطائفة الأم في العراق.

وقد ساهم التطور الاقتصادي الملموس الذي حققته بغداد في العصر الحديث في أن بغداد أصبحت أكثر أهمية من حلب ودمشق والموصل. وتفيد إحدى كتابات الرحالة التي يرجع تاريخها إلى عام ١٨٤٨ أن يهود بغداد سيطروا بشكل مطلق على حركة التجارة مع الهند. وإذا كان العصر الحديث قد شهد تزايد ثراء بعض التجار اليهود، فقد تزايد أيضا في نفس الحين عدد فقراء اليهود

في بغداد، ومن المرجح أن حركة الهجرة الضخمة من القرية إلى المدينة، علاوة على اندثار بعض المهن التقليدية التي اشتغل بها اليهود، أديا إلى تزايد عدد الفقراء اليهود في بغداد.

وكان لسياسة التنظيمات التي انتهجتها السلطة العثمانية تجاه غير المسلمين فضل كبير على اليهود، فأتاحت هذه السياسة لهم فرصة استغلال حالة الازدهار الاقتصادي بالعراق، وأتاح حرص اليهود على تعلم اللغات الأجنبية مثل التركية والفرنسية والإنجليزية فرصة التوسع في أنشطتهم التجارية، وتولي بعض المناصب القيادية في الدولة.

ومن المتصور أيضا أن اشتغال اليهود بالصرافة واطلاعهم الواسع على العلوم الحديثة أتاحا لهم فرصة المساهمة في تطوير نظام البنوك، ولاشك أن اتساع نطاق العمليات التجارية بالعراق ساهم في إنعاش وتطوير أسواق المال التي أصبحت إبان الربع الأخير من القرن التاسع عشر تحت سيطرة اليهود. وقد تأسس في عام ١٨٨٠ في بغداد البنك العثماني الذي كان أول بنك حديث في العراق، ثم أقيمت بنوك أخرى كان معظم المشتغلين فيها من اليهود. وبينما أضر نظام البنوك الحديث باليهود الذين عملوا بالصرافة إلا أنه أتاح لهم فرصة التغيير من نظامهم التقليدي في الصرافة، وفرصة إقامة بعض البنوك اليهودية التي كان منها بنك زليخة وبنك كريدت وبنك عبودي، وهي البنوك التي أصبحت من أبرز المؤسسات المالية في العراق.

وتسببت سيطرة اليهود على أسواق المال في تعرضهم للاضطهاد من قبل الأتراك الذين زعموا أن اليهود تسببوا في انهيار قيمة العملة التركية، وأعرب اليهود بسبب هذا الاضطهاد عن تأييدهم للبريطانيين، فأصبح اليهود بعد احتلال بريطانيا للعراق يتحكمون في اقتصاد العراق، فتولى اليهودي ساسون يحزقيال منصب وزير المالية في حكومة الانتداب البريطاني في العراق، كما سيطر اليهود على ما يربو على ٩٠٪ من حركة الواردات وأعمال المقاولات. وشغل اليهود أيضا ٥٠٪ من حجم الوظائف الحكومية، وعمل الكثيرون منهم في مجالات التدريس والطب والصيدلة والصحافة والمحاماة، ولعبوا أيضا دورا بارزا في الحياة الفنية والأدبية. وتسنى لليهود لعب هذا الدور البارز في حياة المجتمع بفضل حصولهم على قدر كبير من التعليم. أما عن

المرأة اليهودية في المجتمع العراقي فقد كان أكثر أهمية من دورها في سائر بلدان المشرق؛ ذلك لأن المرأة بالعراق حظيت على قسط وافر من التعليم والمعرفة * .

وقد أدى تأييد يهود العراق للبريطانيين إلى تدهور علاقاتهم بالمسلمين الذين وقفوا في مواجهة السلطة البريطانية، ولذلك تدهورت أنشطة اليهود الاقتصادية بعد حصول العراق على استقلاله في عام ١٩٣٢م، فعملت الحكومة العراقية على التقليل من عدد اليهود المشتغلين بالأجهزة الحكومية، وحرصت على سن قوانين تتيح للمسلمين فقط فرصة العمل في مجال الصناعة. وأضر موقف السلطة والسكان بصغار الموظفين والتجار من اليهود. أما كبار التجار اليهود فقد استمروا في بمزاولة أعمالهم دون أي إزعاج، وبدأت الحكومة العراقية بعد الحرب العالمية الثانية في اتخاذ العديد من الإجراءات ضد أثرياء اليهود، فقامت في الحادي والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٩٤٨ بحرمان التجار اليهود من حق التصدير والاستيراد، كما أعدمت في شهر ديسمبر من نفس العام التاجر اليهودي شفيق عدس بعد أن اتهمته بمزاولة بعض الأنشطة الصهيونية والشيوعية، وصادرت السلطات العراقية كل ممتلكات اليهود عند سماحها لهم بالهجرة إلى فلسطين، والخروج من العراق.

ـ ويتضح لنا مما تقدم أن يهود العراق عملوا في التجارة وفي مجالات الخدمة والمهن الحرة، وأن قوة الأنشطة اليهودية في هذه المجالات ازدادت إبان فترة الانتداب البريطاني. وتفوق اليهود على غيرهم بسبب حصولهم على قسط وافر من التعليم وبسبب إجادتهم اللغات الأجنبية. ولكن تزايد قوة المشاعر القومية، وتزايد حدة النزاع العربي الإسرائيلي أديا إلى عدم استقرار وضع اليهود في العراق، ومن هنا اضطر يهود العراق للهجرة في مرحلة لاحقة إلى فلسطين.

وفيما يتعلق بالطوائف اليهودية في كردستان فلم تتأثر بالمتغيرات التي كان لها أكبر الأثر في حياة يهود العراق، خاصة أن البنية الاقتصادية ليهود كردستان اختلفت

* سيلاحظ القارىء من خلال المعلومات الواردة في الكتاب عن وضع يهود العراق وكردستان أن أحوالهم قد خضعت لحالات من المد والجزر، وذلك لاعتبارات سياسية حينا ودينية أحيانا أخرى، ولكنهم لم يتعرضوا لأشكال دائمة من الاضطهاد أو مصادرة أنشطتهم في المجالات الاقتصادية أو بالنسبة للحقوق الدينية والسياسية بشكل متواصل (المراجع).

اختلافا جوهريا عن نظيرتها في أوساط يهود العراق. وقد اشتغل معظم يهود كردستان سواء من الذين أقاموا بالقرى أو بالمدن بالصرافة والخياطة والحدادة والنجارة، كما شاعت في أوساطهم ظاهرة العمل في مجالي النقل النهري والزراعة، كما عمل البعض منهم في مجال نقل البضائع من المدن إلى القرى، وعملت قلة قليلة من يهود الموصل - التي كانت مركزا تجاريا مهما في القرن التاسع عشر - في مجال التجارة الدولية لاسيما أن الموصل كانت تسيطر على الطريق التجاري البري الممتد من حلب إلى إيران، ومنها إلى الهند، ثم تضاءلت أهمية الموصل التجارية بعد افتتاح قناة السويس، وبعد أن تزايدت الأهمية التجارية لمدينتي بغداد والبصرة. وعمل يهود كردستان أيضا بالزراعة، حيث عمل ٢٠٪ منهم في هذا المجال.

ولم يجن يهود كردستان أي استفادة تذكر من ازدهار العراق الاقتصادي، ذلك لأن النظام القبلي ظل سائدا في كردستان حتى في ظل الفترة التي كان فيها العراق تحت حكم الأتراك والإنجليز، ومع هذا لم يطرأ أي تغيير ملموس على وضع اليهود الذين يعيشون تحت رحمة قادة القبائل، كما لم يؤسس في هذه المنطقة أي نظام تعليمي حديث يتيح لليهود فرصة اكتساب قدر كبير من الثقافة، وبينما أدى اكتشاف النفط في منطقتي كركوك والموصل إلى تحسن أوضاع اليهود المقيمين بها، إلا أن هذا الوضع ألحق أشد الضرر بالزراعة حيث فضل الكثيرون العمل في المصانع الحديثة التي أنشئت بعد اكتشاف النفط.

ومع تزايد قوة الاتجاهات القومية - الدينية تدهورت أوضاع اليهود الاجتماعية في العراق. وبينما تحسنت أوضاع اليهود إبان فترة الانتداب البريطاني التي دامت خلال عامي ١٩١٧، ١٩٣٧ فإن تزايد قوة الاتجاهات القومية الدينية بعد حصول العراق على استقلاله أدى إلى فصل أعداد كبيرة من اليهود من العمل، وتعرض التجار اليهود أيضا إلى أضرار بالغة خاصة أن المسلمين لم يسددوا لهم ثمن مشترياتهم.

وبشكل عام يمكننا قول إن وضع يهود كردستان قد تدهور في النصف الأول من القرن العشرين بسبب تدهور الأوضاع الزراعية والتجارية، علاوة على تزايد قوة المشاعر القومية في أوساط المسلمين.

وفيما يتعلق بيهـود إيران فإن الاتجاه الشيعي السـائد في إيران تبنى مـوقفا عـدائيا تجاههم، وتسبب هـذا العـداء في حـرمـان اليهـود من لعب أي دور بـارز في حيـاة الـدولـة، وفي فرض قيـود عـديـدة عليهم. واشتغل معظم يهود إيـران في مجال نقل البضـائع والسلع من القـرى إلى المدينة، وعمل يهود شمال إيـران في مجال الـوساطـة التجارية مع روسيا التي كانـوا يصدرون إليها الجلود والسجاد، ونتيجة لأن المسلمين كانـوا لا يعملون في مجال تقـديم القروض بمـوجب تعاليـم الإسلام فقد أصبـح هذا المجـال حكرا على اليهـود، وتسبب العمل بالقـروض في أحيان كثيرة في إلحاق أشـد الضرر باليهود خاصة حينما كان يعجز السكان المسلمون عن تسديد ديونهم.

وطـرأت في بدايـات القرن العشرين فقـط تحولات عديـدة على أوضاع اليهـود في إيران، خاصة بعد أن حصلت أعداد كبيرة من يهود إيران على قدر كبير من الثقافة، بالإضـافة إلى أن هـذه الفترة شهدت تزايـد قوة الحركـة الليبرالية بإيـران، وهي الحركة التي سعت إلى تطبيق نظم الحكم العلمانية بالسلطة. وتمثلت مظـاهر هذا التحول في تنـوع أنشطة اليهـود الاقتصاديـة فاشتغلت أعـداد كبيرة منهم في الجيش، وفي كافـة الأجهزة الحكومية، كما شغل بعضهم مكانة اقتصـادية بارزة في الدولة وفي الواقع فإن الآمال التي عقـدها اليهـود على تولي رضـا شاه بهلـوي لمقاليـد السلطة بإيـران باءت بالفشل، خاصة أن السياسة المركزية التي اتبعها بعد الحرب العالمية الأولى تسببت في تعرض التجـار اليهود الـذين عملوا بـالتصديـر إلى أضرار بالغـة، فكانت السيـاسة القوميـة التي انتهجها الشاه تـرمي إلى فرض السيطرة على كـافة الأنشطة الاقتصـادية بالدولة مما أدى إلى تفشي الفقر في أوساط يهود إيران، ومع هذا تحسنت أحوال اليهود الاقتصاديـة بشكل ملموس بعد أن تـولى محمد رضا شاه مقـاليد السلطة بإيـران بعد الحرب العالميـة الثانية. وازدهـر الاقتصاد الإيـراني في هذه الفترة نتيجة للمسـاعدات التي قدمتها الـولايات المتحدة الأمريكية إلى إيران عـلاوة على ظهور البترول. ونتيجة لأن الشاه تبنى سياسـة ليبرالية حرة فإن اليهود شاركوا بقـوة في الحياة الاقتصادية، ولم تقتصر أنشطتهم الاقتصادية على التجـارة وعملوا أيضا في مجالي السياحـة والفندقة، كما عمل الكثيرون في مجال الطب والصيدلة والمحاماة والتدريس بالجامعات.

وقد كـان لهذا التحول في واقع الأمـر تأثيره في الطبقات الغنيـة التي قررت الخروج من

الجيتو، أما الـوضع الاقتصادي للطبقات الفقيرة فقد ظل على ماهو عليـه، واستمر أبناء هذه الطبقـة يشتغلون في نفس المهن التقليـدية . وكـان يهود هذه الطبقـة أكثر حـرصا من غيرهم على الهجرة إلى إسرائيل . ويفيـد تقرير الوكـالة اليهودية الصـادر في عام ١٩٦٦ أن الأثرياء مـن يهود إيران شكلوا ما يتراوح بين ٨٪ و١٠٪ من يهود إيران بينها تـراوحت نسبة أبناء الطبقة المتوسطة بين ٤٠٪ و٤٥٪ كما قدرت نسبة الفقراء منهم بـ ٥٠٪ .

وفيما يتعلق بالبنية الاقتصـادية ليهود أفغانستان فإن المتغيرات الاقتصـادية التي شهدتها أفغـانستان في العصر الحديث ألحقـت ضررا كبيرا بأنشطة اليهـود الاقتصـادية، فكـان يهود أفغانستان يشتغلون حتـى نهايات القرن التاسع عشر بالتجارة والصرافـة وصناعة السجاد، وتقديم القـروض، بينما اكتفت أعداد كبيرة منهم في العصر الحديث بـالاشتغال بـالتجارة بعد أن عجزت منتجاتهم عن منافسة المنتجات الأجنبية، وعملت قلة قليلة منهم إبان القرن العشرين بـالخياطـة والحدادة والتجـارة، ثم اختفت إبـان هذا القـرن ظـاهرة عمل اليهـود بـالصرافة وصنـاعة السجـاد لاسيما أن مكـاسب العمل في هذين المجـالين كـانت متدنيـة للغاية . وكـان ليهود أفغانستان وجـود ملحوظ في مجالي التجارة المحلية والـدولية، فعملت أعـداد كبيرة منهم في مجال التصـديـر والاستيراد فكـانـوا يصـدرون الأصـواف والسجـاد، ويستوردون النسيـج . وأقامت أعـداد كبيرة من يهود أفغانستـان، ولأغراض تجاريـة بحتة، في كل من لنـدن وليبزج، وفي عدة مـدن أخرى في الهنـد وروسيا . وقـد سمحت السلطات الأفغانيـة لليهود بالإقـامة أينما شاؤوا، إلا أن اليهود فضلـوا دائماً الإقامة في مـدينتي هرات وكابول بسبب استقرار الأوضاع الأمنية بهما، وانعدام الأمن في الطرق والمدن البعيدة .

وتسببت الحرب العالميـة الأولى في إلحاق ضرر بالغ بـالتجار اليهود في أفغـانستان حيث خسرت أعـــداد كبيرة منهم ممتلكـاتهم، وفــرضت السلطـات بعــد حصــول أفغانستان على استقلالها في عام ١٩١٩ بعض القيود على اليهود كان من بينها منعهم من ممارسة أيـة مهنة أخرى ما عدا التجارة . وبعد أن اغتيـل نادر شاه في عام ١٩٣٣ تـزايدت قـوة الاتجاه الداعي إلى حصر كل الأنشطـة التجـارية في أيـدي السلطة ممـا تسبب في إلحاق أشد الضرر بـاليهود، فمنحت السلطـات الشركات الحكـومية فقط حق القيام بعمليات التصديـر والاستيراد، ومنعت اليهود من العمل في هذا المجال . وتعرض اليهود إبـان عهد رضا شاه إلى بعض المضايقـات الاقتصادية حيث لم يسمح

لهم بـالعمل بالصرافـة وتقـديم القـروض بعد أن وافق رضـا شـاه على إقـامة البنـوك بأفغانستـان . ومما لاشك فيـه أن السياسة القـومية المتطرفـة التي انتهجتها الحكـومة الأفغانيـة تسببت في إلحاق أشد الضرر بكبار التجار اليهـود، فقد ألزمتهم الحكـومة بامتـلاك عدد محدود من المتاجر، وبـالعمل في تجارة النسيج فقط . ومع هذا منحتهم الحكومـة حق شراء أسهم الشركات الحكوميـة . وبشكل عام فإنه يمكننـا القول بأن معظم يهود أفغانستـان في عقد الأربعينيـات من هذا القرن كـانوا من الفقـراء، وكان شأنهم في هذا المجال شأن يهود إيران جيرانهم في الغرب .

وفيما يتعلق بيهود بخارى فإن المصادر اليهوديـة تفيد بأن اليهود دخلوا بخارى في القـرن الرابع عشر، بعـد أن دعـا أمير بخارى يهود أفغـانستـان ودمشق للاستيطـان بـالإمارة، وتفيـد نفس المصـادر بأن اليهود تلقـوا هذه الـدعـوة بعد أن أبـدى الأمير إعجابـه الشديـد ببعض المنسوجات اليهـودية، وكانت الأنشطـة الاقتصاديـة ليهود وسط آسيا تنحصر في المنسوجات .

وطرأت تحولات ملمـوسة على أنشطـة اليهود الاقتصـادية بعـد أن احتلت روسيا وسط آسيـا في الستينيات والسبعينيـات من القرن التـاسع عشر، وكـان من مظاهـر التحولات أنه تم السماح لليهـود بالعمل في مجالي الزراعة والصنـاعة . وفي ظل الحكم الـروسي لهذه المنطقة كـانت أنشطة اليهـود الزراعيـة تتمثل في زراعة القطن والكـروم وأشجار الـزيتون . أمـا أنشطتهم الصناعية فإنها اعتمـدت على منتجاتهم الـزراعية، ولكنهـا شملت أيضـا إقـامـة مصـانع لصبـاغـة النسيج وسـاهمت أنشطـة اليهـود الاقتصادية في تطـوير اقتصاديات المنطقة، واستغل اليهود تطـور شبكة المواصلات لتطوير أنشطتهم التجارية .

وحدث تحول ضخم في أنشطة اليهود الاقتصادية بعد قيام الثورة البلشفية في عام ١٩١٧، وكـان هذا التحـول نتيجـة للسياسـة التي انتهجهـا النظام الشيـوعي تجاه اليهود، ونتيجة لأن اليهود كانوا على قدر كبير من الثقافة، أضف إلى هذا أن ثقافتهم الرفيعـة ساعدتهم على الاشتغال في مهن عـديدة، فاشتغلت أعـداد كبيرة من اليهود بـالطب والصيـدلة والتـدريس والأدب . وفي المقـابل تضـاءل دور اليهود في الحيـاة السيـاسية والحزبيـة بسبب العداء الـذي تعرضـوا له من قبل الحزب الشيـوعي . وفي

العشرينيات من هذا القرن بذلت بعض المحاولات لتوطين اليهود في المزارع الاشتراكية (الكولوخوز)، وفي عام ١٩٣٢ كان قد تم بالفعل توطين ٣٥٠٠ يهودي في هذه المزارع، ولكن باءت هذه التجربة بالفشل بسبب عدم صلاحية الأراضي الزراعية وبسبب عداء السكان المحليين لهم.

امتهان اليهود للوساطة التجارية بين الشرق والغرب

لم تشكل بلدان الشرق باستثناء بلدان وسط آسيا والقوقاز عامل جذب لليهود الأوروبيين، ولكن بعد أن احتل الروس مناطق شاسعة من وسط آسيا بدأ اليهود الأشكناز يفدون إلى المنطقة من روسيا القيصرية. وهكذا أصبحت الطوائف اليهودية في هذه البلدان خليطا من اليهود السفاراد والأشكناز، وساهمت هذه الطوائف التي كان معظم أهلها من التجار في توثيق العلاقات الاقتصادية بين بلدان الشرق والدول الأوروبية. ومن الخطأ أن تصور أن اليهود الأوروبيين أقاموا في بخارى فقط، فقد أقام بعض التجار اليهود الأوروبيين في بغداد إبان الاحتلال التركي والانتداب البريطاني، فأسس أحد اليهود الألمان في بغداد على سبيل المثال مصنعا للنسيج، ولكن لم يقبل اليهود الأوروبيون على الإقامة في إيران أو اليمن أو أفغانستان. أما اليهود الذين أقاموا في هذه البلدان فكانوا على صلة وثيقة بالسلطة، فكان يعقوب فولاك على سبيل المثال هو الطبيب الخاص للشاه ناصر الدين إبان عقد الخمسينيات من القرن التاسع عشر.

وبشكل عام يمكننا قول إنه كان لليهود وجود قوي في البلدان التي لم تكن أنظمتها تعاديهم، فاستوطن الكثيرون من التجار اليهود اليمن خلال الفترة الممتدة من عام ١٨٧٢ حتى عام ١٩١٨ أي حينما كان اليمن خاضعا لسيطرة الإمبراطورية العثمانية، كما أقام الكثيرون منهم في مدينتي الحديدة وصنعاء، ولعب هؤلاء التجار دور الوسيط التجاري بين بلدان الشرق وأوروبا، وبرز اليهود في مجال الوساطة التجارية بعد أن تسببت المتغيرات الاقتصادية والسياسية في انهيار كل من الصناعة والزراعة في بلدان الشرق، كما أنه كان لليهود تراث عريق منذ القرون الوسطى في الاشتغال بالتجارة بين حوض البحر الأبيض المتوسط وبين شبه القارة الهندية، ومع هذا تسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بالشرق وانقطاع علاقاتهم بالطوائف اليهودية الأجنبية في تضاؤل نصيب اليهود في عمليات التجارة الدولية.

وأسفر تـزايد نفوذ الـدول الغربية في بلـدان المشرق بسبب مصالحهم الاقتصـادية بدءا من منتصف القـرن التاسع عشر عن حدوث تحول ملموس في اقتصـاديات هذه البلدان التي شهدت تطـورا ملموسا خاصـة في مجال التجارة، فأقيمت في هذه الفترة شبكـة مواصـلات حديثـة، وأصبحت طـرق النقل البحري أفضل وأكثـر أمانـا مع اختراع السفن البخارية في الثـلاثينيات من القرن التاسع عشر. أمـا اليهود فقد تبنت السلطات الأوروبيـة والأنظمة المحليـة في نفس الفترة مواقف أفضل تجاههـم، وكان من ضمن العوامل التي سـاعدت على تطور وضع اليهود في هـذه البلدان أنه أقيم في أوسـاط اليهود نظـام تعليمي حديث سـاعـد على الارتقاء بثقـافتهم، كما ساعـدت العلاقات الوثيقـة التي أقامها التجار اليهود في الشرق مع أوروبا ومعـرفتهم باللغات الأجنبية على التفوق على التجار المحليين.

وفي واقع الأمر كـان يهود الشرق أكثر اهتماما من التجـار المسلمين بتوسيع حجم أنشطتهم التجارية، فشهد النصف الثاني من القـرن الثامن عشر، ولدوافع اقتصادية تزايـد قوة حركـة الهجرة من اليمن إلى الهند، فهـاجرت في نهايات القـرن الثامن عشر وإبـان القـرن التاسع عشر أعـداد كبيرة من يهود العـراق إلى بلـدان الشرق الأقصى. وشكل المهاجرون في البلدان التي حلوا بها قوة اقتصادية ضخمة، وشملت أنشطتهم الاقتصـاديـة العديـد من الـدول الأوروبيـة، فـاستقرت أعـداد كبيرة منهم في مـدن إنجليزية كثيرة، ولذلك كان لهم وجود ملحوظ في مدينتي لندن ومانشيستر.

وبعد أن سقطت عدن تحت الاحتلال البريطاني اتسع حجم العمليات التجارية التي كـان يقوم بها اليهـود، ولذلك شملت أنشطتهم كل المدن الـواقعة على سـاحل البحر الأحمر بل ووصلت إلى بورسعيـد. وفي إيران أقام التجار اليهود عـلاقات وثيقة مع الهنـد وروسيـا، وشملت صادراتهم لهذيـن البلدين السجـاد والنسيج والأحجـار الكريمـة، ولكن تعرضت أنشطة يهود الشرق إلى ضرر بـالغ بعد أن تبنت حكـومات هذه البلـدان في العصر الحديث سياسة قـومية متطرفـة دعت إلى حصر كل الأنشطة التجـارية في أيـدي الحكـومـة. ونستثني إيران مـن هذا الـوضع، حيث ظل اليهـود يعملون فيها بالتجارة حتى في عهد آية الله الخميني.

القوة الاقتصادية للعائلات اليهودية

لم تظهر العائلات اليهودية بالغة الثراء إلا في البلدان التي نعم فيها اليهود بالمساواة، والتي ساد فيها على مدى فترة طويلة قدر كبير من الاستقرار السياسي، ولذلك لم تظهر العائلات اليهودية الثرية في اليمن وكردستان، وإن كان قد ظهر إبان الحكم التركي لليمن ثري يهودي يدعى أهارون شحب، وأطلق عليه لقب ملك البن لأنه كان مسيطرا على تجارته. وكانت عائلة حبشوشي اليهودية هي العائلة اليهودية الوحيدة التي وصلت إبان عهد الإمام يحيى إلى قدر كبير من الثراء.

وفي عدن كانت عائلة ميسة (موسى) وخاصة أحد أبنائها ويدعى بنين من أكثر العائلات اليهودية ثراء، وكانت أنشطتها التجارية تشمل الاستيراد والتصدير، ووصلت أنشطتها إلى كل من انجلترا وأمريكا. وقد أشار أحد الرحالة الذين زاروا عدن في عام ١٩١١ إلى أن ثروة العائلة تقدر بحوالي مليون جنيه استرليني، ويرجع إلى مناحيم موسى رئيس هذه العائلة فضل تكوين كل هذه الثروة حيث كان يعمل في خدمة الجيش البريطاني. وقدمت هذه العائلة مساعدات سخية إلى يهود اليمن الذين توجهوا إلى عدن في طريقهم إلى فلسطين، ولكن عندما تزايدت في عدن خاصة في عقد الأربعينيات من القرن العشرين، لا سيما بعد أحداث ١٩٤٧، قوة التيارات القومية نقلت هذه العائلة معظم ممتلكاتها إلى دول أخرى، وبصفة خاصة إلى انجلترا، ولعلنا لسنا في حاجة إلى القول بأن تدهور نفوذ هذه العائلة لم يحل دون تدهور وضع اليهود في اليمن خلال تلك الفترة بالرغم من علاقاتها الوثيقة بالسلطات البريطانية.

وفيما يتعلق بإيران فلم تظهر بها حتى الحرب العالمية الأولى أية عائلة يهودية ثرية، ذلك لأن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ليهود إيران طيلة الفترة الممتدة من القرن التاسع عشر وحتى الحرب العالمية الأولى كانت متدهورة للغاية، وفي المقابل شهد عهد محمد رضا شاه ظهور بعض العائلات اليهودية الثرية. فكان يوجد بطهران في عام ١٩٧٥ حوالي اثني عشر مليونيرا يهوديا. وساهمت رؤوس الأموال اليهودية في توثيق العلاقات الاقتصادية والسياسية بين إيران وإسرائيل، ولكن لم يكن بمقدور رأس المال اليهودي تغيير موقف الخميني تجاه إسرائيل، فمنذ أن اعتلى الخميني

السلطة في عام ١٩٧٩، تم إعدام ما يربو على عشرة يهود فضلا عن العشرات الذين ألقوا في المعتقلات. ومع هذا يبدو أن رؤوس الأموال اليهودية في إيران تساعد في الحفاظ على أمن الطائفة اليهودية، لأن النظام يستفيد، بشكل أو بآخر من هذه الأموال. وخلاصة القول أن يهود إيران، بسبب عدم الاستقرار السياسي، يفضلون تهريب أموالهم إلى الخارج، مادام هذا الأمر يمكن ألا يهدد حياتهم بالخطر.

وفي أفغانستان نجح عدد كبير من اليهود في جني ثروات طائلة من أنشطتهم التجارية التي مارسوها إبان فترة حكم الحاكم الليبرالي أمان الله خان (١٩١٩ ـ ١٩٢٩). وكان موسى جول من أبرز أثرياء اليهود هناك، ولم تقتصر أنشطته التجارية على تصدير القطن إلى روسيا، بل أسس بعض المصانع لإنتاج الزيوت والصابون، ولكن بعد أن وجهت إليه تهمة العمالة لروسيا اضطر لوقف كل أنشطته التجارية، وكان هذا هو نهاية ثرائه.

وفي بخارى جمعت عائلات يهودية كثيرة أموالا طائلة بعد أن قامت العديد من المصانع لإنتاج الغزل والنسيج، وكانت هذه العائلات تصدر منتجاتها إلى دول أوروبا الشرقية، وكان من بين العائلات اليهودية الثرية هناك عائلات: دافيدوف ويهوديوف، وعدديايوف، ويوزيالوف. وكان لهذه العائلات بعض الفروع التجارية ليس فقط في آسيا وإنما أيضا في روسيا، ثم انتهى العهد الذهبي ليهود بخارى بعد أن أقيم بها النظام البلشفي الذي تعرض اليهود في ظله للاضطهاد. وقد استطاعت بعض العائلات تهريب أموالها إلى مدن أوروبا الغربية، وخاصة إلى لندن، وكانت هذه الأسر تقدم مساعدات سخية للطوائف اليهودية في الداخل والخارج، وبصفة خاصة للاستيطان الصهيوني في فلسطين بكل طوائفه.

وكانت العائلات اليهودية في العراق على قدر كبير من الثراء وكان منصب وزير الخزانة (صراف باشا)، خلال فترة حكم الباشوات المماليك (١٧٥٠ ــ ١٨٣١)، عادة من نصيب أحد اليهود الأثرياء العاملين في المجالات المالية، وكان بحكم مكانته هذه يرأس الطائفة اليهودية. وكان الشيخ ساسون من أبرز أثرياء اليهود وزير الخزانة في ظل الفترة العثمانية مما أتاح له فرصة رئاسة الطائفة اليهودية في بغداد منذ عام ١٧٨١ حتى عام ١٨١٧. وقد فر إلى إيران بعد أن تعرض للاضطهاد من قبل

الحاكم داود باشا ثم فر ابنه أيضا من العراق بعد فترة وجيزة من هروب أبيه، ثم هاجرا إلى الهند، وشكلت عائلة ساسون هناك قوة اقتصادية ضخمة، ولم يقتصر نشاطها التجاري على منطقتي المحيط الهندي وبلدان الشرق الأقصى وإنما شملت أنشطتها البلدان الأوروبية عامة وانجلترا على وجه الخصوص. وعملت هذه العائلة في تجارة الأفيون، ولذلك كانت على درجة ضخمة من الثراء الفاحش، وأطلق البعض على هذه العائلة لقب «روتشيلد الشرق». واستغلت هذه العائلة الوضع الاقتصادي الجديد الذي ظهر في أعقاب احتلال بريطانيا للعديد من دول الشرق الأقصى، وأقامت فروعا تجارية خاصة بها في هذه الدول. وفي نهايات القرن التاسع عشر هاجر عدد كبير من أبناء هذه العائلة إلى إنجلترا فأسس الحاخام ديفيد ساسون مكتبة في العاصمة البريطانية لندن لبيع المخطوطات النادرة، وشارك أبناء هذه العائلة أيضا في الحياة الاجتماعية والسياسية بإنجلترا، بل وشغل أحد أبنائها إبان الحرب العالمية الثانية منصب وزير بمجلس العموم البريطاني.

وكانت عائلة خوري من أبرز العائلات اليهودية التي حققت نجاحا تجاريا ملموسا في الشرق الأقصى، وكان صالح خوري مؤسس هذه العائلة من أبرز يهود العراق، وتوفي في عام ١٨٧٦. وقد هاجر اليعازر أحد أبنائه إلى الهند في عام ١٨٥٠، ثم أصبح من الأثرياء ووصلت تجارته إلى مدن الصين، مثل شنغهاي وهونج كونج.

وكان لكل العائلات اليهودية الثرية نشاط تجاري ملحوظ في الشرق الأقصى، ونتيجة لتدني المستوى الاقتصادي والاجتماعي للسكان في بلدان الشرق الأقصى، فقد وجد يهود العراق الذين هاجروا إلى هذه البلدان حريتهم في مجال التصدير والاستيراد، ولاشك أن تحسن طرق المواصلات البحرية، وسيطرة بريطانيا المطلقة على الطرق البحرية الواقعة بين أوروبا والهند والصين ساعدا العائلات اليهودية على تحقيق قدر ضخم من الثراء، كما كان للاستقرار السياسي الذي عم المنطقة خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين دور أساسي في تمكين اليهود من السيطرة على المنطقة. وقد تميزت هذه العائلات بالتصدق والمساعدة الاجتماعية فأقامت المدارس، ودور اليتامى، والمعابد والمستشفيات أو ساهمت في إنشائها سواء في العراق أو فلسطين. ومن أشهر

العائلات التي اشتهرت في هذا المجال عائلة خدوري، التي اتسع مجال مساعداتها إلى غير اليهود، وبصفة خاصة لعرب فلسطين، ولأبناء شعوب أخرى في الهند والصين وفرنسا وانجلترا وغيرها.

وحققت بعض العائلات اليهودية في نهايات القرن التاسع عشر قدرا كبيرا من الثراء، ولم يكن هذا الثراء نتيجة لهجرتها لبلدان الشرق الأقصى، وإنما نتيجة لتزايد نفوذها الاقتصادي في العراق، وساهم افتتاح قناة السويس إلى حد كبير في ازدهار النشاط الاقتصادي بالعراق، وتزايد ثراء العائلات اليهودية. وكانت عائلتا زيلخا وعبودي من أكثر العائلات اليهودية ثراء بالعراق، وحققت العائلتان قدرا ضخما من الثراء نتيجة لأنشطتها المالية الواسعة النطاق. فقدر رأس مال البنك الذي أسسه خدوري زيلخا في عام ١٨٩٩ بمائتين وخمسين مليون دولار. وقد وصلت أنشطته التجارية إلى كل من لبنان ومصر وسوريا والولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا وأمريكا الجنوبية والشرق الأقصى. ونتيجة لسيطرة يهود العراق على حركة أسواق المال فقد ألحق رحيلهم عن العراق في عام ١٩٥٠ أشد الضرر بنظام البنوك في العراق.

ويمكننا في هذا المجال القول إن العائلات اليهودية الثرية بالعراق تميزت عن غيرها من العائلات اليهودية الثرية في الشرق ليس فقط من ناحية كونها على قدر كبير من الثراء الفاحش، وإنما أيضا من ناحية أن أنشطتها تجاوزت حدود العراق.

ونستخلص هنا أن تزايد تأثير القوى الأوروبية العظمى على الشرق كان في صالح يهود الشرق، حيث ساهمت هذه القوى في تحسين أوضاع اليهود الاقتصادية والسياسية، ولاشك أن تطور أنشطة اليهود الاقتصادية والتعليمية أدى إلى تحسن أوضاع اليهود الاجتماعية وظروفهم المعيشية. وأدى ظهور الاتجاهات القومية بالبلدان الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى إلى الإضرار بوضع يهود الشرق، فقامت الحكومات العربية والإسلامية بعد أن تزايدت بها قوة الاتجاهات القومية بتأميم أموال وممتلكات اليهود مما اضطر معظم اليهود إلى الهجرة إلى فلسطين، وتحول أموالهم إلى أوروبا وأميركا. ولم يعد هناك ثراء يهودي إلا في إيران، وهو الثراء المرهون بموقف النظام الإسلامي الجديد في إيران من اليهود.

الفصل الثاني

الوضع القانوني لليهود وموقف المجتمع تجاههم

عاش يهود المشرق الإسلامي على مدى ما يقرب من ألف ومائتي عام تحت حكم الإسلام، وأطلق عليهم طيلة هذه الفترة اسم أهل الذمة. وكان يحق لهم ممارسة شعائرهم الدينية في مقابل الجزية التي كانوا يدفعونها للسلطات التي كانت تتولى حماية ممتلكاتهم، واتسمت علاقة اليهود بالمجتمع المحيط بهم بقدر كبير من الاستقرار، ولكننا نستثني بالطبع بعض الحالات التي تعرض اليهود فيها لبعض المضايقات. وكان استقرار اليهود في أي بلد من بلدان الشرق يرتبط إلى حد كبير بمدى استقرار السلطة، وبمدى تأثير رجال الدين، وبمدى قرب اليهود من السلطة. وكان وضع يهود الشرق أفضل بكثير من وضع يهود أوروبا الذين اضطهدوا لأسباب سياسية واقتصادية ودينية، فكثيرا ماكانوا يطردون من البلدان التي أقاموا فيها، في حين لم يتعرض يهود بلدان الشرق لنفس المصير.

وطرأت تغيرات كثيرة على وضع يهود الشرق بعد أن تزايد منذ الأربعينيات من القرن التاسع عشر حجم تدخل القوى الأوروبية بالمنطقة، حيث حرصت كل من إنجلترا وفرنسا في أعقاب الثورة الفرنسية على منح المساواة في الحقوق لسكانها من اليهود، وليهود بلدان الشرق التي احتلتاها. وفي الحقيقة كان حرص القوى الأوروبية على منح المساواة لكل الأقليات يهدف إلى خدمة مصالحها السياسية والاقتصادية بالمنطقة. وسنعرض في هذا المجال كيف حصل يهود كل بلد من بلدان الشرق على المساواة في الحقوق، ففي عدن على سبيل المثال ألغى البريطانيون ضريبة الجزية بعد احتلالهم لها في عام ١٨٩٣، وكان هذا القرار الذي اتخذه الحاكم البريطاني يهدف إلى

التقرب من اليهود الـذين لم يتوقفوا عن مساندة المحتل البريطـاني عن طريق عمليات التجسس والاستخبارات .

بيـد أن المحتل لم يمنـح اليهـود دائما حق المسـاواة ، فلـم يحرص الـروس ، على سبيل المثال ، على منح المساواة ليهود آسيا الوسطى ، هذا بالرغم من أنهم قاموا بحملات عديدة لحماية اليهود من الاضطهادات التي تعرضوا لها من قبل الأمراء والسكان المحليين .

وشهدت الدولة العثمانيـة في عهد السلطان محمـد الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩) حـركة إصلاحات سيـاسية واجتماعية واسعة النطـاق ، كان من بين مظاهرهـا قيام السلطات بمنح السكان المسيحيين واليهود حق المساواة مع الآخـرين . وكان هذا الأمر مظهرا من بين مظاهر خضوع الدولـة لضغوط القوى الأوروبية الهادفة إلى تحسين وضع المسيحيين في البلدان التـابعة لها . وكـان إقدام الـدولة على تحسين وضع رعـاياهـا من المسيحيين واليهود يهدف إلى نيل تأييـد القوى الأوروبية التي أيـدت الدولة إبان حـربها مع روسيا (حرب القرم) خـلال عامي ١٨٥٣-١٨٥٦ وقد أعلن حق المسـاواة لأول مرة في «خط شريف جولجانا» عام ١٨٣٩ ، الـذي أعلنه السلطان عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١) . وقد ورد مزيد من التفاصيل حول هذا الإعلان في الأمر السلطاني الصادر عام ١٨٥٦ . وقبل ذلك بعـام ألغت الـدولة في عـام ١٨٥٥ ضريبـة الجزيـة ، ولكنها ألـزمت هـذه الأقليـات بدفع ضريبـة «البدل» في مقـابل عدم تأديتهـا للخدمـة العسكريـة ، وهي الضريبة التي عرفت بين العامة باسم «عسكرية-عسكر» بالعربية .

ووصلت حركة الإصـلاحات إلى ذروتها في عام ١٨٧٦ حيث صـدر في هذا العام أول دستور بالإمبراطـورية ، وكان رئيس الوزراء التركـي مدحت باشا هـو الذي صاغ بنود هذا الـدستور. وعلاوة على تصديق الـدستور على كل الإصلاحات التـي نفذها السلطـان محمد الثـاني ، فقد منح الـدستـور تمثيلا كـاملا لكل الأقليـات في البرلمان العثماني الذي دعا الدستور إلى تشكيله .

وكان العـراق يتبع الـدولة العثمانية إبـان فترة التنظيمات التي حدثـت فيها حـركة الإصلاحـات . أما كردستـان فقد كانت خـاضعة لسيطرة العثمانيين ، ولكنهـا كانت تخضع في واقع الأمـر لحكم «الأغـاوات» قـادة القبـائل المحليين . وحـرص الـولاة

الأتراك، على عكس الباشوات المماليك الذين حكموها حتى عام ١٨٣١، إبان حكمهم للعراق على تطبيق نفس التنظيمات التي طبقوها في بلادهم. وكان مدحت باشا (١٨٦٩-١٨٧٢) من أكثر الولاة الأتراك حرصا على تطوير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالعراق، وعلى توفير الأمن اللازم لليهود.

وفيما يتعلق باليمن فإنه خضع لحكم الإمبراطورية العثمانية طيلة الفترة الممتدة من عام ١٨٧٢ حتى عام ١٩١٨. وحرص العثمانيون إبان هذه الفترة على تطبيق كل إصلاحات التنظيمات التي كان قد تم تطبيقها في سائر البلدان التابعة للدولة.

وظهرت في إيران إبان الفترة التي حدثت فيها حركة الإصلاحات حركة ليبرالية دعت إلى تحويل إيران إلى دولة حديثة على غرار الدول الأوروبية. ودعت هذه الحركة إلى تحديث إيران، وإلى تقليص حجم الصلاحيات الممنوحة للشاه، ولكن لم تكن للحركة أية آراء محددة بشأن الأقليات الدينية. ولم يقدم قادة هذه الحركة على تحسين أوضاع اليهود إلا بعد أن تعرضوا لضغوط شديدة من قبل المنظمات اليهودية والحكومات الأوروبية. وفي الواقع لم يتحسن وضع اليهود في إيران إلا في عهد الشاه ناصر الدين (١٨٤٨-١٨٩٦) الذي عمل على تطوير الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في بلاده، وعلى توثيق علاقاته بالقوى الأوروبية. والتقى الشاه ناصر الدين، في إطار علاقاته، التي أقامها مع الدول الأوروبية، مع بعض الشخصيات اليهودية الأوروبية، وتعهد لهذه الشخصيات بتحسين أوضاع اليهود فتم إلغاء قانون المواريث الذي كان يعطي اليهود الذين اعتنقوا الإسلام حق وراثة أقاربهم من اليهود، حتى وإن كان لهم أقارب يهود من الدرجة الأولى. ولكنه لم يلغ وضع اليهود كأبناء ذمة وفقا للتقاليد الإسلامية.

وفي أفغانستان تحسنت أوضاع اليهود في عهد الحاكم المستنير أمان الله خان (١٩١٩-١٩٢٩) الذي لم يتوقف طيلة فترة حكمه عن تقليص مكانة رجال الدين في الدولة، وأصدر في عام ١٩٢٥ مرسوما لم يطبق عمليا بإلغاء الجزية وإلغاء وضع الشارات المميزة لليهود. . وفي عصر خلفه نادر شاه (١٩٢٩-١٩٣٣) تم إلغاء الجزية تماما ووضع الشارات المميزة، بالرغم من أنه لم يرد أي ذكر لهذه الأمور في دستور ١٩٣١.

وبعـد أن حصل يهود الشرق على حق المسـاواة في المجتمع، منحتهم السلطـات حق التمثيل البرلماني، فانتخب على سبيل المثـال مناحيم صـالح دانيال لتمثيل يهود العـراق في البرلمان العثماني، كما حظي يهود إيران في عام ١٩٠٦ بحق دخول المجلس الإيراني، ومثلهم آنـذاك في البرلمان عزيـز الله سيماني، ولكنـه سرعان مـا استقال من منصبه بسبب العداء الشديد الذي تعرض له من قبل أعضاء البرلمان، وأصبح دكتور أيـوب لقمان ممثلا لليهود في البرلمان من عام ١٩١٦ حتى عام ١٩٢٢، ومثل الدكتور شموئيل حاييم اليهود في البرلمان منذ عام ١٩٢٢ حتى عام ١٩٢٦.

وقد سعى يهود اليمن إلى إشراك مندوبين عنهم في البرلمان العثماني، ولكن طلبهم قوبل بالرفض خاصـة أن السلطات العثمانية ادعت أن تعدادهم الضئيل لا يتيح لهم حق الانضمام إلى البرلمان العثماني.

ويمكننـا بشكل عـام القول إن يهود الشرق تمتعـوا بـالمسـاواة في الحقوق بعـد أن أقيمت في هذه البلدان أنظمة حديثة أي بعد الحرب العالمية الأولى. وتمتع يهود العراق بالمسـاواة بعد أن خضع العراق للحكم البريطـاني في عام ١٩٢٢. أما في إيـران فقد حصل اليهود على المساواة بعد ثورة ١٩٢٥ أي بعد أن أرسى الشاه رضا أسس الدولة الإيرانية الحديثة. وفي أفغانستان حصل اليهود على حق المساواة بعد أن صدر دستور ١٩٣١ في عهـد نادر شـاه، وفي اليمن حصلوا على حـق المساواة في مـرحلة متأخـرة نسبيا إذ كان ذلك في عام ١٩٦٢ أي بعد قيام الثورة.

اندماج اليهود في أجهزة الدولة

يلاحظ دارسو التاريخ اليهودي في العصور الوسطى أن السلطات حرصت على جبـاية الجزيـة من اليهود، وتطبيق القـوانين الإسلاميـة، ولكنها أتـاحت لليهود في نفس الـوقت تقلد العـديد من المنـاصب المهمة، فكـان حسداي بن شبروط في بلاط الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث وشموئيل هناجيد في غرناطة إبـان القرنين العـاشر والحادي عشر، على سبيل المثـال، من أبرز الشخصيـات اليهـودية التي عملت في إطـار الخلافتين الأمويـة والأندلسيـة. وكذلك خـدم الإخوة إبراهيم وحيـد بني سهل التوستاري لدى الخلفـاء الفاطميين في النصف

الأول من القـرن الحادي عشر. وفي إطار الخلافـة الفاطميـة بمصر تقلد اليهـود العديد من المناصب المهمة.

وشغل اليهود في العصر الحديث العديد من المناصب المهمة. فكان معظمهم من رجـال الاقتصـاد والأطبـاء وإبـان فترة حكم المماليك للعـراق التي امتـدت من عـام ١٧٥٠ وحتى عام ١٨٣١، كان كبير الصرافين عادة من اليهود، وكان شيخ الطائفة اليهوديـة يشغل عادة هـذا المنصب. وكان اليهـود يتولـون أيضا مسـؤولية إدارة بيت المال، فكان الحكـام يحرصون على توليـة اليهود مهمة الإشراف على الشـؤون المالية لما عرف عنهم من خبرة في هذا المجال.

أما في إيران فقد حظرت السلطـات على اليهود إبان القرن التاسع عشر العمل في أي جهة حكـومية، ومع هـذا عمل بعض الأطباء اليهـود في قصر الشاه. وفي اليمن أيضا كان بـاروخ بن شموئيل هو الطبيب الخاص للإمام المهـدي عبد الله (١٨٣٤) ثم أصبح مستشاره وكاتم سره للشؤون السياسية والعسكرية.

وبالرغم من أن رجال الدين بـالشرق أعربوا أكثر من مرة عن تحفظاتهم إزاء تعيين اليهـود في المناصب القيـادية بـالدولـة إلا أن الحكام لم ينظـروا بعين الاعتبار إلى هـذه التحفظات، خاصـة أنهم كانوا يرون أن تولي أبناء الأقليـات غير المسلمة للمناصب القيـادية لا يعـرض الإسلام إلى أي خطـر، ومع هذا كـان الحكام يخضعـون في بعض الأحيان لضغوط رجـال الدين، وكانوا يقيلون اليهود من منـاصبهم إذا ما رأوا أن هذا يتفق مع مصـالحهم، وفي أحيان أخرى كـانوا يشجعـون اليهود على اعتنـاق الإسلام للحفاظ على منـاصبهم. وحينما فرضـت الدولـة العثمانية سيطرتها على كـل المنطقة، وبعد أن بدأت في تطبيق سياسة الإصلاحات كان لهذه السياسة أعظم الأثر في وضع اليهود فجاء في الخط «الهمايـوني» الصادر في عام ١٨٥٦ الذي تضمن أسـس سياسة الإصـلاحـات: «إن كل رعـايـا دولتنا العليـة بغض النظـر عن انتماءاتهم الطـائفيـة سيعملـون في الـدولـة، بما يتماشى مع قـدراتهم وكفـاءاتهم». وبمـوجب سيـاسـة الإصـلاحات هـذه تم تشكيل عدة مجالس تـولى كل منها إدارة كل إقليم من أقـاليم الدولة على حدة، كان لأبناء الأقليات الدينية حق التمثيل فيها.

وكان ليهود العراق والمناطق الجنوبية من كردستان دور نشيط في حياة المجتمع، فتقلد اليهود في كل من بغداد والبصرة والموصل العديد من المناصب العامة في الجهات الحكومية، بل وانتخب بعضهم للعمل في المجالس المحلية والمحاكم المختلطة، وكان ممثلو اليهود في هذه المجالس يحرصون دائما على تأييد إخوانهم من اليهود خاصة إبان الفترات التي كانت تتزايد فيها حدة العداء بين اليهود والمسلمين.

وعند مقارنة وضع يهود العراق بوضع اليهود في كردستان واليمن نجد أن يهود العراق كانوا من أكثر يهود الإمبراطورية العثمانية اندماجا في المؤسسات الحكومية، وشاعت ظاهرة اندماجهم في المجتمع بعد قيام ثورة تركيا الفتاة التي سعى قادتها إلى تشكيل نظم المجتمع والدولة على أسس عثمانية تركية دون الاهتمام بالعامل الديني. ومن المرجح أن يهود العراق تفوقوا على إخوانهم من اليهود في كل من كردستان واليمن نتيجة لأن وضعهم الاجتماعي كان أفضل من نظيره لدى الآخرين، علاوة على أن مستواهم الثقافي كان أرقى بكثير من نظيره لدى يهود سائر البلدان. وكان من أبرز يهود العراق آنذاك كل من مناحيم صالح دانيال (١٨٤٦-١٩٤٠) وساسون أفندي بن يحزقئيل — اللذين كانا عضوين بمجلس النواب العثماني — ويعقوب تسيمح وابنه داود عضوي مجلس مدينة الموصل، وحاييم بن موسى قافح، الذي كان بمنزلة حاكم محافظة ياريم في فترة الحكم التركي في اليمن.

ومن الملاحظ أن اليهود اندمجوا طيلة الفترة العثمانية في كافة الأجهزة الحكومية، وتزايد حجم وجودهم بالمؤسسات الحكومية بعد أن فرضت بريطانيا سيطرتها على العراق، فعملت أعداد كبيرة من اليهود في هيئتي البريد والمواصلات، وبوزارة الخزانة. ومن جهة أخرى فعند مقارنة وضع يهود العراق بيهود عدن نجد أن يهود العراق كانوا أكثر اندماجا بالمؤسسات الحكومية من يهود عدن الذين أصروا على عدم العمل يوم السبت، واحترام قداسة هذا اليوم.

وحقيقة الأمر أن المساواة في الحقوق، وحصول اليهود على قدر كبير من الثقافة العلمانية كانا بمنزلة العاملين الرئيسيين اللذين ساعدا اليهود على الاندماج بالمؤسسات الحكومية، ولم يكن الاحتلال العثماني أو البريطاني فقط هو السبب

الوحيد الذي ساعد اليهود على العمل بالمؤسسات الحكومية. فقد منحت إيران التي حافظت دائما على استقلالها لليهود فرصة العمل بها. ولم يندمج اليهود الإيرانيون بالمؤسسات الحكومية حتى عام ١٩١٤ أي حتى العام الذي شهد نشوب الحرب العالمية الأولى. وكان حصول يهود إيران على قدر عال من الثقافة بدءا من نهايات القرن التاسع عشر علاوة على تأثر إيران بالفكر الأوروبي، وقيام رضا شاه بإلغاء كل القيود المفروضة على اليهود من بين أهم العوامل التي ساهمت في اندماج اليهود بالمجتمع. وبالرغم من أن يهود إيران لم يشغلوا أية مناصب سياسية أو عسكرية مهمة بالدولة إلا أنه أتيحت لهم فرصة تولي إدارة المؤسسات الاقتصادية الحكومية خاصة أنهم كانوا على دراية كبيرة بالاقتصاد.

وتضاءل حجم الوجود اليهودي في الشرق بعد أن حصلت بلدان المنطقة على استقلالها، وبعد أن تزايدت بها قوة المشاعر القومية فتضاءل في العراق على سبيل المثال منذ عقد الأربعينيات حجم الوجود اليهودي، وأقيلت أعداد كبيرة منهم من الوظائف الحكومية.

وكان للعامل الديني نصيبه أيضا في تقليص حجم الوجود اليهودي بالشرق. ففي اليمن، على سبيل المثال، طلب الإمام يحيى من الأتراك ألا يعينوا غير المسلمين في المناصب القيادية. وعندما انتقلت السلطة إلى أيدي الإمام، ومع خروج الأتراك من اليمن بعد الحرب العالمية الأولى، لم يعين أي يهودي في أي منصب حكومي.

وفي أفغانستان لم يحصل اليهود على المساواة في الحقوق طيلة فترة وجودهم هناك، كان هذا الوضع نتيجة لتزايد قوة الاتجاه الديني بأفغانستان، علاوة على أن وجودهم كان ضئيلا للغاية، ولذلك لم يشكلوا أي أهمية تذكر للسلطات. وفيما يتعلق بالجمهوريات السوفييتية بآسيا الوسطى فقد تبنت السلطات المحلية مثل كل السكان موقفا معاديا لليهود.

وبشكل عام يمكننا قول إن اندماج اليهود بالمؤسسات الحكومية في الشرق في نهايات القرن التاسع عشر كان نتيجة لحصولهم على المساواة في الحقوق بالإضافة إلى أنهم كانوا يتميزون عن غيرهم من ناحية حصولهم على قدر عال من الثقافة الحديثة.

ويمكننا في هذا المجال ملاحظة أنه كلما كانت تتزايد قوة الاتجاهات الإسلامية بالشرق كان يتضاءل حجم الوجود اليهودي في الأجهزة الحكومية، وينطبق هذا الوضع على يهود العراق وإيران ووسط آسيا أكثر من انطباقه على يهود اليمن وكردستان وأفغانستان الذين لم تطرأ أية تغيرات جذرية على حياتهم الاجتماعية-الاقتصادية في العصر الحديث.

الوضع الاجتماعي لليهود

لم يؤد التحسن الذي طرأ على أوضاع اليهود القانونية إلى تحسن أوضاعهم الاجتماعية، بل أدت التغيرات التي طرأت على وضعهم القانوني إلى تزايد حدة التوتر بين المسلمين وبين الأقلية اليهودية؛ حيث لم يكن المجتمع الإسلامي على استعداد لتقبل اليهود، خاصة أن حصولهم على حق المساواة لم يكن نتيجة لسلسلة من التطورات الاجتماعية، وإنما كان نتيجة لقيام الحكام الأجانب بإصدار مراسيم قضت بمنح اليهود حق المساواة. ولم يكن المجتمع الإسلامي يشعر بالرضا إزاء اليهود نتيجة لتعاونهم مع المستعمر أو مع الأنظمة الديكتاتورية، وأما اليهود فقد حرصوا في نفس الوقت على عدم الاختلاط اجتماعيا مع المجتمع الإسلامي، وحرصوا على استغلال الحقوق التي منحت لهم لتقوية أوضاعهم الاقتصادية، وللحصول على قسط وافر من المعرفة والثقافة.

ويختلف وضع يهود العراق عن وضع اليهود في سائر بلدان المشرق؛ فقد انضمت أعداد كبيرة منهم إلى صفوف الحركة الوطنية العراقية مما أدى إلى ابتعادهم بعض الشيء عن التقاليد اليهودية، ولكنهم لم يتنكروا لانتماءاتهم العرقية-الدينية. وعند تحليل ظاهرة اندماج اليهود في المجتمع العراقي نجد أن أسبابها تكمن في أن يهود العراق رأوا معطيات الواقع الجديد تتيح للسنة والشيعة والعرب والأكراد واليهود فرصة المساهمة في الحركة القومية بالعراق، وكانت التغيرات التي حدثت في أوساط يهود العراق إبان فترتي الحكم العثماني والبريطاني هي التي جعلتهم يشعرون أنهم أصبحوا يتمتعون بالمساواة في الحقوق. وبالرغم من أن حصول العراق على استقلاله في عام ١٩٣٢ أضر بأوضاع اليهود إلا أن هذا الأمر لم يحل دون انضمام الكثيرين منهم

لصفوف الحركة القومية العراقية، وحتى بعد أن تم السماح لهم في عام ١٩٥٠ بمغادرة العراق فقد فضل الآلاف منهم البقاء به.

وفي إيران ساهم عاملان رئيسيان في اختلاط بعض اليهود بالمجتمع الإيراني. وتمثل العامل الأول في اعتناق الآلاف من اليهود بدءا من منتصف القرن التاسع عشر للديانة البهائية إيمانا منهم بأن هذه الديانة تمنح المساواة للجميع، وعقد يهود إيران آمالهم على هذه الديانة، معتقدين أن انتشارها في كل إيران سيؤدي إلى تحسن أوضاعهم، ولكن هذه الديانة لقيت معارضة شديدة من قبل قادة المذهب الشيعي والحكام والسكان، ولذا فإنها لم تحقق الخلاص المنشود لليهود.

وتمثل العامل الثاني الذي ساعدهم على الاندماج في المجتمع الإيراني في أن الكثيرين منهم حرصوا على إخفاء انتماءاتهم الدينية إما عن طريق تغيير أسمائهم، وقطع علاقاتهم بالطائفة اليهودية أو اعتناق الإسلام. وكان تنكرهم هويتهم الدينية يهدف إلى تحسين أوضاعهم الاجتماعية. وشاعت إبان فترة الحكم القاجاري ظاهرة اعتناق أعداد كبيرة من اليهود للإسلام، وفي المقابل فإنه سادت إبان فترة الحكم البهلوي ظاهرة قطع العلاقات مع الطائفة اليهودية.

وسادت هذه الظواهر في أوساط طبقات معينة من المجتمع اليهودي سواء في العراق أو إيران. وفي العراق سادت هذه الظواهر في أوساط الشخصيات المستنيرة من يهود العراق، أما في إيران فإنها سادت في أوساط أصحاب المهن الحرة والتجار.

وفيما يتعلق باليمن فإن السلطة في العصر الحديث لم تطبق سياسة أهل الذمة تجاه اليهود، وذلك باستثناء الفترة التي خضع فيها اليمن لحكم الإمام يحيى وابنه الإمام أحمد. ونستدل على هذا من حقيقة أن الدستور اليمني الصادر في عام ١٩٦٢ لم يتضمن أي ذكر لليهود. وفي إيران، فبالرغم من أن آية الله الخميني حرص منذ توليه الحكم على تطبيق الشريعة الإسلامية، إلا أنه لم يطبق سياسة أهل الذمة تجاه اليهود.

ونستدل من هذا العرض لأوضاع يهود الشرق في العصر الحديث أنه طرأت تغيرات جوهرية على وضع اليهود في المجتمع الإسلامي. وعلى كل حال فإن العداء

لليهود أخذ في العصر الحديث طابعاً قومياً وسياسيا حديثا، وكان هذا العداء ذا صلة وثيقة بالواقع السياسي الذي شهدته المنطقة في نهايات القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين.

رد فعل العناصر المحافظة في المجتمع الإسلامي.

أثار حصول يهود بعض البلدان على حق المساواة سخط رجال الدين*، وحاول اليهود الاحتماء بالسلطات المحلية أو الأجنبية التي لم تشعر بالارتياح إزاء تزايد قوة الجهات المناهضة لسياستها، ولكن باءت محاولات اليهود بالفشل، ولم تجد أيضا محاولات المنظمات اليهودية الأوروبية التي حاولت التدخل لصالحهم.

وكان يهود إيران من أكثر يهود الشرق تعرضا للمضايقات خاصة في عهد ناصر الدين شاه الذي تولى مقاليد الحكم بإيران خلال الأعوام ١٨٤٨-١٨٩٦. وبالرغم من أن الشاه حاول إبان هذه الفترة إرساء أسس النظام الحديث في إيران. وتحسين أوضاع اليهود إلا أن كل محاولاته لقيت معارضة شديدة من قبل قادة المذهب الشيعي، الذين لم يجدوا أية صعوبة في إثارة مشاعر السكان ضد اليهود. وباءت كل المحاولات التي بذلها ناصر الدين شاه للتقليل من نفوذ رجال الدين بالمجتمع بالفشل. ولم يكتف رجال الدين بتجاهل أوامر ناصر الدين شاه الداعية إلى عدم التعرض بالأذى لليهود، بل أصدروا مراسيم دعت إلى ملاحقة اليهود واضطهادهم، ولم يتوقف قادة رجال الدين من المتطرفين عن مطاردة اليهود مما دفع عزيز الله سيماني مندوب اليهود بالبرلمان الإيراني للاستقالة من منصبه بعد أن لم يسمح له أعضاء البرلمان بإلقاء كلمته.

وكان رضا خان الذي تولى مقاليد السلطة في إيران في عام ١٩٢٥ أول حاكم إيراني يتمكن من كبح جماح رجال الدين. وبالرغم من نجاحه في السيطرة على مقاليد السلطة والإمساك بزمام الأمور إلا أن رجال الدين ظلوا يهددون حكم مؤسس

---

* لم يكن سخط رجال الدين المسلمين على هذا الموقف نابعا من موقف الدين الإسلامي الذي يحض على احترام الأديان السماوية والمؤمنين بها، بقدر ماكان نابعا من اعتراضهم على بعض الحقوق التي حصل عليها اليهود ووجدوا فيها مساسا بحقوق ومصالح المسلمين. (المراجع).

الأسرة البهلوية . ولهذا تخوف اليهود من أن يبرزوا وجودهم السياسي والاقتصادي في المجتمع الإيراني، كما عمل كل من رضا شاه وابنه محمد شاه على التقليل من حجم الوجود اليهودي في المؤسسات الاقتصادية والجهات الإدارية بالدولة بعد أن تزايد تهديد رجال الدين للسلطة .

أما في أفغانستان فقد حاول رجال الدين إقناع أمان الله خان (١٩١٩-١٩٢٩) وخليفته نادر شاه (١٩٢٩-١٩٣٣) باتباع سياسة متشددة تجاه اليهود، ولكن باءت جهود رجال الدين بالفشل .

وشهدت بعض البلدان التابعة للدولة العثمانية — والتي طبقت بها سياسة التنظيمات الداعية إلى تحسين وضع الأقليات غير المسلمة — بعض الأنشطة المعادية لليهود فتعرض السكان اليهود لبعض المضايقات ليس فقط بسبب إثارة رجال الدين لمشاعر السكان وإنما أيضا بسبب ضعف الولاة الأتراك . فشاعت في بلدان المنطقة، خاصة في العراق، ظاهرة اتهام اليهود بالإساءة إلى الإسلام مما تسبب بطبيعة الحال في إثارة مشاعر المسلمين ضد اليهود، وأدى انتشار هذه الظاهرة إلى إعدام أحد اليهود في بغداد في عام ١٨٧٦ .

وتعرض يهود المناطق الجنوبية من كردستان والتي كانت تابعة للدولة العثمانية لبعض المضايقات . أما المدن والقرى الداخلية بإقليم كردستان، والتي ظلت تحت سيطرة قادة القبائل فلم يطرأ فيها أي تحسن يذكر على أوضاع اليهود، فلم يتوقف قادة القبائل الكردية عن جباية الأموال من سكان كردستان بمن فيهم اليهود، وهذا بغرض دفع الضرائب المستحقة إلى القسطنطينية، والتي كانت تكفل لهم الحفاظ على سلطتهم .

وفي اليمن رأى السكان أن النظام التركي الذي يتبعه العثمانيون نظام كافر، ذلك لأن الحكام الأتراك حرصوا على تطبيق مذهب الإمام أبي حنيفة في الهيئات القضائية، وهو كان يتعارض بالطبع مع تقاليد الاتجاه الزيدي الذي كان متبعا في اليمن . كما أنه حينما منح الأتراك حق المساواة لليهود، شعر سكان اليمن أن مثل هذا الإجراء يعد خروجا صارخا على تعاليم الإسلام، وشعروا أيضا أن محاكاة يهود اليمن لأساليب حياة الأتراك يعد خروجا عن التقاليد، وكما هو معروف بذل قادة الاتجاه الزيدي

آنذاك كل مـافي وسعهم للحيلولة دون انتشار الأفكـار الحديثة في أوساط المسلمين. وإبـان فترة الحكم التركي لليمن تـزايـدت حـدة التـوتـر بين المسلمين واليهـود ليس لحصول اليهود على قدر كبير من الحرية فحسب وإنما بسبب تزايد النفوذ الاقتصادي لليهود الذين كانـوا على صلات قوية بالسلطة. وفي المقابل فعنـدما تولى الإمام يحيى مقاليد السلطة باليمن في عام ١٩١٣ تدهورت أوضاع اليهود خاصة أن الإمام حرص على اتباع سياسة متشددة تجاههم.

وفيما يتعلق بالبلـدان التي وقعت تحت احتلال القوى العظمى والتي نذكـر منها عدن وبلـدان وسط آسيا فلم تتوقف بها المشاحنـات بين المسلمين واليهود. ولم تكن هذه المشـاحنات لأسباب دينيـة بقدر ما كـانت لأسباب وثيقة الصلـة بأن يهود هذه البلدان عملوا على التقرب من المحتل، ومساعدته على احتلال البلدان. ولذلك شن سكـان عدن في عـام ١٨٧٣ حملـة ضد يهود المدينـة، وبـرروا حملتهم هذه بأن أحـد اليهود تحدث بشكل غير لائق على النبي محمد (ﷺ). وفي منطقة وسط آسيا شهدت السبعينيات من القرن التاسع عشر اضطهاد المسلمين لليهـود وسرقة أموالهم، خاصة أنه شاعت آنذاك أفكـار معادية لليهود كان منها أن اليهـود يسرقون أرباح ومكاسب المسلمين، وحينما انضمت بلدان هذه المنطقة إلى الجمهوريات السوفييتية بعد الحرب العالمية الأولى لم تقل حدة التوتـر بين المسلمين واليهود، فشهد عاما ١٩٢٦و ١٩٣٦ وقوع بعض الحوادث ضد اليهود في جمهوريتي تركستان وسمرقند.

وفي الستينيـات من القـرن العشرين تـزايـدت قـوة حركـة المد الثـوري في البلـدان الإسلامية، تلك الحركـة التي ترجع أصولها إلى النصف الثاني مـن القرن التاسع عشر، وتجلت مظاهر هذه الحركة في الأيديولوجية الناصرية التي ظهرت في الستينيات من هذا القـرن، والتي ارتكـزت على محاور ثـلاثـة رئيسيـة وهي: المحـور العـربي، والمحـور الإفريقي، والمحور الإسلامـي. وتبنت هذه الحركة موقفا معاديا لليهـود تجلت مظاهره بشكل واضح في أعمال مؤتمر أكاديميـة البحوث الإسلامية الذي نظمته جـامعة الأزهر في عـام ١٩٦٨. وفي إطـار هـذا المؤتمر الـذي شارك فيـه عـدد كبير من فقهـاء العـالم الإسلامي ألقى المتحدثون خطبا أدانـوا فيها اليهود وإسرائيل. وقد سيطر آنذاك الاتجاه المعادي لليهـود وإسرائيل على الكتابات الأكاديميـة والمجلات العربيـة التي لم تتوقف

عن تصويـر اليهود في صورة المخـادعين والمزيفين الذين ليس من الممكن أن يثق فيهم المرء . وقد غلبت في هذه الفترة أيضا قوة الاتجاه الـداعي إلى التقليل من مصداقية الرواة اليهود الذين اعتنقوا الإسلام الذين كان من بينهم : كعب الأحبار، وعبد الله بن سبأ، ووهب بن منبه . وتحتوي كتابات آيـة الله الخميني الذي اعتلى السلطة في إيران في عام ١٩٧٩ على آراء كثيرة معـادية لليهـود، فأكـد الخميني في كتابـاتـه أن اليهود يعـادون الأسس التي يقوم عليها الإسلام وأنهم يسعون إلى فرض سيطرتهم على العالم .

ومن الملاحظ أن الحركة الإسلامية ليست قوية فقط في مصر التي اغتال فيها «الإخوان المسلمون» الرئيس السـابق أنور السادات، وإنما هي على قدر كبير مـن القوة أيضا في كل من سـوريا والأردن والجمهـوريات السـوفييتية الـواقعة في وسط آسيـا . وسعت المؤتمرات الإسلامية التي عقدت بعد حريق المسجـد الأقصى إلى إحياء فكرة الجهاد الإسلامي ضد إسرائيل والصهيونية، ولكنها فشلت في الترويج لهذه الفكرة .

ومن المؤكـد أن كل هذه المحـاولات ساهمت في تـزايد حـدة التوتـر بين المسلمين ويهود البلـدان الإسـلاميـة، وفي تـزايـد إحســاس يهود هـذه البلـدان بعـدم الثقـة والطمأنينة . وبـالرغم من عـداء البلدان الإسـلامية لليهـود إلا أن الأمور لم تصل إلى الدرجة التـي تجعل فقهاء المسلمين يسلبون اليهود حقوق المواطنـة . وفي الحقيقة فإن الحركات الإسلامية تشعر بقدر كبير مـن الحيرة إزاء موقفها تجاه اليهود، ولكنها تشعر لأسباب وثيقة الصلة بالتطورات الفكـرية والاجتماعية التي شهدتها المنطقة في العصر الحديث أنه من الممكن التوصل إلى تسوية مع اليهود خاصة أنهم يلعبون دورا مهما في الحياة الاقتصادية والاجتماعية لهذه البلدان .

القومية العربية والنزاع العربي الإسرائيلي

تمثلت أهداف الحركات القومية في الشرق في التخلص من النظم الملكية المركزية، أي السلطة العثمانيـة، ومن سيطرة الدول الغـربية على سـائر الأمور في الشرق . ولم يكن لهذه الحركات أية تـوجهات معادية لليهـود، وربما يكون خير دليل على هذا أن اليهـود شاركوا في الحركات القوميـة العربية فعمل يعقـوب صنوع (١٨٣٩-١٩١٧) المعروف بـاسم «أبو نضـارة» على سبيل المثـال، في صفـوف الحركـة الوطنيـة المصريـة، وهـاجم في مقـالاتـه

السياسية وأعماله المسرحية الخديو إسماعيل والسياسة التي انتهجتها بريطانيا في مصر. وفي بغداد انضم بعض اليهود إلى حزب «الإخاء والمساواة» الـذي تأسس بعد نشوب ثورة تركيا الفتـاة في عام ١٩٠٨ ومع ذلك فلم ينظر أعضاء الحزب بعين الارتيـاح إزاء اشتراك اليهود في الحزب. وعلاوة على انضمام اليهود إلى الأحزاب العـربية، شارك بعض اليهود في المؤتمر العربي الضخم الذي عقد في دمشق في عام ١٩٢٠.

وأدى ظهور الحركة الصهيونية ونشوب النزاع العربي الإسرائيلي إلى حدوث تناقض صارخ بين مصالح الحركـة القومية وبين الحركة الصهيونية. أدت هـذه الظروف أيضا إلى تدهور العلاقات اليهوديـة العربية ليس فقط في فلسطين وإنما في كل أنحاء الدول العربية والإسلامية التي كانت انتشرت بها الأفكار القومية.

ولم يطرح مفكرو الحركـة الصهيونية في نهايات القرن التاسع عشر وبـدايات القرن العشرين أية آراء بشأن معارضة الدول العربية المتوقعة للمشروع الصهيوني. ومن جهة أخـرى لم ينتبه المفكـرون العـرب إلى تطلعات الحركـة الصهيـونيـة، فيما عدا الكـاتب اللبناني نجيب عزوزي الـذي أصدر في باريس في عام ١٩٠٥ كتاب La Réveil ele la nation arabe (نشأة الأمة العـربية) الذي حذر فيـه من خطورة الصهيونيـة. وقد ورد في الكتاب:

«في الوقت الذي تشهد فيه المنطقة حركة نهضـة عربية يسعى اليهود لإقامة مملكة إسرائيل، وقد كتب على هـذين الطرفين أن يخوض كل منهما صراعا مريـرا ضد الآخر دون توقف، إلى أن ينتصر أحدهما على الآخر، وستحسم النتيجة النهائية لهذا الصراع مصير العالم بأسره».

وتزايدت حـدة التناقض بين مصالح الطرفين إبان الحرب العـالمية الأولى، أي بعد أن وعد البريطـانيون الشريف حسين بتحـرير البلـدان العربية من الحكـم التركي، وتنصيبه ملكا لكل هذه البلدان، وبعد أن وعـدوا اليهود في نفس الوقت بمنحهم حق إقامة وطن في فلسطين في وعد بلفـور (١٩١٧). ونتيجـة لرغبـة الأمير فيصل بن الشريف حسين في التقـرب إلى البريطانيين، والحصـول على حق السيطرة على كل البلـدان العربيـة فلم يكن على استعداد لتأييد فكرة إقامة كيان يهودي في فلسطين والدعوة للتعايش اليهودي العربي فقط، بل كان مستعدا أيضا للتوقيع على الميثاق المشهـور الذي وقعه مع حاييم ويزمان في الثالث من يناير من عام ١٩١٩، والذي جاء فيه:

«وبعد أن يتم الانتهاء من محادثات مؤتمر السلام سيتم رسم الحدود بين العرب وإسرائيل، وبعد أن يتم تحديد الدستور الخاص بفلسطين، وإقرار كل المراسيم الإدارية الخاصة بها سيتم اتخاذ كل الإجراءات اللازمة التي من شأنها ضمان تنفيذ التصريح الذي أدلت به بريطانيا في الثاني من شهر نوفمبر من عام ١٩١٧، وسيتم اتخاذ كل الإجراءات اللازمة لتبني وتشجيع حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين . . .».

وحينما ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى قيادة عربية متطرفة بزعامة المفتي الحاج أمين الحسيني (١٨٩٥-١٩٨٠)، وبعد أن شنت الصحافة الفلسطينية هجوما ضاريا ضد الهجرة اليهودية، وعلى الأخص من القطاع المسيحي الذي كانت معارضته للهجرة اليهودية أكثر تطرفا لاعتبارات اقتصادية أثر النزاع العربي الإسرائيلي والحركة القومية العربية في وضع يهود الدول العربية. وكان المفتي قد أرسل مبعوثيه إلى كل الدول مطالبا قادتها بمنع اليهود العرب من الهجرة إلى فلسطين حتى لا يزيدوا من قوة المستوطنين اليهود، وبوقف الأنشطة الصهيونية. وكان لهذا المطلب أكبر الأثر في موقف الدول العربية. ففي اليمن على سبيل المثال أصدر الإمام يحيى في عام ١٩٢٤ مرسوما قضى بمنع اليهود من مغادرة البلاد. وفي العراق أعربت السلطات البريطانية عن تحفظها على الأنشطة اليهودية، وكان هذا الموقف يتماشى مع موقف السكان المسلمين، ومع الموقف الذي تبناه البريطانيون في فلسطين. وبعد أن حصل العراق على استقلاله عام ١٩٣٢، وبعد موت فيصل عام ١٩٣٣ تزايدت قوة الاتجاهات الداعية إلى وقف الأنشطة الصهيونية، وفي ظل هذه الفترة فصل آلاف اليهود من وظائفهم الحكومية، وتعرضت أنشطة اليهود الاقتصادية لضرر بالغ.

وفي إيران شنت الحركة القومية الإيرانية المعادية لحكم الأسرة البهلوية حملة إعلامية قومية معادية لليهود، وتبنى الحزب الشيوعي الإيراني المعروف باسم حزب تودة — والذي كان يدور في فلك موسكو — نهجا معاديا لليهود ولإسرائيل.

ولقيت أنشطة الحركة القومية العربية، والدول الإسلامية المعادية لليهود قبولا واستحسانا من جانب أتباع النازية بالشرق، وينطبق هذا الأمر على إيران وأفغانستان اللتين حرصتا على توثيق علاقتهما بألمانيا النازية. وفي العراق برز أيضا تأثير الفكر النازي

الذي تجلت مظاهره في ثورة رشيد الكيلاني التي قامت عام ١٩٤١، والتي شارك فيها بعض العملاء الموالين للنازية، وبعض قادة الحركة الوطنية في العراق. وشهد العراق بعد نجاح البريطانيين في قمع هذه الثورة بعض المظاهرات المعادية لليهود.

وتزايدت في كل بلدان الشرق إبان الأربعينيات من هذا القرن الأنشطة المعادية لليهود، وتزايدت قوتها بعد أن أصدرت عصبة الأمم في عام ١٩٤٧ قرارها بتقسيم فلسطين، وبعد أن أقيمت دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، وبصفة خاصة بعد حرب يونيو ١٩٦٧. وفيما يتعلق ببلدان آسيا الوسطى التابعة للاتحاد السوفييتي فقد تزايدت بها مشاعر عداء المسلمين لليهود، خاصة بعد أن تبنى الاتحاد السوفييتي سياسة عدائية تجاه إسرائيل. وتدهورت أوضاع يهود الشرق بشكل ملحوظ بعد أن تولى حزب البعث في عام ١٩٦٣ مقاليد السلطة في العراق. وتزايد في العصر الحديث حجم تأثير الاتحاد السوفييتي في منطقة الشرق الأوسط لتبنيه سياسة عدائية تجاه إسرائيل.

اشتراك اليهود في الحركات والأحزاب السياسية

أشرنا من قبل إلى أن اليهود شاركوا في الحركات القومية التي كانت ذات طابع ليبرالي، ولكن سرعان ما خرج اليهود من هذه الحركات خاصة بعد أن تزايدت في أوساطها قوة التوجهات الدينية والقومية المعادية لليهود. وبالرغم من أن اليهود حرصوا بشكل عام على عدم الانخراط في صفوف الحركات والأحزاب السياسية في البلدان العربية، إلا أن المثقفين منهم انخرطوا في صفوف الأحزاب اليسارية خاصة في كل من العراق وإيران وبخارى. وفيما يتعلق باليمن وعدن وكردستان وأفغانستان فقد ابتعد يهود هذه البلدان عن الحياة السياسية.

ففي بخارى أيدت الصفوة اليهودية بعد الثورة البلشفية في عام ١٩١٧ إقامة نظام ديمقراطي في جمهوريتهم التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي، وقد شارك يهوديان من بخارى في حكومة كوكاند في عام ١٩١٨، وانخرط يهود بخارى في صفوف منظمتين شيوعيتين هما منظمة هيفسكستيا التي كان معظم أعضائها من اليهود الإشكنار الذين كانوا قد هاجروا من روسيا الأوروبية إلى بخارى، وكانت المنظمة

الأخرى تضم اليهود المحليين . وأيدت منظمة هيفسكستيا ، سياسة الحكومة الداعية إلى إلغاء تعليم اللغة العبرية واستخدام الييديش أو الطاجيكية بدلا منها ، أما اليهود المحليون في بخارى فقد حرصوا على الحفاظ على التقاليد اليهودية والثقافة العبرية .

وفي العراق انضمت أعداد كبيرة من اليهود إلى صفوف الحزب الشيوعي العراقي إبان الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، وجذب هذا الحزب الذي تأسس في عام ١٩٢٤ اليهود إلى صفوفه لإيمانه بمبادىء المساواة والإخاء ، ولتأييده لقرار التقسيم الصادر في عام ١٩٤٧ والداعي إلى إقامة دولة يهودية ومعارضة الحرب وتأييده للحل السلمي الذي دعا إليه . وعلى كل حال لم يكن وضع اليهود بالحزب مستقرا طوال الوقت خاصة أن بعض الشخصيات النشيطة بالحزب الشيوعي العراقي كانت ترحب بالتعاون مع الدوائر العربية المتطرفة المعادية للاستعمار والتي كانت لها بعض العلاقات مع النازيين ، وكان رشيد الكيلاني الذي قام بثورة ١٩٤١ من أبرز الشخصيات العراقية التي تعاونت مع النازي ، واعتقلت أعداد كبيرة من اليهود بسبب انتمائها للحزب الشيوعي ، وأطلق الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم سراحهم بعد ثورة ١٩٥٨ .

وفي إيران أعرب اليهود دائما في الانتخابات عن تأييدهم للأحزاب الليبرالية المعارضة للأحزاب الإسلامية واليسارية ، وانضمت أعداد محدودة منهم خاصة من بين المثقفين في عقد الأربعينيات إلى حزب تودة الذي تأسس في عام ١٩٤١ ، ثم خرج معظم اليهود الإيرانيين من الحزب بعد أن ساءت العلاقات بين الاتحاد السوفييتي وإسرائيل ، وبعد أن تحسن بشكل ملحوظ وضع اليهود الاجتماعي والاقتصادي ، وبعد أن أطيح بنظام مصدق في شهر أغسطس من عام ١٩٥٣ . وشكل يهود هذا الحزب رابطة عرفت باسم «الرابطة الثقافية والاجتماعية اليهودية» ، وأصدرت هذه الرابطة باللغة الفارسية مجلة «نيسان» .

ويمكننا بشكل عام قول إن التغييرات التي شهدها الشرق منذ عام ١٩٣٨ أدت إلى تغيير وضع يهود بلدان الشرق فلم يعودوا ملزمين بدفع ضريبة الجزية . وكانت هذه التغيرات نتيجة طبيعية لتأثير القوى الأوروبية في هذه البلدان ، ولرغبة الحكام

في تحسين أوضـاع بلادهم الاجتماعيـة والاقتصـاديـة . ولكن يجب أن ندرك أن هـذه التغييرات لم تكن نتيجة لحدوث أي تحول أيديولوجي مؤسس على مبدأي الديمقراطية والمساواة ، ومن جهة أخرى لم يكن رجال الدين على قدر كاف من الاستعداد النفسي والاجتماعي لتقبل مبدأ المسـاواة ، ولذلك وقفـوا حجر عثرة على طـريق منح المساواة لليهـود . وفيما يتعلق بمـوقف اليهــود إزاء التغيرات التي شهـدهـا الشرق في العصر الحديث ، فقد حرصوا على استغلال المساواة في الحقوق التي منحها الحكام لهم للرقي بأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية ، واعتمـدوا في هذا المجال على مساعدة المنظمات اليهوديـة الأوروبية . أمـا عن الجهود التي قـام بها بعض اليهود لـلاندمـاج في الحياة السياسية في بلدانهم فلم تكلل بالنجاح بسبب معارضة رجال الدين ، ولظهور الحركة القومية العربية والإسلاميةولتزايد حدة التوتر بين المسلمين واليهود والناجم عن النزاع اليهودي العـربي في فلسطين وعن تزايد تأثير الاتحاد السوفييتي في المنطقـة . وإذا كان يهود الشرق عاشـوا في الماضي كأقلية فإن اليهود شكلوا في العصر الحديث مـركز ثقل اقتصاديـا وثقافيا وسياسيـا ، مما جعل العرب والمسلمين يشعـرون بأن اليهود يهددون الغالبية المسلمة من السكان . ومن هنا فبالرغم من أن الحكام لم يلغوا مبدأ المساواة في الحقوق من الناحية الشكلية ، إلا أن اليهود أصبحوا محل كراهية واضطهاد السكان .



الفصل الثالث

تغيرات في داخل المجتمع اليهودي

تأثير الثقافة الأوروبية والفكر الغربي في حياة يهود الشرق

كان تـأثير الثقافـة الأوروبية والفكر الغـربي في حياة يهود الشرق خـلال النصف الثاني مـن القرن التاسع عشر محدودا للغـاية، وكـان شأنهم في ذلك شأن المسلمين، فكان هذا التأثير مقتصرا على فئة الصفوة التي كان لها عـلاقات قوية بالغرب، والتي كـانت تقيم بـالمدن. وتجلت مظـاهـر هذا التأثير في عـدم تمسك اليهـود بـالتعـاليم الدينيـة، وحرصهم على أن ينهلـوا من منابع الثقـافة الغربيـة، وفي تحسن وضع المرأة اليهـودية. وفي الحقيقـة فإذا كانت المنتجـات الأوروبية الاستهـلاكية مثل الأطعمـة وغيرها قد انتشرت في أوساط كل اليهود قبل هذا الحين فلم يكن لها بطبيعة الحال أي تأثير حاسم في أنماط الحياة العائلية والطائفية.

وكلما كان اليهـود يحصلون على المزيد من الحقـوق في بلدان الشرق كان يتـزايد في المقابل تأثير الثقـافة الأوروبيـة فيهم، وكانت نتائج هـذا التأثير كفيلة بإزالـة الفروق الاجتماعية بين اليهـود والمسلمين، وأتاح هـذا الأمر بـدوره لليهود فـرصة استيعـاب المؤثرات الغربيـة. ويجب ألا نغفل أن موقف السلطة إزاء الثقافة الغـربية كان يلعب دورا رئيسيا في تحديد مدى تأثر اليهود بالفكر الغربي. وكانت أكثر بلدان الشرق تأثرا بالثقافة الغربية هي تلك التي شهدت تغيرات سياسية ضخمة والتي حكمتها القوى الأوروبية أو تلك التي ارتبطت أنشطتهـا الاقتصادية بأوروبا. ومن المؤكـد أن العراق وإيران وعدن كانت من أكثر بلدان الشرق تأثرا بالفكر الغربي لما شهدته هذا البلدان في العصر الحديث من تغيرات سياسية.

اختلاف الملابس وطابع الحياة

كانت ملابس اليهود منذ بدايات العصر الحديث شديدة الشبه بملابس الأوروبيين والمسلمين، وهذا على خلاف الوضع الذي ساد في العصور الوسطى الذي كان اليهود يرتدون فيه ملابس تختلف عن ملابس المسلمين. ولكن التقاليد الدينية اليهودية كرست اختلاف الملابس، ويتجلى هذا في كتاب «تثنية التوراة» للحاخام الفيلسوف موسى بن ميمون (١١٣٥-١٢٠٤م)*، حيث جاء بهذا العمل الديني: «إننا لا نتبع شرائع غير اليهود ولا نتشبه بهم في ملبسهم أو في شعرهم وما شابه ذلك . . .، ويجب أن يكون الإسرائيلي مختلفا ومميزا عن الآخرين في ملبسه وفي سائر أعماله، مثلما هو مختلف عنهم في علمه وآرائه».

وبدأ يهود الشرق منذ العصر الحديث في محاكاة ملابس الأوروبيين، أو بمزيد من الدقة، التي كانت شائعة في أوساط أبناء الطبقات الإسلامية الذين حاكوا الأوروبيين، الأمر الذي يدل على رغبتهم في الإحساس بعدم الاختلاف عن مجتمعهم المحيط بهم، وبعدم الدونية عن غيرهم. وقد حرص يهود اليمن، مثلا، إبان فترة الحكم التركي (١٨٧٢-١٩١٨) على محاكاة ملابس الأتراك وطرق معيشتهم، فانتشرت في أوساطهم ظواهر مثل تدخين النرجيلة والسجائر، وسماع الموسيقى وارتداء الطربوش التركي ذي الشراريب.

وحينما عاد حكم اليمن إلى الأئمة، وتولى الإمام يحيى الحكم (١٩١٣) سعى لإبطال التأثير التركي (الفاسد) في بلاده، وأمر الامام في نفس السنة، بألا يغير أحد من اليهود «علاماته المميزة» (خصلات الشعر المدلاة على جانب الرأس). التي عرفوا

---

* موسى بن ميمون: يعرف لدى العرب باسم أبي عمران عبيد الله الإسرائيلي، ولد في قرطبة عام ١١٣٥م. له العديد من المؤلفات في الفلسفة اليهودية وفي الفكر الديني الإسرائيلي. من أشهر كتبه في التفسير كتاب «تثنية التوراة» وهو كتاب يبحث في الأحكام والقوانين والمعاملات التشريعية. ومن أشهر كتبه في مجال الفلسفة اليهودية كتاب «دلالة الحائرين» الذي يعتبر ذروة التفكير اليهودي الفلسفي في القرون الوسطى متأثرا باتصاله بالحضارة الإسلامية الفلسفية. عمل رئيسا للطائفة اليهودية في مصر، ويوجد بحارة اليهود بالقاهرة معبد يعرف بكنيسة موسى بن ميمون، له مكانة خاصة في نفوس اليهود، وقد دفن فيه ثم نقل إلى فلسطين حيث دفن بطبرية. توفي عام ١٢٠٤م، وقد أطلق أهل قرطبة اسمه على الشارع الذي ولد فيه — (المراجع).

بها، وحرم حلقها وحلق الذقن وما شابه ذلك مما يغير من الشكل المعتاد . . وحظر على النساء التزين والاختلاط بالرجال الأجانب من المسلمين وغيرهم، وأن يلبسن لدى خروجهن زيهن التقليدي المعروف باسم «شوكك».

وأثار هذا الوضع أيضا غضب حاخامات بغداد، فذكر الحاخام شمعون أجاسي (١٨٥٢-١٩١٤) أحد حاخامات بغداد في موعظته التي ألقاها عام ١٩١٣ :

«إن شباب هذه الأيام يرتدون ملابس الأجانب، يقصرون الأجزاء العليا ويطيلون الأجزاء السفلى، ويعقصون شعورهم ويلمعون أحذيتهم، ويتكحلون أيضا. أما الفتيات فهن يسرن في الشارع حاسرات الرأس ويرتدين ملابس غريبة لدرجة الفجور وملابسهن قصيرة حتى الأفخاذ دون أن يغطيها سوى جورب رقيق، ويرتدين معطفا أسود كمعاطف القسس يغطي أجسادهن من الأمام للخلف، وقد خلعن جميعا برقع الحياء».

وكان من بين مظاهر تأثير الثقافة الأوروبية في اليهود قيام بعضهم بتسمية أبنائهم وبناتهم بأسماء أجنبية مثل جورج وموريس وإدوارد وتشارلز ومارسيل ولورا على غرار أسماء الأسرة المالكة البريطانية كما غير بعض يهود عدن أسماءهم اليهودية، وأطلقوا على أنفسهم أسماء إنجليزية مثل هيوارد وغيرها.

وضع المرأة

كان وضع المرأة في كل الطوائف اليهودية في الشرق متدنيا للغاية سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية، فلم تشارك المرأة في الحياة الدينية أو الاجتماعية للمجتمع، واقتصر نشاطها على تدبير شؤون المنزل، وكان وضعها الاقتصادي متدهورا لأن عبء إعاشة الأسرة كان ملقى على الزوج فقط. وعندما كانت المرأة تخرج للعمل بالزراعة فإنها كانت تمارس هذا النشاط في إطار الأسرة فقط. ولم تحظ المرأة اليهودية بأي قدر من التعليم الرسمي، وكان شأنها شأن كل نساء الشرق اللاتي لم يكن يعرفن القراءة والكتابة، باستثناء بعض الحالات النادرة. ولم تسد في أوساط الطوائف اليهودية بالشرق تلك الاتجاهات التي سادت في أوساط الطوائف اليهودية الأخرى التي دعت إلى تحسين وضع المرأة اليهودية. وقد شاعت في أوساط يهود الشرق ظاهرة

تعـدد الزوجـات ما عـدا يهود اليمن وكـردستان. كما شـاعت أيضا في أوسـاطهم، وبتأثير من المجتمع الإسلامي ظاهرة إعطـاء الزوج صلاحيات كبيرة في مجال الطلاق دون أخذ المرأة ورغبتها في الحسبان. كذلك فإن «اليبوم» (زواج المرأة اليهودية من أخو زوجها المتـوفى رغما عنها) كـان هو الآخـر متبعا بين يهود بـلاد الشرق إلى فترة قريبـة، وكـان وضع المرأة اليهوديـة في مجال المواريث أدنى بكثير من وضع الـرجل، ولـذلك لجأت النساء اليهوديـات إلى القضاة المسلمين للحصول على حقوقهـن، وقد حرص القضاة اليهود في أحيان كثيرة على منح اليهوديات حقهن في الإرث، حرصا منهم على عدم توجههن إلى القضاة المسلمين.

ولم يطـرأ أي تغيير ملمـوس على وضع المرأة اليهـوديـة في بلـدان الشرق حتى الحرب العالميـة الأولى، ولكننا نستثني وضع المرأة اليهـودية في العـراق الذي تأسست فيـه خلال عامي ١٨٩٠ و١٨٩٣ عدة مدارس لتعليم الفتيـات في بغداد. وتأثر يهود بغداد والبصرة بإخوانهم من اليهود الـذين هاجروا إلى الهند والشرق الأقصى والذين حـرصوا على الحفاظ على علاقاتهم بوطنهم الأم، والذين حاكوا طرق معيشة الحكام البريطانيين.

وفي إيران افتتحت جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في عام ١٨٩٩ مدرسة لتعليم الفتيات، ولم يكن لأنشطة هذه الجماعة أي تأثير في وضع المرأة اليهودية هناك، خاصة أن عـدد الفتيات الـلاتي أقبلن على التعليم كـان محدودا للغايـة، علاوة على أن النسـاء كن يعتمدن في شؤون معيشتهن بالكامل إما على العائلة أو على أزواجهن.

وقـد تغير هذا الـوضع في العراق بعـد الحرب العالميـة الأولى، أي عندمـا أصبح العـراق تحت الحكم البريطاني، فـاتسعت دائرة تعليم الفتيات في العـراق وأصبحت تشمل كل المدن بما فيها المدن الجنوبية بكردستان. وتمثلت مظاهر التغيير أيضا في أن النساء العـراقيات أصبحن يخرجن منذ هـذا الحين وبشكل مستقل عن أزواجهن إلى العمل. فعملت ٦٠٪ من النساء بالحيـاكة و٢٠٪ منهن في الجهات الحكـومية، كما عملت ٨٪ منهن بـالطب، و٨٪ بـالتدريس. وعلى كل حـال لم تتعـد نسبة النسـاء العاملات في المجتمـع اليهودي بـالعراق ٦,٥٪، وفي المقـابل كانـت نسبة الـرجال المشتغلين في المجتمع اليهودي تقدر بـ ٧٨٪.

وكـان من بين العـوامل التي ساعـدت على تحريـر المرأة اليهـودية في العـراق وإيران أن الحركـة الصهيونيـة أرسلت مبعوثيهـا إلى هذين البلـدين بغرض تـوعية اليهود هنـاك بطبيعة النشـاط الصهيوني، وكـان هؤلاء المبعـوثون يتبنـون آراء غير تقليـديـة بخصوص وضع المرأة، ولـذلك شجعـوا المرأة على نيل قسط وافـر من التعليم، والعمل بشكل نشيط في المجال الاجتماعي. وجدير بالذكر أن المنظمات الصهيونية بدأت في إرسال مبعوثيها إلى العراق منذ عقد العشرينيات، وفي مرحلة لاحقة كانت المنظمات الصهيونية بـالعراق تمارس أنشطتها في الخفاء. أما في إيران فكـان تأثير الأنشطـة التي مـارستهـا المنظمات الصهيـونيـة في وضع المرأة محدودا للغايـة، خاصة أن النساء الإيـرانيات، حتى من بين المتحررات، كن مـرتبطات بأزواجهن في كافة أوجـه المعيشة. وبالرغم من أن رضا شـاه بهلوي اتبع في حينه سياسة متحـررة هادفة إلى تحسين وضع المرأة، إلا أن أنشطة النسـاء اليهوديات في المجتمع الإيراني لم تتضح إلا في عقدي الستينيات والسبعينيات، وكان معظمهن ينتمي إلى العائلات اليهودية الثرية. وفي الوقت الذي انخرطت فيه المرأة اليهودية في صفوف المنظمات المعنية بشؤون التعليم والخدمـات الاجتماعية، والذي سعت فيه إلى نيل المزيد من الحقوق، وتحقيـق المساواة، إلا أنها لم تسع إلى الالتحاق بأية وظيفـة. ومن المرجـح أن هـذا الأمـر يـرجع إلى أن المجتمـع الإيـراني لم يكن على استعداد لتقبل فكرة عمل المرأة عـلاوة على أن توفير الأب أو الزوج للرزق لم يجعل من قضية عمل المرأة أمرا حيويا للمرأة اليهودية.

وكانت عمليـة تحرر المرأة اليهودية في وسط آسيا أسرع بكثير، خـاصة بعد أن فرض النظام السوفييتي العلماني والمعادي للديـن على هذه المنطقة وشاعت ظاهرة تحرر المرأة اليهودية في هذه المنطقة منذ نهاية الثـلاثينيات، خاصة بعد أن خرجت الفتيـات الـلاتي حصلن على قسط وافـر مـن التعليم إلى العمل. وكـان من بين أسباب تزايـد قوة هذه الظاهرة أنـه قد تقطعت العلاقات بين الطـوائف اليهودية المحلية وبين سـائر الطوائف، عـلاوة على أن النظام السـوفييتي سعى إلى طمس الهويات القومية والدينية للسكـان. ومن الملاحظ أنه في الوقت الذي تضاءل فيه دور المرأة اليهودية في داخـــل الطائفــة فقـد تزايد حجـم نشاطها المهني والثقافي

في داخل المجتمع، وبالرغم من أن هذه المنطقة شهدت تطورات كثيرة، إلا أن الفصل بين الرجال والنساء مازال مستمرا حتى يومنا هذا.

أما اليمن وكردستان وأفغانستان فلم يطرأ فيها أي تغيير على وضع المرأة، خاصة أن هذه البلدان لم تتعرض إلى أي مؤثرات خارجية. وفي عدن فبالرغم من أن سكانها من اليهود تأثروا إلى حد كبير بالفكر الغربي إلا أن الاتجاهات الداعية للحفاظ على التقاليد كانت على درجة كبيرة من القوة.

ومع هجرة يهود الشرق إلى فلسطين بدأت المرحلة الحاسمة في المرأة اليهودية من التقاليد، وكان هذا التحول مصحوبا بحدوث بعض الأزمات الاجتماعية والأسرية. وبالرغم من أنه بذلت في الماضي بعض المحاولات لتحسين وضع المرأة اليهودية إلا أن كل هذه المحاولات لقيت معارضة شديدة من قبل الحاخامات، وبطبيعة الحال لم يكتب النجاح للمحاولات التي بذلها الشباب اليهودي في العراق، والهادفة إلى تعديل قوانين المواريث اليهودية، تلك المحاولات التي كانت تهدف إلى تحسين أوضاع المرأة اليهودية. وعلى كل حال من الواضح أن بعض يهود العراق وإيران وعدن كانوا قد حصلوا على قدر كبير من الثقافة العلمانية الحديثة قبل هجرتهم إلى فلسطين.

النشاط التبشيري

أقيمت في لندن في عام ١٨٠٩ «جمعية لندن لنشر المسيحية بين اليهود»، وكان مؤسسها يهوديا/ ألمانيا يُدعى جي. اس. فراي G.S.C.F. Frey وعملت هذه الجماعة على تحسين أوضاع اليهود في أوروبا وأفريقيا وآسيا، ومساعدتهم في الحصول على المساواة، وكانت كل هذه المساعدات تهدف إلى تشجيعهم على اعتناق المسيحية. ومارست هذه الجماعة في البداية أنشطتها في شرق أوروبا، ولكنها بدأت منذ عقد العشرينيات بالقرن التاسع عشر في ممارسة أنشطتها في بلدان المشرق العربي الإسلامي، واعتمدت في ذلك على تزايد نفوذ بريطانيا في المنطقة.

وبغض النظر عن الأهداف الحقيقية لهذه الجماعة، ومدى نجاحها في هذه البلدان فإنها أولت اهتماما كبيرا بمسألة نشر المسيحية في أوساط اليهود، ولذلك بعثت هذه الجماعة مبشريها إلى اليهود المقيمين في المناطق النائية، وبذلت كل ما في وسعها لتحسين أوضاع اليهود. وحرص هؤلاء على إخفاء هويتهم خشية أن يثيروا أي ردود أفعال سلبية في أوساط اليهود. ونتيجة لأن معظم المبشرين كانوا من أصول يهودية فقد كانوا على دراية واسعة باللغة العبرية والمصادر اليهودية مما مكنهم من بث الطمأنينة في نفوس اليهود عند التحدث معهم حول مشكلاتهم القومية وأوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية. وكان للمبشرين في واقع الأمر دور مهم في تجديد علاقات يهود الشرق بيهود أوروبا. ففي الوقت الذي زودوا فيه يهود الشرق بمعلومات عما يحدث في العالم، وعن المساواة في الحقوق التي ينعم بها يهود أوروبا، فإنهم أمدوا يهود أوروبا بمعلومات عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ليهود الشرق. وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء المبشرين لم ينسقوا بطبيعة الحال أنشطتهم التبشيرية مع الطوائف اليهودية الأوروبية. ولم يكتف المبشرون بإرسال تقاريرهم إلى لندن أو لفروع جماعتهم في الهند أو القسطنطينية، إذ نشر بعضهم تقارير أو يوميات مفصلة عن أوضاع يهود الشرق، ونشرت هذه التقارير إما في كتب مستقلة أو في مقالات بالصحف الأوروبية.

ورغم حصول هؤلاء المبشرين على دعم البريطانيين والأمريكيين في بلدان الشرق، إلا أنهم لم يحرزوا أي قدر يذكر من النجاح في أوساط اليهود، باستثناء إيران حيث نجحوا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين في دفع المئات من يهود إيران لاعتناق الديانة المسيحية. ولم يعتنق هؤلاء اليهود الديانة المسيحية لأسباب دينية أيديولوجية بقدر ماكان اعتناقهم لها لأسباب اجتماعية، خاصة أن السكان الشيعة في إيران كانوا يعادون اليهود. وعلاوة على الظروف السياسية والاقتصادية التي شجعتهم على اعتناق المسيحية كان لضعف القيادات اليهودية في إيران دور أيضا في انصراف اليهود للمسيحية، أضف إلى هذا أنه كانت في إيران طوائف مسيحية وأرمنية على قدر كبير من القوة والتأثير. وحقاً فقد كانت ظاهرة اعتناق اليهود للديانة المسيحية شائعة في إيران أكثر من أي بلد آخر.

وقد اعتمد هؤلاء المبشرون في اتصالاتهم بيهود الشرق على الكتب المقدسة،

فنشرت الجمعية التبشيرية في لندن في عام ١٨١٧ ترجمة عبرية للعهد الجديد، وقامت فيما بعد بنشر العهد القديم باللغة العبرية، وباللغات الشائعة في أوساط يهود الشرق مثل: العبرية اليهودية، الفارسية اليهودية، واللادينو*، وكان المبشرون يوزعون على يهود الشرق نسخا مجانية من هذه الكتب، وكان اليهود يرحبون بهذه الكتب لاسيما أنه لم يكن ليهود الشرق أعداد كافية من الكتب المطبوعة، ولكنهم أوقفوا التعامل معهم بعد أن اتضحت لهم النوايا الحقيقية للمبشرين بل قاموا وبموجب أوامر الحاخامات بإحراق الكتب التي كانت وزعت عليهم، ومع هذا سمحت المحكمة العليا اليهودية بالقدس ليهود الشرق باستخدام نسخ العهد القديم التي ترجمت إلى لغاتهم المحلية، والتي كان المبشرون نشروها في الشرق.

وكان المبشرون يرون أن أنشطتهم تهدف في المقام الأول إلى تحسين أوضاع يهود الشرق، وأنه من الممكن نشر المسيحية في أوساطهم عن طريق تأسيس مدارس دينية مسيحية لمصلحة أطفال اليهود، فنشر المبشر يعقوب صموئيل هكوهين في عام ١٨٤٠ خطة مفصلة بشأن إقامة مدرسة ليهود عدن، ولكنه فشل فشلا ذريعا. وفي إيران أسس المبشرون الأمريكيون في عقود السبعينيات والثمانينيات والتسعينيات من القرن التاسع عشر عدة مدارس للأطفال اليهود في مدن همدان وأصفهان وطهران، وجذبت هذه المدارس أعدادا كبيرة من اليهود، خاصة أنهم درسوا بها العهد القديم على أيدي مدرسين يهود، ومدرسين مسيحيين من أصول يهودية. وعمل المبشرون أيضا على تقديم خدمات طبية مجانية لليهود، وكانت كل هذه الأنشطة تهدف إلى الحصول على ثقة العائلات اليهودية.

* اللادينو: هي اللغة السفاردية اليهودية التي تحدث بها أحفاد اليهود الذين طردوا من إسبانيا في مناطق إقامتهم المختلفة: شمال أفريقيا، وبلاد البلقان والشرق الأوسط، وفي العصر الحديث في الولايات المتحدة الأمريكية ودول أمريكا اللاتينية. واللادينو هي إسبانية إنديانية، وهي كذلك كنية للإندياني الذي يتحدث الإسبانية. واللادينوخليط من عدة لغات أهمها: الإسبانية والعبرية الدينية والفرنسية (اعتبارا من القرن ١٩). ويستخدم متحدثو اللادينو الخط «الراشي» (خط ابتدعه ربي شلومو بريتسحاق في القرن الحادي عشر) دون حركات، ويستخدمون حاليا في بعض مطبوعاتهم الأبجدية اللاتينية. بدأت عوامل الفناء تدب في هذه اللغة لانتشار المدارس الحديثة في مناطق شيوعها — (المراجع).

ولقيت الأنشطة التبشيرية في إيران نجاحا كبيرا بسبب ضعف البنية التنظيمية للطائفة علاوة على عدم إلمام القيادة الدينية بأصول الديانة اليهودية بشكل كاف، كما حققت هذه الأنشطة قدراً ما من النجاح في عدن، خاصة أن أعدادا كبيرة من يهود عدن كانت تتطلع إلى الحصول على قدر كبير من الثقافة العلمانية. وفي المقابل فشل النشاط التبشيري فشلا ذريعا في العراق واليمن وبخارى، خاصة أن زعماء الطوائف اليهودية في هذه البلدان كانوا على وعي كامل بالأهداف الحقيقية لهذه الأنشطة. أضف إلى هذا أنه كانت توجد بها مدارس يهودية جيدة. وفي بخارى على سبيل المثال أعرب الحاخام يوسف ممان عن معارضته الشديدة لأنشطة هذه الجماعة بل وأصدر أمراً بإحراق كل نسخ العهد الجديد التي تلقاها يهود بخارى من روسيا.

ويتضح من كل ما تقدم أن تأثير الأنشطة التبشيرية في مسيرة تطور الفكر الحديث في أوساط يهود الشرق كان محدودا للغاية، بل وعديم الأهمية باستثناء إيران وعدن. ويتضح أيضا أن يهود هذه البلدان أعربوا دائما عن معارضتهم للمبشرين. وحينما كان المبشرون يؤسسون بعض المدارس للتلاميذ اليهود فإنهم كانوا يستغلونها للتأثير في عائلاتهم، ومع هذا يرجع للمبشرين فضل توثيق العلاقات بين يهود الشرق والغرب.

أنشطة جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» والمنظمات اليهودية الأخرى في مجال التعليم والتغييرات في الصورة الذاتية لليهود

تجددت منذ منتصف القرن التاسع عشر علاقات يهود الشرق بالغرب، بعد فترة طويلة من الانقطاع، وشعر يهود أوروبا الذين كانوا ينعمون آنذاك بالمساواة بأنه من الممكن استغلال سياسة التنظيمات التي انتهجتها الدولة العثمانية لتجديد العلاقات مع يهود الشرق، وبدأ يهود أوروبا الغربية منذ ذلك الحين في التدخل لمصلحة يهود الشرق بعد أن لاحظوا أن القوى الأوروبية تتدخل لمصلحة الطوائف المسيحية.

ويرجع تاريخ تدخل يهود أوروبا الغربية بشكل فعلي لمصلحة يهود الشرق إلى عام ١٨٤٠ الذي تعرض فيه يهود دمشق إلى حادثة على إثر اتهامهم بقتل أحد المسلمين فتدخلت آنذاك العديد من الشخصيات اليهودية المرموقة في أوروبا لمصلحة يهود

سوريا، كان من بينها: موشي مونتيفيوري في لندن وأدولف كرميه ويعقوب روتشيلد في باريس، وشلومو روتشيلد في النمسا. وكان التدخل في هذا الحين يتم على أساس المبادرات الفردية إذ لم تكن توجد آنذاك تلك المنظمات التي تعمل حاليا لمصلحة اليهود، فكانت هناك منظمتان يهوديتان دوليتان فقط وهما منظمة «مبعوثي الطوائف» التي اقتصرت أنشطتها على الإشراف على يهود الإمبراطورية البريطانية. ومنظمة «المجمع المركزي» التي اقتصرت أنشطتها على يهود فرنسا وبلجيكا.

وتأسست في باريس في عام ١٨٦٠ جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» وتمثلت أهدافها في مساعدة يهود كل الدول، وتخليصهم من الاضطهادات التي يتعرضون لها، والارتقاء بمستواهم الروحي والفكري، وسرعان ما أقيمت فروع عديدة لهذه الجماعة في العواصم الأوروبية المختلفة مثل برلين والقسطنطينية وبعد مضي عشر سنوات على تأسيس هذه الجماعة تأسس في إنجلترا في عام ١٨٧٠ الاتحاد الإنجليزي اليهودي الذي كان على صلة وثيقة بجماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء». وبعد مضي بضع سنوات على تأسيس المنظمتين، سرعان ما كرستا جهودهما لمصلحة يهود أوروبا الشرقية والبلدان الإسلامية. وكان قادة هذه المنظمات يمارسون أنشطتهم بالشرق إما عن طريق الاتصال بحكوماتهم التي كانت تضغط بدورها على حكام الشرق حتى يتيحوا لهذه المنظمات فرصة العمل والاتصال باليهود، أو عن طريق الاتصال المباشر مع «الباب العالي» في القسطنطينية، وهذا عبر فروع جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» أو مع مندوبي القوى الشرقية في أوروبا الغربية. وكانت كل هذه الاتصالات تهدف إلى تحسين أوضاع الطوائف اليهودية بالشرق وتخليصها من أي ضغوط سياسية أو دينية تتعرض لها، وكانت كل هذه المنظمات تبعث في بعض الأحيان مندوبيها إلى الطوائف اليهودية بالشرق للتعرف عن كثب على أوضاعها، وعلى سبل الارتقاء بمستواها الفكري.

وكان للصحافة اليهودية سواء الصادر منها بالعبرية أو باللغات الأوروبية في أوروبا والتي نذكر منها صحف «ذى جويش كرونيكل». و«همجيد» و«هلفانون» و«هحفتسلت»، وكان للتقارير التي نشرها المبشرون بالصحف الأوروبية دور مهم في توعية يهود أوروبا بأوضاع يهود الشرق، ولعبت التقارير التي نشرتها جماعة «كل

أصدقاء إسرائيل ورابطة الإخـوان»، التي نظمت معلومات كثيرة عن نشاط المنظمات اليهوديـة الأوروبية دورا مهما في تـوعية اليهـود الأوروبيين بأوضاع يهود الشرق. وعلى هذا النحو تعد التقارير التي نشرتها المنظمات والصحف اليهودية مصدراً مهما لدارسي تاريخ يهود الشرق في القرن التاسع عشر.

وكان لـلأنشطة التي قـام بها مونتيفيـوري وكرميـه والأخوان روتشيلـد في أعقاب حادثـة ١٨٤٠ أكبر الأثـر في يهود الشرق، حيث أنقـذت هذه الأنشطـة بعض يهود دمشق من عقـوبة الإعدام، وتكمـن أهميتها أيضا في أنها جعلتهم يشعـرون بأن يهود أوروبا ينعمون بالمساواة والأمن وأنه بمقدورهم الدفاع عنهم وتوفير الأمن اللازم لهم، وأدى تـدخل اليهـود الأوروبيين لمصلحة يهود الشرق إلى تـزايـد قـوة مشاعـر الإخـاء ووحـدة المصير بين اليهود. ويمكننـا على هـذا النحـو فهم ظـاهرة قيـام يهود الشرق بتقـديم طلبات إلى المنظمات اليهـوديـة الأوروبية طـالبـوا من خـلالها بتدخل اليهـود الأوروبيين لمصلحتهم. ويرجع إلى بعض الشخصيات اليهودية فضل توثيق علاقات يهود الشرق بـالغرب، حيث لعب الحاخـام يـوسف ممـان، على سبيل المثال، الـذي هاجـر من صفد إلى بخـارى في عام ١٧٩٣، دورا مهما في توثيق العـلاقات بين يهود وسط آسيا ويهود شرق أوروبا وفلسطين. ولا يمكننا أيضا أن نغفل الدور المهم الذي لعبه الحاخام موشي حانوخ هليفي في هذا الصدد. فقد استقر الحاخام حانوخ هليفي الروسي الأصل إبـان عقد الأربعينيـات بالقـرن التاسع عشر في عـدن، وكان أول من بعث خطـابـا إلى صحيفة «جـويش كـرونيكل»، تنـاول فيه طبيعـة المشكـلات التي يـواجهها يهود صنعـاء. أما بغـداد فيرجع إلى إسحاق لـوريا الـروسي الأصل وتسفي روزنفلد الألماني الأصل اللـذين استقرا في بغـداد في عام ١٨٥٠ فضل إنشـاء مدارس حديثة، والاتصال بجماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء».

وقد شملت أنشطة المنظمات اليهودية بغرب أوروبا مجالين رئيسيين وهما: التدخل لصالح يهود الشرق والتخفيف من حـدة الضغوط التي يتعرضـون لها، والسعي نحو إقامـة مؤسسات يهودية تعليميـة حديثة بـالشرق. وسنبحث في الفصل السادس من هـذا البـاب طبيعـة العـلاقـات التي سـادت بين يهود الشرق ويهود فلسطين وسـائر الطوائف اليهودية الأخرى، وظاهرة تـدخل المنظمات اليهودية بأوروبا الغربية لصالح

يهود الشرق. ولكننا نكتفي هنا بالإشارة إلى أن تدخل هذه المنظمات لم يسفر عن أية نتائج عملية، ومع هذا تكمن أهمية هذه الأنشطة، وعلى حد ماجاء في الخطاب الذي بعثه زفولون بيا هليفي من إيران إلى مونتيفيوري في لندن، في أنها خلقت إحساسا بوحدة المصير بين اليهود، وسنكتفي هنا بعرض الأنشطة التي قامت بها المنظمات اليهودية وخاصة جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في مجال التعليم، وسنسعى إلى التعرف على نتائج هذه الأنشطة ومدى علاقتها بتحسن صورة اليهودي في بلدان الشرق.

وكانت مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» تقام في الشرق بعد أن كان أبناء أي طائفة يهودية بالشرق يطلبون من مركز الجماعة في باريس إقامة مدارس لهذه الجماعة في بلدانهم، وتقدمت أعداد كبيرة من يهود الشرق بهذه المطالب بعد أن تزايد إحساسها بعدم الارتياح إزاء الوسائل التربوية المتبعة في المدارس، وإزاء مضمون المناهج التي اقتصر دورها على تدريس المواد الدينية فقط، حيث كان من الواضح لأبناء هذه الطوائف أنه ليس بمقدور مثل هذا النظام التقليدي من التعليم تأهيل اليهود للاندماج من الناحيتين الفكرية والاقتصادية في المجتمع، خاصة في ظل الفترة التي كانت تطرأ فيها العديد من التغييرات القانونية والاجتماعية على أوضاع اليهود.

وكانت نظم التعليم اليهودية التقليدية بالشرق إبان القرن التاسع عشر تعيش في حالة لا مثيل لها من الركود والتدهور. فكان الوضع التعليمي في إيران واليمن بالغ السوء لما تعرض له يهود البلدين من ضغوط عديدة، ونستثني من هذا الوضع بغداد التي شهدت منذ النصف الأول بالقرن التاسع عشر حركة نهضة ضخمة في مجال التعليم التقليدي، حيث أنشأ الحاخام عبد الله سوميخ في عام ١٨٤٠ مدرسة «أبو منشي» الدينية، التي كانت تمنح التلاميذ اليهود قدرا كبيرا من المعرفة الدينية يؤهلهم لشغل منصب حاخامات الطائفة في المستقبل، ومع هذا لم يكن بمقدور هذه المدرسة الارتقاء بالمستوى التعليمي لكل أبناء الطائفة اليهودية في بغداد، وأسس إسحاق لوريا وتسفي روزنفلد، اللذان سبقت الإشارة إليهما في عقد الستينيات بالقرن التاسع عشر فرعا لجماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في بغداد، وهذا بعد

أن طالبا هذه الجماعة بإنشاء مدرسة يهودية تتبع النظم التعليمية الحديثة، واستجابت الجماعة بالفعل لهذا المطلب، وأرسلت حاخاما فرنسيا تولى مهمة إدارتها.

أما في إيران فكان الوضع التعليمي في أوساط اليهود بالغ السوء، حيث لم يكن بمقدور التلاميذ اليهود مطالعة كتاب الصلوات اليهودية والتوراة. وحينما التقت قيادات جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» بناصر الدين شاه أثناء زيارته للعاصمة الفرنسية باريس في عام ١٨٧٥، طلبت منه السماح بإقامة مدرسة حديثة لليهود، واستجاب لهذه الفكرة ولكن الجماعة لم تستغل التصريح الذي منحها الشاه إياه، وفي إطار الجهود الرامية إلى تحسين التعليم اليهودي، أنشأ مجموعة من الشباب اليهودي في طهران مدرسة لتعليم التلاميذ اليهود اللغات الشرقية والأوروبية والمواد الدينية. وبالرغم من أن يهود إيران لم يتوقفوا عن مطالبة هذه الجماعة بافتتاح مدرسة يهودية حديثة في طهران إلا أن هذه الجماعة رفضت هذا المطلب، وعللت رفضها بصعوبة تمويل مثل هذا المشروع. وعند زيارة الشاه لباريس مرة أخرى في عام ١٨٨٩ طلب مندوبو هذه الجماعة منه السماح لليهود بالالتحاق بمدارس الدولة، ولكنه لم يستجب لهذا المطلب لتخوفه من إثارة مشاعر المسلمين، ولكنها سارعت في عام ١٩٨٩ بتأسيس أول مدرسة لها في طهران، وعلى غرار المدرسة التي أسسها بعض الشباب اليهودي، وهذا بعد أن لاحظت أن أعداداً كبيرة من اليهود التحقت بالمدارس التبشيرية.

وبُذلت في كل من اليمن وعدن بضع محاولات لإقامة مدارس يهودية حديثة، فتوجه في عام ١٨٧٥ الفريد فالك مندوب رابطة «الإخوان اليهود» بأوروبا إلى عدن، وأجرى بها عدة مفاوضات مع قادة الطائفة اليهودية الذين رحبوا بإنشاء مدرسة يهودية حديثة، ورحب اليهود بهذه الفكرة لأن نظامهم التقليدي في التعليم لم يكن يتناسب مع احتياجات العصر الحديث، علاوة على أنه لم يكن بمقدورهم الالتحاق بالمدارس الحكومية البريطانية خاصة أن اليهود لم يكونوا على معرفة باللغة الهندوستانية المتبعة في هذه المدارس. وافتتحت رابطة «الإخوان اليهود» الأوروبية في عام ١٩١٢ مدرسة يهودية حديثة في عدن.

وشهدت الطائفة اليهودية في اليمن في نهايات القرن التاسع عشر وبفضل جهود الحاخام يحيى قافح وتلاميذه حركة نهضة هادفة إلى تحسين طرق التعليم، وتطوير المناهج الدراسية، كما جرت خلال الفترة الواقعة بين عامي ١٩٠٣ و ١٩١٤ اتصالات عديدة بين جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في باريس وفروعها في القسطنطينية وبين قادة الطائفة اليهودية في صنعاء والسلطات التركية بغرض إقامة مدرسة يهودية حديثة، كما قامت هذه الجماعة بإرسال اثنين من مبعوثيها وهما ـ ا. سوميخ، وي. تسيمح — إلى اليمن لبحث إمكانات إقامة هذه المدرسة. وبالرغم من أن يهود صنعاء أبدوا تحمسهم الشديد لفكرة إنشاء مدرسة يهودية حديثة إلا أن آمالهم تبددت بسبب معارضة السلطات التركية لهذه الفكرة، ثم تمكن الحاخام يحيى قافح خلال الأعوام ١٩٠٩-١٩١٣ من إنشاء مدرسة محلية حديثة حظيت بتأييد الأتراك، ولكنه اضطر لوقف أنشطته نتيجة للخلافات التي وقعت في داخل الطائفة، ولاعتراض بعض اليهود على طبيعة التوجهات الحديثة المتبعة فيها.

ولم يكن الدرب الذي انتهجته مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في العراق وإيران مفروشا بالورد، لا سيما أن القيادة الدينية في هذين البلدين أبدت معارضتها الشديدة لهذه المدارس لاهتمامها فقط بتدريس المواد العلمانية واللغات الأجنبية، وعدم اهتمامها في المقابل بتدريس المواد الدينية. وتزعم الحاخام يوسف حاييم الذي كان من أبرز الشخصيات الدينية في القرن التاسع عشر الاتجاه المعادي لهذه المدارس، بل أصدر فتوى وقع عليها كل حاخامات الطائفة قضت بمنع أطفال اليهود من الذهاب لهذه المدارس، وصدرت هذه الفتوى بعد أن حاولت هذه الجماعة افتتاح مدارس للفتيات اليهوديات في بغداد، كما عارض الحاخام أيضا محاولات تدريس المواد العلمانية واللغات الأجنبية في المدارس اليهودية التقليدية.

وفي إيران زعم الحاخامات أن النظام التعليمي الذي تنتهجه مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» يضعف من مكانة الدين، ومن قوة الروابط الأسرية بل ويشجع الشباب اليهودي على اعتناق الديانة المسيحية أو البهائية أو الإسلام.

وبالرغم من معارضة الحاخامات للنظام التعليمي الحديث إلا أن مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» حققت قدراً كبيراً من النجاح في العراق، فقدر في عام ١٩١٠ عدد الدارسين اليهود الذين التحقوا بمدارس هذه الجماعة بثلاثة آلاف تلميذ، ولم تكن هذه المدارس منتشرة فقط في بغداد أو في المدن الجنوبية من العراق فقط مثل البصرة والحلة والعمارة وخاناقين وإنما كانت منتشرة أيضا في المدن الواقعة بشمال العراق مثل مدينتي الموصل وكركوك. وفي إيران قدر عدد الدارسين في هذه المدارس في عام ١٩١٢ بألفي ومائة يهودي، وانتشرت هذه المدارس في طهران وهمدان وأصفهان وشيراز وكرمنشاه وتوشكرجان ونهاوند، وتزايد عدد الدارسين فيها بعد أن اتضح للجميع أن مناهج التعليم المعتمدة في هذه المدارس تساعد اليهود على الانخراط في صفوف العمل بالجهات الحكومية. وكان هناك شقان رئيسيان بل متناقضان للأنشطة التي مارستها جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» والمنظمات اليهودية الأخرى في مجال التعليم، وفي سائر المجالات الخاصة بمساعدة يهود الشرق. وتمثل الشق الأول في أن هذه الأنشطة ساهمت بشكل فعال في الارتقاء بوضع اليهود في الشرق إذ إنها لم تقتصر على منح قسط كبير من التعليم الحديث ليهود العراق، وإنما شملت التدخل لمصلحة يهود الشرق. وبالرغم من أن نشاط المنظمات في هذا المجال كان محدوداً إلا أن قادة هذه المنظمات كانوا يخاطبون عادة الشخصيات الدبلوماسية الأوروبية، ويطالبونها بالتدخل لمصلحة يهود الشرق. وكانت كل أنشطة هذه المنظمات تهدف إلى خلق نموذج جديد للشخصية اليهودية، وتشجيع اليهود على الاندماج في الحياة الحديثة، وتبني المهارات اللازمة التي من شأنها تمكينهم من الاندماج في المجتمع، كما حرص قادة هذه الجماعة على زرع مبادىء الحرية والإخاء والمساواة في نفوس الطلاب اليهود، ولا غرابة في هذا الأمر حيث إن هؤلاء كانوا من أشد مؤيدي الثورة الفرنسية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن يهود الشرق الذين سافروا إلى القسطنطينية أو إلى سائر البلدان الأوروبية بغرض الحصول على نصيب أكبر من الدراسة تأثروا إلى حد كبير بروح التفاؤل التي غمرت أوروبا آنذاك.

وتمثل الشق الثاني للأنشطة التعليمية التي قامت بها هذه المنظمات في أن المناهج التعليمية بهذه المدارس لم تول اهتماما يذكر بالتقاليد اليهودية أو بالتقاليد المحلية،

فكانت مناهج التعليم المتبعة في مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في العراق وإيران مناهج أوروبية فرنسية لم تهتم كثيرا بالدراسات الدينية اليهودية. ومن هنا فلاغرابة في أن التلاميذ اليهود الذين تلقوا تعليمهم في هذه المدارس شعروا بالانفصال التام عن عالم الطائفة اليهودية وعن تراثها الأدبي والفكري، بالإضافة إلى أن التلاميذ اليهود لم يتلقوا في هذه المدارس أي مواد تعليمية تؤهلهم للمساهمة في النشاط القومي للمجتمع أو التعاطف معه.

ولم تنجح هذه المدارس أيضا في أن تجعل من الشخصية اليهودية بالشرق شبيهة بالشخصية اليهودية في فرنسا التي رأت أنها فرنسية في المقام الأول وأنها تنتمي من الناحية الدينية إلى الديانة اليهودية، وأسفرت المناهج التعليمية لهذه المدارس عن ابتعاد اليهود عن عالم الديانة اليهودية، وعن حركة النهضة القومية اليهودية، وعن عدم تحمسهم للاتصال بالحركة الصهيونية. ويمكننا على هذا النحو تفهم الأسباب التي جعلت الدوائر الدينية المحافظة في كل من العراق وإيران تعرب عن معارضتها لنشاط جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء»، ولكننا لا نعتقد أن الأنشطة التي مارستها هذه الجماعة في إيران قد شجعت الشباب اليهودي — على حد قول معارضيها — على تغيير ديانتهم والاندماج في المجتمع. ومع هذا نتصور أن أنشطة هذه الجماعة ساهمت في التقليل من قوة تمسك اليهود بالتقاليد. وفيما يتعلق باعتناق بعضهم للمسيحية أو الإسلام فقد كان هذا الأمر نتيجة لأنشطة المبشرين في إيران، ولتعرض بعضهم لبعض المضايقات من قبل السكان، ولم يكن نتيجة لأنشطة مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء».

وكانت أوضاع اليهود في العراق تختلف إلى حد ما عن أوضاع اليهود في إيران، فقد رحب البعض منهم في أعقاب ثورة «تركيا الفتاة» — التي قامت في عام ١٩٠٨ — بأفكار الحركة القومية التركية التي كان يحق لأبناء كل الطوائف الدينية المختلفة بمن فيهم اليهود المشاركة فيها، ومع هذا لم ينظر المجتمع الإسلامي آنذاك بعين الترحاب إزاء انضمام اليهود إلى الحركة القومية التركية، كما أن يهود العراق وقفوا بجانب الشعب العراقي بعد أن سقط العراق تحت الاحتلال البريطاني. وفتح البريطانيون أمام يهود العراق فرصا كثيرة تجاوزت بكثير مكانتهم وثقلهم في المجتمع، فأتاحوا لهم على سبيل

المثـال العمل في قطـاعي الخدمات والتعليـم العالي، ولعب اليهـود في مجالات الفنـون والآداب دورا مهما في حـركة النهضـة الروحيـة والقوميـة، وكتب الأدباء اليهـود أعمالهم باللغـة العربيـة وليس بـاللغة العـربية اليهـودية* أو بـالعبريـة، وتنـاولـوا في أعمالهم موضوعات أدبية عامة، وانخرط اليهود العراقيون على مدى فترة طويلة في حياة المجتمع العراقي، ولكن عنـدما بدأت الحركـة القوميـة العراقية في تبني بعض المواقف المعـادية لليهود، طرأت بعض التغييرات على موقف المجتمع اليهودي إزاء العراق.

وعلى كل حـال فليس من الممكن أن نتصـور أن الأنشطة التي قـامت بها جماعـة «كل شعب إسرائيل أصـدقـاء» هـي التي أدت إلى حـدوث كل هـذه التحـولات في أوساط يهود العراق، حيـث خضعت مدارس هذه الجماعة بعـد الحرب العالمية الأولى للطـائفـة اليهـودية التي حـرصت قيـاداتها في العصر الحديث على تحسين الـوسـائل التعليمية والارتقاء بمضمـون المناهج الدراسيـة، بالإضافة إلى هـذه المدارس اليهودية التي جذبت أعدادا كبيرة من اليهود، تلقت أعـداد كبيرة من التلاميذ اليهود دراستها في المدارس الحكومية التي أولت بطبيعة الحال اهتماما كبيرا بالدراسات التقليدية.

وبشكل عام فـإن الأنشطة التي قامـت بها جماعة «كل شعـب إسرائيل أصـدقاء» وسائر المنظمات اليهـودية لتطـوير التعليم اليهودي وحمايـة حقوق اليهـود ساهمت في تحسين صورة اليهودي بالشرق، ولكنها لم تؤد إلى حدوث صحوة قومية في أوساطهم، ولم تساهم أيضا في تقوية ارتباطهم بالتقاليد اليهودية

تأثير التغييرات الاقتصادية والاجتماعية في ظهور الاتجاهات العلمانية بأوساط اليهود وفي عدم تضاؤل مكانة الدين في أوساط الصفوة

ساهم تزايد نفوذ أوروبا السياسي والاقتصادي في بلدان الشرق في تعرف يهود هذه البلدان على الأفكار الـداعية إلى التقدم والتنويـر والمساواة في المجتمع، كما أصبحت

* اللغة العربية اليهودية: بعد دخول الإسلام للبـلاد العربية في القرن السابع الميلادي استخدم اليهود اللغة العربية المطعمة ببعض الكلمات العبرية وكـانوا يكتبونها بالحروف العبرية.. ويتحدثون بها فيما بينهم، وقد شاعت بصفة خاصة بين يهود العراق ويهود اليمن.

حياة الصفوة من يهود الشرق في العصر الحديث شديدة الشبه بحياة الأوروبيين، فحرصوا على محاكاة أساليب حياة الدبلوماسيين الأوروبيين، وقوات الدول الغربية التي سيطرت على معظم دول المنطقة، والتجار الأوروبيين سواء الذين استقروا في المنطقة أو الذين كانوا يأتون للشرق للإشراف على أنشطتهم التجارية، والصحفيين والعلماء، والرحالة، والسياح. ولاشك أنه كان للمتغيرات السياسية التي شهدتها المنطقة منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر أكبر الأثر في تزايد قوة الاتجاهات القومية في الكيانات السياسية المختلفة بالمنطقة، وكان من بين مظاهر هذه التغيرات: تضاؤل قوة الاتجاهات الدينية بالمجتمع، وتزايد قوة الاتجاهات الداعية إلى التخلص من سيطرة رجال الدين الذين لم يكونوا على استعداد للتنازل عن زعامتهم السياسية والاجتماعية، أي كما حدث في إيران وأفغانستان وبخارى. وبعد أن حصلت بلدان المنطقة على استقلالها لم تعد القوانين الإسلامية هي مصدر التشريع، ولكن الإسلام ظل بطبيعة الحال الديانة الرسمية لكل هذه الدول. وتزايدت إبان نفس الفترة في الطوائف اليهودية التي كانت جزءا من المجتمع، قوة الاتجاهات الداعية إلى العلمانية فبدأ اليهود، بعد أن تزايدت في أوساطهم الرغبة في الاندماج بالمجتمع في التخلي عن تعاليمهم الدينية، واستغلال الفرص التي سنحت لهم بعد تغير أوضاعهم القانونية. وكان هذا التحول نتيجة طبيعية لما حدث من تناقض بين رغبتهم في التمسك بالتعاليم الدينية ورغبتهم في الاندماج في حياة المجتمع. ومع هذا لم تظهر في المجتمع اليهودي بالشرق أية أفكار معادية للدين، وكان شأنهم في هذا شأن المجتمع الإسلامي. وإذا كانت مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» تعرضت لانتقادات حادة من قبل الحاخامات فإن هذه الانتقادات وجهت إليها لعدم اهتمامها بتدريس أصول الشريعة وليس لترويجها لأية أفكار معادية للدين. ويجب أن نلاحظ في هذا المجال أنه بينما تسيطر بعض الأيديولوجيات العلمانية مثل أيديولوجية البعث على كل من سوريا والعراق إلا أن هذين البلدين يعترفان بأن الإسلام هو الدين الرسمي.

وقد تفاوتت قوة مسيرة نشر الفكر العلماني في أوساط يهود الشرق من بلد إلى آخر، وكان هذا التفاوت ناجما عن تباين موقف كل مجتمع تجاه الدين والتقاليد، فلم يكن للاتجاهات

العلمانية، على سبيل المثـال، أي وجود يذكر في أوسـاط يهود اليمن وأفغانستان. لقـد كان اليمن، على سبيل المثال، حتى عـام ١٩٦٢، أي حين انـدلاع الثـورة، دولة ثيـوقراطيـة، حيث إمام الطائفة الـزيدية يتولى رئاسة الدولة، وكـان المجتمع اليمني بكل طوائفه مجتمعا بـالغ التـدين، ولـذلك حـرصت السلطـات على إلـزام المسلمين واليهـود على حـد سـواء بالتمسك بتعـاليم ديانتهم، كما تبنت السلطـات والسكان ردود أفعال عنيفـة تجاه الذين لم يلتزمـوا بتعاليم الـديانة اليهـودية. وفي الواقع، فإن الحكـم الذاتي الذي منحتـه السلطات لليهود، كفل للقيادة اليهـودية حق الإشراف على مدى التزام اليهود بالتعاليـم الدينية. وقد ضعفت إبان فترة الحكم التركي لليمن — باستثنـاء الفترة التي تولى فيها الإمام يحيى الحكم (١٩١٢-١٩١٨) — قوة التوجهـات الدينية للسكان، وقل تمسك يهود صنعـاء بالتعاليم الـدينية. وكـانت طـريقـة الحياة التي اتبعهـا القـادة الأتراك في الحكم تتسـم بقدر مـا من العلمانيـة، ولـذلك أحس أتبـاع المذهب الـزيـدي في اليمن أن الأتـراك كفـرة، ليس فقط لكـونهم من أتباع المذهـب الحنفي، وإنما لعدم التـزامهم بتنفيـذ تعـاليم الإسلام، ولعـدم احترامهم تقـاليد أهل اليمن. واختلطـت أعداد كبيرة من يهود اليمن مع الموظفين والجنـود الأتراك، وحاكوا أسلوبهم في المعيشة بل واستخف البعض منهم بتعـاليم الديانة اليهودية. وخـدمت بعض النسـاء اليهوديـات في منـازل الأتراك، الأمـر الـذي لم يسمح بـه الرجـال المسلمـون لبناتهم، وفي عهـد الحكم التركي لليمن تجددت ظـاهـرة اشتغال بعض النسـاء اليهوديات في صنعاء بالدعارة. ولم يكن ابتعاد اليهـود عن تعاليم الديانة اليهودية ناجما عن حرصهم على محاكاة أسـاليب حياة الأتراك فحسب وإنما أيضا لضعف صـلاحيات القيادة الدينية اليهودية التي لم تحظ بأي دعم أو تأييد من الأتراك. وعلى كل حال عادت كل الأمور إلى ماكانت عليه بعد أن تولى الإمام يحيى مقاليد الحكم في اليمن.

أما في أفغانستـان فلم يكن هناك أي وجود للاتجاهات العلمانيـة، إذ كان الدين مسيطـرا على كـافـة أوجه الحيـاة، ولـذلك لم يكن من المتـاح لليهـود بطبيعـة الحال الاندماج في المجتمع. وسعى أمان الله خان (١٩١٩-١٩٢٩) إلى تطبيق نهج ليبرالي في الحيـاة، وفـرض أسـاليب الحيـاة الأوروبيـة في الملبس وغيره على المجتمع، ولكن محاولته باءت بفشل ذريع واضطر للتنازل عن الحكم بعـد أن تعرض لضغوط عديدة من قبل رجـال الـدين المتشـدديـن. وبطبيعـة الحال، لم يكن من الممكن أن يشهـد

المجتمع اليهودي في أفغانستان أية اتجاهات علمانيـة خاصة أنه لم يكن بأفغانستان أي وجود أوروبي يتيح لليهـود فرصة محاكاتهم في أسـاليب معيشتهم ، بالإضافـة إلى أنه لم تؤسس في أفغانستان أيضا أية مدارس حـديثة على غرار تلك التي أقامتها جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في بعض بلدان الشرق .

وقد تمسك سكان عدن من اليهود بشكل مذهل بتعاليم الديانة اليهودية ، بالرغم من أن إقـامتهم في هذه المدينـة السـاحلية أتـاحت لهم فرصـة الاختـلاط بالأجـانب والبريطـانيين على وجـه الخصـوص . وكـان معظـم يهود عـدن من اليهـود السفـاراد والأشكناز الـذين هـاجروا إلى عدن واستـوطنوا بها منـذ القرن التـاسع عشر، وتلقت أعداد كبيرة منهم تعليمها في مـدرسة رابطة «الإخوان اليهودية» . ولا حـاجة بنا للقول إن البريطانيين ألغوا منذ احتلالهم لعدن ضريبة الجزيـة ، وأتاحوا لليهود فرصة العمل بالأجهزة الحكـومية أو في قطاع الخدمات . وبالرغم من أن البريطـانيين منحوا اليهود تسهيـلات كثيرة في عـدن ، إلا أن هؤلاء الآخـرين ظلـوا متمسكين بتعـاليم الديـانـة اليهودية ، فرفضوا ، على سبيل المثال ، العمل يـوم السبت احتراما لقداسة هذا اليوم ، وتفيد بعض الأعمال التي وصفت حيـاة يهود عدن في نهاية عقد الأربعينيـات من هذا القرن أن كل المحال اليهودية كانت تتوقف عن العمل بالكامل في يوم السبت .

وكان العامل الرئيسي الذي أتاح ليهود عدن فرصة الحفاظ على التقاليد الدينية أن قيادة الطائفة الروحية كانت مركزة في أيدي عائلة موسى التي كانت على قدر كبير من النفوذ والهيمنة . ولم تسيطـر هذه العائلة على زعامة الطـائفة فحسب ، وإنما سيطرت أيضا على مجال العـلاقات مـع المحكمة القضائيـة اليهوديـة العليا في صنعـاء ، ومع السلطات البريطـانية ، وكافـة مؤسسات الحركـة الصهيونيـة ، هذا بالإضـافة إلى أنها كـانت على قـدر كبير من النفـوذ الاقتصادي . ولـذلك كـان أي تمرد أو خـروج على تعـاليم الدين يعـد بمنزلـة دعوة صريحة لتحـدي المكانـة التي كانت تشغلهـا عائلـة موسى ، وحافظت هـذه القيادة على أطر الحياة التقليديـة بشكل لا يخلو من الصرامة بغرض الحيلولة دون الخروج عن التعاليم الدينية .

وتزايـدت قوة الاتجاهات العلمانيـة في أوساط اليهود الـذين أقاموا بـالبلدان التي أتاحت لهم فـرصة المشاركة في الحيـاة العامة ، وينطبق هذا الأمـر على وضع اليهود في

كل من العـراق وإيـران وبخـارى، ولكن تفـاوتت بـالطبع قـدرة يهود كل بلـد على الاندماج في حياة الدولة . وعلى كل حال فقد شارك يهود كل هذه البلدان في الهيئات التعليمية الحكومية أو في المدارس اليهودية الحديثة . واندمج يهود العراق، على سبيل المثال، في حياة الدولة بعد ثورة الأتراك التي قامت في عام ١٩٠٨ . كما أتيحت ليهود بخارى فرصـة الاندماج في حياة المجتمع بعد الحرب العـالمية الأولى، بعد أن تأسس فيها النظام السوفييتي . أما في إيران فقد أتـاح وصول عائلة بهلوي إلى السلطة في عام ١٩٢٥ لليهود فـرصة الانـدماج في المجتمع الإيـراني . وكان للتعليم الحديـث الذي تلقاه اليهـود في هذه البلـدان، واندماجهم في حيـاة الدولـة الاقتصاديـة، سواء عن طريق العمل في هيئاتها أو عن طريق ممـارسة بعض الأنشطة الخاصة، أثرهما في تخلي أعداد كبيرة من اليهود عن التعـاليم الخاصة باحترام قداسـة يوم السبت والانتظام في أداء الصلوات، وفي انصرافهم عن التمسك بالتقاليد، وعن دراسة اللغة العبرية .

وقد سادت بطبيعـة الحال فروق ضخمة بين الطوائف اليهـودية المقيمة في المدن، مثل تلك التي أقـامت في بغـداد والبصرة وطهـران، وبين الطـوائف التي أقـامت في القرى والضواحي، وتجلت مظاهر هذه الفروق في موقف كل طائفة تجاه الدين فكان تمسك يهود كردستان، والمناطق القروية بالعراق وإيران بالدين، أكبر من تمسك يهود المدن بالتعـاليم الـدينية . وتكمن أسبـاب هذا التفاوت في أن يهود القـرى كانـوا أقل اختلاطا بالمجتمع مقارنة بيهود المدن، وأن نظـام التعليم اليهودي في القرية كان أكثر تمسكا بـالتقاليـد، أضف إلى هذا أن التحـولات الاقتصاديـة التي حدثـت في القرى كانت محدودة وضعيفة الأثر، ولذلك لم يضطر سكان القرى من اليهود إلى العمل يوم السبت مثل يهود المدن، الأمر الـذي كان يمثل خروجا على تعـاليم الديانة اليهـودية التي تحظر العمل في هذا اليوم بوصفه يوما مقدسا .

وفي إيـران تزايـدت قوة الاتجاه العلماني بشكل سريع، خـاصة أن معـرفة اليهـود الإيـرانيين بتعاليم ديـانتهم كـانت ضحلة للغـاية للـدرجـة التي كانـوا يجهلون فيهـا التعاليم الرئيسيـة للديانة اليهودية . أمـا في بخارى فقد أثرت الأيديولـوجية الشيوعية التي انتهجها النظام الشيوعي في إضعاف التقاليد اليهودية .

وكانت الأفكار العلمانية بطبيعة الحال أكثر انتشارا في أوساط اليهود الذين كانت تربطهم علاقـات اقتصادية واجتماعية وثقافيـة بالمسلمين والأوروبيين، وكان معظم

هؤلاء ينتمون إلى الطبقة الثرية في المجتمع التي تلقى أبناؤها قدراً كبيراً من الثقافة الأوروبية، والتي كانت لها اتصالات مع السلطات خاصة السلطات الاستعمارية. وكانت مسيرة انتشار الفكر العلماني قوية أيضا في أوساط أبناء الطبقة الوسطى التي عملت بالتجارة والمهن الحرة، وانتشر الفكر العلماني في أوساطهم لأسباب اقتصادية. أما أبناء الطبقات الدنيا بالمجتمع اليهودي فقد حرصوا على التمسك بشكل صارم بكل التقاليد والقيم اليهودية.

و إذا كان من الصعوبة بمكان التعرف بشكل دقيق على عدد اليهود الذين تأثروا بالفكر الأوروبي الحديث، فمن المؤكد أن هذا الأمر يتفاوت من بلد إلى آخر. ففي إيران، على سبيل المثال، تبنى ٨٠٪ من اليهود الفكر العلماني الحديث، وينطبق نفس الوضع على العراق. وفي المقابل لم تنتشر هذه الأفكار العلمانية إلا بشكل محدود في أوساط يهود بخارى. أما كردستان واليمن وأفغانستان فقد كانوا من أشد يهود الشرق تمسكا بالتعاليم والتقاليد اليهودية، وأكثرهم ابتعادا عن مسيرة الحداثة.

وبالرغم من أن يهود الشرق تأثروا إلى حد كبير بالأفكار الأوروبية، ولم يتمسكوا بالتقاليد اليهودية إلا أن العائلة اليهودية في كل بلدان الشرق حرصت دائما على الاحتفال بالأعياد اليهودية التي نذكر منها أعياد: رأس السنة اليهودية* ويوم الغفران**، والحانوكاه***. وتمسكت العائلة اليهودية أيضا بالتعاليم الرئيسية للديانة اليهودية مثل تلك الخاصة بالختان والزواج والطلاق ودفن الموتى. وبشكل

---

* عيد رأس السنة اليهودية: تنافس شهران من شهور السنة العبرية حول من يكون أجدر بهذا الاحتفال هما: شهر نيسان، بداية الربيع، وشهر تشرى (أكتوبر) عيد الحصاد. وقد اختير شهر تشري لأنه الشهر الذي قرأ فيه النبي عزرا الشريعة على أسماع اليهود فبكوا وندموا وقرروا العودة إلى شريعة الرب. وبعد تدميرا لهيكل انقطعت العلاقة بين الحصاد والاحتفال برأس السنة العبرية، واعتبروا أن أول تشري هو رأس السنة لخلو العالم، وأصبح يوما للتوبة. (المراجع)

** يوم الغفران: اليوم العاشر من شهر تشري. ويخصص هذا اليوم للتكفير عن الآثام والخطايا، ويقوم بهذا الطقس الكاهن الأعظم في المعبد. وقد اعتاد اليهود الصوم في هذا اليوم وذبح «كفارة» (كفروت) من الحيوانات والطيور توزع على الفقراء، كما تضاء الشموع في المنازل وتقام الولائم. (المراجع)

*** الحانوكاه: هو عيد إضاءة الشموع إحتفالا بذكرى حادثة اقتحام اليونانيين للمعبد اليهودي واستمرار الشموع مضاءة به لثمانية أيام رغم عدم وجود زيت كافٍ (المراجع)

عـام ليس من الممكن قـول إن مسيرة الحداثـة أدت إلى انـدماج اليهـود بـالكـامل في مجتمعاتهم وتغييرهم لديانتهم، بـالرغم من أن الكثيرين منهم لم يحرصوا على التمسك بكل التقاليد اليهودية.

وقد تضـاءلت مسيرة انتشار الفكـر العلماني الحديث في العراق وإيـران وبخارى بعد الحرب العالمية الثانية، وتوقفت هـذه المسيرة في العراق، نتيجة لتزايد قوة المشاعر القومية ولتـوسع الأنشطة الصهيونية. أما في إيران وبخـارى فتوقفت المسيرة العلمانية في أوساط سكـانها من اليهود بعـد أن تزايـدت أنشطة المؤسسـات التعليمية التـابعة للمنظمات اليهودية الدينية.

وبشكل عام، يمكننا القول إن يهود العراق وإيـران وبخارى، لم يكونوا من أكثر يهود الشرق تمسكا بـالتقاليـد اليهودية إبـان الفترة السابقـة لهجرتهم إلى فلسطين. ولم تكن هذه الظـاهرة نتيجـة لتبنيهم أيديولـوجية معـادية للدين بقـدر ماكـانت نتيجة لاندمـاجهم الكامل في مجتمعـاتهم. وكان يهود الشرق يتعاملـون خارج إطـار المنزل والأسرة والطائفة مثل سـائر أبناء المجتمع، وفي المقابل كانوا يتعاملـون داخل الطائفة وفقا للتقاليد اليهودية، ولكنهم لم يحرصوا على تنفيـذ كل الوصايا والتعاليم اليهودية. ومن الملاحظ أنـه كلما كـان ينـدمج اليهـود في الحيـاة الاجتماعيــة والاقتصـاديـة في مجتمعهم، كان يقل تمسكهم بالديانة اليهودية، وفي المقابل ظل اليهود الذين لم ينتموا إلى فئة الصفوة في المجتمع التـي ظهرت مع حدوث العديد مـن التحولات الاجتماعية والاقتصـاديـة متمسكين بأطـر الطـائفـة اليهـوديـة، ولم يسعـوا إلى طمس هـويتهم الدينية-القومية.

الخلاف بين المؤمنين بالتقاليد الدينية اليهودية وقادة التنوير

أثارت رغبة دوائر معينـة من طوائف الشرق الأوسط إقامة نظـام تعليمي حديث بالاشتراك مع جمعية «كل شعب إسرائيل أصدقـاء»، وإدخال بعض التعديلات على مضمون المناهج التقليـدية وعلى الوسائل التعليمية، أثارت غضب المؤمنين بـالتقاليد الدينية اليهودية، الذين زعموا أن مناهج التعليم الحديثة ستؤدي إلى ابتعاد اليهود عن التقاليد الـدينية وإلى عدم تمسكهم بالشرائع اليهودية. وكـانت قضية التعليم إحدى

القضايا التي أثارت خلافات شديـدة بين المؤمنين بالتقاليد الدينية وبين أتباع الاتجاه المستنير. وظلت هذه القضيـة محل خلافـات شديـدة في أوساط هـذه الطوائف حتى هجرتها إلى فلسطين، وظلت هذه القضية محل خلاف في أوساط الطوائف التي بقيت في بلـدانها حتى بعد قيـام إسرائيل. ولم يكن لهذا الخلاف أي صدى في أوسـاط يهود عدن وأفغـانستان وكـردستان حيث حرصـت قيادة الطائفـة اليهوديـة في عدن، على سبيل المثال، على تطوير التعليم اليهودي بجانب حفاظها على التقاليد اليهودية، ولم يظهـر مثل هذا الخلاف في كل من أفغـانستان وكـردستان، لأنـه لم تظهر في هـذين البلدين فئة «المسكيليم» (المستنيرون من اليهـود) الداعية إلى تغيير نظام التعليم وإلى تحدي القيادة اليهودية المحافظة.

واشتدت حدة الصراع في العراق بعد أن أقيمت به أول مدرسة تابعة لجماعة «كل شعب إسرائيل أصدقـاء» في عام ١٨٦٤، لأن كل طرف من طـرفي الصراع كان على قدر كبير من القـوة. ويجب أن نضع في اعتبارنـا في هذا المجال أن الطـائفة اليهـودية بالعراق كـانت تعد بمنزلة المركز الـروحي لكل الطوائف اليهودية بـالشرق إبان القرن التـاسع عشر. وقـد ارتبط الصراع حول قضيـة التعليم بـالعـراق بشخصية الحاخـام يوسف حاييم الذي كان من أشهر حاخـامات الشرق الذي كانت فتاويه تكاد تكون ملزمة للجميع، عارض بشدة إدخال أي تعديلات على نظم التعليم اليهودية، وكان من بين أنشطته أنه أسس بالعراق مؤسسة لإعداد الحاخامات.

وكما هو معـروف كانت بغداد واحـدة من أهم مدن الشرق، كما كـانت جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطـورية العثمانية، وقـد حلت بها في العصر الحديث أعداد كبيرة من الأوروبيين، وهاجـرت منها أعـداد كبيرة من اليهود إلى بلـدان الشرق الأقصى وإلى البلدان الأوروبية. وكان العراق من أكثر بلدان الشرق التي سنحت بها فرص تطوير المجتمع اليهـودي حيث إن سيـاسـة «التنظيمات» العثمانية سـاعـدت اليهـود وكل الأقليـات الدينيـة على اكتسـاب المزيد مـن الحقوق. وقـد عقـد يهود العراق آمـالا ضخمة على الـوالي مـدحت باشـا (١٨٦٩-١٨٧٢) الـذي منح اليهود المسـاواة في الحقوق، وسعـى نحو تطـوير أوضـاع العراق الاقتصـادية والاجتماعيـة. وعلى هذا النحـو، فقـد ظهرت في العـراق فئـة المستنيرين من اليهـود الذين انـدمجوا في حيـاة

الدولة، والذين لم تكن لهم أية ارتباطات فعلية بحياة الطائفة . وتزايدت قوة اندماج اليهود في المجتمع بعد قيام ثورة «تركيا الفتاة» وبعد أن أتاحت بريطانيا لليهود — بعد احتلالها للعراق — حق العمل في الأجهزة الحكومية . وقد ظهر في أوساط الطائفة اليهودية في بغداد في هذا الحين اتجاهان رئيسيان هما : الاتجاه التقليدي والاتجاه المستنير . وتزعم المؤمنون بالتقاليد الدينية الحاخام يوسف حاييم ، وقد خلف رئاسة هذا الاتجاه بعد وفاة يوسف حاييم في عام ١٩٠٩ أتباع الحاخام شمعون أجسي الذين شعروا بقلق بالغ إزاء ظاهرة ابتعاد الشباب اليهودي عن التقاليد اليهودية . واعتمد الاتجاه الداعي إلى الحداثة والذي مثله المستنيرون من اليهود على مساعدة جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» ، ومبعوثيها . وإذا كان هذا الاتجاه دعا إلى الحداثة إلا أنه لم يوجه أي انتقادات للدين . ومع تزايد حدة الصراع والمواجهة أعرب المؤمنون بالتقاليد الدينية عن معارضتهم لإقامة المدارس الحديثة وتدريس اللغات الأجنبية والمواد العلمانية في مدارسهم .

وكان وضع المستنيرين اليهود في اليمن والذين كانوا من أتباع الحاخام يحيى قافح أكثر صعوبة ولم تكن أنشطة أتباع هذا الاتجاه تهدف إلى إضعاف مكانة الدين في حياة الطائفة بقدر ما كانت تهدف إلى التخلص من سيطرة الاتجاهات الصوفية اليهودية على المجتمع ، والارتقاء بنظام التعليم اليهودي داخل إطار التقاليد الدينية . وأثارت هذه الأنشطة غضب ومعارضة قادة الاتجاهات الصوفية اليهودية الذين رأوا أن هذه الأنشطة تعد جزءا من الصراع على زعامة الطائفة . ومارس الحاخام يحيى قافح وأتباعه أنشطتهم دون إزعاج إبان الفترة التي تولى فيها الأتراك مقاليد السلطة في اليمن ، بل اعتمدوا في بعض الأحيان على مساعدة السلطات التركية ، ومع هذا فحينما انتقلت السلطة إلى أيدي الإمام يحيى في عام ١٩١٣ تزايدت قوة الاتجاهات المحافظة ، فتم إغلاق المدرسة الحديثة التي كان أتباع الحاخام يحيى قافح قد أسسوها إبان الحكم التركي ، ومع هذا ظل أتباع الحاخام قافح يشكلون جماعة مستقلة مما جعل السلطة تعترف بها كجماعة مستقلة في داخل الطائفة اليهودية . وتجدر الإشارة إلى أن الخلاف الذي ساد بين أتباع الحاخام قافح وبين أتباع الاتجاه المتشدد كان مقصورا على الطائفة اليهودية في صنعاء وفي الطوائف المجاورة لها .

وفي إيران كانت القيادة اليهودية المحافظة على قدر كبير من الضعف، ولذلك لم يكن بمقدورها مواجهة ظاهرة انضمام الشباب اليهودي إلى مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء»، والمدارس الحكومية. ومن جهة أخرى فإن خصوصية الوضع الذي ساد في إيران حتى بعد أن تولى رضا شاه بهلوي مقاليد الحكم في عام ١٩٢٥ لم تساعد على ظهور فئة المسكيليم (المستنيرين) من اليهود ولذلك لم تبدأ المواجهة بين أنصار التقاليد الدينية وبين الاتجاه الداعي للحداثة إلا بعد الحرب العالمية الثانية، والجدير بالذكر أن الفترة التي تولى فيها محمد شاه مقاليد الحكم شهدت اندماج اليهود في حياة المجتمع الاقتصادية والاجتماعية.

وتزايدت في عقد الأربعينيات قوة الهجرة اليهودية إلى إيران سواء من العراق أو من البلدان الأوروبية أيضا، وأسس هؤلاء المهاجرون في مدينتي طهران وكرمنشاه طوائف خاصة بهم كانت أقرب في فكرها إلى المستنيرين. وانضمت أعداد كبيرة من الشباب اليهودي في هذه الفترة إلى الأحزاب الليبرالية الإيرانية، بل انضم بعضهم إلى الحزب الشيوعي الإيراني. ومن جهة أخرى شهدت هذه الفترة تزايد قوة الاتجاهات المتمسكة بالتقاليد الدينية خاصة بعد أن أسس الحاخام إسحاق مائير هاليفي الذي استقر في إيران في عام ١٩٤٣ هيئة «أوتسار توراه» (كنز التوارة) التعليمية المحافظة في إيران، وسرعان ما شغل هذا الحاخام الذي تبنى أيديولوجية معادية للصهيونية مكان الصدارة في النظام التعليمي اليهودي. وبالرغم من أنه تبنى دائما، لأسباب دينية بحتة، آراء معادية للصهيونية ولإسرائيل، إلا أن أفكاره لم تقلل من ارتباط الشباب اليهودي بفلسطين. وعلى كل حال فإن أنشطته ساهمت في تقوية الاتجاه اليهودي المتشدد في إيران، وساهمت بالتالي في التقليل من مسيرة انتشار الفكر العلماني في أوساط اليهود الإيرانيين.

وفي بخارى كان الانقسام الذي حدث بين الاتجاه الداعي للتمسك بالتقاليد الدينية، وبين الاتجاه الداعي للحداثة، يعبر إلى حد ما عن طبيعة الفروق التي سادت بين اليهود المحليين وبين اليهود الذين قدموا من أوروبا الشرقية والذين تزايد تعدادهم في بخارى بعد الحرب العالمية الأولى. وتزايدت في بخارى حدة الخلافات بين منظمة «هيفسكتسيا» التي كان أعضاؤها من اليهود الأشكناز وبين اليهود الشيوعيين الذين

من مواليد بخارى، وكان الخلاف يتركز حول طبيعة اللغة التي يجب استخدامها في المدارس اليهودية، ففي الوقت الذي دعا فيه أعضاء منظمة «هيفسكتسيا» إلى استخدام لغة البيديش أو اللغة الطاجيقية في المدارس، فإن أصحاب الاتجاه الآخر دعوا إلى استخدام اللغة العبرية، ومع مضي الوقت انتهى الصراع لصالح اليهود الأشكناز. ومن هنا فإن اللغة الروسية أصبحت هي اللغة المتبعة في المدارس اليهودية. وبالرغم من أن النظام الشيوعي، خاصة في عهد ستالين، لم يتوقف عن انتقاد العادات «المتخلفة» لليهود والتي رأى النظام أنها تتمثل في الحفاظ على قداسة يوم السبت، وتناول الأطعمة التي تحللها الشريعة، والزواج وفقا لتعاليم الديانة اليهودية، إلا أن اليهود ظلوا متمسكين بتعاليمهم الدينية، وظهر جيل جديد من يهود بخارى ظل متمسكا بالتعاليم الدينية والتقاليد بالرغم من أنهم تلقوا تعليماً حديثاً، وبالرغم من أنهم كانوا أعضاء في الهيئات والمؤسسات الشيوعية.

ويتضح لنا من كل ما تقدم أن الخلافات التي حدثت بين أتباع الاتجاه المتمسك بالتقاليد الدينية وأتباع الاتجاه المستنير لم تكن بمنزلة خلافات بين متدينين وملحدين، ولم تعبر عن أي رغبة في المساس بأسس الديانة اليهودية أو تعاليمها، وإنما حدثت بسبب رغبة المستنيرين من اليهود في تحقيق الوفاق بين تعاليمهم الدينية وبين احتياجات وظروف العصر الحديث. وحرص المستنيرون على تحقيق هذا الوفاق والحفاظ في نفس الوقت على التقاليد الدينية. وإذا كان يهود بخارى لم يتمسكوا ببعض التعاليم الخاصة بالجانب العملي من الحياة فإن هذا الموقف لم يعبر عن رؤية فكرية وإنما عبر عن إحساسهم بصعوبة تنفيذ التعاليم الدينية في ظل النظام السوفييتي. أما في صنعاء فإن قادة الاتجاه المستنير حرصوا على إحداث بعض التغييرات في التقاليد اليهودية فطالبوا بالتراجع عن الاتجاهات الصوفية الدينية والعودة إلى التقاليد الدينية اليهودية الأصيلة.

وخلاصة الأمر هي أن المجتمع اليهودي شهد منذ منتصف القرن التاسع عشر العديد من التحولات الاجتماعية العميقة، بعد أن تعرض المجتمع اليهودي بالشرق إلى المؤثرات الغربية التي أدخلت إلى المجتمع أفكاراً وأساليب حياة حديثة مناقضة للعرف السائد في المجتمع اليهودي. ولم تؤد هذه التحولات إلى تحسين صورة

اليهودي فقط وإنما أيضا إلى تزايد تطلعـات اليهود للحصول على المساواة في الحقوق على غرار إخوانهم اليهود في أوروبا الغربية والإمبراطورية العثمانية، كما تزايدت أيضا في داخل الطائفة قوة الاتجاهات الداعية إلى منح المرأة اليهودية حق المساواة. وتطلع اليهـود إلى محاكـاة أسـاليب حيـاة الأوروبيين الـذين كـانـوا يأتـون إمـا لأداء مهـام ديبلوماسيـة أو تجارية أو غيرها، وتطلعوا أيضا لمحـاكاة الجنود والموظفين الأوروبيين الـذين كانـوا بالشرق. وكـانـوا يحاكونهم لما كـانوا يتمتعـون بـه من مكانـة سياسيـة واقتصـادية بـارزة. وفي هـذه المرحلة بـدأت تحدث بـوادر الأزمـة في داخل الطائفـة اليهـوديـة. ولم تسفـر هـذه التحـولات عـن حـدوث تغييرات في داخل نظم الحيـاة الاجتماعية المتبعـة في داخل الطائفة فقط، وإنما أدت أيضـا إلى تحطم هالة القـداسة التي كانت تحيط بالقيـادة الروحية للمجتمع. وإذا كان المجتمع الإسـلامي قد تأثر هـو الآخر بـالفكـر الأوروبي في العصر الحديث، إلا أنـه كان أقل تأثـرا من اليهـود بالثقافـة الأوروبية. وبالرغم مـن أن اليهود تأثروا بالفكـر الغربي إلا أنهم لم يخضعوا بالكامل للثقافـة الأوروبية، ونلاحظ أن هذا التأثر كان ممتـزجا بصبغة شرقية تجلت مظـاهـرهـا في اللغة وشكل الملابـس والفنون، ونجـد على هـذا النحـو أن المجتمع اليهـودي بالشرق كـان شأنـه شأن المستنيرين من المسلمين الـذين تأثـروا بـالثقافـة الأوروبيـة، ومن الضروري أن نضع في اعتبـارنـا أن تأثـر اليهود بـالفكـر الغـربي لم يـدفعهم للتنكـر للطـابع الشرقي لثقـافتهم والانفصـال من النـاحيتين الثقـافيـة والاجتماعية عن المجتمع الإسلامي.

وقد أثـرت مسيرة الحداثة أيضا في البنيـة الاقتصادية للطـائفة اليهوديـة، ولذلك تضاءل في المجتمع اليهـودي عدد المشتغلين من اليهـود في المهن اليدوية، وتـزايد في المقابل عـدد المشتغلين منهم بالتجارة وفي المهن الحرة، وأدى هذا التحـول إلى اتساع دائرة علاقات اليهود بـالأوروبيين، سواء من المقيمين منهم في الشرق أو في بلدانهم، وإلى تزايـد حجم تطلعات اليهود. ومن جهـة أخرى أدى هذا التحـول إلى إحساس طبقـة التجار والمستنيريـن من اليهود بأنها أصبحـت أقل ارتباطـا بـالقيـادة الدينيـة التقليدية للمجتمع اليهودي، وكـان من بين العوامل التي خلقت هذا الإحساس أن هذه الطبقة الجديدة في المجتمع كانت ذات علاقات قوية بالمستعمرين الأوروبيين.

وكـان للمدارس اليهـوديـة الحديثة سـواء التي تأسست بفضل أنشطـة المنظمات الدولية بغرب أوروبا ـ والتي كان منها جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» أو «رابطة الإخوان» أو «كنز التوراة» أو «أوتسار هتوراه» — أو التي أسستها الحكومات المحلية، أو تلك التي أسستهـا الطـوائف ، أكبر الأثـر، إذ إنها سـاهمت في إحـداث تحولات ثقافية واجتماعية بعيدة المدى .

وتسببت كل هـذه العـوامل مجتمعة في حـدوث انشقـاق حقيقي داخل المجتمع اليهودي منذ نهايات القـرن التاسع عشر، وكانت حدة هذا الانقسـام تتزايد كلما كان يتزايد تأثير الثقـافة الغربية ، وكلما كانت تتغير البنيـة الاقتصادية للمجتمع ، وتتسع دائرة التعليم الحديث . وتعـرض المجتمع اليهــودي التقليـدي في أعقـاب كل هـذه التحولات إلى أزمـة داخلية عنيفـة ، وشهد أيضا تـزايداً لحدة التوتـر بين فئة الأثـرياء والمستنيرين من اليهود وبين الفقـراء المتمسكين بالتقاليـد وبين العلمانيين والمتدينين . ولكن ، كما أشرنـا من قبل ، فإن كل هـذه الخلافات لم تكن ذات طـابع أيـديولـوجي واضح . وبالـرغم من وجود كل هـذه الفروق إلا أن القاسم المشترك الـذي وحد كل هذه الطوائف تمثل في حرصها على إقامة علاقات مع يهود فلسطين ، وفي حرصها على الهجرة إليها سـواء كانت هذه الهجرة في إطار ديني أو في إطـار صهيوني . وإذا كانت الحركة الصهيـونية قـد لقيت معارضـة من قبل الـدوائر الدينية المحـافظة مثـل جماعة الحاخام ساسون خدوري وأتباعه في العراق أو جماعة «كنز التوارة» في إيران إلا أن هذه الجماعات لم يكن بمقدورها صرف أنظار الشباب اليهودي عن الحركة الصهيونية .

ومع هجرة معظم الطـوائف اليهودية بـالشرق إلى إسرائيل زالت كل العوامل التي كانت تشكل في الماضي قاسما مشتركـا فيما بينها ، وتزايدت منذ هـذا الحين قوة عوامل التمزق في داخـل الطائفة ، وعـلاوة على هذا فـإن هذه الطوائف واجهـت مشكلات اجتماعية وثقـافية جـديدة نجمت عـن طبيعة العلاقـات التي سـادت بين الطوائف المختلفـة في فلسطين . وعلى هـذا النحو وصل الصراع في داخـل الطوائف اليهـوديـة بالشرق إلى ذروته بعد هجرتها إلى فلسطين .

الفصل الرابع

القيادة اليهودية والنشاط الاجتماعي والقومي

التغيرات في بنية الطائفة

تضاؤل دور القيادة التقليدية وتزايدقوة الأثرياء والمثقفين

كانت قيادة المجتمع اليهودي في البلدان الإسلامية طيلة العصور الوسطى تنحصر في شخصي ـ الرئيس (هنَّاسي)والحاخام، فكان الرئيس يستمد نفوذه من مكانته التي كان يشغلها لدى الحاكم، وكانت مهامه تقتصر على تنسيق علاقة الحاكم بالطائفة اليهودية، وجباية الجزية من اليهود. أما الحاخام فكان يمثل أعلى سلطة روحانية في الطائفة، ولكن لم تكن له أية ارتباطات بالسلطة. وخلق هذا الوضع بطبيعة الحال حالة من التوتر بين الرئيس والحاخام. وعلى الرغم من أن وضع الرئيس كان يبدو للوهلة الأولى أفضل من وضع الحاخام بسبب قربه من السلطة، إلا أن الطائفة كانت تنظر للحاخام بوصفه رئيسها الفعلي، لاسيما أنه كان يشرف على شؤونها الداخلية وليس فقط على شؤونها الدينية والروحية.

ومع انهيار الخلافة العباسية في منتصف القرن الثالث عشر تدهور بشكل ملحوظ وضع القيادة اليهودية، فأصبح الرئيس خاضعا بالكامل لرغبات الحاكم الذي كان يحرص فقط على جباية الأموال من اليهود، وتزايدت منذ هذا الحين حدة الضغوط الدينية والاجتماعية والاقتصادية على اليهود، ولم يكن بمقدور الرئيس التدخل لمصلحتهم خاصة أن وضعه لم يكن على قدر كاف من الاستقرار. وعلى هذا النحو أخذت تتزايد قوة الحاخامات على الرغم من أن مستوى إلمامهم بالتوراة وبالمعارف العامة كان قد تضاءل بشكل ملحوظ. ووجدت الطائفة اليهودية ملاذها في القيادة

الـروحية التي لم يقتصر دورهـا منذ هـذا الحين على تـدريس التوراة والشريعـة، وإنما أصبح يشمل تشجيع أبناء الطائفة على التمسك بتعاليم الديانة اليهودية في ظل الفترة التي كانوا يتعرضون فيها لضغوط اجتماعية عديدة، وأصبح الاعتراف بمكانة الحاخام في المجتمع أمرا اختياريا، خـاصة بعد أن أدرك أبناء الطائفة أنـه بمقدور الحاخامات فقط الحفاظ على الهوية اليهودية والتمسك بفكرة الخلاص المنشود.

ومنذ النصف الثـاني للقرن التـاسع عشر أخذ هـذا الوضع في التغير إذ أدت التغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي شهدتها المنطقة إلى ظهور طبقة جديدة من الأثرياء والمثقفين اليهود أحس أبنـاؤها بأنهم غير ملزمين بـالخضوع للقيادات التقليـدية، وشكل هـؤلاء مع مضي الوقت مكـانة بـارزة في قيـادة المجتمع اليهودي في بعض بلـدان الشرق، وكان هذا الأمر نتيجـة طبيعية لما عرف عن هذه الشخصيات من ثراء وثقـافة، ولعلاقاتها القوية مع السلطة، علاوة على أنها أصبحت مع مضي الـوقت نموذجا يحتذى به من قبل أعداد كبيرة من أبناء المجتمع اليهودي.

وكـانت البنيـة التنظيميـة لبلدان الشرق في العصر الحديـث سواء التـابعـة منهـا للإمبراطورية العثمانية أو البلدان الأخرى تعتمد على أسس الإدارة العلمانية الأوروبية، وبدأ الـدين في هـذا العصر يفقد سيطرتـه على حياة الـدولة، كما تضـاءلت في نفس الوقت مكانة رجال الـدين والقطاعات الواسعة من المجتمع التي ارتبطت بهم. وفيما يتعلق بموقف المجتمع الإسـلامي في العصر الحديث تجاه اليهود فقـد ظل يشعر بأن اليهود وسائر أبناء الأقليـات الدينية يعدون بمنزلة أقلية لها حق ممـارسة شعائرها دون إزعـاج، وبحـق التمتع بنـوع من الحكم الـذاتي التنظيمي الـديني. وكـان من بين التغيرات التي شهـدهـا العصر الحديث أن الجانب الـديني من الهوية شهـد ضعفـا ملحوظـا، بينما تزايدت في المقـابل قوة الجانب القومي، ولـذلك طلب من اليهود في العصر الحديث أن يجددوا انتماءاتهم القـوميـة حتى يتم تنفيـذ الحقـوق التي حصلـوا عليهـا كمواطنين ينعمـون بـالمساواة في كـافـة المجالات الحكـوميـة والعسكريـة وفي المجالات الخاصة بالتعليـم والثقافة. وفي الحقيقة كانت مسألة تحديـد الهوية القومية بالغة الأهمية لعدد محدود من أبنـاء المجتمع اليهودي، لاسيما أن غالبية أبناء المجتمع اليهودي لم تتأثر كثيرا بالتحـولات القومية التي شهدها كل بلد على حـدة، بالإضافة

إلى أنـه لم يكن ليهود اليمن وأفغـانستـان وكـردستان، على سبيل المثـال، نصيب في الحركة القـومية الجديـدة، لأن الطابع المحافظ لـلأنظمة والمجتمع في هـذه البلدان لم يتح لليهود فرصة الدخول في نسيج المجتمع.

أمـا فئـات المجتمع اليهـودي التي نجحت في الخروج عن إطـار الحياة الـدينيـة التقليدية للطائفـة اليهودية فقد كانت لها صلات وثيقة بـالسلطات الأجنبية، وكان بمقدورها التعامل مع صور الحياة الحديثة.

وتزايدت قوة القيـادة اليهودية الجديدة المكونة من الأثـرياء والمثقفين، خاصة في العراق الذي بدأت به مسيرة الحداثة منذ منتصف القرن التاسع عشر، ونجحت هذه القيادة تدريجيا وبفضل التبرعـات السخية التي قدمتها للمؤسسات الـدينية، ولفقراء الطائفة في أن تلعب دورا أكثر أهمية في قيادة الطائفة. أما القيادة التقليدية للمجتمع فقد فقـدت مكانتها البـارزة في المجتمع اليهودي خاصـة بعد أن ألغي منصب رئيس الطائفة، وبعـد أن تشكلت في عام ١٨٤٩ الهيئة الحاخاميـة، التي أولتها السلطات العثمانيـة مسؤوليـة كل المهـام التي كان يقـوم بها كل من رئيس الطـائفة والحاخـام. وشهدت الطائفة اليهودية بالعـراق في عام ١٨٤٧ صراعا عنيفا حول الشخص الذي من الواجـب تعيينه رئيسا لهذه الهيئـة، وتركـزت المنافسة على شغـل هذا المنصب بين الحاخام عـوفديـا هاليفي وأتبـاعه الـذين كان من بينهم الحاخـام الياهـو والحاخام عبـدالله سـوميخ، وبين الحاخام رفـائيل كتسين ومؤيـديه الـذين كانـوا من أثريـاء المدينـة. وانتهى الخلاف بانتصـار أتباع الحاخـام رفـائيل كتسين الذي عين في عـام ١٨٤٩ رئيسـا للهيئة الحاخـامية. وأصبح شغل منصـب رئيس هذه الهيئـة منذ هـذا الحين محلا للتنـافس بين حاخـامـات بغداد وبين أثـريائهـا من اليهـود، مما اضطـر السلطات في بعض الأحيان لحسم هـذه الخلافات عن طريق تعيين أحد حـاخامات فلسطين في هذا المنصب. وكـانت السلطات تحرص عنـد اختيارهـا الشخص الذي بمقـدوره شغل هذا المنصـب على إجادة الحاخـام للغـات الأجنبية، وأن يكـون ملما بعلـوم عصره. وفيما يتعلق بحـاخامـات بغـداد مثل: الحاخـام عبدالله سـوميخ، والحاخام يوسف حـاييم، والحاخام شمعون أجسي فلم يتولـوا أي منصب قيادي في هذه الهيئة الحاخامية.

ووصلت حدة الخلافات بين رئيس الهيئة الحاخامية وبين الطائفة اليهودية إلى الذروة في عهد الحاخام ساسون خدوري الذي شغل منصب رئيس هذه الهيئة في عام ١٩٣٨ ، والذي كانت علاقاته مع الطائفة يشوبها قدر كبير من التوتر لخلافه مع القيادات الروحية التي شككت في حجم معرفته و إلمامه بالتوراة ، واتهمته بعدم تمسكه كما ينبغي بتعاليم الشريعة . وكانت علاقاته أيضا متوترة مع مؤيدي الأنشطة الصهيونية على التقرب للسلطة والحفاظ على منصبه .

وقد واجهت القيادة التقليدية لليهود في عام ١٨٦٤ تحديا ضخما خاصة بعد أن أسست جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في هذا العام مدرسة تتبع المناهج الحديثة في بغداد، درس أبناء الأثرياء بالطائفة اليهودية بها اللغات الأجنبية والعلوم الحديثة ، مما مكنهم فيما بعد من النجاح في تجارتهم مع البلدان الأجنبية أو إكمال دراساتهم العليا في القسطنطينية وبغداد أو في الأماكن الأخرى . وتجدر الإشارة هنا إلى أنه حدثت في غضون هذه الفترة العديد من التغيرات المهمة في نظام التعليم التقليدي ، وخاصة بعد أن أسس الحاخام عبدالله سوميخ في عام ١٨٤٠ مدرسة «زلخة» الدينية التي كانت تمنح التلاميذ قدرا بسيطا من المعارف الدنيوية . وحظيت مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» والمدارس التقليدية التي أسستها الطائفة بدعم وتأييد أثرياء الطائفة . ولكن بعد أن تزايدت في الثمانينيات من القرن التاسع عشر قوة الأنشطة التعليمية لمدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» بدأت القيادة التقليدية في مواجهتها ، ومع هذا لم تكن القيادة الجديدة على استعداد للتنازل عن تطلعاتها الرامية للارتقاء بثقافة يهود العراق ، واستعانت هذه القيادة بتأييد السلطة العثمانية التي فرضت رقابة شديدة على النظام التقليدي اليهودي في التعليم .

وانقسمت الطائفة على هذا النحو إلى اتجاهين : أحدهما محافظ والآخر داع للتحديث . وكانت قضية التعليم تشكل محور الخلاف الرئيسي فيما بينهما ، ورغم أنه كانت للحاخام يوسف حاييم العديد من الصلاحيات الدينية ، ورغم مكانته المرموقة في أوساط يهود العراق إلا أنه لم يتمكن من مواجهة أنشطة وتأثير جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» . ومع استمرار الصراع والمواجهة بين القيادتين أدركت القيادة التقليدية لليهود بزعامة الحاخام شمعون أجسي ـ التي كان من تلاميذها الحاخام

يوسف حاييم ـ أن الاستمرار في السيطرة على الطائفة يستلزم العمل بشكل من شأنه جذب اليهود إليها، فأسس الحاخام شمعون أجسي في عام ١٩٠٥ مدرسة لتعليم اليهود بعض المهن التي يستطيعون الاشتغال بها، ومع هذا فمن الواجب معرفة أنه قد بذلت من قبل في عام ١٨٦٩ محاولة لتدريس اللغات الأجنبية في المدارس، ولكن لم يكن بمقدور كل هذه المحاولات منافسة المدارس الحديثة التي كانت جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» قد أسستها.

وظهرت على هذا النحو طبقة جديدة من الأثرياء والمثقفين في بغداد، وفي سائر المدن بالعراق ولم يشعر أبناء هذه الطبقة أنهم ملزمون بالخضوع للقيادة التقليدية المحافظة، وضمت هذه القيادة اليهودية الجدية في صفوفها أبناء هذه الطبقة في الأجهزة الحكومية سواء إبان الحكم التركي، أو في ظل الفترة التي كان فيها العراق تحت الانتداب البريطاني.

وشهد اليمن في ظل حكم الأتراك نفس التغييرات التي شهدتها بلدان الشرق. فحينما عينت السلطات التركية بعد أن حصلت على تأييد شرفاء الطائفة اليهودية بصنعاء الحاخام إسحاق شاؤول من القسطنطينية في منصب رئيس الهيئة الحاخامية باليمن، فإن هذا القرار لم يحظ بتأييد القيادة اليهودية التقليدية خاصة تلك التي أقامت خارج صنعاء وفشلت في اليمن على هذا النحو، محاولة انفراد السلطة بتشكيل هيئة حاخامية من خارج القيادة اليهودية التقليدية، وظلت قيادات اليهود الدينية تشكل أعلى سلطة في أوساط يهود اليمن.

وتعرضت القيادة اليهودية في اليمن منذ عهد الحاخام سليمان كاره (١٨٤٩ـ ١٨٨٩) إلى انتقادات حادة خاصة من قبل التجار اليهود الذين تزايد ثراؤهم في عهد الاحتلال التركي، وحصلوا أيضا على تأييد السلطات التركية. ومن المرجح أن فكرة تعيين رئيس للهيئة الحاخامية من خارج اليمن ظهرت بسبب عدم معرفة الحاخام سليمان كاره باللغة التركية، علاوة على أن مظهره لم يلق قبولا في أوساط الأتراك. وعين الأتراك على مدى فترة قصيرة وحتى عام ١٩٠٥ بعض الشخصيات في منصب رئيس الهيئة الحاخامية، ولم يكن هؤلاء من حاخامات الطائفة وإنما كانوا من أثريائها.

وبدأت القيادة التقليدية للمجتمع اليهودي في اليمن تفقد قوتها ومكانتها بعد أن هبت رياح التنوير بقيادة الحاخام يحيى قافح الذي طالب بتحسين التعليم اليهودي وتطوير مناهجه، وأعرب أثرياء الطائفة الذين كانوا على معرفة بالأفكار الحديثة، خاصة بسبب اتصالاتهم مع الأجانب، عن تأييدهم لأفكار وأنشطة الحاخام. وحتى بعد أن تم تعيين الحاخام يحيى إسحاق رئيسا للطائفة اليهودية في عام ١٩٠٥ فإن قيادته لم تحظ بتأييد كل الطائفة، إذ إن جماعة الحاخام يحيى قافح كانت تعمل على نحو مستقل. وعلى الرغم من أن الإمام يحيى أيد بعد عودته للسلطة عام ١٩١٣ القيادة التقليدية، إلا أنه لم تتوقف الانتقادات الموجهة إلى الحاخام يحيى إسحاق. ولكن لا شك أن الطابع المحافظ للسياسة التي انتهجها الإمام أوقف ظاهرة تدهور وضع القيادة التقليدية المحافظة، وتزايد قوة المستنيرين والأثرياء من اليهود حيث إن الإمام منع إقامة أية مدارس حديثة سواء للمسلمين أو اليهود، بل وتبنى سياسة اقتصادية أضرت بأوضاع اليهود، وحالت دون تزايد ثرائهم. ولم يتمكن أهل اليمن من التخلص من سياسة الإمام إلا مع قيام الثورة الجمهورية في عام ١٩٦٢. ولم يطرأ أي تغيير فعلي على البنية التنظيمية ليهود اليمن وقيادتهم إلا بعد هجرتهم إلى فلسطين وتزايدت منذ ذلك الحين قوة المستنيرين من يهود اليمن الذين تقبلوا واستوعبوا أسرع من غيرهم تغير ظروف الحياة. والجدير بالذكر أن كل هذه التحولات التي تحدثنا عنها مست فقط يهود صنعاء، أما يهود الضواحي والقرى فلم تحدث في أوساطهم أي تغيرات في البنية التنظيمية حتى في عهد الحكم التركي.

وكانت الطائفة اليهودية في الموصل هي الطائفةاليهودية الثالثة التي شهدت إبان الحكم التركي تغيرات عديدة في أوساط القيادة. وكانت الطائفة اليهودية في الموصل هي أكبر طائفة يهودية في كردستان، وكان لسكانها من اليهود اتصالات عديدة بالعالم الخارجي، وقد كلف الأتراك في نهايات القرن التاسع عشر الحاخام أهارون برزاني بتولي منصب كبير الحاخامات في كردستان، وكان برزاني من أسرة يهودية عريقة تولى أبناؤها منذ القرن السادس عشر العديد من المناصب القيادية. وفي بدايات القرن العشرين فقد حاول شرفاء الطائفة الذين شغلوا العديد من المناصب في الأجهزة الحكومية والذين تلقوا تعليمهم في المدارس التبشيرية الإطاحة بالحاخام برزاني

من منصبه مدعين أنه غير مؤهل لشغل هذا المنصب، ولكن تركيا رفضت الأخذ بهذا الادعاء. وبعد وفاة الحاخام برزاني تولى هذا المنصب الحاخام الياهو صايغ الذي تلقى تعليمه في القسطنطينية ويوغسلافيا والذي أجاد العديد من اللغات الأوروبية والشرقية. وسعى هذا الحاخام إلى تطوير التعليم اليهودي والارتقاء بمستواه واستعان بجماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» وبفئة الأثرياء والمستنيرين من اليهود التي ظهرت في مدينة الموصل. واستردت عائلة برزاني في عام ١٩١٣ منصب كبير الحاخامات، ولكن لم يكن من شأن هذا التغيير إلغاء التحولات التي حدثت من قبل في عهد الحاخام صايغ.

وفي عدن انتقلت أيضا القيادة إلى أيدي العائلات التي تزايد ثراؤها إبان فترة الحكم البريطاني، ولذلك انحصرت القيادة في أيدي عائلة موسى التي كانت على قدر كبير من القوة والسيطرة، ولم تسمح للشباب اليهودي المستنير خلال النصف الأول من هذا القرن بالمساهمة في شؤون القيادة. ومع هذا فلم تكن هذه القيادة قيادة تقليدية محافظة لأنها أسست بمساعدة «رابطة الإخوان» اليهود في لندن العديد من المدارس اليهودية الحديثة.

وفي إيران كانت البنية التنظيمية لليهود ضعيفة للغاية، وكان وضع قيادتهم الدينية متدنيا للغاية بسبب تدني مستوى معرفتها بالتوراة. ولم تتمكن القيادة التقليدية للمجتمع اليهودي بطبيعة الحال من أداء مهامها بسبب الضغوط التي تعرضت لها من المجتمع. وفي نهايات القرن التاسع عشر شغلت بعض الشخصيات التي كانت على قدر كبير من القوة الاقتصادية، أو تلك التي حصلت على قدر من الثقافة الحديثة، والتي أجادت اللغات الأجنبية، مكانة بارزة في القيادة اليهودية، وأتيحت لها فرصة تحصيل قدر كبير من المعارف الحديثة في ظل الفترة التي قل فيها إلى حد ما حجم الضغوط التي كانت تمارسها السلطةالمركزية على اليهود، وتضاءلت حدة هذه الضغوط بفضل تدخل بعض الجماعات اليهودية وممثلي الحكومات الأوروبية لصالح يهود إيران. وقد شاركت الشخصيات اليهودية في العصر الحديث، والتي حصلت على قدر كبير من المعارف الحديثة في العمل في الأجهزة الحكومية، ودخل مندوبون عنهم البرلمان الإيراني، وأعرب أيضا عن تأييدها للأنشطة التي

قامت بها جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» والهادفة إلى إقامة نظام تعليمي حديث في إيران. وعلى الرغم من أن الحاخامات أعربوا عن معارضتهم الشديدة لإقامة هذه المدارس، وشجعوا الآباء على عدم إرسال أطفالهم إليها إلا أن الضعف الذي كانت عليه القيادة الدينية حال دون نجاحها في مهمتها، هذا بالإضافة إلى أن السلطات الإيرانية كانت تساند الشخصيات المستنيرة من اليهود.

وتزايدت قوة القيادة الثرية والمستنيرة، وطغت على مكانة القيادة التقليدية في عهد العائلة البهلوية، خاصة في عهد محمد شاه، وهي الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ووصل خلالها بعض يهود إيران إلى مرحلة ضخمة من الثراء الفاحش. وعلى الرغم من أن بعض الشخصيات اليهودية غير الإيرانية التي كان منها الحاخام إسحاق مائير هاليفي ـ الذي أسس مؤسسة «أوتسار هتوراه» التعليمية بإيران ـ وبعض يهود فلسطين سعت إلى تحسين مكانة القيادة الدينية في إيران، لم يكن بمقدور محاولاتهم إحداث أيةتغيرات جذرية في البنية القيادية للمجتمع اليهودي بإيران، ولكنها ساهمت في تقوية مكانة المتدينين في الطائفة.

ويجب التأكيد هنا على أن الطائفة اليهودية في إيران وصلت إلى مرحلة من التنظيم فاقت كل الطوائف اليهودية الأخرى بالشرق، فكانت البنية التنظيمية للطائفة تمارس العديد من الأنشطة في مجالي التعليم وتقديم التبرعات.

وفيما يتعلق بالطوائف اليهودية في وسط آسيا، فقد تزايدت في أوساطها خاصة في النصف الأول من القرن التاسع عشر قوة القيادة اليهودية المتمسكة بالتقاليد، واستمدت هذه القيادة قوتها من الحاخام يوسف ممان وأتباعه الذين بذلوا نشاطا ضخما لنشر الوعي الديني في أوساط اليهود. وعلى الرغم من أنه في نهايات القرن التاسع عشر تزايد ثراء بعض العائلات اليهودية خاصة بعد أن خلقت ظروف اقتصاديةمناسبةلليهود بعد الاحتلال الروسي للمنطقة، فإن ثراء هذه العائلات لم يقلل من مكانة القيادة التقليدية. وفي بدايات القرن العشرين فقط، بذل بعض الشباب اليهودي المستنير الذي ينتمي إلى العائلات الثريةبضع محاولات لشغل مكانة بارزة في القيادة، وسعوا إلى تحقيق هذا الهدف عن طريق ممارسة بعض الأنشطة الهادفة إلى تطوير التعليم، ولكن توقفت هذه الأنشطة بعد أن أطاح النظام

السوفييتـي، الذي تأسس في هـذه المنطقة بعـد الحرب العالميـة الأولى بهذه القيادة. وظهـرت محل هذه القيـادة قيـادة أخرى من المستنيرين البـلاشفـة الـذين كانـوا من أصحاب الفكـر والثقافـة الروسيـة، وضعفت في هذه الفترة أيضـا القيادة التقليـدية خاصـة بعد أن قطعت العـلاقات بين يهود بخارى وبين المراكـز اليهوديـة الأخرى، وبعد أن تضـاءلت مكانـة التوراة والعلـوم الدينيـة في المدارس. وكان من بين سمات العصر الحديث أيضا أن السلطة شنـت حملة إعلامية قويـة للتقليل من تأثير القيادة الدينية في حيـاة الطوائف اليهودية، ومع هـذا ظلت مكانة رجال الـدين على ما هي عليه من قـوة، ولم يؤد التغيير الذي طـرأ على قيادة الطائفة إلى حـدوث أي صراعات داخليـة حيث إن القيـادة اليهـوديـة لم تنضم إلى السلطـات في حـربها ضـد الـدين والتقاليد اليهودية.

أما في أفغانستان فقد تسببت هجرة الكثيرين من حاخامات الطائفة إلى فلسطين في خلق حالة من الخواء الروحي لم يشغله سوى التجار الذين كانوا من أثرياء اليهود، وفي المقابل فشلت جهود الشبـاب اليهودي المستنير، الرامية إلى شغل مكـانة بارزة في القيـادة، وفشلوا أيضـا في الارتقـاء بمستوى التعليـم اليهودي خـاصـة بعد أن لقـوا معارضة شديدة من قبل اليهود المحافظين.

وخـلاصة القـول أن معظم الطـوائف اليهوديـة في الشرق شهـدت العديـد من التغيرات في قيادتها، وكانت هذه التغيرات نـاجمةعن التحولات التي حدثت في نظم التعليم اليهوديـة، وعن تزايـد ثراء التجـار اليهود الذين أصبحـوا أكثر اطـلاعا على الأفكار الحديثة، وأكثر تطلعا للعب دور أكثر أهمية في حياة المجتمع اليهودي. وعلى كل حال لم تكن هذه التحـولات مرتبطة بحدوث أي مـواجهة بين الجيل القديم وبين الجيل الحديث. ذلك لأن القيادة التقليـدية في بعض الطوائف كانت ضعيفـة للغاية علاوة على أن القيـادة الحديثة لم تتبن أي إيديـولوجيـة معادية للـدين. وبشكل عام يمكننا قول إن تغير قيادات المجتمع اليهـودي في بلدان الشرق كان أمرا طبيعيا، إذ لم يكن بمقدور القيـادات القديمـة التواؤم مع معطيـات العصر الحديث، وفي المقابل فقد تزايدت قوة الجيل الحديث لأنه تلقى تعليمه في المدارس الأجنبية، علاوة على أنه كان يجيد اللغات المحلية والأوروبية.

محاولات التوفيق بين المجددين وأتباع التقاليد الدينية اليهودية

يتضح من كل ما تقدم أن التحولات التي حدثت في البنية التنظيمية للطائفة، وفي توجهات القيادة كانت نتيجة للتغيرات التي طرأت على قيادات المجتمع اليهودي، ويتضح أيضا أن كل هذه التحولات لم تؤد لحدوث انشقاق حقيقي في داخل الطوائف اليهودية، وإنما أدت إلى تزايد حدة الصراع بين الاتجاه الداعي للتمسك بالتقاليد الدينية وبين الاتجاه الداعي للحداثة، أي كما حدث في أوساط يهود بغداد والبصرة بالعراق ويهود الموصل في كردستان ويهود صنعاء في اليمن.

ومع هذا فبعد مضي فترة قصيرة من الخلافات، توصلت الجماعات المختلفة فيما بينها إلى اقتناع مفاده أن نتائج الانقسام ستكون وخيمة، وأن حجم مصالحها المشتركة أكبر من حجم القضايا التي يسود بشأنها الاختلاف، كما أدرك أتباع الاتجاه المتمسك بالتقاليد الدينية بعد فترة وجيزة أنه ليس بمقدورهم الانفراد بقيادة المجتمع في العصر الحديث، وأن أتباع الاتجاه الداعي إلى الحداثة لا يرغبون في التخلص من التقاليد الدينية اليهودية. وشعر المجددون أيضا بثقة أكثر إزاء مسألة التعاون مع المحافظين، خاصة بعد أن اتضح لهم أن قوتهم آخذة في التزايد، وأن غالبية أبناء الطائفة اليهودية على استعداد لتقبل أفكارهم.

وتعاون الاتجاهان فيما بينهما لصالح أبناء الطائفة، ففي بغداد على سبيل المثال، وبعد مضي فترة طويلة من معارضة الحاخامات للتعليم الحديث، انتقلت كل المدارس الحديثة بما فيها مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» إلى الطائفة التي كانت قياداتها تضم أتباع الاتجاه المستنير، وربما يكون خير دليل على روح الوفاق التي سادت في أوساط يهود الشرق أنه في الوقت الذي تزايدت فيه في أوساط يهود البصرة إبان عقدي العشرينيات والثلاثينيات من هذا القرن قوة الحركة الثيوصوفية للدرجة التي تمكنت فيها من السيطرة على لجنة الطائفة مما دفع كبير حاخامات البصرة في عام ١٩٣١ إلى إدانة هذه الحركة ومقاطعتها، إلا أنه تم التوصل في عام ١٩٣٦ إلى تسوية لهذا الخلاف أسفرت عن عودة قادة هذه الحركة إلى أحضان الطائفة اليهودية.

وفي صنعاء شهد المجتمع اليهودي في عام ١٩١٣ أي مع عودة الإمام يحيى إلى السلطة خلافات حادة بين أتباع حركة «القبّالاه» (التصوف اليهودي) الداعية للإفراط في الإيمان بالغيبيات، وبين معارضيها من قادة حركة التنوير اليهودية، وتدهورت العلاقات بين الاتجاهين لأسباب أيديولوجية صارخة، ومع هذا لم تخل هذه الخلافات من بعض الدوافع الاقتصادية والشخصية، ووقف معظم أثرياء الطائفة في صف الاتجاه الرافض لحركة «القبّالاه».

ومع رحيل الحاخام يحيى قافح والحاخام يحيى إسحاق اللذين كانا من أبرز قيادات الطائفة اليهودية أدرك قادة الجماعتين أن القيادة أصبحت في أيدي الاتجاهات المتطرفة، ولذلك سارعوا في عام ١٩٣٥ بعقد اجتماع ضم كل أبناء الطائفة، وقرر المشاركون تجنب كل ما يثير نشوب أي خلافات فيما بينهم، ولكن باءت هذه التجربة بالفشل، وظل التوتر يسيطر على علاقة كل جماعة بالأخرى.

وبشكل عام يمكننا قول إن الإحساس بضرورة التوصل إلى تسوية ساد في الأماكن التي كانت القيادة التقليدية فيها على قدر كبير من القوة، والتي لم تنهر فيها بسهولة مثلما حدث في الأماكن التي كانت فيها القيادة الدينية ضعيفة. وفي الواقع لم يتم التوصل إلى تسوية إلا بعد أن اعترفت القيادة الدينية التقليدية بشرعية وبمصداقية الاتجاهات الداعية إلى الحداثة، التي تزايدت قوتها في العصر الحديث.

نشاط التنظيم الذاتي لليهود

موقف السلطة إزاء النشاط اليهودي

ساهمت الاتجاهات الفكرية الحديثة التي غمرت بلدان الشرق منذ منتصف القرن التاسع عشر في حدوث تلك التغييرات التي طرأت على البنية التنظيمية للمجتمع اليهودي، كما أثرت في تزايد قوة ومكانة المثقفين والأثرياء اليهود. وعلى خلاف الوضع الذي ساد في الفترات السابقة والتي كان اليهود يتمتعون فيها بحكم ذاتي كامل في كل ما يتعلق بحياتهم الداخلية، فقد ضعفت منذ منتصف هذا القرن سلطات الحكم الذاتي الممنوحة لهم. وكان هذا التحول نتيجة لأن بلدان الشرق

عرفت منذ هذا الحين مفهـوم السلطة المركزية؛ مما جعلها تتدخل في كـافة أوجه حياة المواطنين، وتشرف على حياة الطوائف. وعـلاوة على هذا لايمكننا إغفال حقيقـة أنه عندمـا تم منح اليهود المساواة في كل الحقـوق والواجات، فإنـه كان من الطبيعي أن يخضعـوا بالكـامل لكل قـوانين الدولـة التي أصبحت تلـزم أبناء الأقليـات الدينيـة بواجبـات لم يكونـوا ملزمين بها فيما مضى، مثل تأديـة الخدمة العسكـرية. وفي ظل العصر الحديث لم يعد من الممكن أيضا الحفاظ على الهيئة القضائية المستقلة لليهود، خاصة أنهم أصبحوا منذ هذا الحين خاضعين لقوانين الدولة.

وبينما لم تصدر طيلة الفترة السابقة للعصر الحديث أية وثائق بعينها تحدد بدورها وضع القيـادة اليهوديـة في بلـدان الشرق، فقد حـددت القـوانين التي صدرت منـذ منتصف القرن التاسع عشر نظم الحيـاة الداخلية لليهود، ومـدى صلاحيات الحكم الذاتي الممنوح لهم ووضع القيادة وحجم التزاماتها تجاه قوانين الدولة.

وفيما يتعلق بـالدول التـابعـة للإمبراطـوريـة العثمانيـة فقد تأسست بها المؤسسـة الحاخامية. ودون الخوض في التفـاصيل الخاصة ببنية هذه المؤسسة يكفينا هنـا معرفة أن مهام رئيس هذه المؤسسة الذي كان يدعى «حاخام باشي»، شملت مهام كل من الحاخام والـرئيس. ولم يكن «الحاخام بـاشي» مجرد رئيس لكل الحاخامـات اليهود، وإنما كان رئيسا أيضا للطائفة، إذ إنه كان يمثل الطائفة لدى السلطة. وبالإضافة إلى مهام «الحاخـام باشي» فإنـه كانت توجـد لجنتان إحـداهما تتولى مسـؤولية بحث كل القضايـا المتعلقة بـالدين، والأخرى تتـولى مسؤوليـة بحث القضايـا التي تمس حياة اليهود، وكانت اللجنتان تابعتين «للحاخام بـاشي». وبالرغم من أنه كان يحق لأبناء الطـائفة انتخـاب الشخص الذي بمقـدوره شغل منصب «الحاخـام باشي» كـانت السلطة تحتفظ بحق التصديق على تعيين المرشح في هذا المنصب.

وبعـد أن تشكلت هـــذه المؤسسـة كـانـت الطـوائف اليهـوديـــة تنتخب عـادة الحاخامات الـذين لهم دراية بالديانـة اليهودية، والذين لهم مكـانة بارزة في المجتمع اليهـودي، ومع هـذا؛ فحينما اتضح لليهـود مـدى أهميـة الجانب الإداري من هـذا المنصب وأن السلطات لا تهتـم كثيرا بمدى معرفـة الحاخام بـالتوارة وعلـوم الديـانة اليهودية، أصبح أبنـاء الطائفة ينتخبون الحاخامات الذين على قـدر كبير من الثقافة

والمعرفة، والمقربين إلى السلطة. ولا حاجة هنا للقول إن كبار حاخامات الطائفة الذين كانوا متبحرين في علوم التوراة كانوا بعيدين عن الهيئة الحاخامية، مما خلق بالطبع حالة من العداء بين القيادة الرسمية وقيادة الطائفة، ولا غرابة أيضا في أنه سادت دائما النزاعات والخلافات حول من يحق له شغل هذا المنصب في الأماكن التي تشكلت بها المؤسسة الحاخامية.

وقد أنشئت هذه المؤسسة في أوساط الطوائف اليهودية في بغداد والموصل وصنعاء، وكانت صلاحية «الحاخام باشي» في طائفة من بين هذه الطوائف تشمل كل الطوائف اليهودية في الوطن، فكانت سلطات «الحاخام باشي» في بغداد تشمل كل يهود العراق، كما شملت صلاحيات «الحاخام باشي» في الموصل كل يهود كردستان، وشملت صلاحيات هذا الحاخام في صنعاء أيضا كل يهود اليمن، ومع هذا لم يخضع اليهود الذين أقاموا خارج هذه المدن لصلاحيات «الحاخام باشي» حيث إن مفهوم المركزية الذي رغبت السلطة في فرضه على اليهود لم يتماش مع العرف التنظيمي الذي كان سائدا في أوساط يهود هذه البلدان. وبخصوص اليمن وكردستان فإن أجزاء ضخمة من هذه البلدان لم تكن تابعة لسيطرة الأتراك، وبطبيعة الحال فلم يكن من الممكن أن تمتد صلاحيات «الحاخام باشي» إلى هذه الأجزاء.

وقد أصبح ضروريا في الدول الحديثة التي تأسست في الشرق بعد الحرب العالمية الأولى تحديد الوضع الشرعي للطوائف اليهودية، خاصة بعد أن أقرت هذه البلدان مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات. فصدر في العراق على سبيل المثال في عام ١٩٣١ قانون الطائفة الإسرائيلية الذي حل محل القانون العثماني الذي حدد أوضاع اليهود، وتم الاعتراف بموجب هذا القانون بالطوائف اليهودية الثلاث المقيمة في بغداد والبصرة والموصل. وأصبحت رئاسة الطائفة وعلى خلاف الوضع الذي ساد فيها قبل تضم شخصين أحدهما رئيس للطائفة والآخر رئيس للحاخامات. ولكن القانون أتاح أيضا إمكان أن يتولى شخص واحد مهمة الجمع بين المنصبين. وشكلت الطائفة بموجب نفس القانون لجنة تولت بحث أوضاع اليهود الاجتماعية وأخرى تولت بحث قضايا اليهود الاقتصادية. وبالإضافة إلى اللجنتين اللتين تشكلتا بموجب القانون فقد شكلت الطائفة لجنة ثالثة من الحاخامات لبحث القضايا الدينية. وفي الواقع حصلت

الطـائفة اليهـودية بـالعـراق على قدر كبير من الحكم الـذاتي خـاصة في كل المجـالات المتعلقة بالدين والتعليم والمؤسسات الخيرية .

وأقيمت في إيران في العصر الحديث لجنـة خاصةبالطـائفة اليهودية عـرفت باسم «أنجومـان كاليمان» (مجلس أتباع مـوسى «اليهود») . ولم تكن هذه اللجنـة في بادىء الأمر لجنة رسميـة ، ولكنها أصبحت بعد حصولها على اعتراف السلطـة بمنزلة الممثل الوحيد لكل الطـوائف اليهودية ، وشملت أنشطة هذه اللجنـة كل نشاطات المجتمع في مجال الـدين والتعليم والتبرعات ، ومع هـذا لم تتعد صـلاحياتها حـدود العاصمـة الإيرانية طهران إذ كان للطوائف اليهودية في أصفهان وشيراز لجان مستقلة .

وجديـر بالذكـر أنه تزايـدت في إيران قـوة القيادة اليهوديـة الجديدة التي لم يكن الحاخـامات من بين أعضـائها ، وكـان هـذا التحول نتيجـة للقوانين التي أصـدرتها الحكـومة التي حـددت البنية التنظيميـة للطـائفة . وحـدثت كل هذه التحـولات في الشرق بعد أن صدر في الإمبراطورية العثمانية دستور ١٨٧٦ ، وبعد أن صدر في إيران دستور ١٩٠٧ ، هذان الدستوران اللذان منحا اليهود حق التمثيل في البرلمان واللذان ساهما في تزايد قوة الرابطة بين اليهود المقيمين في نفس البلد خاصة أن التمثيل البرلماني شمل كل المواطنين اليهود .

وفي وسط آسيا مارست السلطات قـدرا كبيرا من الإشراف على الطوائف اليهودية المقيمـة في الجمهـوريـات السـوفييتيـة ، فألغت السلطـات منـذ عـام ١٩٢٠ البنيـة التنظيمية التقليدية للطوائف اليهـودية ، بل وألغت منصب رئيس الطائفة ، ومع هذا أقيمت فيها بعـد وبتصديق من الحكـومة لجنة يهوديـة ضمت ممثلين عن الحاخـامات اليهود ، ولكن معظم أعضائها كانوا من الشباب اليهودي المستنير ، وألقيت على عاتق هذه اللجنـة مهمة الإشراف على كل القضـايا التي تعنـي اليهود ، والخاصة بـالتعليم والدين والمؤسسات الخيرية ، وكان من بين المهـام الملقاة على عاتق اللجنة أيضا مهمة نشر أيديولوجية السلطة . وأشرفت السلطة كـذلك على ميزانية الطائفة وعلى كل بنود الإنفـاق . وعلى كل حـال فسرعـان مـا تقلصت أنشطـة هـذه اللجنـة إلى حـد كبير وأصبحت مقصورة على الإشراف على القضايا الدينية .

وفيما يتعلق بوضع الطوائف اليهودية في كل من اليمن وأفغانستان فلم يطرأ أي تغيير يذكر على البنية التنظيمية لليهود في هذين البلدين اللذين دام بهما الحكم الإسلامي حتى منتصف القرن العشرين، فشهد اليمن - على سبيل المثال - في عهد الإمام يحيى تراجعا ملحوظا عن كل التحولات التي حدثت إبان الحكم التركي. كما أن السلطة لم تعترف في هذين البلدين بمفهوم التمثيل الشامل لليهود في الدولة، ومع هذا كان وضع الطوائف اليهودية التي أقامت في صنعاء، وكابول أفضل بكثير من وضع الطوائف اليهودية التي أقامت في القرى والضواحي.

ويمكننا بشكل عام قول إن البلدان التي أقيمت بها أنظمة حديثة شهدت تغيرات عديدة في البنية التنظيمية للمجتمع اليهودي، وكانت هذه التحولات ضرورية لمواكبة التحولات السياسية - الاجتماعية التي شهدها الشرق والتي كان من أبرزها خضوع النشاط الطائفي لقانون الدولة وتفوق القيادة العلمانية المستنيرة على القيادةالدينية. وفي المقابل فإن الدول التي لم تشهد تغيرات جذرية في العصر الحديث فإن السلطة فيها ظلت تشرف بشكل مباشر على الأنشطة الطائفية، ولم يكن هذا الإشراف المباشر نتيجة لأن الأنظمة لم تطبق الديمقراطية وإنما بسبب تزايد حدة النزاع اليهودي العربي في فلسطين.

المؤسسات الطائفية في المجالات الخيرية

ظلت المؤسسات الخيرية اليهودية تمارس مهامها التقليدية في البلدان التي لم تطرأ فيها أي تغيرات على البنية التنظيمية للطائفة اليهودية مثل اليمن وأفغانستان، وكانت هذه المؤسسات تقدم يد العون والمساعدة للفقراء والمحتاجين والأيتام والأرامل، والزواج والدفن وما شابه ذلك، واعتمدت في هذه الأنشطة على التبرعات السخية التي كان يقدمها أثرياء الطائفة. ولكن تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية للطوائف اليهودية في النصف الأول من القرن العشرين أسفر عن تقلص أنشطة هذه المؤسسات حتى عجزت عن مواجهة التحديات وتقديم المساعدات إلى المحتاجين، وذلك باستثناء الطائفة اليهودية في اليمن التي حرصت حتى العصر الحديث على تقديم المساعدة إلى الأيتام خشية أن يتبناهم المسلمون، ولكنها عجزت عن توفير

الأموال اللازمة مما جعلها تضطر للحصول على مساعدات من المستوطنين اليهود بفلسطين ومن سائر المنظمات الصهيونية واليهودية، ولذلك شهدت الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين تدفق المساعدات المالية من فلسطين إلى فقراء اليمن. ووصول أعداد كبيرة من مبعوثي الاستيطان اليهودي من فلسطين ومن خارجها إلى اليمن وغيرها من بلدان الشرق بغرض دعم أنشطة الطوائف اليهودية في كل المجالات المتعلقة بالتعليم والقضايا الدينية.

وقد تدهورت أوضاع المؤسسات الخيرية اليهودية في وسط آسيا إبان فترة الحكم السوفييتي لهذه المنطقة، وذلك بعد أن كانت هذه المؤسسات قد وصلت إلى درجة كبيرة من القوة في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، أي في أعقاب تزايد ثراء أعداد كبيرة من اليهود إبان فترة الاحتلال السوفييتي لهذه المنطقة. وقد نجم تدهور أوضاع هذه المؤسسات عن السياسة الشيوعية التي اتبعها النظام والتي ألحقت ضررا بالغا بأثرياء اليهود الذين كانوا يمولون أنشطة هذه المؤسسات، كما كان من بين الأسباب عدم تولي الطائفة اليهودية في ظل النظام السوفييتي مهمة العناية بالفقراء والأيتام.

وعلى هذا النحو، نجد أن يهود العراق وإيران وعدن فقط هم الذين استطاعوا تأسيس مؤسسات طائفية حديثة أكثر نشاطا وقوة من كل المؤسسات الطائفية التقليدية. والجدير بالذكر أن يهود العراق كانوا على درجة متطورة من الناحية التنظيمية بدءا من منتصف القرن التاسع عشر، وساهمت عوامل عديدة في هذا الأمر، كان من بينها، أن يهود العراق كانوا على قدر كبير من الثراء، خاصة أنهم عملوا إبان الحكم العثماني أو البريطاني للعراق بالتجارة مع دول الشرق الأقصى والدول الأوروبية، علاوة على أن الحكم الذاتي الذي منحه العثمانيون والبريطانيون ليهود العراق أتاح لهم فرصة السيطرة الكاملة على مجالات التعليم والصحة والمؤسسات الخيرية. وكان لاقتصار أنشطة الطائفة اليهودية بالعراق على مجالي التعليم والصحة أكبر الأثر بطبيعة الحال في الارتقاء بأوضاع اليهود الاجتماعية، ويكفينا هنا معرفة أن الطائفة أسست خلال الفترة الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين عشرات المدارس لكل المراحل التعليمية للفتيان والفتيات، وعلاوة على هذه المدارس التي

انتهجت النظم التعليمية الحديثة كانت هناك العديد من المؤسسات التعليمية التي اكتفت بتدريس العلوم اليهودية.

وكان من بين أنشطة القيادة اليهودية التقليدية قيامها في عام ١٨٦٠ بتأسيس جماعة «زيارة المرضى» الخيرية كما ساهم أثرياء الطائفة اليهودية أيضا في تأسيس العديد من المستشفيات اليهودية الحديثة في بغداد، كان من بينها: مستشفى مائير الياهو الذي تأسس في عام ١٩١٠، ومستشفى ريما خدوري لأمراض العيون الذي تأسس في عام ١٩٣٥، وأسست القيادة اليهودية التقليدية العديد من المؤسسات الخيرية كان من بينها: دار للضيافة، ورابطة لمساعدة التلاميذ اليهود المتخصصين في دراسة العلوم الدينية وغيرها من المؤسسات. والجدير بالذكر أن القيادة الحديثة في بغداد لم تول اهتماما ضخما بالأنشطة الخيرية فلم تهتم هذه القيادة، على سبيل المثال، بأوضاع يهود إيران وكردستان الذين فروا إلى بغداد في النصف الأول من القرن العشرين، والذين حظوا بمساعدة محدودة من القيادة اليهودية التقليدية التي أسست هيئة لمتابعة أوضاعهم.

وفي إيران شاركت بعض المنظمات اليهودية المحلية مثل منظمة «انجومان كاليمان» (مجلس اليهود) وبعض المنظمات اليهودية الأوروبية مثل منظمة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» و «الوكالة اليهودية» و «كنز التوراة» في الإشراف على الأنشطة التعليمية والخيرية اليهودية في إيران. وتولت جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» وهيئة «كنز التوارة» مسؤولية الإشراف على النشاط التعليمي في إيران، لكنها لم تشرف بالطبع على المدارس اليهودية المحافظة التي تخصصت في تدريس العلوم الدينية التابعة للطائفة. وأسست الطوائف اليهودية بإيران منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر، وبعد أن تحسنت أوضاعها المعيشية عدة مدارس اتبعت النظم التعليمية الحديثة، ولكن هذا الأمر كان مقصوراً على طهران وبعض المدن الضخمة.

واتسمت الأنشطة التعليمية في إيران بظاهرتين رئيسيتين هما: أن كل المؤسسات التعليمية بما فيها تلك التابعة لجماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» و«كنز التوارة» حصلت على دعم مالي من هيئة الجوينت، وتمثلت الظاهرة الثانية في أن نظام التعليم

اليهـودي لم يكن على قـدر كبير من الـرقي، ولـذلك أرسل معظم الآبـاء في طهـران أبناءهم إلى المدارس الحكـومية أو إلى المدارس التبشيريـة. وعلى خلاف هـذا الوضع الذي سـاد في إيران، نجحت الطائفـة اليهودية في العراق في تغطيـة نفقات المدارس التي أقامتهـا، بالإضافة إلى أن مستوى التعليـم اليهودي في العراق كان مـرتفعا، مما جعل المدارس اليهودية تنجح في استيعاب التلاميذ اليهود في العراق.

وقـد حصلت الطائفـة اليهوديـة في إيران على دعم من الخارج، خـاصة من هيئـة الجوينت لـلإنفـاق على أنشطتها في مجالي الخدمـات والصحـة، ومع هـذا فشلت كل المحاولات التي قام بها المجتمع اليهودي في أعقاب الحرب العالمية الثانية بغرض الخروج من حالة الفقـر التي كان يعيش فيها. وإذا كان بعض اليهود الإيـرانيين قد وصلوا إلى درجة مـذهلة مـن الثراء، فإن الأثـرياء لم يحرصـوا على مساعـدة المؤسسات اليهـودية الخيريـة، والتي كانت تتلقى دعما مـاليا من المؤسسـات اليهوديـة الدوليـة فتأسس في طهران بمبـادرة من هيئة جـوينت، مستشفى يهودي، كما قامت نفس الهيئـة بتمويل نصف نفقات صيانتـه، وأتى النصف الآخر من الرسوم التي كـان يسددها المرضى في مقابل دخـول المستشفى، ومن التبرعات المتـواضعة والتي كان يقـدمها أبناء الـدخول البسيطة، وفي المقابل لم يتبرع أثرياء اليهود بأي شيء يذكر للطائفة.

أما في عدن فلم يطرأ في العصر الحديث بالمقـارنة بالفترات السابقة أي تغيير على أنشطة الطـائفة في مجال الأنشطة الخيرية فقـامت بعض العائلات اليهودية الثـرية في عدن في بدايات القرن العشرين وبدعم من رابطة «الإخوان اليهود» في لندن بتأسيس مدرستين حديثتين. وكانت التبرعات التي قدمتهـا العائلات اليهودية الثرية في عدن تعـد بمنزلـة النبع الـرئيسي لكل الأنشطة الخيريـة التي مـارستهـا الطائفـة، ولكن لم تؤسـس أي مؤسسـة للإشراف على الأنشطـة الخيرية، وحـرص هؤلاء الأثـرياء على تقديم تبرعاتهم للفقراء وخـاصة إلى لاجئي اليمن الذين كانوا يتكـدسون في الطرقات بالمئات والآلاف، فأسست عائلة موسى التي كانت على قدر كبير من الثراء في عدن ملجأ للاجئي اليمن، وتولت هـذه العائلة مهمة تمويل نفقـات المرضى اليهود الذين كانـوا يتلقون العـلاج في المستشفيات الحكوميـة، وكان من بين أنشطـة هذه العـائلة أيضا تأسيسها لمعبد يهودي ضخم.

التعليم العبري الحديث

كان معظم يهود الشرق على معرفة باللغة العبريـة، وكانت معرفتهم بها تعد جزءا من معرفتهم بالتراث اليهودي، ولكنهـا لم تكن لغة الحديث فيما بينهم. وكانت اللغة العبرية تدرس في المؤسسـات اليهودية من خلال كتب الشريعـة وكتاب الصلوات، وتضاءلت معرفة الشباب اليهـودي الذي تلقى تعليمه في مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» بـاللغة العبرية، بعد أن تـزايدت قوة الاتجاهات الداعيـة للحداثة ومع حصول اليهود على حق المساواة واندماجهم في المجتمع. ولا حاجة بنا هنا لقول إن اللغـة العبريـة التي استخـدمهـا المدرسـون اليهـود في الهيئـات التعليميـة لم يكن بمقدورها التعبير عن احتياجات العصر الحديث، ومن المؤكد أن اللغة التي تحدثوها لم تكن قد تأثرت بعد باللغة العبرية الحديثة التي كان يهود أوروبا يستخدمونها.

وشهدت فترة مـا بعد الحرب العـالمية بعـض التغييرات في مستوى معـرفة يهود الشرق باللغة العبرية، وكانت هذه التغييرات نتيجـة طبيعية للعلاقات التي تشكلت آنذاك بين قيادة الاستيطان اليهـودي في فلسطين والمؤسسات الصهيونية وبين الطـوائف اليهودية في الشرق. وكانت الطائـــفة اليهوديـــة في سمرقنـد هي الطائفـــة الأولى التي أقيمت بها مـدارس عبرية حـديثة، حيث تأسسـت سمرقنـد خلال عـامي ١٩١٧ و ١٩١٨ أول مدرسة عبريـة. ويرجع فضل تأسيسها إلى كل من اميتين شابيرا وشلـومو ادلمان اللذين لم يعرفا اللغـة الطاجيقية و تحدثا فقـط بالعبرية. وشاع استخـدام اللغة العبرية في المدارس اليهودية الحديثة التي تأسست في أوساط الطوائف اليهودية بوسط آسيا، ومع هذا توقفت هذه المدارس في العام الدراسي ١٩٢٢ـ١٩٢٣ عن تدريس اللغة العبرية نتيجة لاعتراض النظام السوفييتي على تدريس العبرية في المدارس اليهودية.

وشهدت الطائفة اليهـودية في العراق في عام ١٩٢١ نهضة ملموسـة في تدريس اللغة العبرية، خاصة بعد أن منح فيصل الـذي نصب ملكا على العراق، قدرا كبيرا من الحرية لليهود سـواء في مجال الدين أو في مجال الأنشطـة التعليمية. وشهـدت هذه الفترة تـوجه العديد من المدرسين اليهود من فلسطين إلى العراق لتدريس اللغة العبرية، وتاريخ حركة الاستيطان العبري، والأدب العبري الحديـث، وأصبحت اللغة العبرية منـذ ذلك الحين مادة أساسية في مناهج التعليم بالمدارس اليهودية الحديثة.

أما في أفغانستـان فيرجع فضل نشر اللغة العبرية في أوساط طـلابها من اليهود إلى نفتالي أفرهاموف الذي أتى إلى أفغانستان في عام ١٩٢٨ بغرض تدريس اللغة العبرية لليهود، وعمل أفرهـاموف طيلة العامين اللذين قضاهما في أفغـانستان في نشر الفكر الصهيـوني في أوساط الطـلاب اليهود في العـاصمـة هرات، ولم يتـوقف عن ممارسـة أنشطتـه الصهيونيـة بـالرغم من أنـه واجـه معارضـة شـديدة من قبل الشخصيـات المحافظة بالطائفة. والجدير بالذكر أن أفرهاموف مارس هذا النشاط إبان الفترة التي فتح فيها أمـان الله خان أبـواب بلاده أمام المدرسين من كـافة أنحاء العـالم، بغرض تحسين التعليم في أفغانستان.

وفي إيران سيطرت جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» التي تبنت موقفا متحفظا تجاه الصهيـونيـة على المدارس اليهوديـة حتى الفترة التي نشبـت فيها الحرب العـالميـة الثانية. ولكن الاهتمام بالدراسات العبرية في مدارس هذه الجماعة لم يحدث إلا بعد أن غيرت هذه الجماعـة في أعقاب الحرب موقفهـا تجاه الصهيونيـة. وتجدر الإشارة إلى أن مبعوثي الـوكالة اليهـودية، وحركـة الاستيطان اليهوديـة في فلسطين حرصوا منـذ عام ١٩٤٢ على توثيق علاقـاتهم بأكابر الطوائف اليهودية في إيـران وبالشباب اليهودي، ونجح هـؤلاء المبعـوثـون في نشر الفكـر الصهيـوني في المدارس اليهـوديـة، ومع هـذا اقتصرت أنشطتهم على الطـوائف اليهـوديــة في طهـران وأصفهـان وهمذان والأهـواز وكرمنشاه. وإذا كانت هذه المدارس قد أولت اهتماما ضخما بتدريس اللغة العبرية، فإنـه لم يطرأ أي تغيير يـذكر على مستـوى تدريس اللغـة العبرية بـالمدارس اليهوديـة التقليديـة التي أسستها هيئة «كنز التـوارة». وعلى كل حال، فإنه ممـا لا شك فيه أن العـلاقات الـوثيقة التـي سادت بين فلسطين وإيـران في عهد الشـاه أدت إلى نهوض الدراسات العبرية في أوساط يهود إيران.

وعند الحديث عن العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العبرية في أوساط يهود الشرق لا يمكن أن نغفل أهمية الدور الذي لعبه «الاتحاد العبري العالمي» الذي أرسل منذ عقـد الأربعينيات مبعوثيه إلى الطـوائف اليهودية في صنعـاء وعدن من أجل نشر اللغة العبرية في أوساطها. وكان من بين منـدوبيه في هذين البلدين كل من: أهارون دور الـذي عمل في عـدن لبضـع سنـوات، وحـاييم تسـدوف الـذي أقـام في

صنعاء. والجدير بالذكر أن كليهما كانا من أصول يمنية. وفي صنعاء أسست بعض الشخصيات اليهودية المستنيرة التي كان من بينها الحاخام يوسف شيمن والحاخام يوسف كيرح، وبدعم من الاتحاد العبري العالمي، مدرسة يهودية حديثة عملت على نشر اللغة العبرية في أوساط التلاميذ. وتجدر الإشارة إلى أن مبعوثي «الوكالة اليهودية» في عدن بذلوا جهودا ضخمة في «معسكر الخلاص» بعدن الذي تمركز فيه الآلاف من لاجئي اليمن قبل هجرتهم إلى فلسطين، ولعب هؤلاء المبعوثون الذين كان من بينهم شمعون أفيزمر وعوفيد ياصوفيا دورا كبيرا في تأهيل وإعداد الشباب اليهودي في هذا المعسكر لمهمة الهجرة إلى فلسطين، ولذلك فلا غرابة في أن هؤلاء الشباب نجحوا في التأقلم سريعا مع طبيعة الحياة في دولة إسرائيل.

وعلى كل حال، فإن التعليم العبري في بلدان الشرق لم يصل إلى تلك المرحلة التي تؤهله لإحداث تغييرات جذرية في الوعي الثقافي ليهود الشرق، لأن الاتجاهات اليهودية المحافظة في أفغانستان وصنعاء، على سبيل المثال، عارضت إحداث أي تغييرات في نظام التعليم، كما أن التدهور الملموس الذي طرأ على علاقات الحكومات بالطوائف اليهودية في أعقاب تزايد الصراع العربي الإسرائيلي أدى إلى عرقلة تطور المسيرة التعليمية في أوساط يهود الشرق. ونتيجة لأن النظام التعليمي الحديث كان يروج للأيديولوجية الصهيونية قررت الحكومة العراقية بدءا من عام ١٩٣٢ وقف أنشطة المدارس اليهودية. وفي وسط آسيا، كما أشرنا من قبل، أوقفت السلطات السوفييتية أنشطة المدارس اليهودية الحديثة منذ العام الدراسي (١٩٢٢-١٩٢٣). وفي إيران قطعت ثورة آية الله الخميني كل علاقات المؤسسات اليهودية التعليمية بإسرائيل، وكان من العوامل التي حالت دون تطور التعليم العبري أن أبناء معظم الطوائف اليهودية بالشرق لم يبدوا اهتماما ضخما بالتعليم العبري بالإضافة إلى أن معظم الطوائف اليهودية في كردستان واليمن على سبيل المثال - باستثناء طائفتي الموصل وصنعاء - استمرت في اتباع النهج التقليدي في التعليم. وينطبق نفس الوضع على معظم الطوائف اليهودية في العراق وإيران. وفيما يتعلق بإيران فقد أدى تزايد ثراء اليهود الإيرانيين منذ عقد الستينيات إلى تزايد قوة الاتجاه الداعي إلى الاندماج في المجتمع، والتخلي عن الهوية اليهودية، ولم يكن بمقدور مثل هذا الوضع بطبيعة الحال تحسين مكانة التعليم العبري في أوساطهم.

النشاط الصهيوني وحركات الشباب

لم يكن للحركة الصهيونية منذ نشأتها في نهايات القرن التاسع عشر وحتى نهاية الحرب العالمية الأولى أية علاقات بالطوائف اليهودية في بلدان الشرق، على الرغم من أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر - وكما سنرى في الفصل السادس - شهد حركة هجرة قوية من معظم بلدان الشرق إلى فلسطين. ويرى البعض أن جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء»، التي كانت لها مكانة بارزة في أوساط يهود العراق وإيران والتي تبنت موقفا سلبيا تجاه الحركة الصهيونية، تحملت إلى حد ما مسؤولية عدم وجود أية علاقات وثيقة بين قادة الحركة الصهيونية وبين الطوائف اليهودية في الشرق. ومن المرجح أن يكون عدم معرفة يهود الشرق بأنشطة الحركة الصهيونية والمؤسسات الصهيونية، علاوة على سيطرةالاتجاهات الدينية المحافظة عليهم وتدهور أوضاع يهود الشرق القانونية والمدنية، قد حالت دون إقامة أية علاقات بالحركة الصهيونية.

وقد بدأ يهود الشرق في ممارسة الأنشطة الصهيونية بشكل منظم، وفي الاتصال بالمؤسسات الصهيونية العالمية بغرض الهجرة إلى فلسطين بعد أن تلقى المستنيرون منهم تعليمهم في مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» أو في المدارس الحكومية، وبعد أن أصبحوا على وعي بمفهوم المساواة الذي يتمتع به كل الأفراد وتحظى به كل الجماعات القومية. واقتصرت الأنشطة الصهيونية في الشرق على الطوائف اليهودية في العراق وإيران وبخارى وعدن. وفي المقابل لم يكن للطوائف اليهودية في اليمن وكردستان وأفغانستان أية أنشطة صهيونية أو أية علاقات بالمؤسسات الصهيونية في أوروبا أو فلسطين. ومع هذا، وكما سنرى فيما بعد، فإن أعدادا كبيرة من أبناء هذه الطوائف من التي لم تمارس أي أنشطة صهيونية هاجرت إلى فلسطين.

ويمكننا أن نميز هنا عند التحدث عن النشاط الصهيوني في الشرق بين ثلاث مراحل وقد تمثلت المرحلة الأولى في الأنشطة الفردية، وتمثلت المرحلة الثانية في الأنشطة العلنية، وتمثلت المرحلة الثالثة في الأنشطة السرية.

الاستكشافات الأولى والأنشطة الفردية

لم تبد الحركة الصهيونية منذ نشأتها أي اهتمام يذكر بيهود الشرق، ولذا لم تنشأ فيما بينها وبين يهود الشرق أية علاقة «بفضل المبادرة التي قام بها الشباب اليهودي المستنير الذي تعرف الفكر الصهيوني في نهايات القرن التاسع عشر من خلال الصحف العبرية التي كانت تصلهم إما من أوروبا أو فلسطين. أما المؤسسة الدينية التقليدية المحافظة فلم تشارك في الأنشطة الصهيونية، وذلك باستثناء تلك التي أقامت في وسط آسيا والتي شاركت في أنشطة الحركة الصهيونية، وإن كان النشاط الصهيوني قد اقتصر في وسط آسيا حتى نهايات الحرب العالمية الأولى على مجموعة محدودة من الأفراد. وكانت الأرض في هذه المنطقة ممهدة لممارسة الأنشطة الصهيونية نظرا لأنه كان لسكان هذه المنطقة من اليهود علاقات قوية منذ عهد الحاخام يوسف ممان بيهود فلسطين، وبيهود أوروبا الشرقية، كما أتيحت ليهود هذه المنطقة ممارسة الأنشطة الصهيونية لعدم اعتراض السلطات الروسية عليها. ويكفينا في هذا المجال معرفة أن «الشيقل الصهيوني» كان يوزع في مدينة سمرقند عشية انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل في عام ١٨٩٧، كما أن أسهم مؤسسة الاستيطان اليهودي التي أقيمت في عام ١٨٩٩ طرحت في نفس الحين للبيع في أوساط يهود آسيا.

أما في العراق فلم تظهر الحركة الصهيونية إلا قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى ببضع سنوات، وكانت الأنشطة الصهيونية في بغداد محدودة للغاية نتيجة لتخوف اليهود من رد فعل السلطات العثمانية التي تبنت بطبيعة الحال موقفا معاديا للحركة الصهيونية. واقتصرت الأنشطة الصهيونية في بغداد على بعض المكاتبات مع مؤسسات الحركة الصهيونية في مدينتي برلين وكيلن. وتفيد هذه المراسلات أن مطالب يهود بغداد اقتصرت على الحصول على بعض النشرات الصهيونية. وكان وضع الحركة الصهيونية في البصرة أنشط من نظيره في بغداد، أن السلطات لم تهتم بمتابعة كل ما يدور فيها فتشكلت في هذه المدينة رابطة صهيونية ضمت عشرات الأفراد، وتأسست بها في نهايات عام ١٩١٣ أو بدايات عام ١٩١٤ مدرسة عبرية صغيرة كانت لها توجهات صهيونية. ومع هذا لم يحظ يهود الشرق بأي تمثيل في المؤتمرات الصهيونية على الرغم من أنه كان لبعض الشخصيات اليهودية بالشرق

والتي كان من بينها الحاخام أهارون ساسون وبنيامين ساسون في بغداد والحاخام م. ي سحيق في البصرة بعض الأنشطة الصهيونية.

وفي إيران شهدت فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى نشاطا صهيونيا محدودا، وبالرغم من عدم معرفتنا بموقف السلطات آنذاك إزاء هذا النشاط. فمن المرجح أنه كان أفضل من موقف السلطات العثمانية في العراق. وكان من بين مظاهر هذا النشاط في إيران رابطة لتدريس اللغة العبرية عام ١٩١٤، كما تأسست في مدينة همدان في نفس العام أول رابطة صهيونية في إيران، وصدرت خلال الأعوام (١٩١٤-١٩١٦) صحيفة «شالوم» الصهيونية التي كانت تكتب باللغة الفارسية ولكن بحروف عبرية.

وعلى أية حال فقد أدى نشوب الحرب العالمية الأولى، وتبني الأتراك موقفا سيئا تجاه يهود العراق إلى توقف الأنشطة الصهيونية هناك، وإلى تضاؤل حجم علاقات يهود الشرق بالمنظمات اليهودية في أوروبا. أما في وسط آسيا فتزايدت قوة النشاط الصهيوني، ويرجع الفضل في هذا الأمر إلى نشاط الفيلسوف اليهودي افراهام عمنويلي الذي كان من مواليد سمرقند، والذي كانت له علاقات قوية بقادة الحركة الصهيونية وببعض الأدباء اليهود في روسيا. ومع عودة عمنويلي من روسيا إلى سمرقند قبيل الحرب العالمية الأولى أسس بمساعدة مجموعة من الأصدقاء رابطة «محبي لغة الماضي» التي أخذت على عاتقها مهمة إنشاء مدارس يهودية لمصلحة أطفال اللاجئين اليهود الذين فروا من غرب آسيا إلى وسطها.

النشاط الصهيوني العلني المكثف

شعر يهود الشرق الذين كانوا يأملون أن تنتصر بريطانيا على تركيا بسعادة بالغة عند صدور وعد بلفور، في الثاني من شهر نوفمبر عام ١٩١٧، وهو الوعد الذي دعا إلى إقامة وطن قومي لليهود، كما أحس اليهود بعد أن تم التوصل إلى اتفاقية سان ريمو في عام ١٩٢٠، والتي تم بموجبها وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وبعد أن تولى هربرت صموئيل منصب المندوب السامي البريطاني في فلسطين، بأن كل هذه الأحداث لا تعد فقط بمنزلة اعتراف من قبل الآخرين بحق اليهود في فلسطين، وإنما تعد أيضا بمنزلة خطوة عملية على صعيد إقامة «مملكة إسرائيل الثالثة».

وبدأت في أعقـاب كل هذه التطـورات المرحلة الثـانية من النشـاط الصهيوني في بلدان الشرق وخاصة في العراق و إيران . أما في اليمن فلم يكن لسكانه من اليهود أي أنشطة صهيونية كما أنهم لم يقيموا أي علاقات بالمؤسسات الصهيونية خشية أن تعتبر السلطات أنهم عمـلاء لبريطانيـا . ومع هذا كان لـلأنباء التي تـرددت في كل أنحاء العـالم عن وعد بلفـور، والانتداب البريطـاني والمنـدوب السامي البريطـاني هربـرت صموئيل أكبر الأثـر في يهود اليمن فبدأوا في مخاطبة «الاتحاد الصهيوني» في لنـدن بعد أن تزايدت حدة الضغوط التي تعرضوا لها على أيدي الإمام يحيى .

وفي بخـارى نجح افراهـام عمنويلي في عـام ١٩١٧ . في تنظيم حركـة صهيونيـة علنيـة ، شارك ، عـلاوة على هـذا ، كمنـدوب عن يهود بخارى في المؤتمر الصهيـوني الروسي الذي عقد في شهر إبـريل عام ١٩١٧ . ولكن الفترة التي أعقبت ثورة أكتوبر شهدت تحولا في مـوقف السلطات الشيوعيـة إزاء النشاط الصهيوني وتـدريس اللغة العبرية ، ومع هـذا تمكن عمنويلي على مدى بضع سنوات من بث الفكـر الصهيوني عن طريق بـرامج تدريس اللغـة العبرية ، ولكن فُرض الحظـر على ممارسـة الأنشطة الصهيونية بعد أن أقيمت الجمهورية السوفييتية في عام ١٩٢٠ .

وفي المقابل أتـاح تزايـد النفوذ البريطـاني في العراق و إيران وعـدن ، خاصـة بعد الحرب العالمية الأولى لليهود فرصة ممـارسة أنشطتهم الصهيونية ، دون التعرض إلى أي إزعاج من قبل السلطات . ومع هذا لم يكن الطريق مفروشا بالورد ، حيث إن الدوائر القوميـة العربيـة كانـت تقاوم الاحتـلال البريطاني وتـؤيد نضـال الفلسطينيين ضد الصهيونية . وكان لهذا الموقف العربي بالطبع تأثيره على موقف السلطات البريطانية ، وكذلك على موقف قادة الطائفة اليهـودية تجاه الأنشطة الصهيونية ، وربما يكون خير دليل على هذا أنه في الـوقت الذي سمح فيه في شهر مارس عام ١٩٢١ بإقـامة رابطة صهيونية في العراق ، فإن المندوب السامي البريطاني أصدر في عام ١٩٢٢ قرارا بوقف أنشطة هذه الرابطة ، كما طالب زعماء الطائفة اليهودية في بغداد أهارون ساسون رئيس الرابطة الصهيونية بالحد من أنشطته ، وقـررت الطائفة إزاء إصراره على ممارسة نشاطه الصهيوني وقفـه عن العمل في مدارسها ، ولكنه أنشـأ مدرسة خاصـة بث من خلالها أفكـاره الصهيونية ، كمـا توقف حاخـامات الطائفة في عام ١٩٢٦ ، بسبب خوفهم

من رد فعل المجتمع الإسلامي، عن جمع التبرعات لصالح «الصندوق القومي اليهودي» أو لصالح أي مؤسسات صهيونية أخرى.

ولم تنجح الحركة الصهيونية في العراق التي كان معظم أعضائها من الشباب اليهودي المستنير، لكل هذه الأسباب، في الحصول على تأييد قطاعات كبيرة من المجتمع اليهودي، ولا شك أن اندماج يهود العراق في حياة الدولة الفكرية والاقتصادية إبان فترة الحكم البريطاني للعراق لم يشجعهم بطبيعة الحال على الارتماء في أحضان الصهيونية. ومع هذا كان لبعض الروابط الصهيونية في العراق إبان عقد العشرينيات بعض المنجزات المهمة في مجالي التبرعات «للصندوق القومي اليهودي» وشراء الأراضي في فلسطين. وعند المقارنة بين حجم التبرعات التي قدمها يهود العراق إبان عقد العشرينيات بالتبرعات التي قدمها يهود بولندا في نفس الفترة نجد أن التبرعات التي قدمها يهود العراق كانت ضخمة للغاية. ولايدل هذا الأمر على مدى تحمس يهود العراق للفكرة الصهيونية فحسب، وإنما يدل أيضا على أن أوضاعهم الاقتصادية إبان فترة الاحتلال البريطاني للعراق كانت جيدة، ولذلك رأت المؤسسات الصهيونية أنه من الممكن الاعتماد على يهود العراق في مجال التبرعات المالية، وليس في مجال الهجرة إلى فلسطين. وربما يكون خير دليل على هذا الأمر أن المؤسسات الصهيونية في فلسطين لم تهتم كثيرا بإرسال مدرسين يهود من فلسطين إلى العراق.

وفي إيران ازدهر النشاط الصهيوني بعد صدور وعد بلفور، فتأسست في إيران في ديسمبر ١٩١٧ منظمة «الحفاظ على لغة الماضي»، التي كانت لها بعض الأنشطة الصهيونية، كما تأسس في عام ١٩١٨ «الاتحاد الصهيوني ليهود إيران» الذي أسس فيما بعد العديد من الفروع في سائر المدن الإيرانية، وعقد هذا الاتحاد في شهر يوليو عام ١٩١٩ في العاصمة الإيرانية طهران المؤتمر الصهيوني الأول ليهود إيران، وكان عزيزالله نعيم هو الذي تولى رئاسة كافة المؤسسات الصهيونية بإيران.

وكانت لهذا الاتحاد علاقات وثيقة بالاتحاد الصهيوني في لندن، فقام هذا الاتحاد بجمع تبرعات مالية لصالح المؤسسات القومية اليهودية. وكانت الحركة الصهيونية في إيران أقوى من نظيرتها في العراق، كما كان مستواها التنظيمي أرقى

من نظيره بالعراق، ومع هذا حالت بضعة عوامل دون تطور الحركة الصهيونية في إيران: العامل الأول، أن الطائفة اليهودية بإيران كانت ضعيفة اقتصاديا واجتماعيا، والعامل الثاني، أن جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» تبنت موقفا سلبيا تجاه الحركة الصهيونية، ورفضت نشر أي أفكار صهيونية في مدارسها التي كانت تعد بمنزلة المدارس اليهودية الوحيدة التي اتبعت مناهج التعليم الحديثة في إيران، العامل الثالث، أن الدوائر الصهيونية في إيران شهدت خلافات شديدة حول الزعامة مما أسفر عن تشكيل زعامتين صهيونيتين في إيران، والعامل الرابع، أن «الاتحاد الصهيوني» في لندن تبنى موقفا مخيبا للآمال تجاه يهود إيران، حيث طالب قادة الحركة الصهيونية في إيران بعدم السماح ليهود كردستان التابعة لإيران بالهجرة إلى فلسطين.

وكان من بين أنشطة الحركة الصهيونية في إيران والعراق في عام ١٩١٨، وفي بخارى في عام ١٩١٥ قيامها بتأسيس العديد من الروابط الصهيونية، وبتقديم تبرعات إلى المؤسسات الصهيونية وشراء الأراضي في فلسطين، وكان من بين أنشطتها أيضا تأسيس عدة روابط لنشر اللغة العبرية الحديثة والأدب العبري، فأصدرت بعض الروابط المحلية مجلات عبرية مثل مجلة «هجئولا» (الخلاص) التي صدرت في إيران باللغة الفارسية المدونة بحروف عبرية، ومجلة «يشورون» العبرية في بغداد. وأعد قادة هذه الروابط أيضا كتبا لتدريس اللغة العبرية، وكتبا مهنية أخرى باللغة العبرية. وكان الكتاب الذي أصدره عزيزالله نعيم رئيس الاتحاد الصهيوني في إيران لتدريس اللغة العبرية، والذي طبع في عام ١٩١٨ واحدا من أفضل الكتب التي صدرت لتدريس العبرية في إيران. والجدير بالذكر أن هذا الكتاب كان أول كتاب عبري يطبع في إيران، وتجدر الإشارة أيضا إلى كتاب «الجغرافيا العامة» الذي أعده بالعبرية أميتين شبيرا الذي سعى دائما للارتقاء بوضع الدراسات العبرية في وسط آسيا. وطبع هذا الكتاب في مطبعة عبرية كانت قد افتتحت في طشقند بوسط آسيا في عام ١٩٢٠، وكان هذا الكتاب هو الكتاب العبري الوحيد الذي طبع بها.

ومن المعروف أن قادة الحركة الصهيونية في العراق وإيران طالبوا المؤسسات الصهيونية في أوروبا وفلسطين بتقديم المساعدة لهم في مجال نشر اللغة العبرية،

ولكن هذه المؤسسـات لم تستجب دائما لطلباتهم . وأحـرز قادة الحركة الصهيـونية في العراق قدرا كبيرا من النجاح في أنشطتهم التعليمية بالمقـارنة بإيران، وكان مرجع هذا النجاح أنه كـانت لديهم خبرة أكبر في التعليم من يهود إيران كما كـانوا على قدر كبير من الإلمام بالتقـاليد العبرية اليهوديـة أكثر من يهود إيران، وتأسست في العـراق إبان عقدي العشرينيـات والثلاثينيات بضع روابط شبابيـة صهيونية كان من بينهـا رابطة «مكـابي» و «هكواح» (القـوة)، ورابطة «نـاشري اللغـة العبرية» ورابطـة «الوحـدة» و«أحيعيبر» وغيرها .

النشاط الصهيوني السري

يتضح من كل ما تقدم أن النشاط الصهيوني في بلدان الشرق أثار غضب كل من المجتمع الإسلامي، والسلطات التي حظرت ، على سبيل المثال، النشاط الصهيوني في عـام ١٩٢١ في وسط آسيا ولـذلك اضطر عمنـويلي الذي لم يتـوقف عن ممارسـة النشاط الصهيوني السري الـذي تمثل في تدريس اللغة العبرية ومسـاعدة اليهود على الهجرة إلى فلسطين، للهـرب في عام ١٩٢٧ من الاتحاد السوفييتي، أما في إيـران فقد حظرت السلطات، في أعقـاب الانقلاب العسكري الذي قام به رضـا خان في شهر فبراير عام ١٩٢١ ، ممارسة أي نشـاط سياسي . وعلى الرغم من أن السلطات لم تحظر النشاط الصهيوني إلا أنها وضعت أمـامه العديد من العراقيل كـان من بينها : إغلاق صحيفة «هجئولا»، ومنع اليهود من الهجرة إلى فلسطين، وعدم السماح ليهود الاتحاد السوفييتية بالتوقف في إيران قبل هجرتهم إلى فلسطين . وعلى الرغم من أنه قد ألغيت في عهد رضـا خان ــ الذي نصب نفسـه شاهـا لإيران في عـام ١٩٢٥ ، والذي تبنى سياسة علمانية نتيجـة لتأثره بفكر كمال أتاتورك ـ كـافة القيود التي فرضت في الماضي على الأقليات الدينية واليهود، إلا أنه ظل يفرض قيودا عديدة على النشاط الصهيوني في إيران الذي اعتبره نشاطا معاديا لبلاده، ولذلك ألقت السلطات في عهده القبض على قادة الحركة الصهيونية الذين كان من بينهم عضو البرلمان صموئيل يحزقال حاييم الـذي أُعـدم في عـام١٩٣١ . وعلى كل حـال لم تقض هـذه الملاحقـات كليـا على النشاط الصهيوني، لكنها أدت إلى التقليص من حجمه . وقد ظل مبعوثو الاستيطان

اليهودي يصلون إلى إيـران حتى عام ١٩٤٢ الذي شهـد تجدد النشاط الصهيوني في إيران، وكـان من أبرز هؤلاء المبعـوثين يهودا كوفلبيتس الموج الـذي وصل إلى إيران في عـام ١٩٢٨، والذي سعى خـلال أربعة الشهـور التي قضاهـا في إيران، إلى إعـادة تنظيم الاتحاد الصهيـوني الإيــراني، والحصـول من الشـاه على حق ممـارسـة النشط الصهيوني في إيران، وتمثل هدفه في أن يسمح الشـاه ليهود الاتحاد السوفييتي بالتوقف في إيـران قبل هجـرتهم إلى فلسطين، ولكن السلطــات رفضت الإذعـان لمطـالبـه، وتزايـدت في إيران إبان عقد الثـلاثينيات قوة الأفكار النـازية، الأمر الذي لم يسـاعد بطبيعة الحال يهود إيران على العمل في مجال نشر الفكر الصهيوني.

وفي العراق تبنت الاتجاهات القوميـة موقفا معاديا للصهيونيـة التي يرجع تاريخها في العراق إلى عام ١٩٢٥، وكان من بين مظاهر هذا العداء أن أجهزة الإعلام الرسمية لم تتـوقف منـذ حصـول العـراق على استقـلالـه في عـام ١٩٣٢ عن مهـاجمة الفكـر الصهيـوني، بالإضـافـة إلى أن الحكومـة العـراقيةحظـرت منـذ عام ١٩٣٥ النشـاط الصهيوني وتدريـس اللغة العبرية والهجرة إلى فلسطين ودخول أيـة صحف عبرية أو صهيونيـة إلى العراق. وتزايـدت في العراق منـذ هذا الحين، وكما حدث في إيـران قوة الأفكـار النـازيـة، ممـا ســاهم بطبيعـة الحال في إخماد النشـاط الصهيـوني والعبري بـالعراق. ومـع هذا بـدأ يهود العـراق منذ عـام ١٩٤١، وفي أعقـاب حـادثة عيـد «هشفوعـوت» (الأسابيع) في ممارسـة أنشطتهم الصهيونيـة بشكل سري، التي كانت تهدف إلى الدفاع عن الطائفة اليهوديـة، وتجديد أنشطة المنظمات الصهيونية، وإحياء العلاقة بين يهود فلسطين. وتولي الشباب اليهـودي المستنير مسؤولية هذه الأنشطة، فكان يتـدرب على استخدام الأسلحة، ويحرص على دراسـة اللغة العبريـة استعدادا للهجرة إلى فلسطين، وكـانوا يتلقون دراستهم على أيـدي المدرسين اليهود الـذين أتوا سرا من فلسطين إلى العـراق. وكـانت المنظمات الصهيـونيـة الرئيسيـة بـالعـراق هي «الهجـانـاه» و «هيحـالـوتس»، (الطليعـي ــ الـرائد)، وعملت هـذه المنظمات على مساعدة الشباب على الانضمام إلى المنظمات الصهيونية السرية والهجرة إلى فلسطين، وكان النشاط الـذي تقوم به هذه المنظمات ينطوي على قدر كبير من المخـاطرة إذ كان يتم إنزال عقوبـة الإعدام بمن يمارسون النشاط الصهيـوني في العراق، فتم على سبيل

المثال إعـدام شفيق عدس في عام ١٩٤٨، وشـالوم صالح ويـوسف صبري في عام ١٩٥٢ بتهمة الانتماء إلى المنظمات اليهودية الصهيونية السرية.

وفي إيـران سمحت السلطـات لليهـود بممارسـة النشا ط الصهيـوني منـذ عـام ١٩٤١، ولـذلك مارس اليهـود الإيرانيـون النشاط الصهيـوني بقدر كبير من الحريـة خاصـة بعد أن قامت قـوات الحلفاء بغزو إيران، وبعـد أن أطاحت بنظام رضـا شاه بهلوي. وكـان من بين العوامـل التي شجعت اليهود الإيـرانيين على ممارسـة النشاط الصهيوني أنـه أتيحت لهم فرصة عقـد لقاءات كثيرة من اللاجئين اليهـود في أوروبا، ومندوبي الاستيطـان اليهودي في فلسطين. وسمحت السلطـات في شهر إبـريل من عـام ١٩٤٢ للوكـالة اليهـودية بتأسيس مكتب لها في طهـران، كما شهد نفس العـام وصول بعض مبعـوثي حركـة «هيحالـوتس» (الرائد ــ الطليعي) وحركـات الشباب اليهوديـة من فلسطين إلى العـاصمة الإيرانيـة طهران، ولكـن اضطر يهود إيـران بعد مضي بضع سنوات على ازدها النشاط الصهيـوني للحد من أنشطتهم الصهيونية ومن تـدريس اللغـة العبرية، خـاصـة أن تأسيس دولـة إسرائيل أثـار موجـة من العـداء لليهود، كما كـان من بين أسبابـه أنه تـزايدت في هذه الفترة قـوة الاتجاهات القـومية المتطرفة تحت زعامـة الدكتور مصدق. وظلت الأنشطة الصهيونيـة في إيران متواضعة للغاية حتى بعد عودة الشاه محمد إلى السلطة، الذي شهد عهده تزايد قوة العلاقات السياسية والاقتصـادية والأمنية بين إيران و إسرائيل. ومع تزايد ثـراء اليهود الإيرانيين في عقد الستينيات من هـذا القرن قل حماسهم للأيديولوجيـة الصهيونية وللهجرة إلى إسرائيل، ولكنهم ظلوا متعاطفين معهـا. ومع تولي آية الله الخميني مقـاليد السلطة في إيـران في عـام ١٩٧٩ تم وقف كل الأنشطـة الصهيـونيـة في إيـران، كما تم قطع العلاقـات مع إسرائيل، وعلى هذا النحو، فقـد حدث في إيران في عهـد الخميني ما كان قد حدث في العراق بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وفيما يتعلق بسائر الطوائف اليهودية بـالشرق فلم تشهد أي نشاط صهيوني منظم ذي صلة بـالمؤسسات الصهيونيـة الأخرى، ولكن هـذا الأمر لا يعني أنه لم تتـزايد في نفس الفترة قـوة العلاقـات بين هذه الطـوائف وبين حـركة الاستيطـان اليهوديـة في فلسطين. وبخصوص الطوائف اليهودية في وسط آسيا لم يسمح لها بممارسة النشاط

الصهيوني، خاصة أن السلطات السوفييتية حظرت ممارسة أي نشاط صهيوني في أوساط اليهود. أما في أفغانستان فقد كانت هناك محاولة لتأسيس تنظيم صهيوني، حيث سعى سكانها من اليهود في نهاية عقد الأربعينيات إلى إرسال مندوبين عنهم للمشاركة في المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرين، ولكن هذه المحاولة التي قام بها اليهود الأفغان المقيمون في الهند لم تحرز أي نجاح. وفي عدن بذل الشباب اليهودي المستنير بضع محاولات في عقد الثلاثينيات لإقامة منتدى صهيوني، ولكن أنشطته لم تجد قبولا يذكر في أوساط اليهود لعدم اهتمامهم بالفكر الصهيوني، علاوة على أن القيادة اليهودية في عدن أعربت عن تحفظها إزاء الأنشطة الصهيونية. أما في اليمن فلم يكن من الممكن أن يفكر سكانها من اليهود خاصة في ظل حكم الإمام يحيى في إقامة أي تنظيم سياسي ذي علاقة بالجهات الخارجية.



الفصل الخامس

العلاقات مع فلسطين ومع الطوائف اليهودية

كان من بين الظواهر المميزة للطوائف اليهودية بالشرق إبان الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر أن هذه الطوائف عاشت في حالة مطلقة من العزلة والانفصال المطلق عن سائر الطوائف اليهودية للدرجة التي لم تكن فيها أي علاقات بين الطوائف، وكانت هذه الظاهرة نتيجة حتمية لظهور العديد من الكيانات السياسية المستقلة في البلاد المختلفة مثل: المملكة الصفوية الشيعية في إيران، وحكم الأمراء في وسط آسيا، والإمامة الزيدية في اليمن وظهور قادة القبائل في المناطق الجبلية في كردستان، وتحول العراق إلى إمارة عثمانية. ولم تتجدد العلاقات بين الطوائف اليهودية إلا بعد حدوث بعض المتغيرات السياسية كان من بينها احتلال الفرس للعراق لفترة وجيزة وسيطرة الأتراك العثمانيين على اليمن في القرن السادس عشر.

وفي حقيقة الأمر لم تكن حالة العزلة هذه نتيجة للعوامل السياسية والاقتصادية والخارجية فحسب، وإنما كانت نتيجة أيضا لما شهدته هذه الفترة من تدهور ملموس في قيمة المراكز الروحية وتعليم التوراة، الأمر الذي لم يساعد على ظهور أي طائفة تستطيع أن تشكل بدورها مركزا دينيا فكريا يجذب بدوره سائر اليهود. وينطبق هذا الأمر أيضا على بغداد عاصمة الخلافة التي تدهورت بها الحياة الثقافية بعد احتلال المغول لها في بدايات القرن الخامس عشر، وهذا بعد أن كانت إبان القرن الثالث عشر منارة تجذب كافة اليهود. أما العلاقات المحدودة التي نشأت بين الطوائف اليهودية آنذاك، فلم تنشأ نتيجة لأي عوامل فكرية أو اجتماعية أو روحانية بقدر ما نشأت

نتيجة لبعض العوامل الاقتصادية التي كان من بينها تنقل اليهود من بلد إلى آخر لأغراض التجارة الدولية. وكما هو معروف فقد اشتغل اليهود بالتجارة عبر الطريق البري الممتد من سوريا للعراق وإيران. كما عملوا أيضا بالتجارة على الطريق البحري، فكانت لهم بعض الأنشطة التجارية البحرية في البحر الأحمر والمحيط الهندي والخليج العربي. وسادت أيضا بعض العلاقات بين الطوائف بفضل أنشطة مبعوثي الاستيطان اليهودي في فلسطين الذين كانوا يزورون الطوائف اليهودية المختلفة لتشجيعها على الهجرة إلى فلسطين. وكان من بين العوامل التي ساعدت أيضا على إقامة العلاقات بين الطوائف، أن المضايقات التي كان اليهود يتعرضون لها في بعض الأحيان جعلتهم يتنقلون من بلد إلى آخر، ولم تكن هذه المضايقات نتيجة لاضطهاد السلطات لهم، وإنما بسبب تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

ولا شك أنه كان من بين العوامل التي ساهمت في تغيير هذا الوضع أن المنطقة شهدت منذ منتصف القرن التاسع عشر تطورا ملموسا في وسائل الاتصال وفي شبكة العلاقات الاقتصادية والتجارية بين دول المنطقة، وبين المنطقة بأسرها وأوروبا الذي أدى إلى أنه قد تزايدت منذ هذا الحين، وإنما بشكل بطيء قوة العلاقات بين يهود الشرق ويهود فلسطين والمراكز المهمة في أوروبا. وشهدت نفس الفترة أيضا تزايد قوة حركة الهجرة من بلدان الشرق التي ينعم فيها اليهود بمزيد من الحرية. وكانت فلسطين واحدة من بلدان الإمبراطورية العثمانية التي هاجر إليها يهود الشرق.

وقبل أن نحلل هنا ظاهرة الهجرة التي ميزت تاريخ يهود الشرق منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين والتي أسفرت في نهاية الأمر عن استقلال الوجود اليهودي بالشرق، فمن الضروري أن ندرس في البداية قضيتين متعلقتين بموقف يهود الشرق تجاه فلسطين وهما: مكانة فلسطين في وعي يهود الشرق، والأنشطة التي قام بها مبعوثو الاستيطان اليهودي في بلدان الشرق.

مكانة فلسطين في الوعي الاجتماعي والديني ليهود الشرق

أصبحت فلسطين مركزا يهوديا روحانيا مهما منذ القرن السادس عشر، أي إبان الفترة التي عاشت فيها سائر الطوائف بالشرق في حالة لا مثيل لها من التردي والركود

الفكري. وكان ليهود صفد وفلسطين منذ ذلك الحين نتاج متميز في مجالات «القبَّالاه»، وتفسير العهد القديم والشريعة، والشعر الديني، وكان من أبرز مفكريهم آنذاك: الحاخام ها آري صاحب المدرسة الفكرية الثورية، التي كانت تهدف في المقام الأول إلى تفسير أسباب هذا الموقف الذي يعيش فيه اليهود. وسيطرت أفكار هذه المدرسة على كل مظاهر الحياة اليهودية في ذلك الحين. وقد ساعد تدهور أوضاع اليهود الاجتماعية والاقتصادية على ازدهار الأفكار التي دعا إليها هذا الاتجاه، وعلى الابتعاد عن التقاليد العقلانية التي ازدهرت فيما قبل إبان العصر الذهبي للخلافة الإسلامية. وفي حقيقة الأمر فقد أولى الاتجاه الصوفي قدرا كبيرا من الاهتمام بوضع الشعب اليهودي بين الشعوب الإسلامية، وبمغزى الشتات والخلاص، ومن هنا لا غرابة في أنه تم إحياء مفهوم أرض الميعاد، وفي أن الأفكار الغيبية التي روجت لها مدرسة صفد الصوفية انتشرت بشكل سريع في أوساط يهود الشرق، وتغلبت على تلك المكانة البارزة التي تشغلها التقاليد الدينية السابقة.

وكان الارتماء في أحضان الفكر الغيبي هو الظاهرة الرئيسية في الحياة الفكرية لطوائف الشرق خلال القرون الماضية، وعبرت عن التغير الثوري الذي شهده المجال الروحي منذ خروج اليهود من الأندلس، وارتبط بتلك المكانة البارزة التي شغلتها فلسطين من الناحية الروحانية الاجتماعية في الوعي اليهودي.

ولم يحدث هذا التحول خلال فترة وجيزة، كما أنه لم يكن نتيجة مباشرة للهجرة اليهودية من الأندلس أو من فلسطين إلى الشرق. وعند الحديث عن هذه الهجرة يجب أن نضع في اعتبارنا أن كل المعلومات التي في حوزة الباحثين تفيد أن يهود الأندلس لم يصلوا إلى بلدان الشرق، ومن هنا لم يحدث خروج اليهود من الأندلس أي تحول ديموغرافي في أوساط يهود الشرق. وحدث هذا التحول على مدى قرون عديدة، أي منذ بدايات القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين.

وجدير بالذكر أن مسيرة التحول هذه كانت سريعة للغاية في أوساط الطوائف اليهودية التي ازدهرت بها دراسة التوراة مثل طائفتي بغداد وحلب، أما الطوائف اليهودية التي كانت بعيدة عن مراكز الأحداث مثل الطوائف الإيرانية وطائفتي كردستان وبخارى، فقد حافظت على مدى فترة طويلة وحتى القرن العشرين على

التقاليد اليهودية القديمة التي كانت تولي مكانة مهمة لأرض الميعاد. وفيما يتعلق بالطوائف اليهودية الرئيسية في الشرق والتي كانت لها علاقات قوية بفلسطين والتي كانت حياتها الدينية خاضعة للحاخامات الذين كانوا يعلمون مدى أهمية أرض الميعاد في الفكر اليهودي فإنها استطاعت وبشكل أسرع من غيرها أن تتلاءم مع أفكار مدرسة صفد.

وربما يكون كتاب الصلوات الذي استخدمه يهود الشرق خير دليل على مدى الأهمية التي أولوها لفلسطين. فقد حل كتاب الصلوات الذي أقره ها آري وأتباعه في القدس وصفد منذ القرن السابع عشر محل كتاب الصلوات التقليدي. أما يهود إيران وأفغانستان وبخارى فقد استمروا في اتباع كتاب الصلوات الذي كان أقره الحاخام سعديا هجاؤون، واستمروا في اتباع هذا الكتاب حتى القرن التاسع عشر. وشهدت الطائفة اليهودية في بخارى في نهايات القرن التاسع عشر جدلا عنيفا حول كتاب الصلوات بين الاتجاه القديم الذي مثله الحاخام زكريا متسليح الذي كان من يهود اليمن الذين هاجروا إلى بخارى ـ والداعي إلى التمسك بتقاليد أبناء الطائفة، وبين الاتجاه الحديث الذي مثله الحاخام يوسف ممان الذي كان من مبعوثي صفد في بخارى، والداعي إلى التركيز على مكانة أرض الميعاد في الفكر اليهودي. ومن الملاحظ أن حاخامات بخارى فضلوا في نهاية الأمر الأخذ بكتاب الصلوات المتبع في فلسطين، هذا بالرغم من أن هذا التحول أدى إلى تغيير تقاليدهم، وذلك على الرغم من أن الحاخام زكريا متسيلح مارس أنشطته في أوساطهم قبل مجيء الحاخام يوسف ممان.

وكان من بين مظاهر اعتماد يهود الشرق على صيغ الصلوات المتبعة لدى حاخامات فلسطين أن الحاخام يوسف حاييم الذي تزعم يهود العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، و أعد كتاب الصلوات بما يتماشى مع كتب الصلوات التي أقرها أتباع مذهب «القبالاة» في فلسطين (الحاخام ها آري، والحاخام حاييم فيتال، والحاخام شالوم شرعبي) الذين أقاموا في فلسطين خلال الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر. وتضمنت أعمال الحاخام يوسف حاييم في أحيان كثيرة إشارات عديدة إلى مؤلفات وتقاليد الحاخامات اليهود

في فلسطين، واعتمد على آرائهم خاصة في كل ما يتعلق بالقضايا الخاصة بالصلاة أو بالشريعة، وكانت للحاخام يوسف حاييم أيضا مراسلات عديدة مع الحاخام الياهو ماني الذي هاجر من بغداد إلى فلسطين، والذي استقر في مدينة الخليل في عام ١٨٥٦. وتضمنت هذه المراسلات آراء الحاخام ماني في بعض الشرائع المتبعة في فلسطين والمتأثرة بمذهب «القبالاه»، وشكلت هذه الآراء مصدرا مهما اعتمد عليه الحاخام يوسف حاييم في كل ما أصدره من فتاوى.

ولم تنتشر صيغ الصلوات اليهودية التي اتبعها أتباع مذهب «القبالاه» بفلسطين في أوساط يهود العراق ويهود الشرق فحسب، وإنما انتشرت في أوساط كل الطوائف اليهودية السفاردية بما فيها تلك الطوائف التي استقرت في بلدان شمال أفريقيا، وشمل هذا التأثير أيضا أبناء الطوائف الذين أقاموا في بلدان البلقان وتركيا. ولم يكن شيوع وانتشار صيغ الصلوات المتبعة في فلسطين نتيجة فقط لقوة الحاخام يوسف حاييم، وإنما كان نتيجة أيضا لاعتماده على آراء الحاخام ها آري وأتباعه الذين أولوا اهتماما كبيرا لفكرة أرض الميعاد.

وكان لنشاط مدرسة صفد الدينية في مجال الشعر الديني ذي الصلة الوثيقة أيضا بمجال الصلوات، أكبر الأثر في كل يهود الشرق. وكانت القصائد التي صدرت في صفد شديدة التأثر، سواء من ناحية الشكل أو المضمون، بالشعر الديني الذي صدر إبان العصر الذهبي لليهود في الأندلس، ونظم شعراء اليهود في الشرق منذ القرن السادس عشر أشعارهم الدينية على غرار القصائد الدينية التي نظمها الحاخام يسرائيل نجاره الذي عاش في صفد، والتي شاعت في أوساط كل يهود الشرق. ولم يتأثر يهود الشرق بالقضايا التي تناولها الحاخام يسرائيل نجاره في أشعاره أو بصوره الفنية وإنما تأثروا به من ناحية تخطيهم لحدود الإطار التقليدي للصلوات الدينية، فلم تعد القصائد الدينية التي نظموها تُرتل فقط في المعابد الصهيونية وإنما أصبحت تُنشد في المناسبات الاجتماعية المختلفة.

وأصبحت الأشعار الدينية على هذا النحو أكثر شيوعا في المجتمع، وذلك بعد أن اختفت من المجتمع اليهودي كل الأشعار الدنيوية من حب وغزل، والتي كانت

شائعة في العصور الوسطى. وكان للحاخام الشاعر يسرائيل نجاره أكبر الأثر في رواج الأشعار الدينية حيث أدخل إلى الأشعار الدينية موسيقى شعر الغزل المدون بلغة اللادينو التي كانت شائعة في أوساط اليهود الذين خرجوا من الأندلس، وفي أوساط يهود الإمبراطورية العثمانية. والجدير بالذكر أن هذه الموسيقى الشعرية لم تدخل فقط إلى مجال الشعر الديني وإنما دخلت أيضا إلى مجال الصلوات التي ترتل في المعابد. وانتقل مركز الشعر الديني بعد رحيل الحاخام يوسف نجارة من القدس إلى حلب التي أثرت منذ هذا الحين في يهود العراق وعلى سائر يهود الشرق.

وفيما يتعلق بمجال الشريعة فقد أصبح كتاب «شولحان عاروخ»* للحاخام يوسف كارو الذي عاش في صفد أكثر أهمية من كتاب «تثنية التوراة» للحاخام الفيلسوف موسى بن ميمون الذي كان يعد عمله وحتى القرن السادس عشر بمنزلة مصدر التشريع اليهودي حتى ذلك الحين. وفي مجال الشريعة أيضا أخذت الطائفة اليهودية بحلب على عاتقها مهمة نقل الفكر اليهودي من فلسطين إلى سائر الشرق. وبعد أن فقدت صفد أهميتها الدينية في القرن السابع عشر ظهرت مراكز دينية يهودية أخرى في كل من القدس وحلب، فتأسست في القدس وبفضل مساعدة أثرياء الطوائف اليهودية في إيطاليا وبلدان شمال أفريقيا ودول البلقان عدة أكاديميات دينية، وحظي رئيس هذه الطائفة في القدس بلقب «هريشون لتسيون» (أول من قال لصهيون) بمكانة بارزة في أوساط اليهود. أما عن حلب فنتيجة لأن العلاقات الاقتصادية بين الطوائف اليهودية في الشرق وبين طوائف حوض البحر الأبيض المتوسط كانت تمر عبرها فقد شغلت الطائفة اليهودية بها مكانة بارزة في عالم الفكر اليهودي - بوصفها ممثلة لفكر حاخامات فلسطين في الشرق، وقد عملت هذه

---

* شولحان عاروخ: معنى هذا الاسم بالعربية «المائدة المنضودة»، وهو أهم ما كتبه الفقيه اليهودي يوسف كاروه أحد حكماء صفد في القرن الخامس عشر. ويعتبر من أهم الكتب في الفقه اليهودي بعد كتاب «سمحت هتواره» (بهجة التوراة) لموسى بن ميمون. ويعتبر من أوسع الكتب الفقهية انتشارا. وتتبع اليهودية السفاردية ويهود الشرق النسخة الأصلية للكتاب، بينما يتبع اليهود الاشكنازيم النسخة المنقحة والمزيدة والتي تتفق مع تقاليدهم الدينية والتي وضعها المربي موشي إيسرلش. تعرض المنهج التشريعي المتزمت لهذا الكتاب للنقد والهجوم من جانب دعاة حركة «التنوير اليهودية» واعتبروه السبب في انغلاق وتحجر اليهود في شرق أوروبا. (المراجع)

الطـائفة على نشر فكـر حاخـامات فلسطين. ولعبت الطـائفة اليهـودية في القـدس وبفضل أنشطـة مبعوثيهـا في الشرق دورا بارزا في نشر فكـر ها آري. أمـا بغداد فقـد شهدت هذه المدينة بعد موت معظم حاخـاماتها في الوباء، وبفضل الحاخام تسدقا حوتسين الذي تولى منذ عام ١٧٤٠ زعامة الطائفـة اليهودية، حركة نهضة ملموسة، وكان لهذا الحاخام دور ملموس في تزايد ارتبـاط يهود العراق بفكر ها آري الذ ي أولى اهتماما كبيرا لمكانة أرض الميعاد.

وجدير بـالذكر أن تأثير شريعة فلسطين ومـركزيتها في الوعي الـروحي لطوائف يهود الشرق لم يكن أمرا بـديهيا. فقـد شهدت بخارى، وكما أشرنـا من قبل، خلافـا عنيفا بين الحاخام يـوسف ممان وبين الحاخـام زكريا متسيلح، وهـو الخلاف الذي انتهى بـانتصار أتباع الحاخـام ممان الداعي إلى اتباع الفكـر اليهودي لحاخامـات فلسطين. أما في اليمن فلم ينجح فكـر الحاخـامـات اليهـود في فلسطين في القضاء على مكـانـة الفكـر العبري الوسيط، وعلق الحاخام يعقوب اليسار كبير حـاخامات القدس في عام ١٨٩٤ على هذا الوضع بقـوله: «إن يهود اليمن مازالوا يتبعـون فكر الحاخام موسى بن ميمـون، ويتبعون في صلواتهم وأحكامهم كل ما نص عليه بن ميمـون. وكانت الطوائف اليهودية في اليمن وخاصة في صنعاء على قدر كبير من القوة والتماسك، ولكن كانت علاقاتها في المقابل مع يهود فلسطين ضعيفة إلى حد ما، ومن هنـا لم تكن هذه الطوائف على استعداد لتقبل آراء الحاخامات اليهود في فلسطين بل وفشلت كل المحاولات التي بذلها الحاخام شالوم عراقي رئيس الطائفـة في القرن الثـامن عشر والهادفة إلى فـرض كتاب الصلـوات المتبع في أوساط يهود فلسطين على يهود اليمن، كما فشلت أيضا محاولات فـرض كتاب «شـولحان عاروخ» كمصدر للشريعة على يهود اليمن.

وقد تزايدت مركزية فلسطين في وعي يهود الشرق منذ القرن التاسع عشر وخاصة منـذ عـام ١٨٤٠ فصـاعـدا، وساهمت بـلا شك العـديـد من العـوامل السيـاسيـة والجيوبـوليتيكية منذ ذلك الحين في تـوثيق علاقـات يهود الشرق بيهود فلسطين، كما ساهمت في تنشيط حركة الهجرة بين كل بلـدان الشرق. وفي حقيقة الأمر فإنه تزايدت قوة الاستيطان اليهودي في فلسطين منذ عهد إبراهيم باشا (١٨٣٢ـ ١٨٤٠)، وكان من بين عـوامل تـزايد قـوة اليهـود في فلسطين أن السلطات التركيـة اعترفت في عـام

١٨٤٠ بصلاحيات رئيس الطائفة اليهودية في فلسطين (هريشون لتسيون)* ومنحته لقب «حاخام باشي». وتزايدت منذ ذلك الحين قوة الحاخامات في فلسطين ليس فقط كعلماء في الشريعة اليهودية، وإنما أيضا كرجال دين ذوي صلاحيات واسعة في المجتمع اليهودي. وقد يكون خير دليل على تزايد قوتهم في هذا الحين أن حاخامات يهود اليمن بعثوا بتساؤلاتهم في الفقه اليهودي إلى حاخامات القدس، على الرغم من أنهم كانوا من أكثر يهود الشرق تمسكا باتباع تعاليم الحاخام موسى بن ميمون، وعلاوة على هذا فإن المحكمة اليهودية الشرعية في القدس كانت تبحث أيضا كل القضايا الدينية الخاصة بيهود اليمن.

وكان الحاخام يعقوف شاؤول اليسار الذي شغل منصب كبير الحاخامات في فلسطين (١٨٩٣ـ ١٩٠٦) واحدا من أبرز حاخامات الشرق، وكان اليسار قد شغل قبل توليه لهذا المنصب العديد من المناصب المهمة في أوساط المستوطنين اليهود، مثل منصب كبير قضاة الطائفة اليهودية السفاردية في القدس، ومنصب نائب كبير حاخامات القدس. وذاع صيته في كل العالم اليهودي ليس فقط في الشرق بل في الغرب أيضا، ولذلك تلقى منذ القرن التاسع عشر العديد من التساؤلات الخاصة بالشريعة اليهودية، وكان اليسار أيضا من بين الشخصيات المقربة في حينه إلى يهود الشرق الذين هاجروا إلى القدس، ومن هنا كانت له مكانة مرموقة في أوساطهم.

ويمكننا بشكل عام قول إن حاخامات القدس شكلوا منذ القرن السادس عشر وخاصة منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر أعلى سلطة روحانية لكل يهود الشرق، ولم يكن هذا الأمر من بين العوامل الرئيسية التي شجعت يهود الشرق على الهجرة إلى فلسطين، ولكنه كان عاملا ساهم في حفاظ يهود الشرق على رابطتهم الدينية القومية بفلسطين، وعلى رغبتهم في الهجرة إليها عند توفير الظروف الاقتصادية السياسية المناسبة. ونتيجة لأن المجتمع الإسلامي في الشرق كان مجتمعا محافظا حتى الحرب

---

* هريشون لتسيون: تعني هذ العبارة «أول من قال لصهيون»، وقد وردت مرة واحدة فقط في العهد القديم في سفر إشعيا ٤١ : ٢٧. وقد أصبحت لقب تكريم يمنح لمن يتولى مكانة الزعامة الدينية بين بعض الطوائف اليهودية. وقد أطلقت هذه التسمية أيضا على أول مستعمرة يهودية أقيمت في فلسطين مع بداية الهجرة الصهيونية إليها عام ١٨٨٢ على يد «محبي صهيون» وجماعة «البيلو»ـ (المراجع).

العـالميـة الأولى، فلم يكن من الممكـن أن تظهـر في أوسـاط سكـانـه من اليهـود أي أيديولوجيـة داعية للاندماج في المجتمع. ونتيجة لانغـلاق المجتمع اليهودي بالشرق على ذاته، وضعف عـلاقاتـه بالخارج لم تشع في أوسـاطهم ظاهـرة الهجرة إلى الخارج كوسيلـة لحل مشكلاتهم، أمـا فلسطين فقد نظروا إليهـا بوصفهـا موطنـا يستطيعون العيش والإقامة فيه بما يتماشى مع تقاليدهم دون إزعاج، ولذلك لا غرابة في أن بعض الطوائف هاجرت بكاملها تقريبا إليها.

نشاط مبعوثي يهود فلسطين في تقوية علاقات يهود الشرق بفلسطين

كانت مؤسسة مبعوثي يهود فلسطين * واحدة من أهم الوسائل التي ساهمت في إقـامـة عـلاقـات بين يهود فلسطين ويهود الشرق اعتبـارا من القـرن السـادس عشر فصـاعدا. وتكمن أهميـة هذه المؤسسـة في أنها حرصت على إقـامة هـذه العلاقـات وخاصة لعدم توافر وسـائل المواصلات التي من شأنها تسهيل حركة انتقال اليهود من بلد إلى آخر، ولأن الأنظمـة الانغلاقية في بلدان الشرق لم تكن تشجـع اتصال اليهود بأي جهات أجنبية.

وقد تعـامل يهود الشرق دائما بالتقدير والمهـابة الدينية مع المبعـوثين القادمين من فلسطين ليس فقط لمجيئهم من الأرض المقدسة ومن رحاب الأماكن اليهودية المقدسة في فلسطين، كحائط المبكى، ومغارة المكفلة وقبور الأولياء والـصديقين، ، وإنما لأنهم كانوا أكثر دراية منهم بالشريعة اليهودية وبكـافة القضايا العالمية بالمقارنة بهم، وذلك باستثناء يهود بغـداد وصنعاء الذين نشطت في أوساطهـم دراسة الشريعة. ولم تقتصر أنشطة هؤلاء المبعـوثين على جمع التبرعات لصالح المستوطنين اليهود وإنما قـاموا أيضا

---

* مبعـوثو يهود فلسطين: اصطـلاح يطلق على المبعـوثين اليهـود الذين يـرسلـون من فلسطين لجمع التبرعات والمساهمات للمعاهد التلمـودية «اليشيغوت» ولفقراء فلسطين من اليهود. ويطلق على الواحـد منهم بالعبريـة «شدَّار» وهي اختصـار للكلمات الآرامية «شلوحـا دي ربان» وبـالعبرية «شـالياح شل ربـانيم» أي مبعوث الحاخـامـات. ومن بين مهام هـؤلاء المبعوثين حث إخـوانهم اليهود على الهجـرة لفلسطين ودعم الاستيطان اليهودي بها، والعمل في مجال التدريس والتـوجيه في أصول الشريعة والعبـادات وإثارة الرغبة لدى اليهود في الخلاص وتقـوية الروابط بين فلسطين والشتات اليهودي ـ (المراجع).

بدور الزعماء الروحيين. ولم تقتصر علاقة هؤلاء المبعوثين بالطوائف اليهودية المختلفة على الفترات القصيرة التي كانوا يقضونها في الشرق، إذ كانت هذه العلاقات تستمر فيما بينهم بعد عودة المبعوثين إلى فلسطين عن طريق المراسلات، كما كان عدد غير قليل من هؤلاء المبعوثين يقضي فترات طويلة في البلدان التي يزورونها، واستقر المطاف ببعضهم في البلدان التي ذهبوا إليها فعملوا حاخامات في هذه البلدان، بناء على طلب السكان اليهود. وقد رحبت الطائفة اليهودية في بخارى، التي لم يظهر فيها، على سبيل المثال، أي حاخامات بارزين بهؤلاء المبعوثين الذين عملوا كحاخامات أو كمدرسين للشريعة اليهودية. أما في كل من بغداد وصنعاء فقد عينت السلطات التركية حاخامات من فلسطين لشغل منصب كبير الحاخامات في هذه البلدان، ليس لتفوق يهود فلسطين بالضرورة في مجال الشريعة اليهودية، وإنما لمعرفتهم باللغات الأجنبية وخاصة اللغة التركية والعلوم الحديثة. وجدير بالذكر أن الحاخام اسحاق شاؤول الذي عينه الأتراك لشغل هذا المنصب في صنعاء عجز عن ممارسة مهامه، لأن تدني مستوى معرفته بالتوراة لم يؤهله لشغل هذا المنصب، أما في بغداد فإن الحاخامات الذين أتوا من فلسطين لشغل منصب «الحاخام باشي»، والذين كان من بينهم الحاخام عوفادياهليفي (١٨٤١)، والحاخام داود فافو (١٩٠٦)، والحاخام يروحام اليسار (١٩٤١) تفوقوا على حاخامات بغداد.

وتجلى التأثير الروحي ــ الاجتماعي على يهود الشرق في أنهم أتاحوا لهم فرصة الوقوف على كل التطورات الروحية التي تحدث في العالم اليهودي عامة، وفي فلسطين على وجه الخصوص كما نشر هؤلاء المبعوثون منذ القرن السادس عشر في أوساط يهود الشرق أفكار حركة «القبَّالاه» *التي لم تكن معروفة من قبل ليهود الشرق، وعرفوهم

* القبَّالاه: علم التصوف اليهودي وعلم المعرفة بالتأويلات الباطنية التي يعمل بها «همقوباليم» أي العارفون بالفيض الإلهي، وهم أفراد من المتصوفة يسعون لمعرفة جذور الوجود الكوني، ليس عن طريق الوسائل العقلية، بل عن طريق الاستعداد الداخلي والسمو بالنفس. و«القبَّالاه» اتجاه في التصوف اليهودي ظهر في القرن الثالث عشر، وكتابها الرئيسي هو «الزوهر» (الضياء). وقد تبلور اتجاه عملي للتصوف ظهر على يد ربي متسحان لوريا (ها آري المقدس) الذي أضاف «للقبَّالاه» القديمة بعداً جديداً بالحديث عن الوجود الإلهي السائد في «المنفى» وبالإيمان بأنه يمكن التعجيل بمجيء المسيح المخلص عن طريق العذابات الجسمانية والصوم واتباع الملائكة وطرد الأرواح الشريرة من الجسد والتعويذات والتعزيمات ـ (المراجع).

بشبتاي بن تسفي* وقد جلبوا معهم أثناء زياراتهم أحدث الكتب المطبوعة في أوروبا وفي الدولة العثمانية، واشتغل بعض المبعوثين الذين قدموا إلى اليمن بتجارة الكتب، بالإضافة إلى الأنشطة التي قاموا بها لتشجيع يهود الشرق على الهجرة إلى فلسطين. وينطبق هذا الأمر على الحاخام أفراهام إشكنازي الذي أتى إلى اليمن في الستينيات من القرن السادس عشر. وعلى الرغم من كل هذه الأنشطة التي قام بها هؤلاء المبعوثون في الشرق إلا أنه لا يرجع إليهم فضل نشر الفكر اليهودي المستنير بين طوائف الشرق، وهي المهمة التي قام بها الرحالة والباحثون والتجار ومبعوثو المؤسسات الخيرية في أوروبا.

وكان هؤلاء المبعوثون يتدخلون في أحيان كثيرة في حياة الطوائف المحلية، إما بمبادرة شخصية منهم أو بناء على طلب من أبناء هذه الطوائف، وكانوا يتجاوزون في أحيان كثيرة طبيعة المهام الملقاة على عاتقهم من قبل السلطة التركية في فلسطين، ومن قبل القيادة اليهودية للطوائف التي كانوا يقومون بزيارتها. ومع هذا فقد حظوا بتأييد وحب السكان لما كانت تنعم به فلسطين وحاخاماتها من مكانة مرموقة في نفوس يهود الشرق. وأدخل هؤلاء المبعوثون إصلاحات عديدة على النظم الاجتماعية المتبعة في أوساط الطوائف اليهودية بالشرق باستثناء طائفة اليمن، وكان يهود الشرق يتقبلون هذه الإصلاحات دون أي اعتراض على أنشطة هؤلاء المبعوثين الذين سعوا لفرض العادات والتقاليد الدينية المتبعة في فلسطين على يهود هذه البلدان الذين كانوا يتبعون عادات مختلفة رأى المبعوثون أنها تعد خروجاً خطيرا على الأصول الدينية التي من الواجب اتباعها. ولا شك أن استعداد يهود الشرق الدائم لتقبل هذه الإصلاحات هو الذي أحدث هذا التقارب بين العادات الدينية ليهود الشرق، وبين عادات يهود فلسطين.

ولم يكتف هؤلاء المبعوثون بزيارة الطوائف اليهودية المقيمة في المدن الكبرى والتي

* شبتاي بن تسفي : آخر المسحاء الكاذبين. ظهر في تركيا في القرن السابع عشر، وادعى أنه سيقود اليهود للخلاص إلى فلسطين وآمنت به جموع كبيرة من اليهود من شتى بقاع الشتات اليهودي. عندما قبض عليه الخليفة خاف من الموت واعتنق الإسلام وتبعه أتباعه في هذا. ونشأت في تركيا منذ ذلك التاريخ طائفة «الدونمه» التي تعلن الإسلام وتبطن اليهودية، وتؤمن بأن شبتاي رفع للسماء وسيعود مع المسيح المخلص - (المراجع).

كانت لها إلى حد ما علاقات بالعالم الخارجي، بل حرصوا أيضا على زيارة الطوائف اليهودية المقيمة في القرى والضواحي والتي كانت علاقاتها بالعالم الخارجي تقتصر إما على خروج بعض أبنائها للعمل أو للاتصال بالسلطات أو على زيارة بعض الشخصيات الأجنبية لها. كما وصل هؤلاء المبعوثون الذين لم يهتموا كثيرا بالاعتبارات السياسية أو الاقتصادية، واهتموا فقط بجمع التبرعات لمصلحة الطوائف اليهودية في فلسطين، إلى الطوائف اليهودية المقيمة في المناطق النائية والتقوا بأبنائها بل وشاركوهم في أداء الصلوات. وكان هؤلاء المبعوثون يتسمون في الحقيقة بالإخلاص والتفاني في العمل، وكانوا يبذلون كل ما في وسعهم للقيام بمهامهم على أكمل وجه، وكانوا يتعرضون في بعض الأحيان لحوادث القتل والنهب خاصة في المناطق الجبلية من كردستان وفي شمال اليمن، لاسيما أنهم كانوا يسيرون في مناطق وعرة غير آمنة، مما كان يضطرهم في بعض الأحيان لأن يأخذوا مرافقين يرشدونهم عن الأماكن التي يفضل السير فيها.

وجدير بالذكر أن السجلات والدفاتر التي خلفها لنا هؤلاء المبعوثون تعد على قدر كبير من الأهمية لدارسي تاريخ يهود الشرق حيث سجلوا فيها أسماء كل الأماكن التي حلوا بها، وأسماء المتبرعين لصالح الاستيطان اليهودي في فلسطين، وكان كتاب «ايفن سافير» (حجر اللازورد) من أبرز الكتب التي تضمنت معلومات عديدة عن الرحلات التي قام بها الحاخام يعقوب سافير في نهاية عقد الخمسينيات بالقرن التاسع عشر إلى اليمن والهند وبلدان الشرق الأقصى مبعوثا من قبل الطائفة الإشكنازية الفرنسية في القدس. كما ترك لنا الحاخام أفراهام ناداف أحد مبعوثي الاستيطان القديم بالقدس والذي سافر في نهايات القرن التاسع عشر إلى اليمن، سجلات عديدة دون فيها بالتفصيل كل ما شاهده من أحداث. ونفس الأمر بالنسبة للحاخام يوسف حاييم شاريم، مبعوث الطائفة السفاردية بالقدس، والذي طاف بالعراق وكردستان خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين. وقد شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر تزايد وجود مبعوثي الاستيطان اليهودي في الشرق نتيجة طبيعية لتزايد حجم احتياجات الاستيطان اليهودي في فلسطين، علاوة على أن طرق المواصلات بين بلدان الشرق أصبحت أكثر أمانا واستقرارا مما ساعدهم على زيارة كافة الطوائف اليهودية في الشرق، ومع هذا تقلصت في العصر الحديث مكانة مؤسسة مبعوثي يهود فلسطين،

وهذا بعد أن أخذت الشخصيات اليهودية المستنيرة في أوروبا على عاتقها مسؤولية الإشراف على عملية الاستيطان اليهودي في فلسطين، وعلى المستوطنين اليهود الذين هاجروا من أوروبا إلى فلسطين. ويبدو أن الحرب العالمية الأولى شكلت نقطة تحول مهمة في تاريخ المؤسسة اليهودية التقليدية المسؤولة عن الاستيطان، حيث تضاءلت منذ ذلك الحين أنشطتها، ومع هذا ظل المبعوثون يمارسون حتى نهاية عقد العشرينيات وبداية الثلاثينيات من هذا القرن أنشطتهم في بلدان الشرق المختلفة.

والوجه الآخر من العملة بالنسبة لأنشطة هؤلاء المبعوثين هو أنهم لم يشجعوا يهود الشرق حقا على الهجرة إلى فلسطين، وذلك لأن رغبتهم الدائمة في جمع التبرعات كانت تدفعهم لرسم صورة كئيبة للغاية للضائقات الاقتصادية في فلسطين، والإفراط في تصوير حجم الضغوط التي يتعرضون لها من قبل السلطات. وكان قادة الاستيطان اليهودي القديم في فلسطين لا يرحبون، في واقع الأمر، بانضمام المزيد من المهاجرين، لأن الزيادة في تعداد المهاجرين كانت تعني حتما توزيع التبرعات المحدودة التي تصلهم (الحلوقاه)* على عدد أكبر من المحتاجين.

ولم يبرز من بين الأعداد الهائلة من المبعوثين في الشرق سوى ثلاثة وهم: الحاخام يوسف ممان مبعوث صفد الذي وصل إلى بخارى في عام ١٧٩٣، واستقر بها بغرض الإشراف على كل القضايا الدينية الخاصة بالطائفة اليهودية هناك، مما كان يعني تخليه عن المهمة التي خرج من أجلها، ومع هذا فإن حديث الحاخام ممان الدائم عن أهمية الهجرة إلى فلسطين دفع بعد عشرات السنين أتباعه للهجرة والاستيطان بها. وكان من أبرز المبعوثين أيضا الحاخام يعقوب مائير الذي وصل إلى بخارى في عام١٨٨٢،

* الحلوقاه: اصطلاح عبري يُطلق على المساعدة المالية التي يعطيها يهود الشتات ليهود فلسطين الفقراء والمحتاجين. وكان يقوم بهذه المهمة «الشدَّار» (المبعوث) الذين كان يتم اختيارهم من المدن الأربعة المقدسة في فلسطين وهي: القدس والخليل وصفد وطبرية، وكانوا يتميزون عادة بالبشاشة والتفقه في أصول الدين والشريعة، وكانت أول مهمة قاموا بها في عام ١٨٤٦ عندما اشتدت المجاعة باليهود في فلسطين. وعندما زاد عدد المبعوثين ونشأت الخلافات بينهم واندس بينهم عدد من مدعي المعرفة والعلم الديني تم الاتفاق على تخصيص نصيب لكل دولة عُرِفَ باسم «كوليل»، وكان عددها عشية الحرب العالمية الأولى ٢٧ «كوليل». مع نشأة الاستيطان الصهيوني اعتبرت «الحلوقاه» سبة في جبين اليهود ورفض المستوطنون الصهاينة استمرارها وأصبحت الكلمة كلمة استهجان واحتقار لمن تُطلق عليه بعد ذلك ـ (المراجع).

وشجع أثرياء يهود بخارى على الهجرة أيضا . ولا حاجة بنا هنا للقول إن شموئيل يفنئيلي الذي لم يكن من مبعوثي الاستيطان ، وكان مندوبا صهيونيا بعث في عام ١٩١١ إلى اليمن ، كان هدفه جلب مهاجرين جدد لكي يتيح للمستوطنين اليهود عدم الاعتماد على العمال العرب ، وهو لم يبعث إلى هناك لجمع أي تبرعات مالية . وتجدر الإشارة إلى أن هؤلاء المبعوثين عملوا أيضا من أجل تحسين الأوضاع الاجتماعية ليهود الشرق ، ولكنهم لم يقوموا بهذا الأمر إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، أي بعد أن ظهرت في أوروبا شخصيات ومؤسسات يهودية أخذت على عاتقها مهمة العمل لصالح الطوائف اليهودية . ولم تتح لهذه الشخصيات هذه الفرصة إلا بعد أن منحت السلطات العثمانية وبموجب سياسة «التنظيمات» المساواة في الحقوق لليهود . وبعد أن تزايد تأثير القوى العظمى على الدولة العثمانية ، وكان من أبرز المبعثوين الذين تدخلوا لمصلحة يهود الشرق كل من الحاخام بنيامين نحمد مبعوث طبرية (١٨٦٧) والحاخام رحاميم ديلا روزا مبعوث القدس الذي تدخل في عام ١٨٧٤ لمصلحة يهود مدينة أربيل وعميديا في كردستان والحاخام حييم يعقوب هاكوهين بينشتين مبعوث صفد الذي تدخل في عام ١٨٧٧ لمصلحة يهود اليمن ، وقد لقيت أنشطة هؤلاء المبعوثين ترحيبا وقبولا في نفوس يهود الشرق .

وعند تقييم نشاط هؤلاء المبعوثين نجد أن أنشطتهم لم تكن على تلك الأهمية بالنسبة لحركة الاستيطان ، ومع هذا فقد ساهموا في تشجيع يهود الشرق على التبرع بأموالهم لمصلحة المستوطنين ، كما ساهموا أيضا في تعزيز مكانة فلسطين في وعي يهود الشرق . ولا يرجع إلى هؤلاء فضل توثيق علاقات يهود الشرق بفلسطين فحسب أو نوعيتهم بما يحدث في عالم الفكر اليهودي ، وإنما يرجع إليهم فضل إقامة علاقات وثيقة بين يهود الشرق وبين سائر الطوائف اليهودية .

هجرة يهود الشرق إلى فلسطين

كانت هجرة يهود الشرق إلى فلسطين حتى منتصف القرن التاسع عشر محدودة للغاية ، واندمج معظم المهاجرين الذين قدموا إلى فلسطين حتى ذلك الحين في حياة الطائفة اليهودية السفاردية ، وشغل البعض منهم بضعة مناصب قيادية في الحياة

الدينية للطائفة اليهودية . لقـد شغل ، على سبيل المثال ، الحاخام شلومو عدني الذي هاجـر من عـدن إلى فلسطين في عام ١٥٧٠ منصب حـاخام الطـائفة اليهـودية . في الخليل ، كما كان الحاخام شلومو شرعبي الذي هاجر من اليمن في عام ١٧٤٠ واحدا من بين الذين شغلوا عـدة مناصب قيادية في فلسطين ، حيث شغل بعـد هجرته من اليمن منصب رئيس مدرسـة «القبالاه» الدينية في القـدس «بيت إيل» (بيت الرب) . من بين هؤلاء الحاخامات أيضاً الحاخام رحاميم بن حاييم هكوهين الذي هاجر من كردستان إلى القـدس ورأس الطائفة اليهوديـة بها (١٧٥٤ـ ١٧٦٧) . وعلى كل حال لم يتزايد تعداد المهاجرين من بلدان الشرق إلى فلسطين إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وخاصـة في عقد الثمانينيات من هذا القرن . وبدأ هـؤلاء المهاجرون بعد أن تزايـد تعدادهم في الانفصال عن الطـائفة اليهوديـة السفاردية وأصبحـوا يشكلون طوائف مستقلة ، كما أنهم أصبحوا بطبيعة الحال منفصلين عن حيـاة الطائفة اليهودية الإشكنازية بفلسطين .

ويمكننـا في هذا المجـال أن نميـز بين خمس فترات رئيسيـة في تاريخ هجـرة يهود الشرق إلى فلسطين .

١ـ الهجرة الفردية (١٨١٢ـ ١٨٨٠) .

هـاجـرت خـلال هـذه الفترة أعـداد محدودة من يهود الشرق إلى فلسطين ، وأتت حركة الهجرة الأولى من كردستان خلال عام ١٨١٢ ، ثم أتت مرحلة الهجرة من إيران خلال الأعـوام (١٨١٥ ـ ١٨٤١)، ومن العراق خـلال الأعوام(١٨١٨ـ ١٨٥٦)، ومن اليمن بدءا من عام ١٨٥٥ ومن بخارى خلال الأعوام (١٨٢٧ ـ ١٨٧١) . وفي حقيقة الأمر فإن المعلومات المتوافرة لدينـا عن أوضاع هؤلاء المهاجرين ضئيلة للغاية . ومع هـذا كـان معظمهم مـن الـلاجئين الـذين اضطـروا بسبب المضـايقـات أوالاضطهادات للهجرة إلى فلسطين . وكما هو معروف ، تدهورت أوضاع يهود الشرق الاجتماعية والاقتصادية إبـان القرن التاسع عشر، ومع هذا ليس من الممكن أن نطلق هذا الحكم على كل هؤلاء المهاجرين ، حيث كـانت هجرة يهود بخارى نتيجة طبيعية لأنشطة الحاخام يوسف ممان الـذي شجعهم على الهجرة إلى فلسطين . وكانت عائلتا

يهود وميني من أبرز العائلات اليهودية الثرية في بخارى التي هاجرت إلى فلسطين لأسباب دينية بحتة. وعلى كل حال فإن هذه المرحلة من الهجرة تمثل بدايات الهجرة اليهودية من الشرق إلى فلسطين.

٢ـ مرحلة الهجرة بأعداد كبيرة (١٨٨٠ـ ١٩١٤).

أوصلت إلى فلسطين خلال هذه الفترة أعداد كبيرة من يهود الشرق، وتصل إلى ما يربو على عشرة آلاف مهاجر مما جعلهم يشكلون في نهاية هذه الفترة حوالي ١٠٪ من التعداد الكلي لليهود في فلسطين. وبدأت حركة الهجرة هذه منذ بدايات عقد الثمانينيات بالقرن التاسع عشر واستمرت حتى الحرب العالمية الأولى التي شهدت لأسباب اقتصادية وسياسية توقف حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

ويمكننا أن نحدد هنا دوافع هجرة كل طائفة على حدة. ففي اليمن كان للشائعات التي ترددت، على سبيل المثال، عن شراء البارون روتشيلد للأراضي في فلسطين وقيامه بتوزيعها على اليهود، علاوة على الإعلانات التي وضعها إسماعيل حقي باشا والي اليمن على منازل اليهود التي كانت تفيد بأنه سيسمح لهم بالهجرة وشراء الأراضي بفلسطين، أكبر الأثر في هجرة يهود صنعاء والأماكن المحيطة بها خلال عامي ١٨٨١ ـ ١٨٨٢. أما في إيران فقد هاجرت أعداد كبيرة من سكانها من اليهود إلى فلسطين في أعقاب الحملة الإعلامية التي نظمها أهارون هكوهين في شيراز عام ١٨٩١ وحث فيها اليهود على الهجرة.

وكانت هناك عوامل أخرى أكثر أهمية ساهمت بدورها في تشجيع اليهود على الهجرة، فكانت هناك عوامل طرد مشتركة من كل بلدان الشرق دفعت بدورها اليهود للهجرة، وفي المقابل كانت هناك عدة عوامل جذب مشتركة جعلت اليهود يتقبلون فكرة الهجرة إلى فلسطين. وكان من بين عوامل الطرد أن أوضاع اليهود شهدت في العصر الحديث تدهورا ملحوظا، علاوة على أن تدهور علاقات الشرق الإسلامي بالغرب المسيحي أضر كثيرا بأنشطة اليهود الاقتصادية. أما عن عوامل الجذب، فقد ترددت في ذلك الحين شائعات كان مفادها أن يهود الدولة العثمانية ويهود فلسطين ينعمون بالمساواة. وكان من بين عوامل الجذب أيضا تزايد قوة الاستيطان في القدس

خلال هذه الفترة، بالإضافة إلى أن الأنشطة التي قام بها موشي مونتيفيوري لصالح يهود الشرق، والتحسن الملموس الذي طرأ على طرق المواصلات بين فلسطين وسائر بلدان الشرق، شجعت اليهود على الهجرة. وجدير بالذكر أن المعلومات التي نشرها مبعوثو الاستيطان والرحالة في الصحف عن اتساع حجم الاستيطان اليهودي في فلسطين ساهمت هي الأخرى في تشجيع اليهود على الهجرة.

ومما لاشك فيه أن المعلومات التي وصلت ليهود الشرق من اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين ساهمت في تشجيعهم على الهجرة، ويجب أن نشير في هذا المجال إلى أن الكثيرين من هؤلاء الأوائل لم يأتوا إلى فلسطين إلا لزيارة الأماكن المقدسة وكان معظمهم من يهود إيران الذين فروا من حادثة مشهد، ومع هذا عاد معظمهم بعد فترة وجيزة من إقامتهم في فلسطين إلى طوائفهم، كما عاد بعض المهاجرين الذين قدموا إلى فلسطين نتيجة الخطابات التي تلقوها من ذويهم والتي دعوهم فيها إلى الهجرة مؤكدين أن اليهود ينعمون بالهدوء في فلسطين. ومن المعروف أن مهاجري اليمن كانوا من أكثر المهاجرين الذين بعثوا بمثل هذه الخطابات إلى عائلاتهم. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الحاخام أهارون هكوهين عاد بعد أن قضى بضع سنوات في فلسطين إلى شيراز في إيران حيث دعا أبناء عائلته وأبناء الطائفة اليهودية في المدينة للهجرة إلى فلسطين. وقد نجحت هذه الحملة الإعلامية، ، فيما يبدو، حيث هاجر للقدس بعد مضي عام واحد فقط على حملته الإعلامية هذه ما يقرب من ألف يهودي إيراني كان معظمهم من شيراز. ومن الواضح أن المعلومات التي بعثها يهود الشرق إلى ذويهم هي التي جعلتهم يشعرون بإمكان الحياة في فلسطين.

وكان من بين العوامل التي شجعت يهود الشرق على الهجرة أن هذه الفترة شهدت نهضة شبه مسيحانية في الفكر اليهودي شجعت بدورها يهود هذه البلدان على الهجرة. وينطبق هذا الأمر على يهود اليمن الذين هاجروا في عام ١٨٨١ ويهود إيران الذين هاجروا في عام ١٨٩١. وعلى كل حال فإن هذه الهجرات كانت تعبر عن حب يهود الشرق وارتباطهم بفلسطين وعن إحساسهم بإمكان الاستيطان بشكل فعلي فيها.

وكـان معظم المهـاجـرين الـذين قـدمـوا إلى فلسطين آنـذاك من يهود اليمن وإيران، أما تعـداد اليهود الذين قدمـوا من بخارى والعراق فكان ضئيـلا للغاية بالمقارنـة بتعداد المهاجرين الـذين قدموا من اليمن وإيـران. ونتصور أن أسباب خروج أعـداد كبيرة من يهود هذين البلدين تتمثل في أنهم لم يشعروا بـالاستقرار في ظل الحكم الشيعي المعـادي لليهود. وفي الـواقع، لم تفرض أي قيـود على هجرة يهود الشرق إلى فلسطين بـاستثنـاء يهود اليمن. وقد عـارض المسلمـون في اليمن لأسباب اقتصـادية خـروج اليهود، وكان لهذه المعـارضة أثـرها بـالطبع في تحديد موقف الحكام الأتراك الذين فرضوا بضعة قيود على حركة الهجرة اليهودية.

ولم يجد يهود الشرق إبان هـذه الفترة أي صعوبة في دخـول فلسطين والاستقرار بها إذ إن السلطات العثمانية تخوفت فقط من اليهود الأوروبيين الذين كانوا قد هاجروا إلى فلسطين، وبالإضافـة إلى هذا، فإن السلطات العثمانيـة لم تعارض هجرة يهود الشرق لأن يهود اليمن والعراق وكردستـان كانوا من رعايـاها. أما يهود إيران فقـد كان خطر الترحيل من فلسطين يخيم دائما عليهم، لأن الـوالي التركي في القدس في عـام ١٨٩٤ قـام بتجميعهم بغرض تـرحيلهم من فلسطين، ولكن هـذه المحاولـة باءت بـالفشل وخاصة بعد أن تدخلت جهات عديدة حالت دون تنفيذ هذا الأمر.

وقد حـالت الصعوبات الاقتصاديـة والاجتماعية التي واجهها المهـاجرون في القدس، وإحسـاسهم بخيبة الأمـل من واقعهم، دون تزايـد عدد المهاجـرين. وكان من أبـرز المشكلات التي واجهوهـا أن الطائفـة اليهودية في القـدس كانت منقسمة إلى طوائف عـديدة حرصت كل طائفة منها على مصـالح أبنائها فقط. وبـالإضافـة إلى هذا كـانت هناك صعـوبـات عديـدة في توفير السكن المنـاسب للمهاجـرين وفرص العمل المناسبـة. وكان من بين السمات المميزة للهجـرة إبان هذه الفترة حدوث انخفاض ملحوظ في تعداد المهـاجرين، وقيام قادة المهاجرين بتنظيم جماعات خـاصة بهم، وقيام كل جماعـة بتشييد أحياء خاصـة بهم، وكان هـؤلاء المهـاجـرون الجدد يعتمدون في أنشطتهـم على مساعـدة قـادة الاستيطـان اليهودي للقدس والمؤسسات اليهودية الأوروبية.

٣ـ مرحة الهجرة غير الشرعية .

تمتد هذه المرحلة خلال الأعوام (١٩١٩ـ١٩٤٨)، وشهدت هجرة حوالي أربعين ألف يهودي من بلـدان الشرق إلى فلسطين، كان مـا يقـرب من نصفهم من اليمن، وكان بعضهم الآخر من بخارى وكردستـان و إيران وأفغانستان والعراق . وكان تعيين هيربرت صموئيل في منصب المندوب السـامي البريطاني في فلسطين من بين العوامل التي شجعت يهود الشرق على الهجـرة . ومع هــذا فإن فترة الانتـداب البريطـاني في فلسطين، الـذي فرض قيـودا عديـدة على الهجرة تميـزت بعدم السماح ليهـود الشرق بمغادرة أوطانهم والهجرة إلى فلسطين .

وقد تأثـرت هجرة يهود هـذه البلدان بنتـائج الصراع العربي في فلسطين فمنعتهم سلطات بلـدان الشرق التي عملت على مواجهة الصهيـونية وأهدافهـا من الهجرة إلى فلسطين، كما لعبت الدوائر القوميـة العربية التي تزعمهـا المفتي أمين الحسيني الذي زار كل بلدان الشرق دورا رئيسيا في الحملـة الإعلامية المعادية للأنشطـة الصهيونية، فوجد يهود اليمن والجمهـوريات السوفييتية في وسط آسيا (بخـارى) صعوبة كبيرة في الهجـرة إلى فلسطين، فلم يسمح ليهود اليمـن بالهجـرة للحـاجة إليهم في الأنشطـة الاقتصـادية، أمـا في الاتحاد السوفييتي فلم تسمح السلطـات لهم بالهجـرة لمعارضـة النظام للأيـديولوجية الصهيـونية التي وصفها القادة السـوفييت بأنها حركة بـرجوازية قومية . أما في العـراق و إيران وأفغانستان فإن أنظمة هذه البلـدان تضامنت مع سائر الدول العـربية في موقفهـا تجاه الصهيونية، ولم تسمـح لسكانها من اليهود بـالهجرة . وليس من الممكن أن نغفل في هذا المجال أثر الإعلام النازي منذ عقد الثلاثينيات من هذا القرن في تحديـد موقف بلدان الشرق تجاه اليهود حيث إن أجهزة الإعـلام النازية زادت من حدة مشاعر العرب العدائية تجاه اليهود والصهيونية .

وجديـر بالذكر أنـه في الوقت الذي نعم فيه يهود العـراق واليمن ووسط آسيا بالمساواة في الحقـوق وألغيت فيه ضريبة الجزية، فـرضت قيود عديـدة على حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين . وفيما يتعلق بموقف الوكالة اليهودية إزاء يهود الشرق فإنها لم تتعامل مع هجـرة يهود الشرق بنفس الطريقة التي تعـاملت بها مع هجرة

يهود أوروبا إبان عقدي الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن، ولم تر أن هناك حاجة ملحة لإنقاذهم، ولذلك لم توفر لهم العدد الكافي من التأشيرات اللازمة التي تخول لهم حق الهجرة.

ورغم كل تلك القيود التي فرضت على يهود الشرق إلا أنه لم تتوقف هجرتهم إلى فلسطين حتى إبان فترة الانتداب البريطاني، ولكنهم لم يهاجروا بالكامل من أوطانهم إلا بعد أن تخلوا عن ممتلكاتهم وبعد أن تعرضوا لمخاطر عديدة عند هروبهم عبر الحدود، ولعقوبات عنيفة من قبل السلطات، خاصة في كل من اليمن ووسط آسيا، وتوفي البعض منهم قبل وصوله إلى فلسطين. واستمرت الهجرة من هذه البلدان طيلة هذه الفترة، ولكننا نستثني منها بلدان وسط آسيا التي فر منها بضعة آلاف من اليهود في منتصف عقد الثلاثينيات إلى أفغانستان والهند وإيران ومنها إلى فلسطين، أما في عقد العشرينيات والأربعينيات من هذا القرن فإنهم لم يتمكنوا من الهجرة إلى فلسطين.

٤ـ الهجرة الجماعية (١٩٤٩ـ ١٩٥٢):

حينما تأسست دولة إسرائيل كانت أعداد كبيرة من يهود الشرق قد استوطنت بها، وشكل هؤلاء ١٢٪ من تعداد إسرائيل آنذاك، وفيما يتعلق بيهود الشرق الذين لم يهاجروا خلال هذه الأعوام فإنهم تمكنوا في مرحلة لاحقة من الهجرة إلى إسرائيل. وشهدت مرحلة الهجرة الجماعية وصول حوالي مائة ألف يهودي من العراق وكردستان، وخمسة وخمسين ألف يهودي من اليمن وعدن، وحوالي اثنين وثلاثين ألف يهودي من إيران وأفغانستان، وتزايد تعداد يهود الشرق في إسرائيل في نهايات عام ١٩٥٢ فشكلوا آنذاك حوالي ٣٠٪ من تعداد السكان في إسرائيل. ولم يتبق على هذا النحو في اليمن وأفغانستان سوى عدد محدود للغاية من اليهود، وبينما لم يتبق في كردستان أي يهودي، فقد تبقى في إيران ما يقرب من ستين ألف يهودي. ولم تكن هذه الهجرة الجماعية ناجمة عن انتصار إسرائيل في حروبها على الجيوش العربية فحسب، وإنما أيضا بسبب تدهور أوضاع يهود الشرق السياسية والاقتصادية، حيث تعرض يهود صنعاء، على سبيل المثال، إبان الفترة التي أعقبت مقتل الإمام يحيى في عام ١٩٤٨ إلى اضطهادات عديدة، مما أثار بطبيعة الحال إحساس اليهود بالقلق

والخوف، بالإضافة إلى أن أوضاعهم الاقتصادية شهدت آنذاك تدهورا ملحوظا، خاصة بعد أن اتبع النظام سياسة اقتصادية متشددة. وقد تعرض يهود العراق لاضطهادات عديدة خاصة في أعقاب تلك الحادثة التي تعرضوا لها في عام ١٩٤١، ووصلت الاضطهادات التي تعرضوا لها إلى الذروة حين أعدمت السلطات شفيق عدس ويوسف بصري وشلوم صالح، بعد أن اتهمتهم السلطات بممارسة الأنشطة الصهيونية. أما في إيران فشهدت نهايات عام ١٩٥٠ وبدايات عام ١٩٥١ تزايدا ملحوظا في حجم الاضطهادات التي تعرض لها اليهود، بعد أن تزايدت إبان حكم محمد مصدق الذي تبنى سياسة معادية لإسرائيل، حدة وقوة المشاعر القومية المعادية للغرب. وشعر يهود عدن أيضا في أعقاب اضطرابات نوفمبر عام ١٩٤٧ بأن حالة الاستقرار التي ينعمون بها لن تدوم طويلا.

وقد قامت الحكومة الإسرائيلية وبمساعدة من المؤسسات الخيرية اليهودية بتنفيذ معظم عمليات الهجرة. وكانت الوكالة اليهودية تنسق مع السلطات المحلية وبمساعدة من بعض الجهات الدبلوماسية مهمة تهجير اليهود، ولم تتضح حتى ذلك الحين الأسباب التي جعلت الحكومات الإسلامية، خاصة في كل من العراق واليمن، توافق على خروج اليهود منها، خاصة أنها أصرت من قبل على عدم السماح لليهود بالهجرة. ومن المحتمل أن تكون هذه الحكومات وافقت على خروج اليهود بعد أن قررت الاستفادة من أموالهم، وخاصة بعد أن أنزلت إسرائيل في عام ١٩٤٨ الهزيمة بجيوشها، ولكن من المرجح أن السبب الرئيسي هو أن هذه الحكومات قررت التخلص من المشكلة اليهودية، بعد أن اتضح لها أنها عجزت عن الحيلولة دون إقامة دولة يهودية في فلسطين. وجدير بالذكر أن الأيديولوجية البعثية الناصرية المعادية لإسرائيل باتجاهاتها الرافضة لكل محاولات الصلح معها والاعتراف بها لم تكن شائعة آنذاك في أوساط الحكومات العربية.

وتجدر الإشارة إلى أنه في الوقت الذي بذلت فيه إسرائيل والوكالة اليهودية جهودا مكثفة لتهجير يهود الشرق، إلا أنه لم يكن لدى هؤلاء المهاجرين القدر الكافي من الوعي بالفكرة الصهيونية، وفيما يتعلق بدوافع يهود اليمن وكردستان فإنها لم تخرج عن كونها دوافع دينية في المقام الأول، حيث كانت تسود في أوساط كل من أتوا في إطار

هذه الهجرات آمال مسيحانية كثيرة، وفي المقابل كانت لدى قلة قليلة منهم معرفة سطحية بأفكار الحركة الصهيونية، وكان معظم هؤلاء من العراق و إيران وعدن. ولم يكن معظم المهاجرين على وعي بأهداف الحركة الصهيونية بل إن بعضهم لم يعرف بالفعل إلى أين هو ذاهب. وفيما يتعلق بالأنشطة التي قام بها يفنئيلي في اليمن في عام ١٩١١ لتشجيع سكانها من اليهود على الهجرة فإنهم اعتبروا أن هذه الأنشطة ذات علاقة وثيقة بمجيء المسيح المخلص، ولم يروا أن أنشطته تعد جزءا من النشاط الصهيوني الهادف إلى تهجير كل اليهود. وكان من بين العوامل التي ساعدت على شيوع هذا الاعتقاد في أوساطهم أن يفنئيلي أتى إلى اليمن متقمصا شخصية حاخام يهودي خشية أن يثير غضب السلطات التركية في حالة معرفتها بأنه مندوب للحركة الصهيونية في اليمن. وهكذا كانت الهجرات اليهودية الضخمة إلى الشرق نتيجة في واقع الأمر لمحاولات الحركة الصهيونية الهادفة إلى زرع مفاهيم التضامن اليهودي في أوساط يهود الشرق. وفيما يتعلق بيهود العراق الذين كانوا أكثر وعيا من يهود الشرق بالاتجاهات الفكرية الحديثة، فإن بعضهم تبنى الأفكار الصهيونية، ولكن بعضهم الآخر تبنى الفكر الشيوعي وانضم إلى صفوف الحزب الشيوعي العراقي.

وعلى كل حال فإن إقامة دولة إسرائيل جعلت مفهوم الهجرة مفهوما ذا أهمية في الحياة الدينية الاجتماعية ليهود الشرق.

٥ـ مرحلة الهجرات اللاحقة (١٩٥٣ـ ١٩٨٠):

رفضت معظم دول الشرق خلال هذه الفترة، باستثناء إيران وعدن، السماح لليهود بالهجرة إلى إسرائيل. ولا حاجة بنا هنا للقول إنه لم يطرأ خلال هذه الفترة أي تغيير على موقف السلطات السوفييتية في وسط آسيا إزاء مسألة الهجرة اليهودية. أما عن إيران فقد هاجر منها خلال نفس الفترة ما يقرب من ٤٠ ألف يهودي إلى إسرائيل، من بينهم حوالي ٣٥ ألفا حتى عام ١٩٧٩، والباقون بعد أن تولى الخميني مقاليد السلطة. وهاجر من بخارى عشرة آلاف يهودي، ومن جروزيا أربعون ألفا، ومن داجستان عشرة آلاف. ونشطت حركة الهجرة اليهودية من الجمهوريات السوفييتية بعد أن تزايدت في أوساط سكانها من اليهود قوة مشاعر التعاطف والتضامن مع إسرائيل خاصة بعد حرب يونيو

١٩٦٧، وبعد أن تزايدت قوة الضغوط الدولية على الاتحاد السوفييتي الرامية إلى إجباره على السماح لليهود بالهجرة من أراضيه. وهاجر بضع مئات من يهود اليمن حتى عشية ثورة ١٩٦٢ إلى إسرائيل، وهاجر نفس العدد من أفغانستان.

وقد شهدت هذه الفترة تغيرا جوهريا في اتجاهات هجرة يهود الشرق، حيث إنهم بقدر ما كانوا يفلحون في الخروج من بلادهم إن سرا أو علانية، لم تكن إسرائيل تشكل نهاية المطاف للمهاجرين، فهاجر معظم يهود عدن، على سبيل المثال، في عام ١٩٦٧ إلى إنجلترا، أما يهود إيران الذين غادروا أوطانهم بعد ثورة آية الله الخميني والذين قدر تعدادهم بحوالي ثلاثين ألف يهودي، فقد هاجر معظمهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإلى أوروبا الغربية وخاصة إلى إنجلترا. أما يهود جروزيا الذين جاهدوا كثيرا للخروج من الاتحاد السوفييتي فإن الكثيرين منهم توجهوا بعد أن سمح لهم بالهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى هذا النحو نجد أن سلوك يهود الشرق في الهجرة كان شبيها بسلوك يهود شمال أفريقيا ويهود أوروبا الذين فضلوا الهجرة إلى الغرب على الهجرة إلى إسرائيل. ومن المرجح أن سبب هذه الظاهرة يتمثل في أنه كانت لهؤلاء اليهود علاقات اقتصادية قوية بالغرب علاوة على أنهم كانوا يجيدون اللغات الأوروبية وكانوا على معرفة أيضا بمضمون الثقافة الغربية. ومن جهة أخرى فمن المحتمل أيضا أنهم فضلوا الهجرة إلى الغرب بسبب تخوفهم من أن يواجهوا أي مشكلات اقتصادية في إسرائيل، علاوة على تخوفهم من المشكلات الطائفية والاجتماعية. وتدل هذه الظاهرة على حجم التحولات التي شهدها المجتمع اليهودي في الشرق منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا. ولكن من الواضح أن هذه التحولات لم تحدث فقط في أوساط يهود الشرق وإنما حدثت أيضا في سائر الطوائف اليهودية.

توثيق العلاقات مع الطوائف اليهودية المقيمة خارج المنطقة

خلقت التحولات السياسية والاقتصادية، التي سبقت الإشارة إليها في الفصول السابقة، ظروفا أفضل لتقوية علاقات يهود الشرق بسائر الطوائف اليهودية الواقعة خارج المنطقة، وهي العلاقات التي تزايدت قوتها منذ منتصف القرن التاسع عشر، فكانت ليهود الشرق منذ ذلك الحين علاقات قوية بالعديد من الشخصيات

اليهودية الأوروبية وبالمؤسسات اليهودية التي أخذت على عاتقها مهمة العمل لمصلحة الطوائف اليهودية التي تواجه أي ضائقة. وكان من بين هذه المؤسسات: جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في باريس وفروعها في القسطنطينية، وجماعة «رابطة الإخوان» في لندن. وكان لهذه الطوائف علاقات أيضا بالصحف اليهودية الصادرة في أوروبا وفلسطين، فكانت لهم علاقات على سبيل المثال، بصحف «حفتسيليت»، و«هلفانون»، و«هتسفيرا» و«هماجيد»، وبالصحيفة اليهودية الإنجليزية «ذي جويش كرونيكل». ولاشك في أن قوة هذه العلاقات تزايدت بعد أن ظهرت الحركة الصهيونية في نهايات القرن التاسع عشر، وبعد أن تزايدت قوة المستوطنين اليهود في فلسطين، والطائفة اليهودية في الولايات المتحدة الأمريكية.

وكانت علاقات الطوائف اليهودية ببعضها البعض قبيل القرن التاسع عشر ضعيفة ومحدودة، ولذلك فالمعلومات المتوافرة لدينا عن هذه العلاقات ضئيلة للغاية. ورغم أن بعض كتابات الرحالة الأوروبيين التي يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر تضمنت بعض المعلومات عن الطوائف اليهودية بالشرق، إلا أن هذه المعلومات كانت ضئيلة للغاية، بالإضافة إلى أن هذه الأعمال دونت بلغات لم يكن يهود أوروبا يعرفونها، ولذلك لم تساعد هذه الأعمال في إقامة أي علاقات بين الطوائف اليهودية. وفيما يتعلق بالجانب الديني لم يكن يهود أوروبا في حاجة لنتاج يهود الشرق الديني، علاوة على أن كل الحركات والأفكار الدينية التي ظهرت في أوروبا ـ باستثناء حركة شبتاي بن تسفي ـ لم يكن لها أي علاقة بيهود الشرق. واكتفى يهود الشرق في معارفهم عن يهود أوروبا بالمعلومات التي كانوا يستمدونها من مبعوثي الاستيطان اليهودي الذين سبقت الإشارة إليهم. وفي حقيقة الأمر، فقد سادت حالة من العزلة على مدى مئات السنين بين يهود الشرق ويهود أوروبا، ولا شك أنه كانت للبيئة والمجتمع المحيط أثر في نشاط كل طائفة وموقفها إزاء الطوائف الأخرى. فبينما شهدت الطوائف اليهودية في أوروبا تحولات فكرية عديدة حتى ظهور «حركة التنوير العبرية» (الهسكالاه) في النصف الثاني من القرن الثامن عشر فإن الطوائف اليهودية في الشرق كانت أكثر تحفظا وأكثر تمسكا بالتقاليد اليهودية فاعتمدت على مصادر التشريع الكلاسيكية، وفي المقابل كانت أقل اعتمادا على المصادر التشريعية الحديثة. أما عن القاسم المشترك الروحي الذي وحد وجمع بين يهود الشرق ويهود أوروبا فإنه يتمثل في أن أبناء

هذه الطوائف تبنوا فكر الحاخامات اليهود في صفد وفكر مدرسة «القبالاه» الذي طرحه الحاخام ها آري، علاوة على أنهم اتبعوا في صلواتهم صيغة «القبالاه» المتبعة في فلسطين.

ولم يتغير هذا الوضع إلا بعد أن شهدت الطوائف اليهودية في أوروبا تغيرات اجتماعية وفكرية مهمة، بعد أن انتشرت في أوساطهم أفكار الثورة الفرنسية وحركة التنوير اليهودية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبعد أن حصلوا على قسط كبير من الثقافة الأوروبية.

وجدير بالذكر أن العصر الحديث شهد انخفاضا ملحوظا في تعداد يهود الشرق بالمقارنة بتعداد يهود أوروبا والغرب، فبينما شكل يهود الشرق حتى القرن السابع عشر ٥٠٪ من التعداد الكلي ليهود العالم فإنهم شكلوا عشية الحرب العالمية الثانية ٨٪. وعلى الرغم من ضآلة تعداد يهود الشرق، إلا أن الإحساس بوحدة المصير اليهودي ظل يسيطر على فكر يهود الغرب الذين شعروا بأن تحسن أوضاعهم الاجتماعية والثقافية يحتم عليهم التدخل لمصلحة يهود الشرق الذين يتعرضون للاضطهادات والذين ليست لديهم فرصة للاطلاع على الفكر الأوروبي الحديث. ومن هنا لم تقتصر أنشطتهم على التدخل لمصلحة يهود الشرق، وإنما شملت العمل من أجل الارتقاء بمستوى التعليم اليهودي، خاصة أن يهود الغرب كانوا يؤمنون إيمانا عميقا بأن تحسين الأوضاع الاجتماعية والمدنية لليهود يستلزم الارتقاء بأوضاعهم التعليمية.

وقد أبدت «حركة التنوير اليهودية» بشرق أوروبا (الهسكالاه)، منذ نشأتها اهتماما كبيرا بيهود الشرق، ولكنها بدأت منذ نهايات القرن التاسع عشر في التدخل بشكل فعلي لمصلحتهم، فنشرت الصحف اليهودية التي نذكر منها: «همجيد» (المبشر)، و «هميلتيس» (الفصيح)، و «هتسفيرا» (الصفارة) وغيرها، منذ ذلك الحين، مقالات كثيرة عن أوضاع يهود الشرق. وحينما توقف يهود شرق أوروبا عن العمل لمصلحة يهود الشرق، لم يكن السبب متمثلا في انشغالهم بقضايا الملايين من يهود شرق أوروبا الذين كانوا يعانون من الاضطهادات السياسية والاقتصادية بقدر ما كان متمثلا في عدم توافر الوسائل اللازمة التي من شأنها تمكينهم من الاتصال بيهود الشرق، علاوة على أنه لم يكن بمقدورهم المساهمة بشكل فعلي في إنقاذ يهود الشرق. وفي حقيقة الأمر فإن يهود الغرب

تدخلوا كثيرا لمصلحة يهود البلدان الإسلامية خاصة إبان الفترة التي تزايدت فيها مصالح الدول الغربية والتي تزايد فيها أيضا تأثير القوى الأوروبية على هذه البلدان. وتجدر الإشارة إلى أن يهود شرق أوروبا الذين هاجروا إلى أوروبا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية ساهموا كثيرا في الأنشطة التي مارستها المؤسسات اليهودية المختلفة في الشرق.

وجدير بالذكر أنه على الرغم من أنه كان للشخصيات والمؤسسات اليهودية قدر ما من التأثير في حكوماتها بأوروبا الغربية إلا أن التأثير لم يسفر عن تحسين أوضاع يهود الشرق بشكل جوهري، إما بسبب عدم إمكان الاتصال بالحكام المحليين والتأثير فيهم والذين كان من بينهم الإمام في اليمن وقادة القبائل في.كردستان أو بسبب رفض رجال الدين لمحاولات تحسين أوضاع اليهود، كما حدث في إيران خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ولم يتدخل يهود أوروبا في حقيقة الأمر لمصلحة يهود الشرق لأسباب خيرية بحتة حيث إن تدخلهم لم يخل من رغبتهم في تحسين وتقوية نفوذهم الشخصي في بلدانهم، ومع هذا تكمن أهمية أنشطتهم في أنها زرعت مفهوم التضامن اليهودي في أوساط يهود الشرق، مما أسفر عن تزايد قوة علاقات يهود الشرق بالغرب خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتدخل يهود الغرب من أجل تحسين أوضاع يهود الشرق المدنية والتعليمية. ومن المتصور أنه كان لحركة التنوير اليهودية في شرق أوروبا بالإضافة إلى الاتجاهات الحديثة التي أتت من الغرب، قدر ما من التأثير في يهود الشرق. وفيما يتعلق بحق المساواة الذي حصل عليه يهود الشرق فقد كان نتيجة طبيعية وحتمية لمسيرة التطور السياسي التي شهدتها بلدان الشرق في العصر الحديث التي كانت تسعى نحو محاكاة القوى الأوروبية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن دول الشرق منحت في ذلك الحين حق المساواة لكافة الأقليات فمُنح هذا الحق لليهود والمسيحيين على حد سواء.

ويعود فضل تجديد علاقات يهود الشرق بيهود الغرب، وكما أشرنا من قبل، إلى مندوبي الإرساليات التبشيرية في لندن والذين كان من أبرزهم: يوسف وولف، ويعقوق شموئيل، وأهارون شتيرن وغيرهم. ورغم أن هؤلاء المبشرين

كانوا يعتزمون تشجيع يهود الشرق على اعتناق الديانة المسيحية إلا أنهم أكدوا دائما في كتـاباتهم وأحـاديثهم مـدى تعـرض يهود الشرق للاضطهـاد . ولعب هـؤلاء المبشرون دورا بالغ الأهميـة في إقامـة العلاقـات وتوثيقها مـع بعض الشخصيات اليهودية الأوروبية التي زارت الشرق والتي كان مـن بينها بعض الرحالة مثل داود دبيت هيلل الذي زار الشرق في عام ١٨٣٢ ، وبنيـامين هشني يسرائيل الذي زار الشرق في عـام ١٨٤٨ . كما وثقوا عـلاقاتهم مع مبعـوثي الاستيطان القـديم مثل يعقوف سـافير، وحاييم هكوهين بينشتين، ومع بعض التجار اليهـود مثل موشي حانـوخ هاليفي، ود . يعقوف بـولك، وإسحاق لوريـا، وتسفي روزنفلد، ومع بعض الباحثين مثل يوسف هاليفي .

وكان للمقالات والبحوث التي نشرها هـؤلاء المبعوثون والباحثون في الصحف سواء الصادرة في أوروبا أو فلسطين أعظم الأثر في لفت انتباه سائر يهود العالم إلى يهود الشرق . ويعد كتابا «رحـلات إسرائيل» للحاخام بنيامين هشيني، و «إيفن سافير» للحاخـام يعقوف سافير من أبرز هـذه الأعمال التي تضمنت وصفا دقيقا لحياة يهود الشرق أتاح ليهود أوروبا فرصة معرفة وجود مثل هذه الطوائف وتكوين صورة دقيقة عن حياتها .

وقد ساهم يهود الشرق بطبيعـة الحال في إقامة مثل هذه العلاقات وتـوثيقها، إما عن طريق الرسائل التي بعثوها إلى الشخصيـات والمؤسسات اليهودية في غرب أوروبا وفلسطين، أو عن طـريق مبعوثيهم الـذين كـان من بينهم زفولـزن بـابا هـاليفي من بخارى، ويـوسف مسعود من اليمن . كما لعب بعـض يهود الشرق دور الوسيط بين طـوائفهم وبين يهود أوروبا، ونـذكر من بينهم يحيى مـزراحي الذي كـان من مواليـد اليمن والذي أقام في الإسكندرية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر.

ومع حلول نهايات القرن التاسع عشر لعبت بعض المؤسسات اليهودية دورا بارزا في الحفاظ على عـلاقات يهود الشرق بيهود الغـرب كان من أبرزهـا جماعة «كل شعب إسرائيل أصـدقاء» التي أولت اهتمامـا ضخما بتطـوير الأنشطـة التعليمية في العـراق وكردستـان وإيران، كما كان من بين هـذه المؤسسات جماعة «الإخـوان» التي مارست أنشطتها في عدن .

وحينما ظهرت الحركة الصهيونية خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر، لم تبد اهتماما ضخما بيهود الشرق، باستثناء يهود وسط آسيا الذين لم يشاركوا في المؤتمرات الصهيونية. وإذا كانت الحركة الصهيونية قد بعثت في عام ١٩١١ أحد مبعوثيها إلى اليمن فلم يكن الغرض من مثل هذه الزيارة إنقاذ يهود اليمن وتهجيرهم إلى إسرائيل بقدر ما كان الغرض منها حل مشكلات المهاجرين اليهود الذين قدموا من شرق أوروبا والذين اعتمدوا في عملهم على العمالة العربية.

وكان يهود الشرق هم الذين سارعوا بالاتصال «بالاتحاد الصهيوني العالمي»، وكانت لهم أيضا بعض الأنشطة الصهيونية المحدودة حيث أسس يهود إيران إبان الحرب العالمية الأولى عدة تنظيمات صهيونية، كما أسس يهود العراق إبان الفترة التي أعقبت هذه الحرب «الرابطة العبرية الأدبية»، كما تبرعوا بأموالهم لمصلحة «الصندوق القومي اليهودي» بغرض شراء الأراضي في فلسطين.

ومع هذا لم تهتم الحركة الصهيونية بأوروبا بإرسال مندوبين عنها ليهود الشرق، وكان معظم مندوبي الصهيونية الذين زاروا بلدان الشرق من فلسطين، ولعب هؤلاء المندوبون دورا مهما في مجال تطوير التعليم اليهودي في هذه البلدان، الأمر الذي ساعد على تعرف الشباب اليهودي على الفكر الصهيوني. ومع هذا كان تأثير هذه الأنشطة محدودا للغاية، ولذلك بادر المستنيرون من يهود الشرق بإرسال خطابات إلى قادة الحركة الصهيونية ناشدوهم فيها بالعمل لمصلحة يهود الشرق، سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية، والعمل على تهجيرهم إلى فلسطين.

ولم تحرز كل هذه الأنشطة أي قدر يذكر من النجاح مما خلق إحساسا بالمرارة وخيبة الأمل في نفوس قادة الحركة الصهيونية في الشرق. ولذلك لاغرابة حقا في أن يهود اليمن شكلوا في عام ١٩٢١، أي بعد هجرتهم إلى فلسطين، اتحادا خاصا بهم، ومن الواضح أنهم أسسوا هذا الاتحاد بعد أن اتضح لهم أنهم لا يتمتعون بنفس الحقوق التي يتمتع بها المهاجرون القادمون من شرق أوروبا، وأن المؤسسات اليهودية تهتم بيهود أوروبا أكثر من اهتمامها بهم.

الجزء الثاني

يهود الدولة العثمانية

الفصل الأول

تغيرات ديموغرافية في أوساط اليهود

مدخل

تفيد الأبحاث الجديدة المعنية بدارسة تاريخ الدولة العثمانية أن أول إحصائية لتعداد السكان في الإمبراطورية أجريت في بدايات القرن التاسع عشر. وبالرغم من أن هذه الإحصائية لم تعبر تعبيرا دقيقا عن الواقع الديموغرافي في كافة أنحاء الدولة إلا أنها تضمنت معلومات بالغة الأهمية. لقد تضمن الإحصاء الذي أجري خلال عامي ١٨٨١ ـ ١٨٩٣ وللمرة الأولى في تاريخ الدول معطيات كثيرة ودقيقة نسبيا عن تعداد السكان في الدولة بمن فيهم اليهود، لكن هذا الإحصاء لم يشمل كل يهود الدولة، إذ إنه لم يتضمن، على سبيل المثال، اليهود الأوروبيين الذين كانوا يعيشون في حماية القنصليات الأجنبية، والذين اعتبرتهم الدولة من الأجانب. ويعتمد الباحثون بالإضافة إلى المعطيات التي وردت في هذا الإحصاء، على مصادر أخرى مثل تقارير القناصل الأجانب، وكتب الرحالة، والمعلومات التي كانت في حوزة بعض الهيئات الأجنبية مثل هيئة «الإليانس»، وعلى الصحف الصادرة بالغرب. وتتيح كل المصادر للباحث فرصة التعرف على الواقع الديموغرافي لليهود في الدولة العثمانية. وعلاوة على اهتمامنا بالتعرف على تعداد اليهود بالدولة، فمن الواجب أن نهتم أيضا بحركة الهجرة اليهودية في هذه المنطقة، حيث كانت بعض دوافع الهجرة سياسية واقتصادية، وكان من بينها احتلال اليونان أن تطلع السلطة لتطوير العديد من المناطق، أو الهجرة من بلدان شرق أوروبا إلى الدولة العثمانية، وكان بعضها الآخر فكريا روحيا، حيث كان من بين هذه الدوافع أن فلسطين أصبحت في العصر الحديث مركزاً قوميا يهودياً شكل بدوره مركز جذب ليهود الدولة العثمانية.

وبالإضافة إلى هذا فإن انتشار أفكار حركة التنوير الأوروبية في أوساط يهود الدولة شجع بعض اليهود على الهجرة إلى البلدان الغربية .

تركيا واليونان

عند بحث تعداد اليهود في كل من تركيا واليونان إبان القرن الثامن عشر نجد أن الوجود اليهودي في هذين البلدين تمركز في كل من القسطنطينية التي كان حجم الوجود اليهودي بها يقدر بثلاثين ألف يهودي، وفي أزمير التي أقام فيها حوالي عشرة آلاف يهودي، وأدرنة التي كان بها بضعة آلاف من اليهود، وسالونيكا التي كان تعداد اليهود بها يقدر بخمسة وعشرين ألف يهودي . كما كان لليهود وجود محدود في بعض المدن التركية مثل بورسا ومانيسا وتيرة وانقرة، وكان لهم أيضا وجود ضئيل في مدينتي لاريسا وبانينا اليونانيتين، وفي جزيرتي رودس وكريت، كما عاش عدد ضئيل للغاية من اليهود في بعض المدن التركية واليونانية الأخرى . ومجمل القول أن تعداد اليهود في تركيا واليونان إبان القرن الثامن عشر قدر بمائة وعشرين ألف يهودي، وعاش سبعون ألفا منهم في الطوائف اليهودية الرئيسية التي سبق أن أشرنا إليها .

وتفاوت حجم التحولات الديموغرافية التي حدثت في أوساط اليهود إبان القرنين التاسع عشر والعشرين من مكان إلى آخر، ففي الوقت الذي تزايد فيه القرن التاسع عشر وبشكل بطيء تعداد اليهود في تركيا ازداد تعدادهم بشكل ملموس وسريع في سالونيكا . أما منذ نهايات القرن التاسع عشروبدايات القرن العشرين فقد تضاءل بشكل ملموس نتيجة لحركة الهجرة اليهودية الضخمة، حجم الوجود اليهودي في الدولة، وكانت حركة الهجرة اليهودية في هذه الفترة تتشابه مع اتجاهات الهجرة في أوساط المسيحيين بالدولة العثمانية .

القسطنطينية

قدر تعداد اليهود في هذه المدينة في منتصف القرن التاسع عشر بحوالي أربعين ألف يهودي، وهذا وفقا لما ورد في كتاب «إلى القدس» للمؤلف «أ. فرنكل» الذي اعتمد كما

يبدو على الإحصاء الذي أجري في عام ١٨٤٤ . وقـدر تعداد الذكور منهم وفقا لما ورد في هذا العمل بـأربعة عشر ألفا وثمانمئـة ، أما تعـداد الإناث فقـدر بثلاثـة عشر ألفا وستمائة نسمة ، ويضيف المؤلف على هذا العدد تعداد اليهود الفرانكويين الذين أقاموا بالقسطنطينية ، ولن نخالف الحقيقة كثيرا إذا أضفنا بضعة آلاف إلى هذا الرقم الوارد في كتـاب . أ. فـرانكل ، خـاصـة أن بعض العـائلات اليهـوديـة لم تعط أرقـامـا دقيقـة للمسؤولين عن الإحصاء . وقدر التعداد الكلي للسكان في القسطنطينية آنذاك بسبعمائة وعشرين ألف نسمة ، ونجـد على هذا النحـو أن اليهود شكلوا حـوالي ٦٪ من التعداد الكلي للسكـان . وعـاش معظم يهود القسطنطينيـة في أحيـاء : خـاسكـوي ، وغلطـة سراي ، وبيري بـاشا ، وأورطـة كوري ، وقوشقونجوق . وتفيد المعطيـات الرسمية التي يـرجع تاريخهـا إلى عام ١٩٠٦ أن تعـداد يهود القسطنطينية يقـدر بسبعة وأربعين ألفـا وسبعمائة وتسع وسبعين نسمـة ، وأن التعداد الكلي ليهـود الـدولـة يقدر بمائتين وستـة وخمسين ألف نسمة . أما المعطيـات التي قدمتها هيئة الإليانس ، فهي تفيـد أن الوجود اليهودي في القسطنطينية في بدايات القرن العشرين قدر بخمسة وستين ألف نسمة .

ويوضح الجدول التالي تفاصيل الإحصاء الذي أجري في عام ١٨٤٤ لمعرفة تعداد السكان في القسطنطينية :

سكان القسطنطينية في إحصاء ١٨٤٤

المسلمون	٣٨٠ ٠٠٠
الأرمن	٢٠٥ ٠٠٠
اليونانيون	١٠٠ ٠٠٠
اليهود	٣٧٠٠٠
العدد الإجمالي	٧٢٢ ٠٠٠

وقد تزايـد تعداد اليهود في هذه المدينـة إبان القرن التاسع عشر نتيجـة لحالة الازدهار الاقتصـادي والعمراني التي عمت المدينـة خلال النصف الثـاني من القرن التـاسع عشر ،

ونتيجة لحركـة الهجرة اليهوديـة الضخمة إليها من اليـونان، ومن الضـواحي، ومن بلدان شرق أوروبا. وكانت هـذه الزيادة نتيجة أيضـاً لتزايد تعداد السكـان في هذه المدينة التي قـدر تعـداد سكـانها في نهايـة القـرن التـاسع عشر بمليـون نسمـة (كـان نصفهم من المسلمين). ومن هنا لم يشكل اليهود في هذا الحين سوى ٥٪ من التعداد الكلي للسكان. ومن الواضح أنـه في الوقت الـذي تزايدت فيـه حركة اليهـود إلى القسطنطينية تـزايدت في المقابل حـركة الهجرة المضادة منها التـي تزايدت قوتها إبـان الحرب العالمية الأولى، والفترة التي أعقبتها، وبرزت منذ هذا الحين ظاهرة تضاؤل الوجود اليهودي في القسطنطينية - كما شهـدت نفس الفترة تزايـد هجرة اليـونانيين والأرمن من المدينـة، ويوضح الجدول التـالي تعداد السكان في القسطنطينية في عام ١٨٩٧:

التعداد السكاني في القسطنطينية في عام ١٨٩٧

الأتراك	٥٩٧٠٠٠
الألبان	١٠٠٠٠
الأكراد	٥٠٠٠
اليونانيون	٢٣٦٠٠٠
الأرمن	١٦٢٠٠٠
اليهود	٤٧٠٠٠
الصرب	١٠٠٠
المسيحيون العرب	١٠٠٠
التعداد الكلي	١٠٥٩٠٠٠

وأوضح الإحصاء الـرسمي الأول الذي أجري في تركيـا الحديثة في عام ١٩٢٧أن تعداد اليهـود في القسطنطينية يقدر بسبعـة وأربعين ألفا وخمس وثـلاثين نسمة، وأن التعداد الكلي للسكان يقدر بسبعمائة ألف نسمـة كان ٦٥٪ منهم من الأتراك و٣٠٪ منهم من المسيحيين، وتـدل هـذه المعطيـات على أن العصر الحديث شهـد زيـادة

ملمـوسة في تعـداد اليهود في القسطنطينيـة وقد شهـدت الفترة الواقعـة بين الحربين العالميتين حركـة هجرة يهودية ضخمة من تركيا والقسطنطينيـة إلى الأمريكتين وأوروبا ومصر وسوريا وفلسطين. كما هاجـر إلى إسرائيل حوالي خمسة وعشرين ألف يهودي، ويفيد الإحصاء الذي أجري في تركيـا في عام ١٩٦٥ أن تعداد يهود القسطنطينية قدر بثـلاثين ألف نسمة، أمـا في الـوقت الحالي فإن تعدادهـم يقدر بعشرين ألف نسمـة فقط، ويشكلون الغالبية العظمى من يهود تركيا. والجدير بالذكر أن معظم يهود تركيا انتقلوا إلى القسطنطينيـة ولذلك لم يعد أي وجـود للطوائف اليهوديـة التي أقامت من قبل في الضواحي والقرى.

وكان معظم يهود القسطنطينية إبان الفترة الممتدة من القرن السادس عشر وحتى القرن الثامن عشر من اليهـود السفاراد الذين كانوا من نسل العـائلات اليهودية التي طـردت من شبه جـزيـرة أيبيريا، كما كـان بعضهم ينتمي إلى العـائلات اليهوديـة في البلقان، ونجح هؤلاء في الاندمـاج سريعا مع يهود القسطنطينية. وكان من بين يهود القسطنطينية بعض اليهـود الأشكناز، وبعض اليهود الذين من أصل إيطـالي والذين يعرفون باسم اليهود الفرانكويين.

وشكل اليهـــود السفـاراد طيلـــة القـرنين التـــاسع عشر والعشرين غـالبيـــة في القسطنطينية، ولكن أدت حركة الهجرة اليهوديـة من شرق أوروبا (خاصة منذ حرب القرم) إلى تزايـد عدد اليهود الأشكناز في القسطنطينية الذين قـدر تعدادهم في القرن التاسع عشر بألف يهودي، وقد هاجر في عقـد العشرينيات من هذا القرن عدد كبير من يهود الدونمة إلى القسطنطينية، (وكان هـؤلاء من اليهود الذين اعتنقوا الإسلام)، وهاجروا مـع سائرالسكان بين تركيا واليـونان، وتسببت هذه الهجـرة في انهيار الإطار الطائفي لطائفة الدونمة.

والجديـر بالـذكـر أنه تـزايـد في أوساط القسطنطينيـة إبـان القرنين التـاسع عشر والعشرين عدد الفقراء الذين كانـوا يعيشون بلا أي مصدر للرزق، كما شهدت نفس الفترة انخفـاضا ملحـوظـا في عـدد المشتغلين من اليهود. ومن الـواضح أن العـامل الاقتصادي كـان واحدا من أهم الأسبـاب التي شجعت حركـة الهجرة اليهـودية من تركيا إلى غيرها من البلدان.

أزمير

كانت الطائفة اليهـودية في أزمير تشغل المرتبة الثانية من ناحيـة الحجم في تركيا، وتفيد معطيـات وسجلات القرن التاسع عشر أن هـذا القرن شهد زيادة ملمـوسة في تعداد يهود أزمير، فيذكر أ. فرانكل، في المرجع الذي سبقت الإشارة إليه، ونقلا عن الحاخام حاييم بالاجي كبير حاخامات المدينة، أن تعداد يهود أزمير قدر خلال الفترة ١٨٨٢ ـ ١٨٩٣ بأربعة عشر ألفا وثلاثمائة وخمسين يهوديا. ولكن يفيد أحد المصادر الرسمية التي يـرجع تاريخها إلى عام ١٨٩٤ أن تعداد اليهود قـدر في هذا الحين بستة عشر ألفـا وأربعمائة وخمسين يهوديا. ومن الـواجب أن نضع في اعتبارنـا هنا أن هـذه الأرقام تفتقـر إلى الدقة حيث إنـه قد عمل في أزمير في هـذا الحين حوالي خمسين ألف أجنبي، وإذا افترضنا أن ١٠٪ من هؤلاء كانوا من اليهود يمكننا تصور أن تعداد يهود أزمير في هذا الحين قُدر بعشرين ألف يهودي، ولكن البعض يتصور أن عددهم كان أكبر من هـذا الرقم. ويفيـد الإحصاء الـرسمي الذي أجـري في تركيـا لمعرفـة تعداد السكان في عـام ١٩٢٧ أن التعداد الكلي ليهود أزمير يقدر بستـة عشر ألفا وخمسمائة يهودي، ولكننـا نتصـور أن هذا الـرقم لم يشمل كل يهود أزمير، ويفيـد الإحصـاء أن المسيحيين شكلوا ٤٠٪ من تعداد السكان وأن اليهود شكلوا ما يتراوح بين ٨٪ و١٠٪ من تعداد السكان بأزمير.

وتفيد معطيـات هيئة «الإليانـس» والجهات الأخرى أن تعـداد يهود أزمير قدر في عـام ١٨٠٠ بخمســة وعشرين ألف يهودي، وأن تعـدادهم قـدر في عـام ١٩٠٥ بخمسـة وثلاثين ألفـا. وكتب أحد الضبـاط الإيطـاليين، الذي عمل على إحـدى السفن في أزمير أن تعداد يهود أزمير في عام ١٩٢٠ قدر بأربعين ألف يهودي، ولكننا نرجح أن هذه الأرقام مبالغ فيها بعض الشيء.

وهاجرت أعداد كبيرة مـن اليهود واليونانيين إلى أزمير بعد نشوب الثـورة اليونانية وحرب البلقان والنصف الأول من القرن التاسـع عشر، وكانت توجد في أزمير في هذا الحين طائفة يهودية ضخمة كان معظم أبنائها من أصل إيطالي، وكانوا يعيشون تحت رعاية القنصلية الإيطالية، وكان تعدادهم يقدر بألف يهودي. وشهدت أزمير في هذا

الحين العـديد من المشكـلات الطائفيـة والاجتماعيـة نجم معظمها عن تـزايد حـدة المنافسة الاقتصادية بين الأتراك واليونانيين من جهة وبين اليهود والمسيحيين من جهة أخـرى، وانتقلت هـذه الأزمـات في بعض الأحيـان إلى داخل الطـائفـة اليهـوديـة. وتـزايـدت إبـان النصف الثـاني من القـرن التـاسع عشر حـدة التـوتـر بين اليهـود واليونـانيين، مما أسفـر في نهاية الأمر عن فقـدان اليهود لمكـانتهم الاقتصاديـة البارزة وأسفر هـذا التدهور الـذي خيّم على علاقة اليهـود بالمجتمع عن تدهـور أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية.

ويتضمن الجدول التـالي، المقتبس من إحـدى الصحـف التي كـانت تصـدر في أزمير في القرن التاسع عشر، التعداد السكاني لكل الطوائف التي عاشت في أزمير في هذا الحين.

سكان أزمير في عام ١٨٦١

الأتراك	٤٢٠٠٠
اليونانيون	٤٦٥٠٠
الأرمن	٧٠٠٠
اليهود	١٤٠٠٠
الأوروبيون	١٤٢٧٨
التعداد الكلي	١٢٣٧٧٨

وجدير بالذكر أنه قد طرأت زيادة ملموسة على حجم صادرات تركيا إلى أوروبا، بعد أن قامت الحكومة التركية في نهايات القـرن التاسع عشر بتطوير البنية الرئيسية في كل من أزمير والأناضول، وبتشييد الطرق، وخطوط السكك الحديدية في المدينتين، كما طرأ تحسن ملمـوس على أزمير بعد أن أصبحت ميناءً على قـدر كبير من الأهمية، ولكن سرعان مـا تسببت الحرب العالمية الأولى في تـدهور الأوضاع الاقتصاديـة بتركيا وهجـرة أعـداد كبيـرة من يهود أزميـر إلى أماكن متفرقة بأوروبـا. وتعرضت المدينة إلى دمـار شامـل إبـان الحرب التي اشتعلت بين تركيـا واليـونان خـلال الفترة

١٩١٨ ـ ١٩٢٢م مما أدى إلى خروج أعداد كبيرة مـن اليهود واليونانيين منها، وارتحل معظم هؤلاء اليهود إلى أمريكا وأوروبـا وفلسطين، ويقدر تعداد اليهود حاليا في أزمير بألفي يهودي فقط .

أدرنة

كانت الطائفة اليهوديـة في أدرنة هي أكبر الطوائف اليهودية في الجزء الأوروبي من تركيـا، وتفيد معطيـات القرن التـاسع عشر وبدايـات القرن العشريـن أن هذه الفترة شهدت زيـادة ملموسة في تعداد اليهـود بهذه المدينة، فبينما قدر تعـداد سكانها من اليهود في بدايات القرن التاسع عشر بثلاثة آلاف نسمة، فإنه قدر في عقد الثلاثينيات من نفس القرن بستـة آلاف نسمة، وكـان التعداد الكلي للسكان يقـدر في هذا الحين بخمسين ألف نسمـة . ويختلف البـاحثـون في الواقع حـول التعـداد الحقيقي ليهـود أدرنة، فبينما تفيـد تقارير الـرحالة الذين قـدموا إلى المدينة في منتصف القـرن التاسع عشر أن تعداد اليهـود في هذه المدينـة يقدر بعشرة آلاف يهودي، تفيـد الإحصائيـات التي أجـريت خـلال الفترة ١٨٨٢ ـ ١٨٩٣ أن تعـداد اليهـود يقـدر بثمانيـة آلاف وتسعمائة وثماني عشرة نسمـة . أمـا تقـرير «الإليـانس» التي يـرجع تـاريخهـا إلى عـام ١٨٨٠، فإنها تفيد أن تعداد اليهود في المدينة يقدر بخمسة آلاف نسمة .

وشهدت نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين زيادة ملحوظة في تعداد السكان اليهود خاصة بعد أن هاجر الآلاف من يهود بلغاريا إبان الفترة التي اشتعلت فيهـا حـرب البلقان إلى المدينـة، وتفيـد معطيات «الإليـانس» أن تعداد اليهـود قدر عشيـة الحرب العـالمية بسبعة عشـر ألف يهودي . ومع هـذا تفيد تقارير أخرى أن تعدادهـم قدر بثمـان وعشرين ألف نسمة، وأن التعداد الكلي لسكان هذه المدينة قدر بثمانين ألف نسمـة . وعانت المدينة في عام ١٩١٣ من ويلات الحصار البلغـاري الذي فرض عليها، مما أسـفر عن هـروب أعـداد كبيرة من اليهـود، وتزايـدت في هـذه المدينـة بالمقـارنـة بغيرها مـن المدن ظاهـرة انخفاض تعداد اليهود المقيمين بها، فأظهر الإحصاء الذي أجري في عام ١٩٢٧

أن تعداد اليهـود بهذه المدينة قـدر بخمسة آلاف وسبعمائة وأثنتـى عشرة نسمة. وتعرض يهود هـذه المدينة في عام ١٩٣٤ إلى العـديد من المضايقـات، ولذلك لم يتبق بها حتى عشية الحرب العالمية الثانية سوى خمسة آلاف يهودي، أما في الوقت الحالي فإن سبعين يهوديا فقط يقيمون بها.

سالونيكا

كانت اليـونان تعـد إبان القـرن الخامس عشرجزءا رئيسيـا من الدولـة العثمانية، وسيطر الطابع الـرومانيوطي على معظم الطوائف اليهوديـة باليونان (باستثنـاء طائفة سالـونيكا) بتركيـا، وغلب الطابع الـرومانيـوطي على بعض الطوائف اليهـودية مثل طائفة بنيانيناه حتى هذا العصر الحديث. وحصلت اليونان في بدايات القرن التاسع عشر وبعد فترة طويلة من الحروب على استقلال بعض أراضيها، وتمكنت إبان نفس القرن من فرض سيطرتها على باقي أراضيها التـي كانت تتبع تركيا، وعلى هذا النحو انفصلت الطوائف اليهودية باليونان عن باقي الطوائف اليهودية التابعة للإمبراطورية، ولكننـا نستثني طائفـة سالـونيكا التـي أقامت في مقـدونيا والتي ظلت تحت سيطـرة الأتراك حتى عام ١٩١٢.

وقدر تعداد الطائفة اليهودية في سالونيكا في القرن الثامن عشر بخمسة وعشرين ألف يهودي، شكلوا ما يقرب من ثلث سكـان هذه المدينة، ومع هذا تشكك بعض الشهادات التي يـرجع تاريخها إلى نفس الفترة في مصداقيـة هذا الرقم، فيفيد تقـرير القنصل الفـرنسي الذي يـرجع تاريخه إلى عـام ١٨٦٨ أنه قـد عاش في المدينـة خلال الفترة التي عمل بها ما يقـرب من ستة وعشرين ألف يهودي، ومـا يتراوح بين ثلاثين وخمسة وثلاثين ألف تركي، وستة آلاف انكشاري وثمانية آلاف يوناني وعدد محدود من الأوروبيين. ويفيد تقرير القنصل الفـرنسي الذي اشتغل في المدينة بين عامي ١٧٩٢ ـ ١٧٩٦ أنـه عاش في المدينة آنذاك أثنـا عشر ألف يهودي وثلاثون ألف تـركي وستة عشر ألف يوناني وألفان من يهود الدونمة، وعدد محدود من اليهود من أصل إيطالي. ويمكننا تفسير هذا التفـاوت في المعلومات الواردة في تقريـر القنصلين الفرنسيين بأنه قد حدث انخفاض ملحوظ في تعداد اليهود بهذه المدينة في نهاية القرن الثامن عشر،

يساعـدنا التقريـر الذي بعثه أحد رؤسـاء الطائفة اليهـودية في سالـونيكا في منتصف القرن التاسع عشر إلى الـرحالة اليهودية أ. فرانكل على تفهم أسبـاب هذا التفاوت، وجـاء بهذا التقـريـر: «يخفي اليهـود دائما لتخـوفهـم من النهب والسرق، تعـدادهم الحقيقي عن أعين الحكومـة، ومن هنا ليس من الممكن أن يعتمد المرء على مـايرد في الدفاتـر الحكومية عن اليهود، ولكن ليس بوسعي أن أخبرك بالتعـداد الدقيق لليهود في سالونيكا، ولكن عدد العائلات اليهوديـة فيها يقدر بثلاثة آلاف وخمسمائة عائلة، وأن التعداد الكلي لليهود يقدر بستة عشر ألـف نسمة». وأشارت هذه الشخصية في تقريرها أيضا إلى يهود الدونمة، ولكنها لم تحدد تعـدادهم الدقيق، وجدير بالذكر أن نزعة إخفاء اليهـود لتعدادهم ميزت كل الطوائف اليهوديـة في أوروبا. وإذا كان هذا الرقم الذي أشار إليه أحد رؤساء سالـونيكا في خطابه دقيقا فإنه أقل بكثير من الأرقام التي وردت في أعمال الرحـالة والباحثين. ولكن كما يبـدو فقد حرص كاتب التقـريـر على إخفاء التعداد الحقيقي ليهود سالونيكا.

ويفيد الإحصاء العثماني الـذي أجري في الثمانينيات من القرن التـاسع عشر أن تعداد اليهـود في سالـونيكـا يقدر بأربعـة وثـلاثين ألفـا وخمسمائة وثلاث وعشرين نسمـة، وأن التعـداد الكلي لسكـان المدينـة يقـدر بمائة ألف نسمـة. وفيما يتعلق بمعطيـات هيئـة «الإليانس» فإنها تتماشى مع المعطيـات الأخرى. وتفيـد المعطيات التي يرجع تـاريخها إلى نهايات القرن التاسع عشر أن تعداد اليهود في هذه المدينة قدر بخمسين ألف نسمة، وأن التعداد الكلي للسكان فيهـا يقدر بتسعين ألف نسمة، ويفيد أحـد المصادر التركية التي يرجع تاريخها إلى عام ١٩٠٦ أن التركيبة السكانية في سالونيكا تكونت من: سبعة وأربعين ألفا وثلاثمائة واثني عشر يهوديا، وواحـد وثلاثين ألف تركي (وكان من بينهم عشرة آلاف من يهود الـدونمة وخمسـة عشر ألفا وسبعمائة بلغـاري، وألفان آخـران)، وقد عـاش في سالونيكا آنذاك المئات من اليهود ذوي الأصل الإيطالي.

وأعقبت هـذه الفترة زيادة ملحـوظة في تعـداد السكان بـالمدينة، وشملت هـذه الزيادة بطبيعة الحال اليهود فأصبح تعداد اليهود بالمدينة إبان ثورة تركيا الفتاة، أي في عام ١٩٠٨، ووفقـا للمصادر التركيـة، يقدر بخمسـة وسبعين ألف يهودي. وأشار مكتب الإحصاء اليهـودي في برلين في عام ١٩١٢ إلى أن تعداد اليهـود يقدر بتسعين

ألف يهودي، وأن التعـداد الكلي للسكـان يقـدر بمائة وسبعين ألف نسمــة. ومن المحتمل أن تكون هذه الأرقام مبالغا فيها بعض الشيء، ومع هـذا فهي تدل على أنه قد طرأت زيـادة ملحوظة على تعداد السكان. وتجلـت مظاهر هذه الزيـادة في تزايد عدد الأطفال اليهود بالمدارس اليهودية التابعة «للإليانس»، وكان من بين عوامل هذه الزيـادة السكانية أن هذه الفترة شهـدت تزايد معـدلات الهجرة من تركيا واليـونان إلى سالونيكا، كما شهدت تزايد معـدلات هجرة اليهود من بلدان البلقان إليها، كما كان من بين العوامل أن الحكومة التركية عملت منذ نهايات القرن التاسع عشر على تطوير سالونيكا والمناطق المحيطة به، فشيدت في هذه الفترة خطوط السكك الحديدية، كما مُهدت الطـرق لربطها بمنطقة شمال البلقـان والمناطق المحيطة بها، كما أعيـد في عام ١٨٨٩ افتتاح الميناء بالمدينة، وأزيلت الأسوار القـديمة وشيدت أحياء جديدة، وقد شيـدت في المدينـة في نفس الفترة العديـد من شبكـات الصرف الصحي الحديثـة، وشيدت بها أنظمة حديثة لتوصيل المياه إلى المنازل.

وكانت غالبية يهود سـالونيكا من أصول سفاردية، أمـا الأقلية فكانت من أصول إيطالية أو أشكنـازية، وكان لليهود في هـذه المدينة خاصة إبـان القرنين التاسع عشر والعشرين وجـود ملحوظ بها، وشكل اليهـود آنذاك مـركز ثقل اقتصـاديا في المدينـة فكانـوا يسيطرون على الحركـة الاقتصادية في المينـاء، وعلى الصناعـة، كما أن أعدادا كبيرة منهم اشتغلت بالمهن الحرة والتجارة.

وتسبب احتـلال اليونـانيين للمدينـة في عام ١٩١٢، وتبـادل السكان بين تـركيا واليونـان في أعقاب الحرب العالمية الأولى في حـدوث تغييرات ديموغرافيـة ضخمة في سالـونيكا، كما تسبب الحريق الضخم الذي شهـدته المدينة في عـام ١٩١٧ في إبادة أحياء كاملـة بالمدينة، وتشريد عشرات الآلاف من السكان، وأسفـر تبادل السكان بين تركيا واليونان في عقد العشرينيـات عن هجرة مئات الآلاف من آسيا الصغرى إلى اليونـان، فاستقـر مائة ألف يونـاني في سالونيكـا، التي حظي فيها المهـاجرون الجدد بظروف معيشية أفضل.

وتـزايدت مشـاعـر العـداء لليهود في سـالـونيكـا إبان الفترة الـواقعـة بين الحربين العـالميتين، وسيطرت هـذه المشاعـر على قادة الحركتين القـوميتين اليونـانية والأرمينيـة

العثمانية إبـان القرن التاسع عشر، وسنت الحكـومة اليونانيـة في نفس الحين تشريعات كثيرة أضرت بأوضاع اليهود، كان من بينها ذلك القانون الذي حظر على اليهود افتتاح محالهم يوم الأحد، فكان على اليهـود إما عـدم احتـرام قداسـة يوم السبت والعمل به أو التـوقف عن العمل ليومين متتـاليين، وكان هـذا القانـون يشبه إلى حـد كبير نفس القانـون الذي سن في بـولندا إبـان الفترة الواقعـة بين الحربين العالميتين، والـذي كان يهدف إلى الإضرار بأوضاع اليهود. وشهد عام ١٩١٣ ارتكاب العديد من المذابح ضد اليهـود في سالـونيكا، وأسفـرت كل هـذه المضايقـات بالطبع عن هجـرة الآلاف من اليهود، فهاجر في بداية عقد الثلاثينيات من هذا القرن ما يقرب من عشرة آلاف يهودي إلى فلسطين، كما هاجرت أعداد كبيرة منهم إلى أمريكا وأوروبا ومصر.

وقدر تعـداد يهود سالـونيكا في عـام ١٩٣٥ بحوالي ثـلاثة وخمسين ألف يهودي، ومع نشوب الحرب العالمية الثانية قدر تعدادهم بخمسة وخمسين ألفا، وشكل اليهود آنذاك ٢٤٪ من تعداد السكان فيها، وحوالي ٦٠٪ من تعداد يهود اليونان.

وبشكل عام يمكننا القول إن تعداد اليهود بتركيا واليـونان قدر إبان القرن الثامن عشر بمائة وعشرين ألف نسمة، وأن تعداد اليهود بـالدولة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر قُدر بما يقرب من مائة وخمسين ألف نسمة، وعاش ما يقرب من نصفهم في بلدان البلقان، أمـا التعداد الكلي لسكان الدولة فقـد قدر في نفس الفترة بما يقرب من خمسة وثلاثين مليون نسمة.

وتفيد إحصائيـات تعداد السكان التي أجريت في الثمانينيـات والتسعينيات من القرن التاسع عشر أن تعـداد اليهود في تركيا واليونـان قدر بمائة وأربعين ألف نسمة، وأن تعداد اليهود الذين أقاموا في سوريا وفلسطين والعراق قدر بأربعين ألف نسمة، أما التعداد الكلي للسكان في هذه المنطقة فقد قدر بسبعة عشر مليون نسمة.

ومع هذا يجب أن نضع في اعتبارنا أن هذه الإحصائيات لم تشمل اليهود الأجانب الذين أقاموا بالدولة والذين كانوا من رعايا الدول الأوروبية، ولذلك يمكننا تصور أن تعداد اليهود الـذين أقاموا في تركيـا وبلدان البلقان العثمانية في نهايـات القرن التاسع عشر قدر بحوالي مائة وسبعين ألف يهودي. وشكل اليهود في عام ١٩٠٠ حوالي ١٪ من التعـداد الكلي لسكـان الـدولـة، وقـدر تعـدادهم في اليـونـان (التي شملت

سالونيكا)، وفي كل بلدان الدولة العثمانية بمائتي وثمانين ألف نسمة، وكانت فلسطين واحدة من أكثر بلدان الدولة التي شهدت زيادة ملحوظة في تعداد اليهود. ويفيد إحصاء تعداد السكان الذي أجري في تركيا في عام ١٩١٧ (الذي لم يشمل سالونيكا) أن تعداد اليهود قدر بواحد وثمانين ألفا وثمانمئة واثنين وسبعين يهوديا. وإذا أضفنا إلى هذا الرقم يهود سالونيكا والمناطق المحيطة بها (الذين تراوح تعدادهم بين ستين ألفا وسبعين ألفا) نجد أنه عاش في تركيا وسالونيكا والمناطق المحيطة بها، ما يقرب من مائة وخمسين ألف يهودي. وتجدر الإشارة الإشارة أيضا إلى أنه قد عاش الآلاف من اليهود في الأجزاء الأخرى من اليونان التي حصلت في بدايات القرن التاسع عشر على استقلالها.

وعندبحث أسباب هذا التفاوت الملحوظ في تعداد اليهود من مكان إلى آخر يجب أن نضع في اعتبارنا أن تركيا تعرضت في بدايات القرن التاسع عشر إلى أوبئة عديدة راح ضحيتها المئات، ولكن بعد أن أخذت تركيا بأساليب الحداثة طرأ تحسن ملموس على الأوضاع الصحية وعلى مستوى الخدمات الصحية المقدمة في المدن، وعلى الظروف المعيشية، مما أدى إلى انخفاض معدل الوفيات، ومع هذا لم يتم القضاء إبان هذا القرن على الأوبئة، كما أنه لم تطرأ أيضا أي زيادة ملحوظة على تعداد اليهود في تركيا واليونان. ويكمن سبب هذا الأمر في أنه في الوقت الذي تزايدت فيه حركة الهجرة الداخلية من القرى إلى المدينة في الدولة وتحسنت فيه ظروف المعيشة، وتزايدت فيه حركة الهجرة من أوروبا الشرقية إلى بلدان الإمبراطورية تزايدت منذ عقد الثمانينيات بالقرن التاسع عشر حركة الهجرة اليهودية من تركيا إلى أوروبا وغيرها من البلدان. وكانت دوافع حركة الهجرة اليهودية عديدة ومتنوعة، كان من أبرزها أنه تزايدت حدة المنافسة الاقتصادية بين اليونان والأرمن في كبرى المدن، مما أضر بأوضاع اليهود الاقتصادية والاجتماعية، وبالاضافة إلى هذا تزايدت حدة الاستقطاب القومي والطائفي في تركيا بين المسلمين والمسيحيين، مما أضر باليهود، كما أن تزايد حدة مشاعر العداء لليهود خاصة في أوساط المسيحيين بالدولة دفع اليهود إلى الهجرة.

وكان أوائل المهاجرين اليهود على قدر كبير من الثقافة والمعرفة إذ إنهم كانوا قد أتموا تعليمهم في «الإليانس» والمدارس الأوروبية وخاصة الإيطالية منها، وهاجر

معظم هؤلاء إلى أمريكا والدول الأوروبية التي اشتغلوا فيها بالتجارة، كما هاجر بعضهم الآخر إلى مصر، ولذلك تشكلت في مصر مع بدايات القرن العشرين جالية يهودية ضخمة من يهود تركيا كان من أبرز أبنائها : الأديب والمؤرخ اليهودي إفراهام جالانتي الذي أصدر إبان إقامته في مصر صحيفة (العصا) التي صدرت بلغة اللادينو. وتزايدت حركة الهجرة اليهودية من تركيا إلى فلسطين إبان الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين، وبعد إقامة دولة إسرائيل. ولاشك أن الحروب المستمرة التي اشتعلت دائما بين تركيا واليونان تسببت في هروب آلاف اليهود من تركيا إلى أوروبا وأمريكا اللاتينية والولايات المتحدة الأمريكية التي شكل فيها المهاجرون اليهود الأتراك طوائف ضخمة، كما أسس اليهود الذين هاجروا إلى فرنسا طائفة ضخمة في باريس، أما في الولايات المتحدة الأمريكية فتوجد بها حتى يومنا هذا العديد من الطوائف اليهودية تركية الأصل، ويقيم معظم أبناء هذه الطوائف في الجانب الغربي من الولايات المتحدة. . أما عن حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين فقد كان مهاجرو سالونيكا من أبرز المهاجرين إليها إبان فترة الانتداب البريطاني، وكان من أهم دوافع حركة الهجرة اليهودية هذه، أن يهود سالونيكا تعرضوا إبان الثلاثينيات لاضطهادات كثيرة، وكان معظم هؤلاء المهاجرين من العمال الذين اشتغلوا في ميناء سالونيكا، ولذلك ساهموا بعد هجرتهم إلى فلسطين في تأسيس ميناء تل أبيب.

وكان من بين سائر العوامل التي شجعت اليهود على الهجرة أن الحكومة التركية فرضت في عام ١٩٤٢ العديد من الضرائب على غير المسلمين مما تسبب في إفلاس العديد منهم وهجرتهم للخارج، وعلى هذا النحو ارتبطت حركة الهجرة من تركيا بهجرة معظم الأقليات الأخرى، وتفيد المعطيات الرسمية أن الفترة ١٨٨٠ ـ ١٩١٤ شهدت هجرة حوالي ثلاثمائة ألف فرد إلى الأرجنتين، وسبعين ألفا إلى البرازيل، وكان خمسون ألفا من بين هؤلاء المهاجرين من غير المسلمين.

وفيما يتعلق بيهود سالونيكا فقد أبيد معظمهم إبان فترة النازية، إذ أرسلت السلطات الفرنسية بعض المهاجرين اليهود الذين قدموا إليها من تركيا إلى معسكرات الإبادة بألمانيا. وهاجر عشرات الآلاف منهم بعد عام ١٩٤٨ إلى إسرائيل.

سوريا ولبنان

يرجع تاريخ الوجود اليهودي في سوريا ولبنان إلى فترة قديمة للغاية، وكان معظم يهود هذين البلدين من يهود فلسطين أو من اليهود الذين خرجوا من الأندلس. وكما هو معروف فقد ارتحلت قلة قليلة من يهود الأندلس إلى هذين البلدين، بالمقارنة بالغالبية التي ارتحلت إلى تركيا واليونان وفلسطين، واندمج هؤلاء المهاجرون سريعا مع يهود هذين البلدين الذين كانوا شديدي التأثر بالفكر الإسلامي. وعاشت في دمشق طائفة صغيرة من اليهود القرائين، واستقر معظم يهود سوريا في مدينتي دمشق وحلب اللتين كانتا تتبعان الإدارة العثمانية، ولم يتجاوز تعدادهم في هاتين المدينتين طيلة الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر بضعة آلاف. أما اليهود الذين أقاموا في حماة وحمص وبعلبك فكان تعدادهم محدودا للغاية. أما في لبنان فكانت هناك بعض الطوائف اليهودية الصغيرة في طرابلس وبيروت وصيدا، كما أقامت أعداد محدودة من اليهود في بعض القرى الدرزية الصغيرة حيث عاشوا في دير القمر وحصبيا وفي العديد من القرى الأخرى، وحافظت على وجودها في هذه الأماكن طيلة القرنين التاسع عشر والعشرين.

وكان الرحالة اليهودي داوود الذي من بيت هيلل قد تنقل في أوساط هذه الطوائف اليهودية في سوريا ولبنان في عام ١٨٢٤، ووجد بهما استيطانا يهوديا مكونا من ٩٠٠ أسرة باستثناء قرى الدروز. ووفقاً لما جاء في أعماله فقد كانت توجد في دمشق مائتا عائلة يهودية، وأعداد محدودة من يهود القرائين، وستمائة عائلة يهودية في حلب وخمس عشرة عائلة يهودية في بيروت وطرابلس، ويمكننا وفقا لهذا التقدير تصور أن عدد اليهود الذين أقاموا في كل هذه المناطق كان يقدر بأربعة آلاف يهودي، وكانت الطائفة اليهودية في حلب آنذاك هي أكبر الطوائف اليهودية في هذين البلدين. ومع هذا لا تتسم هذه الأرقام بالدقة حيث إن تقرير القنصل البريطاني عن تعداد اليهود يتضمن أرقاما أكبر بعض الشيء عن الأرقام الواردة في أعمال هذا الرحالة اليهودي.

وشهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر زيادة ملحوظة في تعداد اليهود في هذه المنطقة، فجاء في أعمال الرحالة اليهودي بنيامين هشيني (بنيامين الثاني) الذي زار المنطقة في عام ١٨٤٨ أن عدد العائلات اليهودية في حلب يقدر بألفي عائلة، وأن تعداد اليهود فيها يقدر بعشرة آلاف يهودي، وأن هناك ستمائة عائلة يهودية في دمشق، وأن تعداد سكانها يقدر بثلاثة آلاف يهودي. وذكر أ. فرانكل في كتابه «إلى القدس» الذي سبقت الإشارة إليه أن تعداد اليهود في دمشق في عام ١٨٥٦ قدر بخمسة آلاف يهودي، وأن بعضهم من اليهود الأشكناز، وأن من بينهم خمسين يهوديا من أصل إيطالي، وأنهم يعيشون تحت رعاية قنصل النمسا.

واستنادا إلى ما ورد في عمله فإنه كان للطائفة اليهودية القرائية في سوريا وجود بارز خاصة في بدايات القرن التاسع عشر، وكان بضع مئات من يهود إيطاليا يعيشون في حلب واستقروا بها منذ القرن التاسع عشر، وكانوا ينعمون بمكانة بارزة في المدينة.

وقد توقفت حركة الزيادة في تعداد اليهود بسوريا منذ منتصف القرن التاسع عشر، نتيجة لتضاؤل أهمية سوريا الاقتصادية منذ ذلك الحين، والتي كان من بين مظاهرها أهمية حلب التي كانت ذات أهمية إبرى قبل هذا في عالم التجارة الدولية. ومع هذا تحسن وضع سوريا السياسي بعد أن تزايد بها حجم الوجود الأوروبي، وتحسن في هذه الفترة وضع المسيحيين خاصة. ولكن هذا الوضع تسبب في حدوث صدامات عديدة بين المسيحيين والمسلمين. أما عن وضع اليهود في ذلك الحين، فقد عانوا من تزايد حدة التوتر بين الطوائف الدينية، وكان الغضب يشملهم في بعض الأحيان، وكانت الحادثة التي تعرضوا لها في عام ١٨٤٠ واحدة من أكثر الحوادث قسوة في تاريخ يهود الشرق، كما تعرضوا في عام ١٨٦٠ لبعض المضايقات خاصة بعد أن وقعت في هذا العام مصادمات عديدة بين الدروز والمسلمين والمسيحيين.

وتسبب افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ في تضاؤل الدور الاقتصادي لسوريا في حركة التجارة الدولية. وبالرغم من أن هذه الفترة شهدت تحسنا ملموسا في ظروف المعيشة في كل من سوريا وفلسطين نتيجة لسياسة التنظيمات التي انتهجتها الدولة العثمانية، إلا أن هذا التحسن لم يساهم في تزايد تعداد اليهود بالبلدين حيث أظهر

الإحصاء السكاني الذي أجرته الدولة في عقدي الثمانينيات والتسعينيات بالقرن التاسع عشر أن تعداد يهود حلب والمناطق المحيطة بها يقدر بتسعة آلاف وثلاثمائة وستة وخمسين يهوديا، وأن تعدادهم في دمشق وضواحيها قدر بستة آلاف ومائتين وخمسة وستين يهوديا. وتفيد هذه البيانات أن حركة الهجرة اليهودية من سوريا كانت نتيجة للأحداث التي سبقت الإشارة إليها وهاجر بعض يهود سوريا إلى لبنان التي كانت آنذاك جزءا من سوريا العثمانية. وشهد القرن التاسع عشر ظهور عدة مراكز تجارية جديدة بدلا من المراكز التجارية التقليدية القديمة. ، فظهرت هذه المراكز الجديدة في المدن الساحلية الواقعة على السواحل السورية وفي فلسطين، فكانت موانىء بيروت وعكا وحيفا من أبرز الموانىء التي كانت تدخل من خلالها الواردات إلى كل من سوريا وفلسطين.

وتزايدت خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر قوة حركة الهجرة اليهودية من سوريا إلى مصر، كما تزايدت في نهايات القرن العشرين أيضا قوة حركة الهجرة اليهودية من سوريا إلى الولايات المتحدة الأمريكية والأرجنتين وهونج كونج وفلسطين، وكانت حركة الهجرة اليهودية هذه وثيقة الصلة بحركة المسيحية من سوريا إلى هذه البلدان، كما شهدت فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى انتقال أعداد كبيرة من يهود جنوب تركيا وإيران ومن البلدان الأوروبية إلى سوريا التي كانت في هذا الحين نقطة انتقال إلى البلدان الأخرى.

وعاش في سوريا خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر حوالي ثلاثمائة تاجر يهودي من أصل إيطالي. أما في بدايات القرن العشرين فقد أقام في كل من دمشق وحلب عشرة آلاف يهودي، بل ويرى البعض أن تعداد يهود سوريا كان أكبر بكثير من هذا الرقم، وشهدت فترة الحرب العالمية الأولى، والفترة التي أعقبتها هجرة أعداد كبيرة من اليهود من سوريا نتيجة لرغبة أعداد كبيرة منهم في عدم الالتحاق بالجيش التركي.

ووقعت في عام ١٩٢٥ في دمشق مصادمات الدروز مما تسبب في هروب اليهود من المدينة التي لم يتبق بها في عام ١٩٢٦ سوى ستة آلاف وستمائة وخمسة وثلاثين يهوديا فقط. وارتفع تعداد يهود سوريا فيما بعد، فقدر في عام ١٩٣٢ بستة وعشرين

ألفـا ومائتين و خمسين يهوديـا ، وقدر عـددهم في عـام ١٩٤٣ بتسعة وعشرين ألفـا وسبعمائة وسبعين يهوديا * .

وشهد عقد الأربعينيـات من هذا القرن بدايات الهجرة اليهـودية غير الشرعية من سوريا إلى فلسطين، وقُدرت أعداد هؤلاء المهاجرين ببضع مئات ، ولم يتبق في سوريا سوى بضعة آلاف من اليهود لا يسمح لهم حتى يومنا هذا بالهجرة إلى إسرائيل ** .

وكانت بيروت حتى عام ١٩٢٠ قريـة صغيرة يعيش بها ما يتراوح بين خمسة وستة آلاف نسمة ، ولكن تعداد سكانها قـدر في الخمسينيات بخمسين ألف نسمة ، وقُدر تعداد اليهود آنذاك في بيروت بثلاثـة آلاف يهودي ، ووصل تعداد اليهود في لبنان إبان الفترة الـواقعـة بين الحربين العـالميتين إلى ستـــة آلاف يهـــودي أقــام معظمهم في بيروت . وبعـد أن تأسست دولـة إسرائيل حدثت زيـادة ملمـوسـة في تعداد اليهـود بلبنـان ، إذ هـاجـرت إلى لبنـان آنذاك أعـداد كبيرة من يهود سـوريـا ويهود البلـدان العـربية ، وقـدر تعداد اليهـود في لبنـان في عام ١٩٥٨ بتسعـة آلاف يهودي ، ولكن تعداد اليهـود تضاءل بها بشكل ملحوظ بعـد حرب يونيو ١٩٦٧ ، ولم يعـد في لبنان سوى عدد ضئيل للغاية من اليهود .

فلسطين

عند بحث التحولات الديموغرافية التي حدثت في نفس الفترة في فلسطين ، نجد أن تعداد اليهود في فلسطين إبان القرن الثامن عشر تراوح بين ستة آلاف وثمانية آلاف يهودي ، وأن التعداد الكلي للسكـان آنذاك تراوح بين مائة وخمسين ألفـا ومائتي ألف نسمة . وكـان معظم اليهود في ذلك الحين يقيمـون في القدس التي استقـر بها حوالي

---

*قدر عـدد يهود سوريا بعد حـرب يونيو ١٩٦٧ بـــ ٥٥٠٠ يهودي كان معظمهم في حلب ودمشق . (المراجع) .

** في إطار الجهود التي تمت بعد مؤتمر مدريد للسلام والذي عقد في ٣٠ أكتوبر ١٩٩١ بين إسرائيل ودول الطوق (سـوريا ــ الأردن ـ فلسطين ــ لبنان) من أجل التـوصل إلى تسويـة شاملـة لمشكلة الصراع العربي الإسرائيلي ، وافقت سـوريا في عـام ١٩٩٣ على السماح ليهود سوريـا بمغادرتها ، تعبيرا عن حسن نـواياها تجاه السـلام الشامل وكـان عددهم يقـدر بحوالي ثـلاثة آلاف وخمسمائة يهودي . وقد غادر عدد منهم سوريا بالفعل دون أن تعـرف على وجه التحديد الوجهة التي ذهبوا إليها ، هل هي إسرائيل ، أم الدول الأوروبية وأمريكا؟ ! ـ(المراجع) .

ثـلاثة آلاف يهودي، أمـا الباقـون منهم فقـد عاشـوا في الخليل وطبرية وصفـد، كما عـاشت قلة قليلـة منهم في عكا وغـزة، وفي بعض قرى الجليل. وتضـاءل الوجـود اليهودي في فلسطين، خاصة في الفترة التي قامت فيها قوات نابليون بغزو فلسطين، فكان تعداد اليهود آنذاك يتراوح بين ثلاثـة آلاف وأربعة آلاف. أما منذ القرن التاسع عشر فقد تـزايد تعداد اليهـود في فلسطين نتيجة لحركـة الهجرة اليهوديـة المستمرة من بلدان أوروبا الشرقية وشمال أفريقيا وتركيا وبلدان البلقان.

وقدر تعداد اليهود في فلسطين في عقد الثلاثينيات من القرن التاسع عشر بعشرة آلاف يهودي، أقام حوالي نصفهم في القدس. وحينما تعرضت الجليل في عام ١٨٣٧ إلى هزة أرضيـة قويـة ألحقت الدمار بصفـد وأيضا طبرية، انتقـل معظم الفارين من هذا الدمار إلى القدس. وشهـدت نفس الفترة حدوث تطور ملموس في بعض المدن الساحليـة مثل يافا وعكـا وحيفا، ولذلك تـزايد تعداد اليهـود المقيمين بها، ولم يعد الوجـود اليهودي من هذا الحين مقصورا على الأمـاكن اليهودية المقدسـة، وقد وصل تعداد اليهود في فلسطين في عام ١٨٨٠ إلى ستـة وعشرين ألف يهودي أقام غالبيتهم أيضا في القدس، ووصل تعدادهم قبيل نشوب الحرب العالمية إلى ثمانية وثمانين ألفا، كان نصفهم يقيم أيضا في القدس.

ومع نشوب الحرب العالمية الأولى ارتحلت أعداد كبيرة من اليهود عن فلسطين نتيجة لتـدهور الأوضاع الاقتصاديـة بها، ولعدم رغبة اليهـود في العمل بالجيش التركي, ولكن بعـد صدور وعـد بلفور، وبعـد أن خضعت فلسطين للانتـداب البريطـاني، تـزايـد تعـداد اليهـود بفلسطين بشكـل سريع للغـايـة خـاصـة في الثـلاثينيات, ومـع إقامـة دولـة إسرائيل قـدر تعداد اليهـود في فلسطين بستمائة وخمسين ألف يهودي.

وعنـد مقارنـة المعطيـات التي في حوزتنـا عن يهود العـالم الإسـلامي بالمعطيـات الخاصة بتعداد اليهـود في الشتات نجد أن يهود البلدان الإسـلامية شكلوا ١٠٪ فقط من التعـداد الكلي لليهود إبـان القرنين التـاسع عشر والعشرين، وأن ٣٪ منهم فقط أقاموا في البلـدان التابعة للدولة العثمانيـة. وكانت الزيادة في تعداد يهود الـدولة إبان القرن التاسع عشر محدودة للغـاية بالمقارنة بمعدلات الـزيادة الطبيعية في أوساط يهود

الغرب، كما كانت سن الزواج في أوساط يهود الدولة العثمانية منخفضة إبان القرن التاسع عشر بالمقارنة بنظيرها في غرب أوروبا. وذكر المؤرخ اليهودي أفراهام جريتس الذي زار فلسطين في عام ١٨٧٢ أنه شاعت في أوساط يهود فلسطين ظاهرة الزواج في سن مبكرة. وكان معدل سن الزواج في سالونيكا في منتصف القرن التاسع عشر يتراوح بين السابعة عشرة والتاسعة عشرة للذكور، وكان متوسط السن بالنسبة للإناث يقدر بالثالثة عشرة، وكان المعدل السنوي للزيجات في أزمير في نفس الفترة يقدر بخمسمائة زيجة، وكان المعدل السنوي للولادات ثلاثمائة، ولكن كان معدل الوفيات مرتفعا في أوساطهم.

وفيما يتعلق بمعدلات الزيادة الطبيعية فإنها ارتفعت بشكل ملحوظ في القرن التاسع عشر، وكانت هذه الزيادة نتيجة لتحسن ظروف المعيشة، ومع هذا كانت حركة الهجرة من الدولة أعلى من حركة الهجرة إليها، خاصة في نهايات القرن التاسع عشر، ولذلك بينما انخفض تعداد اليهود بشكل ملحوظ في كل من تركيا واليونان وسوريا في القرن العشرين نتيجة لحركة الهجرة الضخمة منها إلى الخارج، فقد ساهمت حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين في تزايد تعداد اليهود بها.



الفصل الثاني

أنشطة اليهود الاقتصادية

مدخل

كان اقتصاد الدولة العثمانية في بدايات القرن التاسع عشر متدنياً للغاية بالمقارنة باقتصادها المزدهر في القرن السادس عشر، ونجم هذا التحول عن بعض العوامل الداخلية والخارجية التي كان من بينها: تضاؤل أهمية البحر المتوسط من الناحية الاقتصادية، وتحول المحيط الأطلنطي إلى ممر تجاري رئيسي، وكان من بين العوامل الداخلية التي ساهمت في حدوث هذا التدهور، السياسات الخاطئة التي انتهجتها الدولة وتسببت في خوضها لحروب عديدة، والعجز الدائم في ميزان المدفوعات الذي أدى إلى ارتفاع معدل التضخم. وقد عاشت الدولة في حالة لا مثيل لها من التخلف في مجالات الصناعة والزراعة ووسائل الاتصالات: فلم تعرف تركيا حتى نهايات القرن الثامن عشر شيئا عن الثورة الزراعية أو الصناعية التي كانت قد عرفتها أوروبا. ونتيجة لهذا الأمر تكدست أسواق الدولة العثمانية بكافة أنواع البضائع الأوروبية مثل الأجهزة والمنسوجات والملابس والأطعمة وغيرها. أما صادرات تركيا التقليدية إلى البلدان الأوروبية فقد انخفض حجمها بشكل ملحوظ إبان القرن الثامن عشر، خاصة أن الدول الأوروبية وفرت منذ هذا الحين بدائل لما كانت تستورده من الشرق ومن الدولة العثمانية مما أدى إلى التقليل من أهمية التوابل والمنسوجات التي كانت تستوردها هذه الدول من أقطار الدولة.

وبالرغم من أن علاقات الدولة التجارية مع أوروبا قد شابها آنذاك الضعف، إلا أنها ظلت على نفس القدر من القوة مع الأقطار التابعة لها، والتي كان منها العراق ومصر، وكما هو معروف، كان المسلمون يسيطرون بالكامل في هذه الأقطار على حركة التجارة مع الدولة العثمانية.

وقد أدت حروب البلقان، وفقدان الدولـة لأراضيها في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر إلى تزايد حدة التدهور الذي ألم باقتصاد الدولة، وكانت تركيـا تعيش في هذه الفترة في حـالة دائمـة من الصراع والقتال من أجـل الحفاظ على مكانتهـا في أوروبا والشرق الأوسط، ومن هنـا لم يهتم حكامها كثيرا بقضـايا تطـوير الأوضاع بالداخل، أو تحسين الأوضاع الاقتصادية.

وشكلت الاتفاقيـة التي وقعت عليها تركيا في عـام ١٨٣٨ مع انجلترا نقطة تحول مهمة في التاريخ الاقتصادي للدولة، حيث فتحت هـذه الاتفاقية الأسواق التجارية أمام البضائع الإنجليزية التي لم يفرض عليها إلا قدر بسيط من الضرائب الجمركية، وكان للاتفاقات الأخرى التي توصلت إليها تركيا مع سائر الدول الأوروبية أكبر الأثر في إضعاف الاقتصاد العثماني.

وقد شهدت تركيـا بعد حرب الاستقلال اليونانية وبعد الفتـوحات التي قام بها محمد علي صحوة قـومية اجتماعية مما دعـا قادتها إلى تطبيق أساليب الحكم الحديثة في الـدولة. وساهمت هذه الصحوة في تطـور الأوضاع الاقتصادية بالدولـة، فتم البدء منذ هذا الحين في إحداث العديد من الإصلاحـات في مجال الزراعة، كما تم في عام ١٨٣٤ تأسيس نظام الخدمـات البريـديـة، وتم في عـام ١٨٥٦، أي إبان حـرب القـرم، إرسـاء أسس نظـام التلغراف، وتم في نهايـات القرن التـاسع عشر إنشاء خطوط للسكك الحديـدية في تـركيا والبلقان وبلـدان الشرق الأوسط. وكان لتزايد تعـداد السكان في أوروبا وأمريكـا في هذه الفترة، ولتزايـد إقبال الدول الأوروبيـة على المواد الخام والمواد الأولية أكبر الأثـر في الوضع الاقتصادي بـالدولة، فتـزايدت في هذه الفترة صـادرات تركيا من القطن والتبغ والفـواكه المجففة إلى هذه البلدان ممـا ساهم بالطبع في انتعاش قطاع الزراعة بـالدولة العثمانية. كما شهدت كل مـدن الدولة العثمانيـة في نهايات القرن التاسع عشر حـركة نهضة اقتصـادية ضخمة، فتأسست في هـذه الفترة العديـد من المصانع التي خلقت بـدورها العـديد من فرص العمل، كما أقيمـت في هذا الحين شبكة حـديثة من المواصـلات وشبكات حـديثة لإمـداد الميـاه وللصرف، وسـاهمت خطوط السكـك الحديديـة الحديثـة، كما حـدث في أوروبا، في تطور قطاعي الصناعة والتجارة الخارجية، ومن هنا فقد ارتفع في نهايات القرن التاسع عشر مستوى معيشة سكان الدولة العثمانية.

والجدير بالـذكر أن البنية الاقتصاديـة العثمانية في هذا الحين كانت بنيـة قديمة لم تتح لرجـال الأعمال فرصـة المساهمة في الحركة الاقتصـادية، ويعتقـد البعض أن أكثر المستفيـدين من حـالة الازدهـار الاقتصـادي كـانـوا من غير المسلمين الذين كـانـوا يسيطرون على رؤوس الأمـوال، وعلى حركتي التجـارة الداخلية والخارجيـة. وكما هو معروف فإن غير المسلمين كانـوا ينعمون بامتيازات لم تكن متوافـرة لغيرهم لأنهم كانوا من رعايـا الدول الأجنبية. وأدى ازدهـار الوضع الاقتصادي لغير المسلمين إلى تـزايد حدة التوتر بين المسلمين والمسيحيين، كما أدى تزايد تدخل القوى الأوربية في شؤون الدولـة إلى خلق حالـة عدم الاستقـرار الاقتصادي والقـومي والطائفي طيلـة نهايات القرن التـاسع عشر وبدايـات القرن العشرين. أمـا عن تأثير ثـورة «تركيـا الفتاة» في مجريات الأمـور بالـدولة فكان محدوداً للغـاية، لأن هدفهـا الرئيسي تمثل في مـواجهة تـدخل القوى العظمـى في شؤون الـدولـة، ومن هنا فقـد ركـز قـادتها على القضايـا الداخلية والخارجيـة الرئيسية، ولم يهتموا في المقابل بالـوضع الاقتصادي، مما أدى إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية بشكل واضح في بدايات القرن العشرين.

ولم تهتم تركيا بإصـلاح اقتصادها إلا في عقد الثـلاثينيات من القرن العشرين أي بعد أن رسمـت الحدود الحديثة لتركيـا، واعتمدت مسيرة الإصـلاح الاقتصادي على الأموال الطائلة التي استثمرها القطاع الخاص والأجهزة الحكومية في قطاعي الصناعة والـزراعة، واعتمـدت مسيرة الإصـلاح أيضا على المسـاعـدات التي قـدمتها الـدول الأجنبية لتركيـا، وتضاءلت منذ هـذه الفترة الأنشطة الاقتصاديـة لغير المسلمين، مما أدى إلى تزايد معدلات هجرتهم للخارج.

تركيا واليونان

استمر اليهود حتى القرن الثامن عشر في مزاولة أنشطتهم الاقتصادية التقليدية التي اعتادوا أن يمارسـوها في تـركيا وبلـدان البلقان طيلـة القرنين الخامـس عشر والسادس عشر، فـاستمر اليهـود في العمل كـوسطـاء، وفي الأسـواق المالية، وكعمـلاء في مجال التجارتين الداخلية والخارجية، فعمل الكثيرون منهم بـالتجارة، وفي العديد من المهن الأخرى. وبينما عملت أعـداد كبيرة منهم في مجال صناعة المنسوجـات فإن بعض أبناء

الطبقة العليا من المجتمع اليهودي والذين كانوا من المقربين إلى رجال السلطة في القرن الثامن عشر، عملوا إما كمستشارين أو أطباء في أوساط الدوائر الحاكمة.

ومع تزايد حجم القوى العظمى في شؤون الدولة خاصة منذ نهايات القرن الثامن عشر، تزايد أيضا نشاط المسيحيين في مجال الاقتصاد فسيطروا على مجال التجارتين الخارجية والداخلية، ومجال المعاملات المالية وبعض الصناعات التي اعتاد اليهود والأتراك الاشتغال بها. ولاشك في أنه كان من بين عوامل نجاح المسيحيين في التجارة أنهم كانوا على قدر كبير من الثقافة والمعرفة بالتكنولوجيا الحديثة، أضف إلى هذا أن حركة الهجرة المسيحية الضخمة (التي ضمت في أوساطها اليونان والأرمن) إلى المدن التركية الكبرى، واعتمادهم على مساعدة القوى العظمى ساهما في تمكينهم من السيطرة على المجال الاقتصادي.

وقد تدهورت أوضاع اليهود الاقتصادية بشكل ملحوظ بعد نجاح المسيحيين في السيطرة على المجالات الاقتصادية والتجارية، وقد سجل أحد المصادر اليهودية صورة دقيقة لحالة التوتر بين المسيحيين واليهود التي حدثت لأسباب اقتصادية خاصة في مجال صناعة النسيج فجاء في هذا المصدر: «تدهورت أوضاع أبناء طائفة روبيت المشتغلين بصناعة وتجارة المنسوجات... ودخل بعض الغرباء إلى هذه المهنة، وهذا هو سبب تدهور أوضاعنا، فقد اشتغلنا بهذه المهنة منذ زمن طويل، ولم يدخل أي غريب هذا المجال... ولكن العماليق (الأرمن) دخلوا هذا المجال، وتزايد عدد العاملين منهم في هذا المجال يوماً بعد يوم، خاصة بعد أن زادت أموالهم، و أصبحوا يحتكرون هذه الصناعة».

وساد نفس الوضع في مجال المعاملات المالية، ففقد اليهود وظائفهم التقليدية التي اعتادوا العمل بها والتي كان منها جباية الضرائب، والمقايضة، وتزويد الجيش باحتياجاته، وهذا بعد أن نجح المسيحيون في السيطرة على الوظائف التي اعتاد اليهود العمل بها.

وأسفر هذا الوضع عن إلحاق أشد الضرر، ليس فقط بأثرياء المجتمع اليهودي، وإنما بأبناء الطبقة الوسطى، ووصلت الحال ببعض التجار اليهود إلى أنهم أصبحوا من أبناء الطبقات العاملة الفقيرة. وخلق مثل هذا الوضع خاصة في أوساط الطوائف

اليهودية الكبيرة مشكلات اجتماعية حادة نجم معظمها عن عجز أبناء هذه الطوائف عن دفع الضرائب المباشرة أو غير المباشرة لقادة الطوائف، وقد سادت أيضا حالة من التوتر بين فقراء اليهود العاطلين عن العمل وبين الأثرياء الذين كانوا يسيطروا على مجريات الطائفة اليهودية، ومن هنا تكررت كثيرا في أوساط يهود القسطنطينية وأزمير ظاهرة التمرد على دفع الضرائب للطائفة. وأما الوضع في سالونيكا فقد كان مختلفا بعض الشيء. فبينما شهدت المدينة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر أزمات اقتصادية واجتماعية عنيفة، فقد شهدت في منتصف القرن التاسع عشر العديد من التغيرات المهمة نجمت عن تزايد أهميتها الاستراتيجية ـ خاصة بعد استقلال اليونان ـ بوصفها مدخلا بحريا للبلقان وأوروبا، وتزايدت في هذه الفترة أيضا قوة تأثير اليهود ذوي الأصل الإيطالي في سالونيكا، حيث شكلوا دور حلقتي الوصل الاقتصادية والثقافية بين يهود أوروبا وبين يهود تركيا والدولة العثمانية.

وقد أدى إلغاء سلاح الانكشاريين في عام ١٨٢٦ إلى تعرض قطاع المنسوجات في سالونيكا لأزمة طاحنة، حيث كان هذا السلاح هو المستهلك الرئيسي لمنتجات صناعة النسيج، وهاجرت نتيجة لهذا الوضع أعداد كبيرة من يهود سالونيكا إلى تركيا، وقام الآخرون بتغيير أنشطتهم. وقد شهدت المدن التركية وسالونيكا خاصة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر صحوة ضخمة فأزيلت الأسوار القديمة وشيدت أحياء جديدة، وخطوط سكك حديدية تربط بينها وبين أوروبا، كما أسس الفرنسيون ميناءً جديداً في سالونيكا، وأقاموا شبكات حديثة لتوصيل المياه، وساهمت هذه الصحوة في تطور الأوضاع الاقتصادية، وحركة التجارة الخارجية بالمدينة التي لعب فيها اليهود دورا مهما. وقد حظي اليهود في سالونيكا بتأييد الأتراك، وهذا لمواجهة الأقلية اليونانية القوية، فبرز اليهود في مجال التبغ، وفي مجال استيراد السلع، وكان لليهود مخازن ضخمة كانوا يخزنون بها السلع التي يستوردونها. . . وأسس اليهود آنذاك ورشا لإنتاج الصابون والماكينات ومواد الطباعة، كما أسسوا بنوكا ساهموا في إدارتها إما عن طريق تمويلها أو عن طريق العمل بها وإدارتها، وكان من بين مظاهر الثراء التي عمت المدينة أنه ظهرت بها فئة من الأثرياء شيدت قصوراً ضخمة خارج المدينة.

وكان معظم يهود سالونيكا من أبناء الطبقة المتوسطة ـ التي شملت التجار ـ وأبناء الطبقة العاملة التي شملت عمال النسيج والموانىء، والصيادين الذين كانوا من أكثر طبقات المجتمع اليهودي فقراً. ومع سقوط المدينة تحت الاحتلال اليوناني سرعان ما تغيرت الأوضاع خاصة من الناحية الاقتصادية. وبالرغم من أن حالة الازدهار الاقتصادي دامت بالمدينة إبان الحرب العالمية نظرا لاشتغال الجميع في خدمة الجيوش التي عسكرت آنذاك بالمنطقة، إلا أنه سرعان ما تغير الوضع بعد انتهاء الحرب التي أعقبتها هجرة أعداد ضخمة من اليونانيين إلى سالونيكا، وهي الهجرة التي كانت نتيجة لاتفاقيات تبادل السكان مع تركيا. وقد سنت الحكومة في أعقاب حركة الهجرة هذه قوانين جديدة كانت تهدف إلى مساعدة المهاجرين الجدد، ولكنها أضرت في واقع الأمر بأوضاع اليهود الذين تعرضت أنشطتهم الاقتصادية والاجتماعية إلى أضرار بالغة، مما أدى إلى هجرة أعداد كبيرة منهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، بينما هاجرت أعداد قليلة منهم إلى فلسطين وكان معظمهم من أبناء الطبقات الفقيرة، وهاجر بعضهم إلى بلدان الشرق الأوسط الأخرى.

وفيما يتعلق بالمسيحيين فقد كانوا أكثر تأثرا من يهود الدولة بأفكار حركة التنوير، فبدأ المسيحيون منذ القرن التاسع عشر في إنشاء المدارس التي تتبع المناهج التعليمية الحديثة، مما ساهم في نشر أفكار حركة التنوير في أوساطهم بشكل أسرع من انتشارها في المجتمع اليهودي، كما كان يهود الدولة الذين كانوا من أصول إيطالية والذين نجحوا في الحفاظ على أوضاعهم أكثر اطلاعا من غيرهم على أفكار حركة التنوير الأوروبية، وكان معظم هؤلاء من التجار الذين اشتغلوا بالوساطة التجارية أو كانوا ممثلين للتجار الأوروبيين، خاصة من إنجلترا والنمسا وإيطاليا ممن كانوا يقيمون حتى نهايات القرن التاسع عشر في كافة المدن التركية واليونانية.

وفي الحقيقة، كان تزايد حدة المنافسة الاقتصادية بين المسيحيين إبان القرنين التاسع عشر والعشرين، وتدهور أوضاع اليهود الاقتصادية من أهم العوامل التي أدت إلى انهيار الأطر الطائفية القديمة، وإلى التخلي عن أسلوب الحياة الديني التقليدي الذي كان يشكل حتى ذلك الحين عاملا موحدا لأبناء كل الطوائف اليهودية. وكان من بين مظاهر التخلي عن التقاليد اليهودية أن أعداداً كبيرة من التجار والعمال اليهود كانت تعمل يوم

السبت . أما في سالونيكا التي كان معظم عمالها من اليهود فإنهم كانوا يتوقفون عن العمل في هذا اليوم المقدس . ولم يكن الوضع الذي ساد في سالونيكا يمثل طبيعة الوضع الذي ساد في أوساط يهود الدولة .

وشهدت فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى تدهورا ملحوظاً في أوضاع اليهود الاقتصادية في تركيا حيث انتهجت تركيا بعد الحرب سياسة اقتصادية قومية بالسياسة الاقتصادية التي انتهجت في اليونان، والتي كانت تهدف إلى تقييد أنشطة الأقليات . وبينما تبقت في تركيا طبقة من أثرياء اليهود، إلا أن غالبية يهود تركيا اعتمدوا منذ ذلك الحين على العمل بالتجارة، بشكل محدود . ونتيجة لهذا الوضع هاجرت أعداد كبيرة من يهود تركيا إلى بلدان أخرى و إلى فلسطين .

صناعة المنسوجات

شهد هذا القطاع الصناعي في الدولة تدهورا ملحوظا منذ القرن السابع عشر . وكان هذا التدهور نتيجة طبيعية للتطور التكنولوجي الذي شهده قطاع المنسوجات في أوروبا التي توقفت بلدانها منذ هذا الحين عن استيراد المنسوجات من تركيا التي بدأت في استيراد المواد الخام اللازمة لصناعة النسيج، وقد تكدست الأسواق التركية منذ ذلك الحين بالأقمشة لتلبية احتياجات الجيش التركي، ولكن تسبب إلغاء سلاح الانكشاريين في تعرض آلاف اليهود لأزمة عنيفة، خاصة أن الآلاف منهم كانوا يعملون في هذا المجال . وكان العمال اليهود في هذا المجال يمثلون أدنى طبقات المجتمع اليهودي، وأشدها فقرا، وكانوا يعملون في دباغة أصواف الماعز، وصناعة الأزرار، وصباغة المنسوجات و إنتاج الشارات الملونة وغيرها، وكان هؤلاء العمال منظمين في طائفة خاصة بهم، وكانوا يمثلون أدنى درجات السلم الاقتصادي والاجتماعي، وتروي بعض المصادر اليهودية أن العمال اليهود في أزمير كانوا فقراء للغاية للدرجة التي جعلتهم يخجلون من التوجه للمعابد يوم السبت، لأنه لم تكن لديهم الملابس المناسبة للذهاب إليها، ولذلك كانوا يمارسون شعائرهم الدينية في الورش التي كانوا يعملون بها، وأنشأت جماعات أخرى من العمال الفقراء معابد خاصة بها، وكان هؤلاء من العمال الذين اشتغلوا بصناعة السجاد في الأناضول . أما في سالونيكا فقد تبقى بها حتى مطلع القرن التاسع عشر عدد محدود من أثرياء اليهود

الذيـن عملوا في استيراد وتصـدير المنسوجـات، وكان هـؤلاء يحظون بقـدر كبير من الـدعم من يهود فيينا، ولكن في منتصف هـذا القرن سيطـر المسيحيون والأوروبيـون وبعض اليهود الذين من أصل إيطالي على صناعة المنسوجات.

الأموال

بالرغم من أنه قد عـرف عن اليهود العمل في مجال الأموال طيلة الفترة الممتدة من القـرن السـادس عشر حتـى الثـامن عشر إلا أن أنشطتهم في هـذا المجـال تـوقفت بـالكامل خـلال القـرنين التاسع عشر والعشرين خـاصـة بعد أن نجح المسيحيـون والأرمن في العصر الحديث في السيطرة على هذا المجال. ولكننا نستثني يهود سالونيكا من هذا الوضع حيث استمروا طيلة العصر الحديث في الاشتغال في هذا المجال.

وبينما سيطـر المسيحيون سيطـرة شبـه مطلقـة على أسواق المال في القسطنطينيـة وأزمير وسائر المدن التركيـة، فإن اليهود والأتراك اشتغلـوا كعمال أو كتجار، واشتغل معظم اليهود في الوساطة بين الأطراف التجـارية وفي الأعمال اليدوية، وقد تدهور في القسطنطينية على سبيل المثـال وضع العائلات اليهوديـة الثرية التي عـرف عنها دائما الاشتغال في مجال تزويد الجيش التركي باحتياجـاته، ولم يحدث هذا التدهور إلا بعد أن سيطـر الأرمن في هذا المجـال، كما أعدمت السلطـات التركية في منتصف القـرن التاسع عشر يحزقال جباي وأبناء عائلتي كرمونا وأجيمان، وهذا بعد أن وجهت إليهم تهمـة التعاون مع الانكشـاريين، وقد وصف أحـد الأوروبيين في هذا الحين الـوضع السائد في تـركيا بقـوله: «إن الأرمن أصبحوا يسيطـرون على البنوك الـرئيسية في الجزء التركي من أوروبا، وتمكنوا من إخراج اليهود من العمل في هذا المجال الخطير والذي يدر قدراً ضخما من الأرباح».

وكـان الـوضع في سـالـونيكـا مختلفـا عن سـائر المدن التركيـة، حيث شجعت السلطات يهود المدينة، خاصة في نهايات القرن التاسع عشر على تطوير نظم البنوك، وشاركت بعض العـائلات اليهوديـة الثرية هنـاك في تأسيس بعض البنوك الحكـومية والخاصـة، وكان من بين هـذه العائلات عـائلتـا الأطليني ومزراحي، وكـان معظم المشتغلين في هذه البنوك من اليهود.

الأنشطة البحرية

عمل اليهود طيلة الفترة الممتدة من القـرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر في المهن التي يرتبط وجودهـا بالبحر، فعملوا في مجالات الصيد وبنـاء السفن وخدمة الموانىء. ومن الملاحظ أنه كلما كـانت تتدهـور أنشطة اليهود التجـارية والماليـة كان يتزايـد عدد العاملين منهم في هذا المجـال. وقد تجلى هذا الأمـر خاصة في سالـونيكا التي هـاجر إليهـا كثيرون من عمال الغزل والنسيج، بعـد أن تدهـورت أوضاع هـذه الصناعـة، واشتغل هؤلاء العمال بعـد هجرتهم إلى سالـونيكا في مجالي خـدمة الموانىء والصيـد. وكان هـؤلاء العمال تجمعهم طائفـة الصيـادين، وكانـوا من أشد طبقـات المجتمع اليهود فقراً، وقـد أسس هؤلاء معبداً في القرن الثـامن عشر أطلقوا عليه اسم «معبد الصيادين».

وقد هاجـر بعض هؤلاء العمال إلى فلسطين إبان الانتـداب البريطاني، وأرسوا بها أسس العمل بالموانىء، وأسسوا بها شركـات متخصصة في نقل البضائع من الموانىء إلى غيرها من المدن.

وكانت تـوجد في القسطنطينية إبان القـرن التاسع عشر روابط خاصـة بأصحاب القوارب اليهودية التي كانت تحمل البضائع والأفراد على نهر البوسفور.

التجارة الدولية

عمل اليهود لفترة طويلة في مجال التجـارة الخارجية كوسطاء وكعمال في الموانىء، ولكن أنشطتهم في هـذا المجال تقلصت إبـان القرن الثـامن عشر. ومع حلول القـرن التـاسع عشر أصبحت التجـارة الخارجيـة خـاضعـة لسيطـرة القنصليـات الأجنبيـة ومندوبيهـا والشركات الأجنبيـة التي حرصت على تشغيل المسيحيين، ومع هـذا ظل اليهود يعملون في بعض المجالات التجاريـة، فاستمر يهود القسطنطينية، على سبيل المثال، وحتى القـرن التاسع عشر في العمل في مجال تجارة التـوابل، أما في سالـونيكا فقد نجح اليهود في العمل بشكل نشيط في مجال التجارة الخارجية، واشتغل يهود هذه المدينـة في استيراد البن والسكر من الخارج، ولـذلك كـانت لهم مخازن خاصـة بهم.

وجدير بالذكر أنه كان ليهود فيينا أكبر الأثر في تشجيع يهود سالونيكا على العمل بالتجارة، إذ كانوا يمولون عمليات الاستيراد بفائدة أقل من نظيرتها بتركيا.

وكان التبغ من أهم الصادرات في هذا الوقت، حيث كان التبغ الذي يزرع آنذاك في حقول مقدونيا واحداً من أفضل أنواع التبغ، ورغم أن زراعته كانت تعد حديثة نسبياً في تركيا واليونان، حيث إنها بدأت في القرن التاسع عشر، إلا أنه سرعان ما أصبح من أهم الصادرات التركية. واشتغل أثرياء اليهود بكثرة في هذا المجال فأسست عائلة الاطيني على سبيل المثال مصانع في تركيا ومقدونيا لتصنيع التبغ، وعملت أعداد كبيرة من يهود سالونيكا في هذه المصانع. وكانت تركيا تصدر ما تنتجه من تبغ إلى أوروبا وأمريكا، وساعد اليونانيون واليهود الذين هاجروا إلى هناك على ترويج منتجات بلدانهم من التبغ. أما في بدايات القرن العشرين فقد انتقلت ملكية هذه المصانع من اليهود إلى اليونانيين.

واشتغل يهود تركيا بالتجارة أيضا مع الدول العربية وخاصة مع العراق، ولكن الأتراك والعرب نجحوا تدريجيا في السيطرة على مجال التجارة الخارجية، كما اشتغل بعض يهود تركيا في تجارة الأفيون غير الشرعية خاصة في الأناضول، ولكن كانت للأرمن اليد العليا في هذه التجارة.

وكانت بلدان البلقان تعد حتى القرن التاسع عشر من أهم المنافذ، وكان يهود سالونيكا وسائر الطوائف الأخرى من أبرز المشتغلين فيها، ويروي أحد الرحالة أن ستين يهوديا عملوا في أحد منافذ التوزيع هذه، وأنهم كانوا يمولون الأنشطة التجارية بين تركيا وبلدان البلقان، ولكن تضاءلت أهمية هذه المنافذ في نهايات القرن التاسع عشر بعد أن تأسست في هذا الحين خطوط السكك الحديدية، وخطوط التلغراف بين تركيا وبين هذه البلدان.

التجارة الداخلية

عملت أعداد كبيرة من اليهود في هذا المجال، فاشتغل يهود أزمير، على سبيل المثال، في الوساطة بين المزارعين في الأناضول وبين تجار المدينة، كما عمل البعض الآخر منهم باعة جائلين في المدن التركية، واشتغل البعض منهم باعة جائلين في الضواحي والقرى

بتركيا. وقد ذكرت إحدى الصحف اليهودية الصادرة في ألمانيا في عام ١٩٢١، في تقرير لها عن يهود القسطنطينية أن قلة قليلة من يهود القسطنطينية تنتمي إلى الطبقة الثرية، وأن أغلبيتهم ينتمون إلى طبقة البروليتاريا، ويعملون إما ماسحين للأحذية أو باعة جائلين، وأن قلة منهم تمتلك محلات للملابس والأوراق والخردوات، وأن البعض منهم يشتغل بتجارة التوابل والأشياء القديمة، وأضافت الصحيفة أن المسيحيين يسيطرون سيطرة شبه مطلقة على مجالي التجارة العالمية والأموال.

الروابط

شهدت نهايات القرن التاسع عشر فصل روابط العمال التركية عن بعضها البعض حيث كانت تضم حتى هذا الحين أبناء الطوائف الدينية المختلفة، وكانت هذه الروابط قد تزايدت قوتها إبان القرن التاسع عشر، كما تزايدت قوتها في نفس الوقت في المجتمع اليهودي، وأصبحت منذ ذلك الحين تمثل أبناء الطبقات الفقيرة، كما حظي رؤساء طوائف الحرفيين في أزمير، وبعد صراع طويل، بحق التمثيل في الأوساط القيادية بالمدينة، وعملوا طويلا من أجل تحسين نظام الضرائب في الطائفة.

ولم تعد الطوائف اليهودية في تركيا إبان القرن التاسع عشر مجرد روابط مهنية وإنما أصبحت روابط اجتماعية شبيهة بتلك الروابط اليهودية بشرق أوروبا، فأسست هذه الطوائف معابد ومدارس ومؤسسات خيرية يهودية عديدة في المجتمع اليهودي الذي كانت تتزايد فيه آنذاك حدة الصراعات الطبقية والاجتماعية, والجدير بالذكر أنه كلما كان يتزايد حجم الضرر اللاحق بالروابط التركية نتيجة لسياسة الإصلاحات التي انتهجتها الإمبراطورية العثمانية إبان فترة التنظيمات كانت تتزايد في المقابل قوة الروابط اليهودية في أوساط المجتمع اليهودي.

وعند بحث الأنشطة الرئيسية التي اشتغل بها اليهود نجد أنهم عملوا حتى القرن التاسع عشر في كافة فروع صناعة الغزل والنسيج، وكما اشتغلوا أيضا في الأنشطة البحرية أكثر من اشتغالهم بالصرافة أو في تجارة العطور. وقد برز في مجال التجارة المشتغلون بتجارة النبيذ والفواكه والخردوات، ونجح يهود تركيا في الاشتغال في مهن عديدة ومتنوعة، حيث إن تركيا لم تفرض أي قيود على أنشطة رعايا الدولة.

وقدم أ. فرانكل في كتـابه «إلى القدس» ـ الذي سبقت الاشارة إليـه ـ وصفا دقيقا للمهن التي اشتغل بها اليهـود في القسطنطينيـة حتى منتصف القـرن التـاسع عشر، ويتضح من الأوصاف التي قـدمها أن اليهود اشتغلوا في العـديد من المهن, ويتضح من تقريـر هيئة «الإليانس» الذي يـرجع تاريخه إلى نهايات القرن التـاسع عشر، أنه لم يطـرأ في هـذه الفترة أي تغيير يـذكر على أنشطـة اليهـود، كما يتضح منـه أن اليهـود استمروا حتى ذلك الحين في العمـل كباعة جـائلين أو كماسحي أحذيـة أو كحاملين للمياه، وعمل العـديد منهم كأصحاب بقالات، وفي ورش إصـلاح السيارات، وفي إصلاح الساعـات والأحذية، وفي تجارة الجلود والملابس والكتب. وكـانت هذه هي المهن الرئيسية ليهود تركيا إبان القرن التاسع عشر.

سوريا وفلسطين

كان الإقليم السوري (الذي كان يشمل فلسطين) حتى القرن التاسع عشر يعيش في حـالة لا مثيل لها من التخلف الاقتصـادي، وتجلت مظاهـر هذا الأمـر في تخلف قطاعي الزراعة والصناعة، وفي تضاؤل أهمية هذا الإقليم الذي كان يعد بمنزلة نقطة عبور إلى سائر بلدان المنطقة, وكان من بين عوامل توقف حركة التنمية الاقتصادية في هذا الإقليـم أنه خضع لسيطـرة بعض الجهات المحلية وانفصـل انفصالا كامـلا عن السلطة المركزية العثمانية.

وفي عهد محمد علي، أي إبان عقد الثلاثينيات طرأ تحس ملموس على كل من الوضع الأمني والاقتصـادي في سوريا وفلسطين، واستمـرت حركة التطـور هذه إبان فترة التنظيمات، ولكن معدل حـركة الإصلاح آنذاك كان بطيئـا إلى حد ما. وكان مـن بين مظاهر التطـور أنه تأسست في هـذه المنطقة في النصف الثـاني من القرن التاسع عشر أسس الخدمـات البريدية والتلغرافيـة، وتحسنت آنذاك طرق المواصـلات البريـة، والخدمـات الصحية، ولكن لم يطـرأ آنـذاك أي تقـدم على قطاعـي الزراعـة والصناعة، كما شهـدت هذه الفترة تـزايد حجم الـواردات من البلدان الأوروبيـة مما أدى إلى حـدوث تطور ملمـوس على كل من بيروت ويـافا اللتين كانتا آنذاك من أهم المدن الساحلية.

وقد استفادت القوى العظمى ورعاياها آنذاك من حركة التطور الاقتصادي فاشتغل رعايا هذه القوى في حركة التجارة الخارجية، وكان الإقليم السوري يستورد الأقمشة والمعادن والأطعمة من الخارج، وكان يصدر في المقابل المواد الخام مثل القطن والتبغ. ومع تزايد حجم الواردات من الخارج تدهورت حركة الصناعة المحلية التي كانت تعيش في حالة من التخلف والركود. وكان من بين مظاهر التدهور انخفاض عدد المشتغلين في صناعة النسيج بشكل ملحوظ، مما أدى إلى ظهور طبقة البروليتاريا الفقيرة في المدن، وإلى تزايد حدة التوتر بين المسلمين والمسيحيين. وقد ألحق نظام الضرائب العثماني الذي فرض على هذا الإقليم ضرراً بالغاً بالطبقتين المتوسطة والفقيرة، وزاد من حدة أزمتها الاجتماعية، فظهرت بالتالي فجوة اجتماعية ضخمة بين السكان العرب وبين السكان الأتراك. وفي نهايات القرن التاسع عشر تضاءلت أهمية سوريا الاقتصادية، خاصة بعد أن تم افتتاح قناة السويس، ومن هنا فلا غرابة في أن كل مثل هذه الظروف أدت إلى تدهور الوضع في الإقليم السوري.

أما عن يهود هذا الإقليم فقد تولى الأثرياء منهم حتى بدايات القرن التاسع عشر مكانتين اقتصادية وسياسية بارزتين في أوساط الدوائر الحاكمة في دمشق وحلب وعكا، وكانت عائلة فرحي اليهودية واحدة من أبرز العائلاة اليهودية التي اشتغلت في هذا الحين بالصرافة. واشتغل اليهود آنذاك بجباية الضرائب وتقديم القروض، واهتموا كثيرا بالعمل لمصلحة يهود المنطقة. ولكن أوضاع اليهود الاقتصادية بسوريا تدهورت بعد أن شهدت المنطقة العديد من التغيرات المهمة في عهد محمد علي، وبعد أن تم في عام ١٨٤٠ تغيير النظام الضريبي، ومع هذا فقد شهد القرن التاسع عشر تحسنا في أوضاع اليهود من ذوي الأصل الإيطالي الذين برز منهم في حلب أبناء عائلة بيجوتو الذين خدموا القنصلية النمساوية في المدينة، وعملوا أيضا بالتجارة الخارجية، وقدموا في أحيان كثيرة المساعدة إلى يهود سوريا وفلسطين، خاصة في كل ما له علاقة بأوضاعهم القانونية والاقتصادية.

وقد شغل المسيحيون على غرار ما كان على الوضع عليه في تركيا، مناصب مهمة في حياة الدولة الاقتصادية، فكانت لهم اليد العليا في كل المجالات المتعلقة بالأموال والتجارة الدولية، وعملت أعداد محدودة من اليهود في مجال التجارة مع العراق تحت إشراف القنصليات الأجنبية، وخاصة القنصلية الإنجليزية، وكان للبنوك الحديثة

التي أُنشئت في سوريا تأثير سلبي في اليهود الذين كانوا يسيطرون حتى العصر الحديث على مجال المعاملات المالية .

ومن الملاحظ أنه قد سادت فروق ضخمة بين الأنظمة الاقتصادية ليهود دمشق وبين نظيرتها لدى يهود حلب . فبينما عمل معظم يهود حلب بالتجارة فإن يهود دمشق عملوا في المهن اليدوية ، وكان في حلب بعض الأثرياء من اليهود ممن يعملون بالصرافة ، وكانت غالبية يهود حلب تنتمي إلى الطبقة المتوسطة من التجار والوسطاء في المجالات التجارية المختلفة ، ومن الواضح أنه لم يطرأ أي تغيير على أنشطتهم طيلة الفترة الممتدة من القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين ، كما عملت أعداد كبيرة منهم بالتجارة في القرى والضواحي التابعة لمدينة حلب ، ولكنهم كانوا من الفقراء . أما عن دمشق فقد اشتغل معظم سكانها من اليهود في صباغة الأقمشة والحدادة وفي مجال المنسوجات وبيع الكتب والخياطة ، وبرز يهود دمشق ، بصفة خاصة في مجال صناعة الأدوات النحاسية ، وهو المجال الذي ضم المئات من العمال اليهود . وقد شهد القرن العشرون تدهورا ملحوظا في هذا المجال ، خاصة أن نوعية الصادرات من الخارج كانت أفضل من المنتجات المحلية ، وحينما نشبت الحرب العالمية الأولى كان ٤٠٪ من يهود دمشق يعملون كباعة جائلين ، واشتغل ٢٠٪ منهم عمالا ، خاصة في مجال صناعة الأدوات النحاسية ، واشتغل ٧٥٪ منهم بالتجارة ، وكان ١٠٪ منهم من الفنانين والمعلمين ، وعاش ١٥٪ منهم على التبرعات .

وكان معظم يهود بيروت التي تطورت بشكل ملموس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يعملون بالتجارة أو في المعاملات المالية ، ونجح يهود بيروت في الاندماج في حياة الدولة الاقتصادية . أما عن يهود المدن الأخرى بشمال سوريا وجنوب تركيا فقد عملوا في تجارة النسيج الذي كان يستورد من حلب ، وعملوا أيضا في الصناعات الصغيرة مثل صناعة الصابون . وكان بعض يهود هذه المنطقة من الأثرياء الذين عملوا بالوساطة بين الفلاحين أصحاب الأراضي والمواشي وبين تجار المدينة ، وكان هؤلاء الفلاحون يعملون في بعض الأحيان أجراء لدى هؤلاء الوسطاء .

وشهدت بدايات القرن العشرين تدهورا واضحا في أوضاع اليهود الاقتصادية بسوريا ، لاسيما أن إغلاق الحدود مع تركيا في أعقاب الحرب العالمية أضر كثيرا

بـالأوضـاع الاقتصـاديـة بحلب، وقـد تزايـد التـدهـور الـذي طـرأ على أوضـاعهم الاقتصادية بعد أن تزايدت حدة الصراع اليهودي العربي.

وقـد رسم الباحث والأديب إبـراهيم المالح الذي اشتغل في بـدايات القـرن العشرين مديرا للمدرسـة العبرية في حلب صورة كئيبة للوضعين الاقتصادي والثقـافي اللذين سادا في أوساط يهود دمشق عشية الحرب العالمية الأولى. فقد جـاء في أحد خطاباته «أن معظم يهود حلب فقراء للغـاية، وأن معظمهم يشتغلون في إنتاج الأدوات النحـاسية والخشبية، وأن بعضهم الآخر يشتغل في مجال المنسوجات وصباغة الأقمشة».

أما عن الـوضع الذي ساد في أوساط يهود فلسطين آنذاك فقـد كان أفضل بكثير من نظيره في سـوريا، إذ جذبـت فلسطين آنذاك الأوروبيين واليهـود من كافـة أنحاء العـالم، وساهمت أنشطتهم الاقتصـادية، بـلاشك، خاصـة منذ عقـد الثلاثينيـات بـالقرن التـاسع عشر، في تطور الأوضـاع الاقتصاديـة بفلسطين، كما ساهمت أمـوال الشخصيـات اليهوديـة الثـرية بأوروبـا مثل مـوشيـه مونتيفيـوري وعـائلة روتشيلـد والأخوين بريره ودي بيجوتو وغيرهم في الارتقاء بالأوضاع الاقتصادية في فلسطين كما ساهم يهود أوروبا وتـركيا وشمال أفريقيا الذين كانـوا قد هاجروا إلى فلسطين في مسيرة التطوير هذه أيضا فعمل الكثيرون منهم في الثلاثينيات بالصناعة والزراعة.

ومجمل القول أن التـاريخ الاقتصادي للدولـة العثمانية إبان القـرن التاسع عشر اتسم بظاهرتين رئيسيتين، تمثلت الظاهرة الأولى في ركود الوضع الاقتصادي بالداخل، وتدهور حجم التجـارة الخارجية مع الـدول الأوروبية، وتمثلت الظـاهـرة الثانيـة في تحسن مكانـة المسيحيين في الحياة الاقتصادية بالدولة، خاصة بعد أن عملوا تحت رعاية القوى الأوروبية التي كانت قد نجحت آنذاك، في التسلل إلى أراضي الدولة العثمانية.

وقـد ألحقت هـاتـان الظـاهـرتان أضراراً ضخمـة بأوضـاع اليهـود الاقتصـاديـة فأصبحت أنشطتهم التجارية محدودة للغـاية كما تحول البعض منهم إلى أجراء فقراء، وذلك بـاستثناء يهود سـالـونيكا من هـذا الـوضع، حيث شهـدت في نهايات القـرن التاسع عشر حالـة لا مثيل لها من الازدهار الاقتصادي، مما سـاهـم في تحسن أوضاع الطـائفة اليهـودية بها. أمـا فلسطين فقـد شهدت إبـان القرن التـاسع عشر تحولات اقتصادية ضخمة ساهمت في تحسن الأوضاع الاقتصادية لليهود.

الفصل الثالث

أوضاع اليهود القانونية والاجتماعية

كانت أوضاع اليهود القانونية والاجتماعية بالدولة العثمانية طيلة الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر مستقرة للغاية، ولم تطرأ عليها أي تغييرات تذكر. وقد عاش اليهود طيلة هذه الفترة بما يتماشى مع قوانين الإسلام التقليدية، ومع المصالح التقليدية العملية للحكام الذين لم يطبقوا دائما كل نصوص الشريعة الإسلامية على اليهود، ولذلك فقد نعم اليهود من الناحية الاجتماعية طيلة هذه الفترة بحرية التنقل من مدينة إلى أخرى، وباستقرار علاقاتهم مع المجتمع المحيط، ومع هذا كانت هناك بعض الاستثناءات لهذه القاعدة حيث لم يسمح لليهود في بعض الأحيان بحق التنقل بين المدن.

وفيما يتعلق بأوضاعهم إبان القرنين التاسع عشر والعشرين فقد طرأت عليها تغييرات كثيرة للدرجة التي يصعب معها رسم صورة واضحة المعالم لأوضاعهم خلال هذه الفترة، ويكمن وجه الصعوبة في أن هذه الفترة شهدت تغييرات سياسية بالغة الأهمية في تاريخ الدولة العثمانية، وسنسعى في إطار هذا الفصل للتعرف على أهم هذه التغييرات.

السنوات (١٨٠٠-١٨٣٠):

كانت نهايات القرن الثامن عشر تعد بمنزلة نقطة تحول مهمة في تاريخ علاقات الدولة العثمانية بالأقليات غير المسلمة، فشهدت هذه الفترة نشوب التمرد القومي اليوناني الذي حظي في هذا الحين بمساعدة ضخمة من قبل روسيا والقوى الأوروبية الغربية، كما قامت بعد هذا التمرد الثورة اليونانية التي أدت إلى حصول اليونان في عام ١٨٣٢ على استقلال بعض أراضيه التاريخية، وفيما يتعلق باليهود فقد فرت أعداد كبيرة منهم إبان

حرب الاستقلال اليونـانية من الأراضي التي احتلها اليونانيون إلى سـالونيكا تحت السيطرة العثمانيـة وإلى تركيـا حيث فضلـوا العيش تحت الحكم العثماني. أمـا الأرمن الـذين كانـوا يشكلون ثاني جماعة مسيحية من ناحية الأهمية بعـد اليونانيين فقد ظهرت في أوساطهم منذ بدايات القرن التاسع عشر أولى بوادر الحركة القوميـة، أما يهود الدولة العثمانية فقد عاشوا طيلة هذه الفترة وحتى بدايات القـرن العشرين كطائفة دينية فقط، ولم تكن لهم آنذاك أي تطلعات قـومية أو سياسية. وقـد تعاملت السلطة العثمانية بتشكك أحيـانا، وبعنف في بعض الأحيـان، ضد الأقليـات المسيحية التي شـاعت في أوسـاطهم الأفكار والحركـات القوميـة، ولكنها تبنت في المقابل، موقفـا طيبا من اليهود الذين لم يشكلـوا أي تهديد على الدولة العثمانية. وقـد عانى يهود الدولة آنذاك من اضطهاد المسيحيين الـذين كانوا يحظون بدعم وتأييـد القوى الأوروبيـة، وعانوا أيضـا من الضغوط الاقتصاديـة ومشاعـر العداء اليهودية التي كانت سائدة في أوساط المسيحيين.

وكان من بين التحولات التي شهدتها الـدولة العثمانية منذ هذا الحين أنها فصلت في القرن الثامن عشر روابط الصناع عن بعضها البعض، حيث إن بعضها كان يضم أبناء الطوائف الدينية المختلفة. وقد فرضت السلطات في بدايات القرن التاسع عشر قيودا عديـدة على حرية العبادات فوجـد اليهود آنذاك صعوبات عـديدة في الحصول على التراخيص اللازمة لإصلاح المعـابد التي احترقت في أزمير في عام ١٧٧٢، ولكن السلطات العثمانية سمحت لليهـود بعد مضي فترة طويلة بإعادة تشييد ثـلاثة معابد من بين المعابد التسعة التي كانت قد تعرضت للحريق.

وجدير بالذكر أن كل هذه التحـولات حدثت إبان الفترة التي تولى فيها السلطان محمود الثاني مقاليد الحكم في تركيا، والذي حدثت في عهده العديد من الإصلاحات الإدارية بـالدولـة، وكان من أبـرز أنشطته أنـه أصدر مـرسوما منـح كل الرعايـا حق المساواة في الحقوق والواجبات. ولكنه لم يتخذ أي إجراءات عملية في هذا المجال.

فترة التنظيمات (١٨٣٩-١٨٧٦)

ساهمت العديد من العوامل الخارجية والـداخلية في تغيير وإصلاح موقف الدولة العثمانية تجاه وضع غير المسلمين، وتعرف هذه الإصلاحات في التاريخ العثماني باسم

التنظيمات، وكان من بين العوامل الخارجية التي أدت إلى حدوث هذه التغييرات: نشوب الثورة اليونانية، وفقدان الدولة لبعض أراضيها، وتمرد محمد علي على الدولة، وتزايد تدخل القوى الأوروبية آنذاك في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية. أما العوامل الداخلية فتمثلت في أنه ظهرت آنذاك في أوساط الجيش والسلطة العديد من الشخصيات التي طالبت بتعديل الحكم والإدارة والجيش.

ويختلف دارسو التاريخ العثماني حول أي العوامل كانت أكثر قوة في إحداث الإصلاحات، ولكن من المرجح أن الأوضاع المتدهورة للدولة العثمانية على الساحة الخارجية هي التي تسببت، أكثر من العوامل الداخلية، في إحداث هذه التغييرات.

وقد مرت سياسة الإصلاحات هذه بعدة مراحل، فقد شهد عقد الثلاثينيات الذي أعقب التمرد اليوناني وفتوحات محمد علي إدخال بعض التعديلات على أوضاع الطوائف غير المسلمة، ولاشك في أن السياسة الليبرالية التي انتهجها محمد علي في الأقاليم التي خضعت لسيطرته أثرت في أوضاع اليهود في سائر بلدان الدولة العثمانية. وكان محمد علي يحرص كما هو معروف على انتهاج سياسة ليبرالية بغرض أن يحظى بتأييد السكان والقوى العظمى التي كانت توفر الحماية لسكان الدولة من غير المسلمين، كما كان حريصاً على التقرب من قادة الجماعات المختلفة المعارضة للسلطة العثمانية. وكان من أهم منجزات محمد علي تقويضه صلاحيات رجال الدين ونقلها إلى المؤسسات المدنية، وإشراكه مندوبين عن الطوائف غير المسلمة بمن فيها الطائفة اليهودية في المؤسسات المدنية التي أقامها، وإلغاؤه الضرائب المفروضة على اليهود والمسيحيين، والقانون الذي حظر عليهم استخدام الخيول، وألزمهم بارتداء ملابس خاصة تميزهم عن غيرهم، وموافقته على تشييد وإصلاح دور العبادة الخاصة بهم، وإضفاؤه طابعا ليبراليا على مسألة حق الأجانب غير المسلمين في شراء الأراضي وسماحه لغير المسلمين بالإدلاء بشهادتهم أمام المحاكم في القضايا المرفوعة ضد المسلمين.

وقد شكلت كل هذه الإجراءات نقطة تحول في تاريخ الدولة الإسلامية تجاه غير المسلمين، وأثرت أيضا في التطورات اللاحقة بالدولة العثمانية. وقد شعر اليهود بطبيعة الحال بكل هذه التحولات، حيث ذكر الحاخام يوسف فارتس عالم الجغرافيا

الشهير الذي هاجر آنذاك من ألمانيا: «أن الوضع السائد في هذه الفترة طيب للغاية وينعم اليهود المقيمون في فلسطين بالهدوء والاستقرار».

وشهدت الثلاثينيات تحولا ضخما في أوضاع اليهود القانونية في القسطنطينية حيث عينت السلطات في عام ١٨٣٨ الحاخام افراهام هاليفي من القسطنطينية رئيسا لكل يهود الدولة العثمانية. وقد صدر هذا القرار قبل صدور قانون الإصلاح الأول في عام ١٨٣٩ والذي يعرف باسم «خطي شريف». وقد بدأ الأتراك منذ هذه الفترة في إعادة تنظيم الطوائف غير المسلمة. وبالرغم من أنه كانت توجد بالدولة قبل القرن التاسع عشر مؤسسة خاصة ببحث أوضاع غير المسلمين، إلا أن هذه المؤسسة لم تكسب طابعا رسمياً إلا منذ تلك الفترة. ويفيد أحد المصادر التركية أن فرمان تعيين رئيس للحاخامات في عام ١٨٣٥ صدر بناء على طلب اليهود، وهذا حتى يشعروا بالمساواة مع المسيحيين. وكما يبدو فإن سياسة الإصلاحات هذه كانت موجهة في المقام الأول إلى المسيحيين الذين رأت الدولة أنه من الضروري تحسين أوضاعهم. وأما اليهود فلم تتحسن أوضاعهم إلا بعد أن تحسنت أوضاع أبناء الأقليات المسيحية، وكان من الواضح أن اليهود لم يشكلوا أي مشكلة خاصة للدولة العثمانية.

وصدرت في عام ١٨٣٩ «خطي شريف»، وبدأت منذ هذا الحين وبشكل رسمي فترة التنظيمات، ولم تهدف السياسة العثمانية آنذاك إلى تحسين أوضاع غير المسلمين، ومنحهم المساواة في الحقوق مع المسلمين فحسب، وإنما كانت تهدف أيضا إلى تمكين السلطة من الإشراف على أوضاع الأقليات، خاصة أن السلطات كانت تنظر دائما بعين الحذر إلى المسيحيين الذين كانوا يتمتعون بتأييد القوى العظمى. وكانت الدولة ترى أن هذه الأقليات تعد من عوامل تهديد أمنها واستقرارها. أما أوضاع اليهود فقد كانت مطابقة لوضع المسيحيين، حيث كانت السلطات تطبق عليهم نفس السياسة التي تنتهجها تجاه المسيحيين، وكانت تتدخل في أحيان كثيرة لحماية اليهود من أذى المسيحيين بالدولة.

وجدير بالذكر أن هذا الفرمان لم يصدر خصيصا من أجل الأقليات إذ إنه تضمن بنودا أخرى خاصة بإصلاح الأوضاع في الجيش والقضاء وإدارة الدولة. وقد جاء في البند الخاص بغير المسلمين: «إن رعايا سلطتنا السامية من المسلمين وغير

المسلمين سينعمون بمكارمنا الملكية دون أي تمييز. وسيصبح الجميع آمنين على أنفسهم وممتلكاتهم».

وتناولت سائر بنود المرسوم الإصلاحات الخاصة بأمن الفرد والحفاظ على ممتلكاته، والتغيرات الخاصة بقوانين الضرائب، وحق المساواة بين المجتمع في الخدمة بالجيش. وتعد كل هذه الإصلاحات، إلى حد كبير، استمرارا للسياسة التي كان محمد علي انتهجها إبان حكمه لسوريا وفلسطين من عام ١٨٣١ حتى ١٨٣٩.

وقد استمرت مسيرة التحسن في أوضاع غير المسلمين في الأربعينيات والخمسينيات من القرن التاسع عشر، وهي الفترة التي تم بها إرساء الأسس التنظيمية للطوائف. فبعد أن قامت السلطات في عام ١٨٣٥ بتعيين حاخام من القسطنطينية في منصب كبير حاخامات الدولة، فإنها قامت بسلسلة أخرى من التعيينات، فعينت حاخاما في كل مدينة من الدولة المهمة، والتي كان منها آنذاك أزمير وأدرنة وسالونيكا ودمشق والقدس وبغداد والقاهرة. وكان هؤلاء الحاخامات يتبعون كبير الحاخامات في القسطنطينية الذي أصبح منذ هذا الحين رئيسا لكل يهود الدولة.

وكان وجه الحداثة في كل هذه الإجراءات يكمن في أنه لم تكن توجد حتى ذلك الحين أية رابطة قانونية بين كل الطوائف اليهودية في الدولة التي لم تكن لها أي قيادة مركزية (مع استثناء فترة احتلال العثمانيين للقسطنطينية في عام ١٤٥٣م). ويجمع الباحثون على أنه لم يكن للطوائف اليهودية، بدءا من القرن السادس عشر وحتى فترة التنظيم، أي إطار مشترك يجمع بينها سواء بموجب قرار من السلطة أو بموجب القيادة اليهودية الداخلية. أما وضع الطوائف المسيحية فقد كان مختلفا حيث كانت للكنائس المسيحية قيادة مركزية في القسطنطينية، ولم تحدث السلطات أي تغييرات على أوضاعها بل اعترفت بها بشكل رسمي إبان القرن التاسع عشر. وقد تمت المساواة بين أوضاع المسيحيين واليهود بالدولة بموجب سياسة التنظيمات، وأصدرت السلطات قرارا بمساواة اليهود بالمسيحيين، لأن اليهود كانوا يرغبون في التشبه بالمسيحيين الذين كانوا يحظون آنذاك بتأييد القوى الأوروبية. وقد شعر اليهود أن حصولهم على حق المساواة مع المسيحيين سيؤدي إلى تحسين أوضاعهم بالدولة العثمانية. والجدير بالذكر أن اعتراف السلطة في منتصف القرن التاسع عشر بوجود

قيادة مركزية ليهود الدولة لم يؤدّ إلى ظهور هيراركية (سلطة دينية) يهودية في الحال، وإنما أضر، في المقابل، بالحكم الذاتي الذي كان يتمتع به اليهود حتى ذلك الحين. والجدير بالذكر أن قوانين انتخاب كبير الحاخامات وقيادة الطوائف اليهودية لم تدخل دائما إلى حيز التنفيذ، كما لم تحرص السلطة دائما على تنفيذها.

وقد شاعت في الأربعينيات ظاهرة استغلال الامتيازات الأجنبية في كافة مدن الدولة العثمانية، وأدت الحماية التي قدمتها القنصليات الأجنبية لرعاياها إبان القرن التاسع عشر إلى تزايد قوة الامتيازات وإلى ظهور مجموعة من الأفراد حظيت بوضع أفضل من النواحي القانونية والاجتماعية والثقافية، واستفادت أعداد كبيرة بحماية القنصلية الإيطالية، خاصة أن معظمهم كانوا من التجار اليهود بإيطاليا، وفي فلسطين ساعدت الامتيازات الأجنبية على تزايد قوة المستوطنين اليهود الأشكناز.

وقد تحسنت العلاقة في مرحلة لاحقة بين السلطة العثمانية والطائفة اليهودية، وتجلت مظاهر هذا التحسن في إصدار السلطات العثمانية لفرمان أدان الحادثة التي تعرض لها يهود دمشق في عام ١٨٤٠. وقد نص هذا الفرمان صراحة على أن اليهود من رعايا الدولة العثمانية، وأنهم ينعمون بكافة الحقوق التي ينعم بها الآخرون بموجب دستور ١٨٣٩، وقد ورد في الفرمان: «ليس من الممكن أن نسمح باضطهاد وتعذيب الشعب اليهودي (الذي اتضحت براءته) ولذلك سينعم اليهود بموجب «خطي شريف» (مرسوم الشريف) بكل الحقوق الممنوحة للشعوب الخاضعة لسيطرتنا»، وأكد رئيس الوزراء العثماني خلال الأعوام ١٨٣٤ و١٨٤٦ أن السلطة مازالت تتعهد بالحفاظ على حقوق اليهود، وأصدرت السلطة في عام ١٨٥٤ بيانا بمناسبة زيارة مندوب عائلة روتشيلد للسلطان ورد فيه أن السلطة العثمانية تحافظ على حقوق اليهود.

ووصلت سياسة الإصلاحات إلى أوج قوتها في عام ١٨٥٦ الذي شهد صدور دستور الإصلاحات الذي يعرف باسم «خطي همايون» (مرسوم سلطان)، الذي صدر بعد انتهاء حرب القرم التي وقفت خلالها القوى الأوروبية بجانب تركيا في حربها ضد روسيا.

وقد أملت هذه القوى، في الواقع، مضمون هذا الدستور الذي حدد وضع غير المسلمين بالدولة، وكان هذا الدستور بمنزلة استمرار لسياسة الإصلاحات التي

بدأت في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وجـاء في مقدمة الدستور: «إن الفرمان يحافظ على أرواح وممتلكات كل الرعايا وأبنـاء كل الديانات دون أي تمييز فيما بينهم، وأنه من الضروري اتخاذ الإجراءات الـلازمة لتنفيذ بنود الفرمـان». وتضمن الدستور بشكل مفصل حقوق الأقليات الدينية، وحقهـم في التمثيل بمؤسسات الدولة، كما أقر أنه يتعين على كل طائفة أن تقيم مجلسـا خاصا بها يتولى إدارة شؤونها، وأن يخضع هذا المجلس لإشراف الحكـومة، ومنح هذا الـدستور الصلاحيـات اللازمة لـرؤساء الطوائف، سواء كان هذا الرئيس بطريركا أو حاخاما، وكان هذا الرئيس يعين كما هو معروف من قبل السلطة، كما جـاء بالدستور أن ممتلكات أبنـاء الأقليات لن تتعرض إلى أي ضرر، وأنه سيتم السماح لهم بإصلاح المعابد والكنائس والمدارس والمستشفيات والمقـابر وغيرهـا، وأنه ستمحى من كل الوثائــق الرسميـة للدولـــة أي إشـــارات تنطوي على أي تمييز ضـد الأقليات، وأنه سيحق لأبناء الأقليـات العمل في الأجهزة الحكومية بما يتماشى مع مـؤهلاتهم، والالتحاق بالمدارس الحكومية سـواء العسكرية منها أو المدنيـة، وأنه سيحق لكل طائفة تـأسيس مدارس خاصة بها، وأن الحكـومة ستكتفي بالإشراف على مضمون المناهج التعليمية في هذه المدارس. وأقر الدستور أن المحاكم المختلطة ستُكلف بمهمة بحث القضايا التجارية أو الجنائية الخاصة بالنزاع بين أبناء الطوائف الـدينية المختلفة، أما القضـايا الخاصة بكل طائفـة على حدة فقد أقر الفرمان أن محاكم كل طائفة ستكلف ببحثها.

وكان من أهم بنود هذا الفرمان، البند الذي تم بموجبه إلغاء ضريبة الجزية التي كان يتعين على غير المسلمين تسديدها للدولة، وكانت هذه الضريبة من أبرز مظاهر التفـرقـة بين المسلمين وبين غير المسلمين. ومع هـذا، فبالـرغم من أن إلغـاء هـذه الضريبة كان يوحي بأن الدولة تحرص على منح المساواة في الحقوق لكل رعاياها، فإن السلطات فـرضت على غير المسلمين ضريبة «بدل العسكـرية» التي كـان يتم دفعها من أجل الإعفـاء من الخدمة العسكـرية بالجيـش العثماني، وكانت هـذه الضريبة في واقع الأمر شديدة الشبه بضريبة الجزية التي كانت قد ألغت.

والجدير بـالذكر أن دستور عام ١٨٥٦ لم يتضمن أي ذكر صريح لليهود، ولكنه تضمن في المقابل ذكرا صريحا للمسيحيين، ويدل هذا الأمر على أن هذه الإصلاحات

كانت موجهة في المقام الأول إلى المسيحيين، ويدل أيضا على أن اليهود الذين كانو يشكلون أقلية غير مهمة بالدولة لم يشغلوا مكانة بارزة في فكر الدولة عند صياغتها لبنود الإصلاحات.

ومازالت هناك العديد من القضايا والتساؤلات المهمة التي لم يجد الباحثون لها حتى يومنا هذا حلاً، ومن بين هذه القضايا: إلى أي مدى تم تنفيذ هذه الإصلاحات، وفي أي أجزاء من الدولة تم تنفيذ الإصلاحات؟

وعلى كل حال فمن الواضح أن ضريبة «بدل العسكرية» فُرضت في كافة أنحاء الدولة بدلا من ضريبة الجزية، وأن غير المسلمين شاركوا بشكل عام في المجالس الدينية والإقليمية، وأنه طرأ تحسن ملموس على الأوضاع القانونية لأبناء الأقليات في كل بلدان الدولة. ومع هذا فقد سادت في الأقاليم التابعة للدولة، وخاصة في سوريا، حركة معارضة قوية لسياسة الإصلاحات، حيث تزعم، على سبيل المثال، السكان العرب والمسلمون في سوريا ـ التي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية والتي نعم بها المسيحيون برعاية القنصليات الأجنبية ـ حركة المعارضة لمبدأ منح المساواة في الحقوق للمسيحيين، خاصة أن المسلمين رأوا أن منح المساواة لخصومهم يهدد مصالحهم. وفيما يتعلق بمسألة تعيين السلطات لرؤساء حاخامات اليهود في القسطنطينية أو في سائر الأقاليم بالدولة فإن قرارات التعيين هذه لم تخرج دائما إلى حيز التنفيذ، حيث إن اليهود لم ينجحوا دائما في جمع الأموال اللازمة لتنفيذ قرار تعيين رئيس لحاخامات الدولة. أما في تركيا فقد نفذت الحكومة العديد من بنود الفرمان، ولذلك فقد اشتغل المسيحيون واليهود في الأجهزة الحكومية، وبالمدارس والجيش.

وكان من أهم بنود فرمان الإصلاحات الصادر في عام ١٨٥٦ ذلك البند الذي دعا إلى إقامة مؤسسات ذات طابع أكثر حداثة وديمقراطية في أوساط الطوائف، ولذلك فقد سنت الحكومة فيها بعد العديد من القوانين الخاصة بتنظيم بنية كل طائفة، فأصدرت الحكومة في عام ١٨٦٠ قانونا خاصا بتنظيم الطائفة اليونانية، وأصدرت في عام ١٨٦٢ قانونا خاصا بتنظيم الطائفة الأرمينية، وقانونا لليهود في عام ١٨٦٥. ولم يصدر هذا القانون إلا بعد أن انتهت الدولة من إعداد كل القوانين الخاصة بالمسيحيين، وبعد أن ضغط المستنيرون من اليهود، الذين عارضوا قيادة

الحاخامات التقليدية، على الحكومة لإصدار قانون خاص بهم، وحدد هذا القانون البنية التنظيمية للطائفة اليهودية بشكل مشابه للطائفة الأرمينية أكثر من تشابه مع القانون الخاص بالطائفة اليونانية .

وتضمن هذا القانون خمسة فصول، وتناول الفصل الأول طريقة انتخاب كبير الحاخامات، وأقر نفس الفصل أن كبير حاخامات اليهود في القسطنطينية سيتولى مهام الإشراف على كل القضايا الخاصة بيهود الدولة، ونص المرسوم على أنه من الضروري أن يكون كبير الحاخامات من أبناء الجيل الثالث لرعايا الدولة، وكما هو معروف فإن السلطة العثمانية فصلت الحاخام شموئيل حاييم الذي كان الرئيس الثاني ليهود الدولة في عام ١٨٣٧ بعد أن اتضح لها أنه من رعايا النمسا، ووفقا لنفس المرسوم كان من الضروري ألا يقل عمر الرئيس عن ثلاثين عاما وألا يتجاوز سبعين عاما .

وأقر هذا الفصل أيضا طريقة انتخاب كبير الحاخامات، ودعا هذا المرسوم إلى قيام لجنة الشؤون الدينية بالطائفة باختيار خمسة مرشحين من بين كل حاخامات اليهود بالدولة، وأن تتولى اللجنة العامة المكونة من مائة وعشرين عضوا مهمة اختيار رئيس الحاخامات من بينهم، وكانت هذه اللجنة تضم ثمانين عضوا من القسطنطينية وأربعين عضوا من كافة أقاليم الدولة .

وحدد الفصل الثاني مهام رئيس الحاخامات وكان على رأسها ضرورة العمل بما يتماشى مع قوانين الدولة، ومع القرارات التي تتخذها لجان الطائفة، ولكن المرسوم منحه في نفس الوقت حق اتخاذ بعض القرارات بمفرده خاصة في القضايا العاجلة، وحق فصل وتعيين أعضاء اللجان، وحظر الدستور قيامه بتعيين أي فرد من عائلته في المناصب المهمة، وألزمه بأن يكون مكتبه في منطقة يهودية حتى يصبح بمقدور اليهود التوجه إليه دون تعرضهم إلى أي عناء، ونص الدستور على أنه يحق للجان فقط بحث الاتهامات الموجهة إليه . أما راتبه ونفقات مكتبه فقد أقر القانون أنه سيتم صرفها من صندوق الطائفة، وأوضح المرسوم أنه في حالة وفاة رئيس الحاخامات أو فصله من منصبه فإنه يحق للجان انتخاب نائبه، ولكن المرسوم أعطى للسلطة حق التصديق على تعيينه .

وتناول الفصل الرابع من هذا المرسوم اختصاصات لجنة الشؤون الدينية، وحدد أن مهام هذه اللجنة ستقتصر على الإشراف على القضايا الدينية، وأن قادتها سيكونون على اتصال دائم بحاخامات اليهود في كل المناطق.

وتناول الفصل الخامس اختصاصات لجنة الشؤون الدنيوية المكلفة ببحث القضايا التي تمس الحياة اليومية لليهود، ونص هذا الفصل على أنه من الضروري أن تكون لهذه اللجنة علاقات قوية مع السلطة، وورد في أحد بنود هذا الفصل «أنه من الضروري أن يكون أعضاء هذه اللجنة من الأشخاص الذين تثق فيهم السلطة».

وحينما صدر دستور ١٨٦٥ كانت الطائفة اليهودية تعيش تحت رعاية السلطة العثمانية، وكان شأنها شأن الطائفة المسيحية، وكان من أهم التغييرات التي أحدثها هذا الدستور في المجتمع أنه قد ضعفت مكانة الحاخامات في المجتمع اليهودي، وتزايدت قوة رؤساء الطائفة، كما كان من بين المتغيرات أيضا أن الدستور أدى إلى تزايد حجم تدخل السلطة في شؤون الطائفة مما أضر بطبيعة الحال بحق الحكم الذاتي الذي نعم به اليهود طيلة الفترة السابقة لصدور الدستور، وبمكانة القيادة اليهودية في أوساط يهود الدولة، أما عن وضع كبير الحاخامات في القسطنطينية فقد كانت السلطة العثمانية ترى أنه الرئيس الفعلي لكل يهود الدولة، وأنه يلعب دور حلقة الوصل الرئيسية بين السلطة وبين يهود الدولة، ومع هذا لم يكن لكبير الحاخامات في القسطنطينية في واقع الأمر أية صلاحيات دينية إذ إن آراءه الدينية لم تكن ملزمة لسائر اليهود.

وفي حقيقة الأمر لم يتم تنفيذ كل بنود الدستور في كافة أرجاء الدولة، وذلك باستثناء مدينة القسطنطينية من هذا الوضع. ويعتمد الباحثون في تصورهم هذا على أحد الخطابات التي بعث بها قادة الطائفة اليهودية السفاردية في القدس في عام ١٩١٤ إلى الحاخام حاييم ناحوم الذي تولى في ذلك الحين منصب كبير الحاخامات اليهود في القسطنطينية. وكان من بين ما جاء في هذا الخطاب الذي نُشر أخيرا: «كنا سنشعر بسعادة بالغة إذا ما طبقت قوانين الثالث والعشرين من شهر شوال ١٢٨١هـ (١٨٦٥م) على كل يهود الدولة العثمانية وليس فقط في القسطنطينية.

وكان من أبرز التغييرات القـانونية التي حدثت في أعقـاب صدور دستور ١٨٦٥ أن الدولة منحت رعـاياها من غير المسلمين ومن غير العثمانيين حق شراء الأراضي في الدولـة العثمانية . وفي الحقيقة كـان يحق دائما لليهود منـذ نشأة الإسلام شراء الأراضي وبيعها ، ومـع هذا فقـد بذلت بضع محاولات لتقييـد حريـة اليهود في هـذا المجال ، ولكن عهد محمـد علي شهد تحسنـاً ملموسـاً في هذا المجـال . وتفيد نتـائج الأبحاث الحديثة أن اليهـود اعتادوا إبان فترة الحكم العثماني تسجيل الأراضي وسـائر ممتلكاتهم في المحاكم الشرعية الإسلامية ، وكانوا يسجلونها على أنها أوقاف مقدسة خاصة بهم ، ونجحت القوى الأوروبية في أعقاب حرب القرم في أن تحصل من العثمانيين على حق السماح للرعايـا الأوروبيين بشراء الأراضي والعقارات في الدولة ، وكـانت هذه الموافقة هي التي أتاحت فيما بعد فرصة شراء الأراضي في فلسطين .

وتزايـدت إبان عقـد السبعينيات بـالقرن التـاسع عشر قوة الاتجاهـات الداعيـة لمنح السكـان من غير المسلمين حق المســاواة فحظي اليهـود ، على سبيل المثـال ، منــذ عـام ١٨٧٦م بحق التمثيل في البرلمان العثماني الــذي أقيم في نفس الفترة ، كما اشتغل اليهــود إبان نفس الفترة في المجالس المدنية والإقليمية ، وشغل البعض منهم مناصب قيادية عامة في أوساط الـدوائر الحكوميـة والجيش ، كما عمل اليهود أيضـا في المحاكم التجـارية التي أقيمت خصيصـا لبحث قضايـا الرعـايا الأجـانب . وعلى كل حال فمن الملاحظ أنـه في الـوقت الـذي سعى فيـه المسيحيون بـالـدولـة العثمانيـة إلى العمل بالمؤسسـات العثمانيـة والاندماج بها فإن اليهود لم يحرصوا بشكل عام على الاندماج في المؤسسات العثمانية .

اليهود والثورة

ظهرت في تركيا خلال الربع الأخير من القـرن التاسع عشر أولى بوادر ثورة « تركيا الفتـاة التي أدت إلى ظهور تـركيا الحديثـة ، وكان لليهـود وجود في التنظيمات السريـة للثورة التي انتشرت في كافة المدن التركية ، وخاصـة في سالونيكا والقسطنطينية ، وكان هــؤلاء اليهــود من الشبـــاب اليهـودي المستنير الــذي تلقى تعليمــه في مــدارس «الإليانس» . وقد أثـار الوجود اليهودي في التنظيمات السرية ردود أفعال عـديدة ، مما دفع بعض الدبلومـاسيين الأوروبيين والكتاب الأتراك اليمينيين إلى اتهام اليهود بأنهم

يتحملون مسـؤولية فساد السلطـة وانهيار نظام السـلاطين، بل وزعم الدبلومـاسيون الغربيون وبعض الصحفيين أن هذه الثـورة ليست إلا مؤامرة يهودية، كما رأت بعض الدوائر الأوروبية أن اليهود نفذوا هذه الثورة بغـرض إخراج بريطانيا من تركيا، ورأت الصحافة العربية آنذاك أن هناك صلـة وثيقة بين هذه الثورة وبين اليهود، وسرعان ما استغل البعض حقيقـة انتماء المحامي اليهـودي عمانـويل كاراسـو إلى صفوف الثـورة لإثبات مدى ارتباط اليهود بهذه الثورة.

وقد ذكر أحد الدبلوماسيين البريطانيين في ذلك الحين: «تقلد اليهود منذ نشوب ثورة ١٩٠٨ مكـان الصدارة في الحياة السيـاسية بتركيـا، ويشغلون الآن أيضا مكـانة مهمة في أوسـاط الدوائر التركيـة الحاكمة». ، واتهم دبلـوماسي بـريطاني آخـر اليهود بأنهم يشاركون في كل الثوارت، وحذر الأتراك من خطر تزايد قوة اليهود.

أما اليهـود فقد رأت أعـداد كبيرة منهم أن الثورة ستـؤدي إلى تحسين أوضاعهم، فنشر الكثيرون منهم مقـالات عديدة في الصحـف التركية أعربـوا فيها عن تأييـدهم للثورة، ووزع البعض منهم منشورات دعت الطوائف اليهـودية إلى تأييد هذه الثورة. كما أعـرب اليهـود بعد أن تـزايـدت في هـذا الحين حدة الصراع التركي اليـونـاني عن تأييدهم الكامل لتركيا، لا سيما أنها تبنت دائما مـوقفا طيبا تجاههم منذ خروجهم من الأنـدلس، علاوة على أنها عملت منـذ القـرن التاسع عشر على تحسين أوضـاعهم، بالإضافة إلى أن تجربتهم المريرة مع اليونـانيين جعلتهم يتخوفون من انتصار اليونانيين على تركيـا ومن ثم الخضوع لسيطـرتهم. وكان من بين مظـاهر تبني العثمانيين لموقف طيب تجاه اليهـود أنهم احتفلوا في عـام ١٨٩٢م، على سبيل المثال، بـذكرى خـروج اليهـود من الأنـدلس واستيطانهم في تـركيـا، ونظمت السلطـات آنذاك احتفـالات ضخمـة شارك فيهـا مندوبـون عن كل المؤسسات والهيئـات التركية. وكـان من بين مظاهـر تأييد اليهود لتركيـا إبان حربها مع اليـونان أن حاخـامات الطوائف اليهـودية وزعماءها نشروا مقالات كثيرة أعربوا فيها عن تأييدهم الكامل لتركيا.

وفيما يتعلق بموقف ثورة «تـركيا الفتاة» تجاه الأقليات، فقد كان مـوقفا يشوبه التناقض، ففي الوقت الذي سعت فيـه حركة «تركيا الفتاة» بوصفها حـركة ثورية

إلى منح المزيد من الحقوق للسكـان ماداموا يتبنون موقفا مخلصـا للدولة العثمانية فقد تبنى قادتها الذين تأثروا بفكر الحركات القومية الأوروبية موقفا سلبيا تجاه كل الأقليات غير التركية في الدولة، فسن قادة هذه الثورة بعض مضي عام واحد على قيامها قانـونا ألزم كل رعايا الدولة بمن فيهم اليهود بـالالتحاق بالجيش مما أجبر آلاف اليهـود على الالتحاق بـالجيش التركي، ولكن أعدادا كبيرة منهم فـرت إلى الخارج بعد صدور هذا القانون.

وشهدت السنوات الأولى من القرن العشرين تدهورا ملحوظا في أوضاع الأجانب الـذين كانـوا يتمتعـون حتى ذلك الحين، برعـايـة وامتيازات القـوى الأجنبية، فقـد صادرت تـركيا بعـد الحرب التركية-الإيطـالية التي نشبت في عـام ١٩١١ ممتلكـات أعداد كبيرة من اليهـود الذين من أصل إيطـالي، أو الذين كانـوا من رعايا إيطـاليا، والذين أقـاموا في القسطنطينية وسالونيكـا وأزمير وحلب، كما شهدت نفس الفترة في كل من سـوريـا وفلسطين تعـرض أبنـاء الأقليـات غير المسلمـة لاضطهـاد الحكـام المحليين، وكان هذا الاضطهاد نتيجة لتزايد قوة الاتجاهات القومية في هذه الفترة.

وظهـرت في أوسـاط اليهـود بعـد أن قل تحمسهـم لثـورة «تـركيـا الفتـاة» بعض الاتجاهـات التي فضلت الانضمام للحركـة القوميـة اليهوديـة على الانضمام للحركـة العثمانية، ومع هذا واجهت الأنشطة الصهيونية في تـركيا بعد قيام الثورة معارضة من قبل المؤسسات اليهـودية التي تخوفت من رد فعل السلطات إزاء النشـاط الصهيوني، خاصة أن السلطات الثورية تعاملت بيـد من حديد إزاء كل الحركات القومية بما فيها الحركة الصهيـونية. وقـد تخوفت السلطات التركيـة آنذاك مـن وجود أي عـلاقة بين الحركة الصهيونية بتركيا وبين الجهات الخارجيـة، أما عن فعالية الأنشطة التي قام بها قادة الحركـة الصهيونيـة في القسطنطينية فإنها لم تنجح في تشجيع اليهـود الأتراك على الهجرة إلى فلسطين والاستيطان بها.

وقد تضمنت اتفاقيـة لوزان (١٩٢٣م) التـي اعترفت بموجبها القـوى الأوروبية بحدود تركيـا في العصر الحديث بنودا خاصة بوضع الأقليات غير المسلمـة في تركيا، فمنحت هذه البنود المساواة في الحقوق لأبنـاء الأقليات غير المسلمة، واعترفت أيضا

بحق الأقليات غير المسلمة في العيش كأقلية آمنة، ومع هذا تنازل اليهود الأتراك في عام ١٩٢٦م عن حقهم في العيش كأقلية آمنة، وفضلوا العيش كمواطنين أتراك، الأمر الذي جعل السلطات التركية تتبنى موقفا أفضل تجاههم بالمقارنة بموقفها تجاه الطوائف المسيحية، ومع هذا فلم تسمح السلطات التركية لليهود بإنشاء مدارس خاصة بهم أو تدريس اللغة العبرية، ومن هنا ظهر جيل جديد من يهود تركيا لا يعرف شيئا عن الثقافة العبرية.

وتزايدت إبان الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين قوة الاتجاهات القومية في كل من تركيا واليونان، وكان من بين مظاهر التحولات القومية التي حدثت آنذاك أن سالونيكا خضعت منذ عام ١٩١٣ تحت سيطرة اليونان (ولكن سالونيكا لم تنضم بالكامل إلى اليونان إلا في عام ١٩٢٢)، وقد عاشت الطوائف اليهودية في ذلك الحين تحت حكم أنظمة مختلفة ومتصارعة فيما بينها، كما شهدت تركيا في هذا الحين تزايد قوة الاتجاهات الداعية إلى التخلص من سيطرة أبناء الأقليات على المناصب الاقتصادية والإدارية والتعليمية المهمة، وظهرت في الصحف التركية في هذا الحين مقالات عديدة معادية لليهود طالب بعضها بعدم السماح لليهود بدخول تركيا.

وقامت في الأجزاء الأوروبية من تركيا في الثلاثينيات مظاهرات، وظهرت كذلك كتابات عديدة معادية لليهود. ففي منطقة أدرنة والمناطق المحيطة بها في عام ١٩٣٤ تعرضت منازل اليهود ومحالهم للسرقة والنهب، مما أجبر آلاف اليهود على الفرار إلى سائر المناطق التركية و إلى البلدان الأخرى. وتفيد نتائج أحد الأبحاث الحديثة التي نشرها الدكتور أ. ليفي أن الدوائر المعادية لليهود نجحت في إثارة مشاعر أعداد كبيرة من السكان، ولكن الحكومة التركية واجهت بيد من حديد كل المتمردين، وأسفرت كل هذه الاضطرابات عن هجرة آلاف اليهود من تركيا، وعن تدهور أوضاعهم القانونية والأمنية بالمقارنة بحالة الاستقرار التي نعموا بها في ظل الحكم العثماني.

وشكل اليهود في سالونيكا، وحتى سقوطها تحت الاحتلال اليوناني عشية الحرب العالمية الأولى، غالبية سكان المدينة التي حظيت خاصة في العصر الحديث باهتمام العديد من الدوائر العالمية سواء من اليونانيين أو البلغاريين أو النمساويين أو اليهود

الذين سعت أعداد كبيرة منهم في سالونيكا وبالتعاون مع الاتحاد الصهيوني إلى تحويل هذه المدينة إلى مدينة دولية يحظى سكانها من اليهود بالحكم الذاتي. وتفيد الخطابات التي بعث بها يهود سالونيكا إلى «الاتحاد الصهيوني العالمي» خلال عامي ١٩١٢ و١٩١٣ أن يهود هذه المدينة تخوفوا آنذاك من انتقال السلطة في هذه المدينة إلى أيدي اليونانيين، وأنهم فضلوا انتقال السلطة إلى أيدي البلغاريين، خاصة أنهم تصوروا أن انتقال السلطة إليهم سيتيح لهم فرصة الحفاظ على مكاسبهم الاقتصادية والتجارية. وجاء، على سبيل المثال، في أحد الخطابات التي بعث بها داوود بلورنطين إلى إدارة الاتحاد الصهيوني في برلين في عام ١٩١٢:

«ستنعم سالونيكا في حال تدويلها بالرخاء الاقتصادي إذ ستحظى بتأييد العديد من الدول، ولن تصبح ساحة للنزاعات والخلافات التي لاحد لها، ومن الممكن أن تصبح مستودعا لمعظم بلدان البلقان، ومن الممكن أن يكون هذا الأمر حلا مثالياً لصالح اليهود». ومع هذا فقد انتقلت سالونيكا إلى سيطرة اليونان بعد الحرب العالمية الأولى مما أدى إلى تدهور أوضاع اليهود، كما تسببت الهجرة اليونانية الضخمة إلى المدينة في تدهور أوضاع اليهود الاقتصادية والاجتماعية بالمدينة. وقد سنت السلطات اليونانية في العشرينيات عدة قوانين معادية لليهود، كما صادرت السلطات آنذاك أراضي وممتلكات اليهود، وحظرت على اليهود العمل يوم الأحد مما أجبرهم على إغلاق محالهم ليومين متتاليين خاصة أن اليهود لم يكونوا يعملون يوم السبت، كما منعت بعض القوانين المحاكم من البت في القضايا الخاصة بالمواريث، ولذلك اضطر اليهود للوقوف أمام المحاكم المدنية لبحث القضايا الخاصة بالزواج، وحظرت السلطات على اليهود استخدام اللغات الأجنبية في حساباتهم. وتشكلت في سالونيكا في عام ١٩٢٧ رابطة معادية لليهود نظمت حملة مقاطعة للسلع اليهودية، وظهرت في نفس الفترة صحيفة «مقدونيا» المعادية لليهود والتي تولى أحد القساوسة رئاسة تحريرها، وكان من بين مظاهر عداء هذه الجريدة لليهود أنها حرصت دائما على نشر «بروتوكولات حكماء صهيون»، علاوة على أنها لم تتوقف عن انتقاد اليهود. وأخذت هذه الانتقادات في الثلاثينيات شكلا

عنيفا للغايـة، حيث دمر بعض المعادين لليهـود في عام ١٩٣٠ إحدى المقـابر اليهـودية، كما نظم البعض منهم في عـام ١٩٣١ مـذبحة ضـد اليهود في أحـد أحياء سالونيكا، وعرفت هذه المذبحة باسم «مذبحة كمبول»، وشهدت نفس الفترة صدور العـديد من القوانين المعـادية لليهـود مما أجبر الكثيرين منهم على الهجرة إلى فلسطين و إلى بلدان أخرى .

وسقطت سالونيكا في شهر أبريل عام ١٩٤١ تحت احتلال الألمان، الذين اتخذوا بعد احتلالهم المدينـة العديد من الإجراءات المعادية لليهـود كان من بينها منعهم من إصدار أي صحف خاصة بهم، ومصادرة الممتلكات اليهودية وتدمير المقابر اليهودية القديمة، وقيامهم في عام ١٩٤٢ بحشد يهود سالونيكا في أحد المعسكرات و إرسالهم من هناك إلى معسكرات الإبادة الألمانية .

أما عـن يهود سوريـا فقد تعرضـوا في بعض الأحيـان إبان الفترة الـواقعة بين الحربين العـالميتين لبعض ردود الأفعـال من قبل السكـان، لتـزايد حـدة النـزاع العربي اليهودي، وكـان من بين مظاهر ردود الأفعال هذه قيـام السلطات بوقف الأنشطة الصهيونية في سوريا .

ويتضح من كل مـا تقـدم أن القرن العشرين شهـد تـدهـورا واضحا في أوضـاع اليهود القانـونية والأمنية في كل من تركيا واليونـان وسوريا، هذا بالمقـارنة بأوضاعهم الطيبـة إبان القـرن التاسع عشر، ولاشك في أن ظهـور الكيانـات القوميـة في العصر الحديث، كما حدث في أوروبا هو الذي أدى إلى تدهور أوضاع اليهود .

علاقات اليهود بالمجتمع المحيط بهم

اتسمت علاقـات اليهود بالمجتمع المحيط بهم طيلة الفترة الـواقعة بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر بقدر كبير من الاستقرار، وكانت أماكن العمل طيلة هذه الفترة تجمع اليهود بإخوانهم من المسيحيين والمسلمين، وكان أبناء هذه الطوائف يلتقون معـا آنذاك خارج العمل أيضا . وتجدر الإشـارة هنا إلى أن نتائج الأبحاث الحديثـة أثبتت أن يهود الدولـة العثمانية تأثروا إلى حـد كبير بكافـة فنون

المجتمع الإسـلامي، كما تسللت بعض مظـاهـر هذا التأثير إلى عـالم الممارسـات الـدينية اليهـوديـة، وأخـذ اليهود في فنـونهم العـديـد من الموتيفـات الإسلاميـة والمسيحية التي كانت سائدة في الدولـة العثمانية و إيطاليا . وفي حقيقة الأمر، فإن استقرار السلطـة العثمانية والأوضـاع الاقتصاديـة بها كانـا يكفلان دائما استقـرار العلاقات بين اليهود والمجتمع، ومع هذا طرأت إبان القرن التاسع عشر تغييرات ضخمة على علاقات اليهود بالمجتمع .

ولم يحافظ المسيحيون بالدولة الذين كانوا ينعمون آنذاك بتأييد القوى العظمى والذين كانوا على قدر كبير من القوة في كافة مدن الدولة على علاقاتهم السوية مع الدولـة العثمانية أو مع السكان، ولاشـك أن الهزائم العسكرية والسيـاسية التي لحقت بالـدولة آنـذاك، والأزمات الاقتصاديـة التي حلت بها، وحركـة الصحوة القومية التي نشأت في أوساط الأرمن واليونانيين تسببت في تزايد حدة الاستقطاب بين الجماعات المختلفـة بالـدولة العثمانيـة . أما عن الصراع الطـائفي الـذي ساد آنذاك فإنه نشب فقط بين المسلمين والمسيحيين، وفيما يتعلق باليهـود الذين كانوا يـؤيـدون السلطـة والـذين كـانـوا يحظـون في المقـابل بعطفهـا فإنهم تعـرضـوا لاضطهادات عـديدة من قبل المسيحيين الـذين نجحوا في هـذه الفترة في إخراج اليهود من المجـالات التي كانوا يسيطرون عليهـا، فنجح المسيحيون، على سبيل المثـال، في السيطرة على مجال المعـامـلات الماليـة، وصناعـة النسيج، والتجـارة الدولية، وهي المجالات التي عرف عنها سيطرة اليهود عليها .

وكان من بين مظاهر تزايد تأثير أوروبا في الدولة العثمانية أن العصر الحديث شهد تزايد قوة مشاعر العـداء لليهود، تلك المشاعر التي لعب السكان المسيحيون بـالدولة آنذاك دوراً رئيسيا في نقلهـا إلى الدولة، واستغلت الكنـائس اليونانية والأرمينيـة سيطرة مشاعـر العداء لليهود على أتباعهـا الذين كانوا من الفقراء والجهلـة لتوحيد صفوفها في مـواجهة السلطات العثمانية، واستخدمت هذه الكنائس اليهود كبش فداء في صراعها ضد السلطة .

وكانت المذابح التي تعرض لها يهود الدولة على أيدي المسيحيين إبان القرن التاسع عشر من أبرز مظاهر العداء المسيحـي لليهود، وبينما شهدت الفترة الممتدة من القرن

السادس عشر حتى القرن التاسع عشر تعرض يهود الـدولة إلى حوادث قليلة للغاية، ووقـوف السلطات بشكل دائم بجـانب اليهود وتأييـدها لهم، إلا أن هـذه الحوادث أصبحت كثيرة الحدوث في القرن التاسع عشر للدرجـة التي يمكننا فيها قول إن هذه الفترة شهدت وقوع حـادثة كل عام ضد اليهود، وكـانت هذه الحوادث تقع عادة في المدن التي كـان المسيحيون يشكلـون فيها غالبيـة السكان، وكـانت تقع إبـان أعياد الفصح إذ كـانت تنتشر آنذاك عـادة شائعـات مفـادها أن اليهـود يختطفون أطفـال المسيحيين لشرب دمائهم، فكـان المسيحيون يقومـون بالاعتـداء على اليهود والتنكيل بهم، وكانت مـذبحة أزمير في عام ١٨٧٢ واحدة من أشهر هـذه المذابح، وكان من بين مظـاهـر التنكيل قيـام المسيحيين في القسطنطينيـة في عـام ١٨٧٠ بـالتفتيش في حقائب التجار اليهـود بحثا عن أطفال المسيحيين الذين اختفوا في ظـروف غامضة، وقيام المسيحيين في عام ١٨٧٢ في جزيرة مرمرة بتـدمير أحد المعابد اليهودية و إطلاق النـار على السكـان اليهـود، والتنكيل على مـدى عدة أشهـر بـاليهـود. وتـدخلت السلطات العثمانيـة آنذاك وبمسـاعدة السلطات المحليـة لإنقاذ اليهـود، وأصدرت فرمـانا أدان هـذه المذابح. وكان من بين هـذه الفرمانـات ذلك الفرمـان الذي أدان حادثة دمشق التي راح ضحيتها مئات اليهود.

وانتشرت في المدن التركية واليـونانيـة إبان القـرن التاسع عشر الكتـابات المعـادية لليهـود، والتي كانت شـديـدة الشبه بـالكتـابات المعـاديـة لليهود التي صـدرت في أوروبا، كما ترجمت في هذه الفترة بعـض الكتابات اليونانية المعـادية لليهود إلى لغات بلدان البلقان و إلى لغـات أوروبية عديدة، وأثرت هذه الكتـابات بطبيعة الحال تأثيرا ضخما في صانعي الرأي العام الأوروبي الذين كان معظمهم من رجال الدين.

وأعرب القنـاصل الأوروبيون آنـذاك عن تأييدهـم لليهود، ولكن كان القنـاصل الفرنسيون الكاثوليكيون أقل نشـاطاً من القناصل الإنجليز والبروسيين البروتستانتيين الـذين عملـوا على تـوفير الأمن الـلازم لليهـود، حيث أرسلت إنجلترا، على سبيل المثـال، في عام ١٨٧١ فرقـاطة بحـرية رابطت أمـام سواحل أزمير قبـل اقتراب عيد الفصح، واتخذت الحكومـة الإنجليزية هـذا الإجراء بناء على طلب اليهـود الإنجليز الذين حرصوا على الحفاظ على أمن إخوانهم من اليهود في تركيا.

أما يهود سالـونيكا فقد تدهورت أوضاعهم إبـان القرن العشرين بشكل ملحوظ خاصـة بعد أن هاجـرت أعداد كبيرة من اليونـانيين إليها، وشهدت هـذه الفترة قيام اليونانيين بارتكاب مذابح عديدة ضد اليهود والتنكيل بهم.

وشهـدت سـوريا إبـان القـرن التـاسع عشر تـزايد حـدة المواجهـة بين المسلمين والمسيحيين، وبينما ارتكب في هذا الحين بضع حوادث ضد المسيحيين، فإن اليهود لم يتعرضوا آنـذاك إلى أية أضرار، ومع هذا فقد عـانت الطائفة اليهوديـة في سوريا كثيرا من حـادثـة دمشق الشهيرة ومن تلك الاضطـرابـات الحادثـة التي وقعت في عـام ١٨٦٠م بين المسيحيين والمسلمين والتي اتهم المسيحيون خـلالها اليهود بـالتعاون مع المسلمين. وفي ظل هـذا الـوضع ألقت السلطات آنـذاك القبض على عـدد كبير من اليهود في دمشق، ولكن البعض الآخر منهم فر إلى خـارج المدينة. ، وقد تدخل يهود أوروبا آنذاك، لمصلحة يهود سوريا.

وحـدثت خـلال القـرنين التـاسع عشر والعشرين العـديـد من المواجهـات بين الجماعات الدينية والقومية المختلفة بالدولة العثمانية، وتتسم هذه الفترة أيضا بأن كل طـائفة حـرصت على الانغلاق على ذاتها، وهـذا على خلاق الـوضع الذي سـاد من قبل، ومع هذا أدى انتشار فكر حركة التنوير في أوساط المستنيرين من كل طائفة إلى تعاون أبناء الطوائف المختلفة، ولكن كـانت هذه العلاقات مقصورة على المستنيرين منهم فقط، ونجح آنـذاك عدد محدود من اليهـود في تولي بضعـة مناصب قيـادية في الجيش والحكـومـة، وانضمت آنـذاك الشخصيات اليهـوديـة المستنيرة إلى التنظيمات السرية التركية التي أدت إلى نشوب ثورة «تركيا الفتاة».

وكان لليهود أيضا دور لا بأس به في الحياة الثقافية، فنشر العديدون منهم مقالات عديـدة في الصحف التركية، فنشر المؤرخ اليهودي افراهـام جالانتي (الذي تـوفي عام ١٩٥٩) عدة مقالات بالصحف التركية انتقـد خلالها مساوىء النظام التركي القديم، كما انتقد أيضـا مؤسسـة الحاخامـات اليهوديـة، ولكنه اضطـر للهروب إلى مصر التي مكث بها بضع سنوات، ولكنه عاد فيما بعد إلى تركيـا للمشاركة في ثورة «تركيا الفتاة»، كما عمل أستاذا بجامعة القسطنطينية، وانتخب فيما بعد عضوا بالبرلمان العثماني.

وكان موشيـه كوهين-تخينالف (الذي توفي عام ١٩٦٩) واحدا من أبرز الشخصيات اليهوديـة التي اندمجت في المجتمع التركي حيث كـان واحدا من أهم زعماء الحركة القـومية التركيـة. وكان تخينـالف من نسل عـائلة يهوديـة متمسكة بـالتقـاليد، وتلقى تعليمـه في مدارس الإليـانس في سالـونيكا، وأنهى دراسته العليـا في مدرسة للحـاخامـات وفي كلية القانون في القسطنطينيـة، كما كان عضوا بالمؤتمر الصهيوني التاسع الـذي عقد في برلين في عام ١٩٠٩، وقد رأى آنذاك أن الحل الوحيد للمشكلة اليهودية يتمثل في هجرة اليهود إلى فلسطين، وفي تمسكهم بهويتهم العثمانيـة، وكـان تخينالـف من دعاة التقـارب اليهـودي التركي، وكان من قادة الأيديولوجيا القومية التركية.

وكان ليهـود سالـونيكا التـي كانت معقـلا للثورة التركيـة وجود قـوي في أوساط قيادات هذه الثورة، وشعر يهود هذه المدينة بسعادة بالغة عند نشوب هذه الثورة التي رأوا أنها ستتبع النهج الليبرالي الحديث في قيـادة الـدولـة، وجـاء في أحـد المنشـورات اليهودية التي وزعت في سالونيكا آنذاك والتي كانت بلغة اللادينو «اسعدوا ياإخواني، لقد جـاء اليوم المنشود. يعيش الوطـن. يحيا الضباط». وكان من أبـرز الشخصيات اليهودية التي شاركت آنـذاك في الثورة في سالونيكا: المحامي عمانـويل كاراسوا الذي انتخب في عـام ١٩١٤ عضـوا بـالبرلمان، ويـوسف مـوديانـو الـذي كـان من أبـرز الشخصيات التي لعبت دورا مهما في ضم المتطـوعين لجيش الثورة. وكـانت كل هذه الشخصيـات تنتمي إلى طبقة المستنيرين مـن اليهود. وبـالـرغم من أن هذه الطبقـة كانت لها علاقات قوية ومستقـرة مع أبناء الطبقات الأخرى، إلا أنها لم تكن على قدر كبير من الانـدمـاج في المجتمع. وبـالرغـم من أن الإمبراطوريـة العثمانيـة أصـدرت فرمانـات عديدة حققت المسـاواة بين المسلمين وغير المسلمين، إلا أن العلاقات بين أبناء الطوائف الـدينية المختلفة إبان القرنين التـاسع عشر والعشرين كانت على درجة كبيرة من السوء بالمقارنة بالأوضاع التي سادت فيما قبل.

ويمكننا القول إنـه بينما أثرت الثقافة الإسـلامية في ثقافة يهود الإمبراطـورية العثمانية، إلا أن يهود الـدولـة لم يندمجوا بـالكـامل في حيـاة المجتمع الإسلامي. ولا نجـد أيضـا في كتابات يهود الدولة أي صدى لأزمـة الهوية التي واجهها يهود أوروبا في هذا الحين، وكان سبب هـذا الأمر أن يهود الـدولـة عـاشوا إبـان القـرن التاسع عشر في عـزلـة عن بعضهم

البعض، أضف إلى هذا أن السلطة العثمانية التي تخوفت من ظهور الحركات القومية التي ظهرت بها سعت إلى فصل الجماعات الدينية عن بعضها البعض.

وخلاصة الأمر أن القرن التاسع عشر شهد تحولات عديدة في أوضاع غير المسلمين بالدولة العثمانية، وأن تأثير القوى الغربية في الدولة العثمانية، وسعي الدولة إلى الحفاظ على مكانتها أديا إلى صدور فرمانات عديدة ساهمت في تحسين أوضاع غير المسلمين بها، ولاشك أن الفرمانات التي صدرت خلال عامي ١٨٣٩، و١٨٥٦ كانت من أهم الفرمانات التي صدرت في تاريخها بخصوص غير المسلمين.

ولا شك أن منح المساواة في الحقوق ليهود الدولة تسبب في انهيار الأطر الطائفية التقليدية التي كانت قد بدأت في الانهيار منذ نهايات القرن الثامن عشر، أي إبان الفترة التي كانت تتدهور فيها أوضاعهم الاقتصادية والتي كانت تتزايد فيها حدة التوتر الاجتماعي في أوساط الطائفة.

وبالرغم من أن السلطات لم تنفذ كل بنود الفرمانات الداعية إلى المساواة إلا أن هذه المراسيم ساهمت في تحسين أوضاع بعض الجماعات اليهودية خاصة تلك التي نعمت برعاية القوى العظمى وبالامتيازات الأجنبية، كما كان لتزايد قوة الأوروبيين بالدولة العثمانية أثره في اندماج اليهود بالمجتمع العثماني.

وقد ساهم يهود تركيا في العصر الحديث في ثورة تركيا الفتاة، ولكن لم تشارك أعداد كبيرة منهم في هذه الثورة. أما عن موقفهم تجاه الحركة الصهيونية، فبينما أيد البعض منهم الحركة الصهيونية، فإن البعض الآخر تبنى موقفا سلبيا تجاهها. وقد تدهورت أوضاع اليهود بعد أن تشكلت في المنطقة العديد من الكيانات القومية، وعانى اليهود في القرن العشرين من انتشار الحركات القومية في المنطقة، كما تعرضوا خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين إلى اضطهادات كثيرة، وتزايدت في هذا الحين قوة الضغوط التي كانوا يتعرضون لها.

وتزايدت إبان القرنين التاسع عشر والعشرين حدة التوتر بين الأتراك والعرب المسلمين وبين اليهود، وكانت الكتابات المعادية لليهود سلاحا فعالا في أيدي اليونانيين والأرمن في حربهم ضد الأتراك.

الفصل الرابع

الاتجاهات الحديثة

تعد حادثـة دمشق التي وقعت في عام ١٨٤٠ بمنزلة نقطـة تحول مهمة في تاريخ اليهـود في العصر الحديث، إذ تم في أعقاب هـذه الحادثـة وللمرة الأولى في التـاريخ اليهودي استخـدام كل الوسـائل اليهودية والصهيـونية التي من شأنها مسـاعدة يهود الشرق، وقـد كـان الاهتمام الـذي أبـداه يهود أوروبـا بيهـود الشرق في هـذا الحين، والمساعدة التي قـدموها لهم من أبرز مظاهر قوة العـلاقة التي سادت بين يهود الشرق والغرب، وبالرغم من أنه كـان هناك قبل هذا الحين بعض الاتصالات بين الطوائف اليهودية في الشرق والغرب، إلا أن رد فعل يهود الغـرب على هذه الحادثة شكّل نقطة تحوّل مهمة في تاريخ علاقاتهم.

ووقعت هذه الحادثـة بعد أن اختفى في شهر فبراير عام ١٨٤٠ القسيـس توماس وخادمه المسلم، وبعد أن وجهت لليهود آنذاك تهمة قتل القسيس بغرض شرب دمه في عيد الفصح. ووقعت هذه الحادثة إبان الفترة التي سعت فيها القوى العظمى إلى تكثيف وجودها في المنطقة، والتي خيمت فيها روح التوتر على العلاقات الإنجليزية الفرنسيـة، إذ كان كل طرف ينـافس الآخر على مكان الصـدارة في المنطقة، واستغل منـدوبو فـرنسا في دمشق فـرصة اختفـاء القسيس لإثارة الجماهير، فقـام الفرنسيـون باعتقـال قادة الطـائفة اليهوديـة في دمشق ووجهوا لهم تهمـة قتل القسيس لأغراض خاصة بالعبادة.

وحينما نشر خبر الحادثة في إحـدى الصحف الصادرة باللغة الفـرنسية في أزمير، فإنـه سرعان مـا انتقل إلى الصحف الأوروبيـة، ولم تمض سوى فترة وجيـزة على نشره حتى قام قادة المجتمع اليهودي في أوروبا بإدانة الحادثة، وكان من بين هؤلاء مندوبو عائلـة روتشيلد، وإدولف كـرميه الذي أصبح فيها بعـد وزيرا بالحكـومة الفـرنسية،

وموشيه مونتيفيوري، وهيرش ليرن (رئيس لجنة الموظفين الحكوميين في امستردام الذي أعرب كثيرا عن تأييده للاستيطان اليهودي في فلسطين)، وقادة الطوائف اليهودية في كل من إيطاليا وتركيا وألمانيا، وقادة لجنة مبعوثي الطوائف اليهودية في إنجلترا التي تولت مهمة تنظيم الأنشطة المناهضة للحادثة، وقام اليهود في نفس الحين بتنظيم حملة دبلوماسية وشعبية واسعة النطاق لإدانة الحادثة، ودعوا حكوماتهم لإدانتها.

وتوجه وفد من يهود أوروبا برئاسة كرميه ومونتيفيوري إلى المنطقة للالتقاء بالمسؤولين الأتراك الذين أصدروا بعد زيارة الوفد لتركيا فرمانا أدان المذبحة وأمرا بإطلاق سراح المتهمين من اليهود، وأشاع صدور هذا الفرمان إحساسا بالزهو في أوساط اليهود، وزاد من إحساسهم بالثقة في أنفسهم بوحدة اليهود.

ويشكل اهتمام الغرب بيهود الشرق، خاصة في أعقاب هذه الحادثة، نقطة تحول مهممة ليس فقط في تاريخ علاقة يهود الغرب بإخوانهم من اليهود في الشرق، وإنما في تاريخ فكر يهود الشرق الذين تعرفوا منذ هذا الحين على الفكر الأوروبي الحديث. وكما هو معروف فإن يهود الغرب لم يكتفوا بالتدخل إبان الأزمات فقط، وإنما عملوا على تقديم المساعدات الاقتصادية والسياسية ليهود الشرق والارتقاء بمستوى التعليم في مدارسهم وإنشاء بعض المؤسسات الخيرية الإنتاجية في أوساطهم.

وكانت الصحافة اليهودية في أوروبا وبلدان الدولة العثمانية إحدى الوسائل التي ساهمت في تقوية علاقات يهود أوروبا بيهود الشرق، فكانت الصحافة تنقل الأحداث التي يتعرض لها يهود الشرق فتثير بذلك اهتمام اليهود الأوروبيين، وتدفعهم للعمل لصالح يهود الشرق. ورأت الشخصيات اليهودية المستنيرة أن يهود الشرق يعدون حقلا خصبا يستطيعون أن ينشروا فيه كل ما يشاءون من أفكار، ولذلك قامت أعداد كبيرة من الرحالة وأثرياء اليهود وقادة الطوائف اليهودية بأوروبا بزيارة يهود الشرق، وبتسجيل انطباعاتهم عن يهود الشرق في بعض أعمالهم، كما تضمنت تقاريرهم أيضا اقتراحات بشأن سبل حل المشكلات التي يواجهونها، ولم تخرج الانطباعات التي كونها يهود الغرب عن الإحساس بأن يهود الشرق يعانون من الفقر ومن تزايد حدة الأزمات الاجتماعية في أوساطهم, وقد حرص يهود الغرب في تقاريرهم على إبراز حقيقة أن يهود الشرق يعانون من تدهور الوضع الاقتصادي في بلدانهم، وأن المسيحيين في الشرق يحظون بمساعدة

ضخمة من الهيئات الأوروبية، وهذا بالمقارنة بالمساعدة المحدودة التي يقدمها يهود الغرب ليهود الشرق، كما أكـدوا في تقاريرهم أن الجماعـات المسيحية في أوروبـا أسست مدارس بالشرق يدرس بها كل من المسيحيين واليهود، وقدم بعض اليهود في تقاريرهم وصفا دقيقا للأماكن التي يعيش بها اليهود وكيف أنها مكتظة للغاية بهم، وحرص بعضهم الآخر على وصف عـادات وتقاليـد يهود الشرق التي بـدت غريبـة بالنسبـة للشخصيـات اليهوديـة المستنيرة بـالغرب، وكـانت ظاهـرة الـزواج في سن مبكرة من أغـرب هذه العـادات التي جذبت انتباه يهود الغرب.

وقدمت الشخصيات اليهودية المستنيرة في الـدولة العثمانية صورة شبيهة لما ورد في تقاريـر اليهود الأوروبيين، وطـالبت في تقاريـرها يهود أوروبـا بالعمل لصـالح يهود الشرق، ويـرجع إلى يهود أوروبـا في واقع الأمر فضل نشر الفكـر الحديث في أوسـاط يهود الدولة، ومع هذا ليس من الممكن أن نتجاهل العديد من العوامل الأخرى ذات الأهميـة القصوى التي سـاهمت في نشر الفكـر الحديث في أوساط المجتمع اليهـودي بالدولة، والتي كان من بينها انهيار الأطـر القديمة في بدايات القرن التاسع عشر بعد أن تزايـدت في أوساط الطـوائف حدة الأزمـات الاجتماعية والاقتصـادية، وفقـدان القيادة التقليدية لمكانتها المرموقة التي شغلتها في الماضي، وتلقى أبناء الأثرياء في هذا الحين تعليمهم في المدارس المسيحية وخـاصة الإيطاليـة منها، وانتقل البعض منهم للخـارج لتلقي تعليمه بـالجامعات الأوروبيـة. وكـان لليهود ذوي الأصل الإيطـالي الذين أقـاموا بالـدولة دور كبير في نشر الفكـر الحديث في أوساط الطوائف اليهـودية خاصة في كل من أزمير وسالونيكا والقسطنطينية وحلب. وقد أعرب حاخامات هذه الطوائف إبان القرن الثامن عشر عن امتعاضهم من عادات هؤلاء اليهود المستنيرين، ومن عدم حـرصهم على التمسك بالتقـاليد اليهـودية، لأنهم كـانوا يـرتدون الملابس الأوروبية، ولا يحافظون على قـداسة يوم السبت والأعياد اليهوديـة، وكانت نساؤهم يرتدين ملابس خارجة عن المألوف في الشرق.

وتزايد حجم وجود هذه الشخصيات المستنيرة من اليهود في المدن التي سبقت الإشارة إليها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وساهمت هذه الشخصيات بشكل ملموس في تأسيس أولى المدارس الإيطاليـة بالـدولة، وكان لتأثـر الدولة العثمانيـة بمظاهـر الفكر

الحديث الـذي تمثل في إنشاء الصحف و إنشـاء خطـوط للتليفون والتلغـراف، واتباعهـا لسياسة الإصـلاحات أثرهما أيضاً في نشر الفكر الحديث في أوساط يهود الـدولة، كما كان للإرساليـات التبشيرية دور ضخم في نشر الفكر الأوروبي بالـدولة وفي تغيير نظم التعليم في أوساط يهود الدولـة العثمانية. ويرجع تاريـخ الأنشطة التي مارستها هـذه الإرساليات بالدولـة إلى بدايات القرن التاسع عشر، أي إلى الفترة التي بدأت القـوى الأوروبية فيها في التأثير سياسيـا في مجريات الأمـور بالدولـة، والتي لعب خلالها الدبلـوماسيـون الأجانب وممثلو القوى العظمى في هـذا الحين دورا ضخما في نشر الفكر التبشيري في الإمبراطورية. وبعد أن فشل المبشرون في اختراق صفـوف المسلمين وجهوا جهـودهم لليهود، فحـرصوا على أن يؤسسوا في أوسـاطهم العديد من المؤسسات التعليميـة والصحية والخيرية، وعلى منح المسـاعدة الاقتصاديـة إليهم، وعلى توزيع نسـخ من العهد الجديـد على اليهود. ولم تسفر كـل هذه الأنشطة التبشيريـة طيلة القـرنين التاسع عشر والعشرين إلا عـن اعتناق عـدد محدود من يهود الدولـة العثمانية للـديـانة المسيحيـة، أما بـاقي اليهـود الذين تلقـوا تعليمهم في المؤسسات المسيحية فقد ظلوا متمسكين بتعاليـم الديانة اليهودية، وعلى كل حـال فـلاشك أن الأنشطـة التبشيرية المسيحيـة دفعت الطـوائف اليهـوديـة إلى تأسيس مؤسسات خاصة بها، وساهمت في نشر الفكر الحديث في أوساط يهود الدولة.

الاندماج والعلمانية

شاعت في أوساط يهود تـركيا واليونان إبـان القرنين التاسع عشر والعشرين بعض الظواهر التي لم يكن لها فيما مضى أي وجود، كان من بينها: عدم حرص اليهود على الانخراط في البنية التنظيمية للطائفة، وضعف الرابطة الروحانية والثقافية ليهود هذه البلدان بـالتقاليد اليهـودية واستخفافهم بـالحاخامات، وقـد ساهمت ثلاثـة عوامل رئيسية في هذا التحول يمكننا حصرها في:

١ـ انهيار الأطـر الطائفيـة للمجتمع اليهـودي بدءاً من القـرن التاسع عشر نتيجـة للتغيرات العمرانية التي شهدها المجتمع منـذ هذا الحين والتي تمثلت في خروج اليهود من الأحياء القديمـة التي اعتادوا العيش فيها، والتي ارتبطوا فيها بشكل وثيق بـالمعبد (الذي كان يخدم عـادة أبناء المدينـة الواحـدة الذين من أصـل مشترك)، وبالمؤسسـات الخيرية

والدينية. وبرز هذا التحول بشكل واضح في تركيا واليونان حيث انتقل يهود البلدين إلى الأحياء الجديدة التي اختلطوا فيها بالسكان من غير اليهود مما أسفر بطبيعة الحال عن انهيار الأطر الطائفية، كما أدى تزايد الفروق الاجتماعية بين طبقات المجتمع اليهودي إلى حدوث انفصال حقيقي بين فئات المجتمع، وكان من بين مظاهر تزايد حدة الفروق الاجتماعية أن كل فئة أسست معابد ومؤسسات خاصة بها، ومن هنا فلم تعد التقاليد اليهودية بمنزلة العامل الموحد لكل فئات المجتمع وطبقاته.

٢ـ أسفرت سياسة الإصلاحات العثمانية، والقوانين الجديدة التي سنتها الدولة لتحديد وضع الطوائف عن أن يهود الدولة أصبحوا أقل ارتباطاً بمؤسسات الطائفة، خاصة أن الهيئات الحكومية والقضائية العثمانية أصبحت توفر لهم الإحساس بالأمن والاستقرار. وإذا كانت القيود العديدة التي فرضت على اليهود في الماضي دفعتهم للارتماء في أحضان الطائفة والتمسك بالتقاليد فإن القوانين الجديدة التي سنتها الدولة قللت إلى حد كبير من قوة الحاخامات، ومن ارتباط اليهود بمؤسساتهم التقليدية، كما أضفت طابعا أكثر ديمقراطية على بنية هذه المؤسسات.

٣ـ أدى حصول أعداد كبيرة من اليهود على قدر كبير من التعليم والثقافة الحديثة في المدارس المسيحية والحكومية واليهودية الحديثة إلى ظهور فئة جديدة من الشباب اليهودي ابتعدت بالكامل عن التقاليد اليهودية، كما أن أعداداً كبيرة من هؤلاء الشباب الذي تلقى تعليمه في المدارس المسيحية بل وفي المدارس اليهودية الحديثة لم تعرف شيئا عن التعاليم اليهودية فكانوا منفصلين بالكامل عن عالم الفكر اليهودي. وربما تعد عائلة الأزراقي التي عاشت في أزمير منذ القرن السابع عشر مثالا صارخا على التحولات الضخمة التي حدثت في أوساط اليهود في هذه المدينة فبينما كان الجد الأكبر لهذه العائلة من اليهود المتمسكين بالتقاليد فإن ابنه الذي تلقى تعليمه في بدايات القرن العشرين في مدارس الإليانس اكتفى بالاشتغال بالتجارة، ولكنه لم يعرف شيئا عما تحتويه مكتبة والده من كتب دينية قيمة، ، أما حفيده الذي تلقى تعليمه في مدارس الإليانس في أزمير وباريس فلم يحرص على الحفاظ على هذه المكتبة، وبالرغم من أنه هاجر إلى فلسطين إلا أن هجرة أبناء هذه العائلة لم تمثل ظاهرة حقيقية في أوساط هذه الدوائر.

وكان من مظاهر انتشار الفكر العلماني في أوساط اليهود، واندماجهم في المجتمع عدم التزامهم باحترام قداسة يوم السبت، واشتغالهم في هذا اليوم، ولجوءهم إلى القضاة من غير اليهود، وارتداؤهم الملابس الحديثة، وقد عبر الحاخام حاييم بالاجي (في النصف الثاني من القرن التاسع عشر) عن إحساسه بالأسى إزاء ظاهرة حرص اليهود على محاكاة المجتمع غير اليهودي، فعلق عليها بقوله: «اعتاد اليهود أن يكونوا مختلفين في ملبسهم عن الآخرين، وهذا حتى يكونوا مختلفين ومتميزين عن سائر شعوب العالم، ولكن لا يوجد في الوقت الحالي أي فرق بيننا وبينهم فأصبحنا الآن مثل غير اليهود»، ومع هذا تجدر الإشارة إلى أن تزايد قوة الاتجاهات العلمانية في أوساط يهود الإمبراطورية لم يسفر عن شيوع ظاهرة الزواج المختلط في أوساط اليهود، وكان مرجع هذا الأمر أن نظام الطوائف العثماني جعل كل طائفة دينية أو قومية تعيش منغلقة على ذاتها.

أما الطوائف اليهودية في سوريا فقد كان وضعها مختلفا بعض الشيء حيث إن أفكار حركة التنوير لم تنتشر في أوساطها إلا في مرحلة متأخرة نسبيا كما لم تسد فيها ظاهرة الابتعاد عن التقاليد اليهودية أو عن الأمور التنظيمية للطائفة. ولكن الطائفة اليهودية في سوريا واجهت في بدايات القرن العشرين مشكلة تفشي الدعارة في المجتمع اليهودي، حيث كانت العاهرات اليهوديات مقربات للغاية للشخصيات السياسية والعسكرية التركية، وأزعجت هذه الظاهرة القيادة اليهودية في دمشق والقسطنطينية، ومع هذا لم تنجح القيادات اليهودية في حل هذه المشكلة. أما عن وضع اليهود في بيروت فلم يكن للطائفة اليهودية فيها أي ارتباط بالتقاليد اليهودية، ومن هنا كان المجتمع اليهودي في بيروت في القرن العشرين مجتمعا علمانيا.

الصحافة الصادرة بلغة اللادينو

كان من بين مظاهر تيار الحداثة الذي غمر يهود الدولة العثمانية في العصر الحديث أن كتاباتهم لم تقتصر على الموضوعات الدينية التقليدية التي كانت شائعة في أوساطهم على مدى قرون عديدة، وإنما أصبحت تشمل موضوعات شتى. وقد صدرت معظم هذه الأعمال خلال النصف الثاني بالقرن التاسع عشر بلغة اللادينو، وكان من بين مظاهر النتاج الأدبي في هذا الحين أن يهود الدولة بدأوا في إصدار بعض

الصحف بلغة اللادينو كـان من بينها صحيفة «الأمل الطيب» التي صدرت في أزمير في عام ١٩٤٢، كما صدرت فيها بعـد في كل من القسطنطينية وسالونيكـا العديد من الصحف الأخرى. وبينما صدرت معظم هـذه الصحف اليهودية بلغة الـلادينو فقد صدر بعضهـا الآخر باللغـة الفرنسية، كما تأسست في حلب في عـام ١٨٦٥ مطبعة قـامت بـإصـدار هـذه الصحف. وقـد صـــدرت في فلسطين في نفس الحين بعض الصحف العبريـة التي كان معظم محرريها من اليهـود الأشكناز، وكان مـن بين هذه الصحف صحيفتـا «هحفتسيليت» (الزنبقـة) و«هلفـانـون» (جبل لبنان)، وكـانت الصحافـة اليهوديـة الصادرة في هـذا الحين تعد بمنـزلة أحـد مظاهـر تحول المجتمع اليهودي من مجتمع تقليدي إلى مجتمع حديث.

وقد صـدر أيضا بلغـة اللادينـو أدب يهودي علماني كان معظمـه بمنزلـة ترجمات من اللغـات الأوروبية، وخـاصـة من اللغة الفـرنسيـة، وصدرت بهذه اللغـة بعض الكتب التعليميـة، وكتب التـاريخ والأدب، ومع مضي الوقـت قل عدد الكتب الـدينيـة. ففي القسطنطينية على سبيل المثال، لم يصدر بدءاً من عـام ١٨٦٥ أي كتاب باللغة العبرية، وقد طبعت كل الكتب التي صدرت في هذه المدينة بدءا من هذا الحين بلغة اللادينو.

إحياء اللغة العبرية

كانت للشخصيـات اليهوديـة المستنيرة في الإمبراطوريـة العثمانية صلـة وثيقة بـاللغة العبرية، وقد راودتها دائما الرغبة في إحياء اللغة العبرية وتحويلها إلى لغة للحديث، وكان من بين هـذه الشخصيات الحاخـام يهودا نحما في سالـونيكا، ويـوسف هاليفي وبـاروخ ميتراني في أدرنـة. وتمثل القاسم المشترك بين كل هـؤلاء في أنهم رأوا جميعـا أن إحياء اللغـة العبريـة يعد جـزءاً لا يتجزأ من مسيرة نشر الفكـر الحديث في أوسـاط يهود الدولـة. وأن إحياء اللغة العبرية سيساعد على تقوية الإحساس بالوحدة والإخاء بين يهود الشرق، وفي الواقع كان إحياء اللغة العبرية مرتبطاً أيضاً بظهور الحركة القومية اليهودية.

وقد نشر الحاخام يهودا نحما مقالاً عن أهمية إحياء اللغـة العبرية جاء به: «إن كانت الشعوب التي فقدت استقـلالها والتي أصبحت خاضعة لسيطرة الشعـوب الأخرى والتي نذكر منها بـولندا وإيرلندا تعمل على إحياء مجدها القـديم ولغتها، فإن اليهود لا يعملون

على إحياء لغتهم، وإذا أصرالشعب على تحقيق الخلاص فلن يتخلى عن حبه لوطنه، وإذا تعلم اليهود اللغة العبرية وأحبوها فلن يرضوا عنها بديلا من اللغات».

واقترح يوسف هاليفي في الستينيات من القرن التاسع عشر إقامة مؤسسة لإحياء اللغة العبرية تتولى مهمة تطوير اللغة العبرية وإحيائها، ورأى أنه ليس من الممكن تطوير اللغة العبرية دون وجود مثل هذه المؤسسة.

وقد سعى باروخ ميتراني أيضا إلى تعليم اللغة العبرية في المدرسة التي كان يشرف عليها في مدينة أدرنة، ولذلك عمل على تطوير مناهج تدريس اللغة العبرية. وكان نسيم بخر (١٨٤٨ ـــ ١٩٣١) الذي تولى إدارة مدارس الإليانس في حلب والقسطنطينية وبلغاريا والقدس ونيويورك من بين الشخصيات المقربة إلى اليعيزر بن يهودا الذي يرجع إليه فضل إحياء اللغة العبرية الحديثة، وقد عمل معه على تبني مناهج حديثة لتطوير اللغة العبرية.

الحركة العمالية

لم يكن للحركة العمالية اليهودية التي كان لها وجود قوي في أوساط يهود أوروبا وأمريكا وفلسطين خاصة في نهايات القرن التاسع عشر، أي تأثير يذكر على يهود البلدان الإسلامية، ولكن قد ظهرت في سالونيكا حركة اشتراكية يهودية كانت لها علاقات قوية مع حركة الجالية اليهودية في أوروبا الشرقية.

ويرجع فضل تأسيس هذه الحركة في سالونيكا إلى جماعة من الشباب اليهودي المستنير الذين تزعمهم افراهام بن ارويه الذي وصل من بلغاريا إلى سالونيكا في عام ١٩٠٠، وقد عمل بن أرويه مدرسا بإحدى المدارس اليهودية في بلغاريا، وتبنى في شبابه الفكر الاشتراكي، وجاء إلى سالونيكا بغرض نشر هذا الفكر الاشتراكي في أوساط الطائفة اليهودية في سالونيكا، التي كانت واحدة من أكبر الطوائف اليهودية في العالم، متصوراً أن بمقدوره نشر الأفكار الاشتراكية في أوساط طبقة البروليتاريا اليهودية. ولاشك أن ثورة تركيا الفتاة التي قامت في عام ١٩٠٨ ساعدته على ممارسة أنشطته في أوساط يهود سالونيكا فمارس أنشطته بقدر كبير من الحرية في أوساط عمال مصانع التبغ، وفي أوساط أصحاب المهن اليدوية من اليهود، وتمكن من إحراز نجاح ضخم في أوساطهم.

وأقيم في عام ١٩٠٩ منتدى عمالي في سالونيكا ضم مندوبين عن أصحاب المهن المختلفة من اليهود، وأصدر هؤلاء صحيفة «لاناسيون» (الأمة) وصحفا أخرى عديدة. وقد تعاونت الحركة العمالية اليهودية في المدينة مع المنظمات الاشتراكية البلغارية، ولكن حدث فيما بعد خلاف ضخم فيما بينهم خاصة بعد أن أعربت الحركة العمالية اليهودية عن تأييدها لتركيا. وكان من بين أنشطة هذه الحركة تنظيمها للمظاهرات والمسيرات المطالبة بمنح المواطنين الأتراك المزيد من الحقوق، وحق تنظيم الإضرابات العمالية. أما عن موقف السلطة العثمانية تجاه هذه الأنشطة فإنها عملت على محاصرتها حيث تخوفت من تزايد قوة الأنشطة العمالية.

وبالرغم من أنه لم تكن لقادة هذه الحركة العمالية أية توجهات صهيونية فإن قادة الحركة العمالية الصهيونية في فلسطين والذين كان من بينهم بن تسفي وديفيد بن جوريون قاموا بزيارة قادة هذه الحركة في سالونيكا، ونجحوا في إقامة علاقات معهم.

وتجدر الإشارة إلى أن معظم يهود سالونيكا تعرضوا للإبادة إبان الحرب العالمية الثانية، أما الذين تمكنوا من الفرار منهم والذين كان من بينهم افراهام بن ارويه فإنهم هاجروا إلى فلسطين، وفي واقع الأمر فإن خيبة آمالهم من الأفكار الشيوعية التي تبنوها جعلتهم يتبنون فكر الاشتراكية الصهيونية.

«العثمنة» (اندماج اليهود في الدولة العثمانية)

تعاونت بعض الشخصيات اليهودية المستنيرة في كل من تركيا واليونان مع التنظيمات والخلايا السرية لثورة تركيا الفتاة، ودعت هذه الشخصيات بعد نجاح الثورة إلى الاندماج الكامل في صفوف الدولة العثمانية، كما دعت بعض هذه الشخصيات حتى بعد الحرب العالمية الأولى إلى الاندماج في تركيا الحديثة، ولكن لم يكن لهذه الشخصيات أي تأثير حقيقي في المجتمع اليهودي باستثناء الفترة التي نشبت فيها الحرب العالمية الأولى التي أيد اليهود خلالها الإمبراطورية العثمانية.

وقد تطوع بعض يهود سالونيكا واليونان في الجيش التركي إبان حرب البلقان التي نشبت خلال عامي ١٩١٢، ١٩١٣ كما تبرع بعضهم بالأموال لتدعيم تركيا في هذه الحرب، كما صدرت في سالونيكا في هذه الفترة بعض الصحف اليهودية التي انتقدت

بشدة الحركة الصهيونية، ودعت اليهود إلى الاندماج في الإمبراطورية العثمانية، وتزعم ديفيد بيريسكو رئيس تحرير مجلة «الأزمان» الصادرة في القسطنطينية في هذا الحين الاتجاه الداعي إلى الاندماج في المجتمع العثماني، المعادي للصهيونية، وكان افراهام جلنتي وموشيه تخينالف من أبرز قادة اليهود الداعين آنذاك للاندماج في تركيا.

وقد دعا حزب العمال الصهيوني في فلسطين إلى الاندماج في المجتمع التركي إذ تصور قادة الحزب أن مثل هذا النهج سيساعد الحركة الصهيونية على الحصول على تأييد الحكومة العثمانية، وعبرت صحيفة «ها أحدوت» (الوحدة) الناطقة بلسان الحزب عن أهمية الاندماج في الدولة العثمانية فنشرت مقالات عديدة دعت فيها إلى الاندماج في إطار الدولة العثمانية، ومن المعروف أن ديفيد بن جوريون وإفراهام بن تسفي كانا من أبرز قادة هذا (الاتجاه). وتجدر الإشارة هنا إلى أن يهود فلسطين الذين حصلوا آنذاك على الجنسية العثمانية قدر عددهم بخمسة عشر ألف يهودي. وكان من بين مظاهر تأييد الحزب لتركيا أنه سارع بتشكيل جماعة من المتطوعين اليهود للجيش التركي قدر عدد أعضائها بأربعين فردا، ورغم ذلك لم يؤد مثل هذا الموقف إلى تغيير موقف السلطات العثمانية تجاه الصهيونية، وربما يكون خير دليل على هذا الأمر أن السلطات شنت بعد الحرب العالمية الأولى هجوما شرساً ضد الحركة الصهيونية.

الحركة القومية اليهودية

شهدت تركيا وبلدان البلقان في القرن التاسع عشر تزايد قوة الحركات القومية كما شهدت نفس الفترة سعي اليونانيين والأرمن والبلغار والرومان والعديد من الجماعات القومية الأخرى نحو تحقيق أهدافهم القومية، أما اليهود فلم تكن لهم في هذا الحين أي تطلعات قومية، ومع هذا فقد تأثر البعض منهم بأفكار الحركات القومية، فأعربت بعض الشخصيات التي تأثرت بالقومية البلقانية عن بعض تطلعاتها القومية وسعت إلى نشر أفكارها في أوساط يهود الدولة، ولكنها لم تلق قدراً كبيراً من النجاح، ولذلك ظلت هذه الشخصيات وما طرحته من أفكار لا تمثل أي اتجاه يذكر في الدولة العثمانية، ومع هذا انتشرت الأفكار القومية اليهودية في أوساط يهود تركيا واليونان بعد ظهور الحركة الصهيونية.

وقد ساهمت عدة عوامل في عدم انتشار الفكر الصهيوني في أوساط يهود الدولة، كان من بينها أن اليهود تخوفوا من الدولة العثمانية التي تشككت دائما بل وتعاملت بعنف في أحيان أخرى مع كافة التنظيمات القومية، وأن فئة الصفوة بالمجتمع اليهودي كانت بعيدة عن عالم المجتمع اليهودي التقليدي وكانت أكثر قربا في المقابل إلى عالم الفكر الغربي، وأن عامة اليهود في الإمبراطورية نعموا بالأمن والاستقرار في الدولة، ولم يتعرضوا للاضطهاد من قبل العثمانيين.

والجدير بالذكر أن حاخامات اليهود في الشرق والغرب آمنوا إيمانا عميقاً، واستنادا إلى بعض الحسابات والاعتبارات الغيبية أن عام ١٨٠٠ سيشهد تحقيق الخلاص اليهودي، ومن هنا هاجرت أعداد كبيرة من أتباع الحاخامات في بدايات القرن التاسع عشر إلى فلسطين، كما ساد هذا أيضاً في أوساط رؤساء لجنة الموظفين اليهود بأمستردام، وحاخامات المغرب وبلدان أخرى من الشرق. وقد طرح الحاخامات السفاراد في هذا الحين في بلدان البلقان والذين تأثروا بالثورة اليونانية وبالتحولات السياسية التي حدثت، بضعة مشاريع وتصورات لتهجير اليهود إلى فلسطين. وبينما كانت هذه التصورات متأثرة بالآمال المسيحانية التي شاعت في هذه الفترة والتي جعلت اليهود يتصورون أن ساعة الخلاص قد حانت، فإنها كانت متأثرة أيضا بالتحولات السياسية وأيضا بالأفكار السياسية التي طرحت آنذاك. وسنتعرف على أهم الشخصيات اليهودية التي دعت آنذاك إلى الهجرة.

الحاخام يهودا القلعي (١٧٩٨ ـ ١٨٧٨)

كان الحاخام يهودا القلعي من أبرز مفكري اليهود الداعين إبان القرن التاسع عشر إلى الهجرة إلى فلسطين، وقد ولد القلعي في عام ١٧٩٨ في مدينة سراييفو، وتلقى بها تعليما يهوديا تقليديا، ودرس بها «القبَّالاه» واشتغل التدريس في مدينة زملين التي تقع بالقرب من بلغراد.

وعاصر القلعي خلال العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر ثورة شعوب البلقان وحرب الاستقلال اليونانية التي أثرت في أفكاره، وآمن باعتباره متبحرا في علوم «القبالا» أن عام ١٨٤٠ سيشهد تحقيق الخلاص اليهودي. وقد أصدر

القلعي في عـام ١٨٣٩ كتابـا لتعليم اللغة العبريـة لأطفال اليهـود كان الغـرض منه تشجيع الطلاب اليهود على قراءة العهد القـديم، وكتب الحاخام القلعي مقدمة لهذا الكتاب تناول فيها قضايا المنفى والخلاص، وكانت رؤيته في هذه المقدمة تتماشى مع أفكار «القبّالاه»، ولم تتضمن في المقـابل أية أفكار قومية. وكانت العـديد من أفكار هذه المقـدمة مستقاة من لقاءاتـه مع الحاخام يهودا بيباس حيث اختتم هذه المقـدمة بقولـه «أشار إلينـا أبونا المقـدس أن من الضروري أن نستعين في عام ١٨٤٠ بـالتوراة والصلاة وبفعل الخير».

ونشر الحاخام القلعـي في عام ١٨٤٠ الـذي شهد وقوع حـادثة دمشـق، كتاب «سلام يا قدس» وجادل في كتـابه هذا كل من يسخرون من أن الخلاص سيتحقق في عام ١٨٤٠، ثم أصدر في عـام ١٨٤٣. وبعد أن قام يهود أوروبا بـالتدخل لصالح يهود دمشق، أصـدر كتاب «قـربان يهودا» الـذي دعا فيـه إلى اتخاذ خطوات عمليـة لتحقيق الخلاص المنشود.

وفي واقع الأمر فإن فكر الحاخام القلعي قد مـر بتطورات عديدة إذ إنه انتقل من مرحلة التمسك بـالآمال المسيحانية إلى مرحلة الدمج بين هـذه الآمال وبين المشاريع القوميـة. وكان للحـاخام القلعي العـديد من الأنشطـة في أوروبا، فأسـس هيئات لـلاستيطان في فلسطين، بل تشـاور مع الحاخام يقير جيرون، الـذي شغل منصب كبير الحاخـامـات في القسطنطينية، وكـانت لـه أيضـا اتصـالات عديـدة مع هيئـة الإليانس، وقد هاجر القلعي في عام ١٨٧١ إلى فلسطين حيث توفي بها.

الحاخام يهودا بيباس (١٧٨٠ ـ ١٨٥٢)

كانـت أفكار الحاخـام بيباس الذي عـاش في نفس الفترة شديـدة الشبه بـأفكار الحاخام القلعي، وكان بيبـاس من نسل عائلة ترجع أصولها إلى اليهود الـذين خرجوا من الأندلس واستـوطنوا بالمغرب، وكانـت هذه العائلة قد ارتحلـت في نهايات القرن الثامن عشر إلى مدينة جيبراطر التي احتلتها بريطانيا في عام ١٧٤٠، وبالرغم من أن الحاخـامات بيبـاس تلقى تعليما تقليـديا إلا أنـه تلقى في نفس الحين قـدرا كبيرا من الثقـافـة والمعرفـة الـدنيـوية. وشغـل الحاخام بيبـاس في عـام ١٨٣٠ منصب كبير

الحاخامات في جزيرة كوربو (الواقعة ببحر ايجه) وتأثر في هذا الحين بأفكار الثورة اليونانية . ، كما التقى بيباس في هذا الحين بالحاخام يهود القلعي ، وناقشه في قضيتي الخلاص والقومية اليهودية ، وهاجر الحاخام بيباس في شيخوخته إلى الخليل حيث توفي بها . والتقى الحاخام بيباس في عام ١٨٣٩ باثنين من المبشرين الاسكتلنديين وطرح عليهما مشاريعه الهادفة إلى توطين اليهود في فلسطين ، وكان الحاخام بيباس يدعو إلى احتلال فلسطين والاعتماد على مساعدة المسيح المخلص .

وقد تناول الحاخام القلعي في كتاب «طرق الصدق» تفاصيل لقائه مع الحاخام بيباس فجاء في كتابه «سمعت من الحاخام بيباس أننا خلقنا للعمل في فلسطين . . وأن الارتقاء إلى أعلى يستلزم الارتقاء من أدنى . . . إننا دائمو الترحال من بلد إلى آخر . . ولكننا لا نرحل إلى فلسطين وعند هجرة بني إسرائيل إلى القدس فإن المولى سرعان ما سيحقق الخلاص في أيامنا هذه ، وسمعت منه أشياء كثيرة كان لها أكبر الأثر علي» .

باروخ ميتراني (١٨٤٧ ـ ١٩١٩)

بدأ باروخ ميتراني في ممارسة أنشطته القومية خلال الفترة التي تزايدت فيها في أوروبا قوة الاتجاهات اليهودية الداعية للهجرة إلى فلسطين ، وكان ميتراني من أبرز قادة حركة التنوير اليهودية في تركيا ، كما كان من أوائل الشخصيات التي أسست مدارس يهودية حديثة في أدرنة ، ومن أبرز دعاة إحياء اللغة العبرية ، وأصبح ميتراني وبفضل تأثير القلعي واحداً من أبرز دعاة الاستيطان اليهودي في فلسطين . وقد هاجر ميتراني إلى فلسطين في عامي ١٨٨٢ و١٨٨٤ ولكنه عاد إلى تركيا بسبب الصعوبات التي واجهها في فلسطين والتي لم تمكنه من الإقامة بها .

وقد نشر ميتراني العديد من المقالات في الصحف العبرية الصادرة في فلسطين مثل صحيفة «هحفتسيليت» وفي الصحف اليهودية الأوروبية مثل صحيفتي «همجيد» و«همفاشير» ، وفي الصحف الصادرة بلغة اللادينو . وقد أسس ميتراني مجلة «كرمي» التي نشرت مقالات كثيرة دعت إلى الاستيطان في فلسطين . وقد جاء في إحدى مقالاته التي نشرها في «هحفتسيليت» في عام ١٨٧٤ :

«يمكننا أن نهاجر معا إلى فلسطين . . إن صهيون في حاجة إلينا ، ونحن في

حاجـة إليها . . أليست صهيـون تفتقر لكل ما تحتـاج . . وألسنا نفتقـر في كل بلدان الشتات التي نقيم بها لكل ما نحتاج من عزة وكرامة» .

والتقى ميتراني في هذا الحين بالحاخام القلعي، وبحثا معا سبل تحقيق الخلاص، وفي حقيقة الأمر فإن دعوته للهجرة إلى فلسطين لم تلق قبولا خاصة أن أفكار الحركة الصهيونية لم تكن منتشرة إلا في أوساط عـدد محدود من يهود تركيـا، إذ كانت الشخصيات اليهـودية المستنيرة والثـرية التـي تلقت تعليمها في مـدارس الإليـانس أقـرب في تفكيرها إلى الفكـر الغربي من الفكر الصهيـوني، هذا بالإضافـة إلى أن البعض منهم تبنى الفكر الاشتراكي، كما أن بعضهم الآخـر انـدمج في صفوف الحركتين القـوميـة التركيـة والبلغاريـة وغيرهما، ولذلك فقد حل اليأس بميتراني، ويـرى البعض أن ميتراني أحس بخيبة الأمل من انتشار أفكار حركـة التنوير اليهودية التي كـان قد دعا إليها، وقد دعا ميتراني في إحـدى مقالاته التي نشرها في مجلة «كرمى» اليهود إلى الهجرة، وقد جاء في هذا المقال :

«فلنفعل ما فعلـه إبراهيم، ولنخرج من أرضنـا وموطننا إلى الأرض المقـدسة التي يوجد بها بيتنا وشعبنا وثروتنا وروحنا، فلنذهب إلى أرض كنعان ونقيم بها تحت حكم السلطان الرحيم» .

وكان الحاخام يوسف باروخ ماركو (١٨٧٢ ـ ١٨٩٩) من أبرز الشخصيات اليهودية في هذا المجال، وقد ولد ماركـو في عام ١٨٧٢ في القسطنطينية، وتلقى تعليمه في باريس التي تعرف فيها على أفكـار عديدة بدءاً بالفوضـوية وانتهاءً بضرورة تشكيل جيش يهودي واحتلال فلسطين . وتجول ماركو في العديد من البلدان كان من بينها مصر التي دعا أثناء إقامته فيها في عام ١٨٩٦ إلى القومية اليهودية واحتلال فلسطين .

ولم تلق هذه الأفكار قبول كل اليهود الأتراك، ولكنها أثرت في البعض منهم مثل إفراهـام جالانتي الـذي دعـا إلى إقـامة مستوطنـة يهوديـة في السـودان، ولكـن لم تشغل هذه الأفكار اهتمام اليهود الأتراك الذين حرص معظمهم آنذاك إما على الهجرة إلى المغـرب أو على الحصول على المزيـد من الحقـوق المدنيـة والاندمـاج في المجتمع . وبينما كان يهود أوروبـا يبحثون في هـذا الحين عن حل لمشكلـة تفشي مشاعـر العداء لليهود وفشل سيـاسة الانعتاق والتحـرر اليهودية ، فقـد كان يهود تركيـا بعيدين كل البعد عن مثل هذه المشكلات .

الصهيونية الحديثة

واجهت الحركة الصهيونية صعوبة بالغة في نشر أفكارها في بلدان الدولة العثمانية التي كانت تعارض دائما ممارسة الأنشطة القومية، ومن هنا كان من الضروري أن تمارس هذه الأنشطة بشكل سري. وبينما أقيمت في اليونان في نهايات القرن التاسع عشر بعض الروابط الصهيونية فقد تخوف يهود تركيا من تشكيل مثل هذه الروابط، ومع هذا أقيمت في عام ١٩٠٦ رابطة صهيونية في القسطنطينية، كما شهدت الفترة التي أعقبت نشوب ثورة تركيا الفتاة نهضة ملموسة في صفوف الحركة الصهيونية بتركيا، فأصبحت الحركة الصهيونية منذ هذا الحين حركة علنية بتركيا، فكانت ترسل مبعوثيها إلى المؤتمرات الصهيونية المختلفة. وقد تشكل في عام ١٩١٨ في اليونان اتحاد ضم كل المنظمات الصهيونية، كان مقره في سالونيكا، وقد صدرت في هذه المدينة العديد من الصحف الصهيونية كان من بينها صحيفة «المستقبل» الصهيونية، وكان من مظاهر الأنشطة الصهيونية في هذه المدينة أنه تشكلت بها العديد من الروابط الثقافية القومية كان من بينها «رابطة نشر اللغة العبرية»، ورابطة «مكابي» الرياضية، كما قامت بعض الشخصيات الصهيونية البارزة مثل بن جوريون وإبراهام بن تسفي بزيارة هذه المدينة قبل الحرب العالمية الأولى.

ومن المعروف أن هرتزل كان قد أجرى بعض الاتصالات مع السلطات العثمانية بغرض الحصول على المزيد من الحقوق في فلسطين، ولكن جهوده باءت بالفشل، وفي واقع الأمر فإن هرتسل لم يكن على القدر الكافي من الوعي بمدى حساسية تركيا إزاء مشكلات الأقليات.

والجدير بالذكر أن حاخامات اليهود في القسطنطينية الذين تزعمهم الحاخام موشيه هاليفي عارضوا الأنشطة الصهيونية، وقد جاء بالخطاب الذي بعثه الحاخام موشيه هاليفي في عام ١٨٩٥ إلى كبير حاخامات القدس الحاخام يعقوب شاؤول اليسار:

«أود أن أخبرك أنه أصبح من المحظور حالياً وبما يتماشى مع قوانين الحكومة الاشتراك في صحيفة «هتسفيراه» (الصفارة) خاصة أنها تنشر مقالات كثيرة عن الصهيونية التي نعارضها جميعا».

وكان من بين مظاهر عدم ترحيب يهود الإمبراطورية العثمانية بالحركة الصهيونية أن الحاخام موشيه هاليفي الذي تخوف من تعاون المستوطنين مع هرتزل أصدر تعليماته للحاخام يعقوب اليسار بضرورة مقاطعة الزيارة التي قام بها هرتسل إلى فلسطين في عام ١٩٠٢ ، ولكن قد تجددت العلاقات بين الحركة الصهيونية وتركيا في أعقاب ثورة تركيا الفتاة، ويرجع فضل تجديدها إلى المفكر الصهيوني ولفسون الذي بادر بالاتصال عبر بعض الشخصيات القيادية في تركيا مع السلطات العثمانية، ولكن لم تتزايد قوة هذه الاتصالات إلا بعد قيام ثورة تركيا الفتاة في عام ١٩٠٨ التي أحيت آمالا عديدة في أوساط الحركة الصهيونية .

وقد أسس الدكتور يعقوفسون في أعقاب هذه الثورة فرعاً للاتحاد الصهيوني في القسطنطينية ونجحت الحركة الصهيونية في الاتصال بالدوائر الحاكمة في تركيا من خلال الحاخام حاييم ناحوم الذي شغل منصب كبير الحاخامات في القسطنطينية وأعضاء البرلمان من اليهود، وكان الدكتور يعقوفسون حريصا على الاتصال بالسلطات التركية، خاصة أنه رأى أن نشر الفكر الصهيوني في أوساط يهود الدولة يعد على قدر كبير من الأهمية للحركة الصهيونية . أما عن موقف الحاخام حاييم ناحوم تجاه الصهيونية فقد رأى أن يهود الإمبراطورية لا يبالون بالحركة الصهيونية فحسب، وإنما يعارضونها أيضا خشية أن يثيروا غضب السلطات العثمانية تجاه اليهود .

وقد ساعد المفكر الصهيوني زئيف جابوتنسكي الدكتور يعقوفسون في مجال نشر الصهيونية في أوساط يهود الإمبراطورية، وحرصا على التعاون خاصة في سالونيكا مع شرفاء اليهود الذين كانوا من مؤيدي ثورة تركيا الفتاة، والذين كان من بينهم : يوسف ناعور كبير الحاخامات في سالونيكا والحاخام يعقوب مائير الذي أعرب عن تأييده للفكرة الصهيونية .

وقد انتخب يهود تركيا في عام ١٩١١ داوود النقوه لتمثيلهم في المؤتمر الصهيوني العاشر، وأصدر النقوه في القسطنطينية صحيفة يهودية مؤيدة للحركة الصهيونية . وليس من المعروف حقا أي موقف تبنته« ثورة تركيا الفتاة» تجاه الصهيونية . ففي الوقت الذي يرى فيه البعض أن قادة هذه الثورة أيدوا الصهيونية وأن هذه الثورة كانت من صنع اليهود فإن البعض الآخر يرى أن هذه

الثورة كانت معادية للفكر الصهيوني. ويرى الباحث يعقوب لانداو المتخصص في دراسة تاريخ يهود الشرق أن المسألة أكثر تعقيدا، وليس من الممكن حسمها بهذه السهولة، ومع هذا فمن الواضح أنه بينما نجح اليونانيون والأرمن والعرب في التأثير في النظام الجديد، بما يخدم مصالح حركاتهم القومية فإن الشخصيات اليهودية المقربة للسلطة والتي كان من بينها: الحاخام حاييم ناحوم وعمانوئيل كاراسو وموشي كوهين تخينالف أعربوا عن تحفظهم تجاه الحركة الصهيونية. ومن هنا فلم يكن لها بطبيعة الحال أي تأثير في موقف السلطة تجاه الأنشطة الصهيونية، ومع هذا فقد أظهرت نتائج الأبحاث التي أجريت أخيرا أنه جرت خلال عامي ١٩١١ و١٩١٢ محاولة لتوطين اليهود في القسطنطينية والأناضول، وكانت هذه المحاولة مرتبطة بحركة الهجرة اليهودية الضخمة من روسيا إلى تركيا، وبمحاولات نظام «تركيا الفتاة» لاستيعاب هؤلاء المهاجرين. وتمثلت المبررات التي طرحها مؤيدو فكرة الاستيطان اليهودي في القسطنطينية والأناضول في أن الوجود اليهودي في هذين المكانين سيساعد على نشر الفكرة الصهيونية في أوساط يهود تركيا، وعلى تقوية الوجود الصهيوني في فلسطين.

وتزايدت في سالونيكا بعد سقوطها تحت الاحتلال اليوناني، وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى قوة الحركة الصهيونية، فعقد قادة الحركة الصهيونية باليونان في عام ١٩١٨ مؤتمرهم الصهيوني في سالونيكا، كما عقدوا في نفس العام مهرجانات ضخمة للاحتفال بالذكرى الثانية لصدور وعد بلفور، فنظموا احتفالات ضخمة في شوارع المدينة شارك فيها مندوبون عن المحكمة اليونانية كما كان من بين مظاهر تزايد النشاط الصهيوني أنه تشكلت بالمدينة العديد من الروابط الصهيونية السياسية كان من بينها رابطة «العمال الصهاينة» ورابطتا «المزراحي» و«بيتار»، ولكن أدى تعدد الروابط الصهيونية إلى حدوث خلافات عديدة في أوساطها، وإلى تعرض الحركة الصهيونية لانشقاقات عديدة، بل إلى توقف النشاط الصهيوني إبان العشرينيات والثلاثينيات، ومع هذا تزايدت قوة الحركة الصهيونية بعد أن تزايدت قوة العداء لليهود في أوساط اليونانيين، ولذلك شهدت الثلاثينيات تزايد قوة حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وتزايدت قوة الحركة الصهيونية أيضا في تركيا إبان العشرينيات والثلاثينيات، وقد عبر كبير حاخامات تركيا الذي عارض الصهيونية في الماضي عن تأييده للنشاط الصهيوني، بل أصبح من أشد مؤيديه، وقد دعا أيضا إلى عقد المؤتمر الصهيوني ليهود تركيا في عام ١٩١٩، وشارك في هذا المؤتمر تسعة وأربعون مندوبا مثلوا يهود القسطنطينية وأزمير وأدرنة وأنقرة وبورسا، وعقد كل هؤلاء اجتماعهم في مكتب كبير الحاخامات في القسطنطينية، ورأس هذا الاجتماع الحاخام إسحاق نريا الذي كان يشغل آنذاك منصب نائب كبير الحاخامات. وتحدث الحاضرون في هذا الاجتماع عن ضرورة الربط بين أهداف الحركة الصهيونية وبين حصول يهود تركيا على حق الحكم الذاتي، ولكن السلطات التركية لم ترحب آنذاك بمثل هذه الأنشطة الصهيونية مما أدى إلى إسدال الستار بالكامل على النشاط الصهيوني في تركيا في نهاية الثلاثينيات، ومع هذا استمرت جماعة «هيحالوتس» (الرائد ـ الطليعي) في ممارسة أنشطتها التي اقتصرت على تنظيم حركة الهجرة إلى فلسطين.

وفيما يتعلق بسوريا فلم تبدأ الأنشطة الصهيونية فيها بشكل منظم إلا خلال الحرب العالمية الأولى، والفترة التي أعقبتها، حيث وصلت إلى سوريا هذا الحين عدة شخصيات يهودية كان من بينها بعض رجال الأعمال والمفكرين الصهاينة كان من بينهم يهودا بورلا ويوسف ريفلين وأفراهام المالح وحاييم نحمان بياليك وبيرل كاتسنلسون وناحوم جولدمان وشخصيات أخرى عديدة. أما حلب فقد بدأت فيها الأنشطة الصهيونية في مرحلة لاحقة، وقد كان للاتحاد العالمي لليهود السفاراد في هذا الحين دور نشيط في نشر الفكر الصهيوني في بلدان الشرق، فشكل قادة هذا الاتحاد فروعا عديدة في سوريا وأرسلوا مدرسين صهاينة إليها لتعريف يهود سوريا بطبيعة الأوضاع السائدة في فلسطين.

وقد تشكلت في دمشق في عام ١٩٢٩ جماعة من الرواد الصهاينة تمثلت أنشطتها في تشجيع اليهود على الهجرة والاستيطان في فلسطين، وكان مناحيم لوريا من أبرز أعضاء هذه الجماعة إذ عمل كثيرا من أجل تمكين يهود سوريا من الهجرة سراً إلى فلسطين. وتشكلت في أوساط الطوائف اليهودية في سوريا إبان الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين العديد من المنظمات الصهيونية كان من أبرزها منظمتا «مكابي» «وبني بريت».

وساعد الجنـود اليهود الذين وصلوا إلى حلـب إبان الحرب العالمية الثـانية يهود المدينة على الهجرة إلى فلسطين، وقامت راحيل يـائيت بن تسفي خلال هذه الفترة بتهجير العديد من الفتيات اليهوديات من سوريا إلى فلسطين.

وخلاصة الأمر أن يهود الدولة تعـرفوا على الفكر الحديث عن طريق ثلاث قنوات رئيسية: تمثلت القناة الأولى في دخول البلدان الأوروبية إلى بلدان الدولة، الأمر الذي أثر بطبيعة الحال في يهود الدولة، وتمثلت قناة التأثير الثانية في تأثير الحركات اليهودية الحديثـة بأوروبـا في يهود الـدولـة العثمانية، وتمثلـت قناة التـأثير الثالثـة في سيـاسـة التنظيمات التي يـرجع إليهـا فضل تحسين أحـوال اليهـود. ولاشك أن الحادثـة التي تعرض لها يهود دمشق في العصر الحديث شكلت نقطة تحول مهمة في تاريخ علاقات يهود الغرب بيهود الشرق، وساهمت كل هذه العوامل مجتمعة في أن المجتمع اليهودي بالشرق. شهد منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر العديد من الظواهر التي عبرت في مجملها عن مدى محاكاة يهود الدولة لأساليب الحياة الغربية، وكان من بين مظاهر هذا التأثير أنه ظهرت في أوساط يهود الدولة العديد من الحركات والاتجاهات كان من بينها الحركة العمالية، والحركة القومية اليهودية.



الفصل الخامس

التنوير والتعليم

حينما بدأ أثـرياء ومفكرو يهود أوروبا في الاهتمام بأوضـاع يهود الشرق، ظهرت في أوساط يهود الدولة في نفس الحين بضع شخصيات يهودية يحق لنا القول إنها تمثل أولى قيـادات حركـة التنـوير اليهـوديـة في الدولـة العثمانيـة. ويعد أفـراهـام كمونـدو في القسطنطينيـة، ويوسف هـاليفي في أدرنة، ورفـائيل عـوزيال في أزمير من أبـرز يهود الدولـة الذين دعـوا إبان الأربعينيـات والخمسينيات من القـرن التاسع عشر إلى نشر الفكر الحديث في أوساط اليهود. وقد شعرت الشخصيـات اليهودية الثرية الأوروبية عند زيارتها لتركيا واليونان بأن هذه الشخصيات المستنيرة تعد من «مبشري الحداثة»، ولذلك طالبوها ببذل كل مافي وسعها لنشر الفكر الحديث في أوساط طوائفهم.

وفيما يتعلق بالخلفية الشخصية والاجتماعيـة والثقافية لهذه الشخصيات، فقد كانت غالبيتها مـن نسل العائلات الإيطالية اليهودية التي استقـرت بالدولة، كما كان بعضها الآخر من نسل عائلات برتغـالية الأصل، ومن العائلات الثرية التي اشتغلت بالتجارة، والتي كـانت لها صلات قوية بالشخصيـات الأوروبية سواء من بين اليهود أو من غيرهم، كما كان بعضها الآخر من أبناء عائلات دينية عريقة أتيح لها إبان القـرن التاسع عشر تلقي قسط وافـر من التعليم الحديث. وقد تمثل القاسـم المشترك بين كل هذه الشخصيـات في أنها تلقت تعليما أوروبيا حـديثا، وفي أنه كانت لها علاقات قوية بالأوروبيين بالإضافة إلى أن كل هذه الشخصيات تأثرت بدرجـات متفاوتة بالفكر الإيطالي. وفي حقيقـة الأمر يسلم جميع الباحثين بحقيقـة أن يهود إيطـاليـا أثـروا تأثيرا ضخما في يهود الـدولـة، لا سيما أن تـاريخ علاقات يهود إيطاليا بيهود تركيـا يعود إلى القرن السادس عشر، وقد شملت هذه العلاقات مجالي التجارة والاقتصاد.

وقد تزايدت قوة العلاقات بين هذه الطوائف بشكل ملحوظ إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولذلك تسللت بعض المؤثرات الإيطالية إلى حياة اليهود في تركيا، واستمرت هذه العلاقات طيلة القرن التاسع عشر.

وقد أدرك يهود تركيا في مرحلة مبكرة من القرن التاسع عشر أنه إذا لم تطرأ أي تغييرات على نظام التعليم اليهودي وعلى أساليب الحياة التقليدية التي يتبعونها فلن يصبح بمقدورهم مواجهة تحديات العصر فأسست الشخصيات اليهودية المستنيرة في هذا الحين العديد من المدارس الحديثة، التي تلقى الجيل الثاني من المستنيرين اليهود في تركيا تعليمه بها، وبالمدارس الأوروبية الحديثة المنتشرة في كل من تركيا والبلقان، والجدير بالذكر أن معظم المستنيرين من يهود تركيا تلقوا في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين دراستهم في مدارس الإليانس الأوروبية.

وسنسعى هنا للتعرف على الخلفيتين الاجتماعية والثقافية لكل مفكر من مفكري «حركة التنوير اليهودية» في تركيا:

١ - الحاخام يهودا نحما (١٨٢٦-١٨٩٩)

كان هذا الحاخام من عائلة ترجع أصولها إلى مدينة سالونيكا، وكانت زوجته من عائلة يهودية ثرية من أصل إيطالي، وقد افتتح محلا لبيع الكتب والمخطوطات اليهودية، وسرعان ما أصبح على قدر كبير من الشهرة في أوساط يهود أوروبا المهتمين باقتناء الكتب القديمة الصادرة بالشرق وبالتعرف على النتاج الأدبي في هذه البلدان. وتدل المراسلات التي جرت بين الحاخام نحما وبين قادة «حركة التنوير اليهودية» في أوروبا على مدى قوة العلاقة التي كانت بينه وبين الشخصيات اليهودية المستنيرة في أوروبا، وتوضح أيضا أن أفكار حركة التنوير اليهودية كانت منتشرة في هذا الحين في سالونيكا، وشملت مراسلات هذا الحاخام أبرز مفكري يهود أوروبا الذين كان من بينهم شموئيل ديفيد لوتساتو، وأفراهام جيجر، وتسونتس، وبيرتس سمولنسكين، وباشاروبين. وقد بحث في مراسلاته معهم العديد من القضايا الخاصة باللغة العبرية، كما طرح فيها أيضا العديد من التفاسير التارخية والفيلولوجية لبعض قضايا التاريخ اليهودي.

وكـان الحاخام نحما شـديد الاهتمام بـالمخطـوطات والكتب اليهـودية العتيقـة، وتضمنت خطابـاته مـادة غزيـرة عن النتاج الثقـافي ليهود سـالونيكا، وعـن الوضع الراهن ليهود المدينـة، وتدل خطاباته على أنـه كان على قدر كبير من المعرفـة بالعلوم اليهودية، وعلى دراية واسعة باللغات الأجنبية. ويعد الحاخام يهودا نحما حقاً بمنزلة إحـدى حلقات الـوصل التي تم من خـلالها انتقـال الثقافـة الغـربيـة إلى يهود تركيـا وسالونيكـا، وذلك لقوة اتصالاته بقادة حـركة التنوير اليهوديـة في أوروبا، كما يرجع إليه أيضـا فضل نقل ثقافـة يهود الشرق إلى أوروبا، ولذلك أطلـق البعض عليه اسم «مندلسون تركيـا»، نسبة إلى الفيلسوف اليهودي موشيه مندلسون رائد حـركة التنوير اليهودية في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكان من بين أنشطته الثقافية قيامه بترجمة العديد من الأعمال التاريخية إلى لغة الـلادينو التي كانت شائعة في أوساط يهود تركيا، كما ألـف كتابا عن يهود سالـونيكا، وكان نحما من رواد الصحافـة اليهودية في مدينتـه فأصدر في عام ١٨٦٤ صحيفة «اللونار»، وكان من أهم أنشطتـه أيضا قيامه بتطويـر نظام التعليم اليهـودي في سالونيكـا، وتأسيسه مـدارس يهودية حـديثة تتبع النظم التعليمية المتطورة، وقـد تعاون في هذا المجال مع مدارس الإليـانس. وقد دعا الحاخام نحما في أعماله إلى تغيير نظم حياة اليهود، كما دعا إلى إقامة مؤسسات خيرية للمساهمة في تحقيق أهداف النظم التعليمية الحديثة. وقد جاء في أحد أعماله. :

«ليس من شأن كل التبرعات مساعدة إخواننا، وليس من شأنها مساعدة الآلاف أو المئات الـذين في حاجـة إلى مساعـدة، أو تغيير أوضاع الفقـراء والمرضى والشيوخ والعـاطلين عن العمل، ولكن من الممكن أن تخدم التبرعـات المتعطشين للمعرفـة، وسيضل الآلاف من أبنائنا الطريق إذا لم تحصل مدارسهم على الدعم».

وقد أسـس مدارس لتعليم أبنـاء اليهود في سالـونيكا المهن المختلفـة، كما أسس أيضا العديد من الملاجىء وكتب في عقد الثمانينيات بخصوص هذا الشأن:

«إن هناك حاجة ماسة لتأسيس العديد من المدارس المهنية لأبنائنا، ونستطيع أن نفتخر نحن أبنـاء سالـونيكا بأنـه توجـد بمدينتنـا مدارس لتعليم أصـول الشريعة، ومـؤسسات خيريـة لمسـاعدة الفقـراء والمرضى، ومـدارس أخرى لتعليم اللغـات، ومدارس أخرى للأطفال الذين هم دون السادسة من العمر».

والجدير بالذكر أن الحاخام يوسف نحما كان من دعاة إحياء اللغة العبرية، وكان شأنه في هذا المجال شأن سائر زملائه من المستنيرين في تركيا الذين كان من بينهم يوسف هاليفي وباروخ ميتراني ونسيم بيخر.

٢- الدكتور موشيه الاطيني (١٨٠٩-١٨٨٢)

كان الدكتور الاطيني من عائلة إيطالية ثرية اشتغل أبناؤها بالتجارة وبالطب، وقد أنهى دراسته للطب في مدينة باروفا، وكانت له في هذه المدينة بعض الأنشطة التجارية فكان له مصنع للتبغ، وبعض الشركات التجارية. وسعى الدكتور الاطيني بعد توليه لرئاسة الطائفة اليهودية في سالونيكا لنشر فكر حركة التنوير في أوساط سكانها من اليهود، وساهم في تأسيس العديد من المؤسسات التعليمية والاقتصادية الخاصة بيهود سالونيكا. وكان الدكتور الاطيني يشعر في الحقيقة بأسى بالغ إزاء تدهور الأوضاع التعليمية ليهود سالونيكا، وجاء في أحد خطاباته التي بعثها إلى فرانكل:

«يواجه معظم اليهود في شبابهم العديد من المشكلات وبينما يشتغل معظمهم بالتجارة فإن قلة قليلة منهم تعمل في المجالات الأخرى، ولكن الآخرين منهم يتسكعون في الطرقات».

وأعد الاطيني تقريرا عن وضع التعليم اليهودي في بلدان الشرق عامة وفي سالونيكا على وجه الخصوص، وقدمه إلى لجنة مندوبي الطوائف اليهودية في إنجلترا، ، وقدم في هذا التقرير وصفا مفصلاً للعوامل المتسببة في تدهور المستوى الثقافي ليهود الشرق، وسبل إصلاح هذا الوضع، وأوضح في تقريره أن أطفال اليهود يتلقون تعليمهم في المدارس المسيحية والحكومية على حد سواء وأن تفشي الفقر في أوساط يهود سالونيكا لا يساعد على الارتقاء بمستواهم الاجتماعي.

وأكد الاطيني في تقريره أن أسباب تقدم الوضع التعليمي لدى اليونانيين وسكان تركيا تكمن في انتشار المدارس في معظم القرى والضواحي، وأوضح أن روح الفساد والتخلف المسيطرة على السلطة العثمانية أثرت بالسلب في يهود تركيا الذين مازالوا منغلقين على ذواتهم وبعيدين عن روح العصر، وكان من بين المساوىء التي ذكرها

الاطيني أن يهود الدولة مازالوا يتحدثون لغة اللادينو- التي هي مزيج من التركية واليونانية والعبرية- وأن الأحياء التي يعيشون فيها أصبحت تضيق بهم. وعلى كل حال فإن الصورة التي قدمها الاطيني في تقريره كانت مظلمة وكئيبة للغاية، وأعرب الاطيني في نهاية تقريره عن إحساسه بالارتياح إزاء حرص يهود أوروبا على متابعة أحوال يهود الشرق، ورأى الاطيني أن الزيارات التي تقوم بها الشخصيات اليهودية البارزة مثل موشيه مونتيفيوري وإدولف كرميه ومندوبي عائلة روتشيلد والبارون روتشيلد، والمساعدة التي يقدمونها ليهود الشرق تساهم في تطوير أوضاعهم.

٣- أفراهام كاموندو

كان كاموندو واحدا من أبرز قادة الطائفة اليهودية في القسطنطينية خلال منتصف القرن التاسع عشر، وكان ينتمي إلى عائلة برتغالية الأصل ارتحلت من فينسيا إلى تركيا. وكان بعض أبناء هذه العائلة إبان القرن الثامن عشر من أثرياء اليهود في القسطنطينية الذين قدموا مساعدات مالية ضخمة إلى المستوطنين اليهود في فلسطين، وكان من بين أنشطة هذه العائلة قيامها بتحويل الأموال من شرق أوروبا إلى اليهود الأشكناز في فلسطين.

وكان جد كاموندو قد اضطر في نهايات القرن الثامن عشر للهروب من القسطنطينية إلى النمسا التي نعم فيها باللجوء السياسي، وكانت لهذه العائلة علاقات تجارية متشعبة في كل من إيطاليا ووسط أوروبا.

وتأثر كاموندو في مرحلة مبكرة من عمره إبان الفترة التي قضاها في النمسا بفكر حركة التنوير الأوروبية فأسس بعد عودته إلى تركيا عدة مدارس في القسطنطينية، كما دعا آنذاك إلى إعادة تنظيم الطائفة اليهودية، مما أثار غضب الحاخامات، وتمكن كاموندو بفضل المساعدة التي حصل عليها من عائلة روتشيلد اليهودية من أن يؤسس في عام ١٨٥٤ أول مدرسة يهودية حديثة في القسطنطينية، وقد رأسها آنذاك الدكتور ألبرت كوهين، كما قدم كاموندو أيضا تبرعات مالية ضخمة من أجل إنشاء مدرسة «مكفه يسرائيل» في فلسطين، ولذلك أطلق البعض عليه اسم «روتشيلد الشرق».

٤- يوسف هاليفي (١٨٢٧-١٩١٧)

كان يوسف هاليفي من بين الشخصيات اليهودية المستنيرة بتركيا، ومن أبرز المتخصصين في حينه في الدراسات الشرقية، وعرف عنه قيامه بالعديد من الرحلات الاستكشافية إلى يهود الفلاشا في أفريقيا وإلى اليمن، وكان هاليفي من دعاة إحياء اللغة العبرية، ومن مؤيدي حركة «محبة صهيون». وكان من أول أنشطته قيامه في عام ١٨٥٠ بمحاولة لتحويل إحدى المدارس الدينية التي أشرف عليها إلى مدرسة تتبع النظم التعليمية الحديثة، وأثارت هذه المحاولة غضب الحاخامات الذين لم يتوقفوا عن اضطهاده، مما أجبره على ترك أدرنة والانتقال إلى باريس التي تفرغ بها لدراساته الأكاديمية.

وسافر يوسف هاليفي في عام ١٨٦٨ في مهمة بحثية إلى الحبشة لإعداد بحث عن يهود الفلاشا، وسافر في العام اللاحق إلى اليمن لجمع مادة علمية عن كتابات سبأ، وعن أوضاع اليهود، وقام بهذه المهمة من قبل الأكاديمية القومية الفرنسية، والإليانس.

٥- رفائيل عوزيال من أزمير

يعد رفائيل عوزيال بمنزلة رائد الصحافة اليهودية الصادرة بلغة اللادينو في الشرق، حيث أصدر في عام ١٨٤٢ صحيفة «الأمل الطيب»، وأصدر في عام ١٨٤٦ صحيفة «أبواب الشرق» ولا نعرف عن عوزيال سوى أنه كان من عائلة دينية ترجع أصولها إلى يهود الأندلس، وعاش أبناء هذه العائلة في أماكن شتى شملت المغرب و إيطاليا وهولندا وتركيا، وأقامت هذه العائلة في أزمير منذ فترة قديمة للغاية.

وقد أوضح رفائيل عوزيال في العدد الأول من صحيفة «أبواب الشرق» أهداف جريدته، فجاء بهذا العدد: «إن الصحيفة ستؤدى إلى إحياء العديد من الأشياء الجميلة في مدينتنا، وستنشر مقالات جيدة ومفيدة للشعب اليهودي، وستفتح ليهود تركيا أبواب الضياء، وبهذا سنصبح مثل إخواننا اليهود في أوروبا الذين يصدرون صحفا باللغة العبرية وباللغات الأخرى».

التعليم

تم إرساء حركة التنوير الغربية في أوساط يهود الدولة بعد أن تأسست خلال منتصف القرن التاسع عشر العديد من المدارس والصحف والمؤسسات الطبية الحديثة، كما أقيمت في فلسطين في نفس الفترة العديد من المدارس الحديثة التي كانت تعبر أيضا عن فكر حركة التنوير الأوروبية.

وقد سعت بعض الشخصيات اليهودية المستنيرة في الأربعينيات من القرن التاسع عشر لتأسيس بعض المدارس الحديثة في فلسطين، وقد نجح أ. فرانكل في عام ١٨٥٦، وبعد صراع مرير مع الحاخامات في تأسيس مدرسة يهودية حديثة في فلسطين. وكان انتشار أفكار حركة التنوير في فلسطين أمراً بالغ الصعوبة حيث بذلت الدوائر الأرثوذكسية بغرب أوروبا ومندوبوها في فلسطين كل مافي وسعها للحيلولة دون انتشار الأفكار المستنيرة في فلسطين، وسعت إلى الحفاظ على طابعها المحافظ، ومن جهة أخرى كان اليهود السفاراد في فلسطين أكثر استعدادا لتقبل هذه الأفكار.

النظام التعليمي

استمر يهود الدولة العثمانية حتى منتصف القرن التاسع عشر في تلقي تعليمهم في المدارس الدينية المحافظة التي كانت تعرف باسم «تلمود توراة»* التي كان يدرس بها الأطفال والفتيان، وفي المقابل كان نصيب الفتيات اليهوديات بالدولة العثمانية من التعليم محدودا للغاية، ومع هذا فقد تلقت الفتيات تعليمهن بشكل غير منتظم، وقد كانت المدرسة الدينية المحافظة في سالونيكا من أشهر المدارس الدينية في كافة أنحاء الدولة. وكان المدرسون في هذه المدارس التقليدية المحافظة يمسكون عادة

* تلمود - توراة: اسم يطلق على المدرسة التي يتلقى فيها الطفل اليهودي المعارف الأولية للقراءة ويدرس أجزاء من التلمود، وكانت تقع عادة بجوار المعابد. وكانت العادة بين اليهود أن يدرس الطفل في البداية في «بيت-سيفر» (مدرسة) ثم ينتقل إلى المرحلة الأعلى التي تسمى «بيت همدراش» (المدراس). وكانت العادة أن يطلق على المدرسة التي يقوم عليها فرد واحد فقط (بيت رف) «بيت سيدنا» ويطلق على من يدرس فيها «أطفال بيت سيدنا». وقد حدث تطور في المدارس اليهودية التقليدية بعد ذلك وأصبح يطلق على المدرسة الدينية المعنية بتدريس التلمود «تلمود توراة» - (المراجع).

بالعصا في الفصل الذي كان يضم ما يقرب من العشرين تلميذا، واقتصرت الدراسة في هذه المدارس على تدريس كتاب الصلوات وبعض آيات العهد القديم، واعتمد هؤلاء المدرسون في شرحهم لنصوص العهد القديم على ترجمات العهد القديم بلغة اللادينو، ولم تبدأ هذه المدارس في تدريس مبادىء علم الحساب، واللغة العبرية إلا منذ القرن التاسع عشر، ومع هذا استمرت هذه المدارس في تدريس بعض فصول التلمود للتلاميذ، ولكن دراستها كانت مقصورة على الفصول المتقدمة. وكان المدرسون يقسمون في أحيان نادرة الفصل إلى عدة مجموعات، وكانوا يعملون مع كل مجموعة على حدة. وكان مستوى التعليم في هذه المدارس متدنيا للغاية، كما كانت ترجمات العهد القديم، المتداولة في أوساطهم قديمة للغاية، ومن هنا لم يفهمها المدرسون أو التلاميذ إلا بصعوبة بالغة.

ويتضح من المصادر اليهودية التي تناولت أوضاع التعليم اليهودي بالإمبراطورية العثمانية خلال القرن التاسع عشر أن النظام التعليمي كان يشهد آنذاك أزمة عميقة، فكان مستوى المدرسين اليهود متدنيا للغاية، وإن صعوبات المعيشة التي واجهها الآباء حالت دون تعليم أبنائهم بشكل مناسب، فلم يعرف الأبناء طريقة الصلوات، ولم يعرفوا في أحيان كثيرة مضمون كتاب الصلوات. وقد ذكر الحاخامات اليهود أثناء القرن التاسع عشر أن مستوى الطلاب اليهود المنتظمين في مدارسهم متدن للغاية، وأن أعدادا كبيرة من التلاميذ اليهود تركت المدارس وراء الرزق. وكان من بين مظاهر التدهور أيضا أن أوضاع المدرسين اليهود كانت متدنية للغاية فكانت أجورهم لا تكفيهم في معظم الأحيان، وفيما يتعلق بالمدارس اليهودية فقد كانت نفقاتها تأتي في معظم الأحيان عبر الضرائب التي كانت تفرضها الطائفة على أبنائها والتي كانت تدعى تبرعا.

وطرأت إبان الخمسينيات والستينيات تغيرات كثيرة على المناهج التعليمية المتبعة في المدارس الدينية، وافتتحت فصول مسائية لتدريس اللغات الأجنبية وعلم الحساب، وكانت هذه الفصول تحظى بدعم من قبل الشخصيات اليهودية الثرية بالطائفة، وتلقى اليهود الذين درسوا في المدارس اليهودية الحديثة أصول الشريعة اليهودية واللغات الأجنبية مثل الإيطالية والفرنسية والتركية، والحساب والطبيعة والجغرافيا.

الإليانس :

تأسست في الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر العديد من المدارس اليهودية الحديثة بالإمبراطورية العثمانية، وكانت هذه المدارس تحظى بمساعدة مالية من قبل الشخصيات اليهودية الثرية بأوروبا التي أرسلت أيضا مديرين إلى هذه المدارس، ومع هذا فلم يتطور نظام التعليم اليهودي بالإمبراطورية إلا بعد أن قامت هيئة الإليانس بتأسيس العديد من مدارسها في أقطار الدولة. وقد رأت هذه الهيئة التي تأسست في باريس في عام ١٨٦٠ أنه يتعين عليها العمل على نشر فكر حركة التنوير الأوروبية في أوساط يهود الشرق، والعمل على تقديم المساعدة ليهود هذه البلدان، كما تطلع قادة هذه الهيئة إلى النجاح في أن يجعلوا من اليهود مواطنين مفيدين لدولهم.

وفي بدية الستينيات من القرن التاسع عشر، طلبت بعض الشخصيات اليهودية المستنيرة في تركيا واليونان من هذه الإليانس تقديم المساعدات بغرض إنشاء مدارس يهودية حديثة في بلدانهم، واستغرقت عملية إنشاء مدارس الإليانس في هذه البلدان فترة طويلة بسبب الصعوبات التي واجهها اليهود في جمع الأموال اللازمة علاوة على أن حاخامات سالونيكا، على سبيل المثال، أبدوا تحفظهم تجاه النظام التعليمي الحديث، ولكن أنشئت أولى مدارس الإليانس في اليونان في عام ١٨٦٥.

وقد أقيمت في سالونيكا في عام ١٨٧٣ وبعد أن تم الحصول على تأييد الحاخامات، مدرسة حديثة للبنين تم افتتحت الإليانس في العام التالي مدرسة أخرى للفتيات وبتأييد من البارون هيرش. وتفيد شهادة الدكتور الاطيني التي يرجع تاريخها إلى هذا الحين أن عدد البنين الدارسين في مدارس الإليانس يقدر بمائتين وعشرة تلاميذ، وأن عدد الفتيات يقدر بمائة وخمسين طالبة، وقد وصل عدد التلاميذ الدارسين في هذه المدارس في عام ١٩٠٩ إلى ألفين وثلاثمائة طالب.

وشكلت الإليانس في القسطنطينية في عام ١٨٦٣ لجنة إقليمية ضمت في أوساطها أعيان الطائفة اليهودية الذين تزعمهم آنذاك أفراهام كاموندو، ومن المعروف أن أعضاء هذه اللجنة كانوا في اللجنة التي تشكلت في عام ١٨٦٤ بموجب دستور «الحاخام حنا»، والتي كانت مكلفة ببحث كافة قضايا اليهود.

وتجدر الإشارة إلى أن الشخصيات اليهودية المستنيرة بـادرت بإنشاء مدارس الإليانس في تـركيا واليـونان لما كـانت تشعـر به من قلق بـالغ إزاء ظـاهرة التحـاق الأطفال اليهـود بـالمدارس التبشيرية والمسيحيـة والحكوميـة في أزمير، حيث شهـد الربع الأخير من القـرن التـاسع عشر، على سبيل المثـال، وجـود مـا يـربـو على خمسمائة طفل يهودي في المدارس المسيحية. وكـانت هيئة الإليانس قـد واجهت صعوبات بالغـة في حشد الأموال الـلازمة لإقامـة مدرسـة في كل حي، ومع هذا فقـد نجحت في القسطنطينية في إقـامة مـدرسة في كوسكـونجوك الذي كان يضم أعـدادا كبيرة من فقراء اليهود، وفي مرحلـة لاحقة أقيمت وبدعم من البارون هيرش مدارس للإليانس في حيي أورطا كوي وبالانت.

وأنشئت في المدينة فيما بعد ست مـدارس تابعة للإليانس، وكـانت كل مدرسة تضم قسما خاصا بالبنين وقسما آخر للفتيات، وسرعان ما تزايد تعداد التلاميذ الدارسين في هذه المدارس، وكان للإليانس في عام ١٩١٤ أربع عشرة مدرسة في القسطنطينية.

وقـد تأسست في أزمير في عـام ١٨٦٤ أول مــدرسـة محليـة لليهـود، وسـاهمت الإليـانس في تأسيسهـا بـالرغم من أنها لم تكـن تابعـة لها، وأقيمت في أزمير في عـام ١٨٧٣ أول مدرسة تـابعة للإليانس، وأنشئت فيما بعد خمس مـدارس أخرى، وتفيد معطيات الإليانس أن ألف تلميـذ يهودي درسوا في مدارسها في نهايـات القرن التاسع عشر وأن حـوالي ألفي تلميـذ يهودي تلقـوا تعليمهـم في مـؤسسـات «تلمـود تـوراة» الدينية، وفي المدارس المسيحيـة والحكومية. ولاشك في أن تزايد عدد التـلاميذ اليهود الدارسين في المدارس الأجنبية قـد أثر في الوعي الثقافي ليهـود المدينة، وأدى إلى ظهور جيل جديد من اليهود يعرف شيئا عن تعاليم الديانة اليهودية.

وقد أقيمت في أدرنـة في عام ١٨٦٨ أول مدرسـة تابعـة لهيئة الإليانس، وكـانت هذه المدرسة نموذجا للنجاح الـذي أحرزته الإليانس في تركيا، والجدير بالـذكر أنه قد أقيمت آنذاك عشرات المدارس الأخرى في كافة المدن والضواحي في كل من تركيا واليونان.

وأقيمت في دمشق في عام ١٨٦٥ أول مدرسـة تابعة للإليـانس، وأقيمت مدرسة أخرى في حلب في عام ١٨٦٩، وقـد كان الوضع الثقافي والتعليمي آنـذاك في سوريا متدنيا للغاية، ومن هنا فإن رياح حركة التنوير اليهودية لم تصل إلى يهود سوريا إلا في

بـدايات القـرن العشرين . وقـد ذكر أفـراهام المالح الـذي تـولى آنذاك إدارة إحـدى المدارس اليهوديـة في دمشق : «بالـرغم من أن مـدينتنا لا تبعد كثيرا عـن حيفا إلا أن يهود حيفا أكثر تقدما من الناحية الثقافية من يهود دمشق» .

وكان يهود دمشق يتحـدثون اللغـة العربية فقط ، ولم تكن لهم أي معـرفة بـاللغة العبرية أو باللغات الأوروبية . ويتضح مما ورد في الكتاب الذي أصدره أفراهام المالح عن يهود دمشق أنـه في الوقت الـذي حافظت فيـه الديـانة اليهـودية في سـوريا على تقاليدها لم يكن لليهود بسوريا أو للمستنيرين منهـم أي معرفة بتاريخ الحركة القومية اليهودية أو بأحداث العالم اليهودي . أما عن الوضع التعليمي ليهود سوريا فقد تلقى أبناء الأثرياء منهم دراستهم في المدارس المسيحية ، وفيما يتعلق بمدرسة الإليانس فقد افتتحت في عام ١٨٨٠ مـدرسة للبنين ومدرسة أخـرى للفتيات في عام ١٨٨٣ ، كما افتتحت في دمشق في عام ١٩١٠ مدرسة التحق بها المئات من تلاميذ اليهود .

وقد حرصت هيئة الإليانس أثناء وجودها بالشرق على افتتاح العديد من المدارس المهنية للبنين وللبنات فأسست في القسطنطينية أربع مـدارس حرفية تعلم فيها اليهود العديد من المهن مثل الخراطة والنجارة والحيـاكة وغيرها من المهن ، وسعت الإليانس إلى تأسيس مدرسـة زراعية لليهود في أزمير ، كما أسست الإليـانس في فلسطين في عام ١٨٧٠ مدرسـة «مقفه يسهائيل» التي تعلم فيهـا اليهود العديد من المهن اليـدوية . ولاشك في أن المدارس التي أقامتها هيئة الإليانس ليهود الدولة العثمانية كان لها أعظم الأثر في يهود الإمبراطورية ، ويكفينا في هذا المجال معرفة أن كل الصحفيين والمؤرخين والمحامين والأطباء اليهود في الإمبراطورية كانوا من خريجي هذه المدارس ، ولعبت كل هذه الشخصيـات دوراً ضخماً في تغيير أوضاع المجتمع اليهـودي وتحويله من مجتمع تقليدي يتحكم فيه الحاخامات وأثرياء اليهود إلى مجتمع حديث . وبالرغم من تعدد وجهات النظر الخاصة بأهمية الدور الـذي لعبته الإليانس في تاريخ يهود الدولة ، إلا أنه لاشك في أن هذه المدارس غيرت أساليب حياة وتفكير يهود الـدولة . وبالرغم من أن هـذه المدارس لم تحرص على تشجيع طـلابها من اليهـود على تبني أفكـار الحركـة الصهيونية أو على التمسك بقيم الديانة اليهـودية إلا أن معظم قادة الحركة الصهيونية في كل من اليونان وتركيا كانوا من خريجي مدارس الإليانس .

ويمكننا بشكل عام قول إن مدارس الإليانس ساهمت في تعريف يهود الشرق بالثقافة الغربية، ولكنها أدت إلى ابتعادهم عن التقاليد اليهودية، ولكن من الواجب أن نتساءل هنا: كيف لم تؤد مدارس الإليانس إلى ظهور حركة تنوير يهودية، أو إلى ظهور حركة يهودية ثورية في الدولة، أي كما حدث في أوساط يهود أوروبا؟

الخلاف بين المجددين والمحافظين:

شهد المجتمع اليهودي في الدولة العثمانية — كما حدث في المجتمع اليهودي في أوروبا — خلافات حادة بين الاتجاهات الداعية إلى تجديد النظم التعليمية ونشر الفكر الحديث وبين الاتجاهات الداعية إلى التمسك بالتقاليد اليهودية، ولكن الخلافات التي شهدها المجتمع اليهودي بالدولة كانت أقل حدة من تلك التي نشبت في أوساط اليهود الأوروبيين، فبينما أسفرت الخلافات التي حدثت في أوروبا عن ظهور العديد من الاتجاهات الاجتماعية والدينية والتي كان من بينها حركة الإصلاح وحركة التنوير والحركة الإرثوذوكسية، فإنه لم تظهر في أوساط يهود الدولة مثل هذه الحركات، حيث إن الخلافات التي وقعت في أوساط يهود الدولة كانت محدودة التأثير، أضف إلى هذا أنها لم تدم طويلا.

وقد كانت الخلافات التي وقعت في أوساط يهود القسطنطينية شديدة الحدة، فلم تقتصر هذه الخلافات حول قضية التعليم وسبل تطويره، وإنما امتدت لتشمل قضايا أخرى خاصة بمدى شرعية القيادة اليهودية التقليدية، وفي الواقع قد نجمت بعض هذه الخلافات عن سياسة الإصلاحات العثمانية التي انتهجتها الدولة، وتزايدت حدة الخلافات بين الحاخامات وبين مؤسسي المدارس الحديثة، بعد أن تأسست في القسطنطينية في الخمسينيات والستينيات العديد من المدارس اليهودية الحديثة، كما تزايدت في أدرنة وسالونيكا والقدس حدة النزاعات بين الجماعات الداعية إلى الحداثة وبين الجماعات الداعية إلى التمسك بالتقاليد. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشخصيات اليهودية الأوروبية التي ساهمت في تأسيس المدارس اليهودية الحديثة والتي تولت الإشراف عليها ساهمت في تزايد حدة هذه الخلافات، إذ إنها استخفت في أحيان كثيرة ولدرجة مهينة بالتقاليد السائدة في أوساط يهود الشرق، كما

تعاملت في أحيان كثيرة بشيء مـن التعالي معهم، وقد اعتمد قادة مـدارس الإليانس في هجومهم على يهود الشرق وحـاخاماتهم على أن هـؤلاء الحاخامات لم يقدمـوا شيئا يذكر ليهود الشرق ولم يساهموا في الارتقاء بأوضاعهم.

وقد أعرب بعض حـاخامات الشرق عن تأييدهم لفكرة إقـامة المدارس الحديثة، وللخطط الهادفـة إلى الارتقاء بأوضـاع اليهود، فحظي مشروع إنشـاء إحدى المدارس اليهودية الحديثـة بتأييد حاخامـات الشرق وبتأييد كبير حاخامـات القدس الحاخام حاييم نسيم أبـو العافيـة. أما الحاخامـات الأشكناز فإنهم عـارضوا بشـدة مثل هذا المشروع، وفي الحقيقة فإن موقفهم هذا كان بالـغ التأثر بموقف الحاخامات الأشكناز في أوروبا الغـربية، ومع هـذا كان الحاخـام يعقوب شـاول اليسار– الـذي كان كبير الحاخامات في القدس في نهايات القرن التاسع عشر – من بين مؤيدي إقامة المدارس الحديثة ونشر الفكر المستنير.

وقد شهدت القسطنطينية خلافا شديدا بعد أن أسس بها أفراهام كاموندو في عام ١٨٥٨ مـدرسة حـديثة، وكـان الحاخـام إسحاق أكـريش من أشـد معارضي هـذه المدرسة، فعقد اجتماعا ضخما ضم حاخامات القسطنطينية، وقرروا في نهاية الاجتماع مقاطعـة كامـوندو وعـدم التعامل معه. ولكن بعـد أن تدخل رؤسـاء الطائفـة لدى السلطات قامت السلطات باعتقال الحاخام أكريش وأوقفت أنشطته، ولكن سرعان ما أطلق سراحه بعـد أن أعرب يهود القسطنطينية عن تذمرهم من هـذا الإجراء. وقد شكل هذا الخلاف بداية الخلافات التي دامت بين الاتجاه الداعي إلى الحداثة والاتجاه الداعي إلى التمسك بالتقاليد طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وفي سالونيكا أعرب كبير حاخامات المدينة الحاخام آشير كوفو، وبعد فترة طويلة من التردد، عن تأييده لقادة الإليانس وللشخصيات اليهودية المستنيرة التي دعت إلى إقامة مـدارس حديثة، كما أعرب نـائب كبير حاخامات القسطنطينيـة في الستينيات الحاخام ياقير جيرون عن تأييده لتأسيس المدارس اليهـودية الحديثة في مدينته، حيث رأى أن هذه المدارس تقدم خـدمة جليلة للحضارة. أما في أدرنة فقـد اضطر يوسف ليفي الذي أسس أولى المدارس اليهودية الحديثـة إلى الهجرة إلى باريس بعد أن تعرض إلى مضايقات عـديدة من قبل الحاخامات الذين اتهمـوه بتشجيع اليهود على اعتناق

الديانة المسيحية. وقد تعـرض فرانكل في القدس إلى نفس مصير يوسف ليفي، وقد نجح الحاخـامات في جـزيرة رودس في إغـلاق إحدى المدارس اليهـودية الحديثـة في الثمانينيات، ولكن سرعان ما أعيد افتتاحها مرة أخرى.

وكان لحركة الإصلاح الدينية التي شهـدها المجتمع اليهودي في أوروبا في نهايات القرن الثامن عشر وللخلافات التي نشبت بين حاخامات أوروبا في هذا الحين بعض الصدى في أوساط يهود الشرق، ويرجع إلى يهود الشرق الذين من أصل إيطالي فضل إدخال بعض التعديلات على نظم العبادات اليهودية بالشرق، حيث أدخلوا الآلات الموسيقية في أحـد المعابـد اليهودية في جـزيرة كوربـو، مما أثـار غضب الحاخام يهودا بيباس الذين انتقدهم بشدة، ووقف إلى جانبـه حاخام أزمير المعروف الحاخام حاييم بالاجي. وأدخل هؤلاء اليهود الذين من أصل إيطالي في أوساط يهود سالونيكا وحلب بعض الممارسـات والعادات الـدينية الجديـدة. وانتقد الحاخـام آشير كوفـو حاخـام سالونيكا في هذا الحين هذه التعديلات، وكتب في عام ١٨٤٠:

«حـدثت بعض الانشقاقـات في صفـوف شعبنـا.. وقد ظهـر الحاخـامات الـذين يحاولون الإساءة إلينا.. ويحاولون حاليا السماح لنا بممارسـة المحرمات.. فيدعون نساءنا إلى ارتداء ملابس الفرنجة.. ويدعوننا إلى عدم احترام قداسة يوم السبت».

وقد أثار قيام هيئـة الإليانس بتأسيس مدرسة يهودية حديثـة في سالونيكا غضب ومعـارضـة الحاخامـات، ولكن عنـدمـا أخبر قـادة الإليانس كبير الحاخـامـات في سالـونيكا أنهم قـد يطلبون من القنصل الفـرنسي التدخل لصـالحهم فإنه سرعـان ما تراجع عن موقفه.

وقد تزعم الحاخـام حاييم بالاجي كبير حاخامات أزمير حـركة المعارضة لمدارس الإليانس في المدينـة، وكانت هذه المعـارضة مرتبطـة في الواقع بالخلافـات الاجتماعية والتنظيميـة الضخمة التي شهـدتها الطائفـة اليهـودية في أزمير في النصف الثـاني من القرن التاسع عشر، والتي أسفـرت عن الإطاحة بالحاخـام بالاجي بشكل مؤقت من منصبه، ممـا عكس أن الاتجاهات المؤيـدة في أزمير لهذه المدارس كانت أكثـر قوة من الاتجاهات المحافظة.

ويتضح من تـزايـد إقبـال الطـلاب اليهـود على المدارس اليهـوديـة الحديثـة أن قطـاعات واسعـة من المجتمع اليهـودي استجابت إلى التغيير الـذي طرأ على نظـام التعليم اليهودي وأن معارضة الحاخامات للتغييرات بدأت تضعف قوتها منذ نهايات القرن التاسع عشر.

وعند المقارنـة بين طبيعة حركة التنـوير اليهودية في أوروبـا وبين نظيرتها في الدولة العثمانية نجـد العديد من أوجه التشـابه والاختلاف فيما بينهما، فبينما استقت حـركة التنوير اليهودية الأوروبية أفكارها من حـركة التنوير الأوروبية ومن الفلسفة اليهودية العقلانية في العصور الـوسطى، فإن حركة التنوير اليهودية بالـدولة كانت بعيدة كل البعد عن أفكـار حركة التنويـر الأوروبية، خاصـة أن المجتمع الإسلامي المحيط بها كان بعيداً أيضا عن هذا الفكـر. وفيما يتعلق بأهداف الحركتين: فبينما سعت حركة التنوير اليهودية الأوروبية إلى تشجيع اليهود على تعلم اللغات الأجنبية وتطوير النظم التعليمية وتغيير المهن التي يشتغلون بها، فإن الشخصيات اليهـودية المستنيرة بالدولة لم تفكر إلا في تعليم اليهود اللغات الأجنبيـة وتغيير نظام التعليم، ولم يتجه تفكيرهم إلى تشجيع اليهـود على تغيير مهنهم، خـاصة أن يهود الـدولـة كـانوا يعملـون، على خـلاف يهود أوروبا، في كـافة المهن بما فيهـا المهن الحكوميـة. ويتمثل وجه الفـارق الرئيسي بين حركة التنـوير اليهودية الأوروبية وبين نظيرتها في الدولـة العثمانية، في أنه في الوقت الـذي شجعت فيه الشخصيات الـدولة العثمانية تجاه اليهود لم تلـزم اليهود بالانـدماج في المجتمع كشرط للحصول على المسـاواة في الحقوق، وإنما سمحت لهم بـالحفاظ على البنيـة التنظيمية لطـوائفهم، وعـلاوة على هذا فإن المجتمع الإسـلامي المحيط باليهود لم يكن متحمسا لفكرة انـدماج اليهود بالكامل في المجتمع وفضل أن يعيش اليهود بشكل مستقل.

ومازال من بين القضـايا التي تشغل اهتمام الباحثين حتى يـومنا هذا قضيـة: ما الأسباب التي جعلت حركة التنوير اليهودية في أوروبا تختلف عن نظيرتها في الشرق؟ ومـازالت هذه القضيـة محل البحث، كما اكتفى البـاحثون ببحث مـوقف يهود مصر وحاخاماتها تجاه مسألة الحداثة وليس تجاه مسألة الإصلاح الديني. أما عن يهود تركيا فإن كتابتـهم تفـيد أنهـم لم يتطرقوا إلى قضـية الإصلاحـات الـدينية، وفي الحقيقـة

لم يعـارض يهود تـركيـا بشدة مسـألة إصـلاح النظم التعليميـة، لأن من قـامـوا بهذه الإصلاحات كـانوا من اليهود علاوة على أن هذه الإصـلاحات لم تفرض عليهم، أي كما حدث مع يهود أوروبا.

ومجمل القـول أن الشخصيات اليهوديـة المستنيرة في الإمبراطوريـة سعت فقط إلى تشجيع اليهود على الحصول على قسط وافر من المعرفة، ولكنها لم تسع إلى التمرد على النظم والأيديولوجيات الفكرية القـديمة، ويكمن، على هذا النحو، وجه الاختلاف الـرئيسي فيما بينهم وبين الشخصيات اليهـودية المستنيرة في أوروبـا. وبالـرغم من أن المستنيرين من يهود الدولـة العثمانية سعـوا إلى تطويـر نظم التعليم إلا أنهم لم يشكلوا تحديات حقيقيـة للفكر اليهـودي، ومن هنا فلـم تنتشر في أوساط يهود الدولـة تلك الاتجاهات الثـورية الحديثة مثل: الاشتراكيـة والليبرالية والقـومية، وقد ظلت حـركة التنوير اليهوديـة في الإمبراطورية على هذا النحو حركة عابـرة داعية فقط إلى مزيد من المعرفة. وعلى كل حال لم تترسخ أفكـار حركة التنوير في أذهان يهود الـدولة، خاصة أن معظم المستنيرين من يهود الدولـة من أبناء الجيلين الأول والثاني هاجـروا من تركيا والبلقان إلى بلدان أخرى.

وفي النهـاية يحق لنـا القول إن أفكـار حركـة التنـوير اليهـودية دخلت إلى بلـدان الإمبراطوريـة عبر المنظمات اليهودية الأوروبيـة التي استعانت بـرواد حركة التنـوير في هذه البلـدان الذين تأثروا بفكـر حركة التنـوير، وكان معظم هـؤلاء من الشخصيات التي اشتغلت بالتجارة ومن أبناء العائلات ذات الأصول الإيطالية أو البرتغالية والتي كانت لها علاقات قوية مع المجتمـع الأوروبي. كما كان من بين مظاهر انتشار الفكر الحديث في الإمبراطوريـة أنه قد أسست في بلـدانها بدءا من الخمسينيات العـديد من المدارس الحديثة، ثم قامت هيئـة الإليانس في مرحلة لاحقة بإضفـاء طابعها الخاص على الأنشطة التعليميـة في بلدان الدولـة. أما عن الخلاف الـذي شهدته الـدولة بين أتباع الاتجاه المتشـدد والذي مثلـه الحاخامـات وبين أتباع الاتجاه المستنير، فقـد كان أكثـر هدوءا مـن نظيره في أوروبا، واتسم هـذا الخلاف بأن الحاخـامـات سرعان مـا اعترفوا بمصداقية التغييرات التي طرأت على نظام التعليم اليهودي.

الفصل السادس

تنظيم الطوائف وقيادتها

تغيرات اجتماعية

كان المجتمع اليهـودي بالدولـة العثمانية طيلة الفترة الممتـدة من القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر منظما على أساس طائفي، وكـانت الطائفة تضم طيلة هذه الفترة أبناء نفس المدينـة أو نفس المنطقة، ويرجع تاريخ هـذه الطوائف إلى عام ١٥٤٣ أي بعد أن احتل العثمانيون مدينة القسطنطينية، وبعـد أن نفت السلطة يهود المدن التركية وبلدان البلقان إلى القسطنطينية، كما عـاش اليهود السفاراد بعد خـروجهم من الأندلس في هذه الطـوائف، ودام هذا الـوضع طيلـة الفترة الممتـدة من القرن السـادس عشر حتى القـرن الثامـن عشر. ومع هذا شهـد المجتمع اليهودي منذ منتصـف القرن السابـع عشر وإبان القـرن الثامن عشر تغييرات عـديـدة في البنية التنظيميـة للطوائف كـان من أبـرزها عـدم التمسك بتشكيل الطـائفـة على نفس الأسـس التي كـان يتم الاعتماد عليهـا في الماضي. ولاشك أن التغيرات العمرانية، وحركة الهجرة الداخلية التي شهدتها الدولة العثمانية أدت إلى القضاء على خصوصية الطوائف فأصبحت الطائفة تضم أبناء الحي الواحد الذي كان يضم يهودا من أصول عرقية مختلفة، كما أدى هـذا التغيير الذي طرأ على التركيبة السكانية إلى تضاؤل قوة العلاقة بين الفرد والطائفة.

وقد ظهـرت في العصر الحديث هيئات جديـدة حلت محل الطوائف التقليـدية، كان من أبرزها طوائف الحرفيين التي شكلت منـذ منتصف القرن الثامن عشر خاصة في تركيا واليونان قوة اجتماعية وتنظيمية واقتصادية على درجة كبيرة من الأهمية، فكان رئيس الطائفة يقـوم في أحيان كثيرة بمهـام الزعـماء التقليديين المتـدينين بالطائفــة، كما حلت فئة المثقفين اليهود في تـركيا منذ القرن التاسع عشر محل القيـادة التقليدية،

بل شغل أثرياء اليهود والمستنيرون منهم، الذين لم ينتموا للقيادة التقليدية القديمة، العديد من المناصب القيادية بالاشتراك مع قادة الطوائف.

وقد تضاءلت تدريجياً في العصر الحديث قوة العلاقة بين الفرد والطائفة اليهودية، فلم يعد بمقدور الحاخامات منذ هذا الحين فرض مواقفهم على كل أعضاء الطائفة. وكان من بين عوامل هذا الضعف الذي طرأ على مكانة الحاخامات أنه أصبحت أمام اليهود في هذا العصر العديد من الخيارات التي لم يكن لها أي وجود من قبل، حيث أصبح لليهود في العصر الحديث حق اللجوء إلى القناصل الأجانب، والتمتع برعاية الدول الأوروبية، واللجوء إلى السلطة العثمانية، والتمتع بالخدمات التي كانت تقدمها المؤسسات التعليمية والصحية والخيرية اليهودية الأوروبية إلى يهود الدولة.

ولم يكن المجتمع المحيط باليهود في كل من تركيا واليونان بمنأى عن هذه التغيرات التي كانت تحدث في أوساط يهود الدولة حيث شهد هذان البلدان في العصر الحديث تزايد قوة التيارات الجديدة التي تمكنت وبشكل تدريجي من القضاء على سطوة المؤسستين الدينية والعسكرية، وفيما يتعلق بقادة الاتجاه الداعي إلى تغيير أنماط الحياة التقليدية في المجتمع اليهودي، فقد كان معظمهم من خريجي مدارس الإليانس، ومن المثقفين الذين عملوا بالمحاماة والصحافة.

وفيما يتعلق للطوائف اليهودية في سوريا فقد كانت مسيرة التغيير بها بطيئة للغاية، إذ ساءت في أوساطها حتى القرن التاسع عشر نفس البنية التنظيمية القديمة للطوائف، وفي المقابل شهد المجتمع اليهودي في فلسطين العديد من التغيرات في البنية التنظيمية للطائفة اليهودية.

وشهدت الطوائف اليهودية في كبرى المدن بتركيا واليونان، وخاصة منذ نهايات القرن التاسع عشر، تزايد حدة الفروق الاجتماعية بين اليهود نتيجة لتدهور الوضع الاقتصادي بالدولة العثمانية، ونتيجة لسيطرة المسيحيين على حياة المجتمع الاقتصادية. وبالرغم من أن المجتمع اليهودي شهد طيلة الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر تناقضات ضخمة بين مصالح الجماعات اليهودية المختلفة، إلا أنه

سادت دائما حالة من التوازن الدقيق بين كـافة الجماعات نجمت عن ارتباط المرء الوثيق بالجماعـة، علاوة على أنـه كانت لكل جماعة أصـول عرقية مشتركـة، مما سـاهم بطبيعة الحال في الحفـاظ على وحدة المجتمع. ولكن سـاهمت العديـد من العوامل فيما بعـد في زعزعة الأسس التي حافظت فيما مضى على وحدة المجتمع. إذ تضاءلت منذ هذا الحين قوة العلاقة بين الفرد والجماعة، أضف إلى هـذا أن الجماعة لم تعد تجمعها وحدة العرق، وأصبحت تضم أبناء ينتمون إلى العديد من الطوائف، فأصبحت الطائفة الواحدة تضـم العديد من المهاجـرين الأشكناز والمهاجرين ذوي الأصول الإيطاليـة، كما تزايدت منذ نهايات القرن الثـامن عشر حدة النزاعات بين طبقـات المجتمع اليهودي، وقد شـملت النـزاعـات في القرن التـاسع عشر كل القضـايـا الخاصـة بطـريقة جبـايـة الضرائب في الطوائف، وحق التمثيل في قيادة الطائفة.

وكانت أسس النظام الضريبي بالطوائف اليهـودية قد تشكلت إبان القرن السادس عشر، وكان هذا النظام نظـاما تقديريا في المقام الأول، فكان يتم بمـوجبه إعفاء الفقراء والأثريـاء من دفع الضرائب، ومن هنا تحمل أبنـاء الطبقة الوسطى بـالمجتمع اليهودي عبء الإيفاء باحتياجـات الطائفة. وأسفر هذا الوضع عن تـدهور أوضاع معظم أبناء الطائفـة، وتراكم الديـون على الطوائف اليهـودية في القرن التـاسع عشر مما أدى إلى تمرد أبناء الطبقة الـوسطى على قيمة الضرائب المفروضة عليهم، وعلى القيـادات اليهودية، كما وقعت إبان هذه الفترة العـديد من المواجهات الحادة في أوساط الطـوائف اليهودية، فطالب أبناء الطبقة المتوسطة والفقـراء بالمجتمع اليهودي بتغيير البنية التنظيمية السائدة في أوساط الطوائف، وامتـدت هذه الخلافات لتشمل الحاخامات أيضـا الذين اختلفوا فيما بينهم حول مصـداقية النظام الضريبي وحـول حق التمثيل بالطائفـة. وأدى تراكم الديـون على الطائفـة إلى قيام قادتها بفـرض ضرائب عديـدة على العديـد من المنتجات والسلع وإلى تزايـد حدة النزاعـات بين الأثرياء وبين أبناء الطبقتين المتـوسطة والفقيرة، فبينما طالب الأثرياء بفرض الضرائب على السلع التجارية فقد طالب خصومهم بفرض الضرائب بما يتماشى مع حجم الدخل والممتلكات.

واستمرت هذه الخلافات طيلة القرن التاسع عشر، بل وصلت إلى مرحلة التمرد على القيادة اليهـودية، ممـا تسبب في حدوث العـديد من الانشقـاقات في أوسـاط الطوائف

اليهودية بتركيا، كما حدث في أزمير على سبيل المثال، وأسفرت كل هذه الخلافات في نهاية الأمر عن حدوث بعض التغييرات في البنية التنظيمية للعديد من الطوائف، فحصل أبناء الطبقتين المتوسطة والفقيرة على حق التمثيل في قيادة الطائفة، وأصبح رؤساء طوائف الصناع اليهودية يشكلون جزءا من قيادة الطائفة اليهودية.

ولم يشهد المجتمع اليهودي في سوريا طيلة القرن التاسع عشر أية تغييرات تنظيمية أو اجتماعية، فظلت مؤسسات الطائفة تمارس مهامها وعملها على نفس النحو الذي كانت تعمل به في الماضي، ولكن أدى ظهور العديد من الشخصيات اليهودية المستنيرة التي تلقت تعليمها في المدارس الحديثة، وتعرض المجتمع اليهودي بسوريا إبان القرن العشرين لبعض المؤثرات الخارجية التي تسللت إليه عبر الزيارات التي كانت تقوم بها الشخصيات اليهودية سواء من أوروبا أو فلسطين إلى سوريا إلى تولي الشخصيات اليهودية المستنيرة بعض المناصب القيادية في المجتمع اليهودي.

وكان من بين مظاهر الحداثة في منتصف القرن التاسع عشر أنه قد صدرت منذ هذا الحين العديد من الصحف اليهودية في أقطار الدولة، ولعبت هذه الصحف دوراً ضخماً في تزايد حدة الصراع بين فئات المجتمع اليهودي، فكانت الأخبار التي تنشرها الصحافة عن الخلافات التي تشهدها الطوائف اليهودية في بلدان سائر اليهود فيها.

وفي القرن التاسع عشر تزايدت أيضا حدة الخلافات بين الحاخامات وبين قادة المؤسسات الاجتماعية المختلفة. وبالرغم من أن الحاخامات شغلوا مكانة مهمة في بلدان الدولة حتى القرن التاسع عشر، إلا أن أهميتهم تضاءلت بشكل ملحوظ منذ هذا الحين، وتزايدت في المقابل قوة أثرياء اليهود والمستنيرين منهم، ولكن لم ينجح هؤلاء في مواجهة حالة التدهور الاقتصادية والاجتماعية التي كان يواجهها اليهود آنذاك مما تسبب في هجرة أعداد كبيرة من يهود هذه الطوائف إلى الخارج في نهايات القرن التاسع عشر.

وشهدت فلسطين في القرن التاسع عشر العديد من التغيرات في مجال البنية التنظيمية للطوائف اليهودية وفي أوساطها القيادية، وقد شكل اليهود السفاراد في بداية فترة الحكم العثماني لفلسطين غالبية السكان، ولكن كانت توجد في نفس الحين

بعض الطوائف الأشكنازية، أما حركة الاستيطان اليهودي في فلسطين إبان القرنين السابع عشروالثامن عشر فقد كانت تعيش في حالةلا مثيل لها من الركود. ولم تكن للطوئف اليهودية في هذا الحين أي قيادة مستقرة، كما أدت الأزمات العديدة التي عصفت بهذه الطوائف إلى حدوث تغيرات مستمرة في التركيبة السكانية لليهود في فلسطين، وبالرغم من أن تعداد اليهود في فلسطين ارتفع في بعض الأحيان بشكل ملحوظ، إلا أن حركة الهجرة اليهودية المضادة منها كانت أيضا على قدر ما من القوة، وشملت حركة الهجرة المضادة هذه أعداداً كبيرة من كبار السن من اليهود الذين لم يمكثوا طويلا في فلسطين. وأدى عدم استقرار اليهود في فلسطين إلى عدم ظهور قيادة يهودية ثابتة، ولكن ظهرت في القرن التاسع عشر وخاصة في فلسطين قيادة جديدة سعت إلى إرساء أسس تنظيمية واضحة للطائفة اليهودية.

وظهرت القيادة اليهودية السفاردية في فلسطين إبان الفترة التي شهدت فيها فلسطين منذ بدايات القرن التاسع عشر تحولات عديدة كان من بينها غزو نابليون لها، وخضوعها لحكم محمد علي، وتطبيق سياسة الإصلاحات العثمانية فيها. وفي الوقت الذي ظهرت فيه هذه القيادة كانت فلسطين تشهد زيادة ملحوظة في تعداد اليهود الأشكناز ويهود شمال أفريقيا الذين شكلوا أطراً تنظيمية خاصة بهم، ومؤسسات اقتصادية وفكرية قوية. والجدير بالذكر أن وجود اليهود الأشكناز في فلسطين ارتبط إلى حد كبير بالحماية التي وفرتها القنصليات الأجنبية لهم وبتزايد قوة الوجود الأوروبي في فلسطين. ولا شك أن تزايد تعداد اليهود الأشكناز أدى إلى إضعاف القيادة اليهودية السفاردية في فلسطين.

ووصف أحد قادة الطوائف السفاردية في فلسطين ظاهرة انهيار الأطر الطائفية في الدولة في نهايات فترة الحكم العثماني بقوله:

«نشعر حقا بالآسى عندما نعرف أن الطائفة اليهودية في القسطنطينية هي الطائفة اليهودية الوحيدة في الدولة التي يمكننا أن نطلق عليها اسم طائفة... أما سائر الطوائف اليهودية المنتشرة في كافة مدن الدولة بما فيها تلك الطوائف المرموقة التي نذكر منها طوائف أزمير والقدس فإنها تشبه الجسد الواحد الذي لا توجد أي رابطة عضوية بين أعضائه».

القيادة

الحاخامات

بينما تناولنا فيما سبق التغيرات القانونية التي طرأت على وضع الحاخامات بالدولة في القرن التاسع عشر، سنسعى هنا إلى التعرف على التحولات التي طرأت على مكانة الحاخامات بالمجتمع اليهودي. لقد كان الحاخامات يتولون طيلة الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر مناصبهم القيادية عن طريق الانتخابات التي كانت تجريها مؤسسات الطائفة، وكانت هذه الانتخابات تجري دون أي تدخل من قبل السلطات العثمانية. وتفيد نتائج الأبحاث أنه بينما تدخلت السلطة في أحيان نادرة بالقرن السادس عشر في اختيار حاخامات القدس فإن تعيين الحاخامات بالقرن التاسع عشر كان يستلزم الحصول على موافقة السلطات وعلى تأييد قيادات الطوائف اليهودية في سائر أقاليم الدولة، وعلى كبير الحاخامات في القسطنطينية وكانت موافقة السلطات على تعيين هؤلاء الحاخامات تعني حصولهم على قدر أكبر من الصلاحيات، ولكن هذه الصلاحيات لم تكن صلاحيات مطلقة، حيث كان يتم تعيين بعض المراقبين للإشراف على أنشطتهم مما تسبب في تزايد حدة التوتر في داخل المجتمع اليهودي وفي الأوساط القيادية اليهوية. وكانت تبعية الحاخامات إلى السلطة وإلى القضاء العثماني تعد بمنزلة أحد العوامل التي ساعدتهم على تقوية مكانتهم في المجتمع اليهودي، ولذلك فحينما رفضت إحدى الشخصيات اليهودية الثرية في أزمير، على سبيل المثال، تنفيذ قرار المحكمة التابعة للطائفة اليهودية، لجأ الحاخامات إلى السلطات ليرغموه على تنفيذ الحكم، ووصف الحاخام حاييم بالاجي هذا الوضع بقوله:

«ذهبت مع زملائي العاملين في محكمة الطائفة للالتقاء بالمسؤولين عن المدينة، وطلبنا منهم عدم إخراج هذا الشخص من السجن إلا بعد أن يتعهد بتنفيذ الحكم الصادر عليه من محكمة الطائفة».

وكان لجوء الحاخامات إلى السلطة للحصول على مساعدتها في مجال فرض القوانين يعد بمنزلة سلاح ذي حدين، إذ أدرك أبناء الطوائف اليهودية منذ هذا الحين

أن لديهم خيارات عديدة غير مقصورة على سلطـة الحاخامات، ولذلك حرصوا على الذهاب إلى القضـاة العثمانيين، و إلى القناصل الأجانب. وتفيـد السجلات الشرعية لمدينة أزمير، والتـي يرجع تـاريخها إلى النصف الثاني مـن القرن التاسـع عشر، إلى أنه كلما كانت تتضاءل صلاحيات الحاخامات فإنهم كانوا يلجأون إلى السلطات العثمانية لمساعدتهم على فرض صلاحياتهم على المجتمع اليهودي. وتفيد كتابات الحاخامات في هذه الفترة أنهم كانوا يحرصون على تأكيـد أن أحكامهم تحظى بتأييد السلطة. فقد جاء، على سبيل المثـال، في أحد أعمال الحاخام حاييم بالاجـي: «إني أفرض التوراة على أبناء الطـائفة بمـوجب الصلاحيـات الممنوحـة لي من مدينـة أزمير». ولكن من الواضح أن الحاخـامات لم يتنبهوا آنذاك لحقيقـة أن اعتمادهم على السلطات قلل من مصـداقيتهم وصلاحيتهم بـالمجتمع اليهـودي. فقد جـاء في موضع آخـر من أعمال الحاخام حاييم بـالاجي «قد يحق لنا نتيجة لما حدث أخيرا في أوسـاطنا أن نبجل قادة الشعب.. وكل هذا من بشائر الخلاص».

ومن المتصـور أن التغييرات التي حـدثـت في أوسـاط المجتمع اليهـودي العثماني والتي أدت إلى ظهـور قـوى يهوديـة جـديـدة مثل طـوائف الحرفيين والشخصيـات اليهودية المستنيرة قد ساهمت في إضعاف الصلاحيـات الممنوحة للحاخامات. فبينما كان الحاخامات يشكلون على مدى أجيال عديدة أعلى سلطة روحانية في الطائفة فإن صـلاحيتهـم في العصر الحديث أصبحت محدودة للغـايــة. وعبرت الشخصيـات اليهودية المستنيرة في المقالات التي نشرتها في نهاية القـرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين عن انتقـادها للحـاخامـات وطالبت بتغيير القيـادة اليهوديـة وكان المؤرخ والأديب اليهودي أفراهـام جالانتي الذي أصدر في مصر صحيفـة «العصا» من أبرز مفكـري اليهـود الـذين رأوا أنـه مـن الضروري العمل على محاربـة القيـادة الـدينيـة القديمة، حيث هاجم في هذه الصحيفة ظاهرة الركود المتفشية في أوساط الحاخامات الـذين أطلـق عليهم اسم «أعـداء التقــدم»، وركـز جـالانتي هجــومـه على كبير حاخـامات القسطنطينيـة الحاخام مـوشيه هـاليفي (١٨٧٢-١٩٠٨) واتهمـه بعدم المساهمة في حملة التبرعات التي نظمتها الإليانس في عام ١٩٠٥ لمصلحة يهود روسيا، وجاء في إحدى مقـالاته التي هاجم فيها الحاخـام هاليفي: «يجب أن تترك منصبك وأن تذهب إلى القدس لتموت هناك».

وحل خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين المزيد من الضعف على مكـانة الحاخـامات حتـى لم يعد أحـد يستشيرهم في القضايـا التي تشغل اهتمام يهود الدولة العثمانيـة، كما تزايدت في أوساط الطوائف اليهـودية خلال هذه الفترة قوة النـزاعات بين الحاخامات والـدوائر المختلفة في الطائفة للـدرجة التي استلزمت تدخل السلطات، فشهدت مـدينة القسطنطينية على سبيل المثال، في عام ١٨٦٣ خـلافات شـديدة حـول ما إذا كـان يحق للحاخـام يعقوب أفيجـدور شغل منصب كبير حاخامات الدولة، وحسمت السلطة هذا الخلاف بعد أن شكلت لجنة من ثلاثـة حاخـامات من خارج القسطنطينيـة لحل الخلاف بين الجماعات اليهـودية المتنازعة فيما بينهـا، وانتهى هذا الخلاف بتعيين أحد أعضاء هـذه اللجنة في منصب كبير الحاخامات. وشهدت أزمير في عام ١٨٦٦ حركة معارضة قوية للحاخام حاييم بالاجي الذي شغل منذ عام ١٨٥٥ منصب كبير حاخامات أزمير.

وقد تـزعم حركة المعـارضة هذه قادة الإليـانس، وكبير حاخامـات القسطنطينية (الحاخـام ياقير جيرون) ومحررو الصحف اليهـودية البـارزة في تركيـا، مما أسفـر عن خـروج الحاخام حـاييم بالاجي بشكل مـؤقت من منصبـه، ولكن السلطات قـررت تعيينه مرة أخرى، خاصة بعد أن تعـرضت السلطات لضغوط عديدة، وبعد أن قرر الوالي إعادة تعيينه.

وجدير بالـذكر أنه حينما كانت قيادة الطائفـة تتكون في الماضي من حاخامين أو أكثر فإن خـلافاتها كانت أقل حـدة من الخلافات التي حدثت خـلال القرن التاسع عشر الذي شهد نتيجة لسياسـة التنظيمات العثمانية تزايد حدة الخلافات حول الشخص الذي بمقـدوره شغل هذا المنصب الذي كان مقصـورا منذ ذلك الحين على شخص واحد فقط. وبينما أتـاحت البنية القيادية للطـائفة في الماضي للجماعات القـوية فرصة الحصـول على حق التمثيل في قيادة الطائفـة فإنه حينما أصبح من الضروري اختيـار حـاخام واحـد فقط لشغل منصب رئيس الطـائفـة تزايدت حـدة المنافسة على منصب كبير الحاخامات الـذي يتولى مهمة الإشراف على شؤون العديد من الطوائف.

وتدهـور في فلسطين أيضاً إبان النصف الثـاني من القرن التاسع عشر وبـدايات العشرين وضع الحاخامات، وساهمت العديد مـن العوامل في حدوث هذا الأمر كان من بينهـا تزايـد قوة اليهـود الأشكنـاز وأبناء الطـوائف الأخرى في فلسطين، وظهـور «اتجاهات استيطانية» جديدة، وحصول اليهود الأشكناز على رعاية القوى العظمى، وضعف السلطـة العثمانية . كما تـدهـورت أوضاع القيـادة اليهـوديـة الدينيـة بشكل ملحـوظ في فلسطين بعد وفـاة الحاخام يعقـوب شـاؤول اليسار في عـام١٩٠٦ ، ولم تنجح الطائفة اليهـودية السفاردية بالقدس منذ هـذا الحين حتى الانتداب البريطاني على فلسطين في أن تنتخب حاخـاما للمدينـة، وأعربت بعض الشخصيـات الهودية السفاردية في الخطابـات التي بعثتها ليهود القسطنطينية في عام ١٩١٤ عن إحساسها بالأسى إزاء تدهور أوضاع القيادة الدينية لليهودالسفاراد .

القيادة الشعبية

ساهمت الإصـلاحات العثمانية في تـزايد قوة الجهـات اليهودية التي تـولت مهمة الإشراف على القضايا الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بيهود تركيا، وكان القرار الذي اتخذتـه السلطـة التركيـــة بشأن تأسيس مـا يسمى «بـالمجلس العمـومي» يهدف إلى الإشراف على القيادة الدينية، وتحقيق نوع من تـوازن القوى في أوساط القيادة اليهودية فبينما سـاد في الماضي هـذا القـدر من التـوازن في أوسـاط الطائفـة إلا أن تـزايـد قـوة الشخصيات اليهوديـة المستنيرة، وحصول اليهود على حق المساواة جعـلا اليهود أقل احتياجـا للقيادة اليهـودية ولـلأطر الطـائفية التقليـدية، وأدى تـزايد ارتبـاط القيادة اليهودية خـلال القرن التاسع عشر بالسلطة إلى تـزايد قوة القادة اليهـود الذين كانت لبعضهم علاقـات قوية بـالسلطات المركزية والمحليـة، وكان من مظاهـر التحولات التي شهـدها المجتمع اليهـودي منذ النصـف الثاني للقـرن التاسع عشر أن الشبـاب أصبح يشغل مكـانة بـارزة في الأوساط القيـادية للطـائفـة اليهوديـة في كل من تركيـا واليونان، وأنه سعى لتوجيه المجتمع اليهودي نحو درب الحداثة .

كانـت مهام القيـادة اليهودية في القـرنين التاسع عشر والعشريـن شديـدة الشبه بمهام القيادات القديمة، فكانت هذه القيادة مكلفة بالإشراف على نظام الضرائب،

وعلاقة الطائفة بالسلطة، وبحياة الطائفة. وأدت التغييرات الحادة التي حدثت إبان القرن التاسع عشر والتي مست أوضاع اليهود القانونية والاقتصادية والاجتماعية إلى حدوث تغيير جوهري في أنشطة اليهود فأصبح المجتمع اليهودي أقل انغلاقا على ذاته وأكثر انفتاحا على الآخرين، وأقل ارتباطاً بالتقاليد مما أدى إلى تقليص صلاحيات قادة المجتمع اليهودي.

وكانت البنية التنظيمية للقيادة في سالونيكا إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر والقرن العشرين نموذجاً للبنية التي كانت عليها هذه القيادة في سائر الأماكن، فكانت هذه القيادة تضم مجلسا من سبعين عضواً، وكان هذا المجلس يدعى الجمعية العامة، وانبثقت عن هذه الجمعية لجنة أخرى تكونت من خمسة عشر عضواً، وكان اثنا عشر عضواً من بين أعضاء هذه اللجنة مكلفين بمهمة إعداد ميزانية الطائفة، كما كان كبير الحاخامات يتولى مهمة الإشراف على أنشطة كل هذه الجهات. وكان حق الترشيح لهذا المجلس مقصورا حتى القرن التاسع عشر على دافعي الضرائب، ولكن أصبح حق الترشيح لهذا المجلس في القرن العشرين متاحاً لكل اليهود. وبالإضافة إلى كل هذه الجهات المنتخبة، تقاضت بعض الشخصيات أجراً عن أنشطتها، وكان من بينها السكرتير العام للمجلس ومائة موظف، وكانت الطائفة تعتمد في دخلها على الضرائب التي فرضتها على اليهود، وعلى السلع التي كان من بينها اللحوم والنبيذ والأجبان والسكر.

المحاكم

استمرت المحاكم اليهودية حتى القرن التاسع عشر في ممارسة مهامها التي اعتادت ممارستها في الماضي، وكانت توجد حتى العصر الحديث محكمة في كل طائفة، وكانت تكلف هذه المحكمة ببحث قضايا اليهود. وبينما لم تطرأ على المحاكم اليهودية إبان فترة التنظيمات أي تغييرات جوهرية إلا أن اليهود أصبحوا منذ هذا الحين أقل احتياجا لها، ففقدت المحاكم بالتالي المكانة المرموقة التي كانت تتمتع بها في الماضي. ولاشك أن السياسة الليبرالية التي انتهجتها الدولة تجاه غير المسلمين شجعت اليهود على نظر قضاياهم أمام محاكم الدولة، كما شجعتهم على التوجه

إلى القنصليات الأجنبية ومحاكمها لبحث قضاياهم، ومع هذا استمرت المحاكم اليهودية حتى هذا الحين في بحث القضايا اليهودية، ويعتمد الباحثون في رأيهم هذا على كتابات يهود الدولة إبان القرن التاسع عشر.

وطرأ تغير جوهري على وضع المحاكم اليهودية بعد انهيار الدولة العثمانية، إذ تقلصت صلاحيات المحاكم اليهودية بشكل ضخم في كل من تركيا واليونان إبان الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين، واقتصرت أنشطتها على النظر في قضايا الأحوال الشخصية لليهود.

الإصلاحات

لاشك أن الإصلاحات التي طرأت على النظم المتبعة في الأوساط اليهودية بالدولة العثمانية عبّرت عن حجم التحولات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية التي شهدها المجتمع اليهودي في العصر الحديث، وتفيد مراسيم الإصلاحات التي أصدرتها الطوائف اليهودية في كل من أزمير وتيبرا والقدس وسالونيكا وغيرها أن هذه الطوائف واجهت حالة لا مثيل لها من تردي الأوضاع الاقتصادية، ومن تزايد حدة المشكلات الاجتماعية وتدهور أوضاع الحاخامات، وتدل بعض المراسيم أيضاً على أن اليهود كانوا يواجهون في هذا الحين صعوبات بالغة في دفع الضرائب اللازمة لمؤسسات الطائفة، كما تدل على مدى انهيار الأطر التقليدية للطائفة، ومدى تقلص الصلاحيات الممنوحة لقيادة الطائفة اليهودية. ومدى الضعف الذي طرأ على العلاقة التي كانت تربط المرء بمؤسسات الطائفة.

العلاقات بين الطوائف اليهودية

كانت الطوائف اليهودية الصغيرة تتبع تقاليد وتعاليم كبرى الطوائف، كما ساد نفس الوضع في بلدان الدولة، ولكن طرأت على هذه العلاقة في العصر الحديث بعض التغييرات. وشكل اليهود الذين خرجوا من الأندلس، على سبيل المثال، واستقروا في بلدان الدولة طوائفهم بما يتماشى مع تقاليدهم التي كانت سائدة في الأندلس، ولكن تزايد مع مضي الوقت تأثير الطوائف الكبرى في الطوائف الصغيرة،

كما أدت حركة الهجرة الداخلية، وتزايد قوة العلاقات الاقتصادية بين الطوائف، وخضوعها لكبير الحاخامات إلى ارتباط كل الطوائف بالطائفة الرئيسية . وكانت الطوائف الصغيرة بعيدة كل البعد عن الإصلاحات التي أقرتها الدولة العثمانية في العصر الحديث، فظل أبناء هذه الطوائف يعيشون بشكل مستقل عن باقي الطوائف، ومع هذا ظلت الطوائف الصغيرة تتبع تقاليد الطوائف الكبيرة . وعلق حاخام إحدى الطوائف اليهودية الصغيرة في مدينة تيبرا الواقعة بالقرب من أزمير على هذا الوضع بقوله :

«لاتوجد في أوساطنا أي لائحة تساعدنا على معرفة الأسس التي من الواجب اتباعها عند جباية الضرائب من أبناء الطائفة، ولذلك فإننا نتبع في هذا المجال النهج المتبع في أوساط اليهود في أزمير بالقرب من مدينتنا فنتبع دائما عاداتها وقوانينها» .

وسادت ظاهرة ارتباط الطوائف الصغيرة بالطوائف الكبيرة في مدينة مجنتسيا الواقعة بالقرب من أزمير، وسادت أيضا في فلسطين نفس الظاهرة، فظلت القدس طيلة القرن التاسع عشر تؤثر في يهود الخليل .

المؤسسات الخيرية

انتشرت في أوساط يهود الدولة العثمانية طيلة الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر العديد من المؤسسات الخيرية، واستمرت هذه المؤسسات في ممارسة أنشطتها طيلة القرن التاسع عشر، وتزايدت في العصر الحديث أنشطة هذه المؤسسات نتيجة لتدهور أوضاع اليهود الاقتصادية ولتزايد عدد الفقراء في أوساطهم، وأسست طوائف الحرفيين، التي تزايدت أهميتها في القرن التاسع عشر العديد من المؤسسات الخيرية التابعة لها، فأسست طائفة أصحاب القوارب في مدينة القسطنطينية في بدايات القرن التاسع عشر مؤسسة خيرية خاصة بخدمة الفقراء، وكان أبناء هذه الطائفة يتبرعون أسبوعيا بقرش واحد لخدمة الفقراء .

وأقيمت أيضا أنواع أخرى من المؤسسات الخيرية لخدمة اليهود فأقيمت العديد من المستشفيات والصيدليات ودور الرعاية للمسنين، والصناديق لتقديم القروض الإسكانية، وأقيمت أيضا العديد من المؤسسات التعليمية . وتمكنت الطوائف

اليهودية من إقامة هذه المؤسسـات بفضل التبرعات الضخمة التي قدمتها العائلات اليهودية الثريـة في أوروبا والتي كان من بينها عائلة روتشيلـد وعائلة البارون هيرش، فأقيم في سالـونيكا على سبيل المثال في نهايـات القرن التاسع عشر وبفضل مسـاعدة عائلة البارون هيرش مستشفى وصيدلية، كما أسس البارون روتشيلد خلال منتصف القرن التاسع عشر مستشفى في أزمير.

تغيرات ما بين الحربين العالميتين

أسفر ظهـور الكيانات القـومية الحديثـة بعد انتهاء الحرب العـالمية الأولى عن أن مهام قيادات الطوائف اليهودية أصبحت مقصورة على الإشراف على الجوانب الدينية لليهود، وعلى قضـايا الأحـوال الشخصية، واقتصر دورها على هـذه الجوانب بسبب تخوف اليهود من السلطة، ومن هنا تولت السلطات في كل من تركيا واليونان وسوريا مهام الإشراف على المجتمع اليهـودي. ولاشك أن تزايـد قوة الاتجاهـات العلمانية في أوساط اليهود، والضغط الـذي مارسته السلطات عليهم، عـلاوة على هجرة أعداد كبيرة خاصـة من أثريـاء اليهود إلى الخارج تسبب كل هذا في حدوث ركـود ملحوظ في حياة اليهود الاجتماعية وحياتهم الثقافية.

وبدأت ظاهرة تفكك الطوائف اليهودية وانهيارها في تركيا خلال القرن التاسع عشر الذي تـدهورت فيه أوضـاع اليهود الاقتصادية، والـذي تزايدت فيـه حدة الفروق الاجتماعية في أوساط اليهود، ولكن تزايدت سرعة انهيار هذه الطوائف في القرن العشرين الذي شهـد تزايد معدلات الهجرة اليهـودية إلى الخارج. وحاولت بعض الـدوائر الخارجية وعلى رأسهـا الاتحاد الصهيـوني إبان فترة مـا بين الحربين العـالميتين شغل حالـة الخواء التي حـدثت في الأوساط القيـاديـة اليهوديـة، كما حرصت الطائفـة اليهودية في القدس بدءاً من العشرينيـات بالقرن العشرين على ممـارسـة أنشطتها في أوسـاط الطـوائف اليهـوديـة بـالشرق، وفي بلدان الـدولـة العثمانيـة، ولـذلك شكلت هـذه الطـائفة مـا يسمى «بـالاتحاد العـالمي لليهـود السفاراد» الـذي تمثل هدفـه في تشجيع يهود الشرق على الهجرة إلى فلسطين، وفي الارتقاء بمستواهم التعليمي والثقـافي، كما أسست الطائفة فروعـا لهذا الاتحـاد

في العـديـد من البلـدان وبعثت مبعوثين ومـدرسين إلى بلـدان الشرق، سـاهموا بدورهم في تقويـة العلاقات بين الطوائف المختلفة في بلـدان الإمبراطورية، ومع هذا لم تحرز هذه الأنشطة أي قدر يذكر من النجاح في تركيا أو البلقان.

ويمكننا أن نوجز ماورد في هذا الفصل بقول إن القرن التاسع عشر شهد بدايات انهيار الطـوائف اليهودية بـالدولة العثمانيـة، وتجلت مظاهر هـذا الانهيار في انكماش وتقلص علاقة الفـرد اليهودي بالطائفة، ولذلك لجأ اليهـود إلى القضاء غير اليهودي وإلى القناصل الأجـانب وإلى المؤسسات الحديثة الأخرى، والتي نـذكر منها المدارس الأجنبية، كما تضاءلت في داخل الطائفة قوة القيادات غير الدينية.

واكتملت مسيرة الانهيار هـذه خلال فترة مـا بين الحربين العالميتين، إذ هـاجرت فئة الصفوة من يهود تركيا واليونان إلى أمـريكا وأوروبا، بل وهاجر بعض الحاخامات الذين كانوا ينتمون إلى أبناء الطبقة المتوسطة إلى هذه البلدان.



الفصل السابع

العلاقات مع فلسطين
والعلاقات بين الطوائف

كـان حرص يهود الـدولة على الهجـرة إلى فلسطين، وتقـديم الدعم الاقتصـادي للمستوطنين اليهود في فلسطين من بين مظاهر ارتباط يهود الدولة العثمانية طيلة الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر بأرض الميعاد، وتعد مؤسسة «موظفو فلسطين في القسطنطينية» التي أقيمت في القـرن الثامن عشر واحدة من أهم مؤسسات الطائفة اليهودية في هذه المدينة التي دعت للاستيطان في فلسطين، وانتشر مبعوثـو هذه المؤسسـة في كافة أنحـاء الدولة وخـارجها، فكـان لهذه المؤسسة بعض المبعوثين في أوروبا وأفريقيا وآسيا. ويكفينا في هذا المجال معرفة أن معظم المهاجرين الذين أتوا إلى فلسطين في القـرن الثامن عشر كانوا من يهود تركيا واليـونان، كما ساهم يهود هذين البلدين بتبرعات ضخمة من أجل استيطان اليهود في فلسطين.

وقـد طرأت إبـان القرن التـاسع عشر تغييرات ضخمـة على علاقـة يهود الدولـة بفلسطين، ومع هذا فلم تنهر هذه الرابطة بين اليهود وفلسطين. ويعد خير دليل على هذا أن الحاخـامات لم يتـوقفوا عن الإعلاء من شأن ومكـانة أرض الميعـاد، ولكن قد تضـاءل حجم حـركـة الهجـرة مـن بلـدان الـدولـة إلى فلسطين، كما تضـاءل حجم التبرعـات المقدمـة من يهود الدولـة إلى المستوطنين اليهـود، وتضاءلت أيضـا مكانـة مؤسسـة «موظفـو فلسطين في القسطنطينية» التي كـانت تعد واحدة مـن أهم المراكز اليهوديـة العاملـة لمصلحة حركـة الاستيطان اليهـودي، وظلت المراكز اليهـودية في أوروبـا منـذ هـذا الحين مصـدرا مهما لحركة الهجـرة اليهـوديـة إلى فلسطين، ومـركـزا اقتصاديا مهما تولى مهمة تدعيم حركة الاستيطان اليهودي.

وتشكلت آنـذاك في كل من فيلنـا وسكـولـوف العـديد من «اللجـان اليهـوديـة الحسيدية» المؤيـدة للاستيطان اليهودي في فلسطين، كما تشكلت في أوروبـا الغربية في نفس الوقت مؤسسـة الموظفين اليهود، ويرجع فضل تأسيسها إلى الـدوائر الدينية اليهودية. وشهدت فلسطين منـذ القرن التاسع عشر تزايد قوة حركـة الهجرة اليهودية من أوروبـا الغـربية وشمال أفـريقيـا، وقـد أعـربت الشخصيات اليهـوديـة المستنيرة الأوروبية آنـذاك عن تأييدها لـلأنشطة الاستيطانية، كما قـدمت مساعدة اقتصـادية ضخمـة للمستـوطنين أسفـرت عن تأسيس العـديـد من المدارس والمستشفيـات في أوساط المستوطنين.

وهاجرت أعداد كبيرة من يهود تركيا واليونان إبان القرن الثامن عشر إلى فلسطين، ولكن حجم الهجـرة اليهوديـة من هذين البلـدين تضاءل إبـان القرن التـاسع عشر، وكان من بين حـاخامات اليهـود الذين هاجروا آنـذاك الحاخام أفراهـام جاجين من القسطنطينية (الـذي كان أول من شغل منصب كبير الحاخامات في القـدس في عام ١٨٤١، والحاخـام رفـائيل يـوسف حـازان من أزمير (والـذي أصبح أول كبير للحاخامات في فلسطين في بدايات القرن التاسع عشر)، وهاجر بعض أثرياء اليهود أيضـا إلى فلسطين، وشـاركوا فيهـا في الأنشطـة الاقتصـادية، وكـان من بين هـؤلاء يشعياهو أجيمان من القسطنطينيـة، ويعقوب هاليفي، وقد هـاجرت في عام ١٨١٠ مجموعة من يهود تركيـا إلى فلسطين، واستقرت في الجليل، واستقرت أعداد كبيرة من يهود تركيا واليونان منذ عهد احتلال محمد علي لفلسطين في المدن الساحلية بفلسطين والتي كان منها يافا وعكا.

ويجد الباحثون صعـوبة بالغة في تفسير ظاهرة انخفـاض معدلات الهجرة إلى فلسطين في القرن التاسع عشر، خاصة أن هذا القرن شهد توافر الظروف المناسبة والملائمة والتي مـن شأنها التشجيع على الهجرة إلى فلسطين، وكـان من بين هذه العوامل أنه طرأ تطور ملموس على الأوضاع الاقتصادية في فلسطين، علاوة على أنه تطورت آنذاك وسائل المواصـلات بين أقطار الدولة وبين فلسطين، وكان من بين العوامل المشجعة أيضا على الهجرة عـامل القرب الجغرافي، أضف إلى هذا أن السلطات العثمانيـة لم تفرض في هذا الحين أي قيود على حـركة الهجرة اليهـودية.

ونعتقد أنه ليس من الممكن أن نعزو ظاهرة تضاؤل معدلات الهجرة إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية ليهود تركيا، حيث إنه كان من شأن تدهور الأوضاع الاقتصادية بتركيا، وازدهارها في المقابل في فلسطين تشجيع اليهود على الهجرة. ومن المحتمل أن يكون انهيار مؤسسة «موظفو فلسطين في القسطنطينية» هو الذي تسبب في تدهور حركة الهجرة إلى فلسطين، وكان من بين عوامل انهيار هذه المؤسسة تدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية بالدولة، وقيام المراكز اليهودية الأوروبية بتحويل التبرعات المالية إلى المستوطنين اليهود في فلسطين بشكل مباشر، وليس عن طريق مؤسسة «موظفو فلسطين في القسطنطينية»، هذا بالإضافة إلى انتقال مركز الثقل في الفكر اليهودي إلى أوروبا، كما أن التحولات التي شهدها المجتمع في تركيا واليونان خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر أدت إلى تقليل اهتمامه بفلسطين، فأصبح خريجو مدارس الإليانس في هذين البلدين أقل تمسكا بالتقاليد اليهودية، ولذلك لم يهتموا بالتعرف على مبادىء الحركة القومية اليهودية، واهتموا في المقابل بالبحث عن سعادتهم المنشودة في البلدان التي هاجروا إليها.

والواقع أنه لم تصدر حتى الآن أي دراسة نقدية مستفيضة عن تاريخ علاقة يهود تركيا واليونان بفلسطين في القرن التاسع عشر، ومع هذا توضح كل المعلومات التي في حوزتنا أنه حدث انخفاض ملموس في حجم التبرعات المالية المقدمة من يهود هذين البلدين إلى الاستيطان اليهودي في فلسطين، ومن المرجح أن أسباب هذه الظاهرة تكمن في طبيعة الظروف الاقتصادية الصعبة التي واجهها اليهود علاوة على عدم اهتمامهم بالهجرة إلى فلسطين، والاستيطان بها. وشهد القرن التاسع عشر أيضا انخفاضاً ملحوظا في عدد الكتب الصادرة عن مكانة فلسطين وقداستها، هذا بالمقارنة بالوضع الذي ساد في القرن الثامن عشر، والذي تزايد فيه بشكل واضح عدد الكتب اليهودية التي أكدت مدى قداسة فلسطين في الفكر اليهودي. وتفيد بعض المصادر اليهودية أيضا أن يهود فلسطين تبنوا آنذاك موقفا سلبيا تجاه مبعوثي الاستيطان اليهودي الذين كانوا يقومون بزيارة يهود الدولة، ولكن لم تكن هذه الظاهرة مقصورة على يهود تركيا حيث إنها كانت منتشرة في كافة أنحاء الشرق.

وتضاءلت قوة علاقة يهود الدولة بفلسطين في كل من تركيا واليونان إبان القرن التاسع عشر، ولم يحرص سوى الحاخامات على الحفاظ على هذه العلاقة، ومع هذا كان تأثيرهم في المجتمع اليهودي في هذا الحين محدوداً للغاية، وقد انخفضت معدلات الهجرة إلى فلسطين أيضا بعد أن تضاءلت قوة مؤسسة «موظفو فلسطين في القسطنطينية» التي كانت تأخذ على عاتقها مهمة تنظيم حركة الهجرة اليهودية. وغلبت على كتابات الحاخامات اليهود في هذا العصر نزعة تبرير هذه الظاهرة، فقد بحث الحاخام حاييم بالاجي الذي أعرب في العديد من أعماله عن حبه لفلسطين قضية عدم اهتمام حاخامات عصره بزيارة فلسطين، والاستقرار بها، وأكد في أعماله أن دراسة التوراة والشريعة اليهودية لا تقل في أهميتها عن مسألة الاستقرار في فلسطين. فقد جاء في أحد أعماله: «إن الصلوات التي يؤديها اليهودي خارج فلسطين لاتقل في مكانتها عن الصلاة التي يؤديها اليهودي في فلسطين، ولذلك فإنه من الممكن إعفاء الحاخامات من ضرورة الإقامة في فلسطين، ويمكننا قول إن من يصلي هنا شأنه شأن من يصلي في فلسطين».

وبينما تضاءلت في القرن التاسع عشر قوة حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين إلا أن أبناء الطبقات الفقيرة بالمجتمع اليهودي ظلوا يولون قدراً كبيراً من القداسة لفلسطين، وإلى الصناديق الخيرية للحاخام مائير صاحب المعجزات في القرن التاسع عشر، ولكن نشبت خلافات عديدة في أوساط اليهود حول ما إذا كان من الواجب توزيع هذه الأموال على يهود فلسطين، أم أنه من الممكن توزيعها على كل فقراء اليهود؟ وبينما سادت مثل هذه الخلافات في الماضي تزايدت حدتها وقوتها في القرن التاسع عشر.

تأثير تطور حركة الاستيطان اليهودي في فلسطين في الطوائف اليهودية في الدولة العثمانية

تعد الحملة الفرنسية بمنزلة نقطة تحول مهمة في تاريخ المنطقة، ومن المؤكد أنه كلما كان يتزايد حجم التدخل الأوروبي في الشرق كان يتضاءل في المقابل تأثير الدولة العثمانية في المنطقة وفي رعاياها. وشكل التدخل الأوروبي في المنطقة، وانهيار الدولة العثمانية خلفية التحولات التي شهدتها فلسطين في القرن التاسع عشر، فحينما

خضعت فلسطين في الثلاثينيات مـن القرن التاسع عشر لحكم إبراهيم بـاشا، الذي أحدث العـديد من الإصلاحات الـزراعية والإدارية، فإن هذه الإصـلاحات تسببت في حدوث نهضة ملموسة في فلسطين، وأدت إلى تزايد تعداد المهاجرين اليهود الذين كان معظمهم من أوروبا الشرقية وشمال أفـريقيا. وبينما قدر تعداد اليهود في فلسطين في مطلع القرن التـاسع عشر ببضعة آلاف فقـد تزايـد تعدادهم تـدريجيا خـلال هذا القرن. وشكلت كل جماعة من المهاجرين عند مجيئها إلى فلسطين طائفة خاصة بها، الأمـر الـذي أدى إلى حـدوث انقسـامـات عـديـدة في أوسـاط المستـوطنين الجدد، فحـدثت، على سبيل المثـال، خـلافـات عـديـدة بين المهـاجـرين الأشكنـاز وبين المهاجرين السفاراد، بل وحدثت بعض الانقسامات في أوساط كل طائفة. ونشبت في هـذا الحين خلافـات عديـدة حـول مسألة تـوزيع الأمـوال التي كان يهود أوروبـا يجمعونها لصالح حركة الاستيطـان اليهودي القديم في فلسطين، كما نشبت في أحيان أخرى خلافات حـول بعض القضايا الاقتصادية والدينيـة وغيرها. ونعم المستوطنون اليهود منذ عقـد الثلاثينيات الذي شهد تزايـد تأثير القنصليات الأجنبية في فلسطين بحماية هـذه القنصليات، فبدأ اليهود منـذ هذا الحين في تنفيذ العديـد من المشاريع الاقتصادية للارتقـاء بوضع المستوطنين اليهود، وفي استغلال التطـورات التكنولوجية لخلق المزيد من فرص العيش للمستوطنين، كما أسس بعض المستوطنين اليهود الألمان العديد من المصانع والمزارع لخدمة الاستيطان.

ومن الملاحظ أنه كلما كان يتزايد عدد أبنـاء المهاجرين اليهود في فلسطين، كانت تتزايد بالتالي قوة القناصل الأجانب، وكـانت تتضاءل في المقابل قوة الطائفة اليهودية السفاردية القديمة في فلسطين، والتي كان أبناؤها يشكلون قيادات المجتمع اليهودي في فلسطين منذ خروج اليهود من الأندلس. وبينما نعمت هذه القيادات بقدر ما من الاستقـرار إبان القـرن الثـامن عشر الذي حظيت خـلالـه بتأييد مـؤسسـة «موظفـو فلسطين في القسطنطينيـة» فإن هذه القيـادة بـدأت تفقد مكـانتهـا في القرن التـاسع عشر، وهذا بعد وقوع العديد من التحولات التي جعلت اليهود أقل احتياجا للسلطة العثمانية، وتجدر الإشارة إلى أنـه لم يكن هناك أي نوع من التواصل العـرقي في أوساط أبناء الطائفة اليهـودية السفاردية في فلسطين (باستثناء عائلتي أبـو العافية واليسار)،

كما لم يكن هناك أيضا أي نوع من التواصل في أوساط البنية التنظيمية للطائفة خاصة أن قيادة الطائفة كانت تتغير من جيل إلى جيل. ولم تظهر في أوساط يهود فلسطين أي تقاليد خاصة بتنظيم الطائفة نتيجة لحركة الهجرة اليهودية المستمرة منها إلى الخارج، وكان وضع الطائفة اليهودية في فلسطين على هذا النحو مختلفا عن وضع سائر الطوائف اليهودية في بلدان الدولة العثمانية. ولم يكن للطائفة اليهودية في فلسطين حتى منتصف القرن التاسع عشر أي دستور خاص بها، نتيجة لأن استمرار حركة الهجرة من وإلى القدس حال دون إقرار أي دستور خاص بالطائف، ولذلك فإنه حينما سعى قادة الطائفة بعد تعيين الحاخام أفراهام جاجين في منصب كبير الحاخامات في فلسطين في عام ١٨٤٢ إلى إقرار دستور خاص بالطائفة لم يجدوا أمامهم سوى الدستور الذي يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر.

وكان من بين الظواهر المثيرة للدهشة أن التحولات الضخمة التي شهدتها فلسطين في القرن التاسع عشر والتي كانت جزءا من الدولة العثمانية لم يكن لها أي تأثير في سائر الطوائف اليهودية بالدولة، فكانت هذه الطوائف تسعى فقط إلى التعرف على فكر حركة التنوير ومحاكاة الغرب والهجرة إلى البلدان الأوروبية وأمريكا، والاندماج في الدولة العثمانية، وفي المقابل لم يحرص أبناء هذه الطوائف على الهجرة إلى فلسطين، وربما يكون خير دليل على هذا أن يهود تركيا واليونان وسوريا لم يشاركوا في حركة الاستيطان اليهودي بفلسطين، هذا بالرغم من قربها الجغرافي، كما شهد القرن التاسع عشر تضاؤلا ملحوظا في قوة العلاقات بين طوائف الدولة. أما عن تأثير الأنشطة الصهيونية والاستيطانية في فلسطين عليهم فقد كان محدودا للغاية، ولم يكن تخوف يهود هذه البلدان من الدولة العثمانية بالعامل الذي جعلهم يحجمون عن ممارسة النشاط الصهيوني، وإنما من المرجح أن يهود الدولة لم يندمجوا في أنشطة الحركة الصهيونية نتيجة لأن معظمهم كانوا من خريجي مدارس الإليانس الذين لم يتمسكوا بالتقاليد اليهودية علاوة على أن قيادتهم الدينية كانت ضعيفة للغاية.

وبالرغم من تضاؤل قوة العلاقة بين الحركة الصهيونية وبين يهود الدولة العثمانية، إلا أن الحركة الصهيونية نجحت في بعض الأحيان في الاتصال بيهود الشرق، حيث أسست الحركة الصهيونية في القسطنطينية بعد نجاح ثورة تركيا الفتاة برئاسة الدكتور

يعقـوفسـون بعض الصحف والمجـلات الصهيـونيـة، بل وقـام بعض زعماء الحركـة الصهيونية بزيارة القسطنطينية، كما قـام المفكر الصهيوني زئيف جيبوتنسكي بإصدار صحيفتين صهيونيتين باللغة الفرنسية في القسطنطينية، وقد حظيت مؤسسات الحركة الصهيونيـة فيها بمساعدة ودعم محدودين مـن قبل الدوائر اليهودية المختلفـة وبتأييد بعض يهود أزمير وسالـونيكا، وقـد لقيت الحركة الصهيـونية معـارضة قويـة من قبل الحاخام موشيه هاليفي كبير الحاخامـات في القسطنطينية، ومن قبل الدوائر اليهودية الداعية للاندماج في الدولة العثمانية.

واستقر بعض منـدوبي الحركة الصهيـونية إبان الحرب العـالمية الأولى في سـوريا، وكـانت لهم بعض الأنشطـة خـاصـــة في مجال التعليم، كما قـام بعض زعماء الحركـة الصهيونية بـزيارة سالونيكـا في بدايات القرن العشرين لترويج الفكـرة الصهيونية في أوساط سكانها من اليهود، ولكن جهودهم في هذا المجال باءت بالفشل.

وسعى «الاتحاد العـالمي لليهود السفـاراد» الذي كـان مرتبطـا بالاتحاد الصهيـوني العالمي إبـان فترة الانتداب البريطاني لفلسطين إلى نشر الفكـرة الصهيونيـة في أوساط الطوائف اليهودية السفاردية والشرقية، ولكن هذا الاتحاد لم يتمكن إلا من عقد بعض الاجتماعات واللقـاءات مع اليهـود السفاراد، فقد عـارض يهود بلغاريـا، على سبيل المثال، فكـرة العمل في إطار طائفي خـاص بالسفاراد، ودعوا إلى الانخـراط في إطار «الاتحاد الصهيوني العـالمي»، ولقي هذا الاتحاد أيضا ولنفس الأسباب معـارضة يهود سالونيكا الذين رفضوا التعاون معـه، أما في تركيا فقد منعت السلطات التركية الاتحاد من ممارسة أنشطته ومن تأسيس أي فروع له في تركيا.

ولا شك أن التغيرات التي طـرأت على مقاليـد السلطـة في سالـونيكا عـلاوة على الموقف السلبي الذي تبناه اليـونانيون تجاه اليهود شجعت اليهود خاصـة منذ بدايات القرن العشرين على الهجرة إلى فلسطين، فهاجرت في بدايات هذا القرن أعداد محدودة من اليهود ذوي التـوجهات الصهيونية مـن سالونيكا إلى فلسطين، أمـا الشخصيات اليهوديـة المستنيرة والثريـة في سالونيكـا فقد هاجـرت إبان الفترة الـواقعة بين الحربين العالميتين إلى العديد من البلدان الأخرى، ولكن هاجر آنذاك إلى فلسطين حوالي عشرة آلاف يهودي كـان معظمهم مـن أبنـاء الطبقـة الفقيرة، الـذيـن اشتغلـوا في الموانىء

وبالصيد. والجدير بالذكر أن قادة الاستيطان اليهودي و«الاتحاد الصهيوني» (مثل بن تسفي وأبا حوش) لعبوا دورا مهما في تهجير يهود سالونيكا إلى فلسطين، واشتغل هؤلاء في تشييد ميناءي حيفا وتل أبيب.

العلاقات مع سائر الطوائف

العلاقات بين الحاخامات

سادت علاقات قوية بين حاخامات الدولة العثمانية وبين حاخامات أوروبا طيلة الفترة التي أعقبت خروج اليهود من الأندلس، فكان حاخامات اليهود السفاراد في كل من تركيا والبلقان وفلسطين على قدر كبير من الشهرة في أوساط يهود أوروبا، لا سيما أن نتاجهم الثقافي كان منتشرا في أوساط يهود هذه البلدان، وأثر نتاجهم الثقافي في حاخامات أوروبا والشرق، ولاشك أن كتاب «شولحان عاروخ» وسائر كتب «القبالاه» التي أصدرها يهود الدولة كان لها أعظم الأثر في يهود أوروبا. أما في القرنين السادس عشر والسابع عشر فقد تعرف حاخامات الدولة العثمانية على النتاج الفكري لحاخامات أوروبا، والذين كان من أبرزهم في هذا الحين: الحاخام يشعياهو هورفيتس صاحب كتاب «لوحي الشريعة» والحاخام موشيه ايسرليش صاحب كتاب «الخريطة» الذي كان تفسيرا لكتاب «شولحان عاروخ».

وتضاءلت قوة العلاقة بين حاخامات الدولة وحاخامات أوروبا منذ منتصف القرن السابع عشر فلم يعرف يهود أوروبا طيلة القرنين الثامن عشر والتاسع عشر شيئا عن النتاج الثقافي ليهود الشرق، ولكنهم استمروا في اللجوء إلى أمهات الكتب التي دونها الحاخامات السفاراد خلال القرن السادس عشر الذين كان من أبرزهم الحاخام شموئيل دي مدينا والحاخام ديفيد بن زمرا والحاخام يوسف كارو، واعتمدوا أيضا على بعض كتابات الحاخام حاييم بنفنستي الذي عاش في القرن السابع عشر. أما حاخامات الدولة العثمانية فكانت لديهم معرفة بالنتاج الثقافي لحاخامات أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولكنها كانت معرفة سطحية للغاية.

وفي مجالي التفسير و«القبالاه» شاعت في أوساط يهود أوروبا خاصة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أعمال يهود تركيا التي كان من أبرزها : كتاب «خبرة الأيام» الذي يحتوي على منتخبات من كتابات «القبالاه» والأخلاق، وكتب الحاخام الياهو هكوهين هايتاماري الذي كان من أتباع «القبالاه» في أزمير، الذي شاعت أعماله في أوساط قطاعات كبيرة من يهود أوروبا إبان القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

وأجاد الحاخام الدكتور موردخاي أهارونبريز الذي عمل رئيسا للطائفة اليهودية في صوفيا في بدايات القرن العشرين وصف حالة الفتور التي طرأت على علاقة يهود الدولة بيهود أوروبا في العصر الحديث، فجاء في أحد أعماله : «انقطعت كل الاتصالات بين الأشكناز والسفاراد، ولم تعد هناك أي قنوات للاتصال الثقافي، وانقسمنا فيما بيننا للدرجة التي جعلت من شريعتنا شريعتين».

وعند القراءة المتأنية لأعمال الحاخام حاييم بالاجي الذي كان واحدا من أبرز حاخامات اليهود في تركيا في القرن التاسع عشر نجد في أعماله صدى لانقطاع العلاقات بين الحاخامات السفاراد وبين الحاخامات الأشكناز، وبينما نجد أنه تلقى استفسارات عديدة من يهود تركيا وبلدان شمال أفريقيا ومن اليهود السفاراد في أمستردام وباريس نلاحظ أنه لم تكن له أي علاقات تذكر مع الحاخامات الأشكناز.

ونجد أيضا صدى لنفس الظاهرة في كتابات الحاخام شاوول اليسار الذي شغل منصب كبير حاخامات القدس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، والذي كان واحدا من أبرز حاخامات فلسطين في هذا الحين، وبينما كانت معظم الاستفسارات الموجهة إليه تأتي من يهود الشرق فلم تكن له أي علاقات بالحاخامات الأشكناز.

العلاقات بين اليهود المستنيرين

بينما تضاءلت قوة العلاقات بين حاخامات الدولة وحاخامات أوروبا في القرن التاسع عشر تزايدت في نفس الفترة قوة العلاقات بين الشخصيات اليهودية المستنيرة والثرية في أوروبا وبين الشخصيات اليهودية المستنيرة بالدولة، حيث حرصت الشخصيات اليهودية الثرية التي كان منها أبناء عائلة روتشيلد والبارون هيرش ومونتيفيوري وأبناء عائلة دي بيجوتو على تأسيس العديد من المؤسسات التعليمية

والصحية والخيرية في أوساط يهود الدولـة، كما كان من بين مظاهر اهتمام يهود أوروبا بـالشرق أن الصحافـة اليهـودية في أوروبـا نشرت أخبـارا كثيرة عن أوضاع الطـوائف اليهوديـة بالشرق، وأن المنظمات اليهـودية الأوروبيـة حرصت على تقـديم المسـاعدة الاقتصـاديـة والثقافيـة ليهـود الشرق، وفي الحقيقـة فإن العلاقـات بين يهود أوروبـا والشرق تزايدت منذ وقوع حادثة دمشق في عام ١٨٤٠ .

ورأت الشخصيـات اليهوديـة المستنيرة في أوروبا أن يهود الشرق في حـاجـة ماسـة إلى «الإصـلاح» بما يتماشى مع رؤيتها لـلإصلاحـات التي رأوا أنـه من الواجب إدخـالها على المجتمع اليهودي في أوروبا، وفي حقيقة الأمر فإن كل معارف يهود أوروبا عن يهود الشرق كانت مستمـدة من لقاءاتهم مع مبعـوثي الاستيطان اليهـودي القديم في فلسطين. وبينما كان هؤلاء المبعوثون يحاطون قبل بدايات حركـة التنوير اليهودية بهالة ضخمة من القداسة تغيرت صـورتهم في العصر الحديث، إذ أصبح هـؤلاء المبعـوثـون منـذ هـذا الحين رمـزا للشخص اليهودي الرث الملابس وللشخص غير النظيف. ولقد قـدم الدكتور هوتيجمان (١٨٢١-١٨٨٥) الذي كان من بين الشخصيات اليهودية المستنيرة في مدينة بريسلاو في ألمانيا في قصة «الأهطل» وصفا ساخراً لهؤلاء المبعوثين القادمين من فلسطين، وكان من بين ماجاء في هذه القصة: «لسنا في حاجة إلى أي ضيوف من القدس».

وعلق الحاخام أهارونبريـز أيضا على عالم الشرق بقولـه: «إن اليهودي السفارادي الذي يظهـر في أوساطنا على فترات متبـاعدة، والذي يرتـدي ملابس شرقية مـزركشة الألـوان، والـذي يحمل في جعبتـه «أرض إسرائيل» يبـدو لنـا وكأنـه يخرج من عـالم الأساطير القـديمة»، كما أعرب هيرش ليرن أيضـا رئيس الموظفين اليهود في أمستردام عن استخفافه أيضا بهيئة «موظفو فلسطين في القسطنطينية».

ومع هذا تكـونت مع مضي الوقت علاقـات قوية بين الـدوائر المستنيرة في الغرب وبين نظيرتها في الشرق، ونعتقـد أن مـراسـلات يهودا نحما من سـالـونيكـا مع الشخصيات اليهودية المستنيرة في أوروبا خـلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر تعـد خير دليل على قـوة العلاقـات التي سـادت بين يهود الشرق والغـرب في العصر الحديث، ويتضمن كتاب «إلى القـدس» للمؤرخ اليهـودي فرانكل معلـومات كثيرة

عن طبيعة العلاقات التي سادت بين الدوائر اليهودية المستنيرة في أوروبا وبين نظيرتها في الدولـة العثمانية، وعلى كل حـال فلا شـك أن أنشطة مدارس الإليـانس أدت إلى تقوية علاقات يهود الغرب بيهود الشرق.

وخلاصـة القول هـي أن التغيرات التي طرأت على أوضـاع يهود الدولـة العثمانية طيلة القرنين التـاسع عشر والعشرين تجلت مظاهرها في انخفـاض معدلات هجرتهم إلى فلسطين، وعدم تـرحيبهم بـالحركة الصهيـونية. فبينما كـان يهود الدولـة العثمانية يحرصـون في الماضي على الهجـرة إلى فلسطين، فإن القـرنين التـاسع عشر والعشرين شهدا انخفاضـا ملحوظا في معدلات هجـرتهم، وعلاوة على هذا لم يكن للمتغيرات السيـاسيـة التي حـدثت في فلسطين أي تأثير فيهم، حيث انصرف يهود الـدولـة إلى تيارات كان من بينها التنوير والاندمـاج مع الغرب، والهجرة إلى أوروبا وأمريكا. ولم يهاجر يهود الدولة العثمانية إلى فلسطين إلا بعد تأسيس الدولة، أما عن العلاقات بين الطـوائف فإنه بينما انقطعت العـلاقـات بين الحاخامـات في هـذا الحين تزايـدت في المقـابل قوة العـلاقات بين المستنيرين اليهـود في أوروبا وبين الشخصيـات اليهوديـة المستنيرة في الدولة العثمانية.



الجزء الثالث

يهود شمال أفريقيا ومصر

مدخل

اليهود واحتلال شمال أفريقيا
(١٨٣٠ ـ ١٩١٢)

سنلقي في هذا الباب الضوء على تاريخ يهود أفريقيا ومصر خلال الفترة الواقعة بين حملة نابليون على مصر وحتى حصول دول هذه المنطقة الممتدة من النيل وحتى المحيط على استقلالها. وسنركز على علاقة يهود شمال أفريقيا بالدول الأوروبية التي احتلت دول هذه المنطقة واحدة تلو الأخرى. وكما هو معروف فقد احتلت فرنسا الجزائر وتونس في عامي ١٨٣٠ و١٨٨١ على التوالي، واحتلت بريطانيا مصر في عام ١٨٨٢، واحتلت إيطاليا ليبيا في عام ١٩١١، وسقط المغرب تحت الاحتلال الفرنسي في عام ١٩١٤. ومع نشوب الحرب العالمية الأولى أصبحت كل دول هذه المنطقة خاضعة للاحتلال. واتبعت كل دولة من الدول الأوروبية نهجا خاصا بها في تعاملها مع الدول التي احتلتها، فاكتفت بريطانيا، على سبيل المثال، بفرض سيطرتها الإدارية والعسكرية على مصر، ولم تتدخل إلا بشكل محدود للغاية في حياة المجتمع، أما سائر القوى العظمى في ذلك الحين فقد حرصت على فرض أنظمتها السياسية والاجتماعية والثقافية على حياة البلدان التي احتلتها، كما حرصت أيضا على توطين سكانها في أوساط السكان المحليين، ومع هذا لم تنجح هذه القوى دائما في تحقيق كل أهدافها. فلم تتمكن إيطاليا، على سبيل المثال، وحتى الثلاثينيات من تحقيق كل أهدافها، فانشغلت حتى هذا الحين في قمع ثورات القبائل، ومن هنا لم تتمكن إيطاليا من فرض سيطرتها على ليبيا واضطرت للرحيل في عام ١٩٤٣.

أما فرنسا فإن السياسة التي انتهجتها تجاه الجزائر كانت بالغة الاختلاف عن السياسة التي تبنتها تجاه المغرب وتونس اللتين سيطرت فرنسا عليهما بمقتضى بعض

المواثيق الدولية. وبينما اتبعت فرنسا في الجزائر سياسة اليد الحديدية فإنها تجنبت إحداث أي تغيير في نظم المجتمع التقليدية المتبعة في تونس والمغرب، ورغم ذلك كانت فرنسا تحدوها الرغبة في وجود سلطة مركزية تأتمر بأوامرها في كل من البلدين، وذلك لأسباب منها:

١ـ نزعة الفكر السياسي الفرنسي لتطبيق فكرة السلطة المركزية، ومن هنا أصبحت السياسة المتبعة في هذين البلدين تتحدد بموجب قرارات المشرفين المدنيين والمندوب السامي الفرنسي، أما عن دور الباي في تونس والملك في المغرب فكانا مقتصرين على تنفيذ السياسة الفرنسية، ولم تكن في حوزتهما أي صلاحيات.

٢ـ قيام المستوطنين الفرنسيين بالضغط على الحكومة الفرنسية حتى تطبق في كل من المغرب وتونس نظاما شبيها بالنظام السائد في الجزائر، وكان للمستوطنين الفرنسيين في هذين البلدين وجود قوي، فكانوا يشكلون ما يتراوح بين ٥٪ و٧٪ من مجمل تعداد السكان.

وبغض النظر عن النتائج التي تولدت عن هذه الضغوط إلا أنه من الضروري فهم الأسباب التي جعلت من احتلال فرنسا للجزائر أمرا مختلفا عن احتلالها لكل من تونس والمغرب، ونعتقد أن أسباب الاختلاف هذه تتمثل في:

١ـ حفاظ المجتمع المحلي في كل من تونس والمغرب على كل مؤسساته السياسية والدينية رغم أنه قد سلب منها كل الصلاحيات.

٢ـ وجدت السلطة الاستعمارية في المحميات التي سيطرت عليها، وعلى خلاف الجزائر، نظما اجتماعية محددة المعالم، بالإضافة إلى أن سكان هذين البلدين أحسوا أن الإصلاحات التي يطبقها الفرنسيون والبريطانيون تعد جزءاً من مسيرة الحداثة التي شهدتها بلدانهم منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر، فقد شهد المجتمعان المحلي واليهودي بهذه البلدان العديد من المتغيرات في ظل الفترة الاستعمارية وعملا على مسايرة العصر الحديث.

وكان لهذه الفترة الاستعمارية تأثير ضخم في أوضاع يهود هذه البلدان، فشهد المجتمع اليهودي في هذا الحين العديد من المتغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية

والثقافيـة كان من أبرزهـا تغيير أوضاعهـم القـانونية، وتـزايد معدل سرعـة انتقالهم من القـرية إلى المدينـة، وتغيير أوضـاعهم المهنيـة، وتحسن أوضاعهـم الصحية، وانتشـار الثقافة الأوروبية، وظهـور أنماط اجتماعية جديدة في أوساطهم، وشيوع ظـواهر عديدة أخرى شكلت في مجملهـا السمات العامة لمسيرة الحداثة التي شهدهـا المجتمع اليهودي في العصر الحديث، ومع هذا فقد تفاوت حجم التغيير الذي شهـدته كل طائفة نتيجة للعوامل التالية:

١ـ الوضع الذي كانت تعيش فيه كل طائفة يهودية إبان فترة الاحتلال.

٢ـ مفهوم كل دولة مستعمرة للاحتلال.

٣ـ مدة الوجود الاستعماري.

٤ـ طبيعة السلطة الاستعمارية وسياستها تجاه اليهود.

وبغض النظر عن الفروق التي سادت بين الطوائف والتي سنبحثها فيما بعد، إلا أن القـاسم المشترك بين كل هـذه الطوائف تمثل في أن التقـاء الطـوائف اليهـودية بـالقـوى الأوروبية تسبب في انفصال اليهود عن الشعوب التي عاشوا في أوساطها على مدى قرون عديدة، وارتبـاط مصيرهم بمصير القوى الأوروبية المستعمـرة للبلاد. وربما يكون خير دليل على هذا التحول أن اليهود لم يشاركوا في ثورات شعوب هذه البلدان الهادفة إلى نيل استقلالها، ومن هنـا فحينما رحلت قوى الاستعمار عن هـذه البلدان فإن اليهـود رحلوا معها متوجهين إمـا إلى فلسطين أو إلى الدول الأجنبية، كما أنه أسـدل الستار على تاريخ اليهود في كل البلدان الإسلامية بعد حصول هذه البلدان على استقلالها.

الحملة الفرنسية ونتائجها

تشكل سنـوات الاحتـلال الفرنسي لمصر التـي دامت ثلاث سنـوات نقطـة تحول مهمة ليس فقط في تاريخ مصر وإنما في تاريخ كل المنطقة، ورغم تباين آراء الباحثين حـول آثار ونتـائج هذه الحملـة إلا أن غالبيـة الآراء تـؤكد أن اقتحـام نابليـون لقلب الإمبراطـورية العثمانيـة كـان حدثـا على قـدر كبير من الأهمية، وأن الحملـة أدت إلى دخول مصر إلى قلب الأحـداث الأوروبية وإلى انفصالها عن الإمبراطوريـة العثمانية.

وبـالـرغم من نجاح الإنجليـز في هـزيمـة الفـرنسيين في معركـة أبي قير وإخـراجهم الفرنسيين من مصر إلا أن الهزيمة التي لحقت بالعثمانيين على أيدي الفرنسيين تسببت في ضياع هيبتهم أمام المصريين وأمـام كل شعوب شمال أفريقيا التي كـانت تتضاءل بها قوة السيطرة العثمانية .

وفي الحقيقة فإنها لم تكن المرة الأولى التي تقتحـم فيها جيوش دولـة مسيحية أراضي الدول الإسلامية ، إذ فقدت الدولة العثمانية منذ نهايات القرن السابع عشر سيطرتها على العديد من أراضيها نتيجة للهزائم العسكريـة المتلاحقة التي أنزلتها النمسا وروسيا بها . أما عن الوضع الـذي ساد في شمال أفريقيا فلم يعد بمقـدور حكام الجزائر أو تونس أو ليبيا أو المغرب في العصر الحديث تهديد المدن الجنوبية بأوروبا .

ولم تكن الحملة الفرنسيـة حملة عسكرية فحسب ، كما أنها لم تكن مجرد مـواجهة من تلك المواجهات العسكرية التي حـدثت بين العالمين المسيحي والإسلامي ، وإنما كانت مواجهـة ثقافية أجبرت المجتمع المصري على الاعتراف بتخلفه عن أوروبـا ، وذكر المؤرخ المصري الجبرتي عند مشاهـدته للتجارب العلمية التي قـام بها الفرنسيون في مصر: «من الضروري أن تتغير بـلادنا وعلينـا أن نأخـذ من أوروبـا كل العلوم التـي ليست لدينـا» (شمعون شامير، تاريخ العرب في الشرق الأوسط في العصر الحديث، ص ٣١) .

وتعبر هذه المقولة عن طبيعة المشاعر التي راودت المسلمين إبان فترة الحملة الفرنسية لمصر. وقد كـان محمد علي (١٨٠٥ ـ ١٨٤٨) الذي تـولى مقاليد السلطـة في مصر بعد خروج القـوات الفرنسية والبريطـانية أول من وضع بـلاده على بدايات طـريق الحداثة . وسار على نفس الـدرب حكام القسطنطينية وتـونس والمغرب الـذين اضطروا في العصر الحديث لمواجهة تهديدات شبيهـة من قبل فرنسا وسائر القـوى الأوروبية ، ووافق هؤلاء الحكـام سواء قسرا أو اختيـارا على إدخـال العـديد من الإصـلاحـات على نظم الحكم الإدارية والاقتصاديـة ، كما وافقوا أيضا على فتح أسواق بـلادهم للمنتجات الأوروبية ، ومنح امتيـازات خـاصة (بما يتماشى مع سيـاسـة الامتيـازات) لرجـال الأعمال والبنـوك الأوروبيين الذين استقروا في مدن شمال أفريقيا .

وفي واقع الأمر فإن تاريخ علاقات شمال افـريقيا بالغرب يعود إلى ما قبل العصر الحديث، كما أنه تم البـدء في اتباع سياسة الامتيـازات، التي منحت حقوقا خـاصة

للرعايا الأجانب، منذ القرن السادس عشر أي إبان فترة حكم السلطان سليم. وقد سار حكام شمال أفريقيا على نفس درب السلطان سليم بعد أن رأوا أن مصلحة بلادهم تقتضي إقامة علاقات تجارية وثيقة مع أوروبا التي كانت تدر على بلادهم أرباحا طائلة، كما أدركت هذه الدول مدى أهمية هذه العلاقات بعد أن اضطرت للتوقف عن عمليات القرصنة إثر تزايد قوة أوروبا العسكرية، وبالرغم من أن روح العداء ظلت تسيطر على العلاقة بين طرفي حوض البحر الأبيض المتوسط إلا أنه ساد رغم ذلك قدر ما من التوازن.

ولم يختل هذا التوازن بسبب الحملة الفرنسية التي قادها نابليون ضد مصر فقط، وإنما بسبب الظروف التي أحاطت بخروج القوات الفرنسية من مصر، والتي دفعت شعوب المنطقة لإدراك أن أمنها ومصيرها مرتبطان بطبيعة العلاقات السائدة بين القوى العظمى، وفيما بينها وبين هذه القوى وأنه ليس بمقدور الدولة العثمانية بمفردها الحفاظ على أمن الدول الإسلامية، واتضح لشعوب هذه المنطقة، على سبيل المثال، أن الفرنسيين انسحبوا من مصر بعد أن شعر البريطانيون أن هذا الاحتلال يهدد مصالحهم في الهند.

وقد سعت كل دولةمن دول هذه المنطقة إلى إقامة علاقات وثيقة مع القوى الأوروبية، بل واتخذت في بعض الأحيان مواقف لا تتماشى دائما مع المصالح الإسلامية، وربما يكون خير دليل على هذا الأمر أن حاكم الجزائر قدم مساعدات ضخمة إلى جنود الحملة الفرنسية في مصر، كما أن حاكم تونس أرسل جيشه للمساهمة في الحملة الفرنسية على وهران، وهذا بدلا من المساهمة في الدفاع عنها. واضطرت تركيا للاستعانة بأعدائها الروس لمواجهة جيوش محمد علي التي كانت تتقدم صوب الأناضول، وهذا بعد أن أخلت بريطانيا وفرنسا بتعهداتها بالحفاظ على أمن وسلامة الأراضي التركية، وبما يتماشى مع اتفاقية أمينز الموقع عليها في عام ١٨٠٥. ورغم هذا الاتفاق فإن فرنسا وبريطانيا قامتا بالاعتداء على الجزائر ومصر وتونس. وفي الحقيقة فإن ملابسات حادث احتلال الجزائر تدل على أنه لم تكن للإمبريالية مشاريع محددة منذ البداية لاحتلال هذه البلدان، وأن التوسع الإمبريالي للدول الأوروبية كان في أحيان كثيرة محصلة للعديد من العوامل الأوروبية والمحلية في آن واحد.

وتمثلت ذريعة احتلال فرنسا للجزائر فيما عُرف «بقضية بكري»، وكان أبناء هذه العائلة اليهودية يصدرون بموجب تصريح من الداي بعض المنتجات للحكومة الفرنسية، وكانوا قد حصلوا على هذا الترخيص في عهد نابليون. وقد ساءت العلاقات بين البلدين بعد أن عجزت فرنسا في أعقاب التغيرات العديدة التي طرأت بها عن تسديد الديون المتراكمة عليها للجزائر. وحينما استفسر المسؤولون الجزائريون عند التقائهم بالقنصل الفرنسي عن ميعاد تسديد الديون، وبعد أن لم يتلق الداي إجابة مرضية فقد استشاط غضبا واعتدى على القنصل الفرنسي. ووفقا لرواية فرنسا فإن الحكومة الفرنسية أرسلت قواتها إلى الجزائر في عام ١٨٣٠ بعد أن أصر الحاكم الجزائري على عدم تقديم اعتذار رسمي للحكومة الفرنسية، وبالرغم من أن هذا التفسير الرسمي لم يكن سوى ذريعة لتأديب الجزائر وحكامها الأتراك، فمن المؤكد أنه لم يتصور أحد في ذلك الحين أن هذه العملية التأديبية ستستغرق فترة طويلة، وأن فرنسا ستحتل الجزائر لقرن من الزمان.

وبغض النظر عن الدوافع الحقيقية لاحتلال فرنسا للجزائر، فمن المرجح أن فرنسا أقدمت على هذه الخطوة بعد أن أيقنت، على ضوء الحملة الفرنسية على مصر، أن الإسلام لم يعد يشكل أي قوة عسكرية أو سياسية من شأنها إرهاب الغرب، كما أن فرنسا لم تقدم على احتلال الجزائر إلا بعد انتهاء نابليون من كل حروبه التي خاضها، وبعد أن أقر مؤتمر فيينا الذي عقد في عام ١٨١٥ أسس التسوية السياسية الجديدة بأوروبا، التي تم بموجبها الحفاظ على التوازن بين علاقات القوى العظمى، أضف إلى هذا أن أفريقيا بثرواتها الطبيعية الهائلة كانت محط أنظار كافة الحملات الأوروبية، ومركز جذب للضباط والجنود الأوروبيين العاطلين عن العمل.

وبينما لم يؤد احتلال فرنسا للجزائر إلى حدوث نفس التحولات التي أحدثها احتلال نابليون لمصر، فقد كان هذا الاحتلال أحد مظاهر تغلغل أوروبا في شؤون المنطقة. ولاشك أن هذا الاحتلال تسبب في زعزعة وانهيار البنية السياسية للبلدان المجاورة خاصة في المغرب التي دفعت ثمنا باهظا في مقابل المساعدة التي قدمتها للأمير عبد القادر الذي حاول تأليب القبائل الجزائرية ضد الفرنسيين إذ قام الجنرال الفرنسي بوجو في عام ١٨٤٤ بإنزال هزيمة عسكرية ضخمة بالجيش المغربي في بلدة أصيلة، وقام

الأسطول الفرنسي في نفس الوقت بقصف مدينتي طنجة وموجادير الساحليتين، مما أجبر المغرب عقب هزيمتها العسكرية على التوقيع على معاهدات سلام مع فرنسا تعهدت فيها بالتوقف عن تقديم المساعدة للثوار الجزائريين، وتقديم امتيازات خاصة للتجارة الفرنسية. وكما سنرى فيما بعد فإن توسع أوروبا الاقتصادي في دول شمال أفريقيا أدى إلى فقدان هذه الدول لاستقلالها، فسقطت تونس تحت الاحتلال في عام ١٨٨١، وسقطت مصر تحت الاحتلال في عام ١٨٨٢، أما المغرب وليبيا فقد سقطتا تحت الاحتلال عشية الحرب العالمية الأولى، ويهمنا هنا بحث طبيعة التغيرات التي طرأت على الطوائف اليهودية في هذه البلدان خاصة في الفترة التي سبقت وقوع هذه البلدان تحت الاحتلال.

تغيرات ديموغرافية

كان ليهود شمال أفريقيا دورهم في علاقات بلدان المنطقة السياسية والاقتصادية مع أوروبا، كما اعتمد حكام هذه البلدان في علاقاتهم التجارية مع أوروبا إبان القرن الثامن عشر على التجار اليهود الذين اشتغلوا بالوساطة التجارية بين أوروبا وبين هذه البلدان، فحصل هؤلاء الحكام من اليهود على حقوق التصدير للبلدان الأوروبية بشروط أفضل من غيرهم، ومع هذا فإن ثراء يهود هذه البلدان لم يوفر لهم دائما الأمن والاستقرار خاصة أن تغير الظروف التي ساعدت اليهود على تكوين ثرواتهم أدى إلى تدهور أوضاعهم الأمنية. وقد ذكر الرحالة اليهودي ش. رومانلي الذي زار دول هذه المنطقة أن أوضاع التجار اليهود في هذه البلدان غير مستقرة، وجاء في كتاب «رحلة إلى بلدان العرب» الذي دونه في القرن الثامن عشر: إن خطر الموت يخيم على رؤوس هؤلاء التجار حيث إن مشيئة الملك هي التي بمقدورها أن تحييهم وأن تميتهم، وبمقدورهم دفعهم إلى أعلى الدرجات والنزول بهم إلى الدرك الأسفل، وبمقدور الملك أيضا الإحسان إليهم أو الإساءة إليهم».

وربما يكون خير دليل على عدم استقرار أوضاع اليهود أن التاجر اليهودي نفتالي بوجناح الذي كان على قدر كبير من القوة في الجزائر، للدرجة التي جعلت التجار الأوروبيين يطلقون عليه لقب «حاكم الجزائر»، أُعدم في عام ١٨٠٥ بموجب أوامر

الداي. وعلى أية حـال فإن مقتل بوجناح لم يؤد إلى القضـاء على أنشطة اليهود في الجزائر طيلة الفترة السابقـة لسقوط الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي، وتعـد قضية «بكري» التي سبقت الإشـارة إليهـا خير دليل على أن يهود الجزائر استمـروا في مـزاولـة أنشطتهم الاقتصاديـة حتى احتلال فـرنسا للجزائر. وبـالرغم من أن أنشطـة اليهود الاقتصـادية بالجزائر شملت كـافة أوجه الحياة إلا أنها لم تكفل أمـن واستقرار الطائفة اليهـودية التي كان استقـرارها يعتمـد إلى حد كبير على طبيعـة العلاقـات السائدة بين الـداي والتجار اليهود. ومن الضروري أن نتذكر في هذا المجال أيضـا أن حركة التجارة مع أوروبا كانت مقصـورة على عـدد محدود من العـائلات اليهوديـة التي كـان تأثيرهـا في حيـاة المجتمع اليهودي محدودا للغاية.

كانت هـذه هي صورة الوضع الذي سـاد في بلدان شمال أفريقيا حتى بـدايات الغزو الأوروبي لبلـدان المنطقـة الـذي غير منـذ منتصف القـرن التـاسع عشر طبيعـة الأنشطـة الاقتصادية بالمنطقة، وكان من بين مظاهر التغيير أن معظم الأنشطة الاقتصادية إلى المدن السـاحلية التـي أقام بها رجـال الأعمال والقنـاصل الأوروبيون. وانتقلـت أنشطة اليهـود الاقتصادية مع حدوث هذا التحول إلى هذه المدن التي أصبحت، منذ هذا الحين، بمنزلة المراكز الاقتصـادية الـرئيسية. وحـدث هذا التحـول بشكل واضح في المغرب، فلـم يعد لليهود منذ هذا الحين أي وجود في المراكز الريفية التي كانوا يقيمون بها والواقعة على سهول جبال الأطلسي. ويقدر البعض أن يهود المدن الساحلية في المغـرب التي نذكر منها طنجة وموجـالة (الصـويرة) وكـازابلانكـا شكلوا في عـام ١٨٥٠ ما يتراوح بين ٢٥٪ و٤٠٪ من التعـداد الكلي لسكـان هذه المدن الـذي كـان يقـدر آنذاك بمائة ألف نسمـة بينما كـانت نسبتهم إلى مجمل سكان المغرب ٣٠٪، وارتفعت هذه النسبة في عقد السبعينيات لتشكل ٥٥٪ من تعـداد سكان المدن السـاحليـة الأخرى مثل: تطـوان والربـاط وسـلا وفرجـان وأغادير، كما شكلوا نسبة ٦٥٪ في عام ١٩٠٠، من تعداد السكان. وعند النظر إلى تعداد اليهود الذين أقاموا في مدن فاس ومكناس وصفرو والعرايش والمدن الأخرى نجد أن يهود المغرب كانوا يقيمون في المدن أكثر من القرى.

وقد شاعت ظاهرة الهجرة إلى المدن في أوساط سائر الطوائف اليهودية في بلدان شمال أفريقيا، أما عن الفروق التي سـادت فيما بينها فهي ناجمة عن التفاوت النسبي في تعداد

كل طائفة. وفيما يتعلق بتونس فبينما قدر تعداد الطائفة اليهودية في تونس في منتصف القرن التاسع عشر بثلاثين ألف يهودي، أقام نصفهم في العاصمة التونسية تونس، كما ساد نفس الوضع في ليبيا التي أقام ٤٠٪ من سكانها من اليهود في مدينة طرابلس. أما عن مصر فقد عاش خمسة آلاف يهودي في القاهرة وثلاثة آلاف يهودي في الإسكندرية عشية الاحتلال البريطاني لمصر.

وكانت ظاهرة الهجرة الداخلية وما رافقها من هجرة إلى المدن نتيجة للظروف المعيشية بالغة الصعوبة التي واجهها اليهود، ومع هذا لم تحل أزمة الإسكان وتدهور الظروف الصحية في المراكز الجديدة التي هاجر إليها اليهود دون تدفق حركة الهجرة إلى المدن. وبالرغم من أن أعدادا كبيرة من المهاجرين اليهود واجهت صعوبات عديدة في الأماكن الجديدة التي هاجرت إليها إلا أن كل هذه الصعوبات لم تقلل من تحمسهم للبقاء في المدن الساحلية فكان المهاجرون يشعرون في هذه المدن بأن الحظ بدأ يتبسم لهم وأن العمل فيها سيتيح لهم فرصة تحسين أوضاعهم الاقتصادية. وجدير بالذكر أن بعض هؤلاء المهاجرين حصل على قسط وافر من المعرفة بالعلوم الحديثة في المؤسسات التعليمية الأوروبية التي مارست أنشطتها في هذه البلدان في الخمسينيات والستينيات من القرن التاسع عشر، كما نجح بعضهم خلال هذه الفترة في التمتع برعاية القناصل الأوروبيين، ونجح البعض الآخر في الحصول على حق المواطنة الأوروبية.

وعلى خلاف الوضع الذي ساد في سائر بلدان شمال أفريقيا، فإن الزيادة الديموغرافية التي حدثت في أوساط يهود مصر لم تكن نتيجة لعوامل الزيادة الطبيعية، وإنما كانت نتيجة لعامل الهجرة، إذ تدفقت على مصر أعداد ضخمة من يهود بلدان البحر الأبيض المتوسط وبلدان البلقان وشرق أوروبا. ولم تبدأ حركة الهجرة هذه إلا بعد أن طبق والي مصر محمد علي (١٨٠٥ - ١٨٦٩) والخديو إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) العديد من الإصلاحات، وتزايدت حركة الهجرة أيضا بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩.

وشهدت الطائفة اليهودية في تونس نفس الظاهرة ولكن بمعدلات أقل، حيث هاجر إبان القرن التاسع عشر بضع مئات من اليهود ذوي الحماية الإيطالية إلى

تونس واستقـروا بها . وأقام هؤلاء المهاجـرون لأسباب اقتصادية أو لأسبـاب خاصة بمشكلات الإسكـان خارج أحيـاء اليهود، وكانت هـذه هي المرة الأولى التي يقيم فيها اليهـود خارج «الحارة» اليهـودية، وهي الظـاهرة التي شـاعت فيها بعـد خلال العصر الحديث .

وكان لرغبة اليهود في تحسين أحوالهم الاقتصادية والاجتماعية أثرها في حركة الهجرة، فهـاجر البعض منهم إلى الأرجنتين والبرازيل وبيرو، وهـاجـر البعض الآخر ولأسبـاب دينية إلى القـدس وطبرية وصفـد، ولكن غالبيـة المهاجـرين فضلـوا الارتحال إلى بلدان قريبة منهم، فهاجرت أعداد كبيرة من يهود شمال أفريقيا إلى الجزائر، وهاجر أعداد كبيرة من يهود تونس والمغرب إلى جبـل طارق الذي تركزت فيـه الحركة التجارية بين بـريطانيا والبلدان العربية، وبلدان شمال فريقيا .

وأثرت بعـض العوامل السيـاسية والعسكـرية في حركـة الهجرة، فتسبـب الاحتلال الفرنسي للجزائر في هجرة أعداد كبيرة من يهود الجزائر ووهران إلى فلسطين، كما تسببت الحرب الإسبانية المغربية في عام ١٨٥٩ في هجرة مئات اليهود من مدينة تطوان والمناطق المحيطة بها إلى إسبانيا ومنطقة جبل طارق .

ولم تكن كل هذه المدن التي ارتحل إليها المهاجرون سوى محطات انتظار للوصول فيما بعد إلى مدينتي لنـدن ومانشيستر، وتمكن بعض المهاجريـن بعد وصولهم إلى إنجلترا من استكمال دراسـاتهم، فـدرس بعضهم أحـدث الطـرق العلميـة في التجـارة، وانـدمج بعضهم مع العـائلات اليهـوديـة السفـارديـة المقيمـة في إنجلترا، والتي كـانت تشتغل بالتجارة مع بلدان شمال أفريقيا، وانـدمجوا أيضا مع بعض العائلات التي ترجع أصولها إلى بلدان شمال أفريقيا مثل عائلتي جداليا وصباغ الهولنديتين .

وعادت أعداد كبيرة من هؤلاء المهاجرين إلى أوطانهم الأصلية في شمال أفريقيا، ومع عودتهم لم يكونوا على قدر كبير فقط من الثراء، وإنما كـانوا يحملون أيضا جوازات سفر بريطـانية وإيطاليـة وأرجنتينية أو برازيليـة مما أكسبهم نفس الحقـوق التي كان ينعم بها الأوروبيون المقيمون في شمال أفـريقيا، وتزايد عدد هؤلاء اليهـود خاصة في كل من مصر وتونس، وساهموا في تطور المجتمع عامة والمجتمع اليهودي خاصة .

تغيرات اقتصادية

بينما اشتغل يهود شمال أفريقيا لفترة طويلة في العديد من المهن التقليدية التي اشتهروا بممارستها والتي كان من بينها الصرافة والتجارة، فقد اتسم التاريخ اليهودي الحديث بظهور شريحة اجتماعية اقتصادية جديدة اشتغل أبناؤها في البنوك وبالتجارة.

ونتيجة لأن يهود شمال أفريقيا كانوا يعربون عن تأييدهم للأوروبيين وللإصلاحات التي كانت تنفذ في بلادهم بضغط من الأوروبيين، ونتيجة أيضا لمعرفتهم بلغة وتقاليد هذه البلاد، فإن اليهودي اشتغل إما كعميل للقوى الأوروبية أو كشريك في الصفقات التجارية التي كانت تنفذها الشخصيات القيادية. وحرص هؤلاء التجار الذين انتموا إلى الطبقة البرجوازية، وعلى خلاف ما فعله التجار اليهود في العصور السابقة، على استثمار أموالهم في الخارج أو تحويلها إلى وسائل للإنتاج، واستغل اليهود الرعاية التي منحتهم إياها القنصليات الأجنبية وعلاقاتهم الدولية المتشعبة للحفاظ على مصالحهم.

وكان تجار السلطان في المغرب من أبرز أبناء هذه الطبقة اليهودية البرجوازية فاشتغل، بعضهم بالتجارة واشتغل بعضهم الآخر كعملاء للسلطة المركزية فتولوا مهمة إدارة أموال السلطة في عملياتهم التجارية مع العالم المسيحي، كما تمكن بعضهم من احتكار عمليات التصدير والاستيراد، بل وشارك بعض أبناء العائلة المالكة في بعض عمليات التصدير والاستيراد. وتزايدت قوة أنشطة اليهود التجارية بعد أن تأسس في عام ١٧٦٤، أي إبان عهد الملك محمد الثالث (١٧٥٧ ـ ١٧٩٠)، ميناء موجادير، وقد دعا الملك بعد أن تأسست مدينة موجادير اليهود إلى الاستقرار بالمدينة، وتم توطينهم في حي القصبة الإداري الذي كان يقيم به المسؤولون، وأعفى الملك محمد الثالث اليهود من دفع الجزية أو أية ضرائب أخرى، مما شجعهم على التوسع في أنشطتهم التجارية، فشملت أنشطتهم كل مدن المغرب، ولاشك أن الحماية التي وفرتها السلطة لليهود جعلت التجار اليهود ينجحون في منافسة التجار الأوروبيين.

وحرص القناصل ورجال الأعمال الأوروبيون على التقرب إلى اليهود وإشراكهم في عملياتهم التجارية، خاصة بعد أن اتضح لهم أن يهود المغرب ينعمون بالأمن

والاستقرار. وكان التجار اليهود بالمغرب من أوائل التجار الذين حرصوا على شراء أسهم الشركة البحرية الفرنسية، وكان من أبرز هؤلاء التجار كل من: كوركوس، والمالح، وأفرياط، وأوحنا، ولذلك فحينما أسس إخوان بريـر في عام ١٨٨١ بنك «ما وراء الأطلنطي»، فقد اختاروا أبناء عائلة كوركوس لتمثيلهم في موجادير ومراكش. وكان معظم ممثلي القناصل الأجانب بالمغرب حتى نهاية عقد الخمسينيات من القرن التاسع عشر من اليهود، فمثل التاجر اليهودي سرويه في الرباط قناصل أربع دول أجنبية وهي: بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وإسبانيا والبرتغال، كما مثل التاجران اليهوديان ش. سوميل، وي. بن دهان القنصل الفرنسي في الدار البيضاء، ومثل التاجر اليهودي ي. بن زاقين قنصل السويد في تطوان.

وعلى خلاف الوضع الذي ساد في المغرب والذي شكل فيه اليهود المحليون أبناء الطبقة اليهودية البرجوازية، كان الوضع في سائر بلدان شمال أفريقيا شديد الاختلاف، حيث كان أبناء الطبقة البرجوازية في هذه الدول من المهاجرين اليهود أو من رعايا القوى العظمى. ففي تونس، على سبيل المثال، برز اليهود من رعايا إيطاليا، فكان يعقوف، كوستلنوافو والطبيب أفراهام لومبروزو، ويعقوب جوطيرس من أبرز الشخصيات اليهودية التي اشتغلت بالطب والتجارة عشية سقوط تونس تحت الاحتلال الفرنسي. وكانت كل هذه الشخصيات من مواليد ليفورنو التي استقرت منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر في تونس. وكان كوستلنوافو ولومبروزو الطبيبين الخصوصيين للحاكم أحمد صدوق (١٨٣٧ ـ ١٨٥٥)، وكذلك محمد صدوق (١٨٥٥ ـ ١٨٥٩). وكان الطبيب كوستلنوافو على درجة كبيرة من الأهمية، ولذلك أرسله الحاكم التونسي الباي محمد في عام ١٨٦٨ إلى إيطاليا لإبرام اتفاقية تجارية بين تونس وإيطاليا. وأسس هذا الطبيب في خلال عامين شركة So-cieta anonima Comerciale industriale et agricola per la Tunisia للاستثمارات، وكان من بين أصحاب أسهمها بعض رجال البنوك في نابولي وبعض أعضاء البرلمان الإيطالي، وانتخب فيما بعد للبرلمان الإيطالي، ولكن أبناءه الأربعة استمروا في تونس لإدارة ممتلكات العائلة التي قدرت بآلاف الدونمات الزراعية.

وكان الدكتور لومبروزو من كبار مستشاري محمد الصدوق، فتولى الدكتور لومبروزو

إبـان حرب القـرم قيادة سـلاح المعونـات الطبيـة بالجيش التـونسي الذي أُرسل للجبهـة للوقوف بجانب الإمبراطورية العثمانية . وقـد أتاح لومبروزو لأعداد كبيرة من اليهود فرصة شغل العديـد من المناصب المهمـة في حياة الـدولة الاقتصاديـة ، وكان من بين أصـدقائه المقربين : يعقـوب جوطيرس الـذي بدأ حيـاته المهنيـة بالعمل مستشـاراً للخازنـدار، ثم سرعان مـا أصبح واحداً من كبار الأثريـاء في تونس . وكان من بين المناصب التي تـولاها لومبروزو أنه عمـل عضواً في اللجنة المكلفة ببحث كيفيـة تسديد الديون التـي استدانتها تونـس من البنوك الأوروبيـة . ويقدر البعض أن ٧٠٪ من الـديون المستحقة على تـونس كانت ديونـا لرجال أعمال يهود كان بعضهـم من رعـايا فرنسا وبريطـانيا ، وكان من بينهم داوود سنتيانا الذي كان من أبرز رجال البنوك في تونس ، والذي عمل مترجماً في القنصلية البريطانية . وكان من بينهم أيضا رجل البنوك مـوشي ليفي من سوسه الذي كان ابن أحد المهاجرين اليهود الذين قدموا من جبل طارق إلى تونس .

وكان للتحولات الاقتصـادية التي شهدتها تونس في العصر الحديث أثـرها بالسلب في اليهود التونسيين الذين من رعايا الباي ، حيث اضطر نسيم شمامه الذي عمل وزيراً للاقتصاد في تونس خلال عامي ١٨٦٠ ــ ١٨٦٤ للرحيل عن تونس بعد أن وجهت له تهمة اختلاس بعض الأموال من الخزانـة ، ومع هذا لم يحل هذا الاتهام دون أن يتولى ابن أخيه في مرحلـة لاحقة نفس المنصب خلال عامي ١٨٦٤ ــ ١٨٧٣ ، ولكنه اضطر فيما بعد للرحيل عن تونس بعد أن وجهت إليه اتهامات شبيهة .

وفي مصر كانت ظروف ظهور الطبقة البرجوازية اليهودية شبيهة بظروف ظهور نفس الطبقة في تونس ، حيث ظهرت هذه الطبقة في الفترة التي تزايد فيها حجم تدخل القوى الأجنبية في مصر ، والتي عجز فيها الخديو إسماعيل عن تسديد ديونه للغرب . وكان من أبرز العـائلات اليهودية في مصر في هـذا الحين : عائلات قطـاوي ، وموصيري ، ودي منشـه ، ورولو ، وعـادة . وظهر في مصر أيضـا عدد كبير من الـوسطاء ورجـال الأعمال اليهود الذين كـان معظمهم يتمتعون برعاية الدول الأجنبيـة . ويختلف وضع البرجوازية اليهودية في مصر عن وضع نظيرتها في سائر دول شمال أفـريقيا ، حيث اشتغل أبناء هذه الطبقة في الجهات الحكومية قبل وقـوع مصر تحت الاحتلال البريطاني ، ومع هذا أسهم الاحتلال البريطاني في إلحاق أعداد كبيرة من اليهود بالجهات الإدارية المصرية .

. وفيما يتعلق بليبيا التي خضعت لسيطرة الدولة العثمانية منذ عام ١٨٣٥، فقد ظهر بها عدد لابأس بـه من رجال الأعمال اليهـود الذين سيطروا على حـركة التجـارة بين ليبيا وبين أوروبا وأفريقيا، وكانت عائلات ناحوم وليفي وأريبف وفرجون من أبرز العائلات اليهودية في ليبيا لاسيما أنها كانت على قدر كبير من القوة الاقتصادية، وكان معظم أبناء هذه العائلات من رعايا إيطاليا. وفي الحقيقة ساهم أبناء هذه العائلات، بشكل مباشر أو غير مبـاشر، في تزايـد حجم الوجـود الأوروبي في ليبيـا، فكان كل العـاملين في بنك روما، الذي كـانت له سيطرة شبه مطلقـة على الحياة الاقتصادية في ليبيـا، من اليهود، وربما يكون خير دليل على تـزايد قوة اليهـود في ليبيا أن إدارة البنك تراجعت عن قـرارها بإلزام اليهـود بالعمل يـوم السبت بعد أن بـدأ اليهود في سحب أموالهم مـن هذا البنك احتجاجا على هذا القرار.

ومن الضروري أن نتفهم في هذا المجال حقيقة أنه كلما كانت تتحسن أوضاع أبناء الطبقة البرجوازية اليهـودية كانت تتدهور في المقابل أوضاع غالبيـة اليهود، إما نتيجة لـلأزمات الاقتصـادية الحادة التي تـولدت في العصر الحديث نتيجـة لظهور النظـام الـرأسمالي الـذي أضر بمصـادر الرزق التقليـديـة التي اشتغل بها اليهـود، أو نتيجـة لتعرضهم إلى بعض المضـايقات، فقد تـزايدت في تونس وليبيـا والمغرب، على سبيل المثـال، منذ النصف الثـاني للقرن التـاسع عشر ظاهـرة اعتداء السكـان على مراكـز التجمعات السكـانية اليهـودية اعتقـاداً منهم أن اليهـود يتحملون مسـؤولية تـدهور الأوضاع الاقتصاديـة في بلدانهم أو مسؤولية خضـوعها للاحتلال. وكـان لكل هذه الاعتداءات بعض الصدى في أوروبا، فعمل مندوبو المنظمات اليهودية الأوروبية منذ وقوع حادثة دمشق، ومنذ نشوب الحرب الإسبانية المغربية (التي دامت عامي ١٨٥٩ و١٨٦٠) على تكثيف وجودهم في أوساط يهود شمال أفريقيا، وعلى تحسين أوضاعهم السياسية والاجتماعية.

تغيرات سياسية

مع حدوث هذه التغيرات الاجتماعية سالفة الـذكر طرأت بعض التغيرات السياسية على أوضاع اليهود، كان بعضها نتيجة لسياسة الإصلاحات التي انتهجتها الإمبراطورية

العثمانية التي كانت تسيطر على مصر وتونس وليبيا، وكان بعضها الآخر نتيجة لتدخل القوى الأوروبية بشكل مباشر في شؤون هذه الدول. ولم يكن تعاطف هذه القوى مع يهود شمال أفريقيا نتيجة لأي أسباب إنسانية أو نتيجة للضغوط التي تعرضت لها من قبل بعض الشخصيات اليهودية الأوروبية البارزة مثل أدولف كرميه أو موشيه مونتيفيوري، وإنما كان تعاطفها هذا نتيجة لأسباب تتماشى مع مصالحها السياسية، إذ رأت هذه القوى أن المسألة اليهودية وسيلة مناسبة تساعدها على الضغط على السلطات المحلية وإجبارها على إصلاح نظمها الداخلية بشكل يضمن مصالح الأجانب والأقليات. ويكفينا هنا أن نسوق مثالين فقط لمعرفة الظروف التي جعلت القوى الأوروبية تهب لمساعدة يهود تونس:

١ـ قضية القبعات

لم يلتزم اليهود منذ بدايات القرن التاسع عشر بتنفيذ الأوامر التي فرضت عليهم في العصور الوسطى التي ألزمتهم بارتداء ملابس معينة، وبدأ اليهود منذ ذلك الحين في ارتداء القبعات الأوروبية، مما أثار غضب السلطات ورجال الدين. واعتقلت السلطات التونسية في عام ١٨٢٣ أحد يهود تونس بعد أن وجهت إليه تهمة عدم الالتزام بقوانين البلد، وكان هذا المتهم من مواليد جبل طارق ومن رعايا بريطانيا فتوجه القنصل البريطاني إلى الباي وهدد بقطع العلاقات مع بلاده إذا لم يتم الإفراج عن المتهم، واضطر الحاكم بعد أن أرسلت بريطانيا فرقاطة بحرية إلى تونس، لإطلاق سراح المتهم، بل وأخبر القنصل أن تونس لن تطبق قوانينها على الرعايا الأجانب.

٢ـ قضية باطو سبز

وكانت هذه القضية خاصة بالسائق اليهودي باطو سبز الذي أعدمته السلطات التونسية في عام ١٨٦٥ بعد أن وجهت إليه تهمة سب الدين الإسلامي. وأثار هذا الحادث غضب السكان اليهود الذين أرسلوا وفداً إلى نابليون الثالث طلب أعضاؤه من فرنسا الدفاع عن ممتلكات وحياة غير المسلمين في تونس، فكلف القيصر الفرنسي قائد أسطوله بالتوجه إلى تونس على رأس فرقاطة لإجبار حاكمها على تنفيذ مبادىء الدستور العثماني الصادر في

القسطنطينية الـذي تعهد بموجبه السلطـان بمنح كافة الحقوق لجميع رعـاياه من المسلمين وغير المسلمين. واضطر حاكم تونس في التاسع من شهر سبتمبر عام ١٨٥٧ إلى أن يصدر الميثاق الذي منح بموجبـه المساواة لكل الرعايا، وكفل هذا الميثاق حـرية العبادة لأبناء كل الطوائف، كما ألغى الميثاق أيضا كافة الضرائب المفروضة على غير المسلمين.

وبالرغم من أنه قد يبدو للوهلة الأولى أن اليهود نعموا منذ هذا الحين بكامل الحرية إلا أنه لم تمض سـوى فترة وجيزة على صدور هـذا الميثاق حتى تعرض حـاكم تونس إلى حركـة معارضة قويـة من قبل السكان الذين شعـروا بأن صدور هذا الميثاق يعـد دليلاً صارخاً على تدهور أوضاع بلدانهم وإذلال الأوروبيين لها. وتعرض اليهود آنذاك لبعض المضايقات من قبل السكـان في تونس، واضطر حاكم تونس محمد الصـدوق إزاء تزايد قوة المعارضة لهذا الميثاق إلى إلغائه، ولكن لم يتسبب هذا الإجراء في تدهور أوضاع اليهود ولم يـؤدّ أيضـا إلى التقليل من وطأة الضغـوط الأوروبية على تـونس، فقـد رأت القـوى الأوروبية أن إلغاء هـذا الميثاق يعد ذريعة منـاسبة للتدخل في شؤون تـونس الداخلية، فأجبر الفرنسيون في عام ١٨٧٥ حاكم تـونس على إعدام أحد أشراف المسلمين ـ الذي كان من عائلة تنتمي أصولها إلى نسل النبي محمد ﷺ ـ لقتله أحد اليهود، كما استجابت السلطـات التـونسيـة في عـام ١٨٧٧ إلى طلب جماعـة «كل شعب إسرائيل أصـدقـاء» والخاص بإلغاء عقوبة الجلد التي كانت تستخدم ضد اليهود.

وتحسنت في كل من مصر وليبيـا في نفس الفترة أوضـاع اليهـود القانـونيـة، وتجلت مظاهر هذا التحسن في أن يهود البلدين نعموا في العصر الحديث بحرية التنقل، أضف إلى هذا أن السلطات ألغت المراسيم التي كانت تلـزم اليهود بارتداء ملابس تختلف عن مـلابس المسلمين، كما انـدمج يهود ليبيا، على سبيـل المثال، وبما يتماشى مع سيـاسـة الإصلاحات العثمانية في الهيئتين القضائية والعسكرية، وكان من سائر مظاهر التحسن أن يهود البلديـن شيدوا في العصر الحديث العـديد من المعـابد، هـذا بالإضـافة إلى أن السلطات سمحت لهم بالإقـامة أينما شاءوا، ومع هذا فقد فضل اليهـود حتى بدايات القرن العشرين الإقامة في أحيائهم التقليدية.

أمـا في المغرب فقـد صمّت السلطات آذانها إزاء كل المطـالب التي قدمت إليهـا والداعيـة إلى تحسين أوضاع اليهود، وكـان موشيـه مونتيفيوري الـذي استقبله الملك

محمد الرابع في عام ١٨٦٤ من بين الشخصيات اليهودية الأوروبية التي دعت الملك المغربي، أثناء زيارته للمغرب، إلى أن يعمل لتحسين أوضاع اليهود. وقد أصدر الملك محمد الرابع في أعقاب هذه الزيارة مرسوما تعهد فيه بتبني موقف عادل تجاه اليهود، ولكن المرسوم لم يؤدّ إلى حدوث أي تغييرات جوهرية على أوضاع اليهود، إذ شعرت الشخصيات المغربية المستنيرة في هذا الحين أن صدور هذا المرسوم يعد دليلاً صارخاً على تدهور النظام المغربي، كما رأت أن النظام أصبح يعتمد على يهود أوروبا، وساهم خطباء المساجد ورجال الدين في نشر هذا الشعور في أوساط السكان مما أدى إلى خلق حالة شديدة من التوتر ساهمت بدورها في تزايد عدد الاعتداءات التي راح ضحيتها مئات اليهود.

ولم يتبق أمام اليهود، على ضوء هذا الوضع، سوى الحصول على حق رعاية الأوروبيين بغرض الإحساس بالأمن، فكان هنالك في تونس حوالي ثلاثة آلاف يهودي من رعايا إيطاليا، وكان البعض الآخر منهم من رعايا فرنسا وإسبانيا وهولندا. أما في كل من الجزائر وليبيا فقد كان يهود هذين البلدين من رعايا الدول الأجنبية.

وقد أثار انتشار هذه الظاهرة غضب السلطات المحلية التي بذلت كل ما في وسعها للقضاء على حماية الأجانب، ونجح مندوبو المغرب في إطار مؤتمر مدريد الذي عقد في عام ١٨٨٠ في إقناع الدول الأوروبية بضرورة التقليل من عدد اليهود الذين ينعمون برعايتها، ووافق المؤتمر على طلب المغرب الداعي لتبني مفهوم المواطنة المغربية الذي ألزم كل سكان المغرب بغض النظر عن ديانتهم بالولاء لملك المغرب، كما أصدر المؤتمر قرارا نص بأنه يحق لرعايا الدول الأجنبية الاختيار بين العودة للمغرب والانصياع لقوانين الدولة وبين مغادرة المغرب.

وأثارت قرارات مؤتمر مدريد حالة من الهياج في أوساط يهود المغرب الذين شعروا حصولهم على حق المواطنة المغربية لن يؤدي إلى تحسين أوضاعهم، خاصة أنه كان من الواضح لهم أنه ليس من الممكن أن يتم دمجهم في المجتمع مادامت القواعد والقوانين الدينية هي التي تتحكم في طبيعة العلاقة بين الملك ورعاياها. وكان هذا الإحساس صادقا بالفعل حيث إنه في الوقت الذي شهدت فيه بعض بلدان شمال أفريقيا مثل تونس ومصر دخول بعض الأفكار الغربية إلى حياة المجتمع، إلا أنها شهدت في المقابل

حركة إصلاح إسلامية قوية سعت إلى إضفاء طابع دنيوي على التقاليد الإسلامية، وإلى إضفاء طابع إسلامي على القوانين التي أدت إلى نشأة الأفكار الحديثة في بلدان شمال أفريقيا، ومن هنا فقد ظل المجتمع في كل هذه البلدان مجتمعا إسلاميا محافظا. وكما ذكرنا من قبل فإن أوضاع اليهود الاجتماعية في هذه البلدان لم تتحسن نتيجة لرغبة المجتمع الإسلامي في تحسين أوضاعهم، وإنما نتيجة للضغوط التي مارستها القوى العظمى التي استغلت حالة الضعف السياسي والعسكري التي كانت عليها دول الشمال الأفريقي لإملاء شروطها على هذه الدول في كل ما يتعلق بالمسألة اليهودية وبكافة القضايا الأخرى.

وشعر يهود هذه البلدان بأن الخروج من الأطر التقليدية لمجتمعاتهم هو الأمر الوحيد الذي من شأنه أن يكفل لهم مستقبلهم، ولذلك حرصوا على الحصول على رعاية القوى العظمى، ولا غرابة أيضا في أنهم رحبوا بالمؤسسات التعليمية الأوروبية، فالتحق يهود مصر بهذه المؤسسات منذ أربعينيات القرن التاسع عشر. وقد كان لهذه المؤسسات وجود قوي في سائر دول شمال أفريقيا منذ الستينيات من نفس القرن، ويرجع فضل هذا الأمر إلى أنشطة جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء»، و«رابطة الإخوان اليهودية» البريطانية والمنظمات اليهودية الأوروبية الأخرى. وكانت نسبة اليهود الذين تعلموا بالمدارس اليهودية الحديثة في المغرب ومصر أصول القراءة والكتابة أعلى بكثير من نسبة المسلمين، فقدر في عام ١٩١٢ عدد الطلاب اليهود الذين التحقوا بمدارس الإليانس في المغرب بخمسة آلاف طالب، ولاشك أن هذا التميز الثقافي جعل اليهود يتفوقون على المسلمين، خاصة بعد أن أصبحت هذه البلدان خاضعة لحكم القوى الأوروبية.

العلاقات بين الطوائف

يتضح مما تقدم أن دخول القوى الأوروبية لدول شمال أفريقيا كان له أكبر الأثر في حياة الطوائف اليهودية حتى قبل اختلاطها بشكل مباشر مع الغرب. وشهد العصر الحديث ظهور العديد من الطوائف اليهودية في المدن الساحلية وبينما تزايدت أهمية هذه الطوائف تضاءلت في المقابل أهمية المراكز اليهودية التقليدية الواقعة في المدن الداخلية التي تولت طيلة الفترة السابقة للعصر الحديث مسؤولية بحث كل القضايا الخاصة باليهود. وتزايدت في هذه الفترة أيضا قوة أبناء الطبقة البرجوازية

الحديثة فأصبحوا يتحملون مسؤولية إدارة شؤون الطائفة، وسرعان ما شغل أبناء هذه الطبقة، نتيجة لعلاقاتهم القويـة مع السلطات المحلية والجهات الأوروبية، ولقوتهم الاقتصادية، المناصب القيادية في الطائفـة، ومع هذا ظلت القيادة الدينية المحافـظة تسيطر على مقـاليد الأمـور في أوساط اليهود المقيمين في المدن التـي لم تتأثر مثل المدن الساحلية بالفكر الأوروبي.

ولم تتكون قيادة المجتمع اليهود من الحاخامات فقط، إذ ضمت القيادة أيضا بعض الشخصيات اليهـودية الأخرى مثل تلك التي كـانت مكلفة بجبايـة الضرائب من أبناء الطائفـة، والتي كانت تستمـد نفوذهـا الاجتماعي من ثرائهـا، ومدى قـربها وتأثيرها في السلطة. وكانت معظم هذه الشخصيات حتى القرن التاسع عشر تنتمي إلى عالم الفكر اليهودي التقليدي وتتمسك بالتقاليد، ويمكننا القـول إنه ساد حتى هذا الحين قدر ما من التـوازن الحقيقي في أوسـاط المجتمع اليهــودي بين القيـادة الـروحــانيـة ونظيرتها الاقتصادية، ولم يختل هـذا التوازن إلا في ظل الفترة التي تدخلت فيهـا القوى الأوروبية في شمال أفريقيا، واختل هذا التوازن في كل بلدان شمال أفريقيا ولكن بأشكال متفاوتة، فقد فقدت القيادة اليهودية في الجزائر، على سبيل المثال، مكانتها المرموقة قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر، وحدث هذا الأمر نتيجة لتزايد حدة الخلافات بين العائلات اليهودية الثرية التي مثلتها عائلات بكري، وبوجناح ودوران، وبين الحاخامات الذين كان من أبرزهم كل من الحاخام يهودا عياش، والحاخام يعقوب بن نائين اللذين اضطرا على أثر تزايد حدة الخلافات للهجرة إلى فلسطين.

أما في تونس فقـد كانت للقائد سيطرة شبه مطلقة على كل أبنـاء الطائفة، ووصف أحـد يهود تـونس شخصية القـائد في خطـاب بعث بـه إلى جماعـة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» جاء فيه:

«أصـدر الملك في عــام ١٨٣٩ قـرارا قضى بتكليف القـائد نسيم شمامـة بمهمـة الإشراف على يهود تونس، ويتـولى شمامة منصب وزير الخزانة، وهـو من الشخصيات المقربة للملك، ويتغنى اليهود في المعـابد بأمجاده، ويطلقو ليه لقب ملك إسرائيل، وينـزل شمامة العقـوبـات بالخارجين على القـانون من بين اليهـود لـدرجة أن السجـون أصبحت مكتظة باليهود».

وتضاءلت في تونس صلاحيات الحاخامات الدينية بشكل ملحوظ في أعقاب الإصلاحات التي أدخلها محمد الصدوق (١٨٥٩ ـ ١٨٨٢) فاقتصرت صلاحيتهم على بحث قضايا الأحوال الشخصية، ولم يعد يحق لهم بحث القضايا المدنية والتجارية الخاصة باليهود. وتحددت صلاحيتهم بموجب المرسوم الذي أصدره الباي في عام ١٨٧٢ الذي جاء به:

«نعلم أن حاخامات تونس وسوسة وسائر المدن الأخرى يتولون مهمة بحث القضايا المدنية والتجارية الخاصة بأبناء طائفتهم، ونتيجة لأن هذا الأمر يتناقض مع أصحاب السلطة القضائية فإنه لا يحق للحاخامات بحث هذه المسائل أو بحث سائر النزاعات الأخرى الخاصة بأوضاع اليهود الشخصية».

وعلى خلاف الوضع الذي ساد في تونس والذي كان يقوم فيه قائد الطائفة بتعيين الحاخامات فإن كبير الحاخامات في ليبيا كان يمارس مهام منصبه بموجب القرارات التي كان يصدرها السلطان، وكانت مهام منصبه تقتصر على الإشراف على القضايا الدينية للطائفة، وتمثيلها لدى السلطات.

وشغل الحاخام الياهو حازان خلال عامي ١٨٧٤ ــ ١٨٨٤ منصب كبير الحاخامات في ليبيا، وكان الحاخام حازان من بين مبعوثي الاستيطان اليهودي في فلسطين الذين استقروا في ليبيا، ثم أعقبه في هذا المنصب كل من الحاخام ديفيد بابو والحاخام ديفيد قمحي، وكان كلاهما من مواليد القسطنطينية، وكان الحاخام حزقيا شبتاي آخر كبار الحاخام الذين تم تعيينهم من قبل تركيا في ليبيا، وظل هذا الحاخام يمارس مهام منصبه حتى عام ١٩٠٨ ثم اضطر فيها بعد للرحيل عن طرابلس نتيجة لتزايد حدة الخلافات في أوساط الطائفة بين الاتجاه المؤيد لإيطاليا وبين الاتجاه للإمبراطورية العثمانية.

وكان تزايد الخلافات في أوساط الطوائف من بين الظواهر المميزة لتاريخ هذه الطوائف في العصر الحديث، وبينما شهدت هذه الطوائف في الماضي بعض الخلافات إلا أنها لم تكن على هذا القدر من الحدة الذي ساد في العصر الحديث. ولم تقتصر مظاهر الخلاف على تزايد حدة الفروق الاقتصادية في أوساط المجتمع اليهودي، وإنما

كانت هناك العديد من الخلافات الثقافية والسياسية بل والعرقية مما ألحق أشد الضرر بروح التضامن اليهودي .

وقد تدخل القناصل الأجانب أكثر من مرة لحل هذه المشكلات فتدخلوا، على سبيل المثال، لحل المشكلات التي واجهت يهود مدينة موجادير في المغرب، كما تدخلوا لمصلحة فقراء الطائفة اليهودية الذين كانوا يدفعون لأثرياء الطائفة إيجارات باهظة . وفيما يتعلق بأبناء الطبقة البرجوازية اليهودية الذين عاشوا خارج أحياء اليهود التقليدية فإنهم لم يهتموا بإصلاح أوضاع فقراء اليهود، ولم يهتموا أيضا بتشييد مدارس حديثة لمصلحة هؤلاء اليهود. أما في تونس فقد أدى تزايد حدة الفروق الاجتماعية والثقافية في أوساط الطائفة اليهودية إلى تزايد حدة التوتر بين اليهود من رعايا إيطاليا وبين اليهود المحليين، وبالرغم من أن اليهود الذين نعموا برعاية إيطاليا طالبوا أكثر من مرة بالانفصال عن سائر فئات المجتمع اليهودي، إلا أن كل جهودهم باءت بالفشل، ومع هذا فقد نجحوا فقط في تأسيس جبانة خاصة بهم .

وفي مصر تزايدت قوة الاتجاهات الانفصالية في أوساط المجتمع اليهودي، خاصة بعد أن تشكلت بها طائفة يهودية أشكنازية كانت لها مؤسساتها المستقلة عن المجتمع اليهودي. أما عن اليهود السفاراد في مصر فلم يسد الهدوء دائما في أوساطهم، إذ نشبت في داخل المجتمع اليهودي السفارادي العديد من الخلافات الشخصية والسياسية .

وقد شهدت الطائفتان اليهوديتان في كل من القاهرة والإسكندرية اللتان تأثرتا بفكر اليهود الفرنسيين تغييرات عديدة في بنيتها التنظيمية، فأصدرت قيادة الطائفة اليهودية في الإسكندرية في عام ١٨٥٤ قرارا دعا إلى الفصل بين القضايا الدينية التي من اختصاص الحاخامات وبين القضايا الخاصة بحياة الطائفة والتي كانت لجنة الطائفة مكلفة ببحثها. وأصدرت نفس الطائفة في عام ١٨٧٢ قراراً دعا إلى انتخاب الحاخام دون الاهتمام بمسألة أصله أو بمسألة الجهة التي تكفل له الرعاية، وتولت الجمعية العامة للطائفة في الإسكندرية مهمة انتخاب حاخام الطائفة، وكان من بين اختصاصاتها انتخاب مجلس الطائفة المكون من ستة وثلاثين فردا، وكان يتم انتخاب اثني عشر عضوا من بين هؤلاء لدخول لجنة الطائفة التي كان رئيس الطائفة يتولى

مهمـة قيادتها. وكـانت هذه اللجنـة مكلفة بتمثيـل الطائفـة أمام السلطـة وجبايـة الضرائب من اليهود والإشراف على المدارس اليهـودية والمؤسسات الخيريـة والصحية التابعـة للطائفة. والجديـر بالذكر أن الطـائفة اليهوديـة في القاهرة اتخذت في مـرحلة لاحقة نفس القرارات التي كانت قد أصدرتها الطائفة اليهودية في الإسكندرية.

وفي الحقيقة فإن الطوائف اليهودية في شمال أفريقيا شهدت قبل العصر الاستعماري العديد من التحولات والتغيرات التي أسهمت في تزايد قوة الخلافات في أوساطها وتزايد حدة الفروق الاقتصادية والاجتماعية. وبينما شهدت الطوائف اليهودية في الجزائر مرحلة الانتقـال من العهد التقليـدي إلى العهد الأوروبي بشكل مفـاجيء فإن سائر الطـوائف اليهوديـة في شمال أفريقيا كـانت على معرفة بـالفكر الحديث قبل خضوع هـذه البلدان للاحتلال، بل تأثـرت بعض هذه الطوائف بالتيارات الفكريـة الحديثة التي سادت في أوساط اليهود منذ نهايات القرن التـاسع عشر، فكانت الأفكار الصهيونية منتشرة، على سبيل المثـال، في أوساط يهود المغرب وليبيـا قبل سقوط هـذين البلديـن تحت الاحتلال الفرنسي والإيطالي. وكما سنرى - فيما بعد - تأسست خلال أعوام ١٩٠٠ و١٩٠٣ بعض الروابط الصهيـونية في مـدن تطوان وموجـادير وسافي بـالمغرب، وتفيـد المراسلات التي جرت بين مؤسسي رابطـة العودة إلى صهيون في تطوان وبين تيودور هرتـزل أن قادة هذه المنظمة لم يكتفـوا بممارسة الأنشطـة الصهيونية وإنما امتـدت أنشطتهم لتشمل الجوانب الثقـافية، فحـرص قادة هـذه الرابطـة على تأسيس مكتبة عبريـة في تطوان لنشر اللغـة العبريـة والفكر الصهيـوني في أوسـاط اليهـود. وانتشرت الأنشطة الصهيـونيـة في قلب المغـرب في عام ١٩٠٨، خـاصة بعـد أن تأسست في فاس رابطـة «محبة صهيـون» التي عملت على نشر «الشيكل» (العملة اليهـودية) وبيع أسهم حركة الاستيطـان في مدينتي صفرو ومكناس.

وسعى قادة الحركة الصهيونية في ليبيا إلى السيطـرة على مؤسسات الطائفة، ولكنهم لم ينجحوا في إضفاء طابع الحداثة على الطائفة إلا بعد سقوط ليبيا تحت الاحتلال الإيطالي. وحظي يهود ليبيا بـدعم وتأييد يهود إيطـاليا الذيـن رأوا أنه من الضروري العمل على نشر الفكر الحديث في أوساط يهود ليبيـا، وكان موقفهم على هذا النحو شبيها للغـاية بموقف يهود فرنسـا تجاه يهود تونس والجزائر والمغرب. وكما سنـرى فيما بعد فإن شعور يهود فـرنسا

وإيطاليا بالتضامن مع إخوانهم مـن اليهود لم يتماش دائما مع أهداف السياسة الاستعمارية لبلدانهم، كما أن أفكارهم لم تتماش دائما مع فكر يهود شمال أفريقيا.

المجتمع التقليدي

لم تؤد التحـولات والتغيرات التي شهدها المجتمـع اليهودي في شمال أفريقيـا خلال القرن الماضي إلى القضاء على تقاليد هـذا المجتمع التاريخية، فلم يشهد المجتمع في هذا الحين أي تغيرات جـذرية سـواء في تـوجهاتـه أو في بنيتـه التنظيمية، وظل يعيش وفقـا لطريقته التقليـدية، كما ظل متمسكا بمؤسساتـه التي تأسست في القرون الماضية. ومع هـذا فإن الاطلاع على المصـادر التاريخيـة التي يـرجع تاريخهـا إلى القرنين التـاسع عشر والعشرين، وعلى الأبحاث التي نشرت أخيرا يتيح لنا فرصة التعرف على طبيعة التطورات التي شهـدهـا المجتمع اليهـودي في العصر الحديث، وعلى سمات المجتمع اليهـودي. وتتنـاول معظم هـذه الأبحـاث دور الأنشطـة الاستعماريـة التي أضفت في ذلك الحين طابعها على المجتمع اليهودي، ومع هذا فـإن حياة معظم الطوائف اليهودية بقيت على ماهي عليه، فظل اليهود يعيشون في نفس الأطر التقليدية للمجتمع اليهودي. وينطبق هذا الرأي بالتـأكيد على الفترة السابقة للاحتلال، ولكنه يظـل صادقا إلى حد كبير على الفترة التي أعقبت الاحتلال.

وسنبدأ بحثنا بإلقاء الضوء على يهود المغرب الذين كانوا يشكلون في هذا الحين حوالي خمسين في المائة من يهود دول المغرب، بـالإضافـة إلى أن المغرب كـان آخر بلـدان المغرب العـربي التي سقطت تحت الاحتـلال. وظـل يهود المغـرب يعيشـون في العصر الحديث بنفس الطريقة التقليدية، كما ظل المغرب يشكل حتى العصر الحديث مركزا مهما للنتاج الثقـافي اليهـودي، ومـن المحتمل أن تكـون هـذه الحقيقـة هـي التي جعلت البـاحثين الأنثـروبولـوجيين وباحثي الفـولكلور يـولون قـدرا كبيرا من الاهتمام لنتاج يهود المغـرب الثقافي. ويرى هؤلاء الباحثون أن يهود المغرب حافظوا على العديد من العادات والتقاليد التي ربما يرجع تاريخها إلى عصور سحيقة. ونجـح هؤلاء حقاً في رسم صورة دقيقة لحياة المجتمع اليهودي في المغرب.

الباب الأول

المجتمع التقليدي

الفصل الأول

الزعامة الدينية والتعليم وطريقة الحياة

المحاكم والحاخامات

كان للمحاكم الحاخامية اليهودية حتى نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين مكانة بالغة الأهمية في حياة المجتمع اليهودي، ومع هذا فقد طرأت على مكانتها خلال هذه الفترة بعض التغيرات، إما نتيجة للتطورات التي حدثت في المجتمع اليهودي، أو نتيجة للإصلاحات التي طبقتها السلطة الاستعمارية في بلدان الشمال الأفريقي.

وكان لهذه المحاكم صلاحيات واسعة النطاق لم تقتصر على فرض الشريعة على أبناء المجتمع اليهودي، وإنما شملت محاكمة الخارجين على القانون، فكان للطوائف اليهودية حق محاكمتهم وتسليم المتهمين إلى السلطات. وكانت هذه المحاكم تتولى أيضا مسؤولية الإشراف على تنفيذ القوانين الخاصة بالطائفة والتي شملت كافة أوجه حياة المجتمع الاقتصادية، كما كانت تشرف أيضا على قضايا الأحوال الشخصية ووضع المرأة في المجتمع.

وسيطرت العائلات اليهودية العريقة التي من نسل العائلات اليهودية التي خرجت من الأندلس على الطوائف اليهودية في الجزء الشمالي الغربي من المغرب، وحافظت هذه العائلات العريقة حتى العصر الحديث على مكانتها القيادية. ففي مدينة فاس. على سبيل المثال، ذاع صيت كل من الحاخام رفائيل الفرنسي الذي شغل منصب نجيد الطائفة، والحاخام شلومو إلياهو بن تسور. وتزايدت في هذه الفترة أيضا قوة الحاخامات الذين كانوا أيضا من أبناء هذه العائلات العريقة، والذين كان لهم أعظم الأثر في توحيد الطائفة اليهودية في فاس وتشجيعها

على الالتفاف حول المحاكم الربانية وحاخاماتها. وكان يهود مدينة سلا يشعرون بالاعتزاز بحقيقة أن الحاخام حايين بن عطار عاش في القرن الثامن عشر في مدينتهم، وبأن بعض حاخاماتهم أصبحوا من أهم حاخامات اليهود في عصرهم، وكان من بين هؤلاء الحاخامات: الحاخام يساخار أسرف حاخام سلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وتلميذه الحاخام رفائيل انقاوه. وكان من مهام هؤلاء الزعماء تمثيل اليهود أمام السلطات وأمام المجتمع الإسلامي. وكان الحاخام رفائيل انقاوه من أبرز حاخامات المغرب في هذا الحين، فكان من أكثر المشتغلين بالقضايا التي شغلت اهتمام اليهود في العصر الحديث، كما شارك في تلك المناقشة العاصفة التي نشبت في أوساط يهود المغرب والخاصة بمسألة السماح لجماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» بتأسيس مدرسة مشتركة للبنين والفتيات، وحسم الحاخام هذه المناقشة لصالح الاتجاه المؤيد لفكرة تأسيس هذه المدرسة.

أما سياسة الإصلاحات التي طبقتها السلطة الاستعمارية في عام ١٩١٨ تجاه النظم المتبعة في المحاكم الحاخامية فإنها تسببت في سلب هذه المحاكم العديد من الصلاحيات خاصة تلك الخاصة بمجال الإشراف على القضايا الدينية والقضائية. وبينما تقلصت صلاحيات هذه المحاكم في الأماكن التي تزايدت فيها قوة الاتصالات بين اليهود والعرب فإن المحاكم القديمة الحاخامية استمرت في اتباع أنماطها التقليدية في العمل.

وعند تأمل طبيعة العلاقات التي سادت بين طائفة ميدلة الواقعة في شمال المنطقة الشمالية من جبال الأطلس وبين الطائفة الرئيسية لهذه المنطقة الواقعة في مكناس نجد أنه لم يطرأ أي تغيير حقيقي على هذه العلاقات بالمقارنة بطبيعة العلاقات التي سادت في الماضي، إذ ظل الحاخام المسؤول عن طائفة مكناس يتولى مهمة تعيين الحاخام الرئيسي لطائفة ميدلة.

واستجابت فرنسا خلال الأعوام (١٩٤٤-١٩٤٧) لمطالبة القوميين المغاربة، وطبقت بعض الإصلاحات التي كان بعضها في صالح اليهود فتأسست في عام ١٩٤٧ منظمة تولت مسؤولية تمثيل كل اليهود المغاربة، واستمرت هذه الهيئة في ممارسة مهامها حتى عام ١٩٥٥، وأخذت هذه الهيئة على عاتقها مسؤولية بحث القضايا الخاصة باليهود مثل تلك الناجمة عن تدهور وضع التعليم اليهودي في

المغرب، بل وبحث المشكلات التي يواجهها يهود المغرب عند هجرتهم إلى إسرائيل . ولكن تضاءلت في مرحلة لاحقة أنشطة المؤسسات اليهودية بالمغرب نتيجة لهجرة أعداد كبيرة من يهود المغرب إلى إسرائيل ونتيجة لحصول المغرب على استقلاله .

وبالرغم من قيام فرنسا بتقليص الصلاحيات الممنوحة للطائفة وقصرها على قضايا الأحوال الشخصية ، إلا أن اليهود استمروا في طرح تساؤلاتهم على القضاة اليهود، واستغلت المحاكم اليهودية حصولها على هذا القدر من التأييد الشعبي للحفاظ على مكانتها ولإصدار تشريعات اجتماعية جديدة .

وحرصت هذه المحاكم على تنسيق أنشطتها مع الحكام ، ولذلك ففي الوقت الذي اكتفت فيه المحكمة اليهودية في عام ١٩٣٣ بمدينة فاس باتهام النساء اليهوديات بعدم التزام الحشمة لعدم قيامهن بتغطية رؤوسهن فإنها قامت بعد أن نسقت أنشطتها في مرحلة لاحقة مع حاكم المدينة ، بتهديد النساء اللاتي لايلتزمن الحشمة بقيام الحاكم بمعاقبتهن ، وكما يبدو فإن المحكمة عملت بالفعل على تطبيق الصلاحية الممنوحة لها من قبل الحاكم فأصدرت هذه المحكمة في عام ١٩٤٧ قرارا باعتقال سبعة يهود في فاس لعدم احترامهم لقداسة يوم السبت .

أما في الجزائر فقد كُللت أنشطة السلطات الفرنسية بالنجاح منذ السبعينيات من القرن التاسع عشر، إذ فقدت المحاكم اليهودية الحاخامية منذ هذا الحين مكانتها الرسمية ، وانتقلت صلاحيتها إلى المجالس اليهودية المنتخبة من قبل الطائفة ، ولم يعد لهذه المحاكم منذ هذا الحين حق التصديق على مراسيم الزواج ، وفقدت هذه المحاكم صلاحيتها في هذا المجال بعد أن صدر قانون كرميه في عام ١٨٧٠ . وبالرغم من أن البعض لم يلتزم في البداية بهذا القانون ، خاصة أن بعض الحاخامات لم ينتموا إلى هذه المجالس إلا أنه مع مضي الوقت لم يكن لإجراءات الزواج التقليدية سوى قيمة شكلية فقط . ويمكننا على هذا النحو فهم الأسباب التي جعلت حاخامات اليهود في الجزائر يحرصون منذ نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين على التوفيق في كتاباتهم بين أسس الشريعة اليهودية وبين روح العصر، وكان الحاخام إسحاق مورلي (١٨٦٧-١٩٥٢) الذي شغل منصب نائب رئيس المجلس المنتخب للطائفة ، وكبير أعضاء المجلس من أبرز هؤلاء الحاخامات .

وفي ليبيا فشل اليهود طيلة الفترة الممتدة من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر في تشكيل قيادة دينية، ولذلك كان معظم حاخاماتهم من خارج ليبيا، ودام هذا الوضع حتى القرنين التاسع عشر والعشرين، اللذين شهدا مجيء العديد من الحاخامات إلى ليبيا من سائر بلدان الدولة العثمانية أو من إيطاليا.

وشهدت مصر أيضا نتيجة لتزايد قوة المسيرة العلمانية تدهورا روحانيا ملموسا، مما دفع يهود مصر في القرن التاسع عشر إلى إحضار الحاخامات من الخارج. أما في تونس فقد طرأت تحولات عديدة على مكانة المحكمة اليهودية في جربة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، والتي كانت تشكل أعلى سلطة دينية بالنسبة للطوائف اليهودية المقيمة بجنوب تونس.

وظهر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر نموذج جديد من القيادة في بلدان شمال أفريقيا، ووصلت هذه القيادة إلى أوج قوتها في القرن العشرين، فكان قائد الطائفة لا يستمد نفوذه من صلاحياته الدينية وإنما من نفوذه الشخصي، وكان هذا النموذج في القيادة متأثراً في أغلب الأحوال بظهور شخصية «الصديق»* في المغرب. ومن المتصور أن انتشار فكر حركة «القبالاه» في هذه البلدان خلال الفترة الممتدة من القرن الثامن عشر حتى القرن العشرين ساهم في أن القيادة اليهودية في هذه البلدان أصبحت أكثر قربا للمصادر اليهودية، وساد على هذا النحو قدر كبير من التشابه بين القيادة الدينية في بلدان الشمال الأفريقي وبين القيادة اليهودية الحسيدية في بلدان شرق أوروبا. وكان هذا القديس يتمسك إلى أقصى حد بالشريعة اليهودية، ولذلك لم تسد بالتالي أي تناقضات فيما بينه وبين المحاكم اليهودية. وكان أتباع «الصديق» يحرصون دائماً على الإعلاء من مدى تقوى هذا الشخص، وقدراته على الإتيان بالمعجزات والتكهن بالمستقبل. وشغل أتباع حركة «القبالاه» مكانة

---

* الصِديق: هو الزعيم الروحي في طائفة الحسيدية (ظهرت في بولندا في القرن السابع عشر الميلادي)، وهو شخص يتمتع بخصال تؤهله لأن يقوم بدور الرسول أو الوسيط بين العوالم العليا والعوالم السفلى (الخالق والمخلوقات)، وتكمن قوته في إيمانه الهائل ودروشته الصوفية التي لايعلوه فيها أحد. ومكانة «الصديق» تفوق مكانة الملائكة، ولا يمارس تأثيره عن طريق دراسة التوراة، بل عن طريق إيمانه وتأمله الصوفي. ويطلق على «الصديق» الآن في إسرائيل لقب «أدمور» وهو اختصار للكلمات العبرية التي ترجمتها: سيدنا وأستاذنا «ومولانا» ـ (المراجع).

مركزية في قيادة الطائفة الواقعة بجنوب شرق المغرب، وتلك الواقعة في شمال غرب المغرب، كما سيطرت حركة «القبالاه» على فكر الطوائف اليهودية في مدينة مزاب الواقعة بجنوب الجزائر.

وكانت القيادة اليهودية في كل هذه الأماكن من نسل عائلة «أبو حصيره» التي كان معظم أبنائها من الحاخامات. وكان الحاخام يعقوب (١٨٠٧-١٨٨٠) هو مؤسس هذه العائلة، ووصلت هذه العائلة إلى درجة كبيرة من القوة لدرجة أنه لم يكن من الجائز تعيين أي حاخام إلا بعد الحصول على موافقة أبناء هذه العائلة، التي كان من أبرز أبنائها في القرن العشرين كل من الحاخام بابا سالو*، وابنه الحاخام مائير (بابا مائير).

وكانت التغيرات التي حدثت في أوساط القيادات اليهودية بالعصر الحديث نتيجة طبيعية لتبني أعداد كبيرة من اليهود للأفكار الحديثة، مما أدى إلى حدوث انشقاقات عديدة في أوساط المجتمع اليهودي، كان من بين مظاهرها أن أثرياء اليهود والمستنيرين منهم أصبحوا أقل اهتماما بشؤون الطائفة، ومع هذا نجحت القيادة التقليدية في الحفاظ على مكانتها وقوتها في أوساط الفئات الشعبية في المجتمع اليهودي، بل وتزايدت قوتها أيضا، ولكن هذه القيادة أخذت في العصر الحديث شكلا جديدا يتماشى مع روح العصر.

التعليم التقليدي

استمرت المؤسسات التعليمية اليهودية في ممارسة أنشطتها إبان الفترة التي تزايدت فيها قوة المدارس اليهودية التابعة لجماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء»، والمؤسسات التعليمية الأوروبية الأخرى التي مارست أنشطتها في هذه البلدان. ومارست المؤسسات اليهودية التقليدية معظم أنشطتها في الأجزاء الداخلية والجنوبية

* بابا سالا: هو الربى إسرائيل أبو حصيرة المعروف ببباباسالا, ولد عام ١٨٩٠ في رساني في تفيلالت بالمغرب، وأصبح حاخام أرفود الأكبر منذ حقبة الانتداب الفرنسي. اشتهر بالمعجزات وشفاء الأمراض. هاجر إلى إسرائيل عام ١٩٦٤، واستقر في عام ١٩٧٠ في مدينة «نتيفوت» (إحدى مدن التنمية في اسرائيل) وهي من أكبر مراكز تجمع اليهود المغاربة في إسرائيل. ذاعت شهرته في إتيان المعجزات مما حول مقر إقامته لمزار يحج إليه اليهود وكبار الحاخامات الأشكنازيم - (المراجع).

من المغرب، وفي أوساط معظم الطوائف اليهودية في المغرب، ولكنها حرصت على تبني الطرق التربوية الحديثة التي كانت تتبعها المدارس الحديثة.

وظلت المدارس اليهودية التقليدية تمارس مهامها التعليمية بالجزائر حتى الفترة التي تلت سقوط الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي، ولكن السلطات الفرنسية أجبرت هذه المدارس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على تعليم التلاميذ أصول الديانة اليهودية فقط، وحظرت على هذه المدارس العمل خلال الفترة التي كانت تعمل فيها المدارس الحكومية الحديثة، وحظرت أيضا قيام المدرسين اليهود بإنزال أي عقوبات بدنية بالتلاميذ، وهي العقوبات التي كانت تتبع عادة في هذه المدارس.

وشهد المجتمع اليهودي في القاهرة وليبيا خلال نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين تطورا ملموسا في النظم التعليمية، ويرجع فضل هذا الأمر إلى أنشطة الحاخامات الداعين للأخذ بالحداثة والذين كان من بينهم الحاخام إلياهو حازان الذي عمل في كل من القاهرة وليبيا. وكانت مؤسسة «يجديل توراه» من أبرز المؤسسات التعليمية التقليدية في ليبيا، وشهدت هذه المؤسسة في العصر الحديث تطوراً ملموساً تمثل في إنشاء فصول عديدة للتلاميذ، وإلزام العاملين بها على الحصول على شهادات تؤهلهم للتدريس. وحرص الحاخام موردخاي هكوهين الذي تولى مهمة الإشراف على هذه المؤسسة، بعد رحيل الحاخام حازان، على تأهيل الطلاب اليهود للحياة العملية، ولذلك أدخل بعض المواد الدراسية الجديدة على هذه المؤسسة، فلم تقتصر الدراسة في عهده على دراسة المواد الدينية، وإنما أصبحت تشمل دراسة المهن الحرفية واللغات الأجنبية. والجدير بالذكر أن هذين الحاخامين دخلا في مواجهة عنيفة مع «طائفة القضاة» التي عارضت إدخال تعديلات على المناهج الدراسية، ولكن هذه المعارضة لم تحل دون تأسيس فروع أخرى لمؤسسة «يجديل تواره» ليس فقط في طرابلس وإنما في سائر القرى الليبية بل وفي بنغازي أيضا.

وحاولت الطائفة اليهودية في تونس عشية الحرب العالمية الأولى تجديد النظام التعليمي فأسست الطائفة مدرسة تم فيها الدمج بين دراسة المواد الدينية ودراسة العلوم الحديثة واللغات الأجنبية، ونجحت هذه المدرسة مع مضي الوقت في القضاء على نظام «الكُتَّاب» التقليدي. ومع هذا استمر النظام التعليمي التقليدي في فرض

وجوده في أوساط الطوائف اليهودية المقيمة في منطقة جربه الواقعة بجنوب تونس، كما استمر الحاخامات اليهود في تونس طيلة الفترة الممتدة من نهايات القرن التاسع عشر وحتى نهايات الأربعينيات من هذا القرن في معارضة كلّ محاولات تأسيس أي مدارس يهودية حديثة.

ومرت مسيرة تطوير التعليم اليهودي بالمغرب إبان القرن العشرين بعدة مراحل، تأثرت خلالها بأنشطة جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء». وتمتد المرحلة الأولى من عام ١٩٠٠ حتى منتصف العشرينيات، وشهدت هذه المرحلة وقوع صدام عنيف بين مدرسي هذه الجماعة وبين الطائفة خاصة في كل من فاس ومكناس ومراكش وصفرو. وتعامل الحاخامات في هذه الأماكن بتحفظ شديد مع مدارس هذه الجماعة، بل وطالبوا الآباء بإبعاد أبنائهم عن هذه المدارس. وتمثلت المشكلة الرئيسية التي واجهتها هذه الجماعة في عدم توافر المدرسين الأكفاء الذين بمقدورهم الإيفاء بمتطلبات هذه الجماعة، وفيما يتعلق بالمدرسين الذين أحضرتهم هذه الجماعة من سائر بلدان الدولة العثمانية فقد دعوا بشكل علني إلى أفكار حركة التنوير، مما أدى بطبيعة الحال إلى تزايد حدة المواجهة بين الحاخامات الذين رأوا أن مدارس هذه الجماعة تعد وكرا للكفر، وبين مدرسي هيئة الإليانس الذين شعروا بأن المدارس التابعة للنظام التعليمي القديم تعد مدارس متخلفة ورجعية.

وتمتد المرحلة الأخرى من عام ١٩٢٤ حتى عام ١٩٤٥، وترتبط هذه المرحلة أيضا بالأنشطة التي قامت بها المنظمات اليهودية بالخارج والتي سعت إلى التأثير في نظام التعليم اليهودي بالمغرب، ونشر الفكر اليهودي في أوساط التلاميذ اليهود. وحرصت هذه المنظمات على عدم إدخال أي تعديلات تتعارض مع العادات والتقاليد الدينية المتبعة في أوساط يهود المغرب. وازدهرت في بدايات هذه الفترة مؤسسة «أم الأبناء» التعليمية التي أسسها الحاخام زئيف هالبرين، الذي كان من شرق أوروبا، والذي أقام بالمغرب خلال عامي ١٩١٤-١٩٢٢، وكانت اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية المتبعة داخل هذه المؤسسة التعليمية. وتكمن أهمية هذه المؤسسة والمؤسسات الشبيهة بها في أنها مارست ضغوطا عديدة على جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» لإجبارها على بذل مزيد من الاهتمام بتدريس المواد الدينية،

وتعرضت مدارس هـذه الجماعة في مدينة سلا، على سبيل المثال، لمعارضـة قوية من قبل اليهود ليس بسبب حرصها على تدريس الثقـافة الفرنسية للطلاب اليهود، وإنما لفشلها في تـدريس اللغة العبرية للتـلاميذ. وكان من بين مظـاهر الصراع والخلاف حول طبيعـة النظام التعليمي أن حـاخامات اليهـود طالبـوا بتدريس اللغـة العبرية الحديثـة للطـلاب اليهـود، ولكن هـذا المطلب لم يحظ بقبـول المدرسين العـاملين في مدارس الجماعـة. وفي الحقيقة فإن الـدمج بين المواد الدينية والمواد الـدنيويـة في هذه المدارس أثقل كاهل الطلاب، ولذلك كان عمر الطالب يقدر بسبعة عشر عاماً عند وصوله إلى الصف الرابع بالمدارس الإعدادية.

ولم تظهر نتائج هذا الدمج بين أسس التعليم الدينية والدنيوية إلا بعد أن أسست جماعة «كل شعب إسرائيـل أصدقاء» كليـة لإعداد المدرسين في مدينـة كازابـلانكا، ونجحت هذه الكليـة في تبني طرق تربوية حـديثة ساعدت على الـدمج بين المناهج الدنيوية والمنـاهج الدينية. وقدر عدد الـدارسين في هذه الكلية في عام ١٩٥٢، أي بعد مضي ست سنوات على تأسيسها، بثمانين مدرساً، مما يدل على أن عدد المدرسين المؤهلين في المغرب كـان أكثر من عـدد كل المدرسين المؤهلين في سائر بلـدان المغرب العربي ومصر وتـركيا وبلـدان البلقان الـذين درسوا في كليـة إعداد المدرسين التـابعة لجماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في العاصمة الفرنسية باريس.

وبدأت بعـد الحرب العالميـة الثانيـة رحلة أخـرى من مراحل تطـوير نظـام التعليم اليهـودي في المغرب، وكـانت هـذه المرحلـة مرتبطـة بأنشطـة منظمـة «أوتسار هتـوراه» السفاردية بالولايات المتحدة الأمريكيـة، والداعية إلى الدمج بين العلوم الدينية ونظيرتها الدنيـوية، وحظيت هـذه الأنشطة بـدعم هيئة «الجوينت» اليهـودية، ومـارست هذه المنظمة أنشطتها في مدينتي الرباط وموجادير، وفي بعض القرى الصغيرة الواقعة بجنوب المغرب. وخيم التـوتر في البداية على عـلاقة هذه المنظمـة بجماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء»، ولكن سرعان ما طرأ تحسن ملحوظ على علاقتهما خاصة بعد حصول المغرب على استقـلالـه في عـام ١٩٥٦، فتعـاونت المنظمتـان فيما بينهما في مجال الأنشطـة التعليمية. إذ كان الحاخـام أهارون مونسونجـو من أبرز الشخصيات القيـادية في هذه المنظمة، إذ كان هذا الحاخـام من نسل عائلة يهودية عريقة في فاس، بـالإضافة إلى أنه

تلقى تعليمه في إحدى المدارس الدينية اليهودية في أوروبا. وقدر عدد الدارسين في مدارس هذه المنظمة في عام ١٩٥٦ بستة آلاف وخمسمائة وأربعين تلميذا، وفي المقابل كان عدد الدارسين في مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» يقدر بثلاثة وثلاثين ألف تلميذ مما يدل على أن هاتين المؤسستين نجحتا في استيعاب حوالي ٩٠٪ من التعداد الكلي للتلاميذ اليهود في المغرب.

وعلى كل حال يمكننا قول إنه بينما خيم التوتر في البداية على علاقة المؤسسات اليهودية التقليدية بجماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء»، فإن الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى شهدت تحسنا ملموسا في مستوى المؤسسات اليهودية التعليمية التقليدية، هذا التحسن الذي طرأ بعد أن تم حل مشكلة التوفيق بين دراسة العلوم الحديثة وبين دراسة علوم الشريعة اليهودية، كما كان هذا التحسن ناجماً عن منافسة المؤسسات التعليمية التقليدية للمؤسسات التعليمية الحديثة. ومما لاشك فيه أنه كان لمدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» تأثير ضخم في المؤسسات التعليمية التقليدية في المجتمع اليهودي، ويرجع إلى هذه الجماعة فضل تشجيع المؤسسات التعليمية على إعادة تقييم الطرق التعليمية المتبعة في أوساطها. أما دور الحاخامات في هذا الحين فهو أنهم ضغطوا على مدارس هذه الجماعة بغرض بذل المزيد من الاهتمام بدراسة العلوم الدينية. وكما يبدو فإن القاسم المشترك بين كل هذه المؤسسات تمثل في حرص أبناء الطائفة اليهودية في شمال أفريقيا على تطوير النظم التعليمية والعمل في نفس الوقت على التمسك بالتقاليد.

البنية الاجتماعية والواقع الثقافي

يهتم باحثو تاريخ يهود شمال أفريقيا في العصر الحديث بدراسة قضية ما إذا كان يهود دول المغرب يشكلون وحدة متجانسة من الناحية الثقافية، ونبعت هذه القضية من حقيقة أنه سادت فروق لغوية ضخمة فيما بينهم، مما حال دون إمكان التواصل فيما بين أبناء الطوائف اليهودية المختلفة. وقد سادت على سبيل المثال، فروق كبيرة بين لغة يهود منطقة تافيلالت ولغة يهود مراكش، كما سادت أيضا فروق ضخمة بين الطوائف المتجاورة، فسادت فروق لغوية كبيرة بين يهود فاس ويهود مكناس وصفرو، كما كانت هناك فروق لغوية شاسعة بين يهود طرابلس ويهود تونس، وكما يبدو كانت

اللغة السائدة في أوساط يهود طرابلس تعد بمنزلة حلقة الوصل بين يهود المغرب ويهود المشرق، ومع هذا كانت عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم العربية امتدادا طبيعيا لنفس العادات والتقاليد في بلدان المغرب العربي.

ويمكننا تقسيم المجتمع اليهودي في المغرب من الناحية الثقافية إلى ثلاث فئات، وتضم الفئة الأولى الحاخامات، وحافظت هذه الفئة على ثقافتها التقليدية، وكانت الفئة الثانية تضم اليهود الذين كانت لهم معرفة بأصول القراءة والكتابة. أما الفئة الثالثة فتضم المعدمين من اليهود الذين لم يعرفوا أساسيات القراءة والكتابة، وفيما يتعلق بالنساء فلم يكن لديهن أي قدر من الثقافة والمعرفة. وكانت هناك على هذا النحو هوة ثقافية ضخمة بين الحاخامات الذين كان عددهم ضئيلا في المجتمع وبين الشعب اليهودي، وفي الحقيقة لم يكن في المجتمع اليهودي أي وجود للطبقة المتوسطة.

ورغم هذا التباين الثقافي الذي ميز كل جماعة عن الأخرى إلا أن المحاكم الحاخامية نجحت في فرض سيطرتها على كل فئات المجتمع اليهودي. وانتقدت هذه المحاكم بشدة ظاهرة الزواج في سن مبكرة، وهي التي سادت في أوساط يهود المغرب، كما عقد الحاخامات خلال الفترة ١٩٤٧-١٩٥٥ مناقشات ومداولات عديدة لبحث سبل وضع المرأة في المجتمع اليهودي، فأصدرت المحاكم اليهودية خلال هذه الفترة أيضا قراراً قضى بألا يتم تطليق الزوجة إلا بعد مضي ثلاثة أشهر على تقدم الزوج بطلب الطلاق، وكما هو معروف فقد جرى العرف فيما قبل على قيام الزوج بتطليق زوجته أينما شاء أمام أي اثنين من الشهود.

وفيما يتعلق بالواقع الاجتماعي فكانت هناك عائلات يهودية بالغة الثراء في المغرب، ولكن كانت معظم العائلات اليهودية تعيش في حالة لا مثيل لها من الفقر وفي ظروف معيشية غير مناسبة، وتفيد الكتابات التي وصلت إلينا عن حياة يهود تونس أن معظم العائلات اليهودية التونسية كانت تملك قدرا بسيطا من الأثاث، وأن الفقراء من اليهود لم يمتلكوا حتى الأسرة وأنهم كانوا يفترشون الأرض.

وظلت القيود التي فرضت على اليهود في الماضي سارية المفعول حتى العصر الحديث، فكان لزاما على الرجال من اليهود ارتداء «جلابية» سوداء لتمييزهم عن المسلمين الذين كانوا يرتدون «جلابية» بيضاء. أما النساء فلم يكن لزاماً عليهن ارتداء ملابس بعينها، وكانت ملابس النساء تختلف في شكلها من مكان إلى آخر،

وكانت تختلف في بعض الأحيان عن بعضها الآخر في داخل المنطقة الواحدة، كما كانت تختلف أغطية الرأس التي كن يرتدينها من مكان إلى آخر.

وكانت النساء اليهوديات يغطين رؤوسهن مثل السيدات المسلمات حتى في ظل الفترة التي تسللت فيها بعض المؤثرات الغربية إلى المجتمع اليهودي، ولكنهن توقفن عن تغطية رؤوسهن بعد أن أصبحن أكثر تأثراً بالثقافة الغربية، وفي حقيقة الأمر كان وضع المرأة اليهودية أفضل من وضع المرأة المسلمة في بلدان المغرب التي سيطر عليها حتى القرن العشرين المذهب المالكي، ومع هذا استمرت النساء اليهوديات في بعض الأماكن في ارتداء الملابس التقليدية فكانت العروس اليهودية ترتدي في حفل زفافها ملابس يغلب عليها الطابع الأندلسي المعروف.

وكانت الموسيقى الشعبية ليهود الأطلسي والمناطق الجنوبية بالمغرب شديدة الشبه بالموسيقى المحلية، أما موسيقى يهود المدن الساحلية وشمال المغرب فقد كانت مزيجا من موتيفات عديدة كان من بينها موتيفات خاصة بالبربروالأفارقة وشعوب البحر الأبيض المتوسط، وسادت بها أيضا موتيفات شرقية وأندلسية، وغلب عليها بشكل عام الطابع الأندلسي، وتطور في أوساط يهود هذه البلدان فن القصيدة العربية، أما القصيدة التي نظمتها النساء فكان معظمها ينتمي إلى فن الرثاء. وفيما يتعلق بعلم ترتيل التوراة في أوساط يهود جربه وتافيلالت فقد كان شديد التشابه إن لم يكن متطابقا مع أصول ترتيل التوراة في أوساط يهود بغداد، ونتصور أن أصول هذا التشابه ترجع إلى تلك الفترة التي سادت فيها علاقات وثيقة بين يهود بابل وبين يهود المغرب.

طريقة الحياة التقليدية – طائفة جربة في تونس

اتسمت حياة الطوائف اليهودية في المغرب بسيطرة العادات والتقاليد على كافة أوجه المجتمع، وكانت عملية انتقال المجتمع اليهودي إلى العصر الحديث بطيئة للغاية. وبالرغم من أن أعدادا كبيرة من اليهود نجحت في الاندماج اجتماعيا وثقافيا مع المجتمع إلا أن معظم الطوائف اليهودية ظلت متمسكة بالتقاليد اليهودية. وكان الاتجاه الداعي إلى التمسك بالتقاليد على درجة كبيرة من القوة في جنوب المغرب، فحافظت معظم الطوائف هناك على طريقة الحياة التقليدية. وتمسكت بعض الطوائف التي أقامت في جربة حتى الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين

بالتقاليد اليهودية، وتفيد تقاليد هذه الطوائف أن أصول السكان اليهود في جربة ترجع إما إلى الفترة التي أعقبت تدمير الهيكل في فلسطين أو إلى الفترة التي أعقبت خروج اليهود من الأندلس، وحافظت إحدى الطوائف اليهودية على تلك التقاليد التي مفادها أن الكهنة الذين أتوا إلى جربة جلبوا معهم بعد تدمير بيت المقدس أحد أبواب الهيكل الذي كان في فلسطين، وتفيد نفس التقاليد أن معبد جربة أقيم بجوار هذا الباب، وتحول هذا المكان إلى مركز يحج إليه اليهود من كل العالم. وكان من بين الظواهر المثيرة التي سادت في جربة أن اليهود والمسلمين، على حد سواء، كانوا يقسمون باسم هذا المعبد.

وقد فرض حاخامات جربة الذين كانوا من المتمسكين بالتقاليد حظرا على المدرسة التي أسستها جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في جربة في بدايات القرن العشرين، وسعى هؤلاء الحاخامات إلى الدفاع دائما عن مكانتهم وآرائهم، كما حرصوا أيضا على الحفاظ على وحدة الطائفة، وكان نتاج هؤلاء الحاخامات غزيرا للدرجة التي جعلت المطابع اليهودية الأربع في جربة تطبع عشرات الكتب التي تضمنت تفاسير عديدة للتلمود والمشناة.

وكان النتاج الثقافي ليهود جربة منحصرا في الموضوعات التقليدية، فانحصر نتاجهم في تسجيل العادات المحلية ليهود جربه، وكان الحاخام موشيه خلفون هكوهين رائدا في هذا المجال، وشمل إنتاجهم أيضا مجال تدوين تاريخ الحاخامات والقديسين والولاة الذين عملوا في الجزيرة. وفي حقيقة الأمر كانت طريقة الحياة اليهودية في جربة شديدة الشبه بطريقة حياة الطائفة اليهودية في غرداية في الجزائر، وبحياة الطائفة اليهودية في كل من صفرو ودفرو الواقعتين في المغرب.

الإيمان بالأولياء والقديسين في المغرب

تأثرت طريقة الحياة اليهودية في مناطق عديدة من المغرب بالشخصيات اليهودية التي كان ينظر إليها بوصفها شخصيات تنتمي إلى عالم الأولياء والقديسين. وكان الإفراط في الولاء إلى هؤلاء القادة يعد بمنزلة إحدى الظواهر المميزة لحياة يهود المغرب، خاصة بالنسبة للطبقات الشعبية في المجتمع اليهودي بالمغرب التي شكلت غالبية

أبناء المجتمع اليهودي، وكان يطلق على هؤلاء عادة لقب «الصديقين»، كما كان يطلق عليهم في أحيان أخرى لقب «ولي البلاد» الذي كان يعني ضمنا أنه بمقدور الولي رعاية الطائفة وحمايتها. وكان أبناء الطبقات الشعبية في المجتمع اليهودي يؤمنون أنه بمقدور الأولياء الإتيان بالمعجزات، بل وإنه بمقدورهم الإتيان بالمعجزات أيضا بعد موتهم. وكان للأولياء الذين أتوا من فلسطين إلى المغرب وضع خاص، وفي الحقيقة كان معظم الأولياء بالمغرب من فلسطين، وكانوا يشكلون ٩٠٪ من كل الأولياء بالمغرب الذين قدر عددهم بـ ٦١٥ واليا. وكان هناك ستة أولياء من فلسطين من بين الاثني عشر وليا الذين كانوا على قدر كبير من الشهرة في أوساط يهود المغرب، وتفيد التقاليد اليهودية في المغرب أن أصول كل هؤلاء الحاخامات تعود إلى فترة الهيكل الثاني. وشاع في أوساط يهود المغرب الاعتقاد بأنه حينما يتم الكشف عن قبر بعض الصديقين والأولياء فإن المسيح المخلص سيظهر، وأن الخلاص لن يشمل يهود المغرب فقط وإنما سيشمل كل يهود العالم، وكان يهود المغرب يعتقدون أيضا أن هؤلاء القديسين والأولياء ينتظرون قيام اليهود بالكشف عن قبورهم.

وكانت هناك أنواع مختلفة من الإيمان بمقدرة «الصديقين» على الإتيان بالمعجزات، فكان اليهود يؤمنون أنه بمقدور هؤلاء شفاء المرضى، وتمكين المرأة العاقر من الإنجاب، وتمكين العجزة من السير على أقدامهم، والمكفوفين من الإبصار. ونتيجة لأن اليهود كانوا يؤمنون بأن «الصديقين» والأولياء يحافظون على حياة المدينة وأمنها فقد ساد اعتقاد مفاده أن هؤلاء الأولياء يوفرون الحماية لأبناء المدينة من كافة أنواع الشرور. ولم يكتف اليهود بالإيمان بمقدرات «الصديق» إذ كانوا يولون أيضا قدراً كبيراً من القداسة لكل ما يحيط بقبر «الصديق» والوالي من حجارة وأشجار وغيرها، وكان زوار هذه القبور يأخذون أي مخلفات حول هذا المكان ويحتفظون بها إيمانا بأنها ستوفر لهم الأمن.

وكانت كل طائفة تحرص على حماية مقابر «الصديقين» والأولياء الواقعة في المنطقة التي تعيش فيها الطائفة، وكان «الصديق» أو الوالي يظهر في الحلم لأبناء الطائفة، وكان يخبرهم وفقا لما ورد في تقاليد يهود المغرب بسبل الشفاء من الآلام أو على الأماكن التي اختفت فيها الأشياء. وحينما كان يتشكك أي فرد في قدرات «الصديق» أو

الولي كان لزاما عليه أن يشعل بضع شمـوع على قبر «الصديق» أو أن يذبح بقرة أمام قبره بغرض أن ينـال رضاه ومغفرته، وكـرس بعض اليهود حياتهم لخدمة هـذه القبور واعتبروا أنفسهم خدمـا لهم، وأصبح هؤلاء في بعض الأحيان وسطـاء بين زائري هذه القبور وبين الولي.

وكان الأتقياء من اليهود يقومون بزيارة هذه القبور في الفترات التي كانوا يواجهون فيها أي نوع من الأزمـات، وحينما كان القبر قريبا إلى الأمـاكن التي يقيم فيها اليهود فإنهم كانـوا يقومـون بزيـارته مرة أسبـوعيا، ولكن حينما كـانت هذه المقـابر تقع على مسافة بعيدة من أماكن إقامتهم فإنهم كـانوا يعتبرون رحلتهم إلى هذه المقابر جزءا من عملية الاستعداد الروحاني للالتقاء «بالصديق».

وكانت زيارات القبور تعد بمنزلة فرصة للالتقاء بأفراد العائلة، وكان زوار القبور يضعون بجوار قبـور «الصديقين» في أحيان كثيرة زجاجـات تحتوي على مياه أو زيت بغرض أن تحل عليهم بركة «الصديق»، وكـان من بين عادات يهود المغرب قص شعر الطفل للمرة الأولى بجوار قبره وإيمانا بأن ذلك سيكتب للطفل النجاح في المستقبل، وكان من بين عاداتهم بيع الشمـوع وبأسعار باهظة بجوار هذه القبـور، وكان اليهود عادة ينشدو القصائد ويرقصون عند إشعال الشموع بجوار قبر «الصديق».

وتفيد بعض الوثائق أن مثل هذه العادات سادت في أوساط مسلمي المغرب بدءا من القرن الحادي عشر، ولكنهـا شاعت بشكل ضخـم في أوساطهم بدءا مـن القرن السادس عشر، ويعتقد دارسـو تاريخ المجتمع اليهودي في تونس أن ظـاهرة تقديس الأولياء لم تنتشر لدى يهود تونس إلا في القرن التاسع عشر.

وكـانت ظـاهرة عبـادة «الصـديقين» في المغرب محدودة للغـايـة حتى الفترة التي أصبحت فيها المغرب محميـة فرنسية، ولكنها شاعت في المغرب إبـان الثلاثينيات أو الأربعينيـات من القرن العشرين وكـان من بين العوامل التي سـاهمت في شيوع هـذه الظاهرة أنه قـد أسست مبان حديثة شجعت الزوار على الإقامـة بجوار الأماكن التي توجد بها القبور، أضف إلى هذا أن تشييد الطرق الحديثة ساعد اليهود وشجعهم على الانتقال بسهولـة من أماكنهم لزيارة قبور «الصديقين». وكـان من بين هذه العوامل

أنه تأسست في عام ١٩٤٧ لجنة للإشراف على حماية هذه المقابر، وكانت هذه اللجنة تتولى أيضـا مهمة جمع التبرعات . وكانت هـذه الظاهرة على قـدر كبير من الأهمية إذ إنها ساهمت في توثيق العلاقات بين اليهود والمسلمين الذين كـانوا يقومون بزيارة قبور بعض الأولياء اليهود .

وشاعت ظاهـرة زيارة قبور «الصديقين» والأولياء في المغرب أكثـر من شيوعها في أي مكان آخر، ونلاحظ هنـا أن هذه الظاهرة كانت تتزايـد قوة في جنوب المغرب عن شمالها ، ومن المرجح أن سبب شيـوع هـذه الظاهـرة في الجنـوب يتمثل في أنه كـانت لليهـود علاقـات وثيقة بـالبربر الـذين أقامـوا في جنوب المغـرب والذين شـاعت في أوساطهم ظاهرة زيارة قبول القديسين ، بـالإضافة إلى هذا أن قسوة ظروف المعيشة في الجنوب ساهمت أيضا في شيوع ظاهرة الذهاب إلى قبور الأولياء و«الصديقين» .

أما تونـس فقد ، نظر حاخـاماتها بعين الاستحسان إلى هذه الظـاهرة . وكما يبدو فقد رحب معظم حاخامات بلدان المغـرب بهذه الظاهرة ، فشارك بعض الحاخامات في الصلوات التي كانت تقام بالقرب من القبور، وفيما يتعلق بالجزائر فقد تحولت قبور اليهود التي يـرجع تاريخها إلى القرنين الثـالث عشر والرابع عشر إلى أماكن مقـدسة ، وكان من أشهر هذه المقابر، مقابـر الحاخام إسحاق برشست ، والحاخام شمعون بن تسيمح دوران ، والحاخـام أفـرايم انقـاوه ، لأن التراث الشعبي أولى لمقـابـر هـؤلاء الحاخـامات القـدرة على الإتيان بـالمعجزات . أمـا في مصر فقد أصبح قبر الحاخـام يعقـوب أبو حصيرة الذي دفن في محافظـة دمنهور في مصر في عام ١٨٨٠ مزارا ليهود مصر. وانتشرت في إسرائيل ظـاهرة زيـارة أضرحة الأولياء ، فيتـوجه بعـض اليهود في إسرائيل إلى صفد لـزيارة قبر الحاخام داوود مـوشيه ، ويقـوم يهود إسرائيل الذين من أصول مغـربية بزيارة قبر الحاخـام يوحنان بن زكّـاي في منطقة يفنه ، وتتوجـه أعداد كبيرة ، ليس فقط من يهود المغـرب وإنما من يهود العـالم ، إلى قبر الحاخــام التـونسي حاييم حوري الواقع في منطقة بئر سبع .

الفصل الثاني

اليهود والمجتمع الإسلامي

كان الوضع القانوني ليهود شمال أفريقيا حتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر مرتبطاً بتعاليم الشريعة الإسلامية، ولذلك كان اليهود ينعمون، حتى ذلك الحين، بوضع أهل الذمة، ومنحتهم السلطات بموجب هذا الوضع حق إدارة مؤسساتهم، وكل ما يتعلق بشؤون حياتهم الداخلية، ولكنهم كانوا يدفعون ضريبة الجزية في مقابل الخدمات التي كانت الدولة تقدمها إليهم، ومع هذا فرضت عليهم بعض القيود فكان لزاما عليهم أن يرتدوا ملابس معينة، كما لم يسمح لهم باستخدام الخيول، وكان وضع اليهود في هذه البلدان عرضة للعديد من التقلبات، ولكنه كان يخضع بشكل عام لرغبات الحاكم.

وطرأ تحسن ملموس على الوضع القانوني ليهود الجزائر بعد احتلال فرنسا للجزائر، كما ساهمت سياسة الإصلاحات التي انتهجتها تركيا إزاء ليبيا في تحسين أوضاع اليهود، وأدى أيضا إصلاح نظم الحكم في كل من مصر وليبيا إلى تحسن أوضاع اليهود في القرن التاسع عشر. أما عن وضع اليهود في المغرب، الذي كانت توجد به أكبر طائفة يهودية في شمال أفريقيا، فلم يتحسن إلا نتيجة للأنشطة التي قامت بها القوى العظمى والمنظمات اليهودية الأوروبية التي تدخلت كثيرا لصالح يهود المغرب. وسنلقي في هذا الفصل الضوء على تأثير القوانين الإسلامية التقليدية في أوضاع اليهود القانونية والاجتماعية، وسنبحث أيضا التطورات التي طرأت على موقف السلطات والسكان العرب والبربر تجاه اليهود.

تأثير القوانين الإسلامية التقليدية في وضع اليهود إبان القرن التاسع عشر

ألغيت إبان هذا القرن كافة القيود التي فرضت على يهود مصر وتونس وليبيا في القرون الوسطى، ومع هذا لم تكن السلطة في كل هذه البلدان على استعداد لإلغاء الضرائب المفروضة على اليهود. واندمج اليهود في العصر الحديث في مجتمعاتهم. وتفيد نتائج الدراسات الحديثة أنه لم تكن ليهود ليبيا، على سبيل المثال، في هذا العصر أي سمات اجتماعية أو ثقافية تميزهم عن الآخرين، وأنهم كانوا جزءا لا يتجزأ من نسيج المجتمع، فكان بمقدورهم منافسة المسلمين في كافة أنشطتهم. وأثارت هذه المنافسة غضب البعض فعارض أهل مدينة زاوية في ليبيا فكرة تأسيس معبد في مدينتهم، وأحرقوا بضعة معابد في المدينة. وبرر أهل المدينة موقفهم بأن إقامة مثل هذه المعابد ستؤدي إلى تزايد قوة اليهود، وإلى تهديد التجارة الإسلامية.

تغير موقف السلطات في ليبيا وتونس إزاء اليهود

فرضت السلطات في ليبيا بعد تطبيقها سياسة الإصلاحات ضريبة بدل الخدمة العسكرية بدلا من ضريبة الرأس. وكانت هذه الضريبة تُحصل من المسلمين واليهود على حد سواء خاصة من بين الراغبين في عدم الالتحاق بالجيش، ولكن الضريبة التي فرضت على اليهود كانت أكبر بكثير من حجم وجودهم الفعلي في المجتمع. ورغم أن حافظ باشا والي ليبيا طالب في بدايات القرن العشرين بفرض هذه الضريبة على اليهود فقط، إلا أنه طالب المسلمين في مرحلة لاحقة بدفع هذه الضريبة، مما أثار معارضة اليهود والمسلمين، ولكن اليهود كانوا من رواد حركة المعارضة هذه، لاسيما أن السلطات قررت في البداية فرض هذه الضريبة على اليهود فقط، وأعرب المسلمون آنذاك عن تأييدهم لليهود لاعتقادهم أنه إذا خضع اليهود للسلطة التركية فإن السلطة لن تجد حرجاً في فرض نفس الضريبة على المسلمين. وكانت السلطات التركية قررت في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين أن تكون هذه الضريبة ملزمة لكل اليهود، وأنه من الضروري تسديدها، وأثار هذا الموقف معارضة اليهود الذين حظوا آنذاك بتأييد المسلمين، وكان من بين مظاهر معارضة اليهود لهذا

القانـون أن أبناء الطائفة اليهودية في طـرابلس عقدوا في عام ١٩٠٣ اجتماعا في المعبد أعربـوا خلاله عن احتجـاجهم على هذا القـانون، وعلاوة على هـذا نظم يهود المدينة إضرابا عـاماً، فأغلقوا كل محالهم التجاريـة للإعراب عن معـارضتهم لموقف السلطة التركية، ويـدل هذا الموقـف الذي تبنـاه يهود ليبيا إزاء السلطـات التركية على أن يهود ليبيا كانوا يشكلون جزءا لايتجزأ من المجتمع الإسلامي.

وبالرغم من أن السلطات ألغت بشكل رسمي في العصر الحديث كل القيود التي فـرضت على اليهود في العصـور الوسطـى إلا أن اليهود حـرصوا على التـزام الحذر في عـلاقـاتهم مع المسلمين، فتجنب اليهــود، على سبيل المثـال، عـدم السير بجـوار المسلمين أثناء صلـواتهم خشية أن يـزعم أحـد أن اليهود يفسـدون صلوات المسلمين (وكما هو معروف فإنـه يجوز للمسلم ـ كما هي الحال مع اليهود ــ تأدية الصلاة في أي مكان سواء في الطريق أو الحقل) وليس بالضرورة في المسجد.

ولم تـؤد الإصلاحـات التي شهـدتها بلـدان الشمال الأفريقي إلى حـدوث تغيرات جذريـة في موقف السلطة تجاه اليهـود فجاء، على سبيل المثـال، بالدستـور التونسي الصادر في عام ١٨٠٧ : «نتيجة لأن اليهود من رعـايانا فإن السلطة ستكفل لهم تبني موقف طيب تجاههم وستكفل لهم حقوقهم، ولكن هذا الـوضع يتيح لنا أيضا فرض الضرائب عليهم». وتسبب تدهـور أوضاع تونـس الاقتصادية خـلال النصف الثاني من القـرن التاسع عشر، ورغبتهـا في التقليل من حجم ارتباطهـا بالقـوى العظمى في قيامها بفرض المزيد من الضرائب على اليهود».

أما عن موقف السـلاطين في المغرب خلال عامي ١٨٢٢-١٩١٢ تجاه اليهود فقد تبنـوا موقفـا طيبا إزاءهم، وعُـرف عن المولى عبـد الرحمن (١٨٣٣-١٨٥٥) تبنيه لموقف طيب من اليهود، إذ منح التجار اليهود تسهيلات عديدة أتاحت لهم فرصة التنقل بحرية في كافة أرجـاء المغرب، والسفر منها والعودة إليها، كما سعى ابنـه المولى محمد (١٨٥٩-١٨٧٣) إلى تحسين أوضاع اليهـود القانـونية، وكـانت هذه المحاولـة وثيقة الصلة بالمساعي التـي قام بها موشيه مونتيفيـوري الذي تقدم بمذكرة إلى السلطان دعا فيها إلى تحسين أوضـاع يهود المغرب بشكل مشابه لوضع يهود تركيا الـذين تحسنت أوضاعهم خلال الخمسينيات مـن القرن التاسع عشر،

وأصدر السلطان بناء على هـذه المذكرة مرسوماً ملكياً دعـا فيه إلى تحسين أوضاع اليهود، ولكن هـذا المرسوم كان شديـد الشبه بما ورد في الدستـور التونسي بشأن اليهـود فجاء في البنـد الثاني من هـذا المرسوم أنـه من الواجب أن نتعـامل بشكل رحيم مع اليهـود الذين وضعهم اللـه تحت رعايتنـا، وكان هذا المرسـوم يتضمن إشارة صريحة إلى أن السلطة ترى أن اليهـود يعيشون تحت رحمتها، ومع هذا تجدر الإشارة إلى أنها كـانت المرة الأولى في تاريخ يهود المغـرب التي يصدر فيها مـرسوم ملكي شامل يطالب بمعاملة اليهود وفقـا لمبادىء العدالة والمساواة، الأمر الذي يعني أن السلطان دعا إلى مساواة المسلمين باليهود.

وحرر البند الـرابع من نفس المرسوم اليهود من أعمال السخرة التي كـان لزاما على اليهود القيام بها لصـالح خزانة الملك، وتعهد نفس البنـد بألا يتم استخدام الحرفيين من اليهـود إلا بعد الحصـول على موافقتهم، كما تعهـد بـدفع مقابل مـادي إليهم في مقابل الأعمال التي يقومون بها، وفيما يتعلق بالأسلـوب الذي دون به هذا المرسوم فقد كان متماشيا مع موقف التقاليد الدينية الإسلامية تجاه اليهود.

ولم يكن لهذه المراسيم أي تأثير حقيقي في أرض الـواقع، نتيجـة لحالـة الضعف التي كانت عليها السلطة الملكية المركزية في المغرب، فكانت القيادة الفعلية للمغرب منحصرة في أيـدي الحكـام المحليين والشرفاء في المغـرب، أضف إلى هـذا أن اعتراف السلطة المركزيـة في المغرب بصلاحيات شيوخ البربـر في المناطق التي يقيمون بها أدى إلى تزايـد نفوذ وقوة هؤلاء المشـايخ. وتسبب هذا الوضع في تدهـور الوضع الأمني في المغرب، وتزايـد عمليات السرقة والنهب في الطرق، ويفيد أحد تقـارير جماعة «كل شعب إسرائيل أصـدقـاء» أنـه قتل حـوالي ٢٤٩ يهوديـا خـلال الأعـوام (١٨٦٤-١٨٨٠). ومن المحتمل أن عدد الضحايا اليهود كان أكبر بكثير في الماضي من هذا الرقم، ولكن من الواضح أن أوضاع اليهود تحسنت في العصر الحديث نتيجة للأنشطة التي قـامت بها جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء»، وتسبـب هذا الوضع بطبيعة الحال في إحساس يهود المغرب بالخوف.

وكان المغرب يعيش في واقع الأمر في حالات لا مثيل لها من الفوضى، خاصة إبان الفترات التي كانت تطرأ فيها أية تغيرات على مقاليد السلطة، فشهد المغرب

مثل هذه الحالة من الفوضى بعد وفاة المولى الحسن الأول (١٨٧٣-١٨٩٤)، كما كـان من بين العـوامل التي ساهمت في انتشـار حـالـة الفوضـى هذه أن القـوى العظمى الأوروبية لم تتـوقف عن التدخـل في شؤون المغرب أو عن التنـافس فيما بينها حول السيطـرة على المغرب، وكان من بين مظاهر مثل هـذه الحالة من عدم الاستقرار قيـام السلطان بإصـدار العديد من المراسيم، تلـك المراسيم التي كان أثرها محدودا للغاية.

وكان لحالـة الفوضى وعدم الاستقـرار هذه أثـرها في اليهود، فعـانى يهود منطقة دمنات الواقعة في منطقة الأطلس بغـرب مراكش، خاصة في الثلث الأخير من القرن التاسـع عشر من اضطهاد وملاحقـة السكان الـذين كان الحاكم يـدفعهم في بعض الأحيـان للهجوم على اليهـود، وتعرض يهود هـذه المدينـة في أحيان كثيرة إلى السرقـة والنهب، وأجبروا على شراء العـديـد من المنتجـات من المسلمين، كما فـرض عليهم الاشتغال في بعض الأعمال دون مقابل.

وأصدر السلطان في هذا الحين مرسوماً يتكـون من سبعة عشر بندا بغرض الدفاع عن اليهود، ومع هذا لم يكن لهذا المرسوم أي تأثير حقيقي في اليهود الذين لم تتحسن أوضاعهم إلا بعد تـدخل مندوبي فرنسا وبـريطانيا، وبعد تـدخل المنظمات اليهودية الأوروبية، وأصدر السلطان في عام ١٨٩٤ مرسوما دعا إلى إقامة حي خاص باليهود في المدينة بغرض توفير المزيد من الأمن لهم.

وشهد المغرب خلال الأعوام (١٩٠٧-١٩١١) بعض الأحداث والقلاقل، أثرت بدورها في أوضاع اليهود، فأمر حاكم فزان في عام ١٩٠٨ بإعادة تطبيق أحد المراسيم التي كان السلطـان حسن ألغاها في نهايـات القرن التـاسع عشر، فأجبر هذا الحاكم اليهود على خلع أحذيتهم عنـد السير أمام الأماكن المقدسـة في بعض المدن المغربية، وحظر عليهم النفخ في الأبـواق عند الاحتفـال برأس السنة اليهـودية وعيـد الغفران، كما شهـدت بدايـات القـرن العشرين تعـرض اليهود إلى المزيـد من الاضطهـادات، وتعرض يهود فاس إلى حادثة في عام ١٩١٢.

وشهد المغرب مثل هذه الحالة من الاضطرابات بعد أن تحول في ١٩١٢ إلى محمية فرنسية، وأسفرت هذه الاضطرابـات عن إصابة بعض السكان الذين كان من بينهم

بعض اليهـود، فقتل في عـام ١٩١٩ الحاخام داوود أبـو حصيرة الـذي كـان بمنزلـة الزعيم الروحي ليهود جنوب شرق المغرب. وبالـرغم من عدم معرفتنا بطبيعة الظروف التي أحاطت بوفاة أبو حصيرة، إلا أنه جاء في كتاب تاريخ حاخامات المغرب: «دعا السلطان محمـد بن قاسـم في أحد أيام السبت كـل السكان لإبادة اليهـود ولقتلهم، وقتل الملك القـاسي بمشـورة من مسـاعـديـه سيـدنا الحاخـام المتـوفى بـوصفـه كبيرا لحاخاماتنا، وقـد أجبرت هذه الاضطرابات والقلاقل العديـد من العائلات اليهودية على الرحيل من أماكنها، وانتقلت عائلة أبو حصيرة إلى مدينة بودنيف».

المسيحيـــون المحليـون واليهـــود: المنـافســة الاقتصــاديــة والافتراءات ضد اليهود في مصر

نجح المسيحيـون السوريـون الذين قـدمـوا إلى مصر في النصف الثاني من القـرن التاسع عشر في تقـويض أسس المكانة الاقتصـادية البارزة ليهود مصر، تلك المكـانة التي كانوا يتمتعون بها منذ القرن السادس عشر وحتى النصف الأول من القرن الثامن عشر، مما أدى إلى تزايـد حدة التوتر بين الطـائفتين. وكانت المنافسـة الاقتصادية بين الطائفتين في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين هي سبب التـوتـر الذي سـاد بين الطـائفتين، إذ اشتغل أبنـاء الطائفتين في العـديـد من المهن المتشابهة فـاشتغلوا بالصرافة وتقـديم القروض، والتجارة وفي البنـوك. وكان من بين مظاهـر تزايـد حدة التـوتر بين الطـائفتين ترويـج المسيحيين للافتراءات ضـد اليهود خاصة خلال الفترة الممتدة من الستينيات من القرن التاسع عشر وحتى عام ١٩٣٠، وشـاعت هـذه الافتراءات بشكـل ملحـوظ خـلال الأعـوام (١٨٨٠-١٩٠٥)، أي خلال الفترة التي شهـدت ازدهار الحالة الاقتصـادية في مصر، وكـان معظم مروجي هذه الافتراءات المعادية لليهود من اليونانيين الأورثوذوكسيين.

أما في ليبيا فقد روج المسيحيون في عام ١٨٦٢ الافتراءات المعادية لليهود، وانضم بعض المسيحيين الأوروبيين في مـرحلـة لاحقـة إلى هذه الحملـة المغـرضـة، كما روج المسيحيـون في مدينة آسفي في المغرب في عام ١٨٦٣ افتراءات معادية لليهود شارك في نشرها بعض الإسبان الذين كان مـن بينهم السفير الإسباني في المغرب، وأسفرت هذه

الحملة عن إعدام اثنين من اليهود، ومع هذا نجح يهوديـان آخران في الفرار بصعوبة بالغة من هذا الخطر الداهم.

وضع الـرعايـة الـذي تمتع به يهود همزاب (الجزائر) خـلال عامي ١٨٨٢-١٩٤٧

ظل يهود مدينـة همزاب الواقعة بجنـوب وسط الجزائر، والذين كان تعـدادهم ضئيلاً بالمقارنة بـالتعداد الكلي ليهود الجزائر (٦٪)، ينعمون بـوضع خاص حتى بعد أن حصل يهود الجزائر على المسـاواة. وكانت هـذه الطـائفة طـائفة تقليـديـة للغايـة، إذ احتفظت بالعديد من الأسس الاجتماعية الثقافية التي يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى.

وبـالرغم من أن الاحتـلال الفـرنسي للجزائر في عـام ١٨٣٠ قضى على كل محاولات الإساءة لليهود، إلا أن معظم القيود التي فُرضت في الماضي على يهود الجزائر ظلت سارية المفعول، فكان لزامـا على يهود منطقة غردايا حتى عام ١٩٤٥ أن يقيموا في الحي اليهودي فقط، هذا بالرغم من اكتظاظه بالسكان، وحتى عندما تأسست شبكات مياه جديدة في المدينة ظلت آبـار المياه الخاصـة باليهـود منفصلة عن آبـار المسلمين. ورغم حصول يهود الجزائر في عام ١٩٤٧ من الناحية التشريعية فقـط على حق المواطنة الفرنسية إلا أن القيود المفروضة عليهم ظلت سارية المفعـول. وحظي يهود الجزائر قبل خروج الفرنسيين ببضعة شهور من الجزائر بحق المواطنـة الكامل، وقـد يكمن سبب حصول يهود الجزائر على حق المواطنة الفرنسيـة في أن السلطات الفرنسية تخوفـت إزاء تزايد حدة المعـارضة للفرنسيين، ومعارضتهم لقانون كـرميه من أن تؤلب مشاعر الجزائريين الذين من أبناء طـائفة العبادية ضد اليهود، وكما هو معروف فإن أبناء هذه الطـائفة كانوا من المسلمين المتطرفين، وكانوا يتمسكون بالقوانين التي كانت تميزهم عن الآخرين.

اليهود في المجتمع القبلي

أدى تـدهور أوضـاع اليهـود الاقتصاديـة علاوة على تـزايـد تعدادهم إلى هجـرة البعض إلى المنـاطق الواقعـة تحت سيطرة شيـوخ البربر، وكـان وضع اليهود في هـذه المناطق بالغ السوء، فكان وضعهم شبيها بـوضع اليهود الذين عاشوا تحت رحمة قادة

القبائل في اليمن الشمالي وكردستان. ولم ينعم اليهود في هذه الأماكن بالأمن، ولذلك كان الأثرياء منهم يقدمون القروض لشيوخ البربر، إذ كان بقاء اليهود في هذه الأماكن يرتبط برغبة الحاكم، وقد تعرض اليهود هناك إلى إهانات المسلمين وملاحقاتهم.

وأثبت بعض الباحثين أن يهود المغرب خاصة الذين أقاموا في القرى نعموا بالاستقرار والهدوء، ولكن الحروب التي نشبت بين القبائل كانت كثيرا ما تعكر هذا الهدوء. وكان اليهود يقدمون الضرائب عادة لبعض مشايخ البربر في مقابل توفير الحماية لهم. أما الوضع القانوني لليهود في هذه المناطق فقد كان متدنيا للغاية، لقد كان بمقدور السيد البربري الذي كان يوفر الأمن لليهود التابعين له بيع هؤلاء اليهود، ولكن عملية البيع هذه كانت مجرد عملية رمزية، ووصلت إلى أيدي الباحثين أربع معاهدات خاصة ببيع السادة لليهود، ويرجع تاريخ هذه المعاهدات إلى الفترة الممتدة من عام ١٩١٠ حتى عام ١٩٣٣، وكان يهود هذه المناطق يقيمون بعض الطقوس بغرض توثيق العلاقة فيما بينهم وبين أسيادهم، فكان اليهود يقدمون خلالها ذبيحة كهدية للسيد الذي يوفر الحماية لليهود، وكان السيد يؤدي في مقابل هذه الذبيحة قسماً يتعهد فيه بحماية اليهود.

صورة اليهودي في عيون المسلمين

ومن الواجب أن نبحث هنا موقف المجتمع الإسلامي بكل فئاته وطبقاته تجاه اليهود، وأن نعرف كيف أثرت التغييرات القانونية التي طرأت على موقف المجتمع تجاه اليهود، ويمكننا التعرف على حقيقة هذا الموقف من خلال إلقاء الضوء على صورة اليهودي في عيون المسلمين، وفي الحياة اليومية، وفي الحياتين الاقتصادية والثقافية.

وترجع أصول صورة اليهودي في ذهن المسلمين في العصر الحديث إلى الفترة التي جمع فيها القرآن الكريم والتي دُونت فيها الأحاديث، فيصور القرآن والحديث اليهود في صورة الكفار المتمردين على الله وأنبيائه، والكفار الذين مصيرهم جهنم. وتسللت كل هذه الصور إلى أذهان المسلمين الذين يتلون القرآن ويعملون على تنفيذ وصاياه. أما التراث الشعبي الإسلامي فهو يقدم اليهود بشكل سلبي للغاية، وكانت

كل هذه الأوصاف الكريهة لليهود شائعة حتى في أوساط القرى المصرية التي لم يقم فيها اليهود، ويمكننا تصور أن التراث الشعبي المعادي لليهود، ساهم في تكريس هذه الصورة السلبية لليهود في وعي المجتمع الإسلامي.

اليهود والحركة القومية العربية

كان لليهود وجود محدود في أوساط الحركات القومية العربية، بل كان لأبناء الجيل اليهودي الحديث في بلدان المغرب العربي ومصر ــ ذلك الجيل الذي تلقى تعليماً أوروبياً حديثاً ـ توجهات مخالفة للحركات القومية في هذه البلدان، و إذا استثنينا يعقوب صنوع من هذا الوضع فلم تكن ليهود مصر أنشطة سياسية ملحوظة، تلك الأنشطة التي شارك فيها أقباط مصر بقوة. أما في تونس والمغرب فقد أبدى بعض الشباب اليهودي المستنير تأييده للحركات القومية، ولكن اقتصرت أنشطتهم على المجالين الأدبي والاجتماعي، وانضمت قلة قليلة منهم إلى قيادات الحركات القومية العربية أو إلى أتباع هذه الحركات. وكان ليهود دول الشمال الأفريقي دور بارز في نشر الفكر الشيوعي في أوساط هذه البلدان، فكان مؤسس الحزب الشيوعي المغربي يهوديا، وضم هذا الحزب في عام ١٩٤٨ حوالي ستة آلاف عضو، كان منهم خمسمائة يهودي. أما في مصر فكان لليهود وجود ملحوظ في الأحزاب الشيوعية المصرية التي كان معظم أعضائها من الأوروبيين.

وأثار ولاء اليهود للحكام المحليين التقليديين في الفترة التي ظهرت فيها بوادر الحركة القومية عداء السكان لليهود لاسيما، أن هؤلاء الحكام كانوا يعربون عن تحفظهم بل وعدائهم للحركات القومية. وكان ليهود المغرب على سبيل المثال علاقات وثيقة بالعائلة الحاكمة حتى بعد أن أصبحت المغرب محمية فرنسية، كما ظل يهود المغرب يشعرون حتى بعد سقوط المغرب تحت الاحتلال الفرنسي بأن السلطان هو الذي يتولى مسؤولية الحفاظ على أمنهم وسلامتهم.

أما في الجزائر فقد شهدت الثلاثينيات من هذا القرن انضمام بعض القوميين الجزائريين إلى الحملة الإعلامية المعادية لليهود، كما وقعت في المغرب خلال عامي ١٩٣٥-١٩٣٩ بعض المصادمات بين المسلمين واليهود، وكانت هذه

المصـادمات نتيجـة للحمـلات الإعلاميـة المعاديـة لليهـود التي شهدتها بلـدان المغرب، أما عن مـوقف السلطة فإنها تجنبت المشاركة في هذه الحمـلات المعادية لليهود خشية أن تتحول هذه الحمـلات إلى حملات معادية للفرنسيين وألا تقتصر على العداء لليهود.

وفي ليبيا وقعت بعض المصادمـات في شهر نوفمبر من عام ١٩٤٥ نتيجة لبعض التغييرات الاقتصادية والاجتماعيـة التي حدثت في ليبيا في أعقـاب خروج الإيطاليين منهـا. وقـد تركت أعـداد كبيرة من اليهـود طـرابلس بعـد سقوطهـا تحت الاحتـلال البريطاني، وغـادرت أعداد كبيرة من اليهـود في عام ١٩٤٥ حـارة اليهود، ونجحت في أن تشغل نفس المناصب الاقتصـادية المهمة التي تـركها الإيطاليون بعـد خروجهم من ليبيـا، وشغل اليهـود هـذه المنـاصب إبـان الفترة التي سـاد فيهـا قـدر كبير من الغموض حـول مستقبل ليبيا (فكـانت هذه الفترة تشهـد مداولات عـديدة في الأمم المتحدة ومفـاوضات بين القوى العظمى، حـول وضع ليبيا تحت رعايـة عصبة الأمم أو إعادة ليبيا للإيطاليين). ونتيجة لأن الليبيين كانوا يتخوفون من مهاجمة البريطانيين فقد نفسوا عن غضبهم ضد اليهود، ومن الواجب أن نضع في اعتبارنا أن دور اليهود في حياة الدولـة الاقتصادية سواء في المغرب أو أوروبا أو آسيـا كان يحدد إلى حد كبير موقف المجتمع تجاههم.

التوتر الاقتصادي

ساهـم عامـلان رئيسيان في تـدهور عـلاقات المسلمين بـاليهود خـلال القرنين التاسع عشر والعشرين: وكان العامل الأول من عوامل تدهور العلاقات في المغرب، على سبيل المثال، أن الفقراء اضطروا لأخذ القروض من اليهود، ورغم أن أعداداً غير قليلة من المسلمين قـدمت القروض إلى الفقراء، وضغطت عليهم لتسديـد ديونهم، إلا أن المسلم شعـر دائما بأن اليهـودي بـالاشتراك مع الحاكم والسلطـان يتحملـون مسؤولية تـدهور أوضاعه الاقتصـادية، فكان يرى أن الحاكم يـوفر الأمن لليهودي، وأن السلطان هو الذي يقوم بتعيين الحاكم، وأن كل هؤلاء يتحملون مسؤولية تدهور الأوضاع الاقتصادية.

وكان العـامل الثاني الذي تسبب في إضفاء حـالة التوتر على عـلاقات المسلمين باليهود أن الفترة الـواقعة بين عامي ١٨٧٥و١٩٤٨ شهدت تعـرض اليهود في أماكن مختلفة من المغـرب وتونس وليبيا إلى العديـد من الحوادث، كما شهدت مصر والجزائر في نفس الفترة وقـوع مذبحتين ضـد اليهود أسفرتـا عن مقتل مئـات اليهود و إصـابة أعداد كبيرة منهم وتـدمير وسرقة ممتلكاتهم. ومن الملاحظ أن قوة عـداء السكان لهم كانـت تتزايـد كلما تحسنت أوضاع اليهـود القانـونية، وكلما كانـوا يحققون المزيـد من المكاسب الاقتصادية.

التعاون الاقتصادي الضخم

يرى معظم البـاحثين أن اليهود كـانوا على قـدر كبير من الاندمـاج في الحياة الاقتصـاديـة للمجتمع الإسلامي بـالمغـرب، وتفيـد نتائج أحـد الأبحـاث التي اهتمت بدراسة تاريخ اليهود في مدينة سلا الواقعة على ساحل الأطلنطي خاصة خـلال عامي ١٨٨٠-١٩٣٠ أنه كـان للمسلمين ولليهود في هـذه المدينة نفس القيم الدينيـة والأخلاقيـة، وأنه سـاد قدر ضخم من التشـابه فيما بينهما في مجال اللغة، وساد أيضـاً قدر كبير من التعاون بين التجار المسلمين واليهـود، فتعاونوا في تقـديم القروض للسكـان، كما كانت لهم بعض الأراضي والمراعي المشتركـة في المدينة، واشتغل بعض التجار اليهود في مدينة سلا، بل وأقاموا في أوساط سكان هـذه المدينة معظم أيـام السنة، كما نعمـوا بحق حريـة التنقل في المدينة. وكـان اليهودي يحصل على هذا الحق بعد أن كان أحد شرفاء المدينة يتعهد بتوفير الحماية للتجار أو إلى إحدى الأسر التي لها علاقة بالتجار، أو إلى إحدى العشائر. وكان هؤلاء يقدمـون في مقابل الحماية التي ينعمون بها الهدايا إلى شرفاء المدينـة، وكانوا يكنون لهم كل الاحترام.

وانضمت أعـداد غير ضئيلـة من التجـار والعمال اليهـود إلى طـوائف الصنـاع والحرفيين التي ظلت تمارس أنشطتهـا حتى عقـد العشرينيات من القـرن العشرين. ومع تزايد ظـاهرة تبني أعداد كبيرة من اليهود أسـاليب الحياة الغربية تـزايد في المقابل عدد اليهود العاملين في القطاعات الاقتصـادية الأوروبية، وفي الهيئات التابعة لإدارة

المحميات الفرنسية، وتسبب مثل هذا الأمر في تضاؤل قوة علاقات اليهود بالمسلمين، وفي إضفاء مسحة من التوتر عليها. وفيما يتعلق بالأنشطة الاقتصادية التي مارسها اليهود الذين أقاموا في المناطق الريفية في ليبيا فقد اقتصرت على لعب دور الوساطة التجارية بين القرى والمدن.

وأدت الأنشطة الاقتصادية المشتركة للتجار اليهود إلى تزايد قوة الروابط الاجتماعية فيما بينهم فقد اعتاد بعض البربر على زيارة اليهود في منازلهم وتناول الأطعمة معهم، وعلاوة على هذا فإن إحساس البربر بالاغتراب في المجتمع جعلهم يفضلون اليهود على التجار العرب.

وكان للباعة اليهود الجائلين وجود أيضا في كل من جنوب تونس وجنوب المغرب، وكان هؤلاء الباعة يقضون بضعة أيام أو بضعة أسابيع أحيانا في أوساط قبائل البربر.

الثقافة الشعبية

كان مجال الثقافة الشعبية من المجالات التي تعددت فيها أوجه التشابه بين العرب والبربر وبين اليهود الذين أقاموا في أوساطهم، وشملت أوجه التشابه هذه الأطعمة والملابس والزينة والأثاث والعادات الشعبية، فشاع في أوساط العرب والبربر واليهود والإيمان بالحسد والعفاريت والأرواح، كما كان هناك تشابه ضخم فيما بينهم في مجالي اللغة والموسيقى، وربما كان الإيمان بمقدرة الأولياء والقديسين على الاتيان بالمعجزات من مظاهر التشابه بين هذه الجماعات، فكان مسلمو المغرب يزورون قبور الأولياء اليهود إيمانا منهم أنه بمقدور هؤلاء شفاء المرضى، بل كان بعض المسلمين يقدمون التبرعات للصناديق الخيرية التي كانت بجانب هذه القبور أو بجانب المعابد. وكان المسلمون ينظرون بعين الاستحسان إلى بعض العادات اليهودية التي كان الغرض من ممارستها جلب الرخاء للمجتمع، فكان أطفال اليهود في ليبيا على سبيل المثال ينثرون المياه كل منهم على الآخر في عيد شفوعوت للتعبير عن أملهم في أن يكون العام مطيرا، وانتشرت نفس العادة في أوساط يهود المغرب. ونشبت في بعض الأحيان خلافات بين اليهود والمسلمين حول قبور الأولياء، إذ كان كل طرف يدعي أن كل هذه القبور تابعة له، فتم التوصل في مدينة قابس في تونس إلى بضع تسويات كان الغرض منها ألا يتوجه اليهود والمسلمون في نفس الوقت إلى مقابر الأولياء.

خاتمة

اتسع خلال العقد الماضي حقل الأبحاث المعنية بـدراسة علاقة المسلمين باليهود في دول شمال أفريقيا، وكما يبـدو فإن تأسيس دولة إسرائيل وتزايد حـدة النزاع العربي الإسرائيلي، وهجرة أعداد كبيرة من يهود هذه الدول إلى إسرائيل ساهم في تزايد اهتمام الباحثين بدراسة تاريخ يهود شمال أفريقيا. وتفيد نتائج الأبحاث أن يهود هذه الدول كانـوا يعدون طيلة القـرنين التاسع عشر والعشرين بمنـزلة أقلية مضطهـدة. أما عن التحولات التي طـرأت على أوضاع اليهود القـانونية في كل من المغـرب ومصر خلال القرن التاسع عشر فإنها تعد من أبرز السمات المميـزة للفترة الانتقالية التي قامت فيها السلطات بإلغاء كافة القيود التي فرضت على اليهود إبان العصور الوسطى. وبالرغم من إلغـاء هذه الـدول للقيود المفروضـة على اليهود، إلا أن هـذه الدول لم تتحـرر من أغـلال الرؤيـة التقليديـة لليهود. أضف إلى هـذا أن تنفيذ الإصـلاحات القـانونيـة الخاصة بتحسين أوضاع اليهـود كان مرتبطا إلى حـد كبير بطابع المجتمع الإسلامي، وليس فقط برغبة السلطة المركـزية وتوجهاتها، وكان تنفيذ الإصلاحـات مرتبطا أيضا بمـدى قوة الحكـام المحليين (وخـاصة في المغـرب) وبمدى معـارضـة رجال الـدين والطبقات الشعبية لـلإصلاحات (أي كما كانت الحال عليه في بلـدان المغرب العربي بـاستثنـاء الجزائر)، هـذه الإصـلاحـات التـي كـانت تثير غضب أبنـاء المجتمع لإحساسهم بأنها تُفرض عليهم من قبل القوى الأوروبية الكافرة، كما ساهمت بضعة عوامل أخرى في العصر الحديث في تزايد قوة المعارضة، كان من أبرزها تأثير الحركات القومية في السكان في كل من المغرب ومصر.

وتوضح نتائج الأبحاث الصادرة حديثا أن اليهود كانوا مندمجين في حياة المجتمع في بلـدان الشمال الأفـريقي، وأنهم كـانـوا على قـدر كبير من النشـاط في المجـال الاقتصادي، وأن أنشطتهم لم تقتصر على المعاملات التجارية الضخمة وإنما شملت الاشتغال في كافة مجالات التجارة، وفي مجال الوساطـة التجارية بين القرية والمدينة. وكانت الروابط الاقتصـادية بين اليهود والمسلمين تعتمد على حجم الرعـاية التي كان يقدمها المجتمع سواء الإسلامي أو القبلي إلى اليهود.

الفصل الثالث

تغير طبيعة علاقة يهود شمال أفريقيا بفلسطين منذ نهايات القرن الثامن عشر وحتى الحرب العالمية الأولى

(بداية التحول والهجرات من عام ١٧٧٧ ـ ١٨٣٠)

شهـد النصف الثاني من القـرن الثامـن عشر تحولات مهمة في حـركة الهجـرة من بلـدان المغـرب العـربي إلى فلسطين، حيث تـزايدت منـذ هـذه الفترة أعـداد اليهـود المهاجرين. فبينما هاجر طيلـة الفترات السابقة العشرات من اليهود إلى أرض الميعاد، شهـدت هـذه الفترة المئات منهم، فشهـدت، على سبيل المثـال، الفترة الممتـدة من (١٨٠٩ـ ١٨٣٩) هجـرة ٣٠٧ يهود من بلدان شمال أفريقيا إلى صفـد، كما شهدت الفترة الممتدة من عام ١٧٨٠ حتى عام ١٨٣٠ هجـرة ما يقرب من خمسين يهوديا من مدينـة صفرو إحدى المدن الصغيرة بـالمغرب، كما يمكننا أن نتصـور أن الرقم الفعلي كان أكبر بكثير من هذا الرقم.

وقد شمـل التحول أيضا أعمار المهـاجريـن، فبينما كان المهاجـرون في الماضي من الشيـوخ والعجائز، فإن أعمار المهـاجـرين بدءا من عـام ١٨٢٧ أصبحت تتراوح بين الثلاثين والخمسين من العمـر، وشمل التحول أيضا دوافع الهجرة. فقـد كان معظم المهـاجرين في واقـع الأمر يأتـون إلى فلسطين بغـرض العبادة، ولقضـاء مـا تبقى من حياتهم في فلسطين، ولكن تزايدت في العصر الحديث أعداد المهـاجرين الذين قرروا المجيء إلى فلسطين لأسباب اقتصادية، وكـان معظم المهاجرين ينتمون إلى الطبقتين المتوسطة والدنيا. أما التركيبة الاجتماعية لمعظم المهاجرين الذين قدموا إلى فلسطين في القرن التاسع عشر فكان معظمهم يعمل إمـا باعة جائلين أو حرفيين أو تجارا، ولكن كانت أعداد كبيرة منهم من الشحاذين أيضاً.

موقف حاخامات شمال أفريقيا من الهجرة

وحتى يمكننا فهم أسباب التغيرات التي طرأت على دوافع حركة الهجرة إلى فلسطين، والتعرف على موقف حاخامات شمال أفريقيا تجاه الهجرة في هذه الفترة، فمن الضروري الاطلاع على كافة صنوف الأدب الرباني الذي يشمل الأحكام والتشريعات والفتاوي، والخطب، ودفاتر السجلات التي تتضمن تقاليد وعادات يهود المغرب. وتكمن أهمية هذه الكتابات في أن الحاخامات شغلوا حتى هذا الحين المناصب القيادية في المجتمع اليهودي في المغرب، كما أنهم ظلوا يسيطرون على قيادة المجتمع اليهودي حتى نهايات القرن التاسع عشر التي شهدت تحولات عديدة في المجتمع اليهودي. ومازالت توجد حتى يومنا هذا نصوص الأحكام والفتاوي الخاصة بموضوع الهجرة إلى فلسطين، التي أصدرها حاخامات بلدان المغرب العربي، مثل تلك التي أصدرها في بدايات القرن الثامن عشر الحاخام يهودا عياش الذي شغل منصب رئيس المحكمة اليهودية في الجزائر. ومن الملاحظ أن الأحكام والفتاوي التي صدرت في المغرب بخصوص مسألة الهجرة إلى فلسطين كانت أكثر تفصيلا عن غيرها من الأحكام التي صدرت في سائر البلدان. وتتضمن هذه الوثائق معلومات كثيرة عن المشكلات التي واجهت الأفراد الذين رغبوا في الهجرة إلى فلسطين. وكما هو معروف فإن المهاجرين كانوا يبيعون أراضيهم وممتلكاتهم قبل الهجرة إلى فلسطين، ولكن البعض منهم اضطر بعد فشله في التغلب على صعوبات الهجرة إلى فلسطين لإلغاء الصفقات التي قام بها، وظهرت أيضا بعض المشكلات نتيجة لأن النساء رفضن الهجرة مع أزواجهن وطالبن بالحصول على ممتلكاتهن التي كن قد اشترينها قبل الزواج.

وفيما يتعلق بموقف الحاخامات تجاه مسألة حق الزوجة في عدم الهجرة فإنهم أعربوا عن تأييدهم لحق الزوجة في عدم الهجرة، فأصدرت إحدى المحاكم اليهودية في فاس في عام ١٧٣٢ قرارا لمصلحة الزوجة، ولكن هذا القرار لم يتضمن حيثيات الحكم، كما أصدر الحاخام يعقوف بن تستور الذي كان قاضيا في فاس قرارا مشابها لصالح الزوجة، خاصة أن لوائح الزواج في هذا الحين كانت تنص على أنه لا يحق للزوج تغيير محل إقامته أو الانتقال من مدينة إلى أخرى إلا بموافقة الزوجة. ولم يعط المشرع أي أفضلية لفلسطين تتيح بدورها للزوج حق الهجرة. وزعم الحاخام بتحياه بيردوجو

(١٧٦٤ - ١٨٢٠) الذي كان قاضيا في مدينة مكناس أنه نتيجة لأن الأخطار تحيط بالطرق المؤدية إلى فلسطين، ونتيجة لأن هذا الموضوع محل خلاف بين كبار المشرعين، فمن الواجب الاستمرار في التمسك بالتقاليد. وقد رأى الحاخام يوسف طوليدانو حاخام مدينة مكناس (الذي توفي عام ١٧٨٨) أن من تعهد بالهجرة إلى فلسطين وأخل بعهده فمن الواجب أن يفي بتعهده، وأضاف الحاخام طوليدانو:

«ولكن إذا كان بمقدور المرء الهجرة، ولم يهاجر وفضل البقاء والعيش في الأحياء الآمنة فإنه لا علاج لمصيبته، ويعلم الله أنه لو كان بمقدوري الهجرة حتى ولو بمفردي لكنت قد سرت صباحا ومساء دون توقف أو راحة حتى أصل إلى الراحة المنشودة».

وعلى كل حال فلم يكشف الحاخام طوليدانو عن الأسباب التي منعته من الهجرة، أما الحاخام يهودا عياش فقد تراجع عدة مرات عن الهجرة لتمسك أبناء طائفته في الجزائر به، ولمطالبتهم إياه بعدم ترك الطائفة دون أي زعيم روحي لها.

وتبنى الحاخام شاوول يشوعاه افيطبول من صفرو (١٧٣٩ - ١٨٠٨) رؤية جديدة تجاه موضوع الهجرة، وتجلت هذه الرؤية في أحد الأحكام التي أصدرها بخصوص هذا الموضوع، فعندما سئل عن رأيه في موضوع الشخص الذي يرغب في الهجرة إلى فلسطين والذي ترفض زوجته الهجرة لرغبتها في عدم ترك أهلها ومطالبتها بالحصول على حق الطلاق ورسوم الزواج فقد أصدر الحاخام شاؤول دون أي تردد - وبما يتماشى مع رأي الشريعة - حكما يقضي بأن الحق مع الزوج، ولكنه عندما أحس أن الحكم الذي أصدره خرج عن العرف السائد، علل حكمه بقوله إن حاخامات وفقهاء التلمود كانوا على معرفة بطبيعة الأخطارالمحيطة بالطرق المؤدية إلى فلسطين، وبصعوبة تهجير الزوجة، ولكنهم رأوا أنه بمقدور الزوج أن يفرض على زوجته الهجرة معه إلى فلسطين.

وأضاف نفس الحاخام أن هذا الحكم الوارد في التلمود لا ينطبق على أصحاب المعجزات فقط الذين بمقدورهم قطع المسافات الطويلة في لحظة وإنما ينطبق على كل اليهود. وشغل هذا الرأي اهتمام كافة الحاخامات بمن فيهم حاخامات دول شمال أفريقيا، وزعم الحاخام شاؤول أنه إذا كان البعض يتخوف من الأخطار التي تحيط بالطرق المؤدية لفلسطين فإن مدينة صفرو التي يقيم بها تتعرض إلى هجمات المتمردين، وإلى هجمات قبائل البربر المقيمة في جبال الأطلس، وتعاني من الجفاف،

ومن ارتفاع أسعـار القمح، وانخفاض قيمة العملة. وحقيقة الأمـر أن الحكم الذي أصدره الحاخـام شاؤول كان مرتبطـا إلى حد كبير بالـواقع ومعطياته، فعندمـا أصدر الحاخـام شاؤول هـذا القرار في نهايـة السبعينيات من القـرن الثامن عشر أي في عـام (١٧٧٩) كان الوضع في المغرب مضطرباً، حيث إنه بالرغم من نجاح السلطان محمد بن عبد الله في الحفاظ على استقرار الأوضـاع الداخلية في كبرى المدن بالمغرب إلا أنه عجز عن مواجهـة الغزوات التي كانت تشنها قبـائل البربر، خاصة قبيلـة منهاجاه، على القرى الـواقعة في جبال الأطلس، وعـلاوة على هذه الاضطرابات فقـد سيطرت حالـة من المجـاعة على المغـرب خلال الفترة ١٧٧٦ ــ ١٧٨٢، وكان لهذه المجـاعة تأثيرها في الأوضاع الاقتصادية بالبلاد.

ولم يحدث هذا التحول، الـذي طرأ على موقف الحاخامات إزاء مـوضوع الهجرة، في أوساط حـاخامـات صفرو فقط، إذ إن التحـول شمل حاخـامات كبرى المدن في المغرب التي نذكـر منها مدينة مكناس، فأقـرت المحاكم اليهودية منذ بـدايات القرن التـاسع عشر أنه لا تـوجد أي أخطـار من شأنها الحيلـولة دون الهجـرة إلى فلسطين، وتجلت مظاهر هذا التحـول في أنه بينما رأى الحاخام بتاحيا بيردوجـو فيما قبـــل أنـــه لا داعي للهجرة إلى فلسطين، فإنه رأى منذ القـرن التاسع عشر أن الطرق المؤدية إلى فلسطين أصبحت ممهـدة، وأنه لا يـوجد مـا يحول دون الهجرة، وقـد ذكر في إحـدى خطبه. إننا نعلم من خلال المسافرين الذين يتوجهون إلى فلسطين ويعودون منها أنه لا يوجد أي شيء يحول دون الهجرة.

وهاجم الحاخام رفائيل بيردوجو (١٧٤٧ ــ ١٨٢٢) الذي عاش في مكناس والذي كان واحداً من أبرز حـاخامات المغرب، في إحدى الخطب التي ألقاهـا، اليهود الذين يشيـدون المنازل في المغـرب، ورأى أن مثل هـذا السلـوك يدل على تمسكهـم بالبقـاء في «المنفى»، وجاء في خطبته: «يجب ألا يفكر المرء في البقاء خارج الوطن، وتشييد المنازل الفخمة خارجه». وتعبر هـذه المقولة عن مدى ارتباطه وتمسكـه بفكرة الهجرة، كما كان من بين مظاهـر تحمسه لفكرة الهجرة أنـه أثنى على العادة التي كانت شائعـة في أوساط أبناء شعبه المتمثلـة في بيع بعض نسخ من العهد القديم لتـدعيم عمليات الإنفاق على الهجرة إلى فلسطين. (وكما هـو معروف فإن الشريعـة اليهودية تسمـح ببيع كتب العهد القديم للأغراض الخاصة بدراسة الشريعة أو الزواج أو افتداء الأسرى).

الارتباط بفلسطين ـ مكانتها المركزية في وعي يهود شمال أفريقيا

ساهمت بعض العوامل الداخلية والخارجية في تغيير موقف يهود المغرب العربي تجاه الهجرة إلى فلسطين، وفي الحقيقة فإن تاريخ علاقات يهود المغرب العربي بيهود فلسطين يعود إلى فترات بالغة القدم، وكان يهود فلسطين يطلقون على يهود المغرب العربي الذين هاجروا إلى فلسطين اسم «المغاربة». وتزايدت قوة الرابطة بين يهود المغرب العربي ويهود فلسطين بعد أن أصدرت الطائفة اليهودية في فاس في عام ١٩٠٣ قراراً قضى بضرورة تقديم دعم اقتصادي بشكل منتظم إلى المستوطنين اليهود في فلسطين، وكانت الطائفة اليهودية في فاس من أولى الطوائف اليهودية في الشتات التي حرصت على تقديم الدعم المادي للوجود اليهودي في فلسطين. وعينت الطائفة اليهودية في فاس لهذا الغرض محاسبا في كل معبد من المعابد اليهودية في فلسطين. واعتمدت علاقات اليهود المغاربة بالمستوطنين اليهود في فلسطين على مبعوثي الاستيطان الذين كانوا يأتون إلى دول المغرب العربي لجمع التبرعات أو لتشجيع عمليات الجباية، ولجمع الأموال لصالح الاستيطان اليهودي في فلسطين.

وكان لانتشار أفكار «القبالاه» في بلدان المغرب العربي تأثيره أيضا في تزايد قوة الرابطة بين يهود المغرب العربي وبين فلسطين، فشغلت أفكار «القبالاه» منذ القرن السابع عشر مكانة مهمة في فكر حاخامات اليهود في شمال أفريقيا، الذين اهتموا بآراء نظرية «القبالاه» في مسائل مثل: الشتات والخلاص، ومجيء المسيح المخلص. وقد شغل موضوع الرابطة مع فلسطين مكانة جوهرية في أعمال شعراء يهود المغرب الذين كان من أبرزهم كل من الحاخام أهارون بيرتس الذي عاش في مدينة جربة في القرن الثامن عشر، والحاخام داوود حسين الذي عاش في مكناس بين عامي ١٧٣٠ ـ ١٧٩٢. وقد نظم بعض الشعراء آنذاك قصائد احتفوا فيها إما بمبعوثي الاستيطان الذين كانوا يجيئون من فلسطين إلى بلدان المغرب العربي، أو بطوائفهم. وكان من بين مظاهر الاهتمام بفلسطين أيضا أن يهود جربة في تونس اعتادوا أن يضعوا قطعة قماش سوداء على ملابسهم لتخليد ذكرى سقوط بيت المقدس. ويمكننا بشكل عام قول إن علاقات يهود شمال أفريقيا بفلسطين يعود تاريخها إلى فترة قديمة للغاية، و إن الطوائف اليهودية في هذه البلدان حرصت دائما على تقديم الدعم الاقتصادي ليهود فلسطين، بالإضافة إلى أن يهود هذه البلدان أولوا مكانة مهمة لفلسطين في أشعارهم

وصلواتهم، وتدل كل هذه المعطيات على أنه كان لفلسطين مكانة مهمة في وعي يهود شمال أفريقيا .

وبالإضافة إلى كل هذه العوامل الروحانية سالفة الذكر، فقد أثرت التحولات التي طرأت على الأوضاع القانونية ليهود المغرب والجزائر في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر في موقف يهود هذه البلدان إزاء فلسطين حيث عانى يهود المغرب خلال فترة حكم السلطان يزيد (١٧٩٠ ـ ١٧٩٢) من الاضطهادات، مما جعل شعراء اليهود في المغرب ينظمون مراثي أعربوا فيها عن رغبتهم وحنينهم للخلاص، وشهدت هذه الفترة حركة إحياء قوية للآمال المسيحانية التي ضعفت قوتها بعد رحيل شبتاي بن تسفي (آخر المسحاء الكاذبين في القرن السابع عشر)، وتزايد في هذا الحين أيضا اهتمام الحاخامات بإعداد الحسابات الغيبية لمعرفة موعد الخلاص. وبالرغم من أن المولى سليمان الذي خلف يزيد في الحكم ألغى المراسيم التي صدرت في الماضي ضد اليهود، ونجح في الحفاظ على استقرار المملكة ـ لاسيما أنه كان خاضعا لسيطرة رجال الدين المتطرفين ـ إلا أنه أصدر في عام ١٨٠٧ مرسوما قضى بإبعاد اليهود عن كبرى المدن، وتشييد أحياء خاصة بهم، وكان لمثل هذا القيد تأثيرات عديدة في الظروف المعيشية ليهود المغرب حيث أدى المرسوم إلى احتشاد مثل هذه الأحياء باليهود، وتعرضهم لمشكلة إسكان حادة، وكان من بين العوامل التي زادت في هذا الحين من صعوبة العيش في هذه الأحياء أن هذه الفترة شهدت حركة هجرة قوية من القرى إلى المدن، وتزايدا ملحوظا في تعداد السكان اليهود، وأسفر هذا الوضع عن هجرة المئات من اليهود إما إلى بلدان أخرى أو إلى فلسطين .

وقد تدهورت أوضاع اليهود في الجزائر منذ نهايات القرن الثامن عشر نتيجة لتزايد قوة الاتجاهات الدينية المتطرفة بالجزائر، ونتيجة أيضا للنزاع الذي نشب بين الجزائر وفرنسا حول الديون المستحقة لفرنسا والتي كان لزاما على حكام الجزائر تسديدها، وكما هو معروف فقد كان لبعض أثرياء التجار اليهود والذين كانوا من زعماء الطائفة اليهودية في الجزائر نصيب في هذا الخلاف . كما أسفر تمرد الإنكشاريين على الحاكم الجزائري ومستشاره اليهودي نفتالي بوجناح عن حدوث اضطرابات عام ١٨٠٥ التي راح ضحيتها عشرات اليهود (ويقدر البعض أنه قد راح ضحيتها مئات اليهود) .

وشهد المجتمع اليهـودي في الجزائر خلال الفترة الممتدة من نهايات القـرن الثامن عشر حتى عام ١٨١٥ صراعـات عديدة في داخلـه حول من يحق لـه تولي الزعـامة، وأسفرت بعـض الخلافات عن إعدام بعـض قادة الطائفـة . وخلق مثل هذا الـوضع حالة من الخوف في أوساط يهود الجزائر. وذكر بعض الـرحالة الأوروبيين الذين أقاموا آنذاك في الجزائر أن يهود الجزائر أحسوا أن اضطرابات عام ١٨٠٥ وما أسفرت عنه من قتل لـرؤساء الطـائفة تعد عقـابا إلهيـاً لهم، وأنه مـن الضروري الهجرة إلى فلسطين. ويروي بعض الرحـالة أن جماعة من اليهود قامت في عـام ١٨١٦ بحجز كل الأماكن على إحدى السفن الضخمـة المتوجهة إلى فلسطين، وأن مائتي عائلـة يهودية ارتحلت من الجزائر إلى فلسطين قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر في عام ١٨٣٠ .

وأدى احتلال فرنسـا للجزائر إلى تحسن أوضاع اليهود الاجتماعيـة والاقتصادية في شمال أفريقيا وخاصة في الجزائر، وأنعش احتلال فرنسا للجزائر آمال اليهود في تحسن الأوضاع الاجتماعيـة والقانونية ليس فقط في الجزائر وإنما في كل من المغـرب وتونس، فهاجر بعض يهود تونس والمغرب في هذا الحين إلى الجزائر كما هاجر بعضهم الآخر إلى فلسطين، ويمكننا تصور أن هؤلاء قرروا الهجرة إلى فلسطين لإحساسهم بخيبة الأمل من الإصلاحات التي طرأت على وضع الطائفة، تلك الإصلاحات التي كانت وثيقة الصلة بالاحتلال الفرنسي للجزائر.

التحولات التي طرأت على طرق المواصلات إلى فلسطين، والاستيطان بها

ساهم التحسن الذي طرأ على وسائل النقل البحري في تـزايد قوة حركة الهجرة إلى فلسطين، ولم تتطور هـذه الوسـائل كما هو معـروف إلا بعد أن تم القضـاء نهائيا على أنشطـة القرصنـة البحريـة التي اعتـاد الجزائريون القيـام بها، وتضـاءلت قوة هـؤلاء القراصنة في الواقع منذ نهايات القـرن الثامن عشر، أي حينما فرضت القوى الأوروبية العظمى حالـة مطلقة من الحظر على القـراصنة، أضف إلى هـذا أن اكتشاف السفن البخارية ساهم في القضاء على خطر عمليات القرصنة البحرية.

وساهمت التغيرات التي طرأت على وضع الاستيطان اليهودي في فلسطين خاصة بعد احتلال مصر لفلسطين في عام ١٨٣١، والإصلاحات القانونية والاجتماعية التي

طبقتها الإمبراطورية العثمانية في عقد الخمسينيات من القرن التاسع عشر، في تزايد معدلات الهجرة إلى فلسطين، وعلاوة على هذا فقد كان للأنشطة التي قامت بها القوى الأوروبية وسكانها من اليهود بشأن فلسطين تأثيرها في يهود شمال أفريقيا، وتفيد تقارير بعض الرحالة أنه شاعت في عقد الأربعينيات من القرن التاسع عشر شائعات في بلدان المغرب العربي مفادها أن أثرياء اليهود الأوروبيين وخاصة روتشيلد ومونتيفيوري يعتزمون شراء فلسطين من الأتراك.

استيطان المهاجرين في فلسطين

كان للمهاجرين اليهود الذين قدموا من بلدان المغرب العربي في نهايات القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر تأثير ملحوظ في الاستيطان اليهودي في فلسطين. وقد أبدت الطوائف اليهودية في بلدان المغرب اهتماماً ضخماً بهؤلاء المهاجرين تجلت مظاهره في الرسائل التي بعثت بها إلى الطائفة اليهودية السفاردية في فلسطين. وطالبت هذه الرسائل بعدم اضطهاد اليهود المغاربة عند توزيع التبرعات المقدمة من يهود شمال افريقيا، وعدم اضطهاد تلاميذ المدارس الدينية. ويمكننا قول إن مناطق الجليل وطبرية وصفد على وجه الخصوص شهدت في نهايات القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر تحولا مهما تمثل في تفضيل اليهود القادمين من بلدان شمال أفريقيا على سائر يهود البلدان الإسلامية، كما تمثلت مظاهر هذا التحول في تزايد قوة مكانة اليهود الذين من أصول مغربية أو جزائرية في مدن الخليل، لتولي أبناء العائلات اليهودية من أصول مغربية القيادة الدينية في هذه المدن، وكان من أبرز هذه العائلات عائلات: طوليدانو، وبيردوجو، وبلهول. وكان لليهود المغاربة وجود ملحوظ في طبرية، مما جعل البعض يطلق عليها في بعض الوثائق اسم مكناس الصغيرة، نسبة إلى مدينة مكناس بالمغرب التي هاجر منها بعض اليهود إلى فلسطين. وكان ليهود المغرب وجود ملحوظ في مدن الجليل فكثيرا ما كانت تسمع في هذه المدن اللغة العربية اليهودية التي كانت شائعة في أوساط اليهود.

وكان للرعاية الأوروبية (وخاصة الرعاية الفرنسية) التي حظيت بها بعض العائلات المهاجرة مثل عائلة عبو، التي تولى أبناؤها قيادة صفد، أثرها في تزايد قوة العائلات اليهودية مغربية الأصل التي هاجرت إلى فلسطين.

ومن الملاحظ أن معظم مهاجري بلدان المغرب استقروا في القدس، كما كان لهم دور مهم في تطوير الا ستيطان اليهودي في القدس وحيفا والجليل الغربي، وفي غزة ونابلس في مرحلة لاحقة. وكان من بين العوامل التي ساعدت اليهود المغاربة على الاندماج سريعا في المجتمع أن غالبيتهم كانت من الشباب، الذين اشتغلوا بالتجارة وبالمهن اليدوية، الأمر الذي ساعدهم ليس فقط على الاندماج سريعا في المجتمع اليهودي بل وعلى النجاح في إقامة علاقات اقتصادية قوية مع السكان العرب في فلسطين، وقد ساعدتهم معرفتهم باللغة العربية وبعادات السكان المسلمين على إقامة مثل هذه العلاقات مع المسلمين.

وبالرغم من صعوبة التعرف على تعداد اليهود المغاربة الذين أقاموا في فلسطين خلال القرن التاسع عشر إلا أنه من المعروف أنه قد هاجر إلى فلسطين خلال الفترة من (١٨٣٠ ـ ١٨٦٠) بضع مئات من يهود المغرب، وكان ليهود المغرب آنذاك فضل كبير في تزايد قوة الوجود اليهودي الاستيطاني في فلسطين فكان لهم نصيب كبير في مسيرة الإنتاج اليهودي في فلسطين وفي الأنشطة التجارية والصناعية التي كانت تشهدها فلسطين في هذا الحين، وقد ساهم هذا الأمر في تزايد أهمية الهجرة اليهودية من بلدان المغرب إلى فلسطين.

وقد شهد القرن التاسع عشر في حقيقة الأمر تزايدا تدريجيا في تعداد اليهود المغاربة في فلسطين، إذ شكلوا في نهايات هذا القرن حوالي ربع أبناء الطائفة السفاردية في القدس، ولعب اليهود المغاربة دورا مركزيا في تحقيق آمال وتطلعات يهود شمال أفريقيا الذين كانوا يتطلعون لتشكيل منظمة مستقلة تتولى رعايتهم وبحث شؤونهم، فتم في عام ١٨٦٠ التوصل إلى اتفاق اعترف باستقلالية الطائفة اليهودية المغربية عن سائر الطوائف اليهودية السفاردية، ولكن هذا الاتفاق أبقى على بعض العلاقات بين هذه الطوائف وبين اليهود القادمين من دول شمال أفريقيا.

واستمر يهود شمال أفريقيا بعد أن تزايدت معدلات الهجرة اليهودية إلى فلسطين في تقديم يد العون والمساعدة إلى الاستيطان اليهودي في فلسطين، كما شهد القرن التاسع عشر تزايد وجود مندوبي الاستيطان اليهودي في بلدان المغرب العربي وحرص هؤلاء المبعوثون على زيارة جميع الطوائف اليهودية في هذه البلدان بما فيها الطوائف النائية التي كانت بعيدة عن مركز الأحداث.

علاقة يهود المغرب ومصر بالاستيطان اليهودي في فلسطين خلال الفترة (١٨٦٠ ـ ١٩١٧)

شهدت حياة الطوائف اليهودية المغربية في فلسطين خلال هذه الفترة تطورات عديدة بفضل الأنشطة التي قام بها الحاخام داوود بن شمعون زعيم يهود شمال أفريقيا الذي استقر في القدس خلال الفترة (١٨٥٤ —١٨٨٠) فأسس هذا الحاخام في عام ١٨٦٧ حي «محنيه يسرائيل» الذي كان أول حي يقوم أبناء القدس بتشييده خارج أسوار المدينة القديمة (وبالرغم من أن حي مشكانوت شاننيم شيد قبل هذا الحي إلا أن مونتيفيوري هو الذي كان شيده، وليس أبناء المدينة). ويرجع إلى الحاخام داوود بن شمعون أيضا فضل تأسيس ملجأ لفقراء الطائفة في القدس، وإقامة العديد من المعابد والمؤسسات التعليمية اليهودية.

وكان لفكرة الاستيطان في فلسطين تأثيرها الروحي في يهود شمال أفريقيا وفي يهود مصر على وجه الخصوص الذين تدهورت أوضاعهم الدينية في هذه الفترة بشكل ملحوظ. وهاجر خلال هذه الفترة بعض اليهود من فلسطين إلى مصر، وسرعان ما أصبحوا فيها بعد من زعماء المجتمع اليهودي في مصر، وكان من أبرز هؤلاء الحاخام رفائيل آهارون بن شمعون، ابن الحاخام داوود الذي سبقت الإشارة إليه، الذي عمل في الهيئة الحاخامية في مصر خلال الفترة (١٨٩١ ـ ١٩٢١).

وقدم يهود مصر خلال الحرب العالمية الأولى مساعدات مادية ضخمة إلى آلاف اللاجئين اليهود الذين قدموا إلى مصر، وكان يهود مصر بمنزلة حلقة وصل مهمة عند تحويل الأموال إلى المستوطنين اليهود.

ويمكننا بشكل عام القول إن هجرة يهود المغرب إلى فلسطين خلال القرن التاسع عشر عبرت عن مدى التغيرات التي شهدتها الطائفة اليهودية هناك. وترجع أصول حركة الهجرة هذه إلى النصف الثاني من القرن الثامن عشر الذي شهد تزايد معدلات الهجرة الفردية إلى فلسطين، وكان من بين العوامل التي شجعت اليهود على الهجرة أن هذه الفترة شهدت تزايد اهتمام الحاخامات وقادة

الطـوائف اليهوديـة بفلسطين. وقبل البـدء في محاولة التعـرف على العـوامل التي ساهمت في إحـداث هذا التغيير فمازالت هنـاك العديد مـن التساؤلات التي من الـواجب الإجابـة عنهـا مثل: إلى أي مدى أثـرت التغيرات التي شهـدها العـالم الإسلامي الذي كان يعارض المؤثرات الأوروبية والذي كان يشهد في نفس الوقت تزايد قوة الاتجاهات المحافظة في الداخل في موقفه تجاه اليهود، وفي موقف اليهود بشأن الهجرة؟ وفي الحقيقة فإن عـدم استقرار أوضاع اليهود القانـونية والاجتماعية كان من بين العـوامل التي حفزت اليهود في بلدان المغـرب العربي على الهجرة إلى فلسطين. وليس في وسعنـا أن نحدد حجم التحـول الذي طرأ على مـوقف يهود بلدان المغرب تجاه فلسطين خـاصة أن المعلومات التي لدينـا عن مثل هذا التطور ضئيلة علاوة على أنها غير موثقة، وعلى سبيل المثـال فليست لدينا أي معلومات عن حركة الهجـرة اليهودية من تونس التـي كانت تأتي في المرتبة الثالثـة من ناحية الحجم في بلـدان المغرب العـربي إبان القـرن التاسع عشر، وكما يبـدو فإن حركـة الهجرة منهـا كانت أقل بكثير من الهجرة اليهـودية القادمـة من الجزائر والمغرب. ومع هذا فجاء في صحيفـة هتور في عام ١٧٧٧ (العام الذين شهـد هجرة يهودية ضخمة من شرق أوروبا) أنـه قد جاء إلى فلسطين حوالي مـائة وثلاثين يهودياً من تـونس، وجـاء في نفس الخبر أن أحـد مبعوثي الاستيطـان اليهـودي القـديم في فلسطين كان يجوب آنذاك تونس، ومن المحتمل أن يكـون هذا المندوب قد عمل على تشجيع الهجرة من تونس إلى فلسطين.

ولكن من الواضح أن الهجرة اليهوديـة من شمال أفريقيا إلى فلسطين لم تتحول إلى ظاهـرة نمطية إلا في النصف الأول من القـرن التاسع عشر، ويعتمد هـذا الرأي على الوثائق الموجودة في مـدينة البرطا الواقعة في شرق كندا، وتفيد هـذه الوثائق أن فقهاء الطوائف اليهودية في بلدان المغرب أولوا منذ القرن التاسع عشر اهتماماً ضخماً بمسألة الهجرة إلى فلسطين، فجاء في إحـدى الوثائق التي يرجع تـاريخها إلى عام ١٩٤١ أن الحاخـام رفـائيل هـاليفي أعـرب عن ثنـائه على مـوقف يهود المغـرب تجاه الهجـرة إلى فلسطين، وكان من بين مظاهر الاهتمام بالهجـرة أنه كان لمندوبي الاستيطان اليهودي

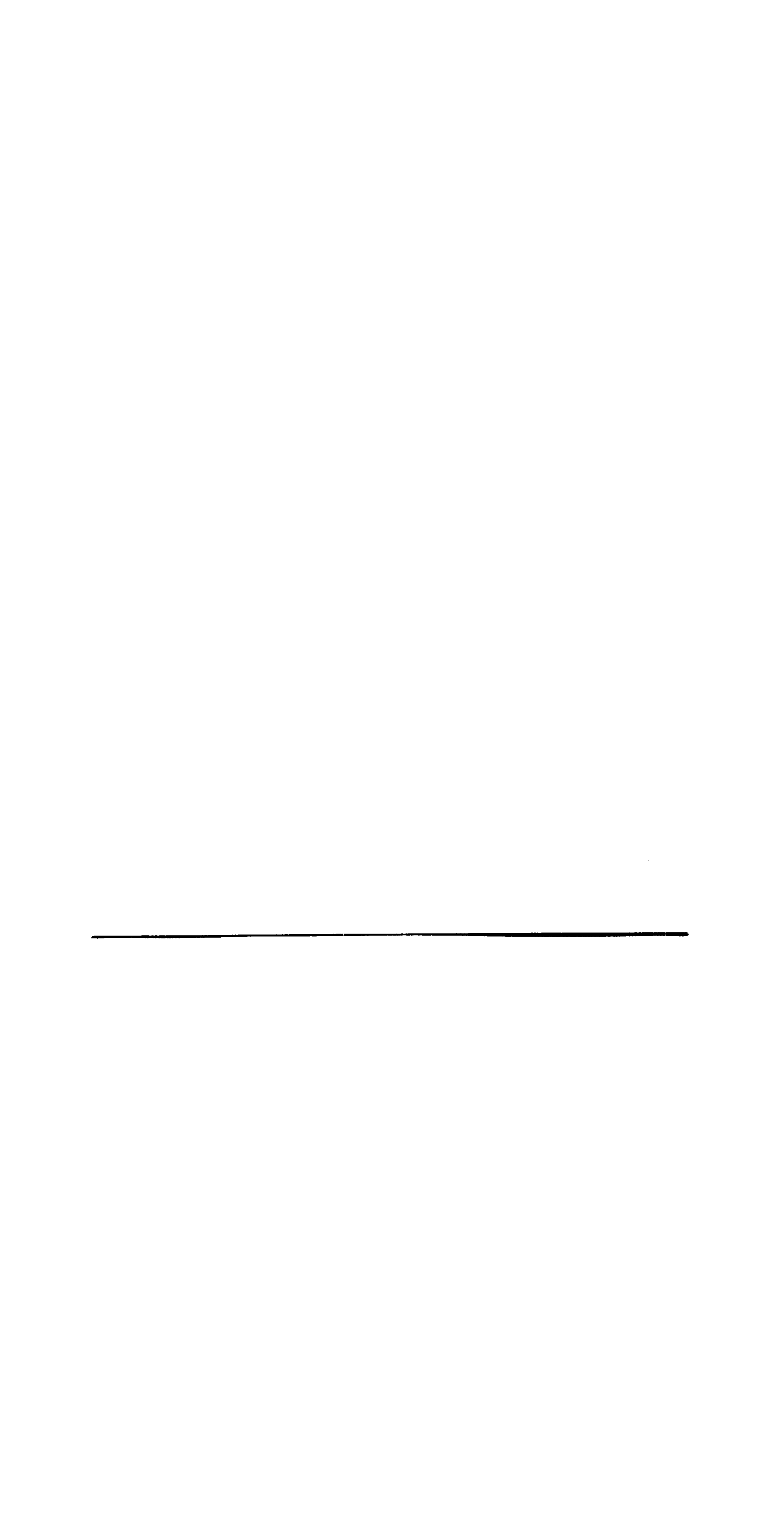
في فلسطين وجـود ملحوظ في المغـرب للدرجـة التي جعلت كبير حاخـامات فـاس يصدر قـراراً بشأن الطريقة التي من الواجب اتبـاعها عند استقبال هـؤلاء المبعوثين، وكيفية تنظيم زياراتهم.

وتزايدت خلال الفترة (١٨٦٠ ـ ١٩١٧) قوة علاقة يهود المغرب بفلسطين، وأصبحت هذه العلاقات تشمل كل الطوائف اليهـودية في بلدان المغرب بما فيها الطـوائف الجديـدة التي ظهرت في الجزائر خـلال هـذه الفترة، واكتسبت هـذه العلاقـات في نهايات هـذه الفترة طابعاً جـديداً تأثـر إلى حد كبير بظهـور الحركة الصهيونية وبأنشطتها.



الباب الثاني

مسيرة الحداثة والتطور في العصر الحديث



الفصل الأول

يهود شمال أفريقيا

في ظل السلطة الاستعمارية

منذ احتلال الجزائر وحتى الحرب العالمية الثانية

كان المجتمع العربي في بلدان شمال أفريقيا في ظل الفترة الاستعمارية مجتمعا هيراركيا متعدد الطبقات، فكانت بنية المجتمع في هذه البلدان تعتمد إلى حد كبير على المقاييس العرقية ــ الثقافية، وكان على رأس هذا المجتمع الحكام الأوروبيون وأبناء البلدان الأوروبية، وكان يشغل المرتبة الثانية في المجتمع أولئك الذين تقبلوا الثقافة الأوروبية الذين منحتهم القوى الحاكمة حقوق المواطنة، أما المرتبة الثالثة والأخيرة من المجتمع فكانت تشمل كل الذين ابتعدوا لأسباب متفاوتة عن قيم الطبقة العليا الحاكمة. ولم تكن هذه الفروق مجرد فروق ثقافية، وإنما كانت فروقا حملت في طياتها العديد من الأبعاد السياسية الواضحة، فكلما كان يتقرب أبناء المجتمع إلى الطبقة العليا كانوا يحصلون على المزيد من الحقوق والحريات الممنوحة لهم. وكان من أبرز سمات الاحتلال الفرنسي، بالمقارنة بسائر القوى الأوروبية الاستعمارية، أن فرنسا أوضحت لكافة رعاياها بمن فيهم اليهود أن تقدمهم وارتباطهم بالطبقة العليا من المجتمع مرهونان بمدى تقبلهم لقيم الثقافة الحاكمة. ولم تتطلب هذه الثقافة لما عرف عنها من عالمية وعلمانية من الرعايا تقديم أي تنازلات ضخمة، فكان تبني يهود الجزائر للثقافة الفرنسية هو الشرط الوحيد الذي طرحته الطبقة الحاكمة عند بحثها لمسألة طبيعة الوضع القانوني الذي سيحظى به يهود الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي.

تحولات في أوضاع اليهود القانونية وفي التنظيم الطائفي

الجزائر

لم يتجاوز تعـداد يهود الجزائر في عام ١٨٣٠ ، وهو العام الـذي شهد غزو فـرنسا للجزائر، سبعة عشر ألف نسمة ، أقـام معظمهم في أربع مدن رئيسية بالجزائر، وهي مدينة الجزائر التي أقـام بها نحو خمسة آلاف يهودي ، ومدينـة قسطنطينة التي أقام بها نحـو ثلاثـة آلاف يهودي ، ومدينـة وهران التي كـان يوجـد بها نحو ألفين وثـلاثمائة يهودي ، ومدينة تلمسان التي كـان يوجد بها ألف وخمسمائة يهودي ، كما أقام بعضهم في مراكز تجمعات سكانية متوسطـة الحجم كان من بينها مداية والبليدة ومستغانم ، ومعسكر ومليانة . وينبغي أن نضع في الحسبان أيضا اليهـود الرحل الذين أقاموا على أطراف الصحراء ، بجنوب مدينة قسطنطينـة ، ويهود منطقة مزاب الذي تم ضمه إلى الجزائر في مرحلة لاحقة والذي حافظ على خصوصيته الإدارية والثقافية حتى نهايات الفترة الاستعمارية .

وتفيـد شهادات بعض القـادة الفـرنسيين أن يهود الجزائر كانـوا من أوائل الـذين رحبوا بالجنـود الفرنسيين عند نزولهم على ساحل سيدي فـاروش ، ويمكننا تصور أن يهود الجزائر تنفسوا الصعداء عند هزيمة القوات الجزائرية ، وأحسوا بالسعادة لما عانوه من اضطهـادات مستمـرة منـذ اضطـرابـات عـام ١٨٠٥ راح ضحيتهـا على أيـدي الانكشاريين عشرات اليهود ، ولكننـا نعتقد أن هجرة العائلات اليهـودية من مدينتي الجزائر ووهـران إلى فلسطين أو إلى سـائر بلـدان الإمبراطوريـة العثمانيـة تـدل على أن التأييد الـذي عبر عنه يهود الجزائر للمحتل الفـرنسي كان مصحوبـا ببعض المخاوف خـاصـة أنها لم تكن المرة الأولى التي يـواجـه فيهـا يهود الجزائر تجربـة خضـوع الجزائر للاحتلال الأوروبي فقـد سبق الاحتلال الفرنسي للجزائر قيـام الإسبان في عام ١٧٧٥ باحتلال الجزائر. وعلى كل حال فقد احتفل يهود الجزائر بالاحتلال الفرنسي ، واعتبروا تـاريخ الاحتلال الفـرنسي للجزائر عيـداً لهم ، إذ رأوا أن هذا الاحتـلال سيجلب لهم الخلاص وسيوفر لهم الحماية .

ولم تكن للفـرنسيين أي مشروعـات محددة بشـأن مستقبل الأراضي التي سيطـروا عليها، ولذلك اقتصرت سيطرتهم على مـدى فترة طويلة على الشريط الساحلي وعلى كبرى المدن بالجزائر، ونتصور أنـه لو كان قدر للملك شـارل العاشر البقاء في الحكم لكان كلف قـواته بـالعودة إلى فرنسـا، ولكن ثورة يـوليو التي وقعت بعـد مضي شهر واحد على الغزو أطاحت بحكمه، أما خليفته في الحكم الملك لويس فيليب فلم يول قـدرا كبيرا مـن الاهتمام بمسألـة مستقبـل الجزائر، واكتفى بإرســال المعتقلين من الجمهوريين الذيـن هددوا نظامه إلى الجزائر. وحينما نشبت ثـورة عبدالقادر الجزائري في بدايـة الأربعينيات من القـرن التاسع عشر تحولت الجزائر إلى معسكـرات لتدريب الجيش الفرنسي، فأرسلت المئات من ضبـاطها الذين تقاعـدوا عن العمل منذ انتهاء حروب نابليون، إلى الجزائر لقمع ثورة الأمير عبـدالقادر، وبدأت السلطات الفرنسية بعد نجـاح الجنرال بوجو في قمع هـذه الثورة في عام ١٨٧٤ في السيطرة تـدريجيا على أراضي الجزائر التي تحولت بعد عام ١٨٧٠ إلى جزء لا يتجزأ من فرنسا.

وبخصوص مـوقف الفرنسيين تجاه يهود الجزائر فقد أصـدروا في السادس عشر من شهر نوفمبر عـام ١٨٣٠ قرارا قضى بتعيين أحد أبناء عائلة بكـري اليهودية في منصب «رئيس الأمـة اليهوديـة» هـذا المنصب الذي كـان يقـابل منصب «المقدم» إبـان الحكم التركي للجـزائر، ولكن سرعان مـا اتضح أن حصر كل شـؤون الطـائفة في أيـدي زعيم واحد قد يـؤدي إلى استغلال هذا المنصب بشكل سيىء، ولذلك تقـرر بعد مضي ثمانية أشهر أن يتم اختيار رئيس الطائفة من بين ثلاثـة مرشحين يقوم شرفاء الطائفة بعرضهم على القائد العام للجزائر، كما تقرر تعيين رئيس الطائفة لمدة عام واحد ـ قابل للتجديد، وتشكيل مجلس عبري مكون من ثلاثـة أعضاء. وكان هذا المجلس مسـؤولا عن جباية الضرائب، وعن نفقات ودخل الطائفة. وألغي في شهر مارس من عام ١٨٣٦ منصب رئيس الأمة اليهودية، ونقلت صلاحيات هذا المنصب إلى النائب اليهودي لرئيس بلدية الجزائر. وعلاوة على تقليـص الفرنسيين لصـلاحيات ولمكـانة قيـاة الطائفـة «العلمانية» ألحق الفرنسيون أضرارا كثيرا بالهيئـة القضائية للطائفة حيث أصـدر الفزنسيون في الثاني عشر من شهـر مـارس عام ١٨٣١ قـرارا أدى إلى تقليص حـرية القضـاة اليهـود، فلم يسمح هذا القرار لهم بمزاولة أنشطتهم إلا بعـد الحصول على إذن من القائد العام الذي

كان يحق لـه إلغاء أحكامهم، وفرض الفـرنسيون بعد مضي عام ونصف العـام على هذا القـرار قيودا على الحكم الـذاتي القضائي الـذي كان ممنـوحا للحـاخامـات فأصبحت صـلاحيتهم مقصـورة على بحث قضـايـا الأحوال الشخصيـة فقط، وقضـايـا الـزواج والطلاق وتلك القضـايا الدينية التي لم يبحثهـا القانون الفرنسي، وأصـدرت السلطات الفرنسية في شهر فبراير عام ١٨٤١ مرسوما قضى بإلغاء كافة المحاكم الربانية، وتطبيق القـانون المدني الفـرنسي على اليهود، ومع هـذا سمحت السلطات بإمكـان الرجـوع إلى الحاخامات عند بحـث قضايا الأحوال الشخصية أو القضايا الـدينية، ولكن كان يحق للقضاء الفرنسي الأخذ بآراء الحاخامات أو رفضها.

والجدير بالـذكـر أنه بينما يتصـور البعض منـا أن مثل هذه القـوانين أضرت بـالمجتمع اليهـودي فإن الفـرنسيين رأوا أن مثل هـذه القوانين تهدف إلى تطـويـر الطائفة اليهودية و«إصـلاحها» ودمجها في المجتمع الفرنسي لاسيما أنهم لم يصدروا أي تشريعـات شبيهـة بالمجتمـع العربي الإسـلامي الـذي ظل في الفترة نفسهـا متمسكا بمؤسساته وبقوانينه الدينية.

ولنـا أن نتسـاءل: لماذا حـرص الفـرنسيـون على تفضيل اليهـود على المسلمين؟ وللإجابة عن مثل هذا التساؤل شقان وهما:

١ ـ كانت السلطة الفرنسية تنظر إليهم بوصفهم طرفا وسيطا بين جيش الاحتلال والسكان المسلمين.

٢ ـ حرص يهود فرنسا على العمل لمصلحة يهود الجزائر.

وكما هو معـروف فحينما أتى الفرنسيـون إلى الجزائر كانت معلـوماتهم عن الجزائر وسكانها ضحلة للغاية، فاعتمدوا على اليهود في مجال الترجمة، وفي إجراء الاتصالات بالـدوائر السياسية المحليـة، وبالأمير عبدالقـادر الجزائري الذي اعتمد على وسـاطة اليهود عند قيامه بمحاولات التوصل إلى تسوية مع جيش الاحتلال الفرنسي. وعلاوة على هذا فقد رأى بعض قـادة الجيش الفرنسي أن تحسين أوضاع يهود الجزائر سيجعل من الجزائر مركز جـذب ليهود حوض البحر الأبيض المتـوسط مما سيجعل من الجزائر «فلسطين أخرى» وحلقة وصل رئيسية بين أوروبا وأفريقيا. وبخصوص هذه الفكرة كتب البارون بو في عام ١٨٤١:

«يستطيع اليهود لما يتمتعون به من مكانة فكرية، ولانتشارهم في كل بقاع الأرض ولصلاتهم القوية مع سائر الطوائف أن يكونوا بمنزلة إحدى قنوات التأثير الاقتصادية والسياسة الفرنسية في كافة أنحاء أفريقيا. وسيستطيعون على هذا النحو أن يقدموا لفرنسا مقابلا مناسبا لقاء ما حصلوا عليه منها».

ودون المبالغة في قيمة وأهمية هذه الاعتبارات، فإن الجهود المستمرة التي قام بها يهود فرنسا كان لها أكبر الأثر في أوضاع يهود الجزائر، فيرجع إلى يهود فرنسا فضل إقناع الحكومة الفرنسية في باريس بضرورة تحسين و إصلاح أوضاع يهود الجزائر بما يتماشى مع روح ومبادىء الثورة الفرنسية.

وقد شعر يهود فرنسا ـ الذين كانوا أول من نعم بقدر كبير من الحرية في عالم التاريخ اليهودي في العصر الحديث ـ أنه لزام عليهم الاهتمام بمصير سائر اليهود الذين لم ينعموا بعد بالامتيازات نفسها التي حصلوا عليها، وبرر يهود فرنسا موقفهم هذا بأنه نابع من حقيقة انتمائهم للفكر الفرنسي، وليس للفكر اليهودي، وآمن يهود فرنسا بأن تطلعهم لتحسين أوضاع يهود الجزائر يدل على مدى وطنيتهم و إخلاصهم لفرنسا، كما رأوا أن جهودهم تهدف إلى نشر قيم الثورة الفرنسية المتماشية مع قيم الديانة اليهودية، ومع هذا لم يخل تحمسهم لنشر فكر الثورة الفرنسية من إحساسهم بالتضامن مع يهود الجزائر. وعلى الرغم من أن اليهود الفرنسيين كانوا على وعي كامل بطبيعة الفروق الثقافية السائدة التي تميزهم عن يهود الجزائر فإنهم رأوا أن هذه الفروق تعد نتيجة طبيعية للفروق السائدة بين البيئتين الفرنسية والجزائرية، وأن نشر الفكر الفرنسي في الجزائر كفيل بالقضاء على كل هذه الفروق، ولذلك طالب رؤساء الطائفة اليهودية في فرنسا الحكومة الفرنسية في شهر نوفمبر من عام ١٨٣٣ بتأسيس مجلس يهودي في مدينة الجزائر، كما طالب المجلس اليهودي المركزي في باريس في نهايات عام ١٨٣٦ المجلس اليهودي في مارسيليا بتوثيق العلاقات بيهود الجزائر، وتوجه وفد من قبل هذا المجلس إلى الجزائر في عام ١٨٤٢، أي بعد أن أنهت السلطات الفرنسية الإجراءات الخاصة بتشكيل البنية التنظيمية للطائفة اليهودية في الجزائر، وضم هذا الوفد كلا من يعقوف إسحاق الطرس رجل الأعمال الفرنسي الذي من أصل سوري، والمحامي يوف كوهين ماكس ان ـ بروفنس، وتمثلت مهمتها

في إعداد بحث شامل عن أوضاع الطائفة اليهودية في الجزائر، وتقديم مسودة مشروع مفصل بشأن احتياجات هذه الطائفة إلى السلطات الفرنسية.

وأسفرت زيارة هذا الوفد التي استغرقت شهرين عن إعداد تقرير شكّل في مجمله أساس المداولات التي عقدت في الوزارات الفرنسية، تلك المداولات التي أدت إلى إصدار قانون الخامس من نوفمبر ١٨٤٥ الذي شكّل أساس البنية التنظيمية للطائفة اليهودية في الجزائر.

تشكيل المجلس اليهودي في الجزائر

وتشكل بموجب القانون الجديد مجلس يهودي مركزي في مدينة الجزائر، ومجلسان آخران في مدينتي وهران وقسطنطينة، وتركزت قيادة هذه المجالس في أيدي الشخصيات اليهودية العلمانية والحاخامات الذين قدموا من فرنسا لقيادة هذه المجالس، فكانت السلطات الفرنسية وقيادات المجتمع اليهودي الفرنسي ترى أنه بمقدور الفرنسيين «المستنيرين» فقط الارتقاء بثقافة يهود الجزائر، ولذلك أبعدت القيادات الجديدة لهذه المجالس الشخصيات اليهوية الجزائرية من البنية التنظيمية لهذه المجالس، وبررت موقفها بأنه ليس بمقدور يهود الجزائر تعليم الآخرين، وأن مهمتهم تتمثل في نشر الثقافة الفرنسية في أوساط يهود الجزائر.

ونص قانون هذه المجالس أنه يتعين على الحاخامات الذين رأت فرنسا أنهم من موظفي الحكومة تذكير الآخرين دائما بضرورة الولاء لفرنسا والدفاع عنها، والدعاء بسلامة الملك والعائلة الحاكمة. وتلقت المجالس اليهودية في الجزائر ـ وعلى نحو مشابه لما حدث مع المجلس اليهودي في فرنسا إبان عهد نابليون ـ أوامر قضت بتشجيع اليهود على الاشتغال في المهن المنتجة، والتخلي عن العمل في مجال القروض.

وتشكل المجلس اليهودي في الجزائر من حاخام، ومن أربعة أعضاء علمانيين، وكان الملك يقوم بتعيين هؤلاء الأعضاء في مناصبهم. وكان المحامي يوف كوهين أول من تولى رئاسة هذا المجلس، وشغل الحاخام ميشيل فيل الذي عمل بالتدريس منصب كبير الحاخامات بالمجلس. أما المجلسان اليهوديان في مدينتي وهران وقسطنطينة فقد كان عدد الأعضاء العلمانيين في كل منهما لا يتجاوز ثلاثة أعضاء،

وكان وزير الأديان يتولى مهمة تعيينهم بالاشتراك مع الحاخامات بموجب التوصية المقدمة من الحاكم .

ولا غرابة في أن العلاقات التي سادت بين يهود الجزائر وقياداتهم الجديدة لم تتسم على الأقل في البداية بالهدوء ، حيث أدخل الحاخامات الفرنسيون ـ الذين كانوا من غير الملتزمين بالتعاليم الدينية ــ تغييرات عديدة ليس فقط على نظم الدراسة أو في المدارس الدينية ، وإنما سعوا أيضا إلى إلغاء بعض الممارسات الدينية التي كانت شائعة في أوساط يهود الجزائر والتي كان من بينها عادة زواج الرجل بامرأة أخيه الذي لا ينجب ، وعادة الطلاق ، تلك الممارسات التي كان القانون الفرنسي لا يسمح بممارستها . وكان يهود الجزائر يشعرون آنذاك بأن هذه المجالس ليست سوى جهة حكومية تتولى مهمة تمثيل السلطة أمام الطائفة ، وليس العكس . وقد مضت سنوات طوال مليئة بالخلافات والنزاعات حتى حظيت هذه المجالس بالشرعية الكاملة من قبل أبناء الطائفة ، ومع هذا استمر أبناء الطائفة في اللجوء إلى حاخاماتهم والتشاور معهم والأخذ بآرائهم وأحكامهم ، هذا في الوقت الذي تعرضوا فيه إلى ضغوط عديدة من قبل هذه المجالس لإجبارهم على عدم التشاور مع حاخاماتهم .

الحصول على حق المواطنة الفرنسية ـ مرسوم كرميه (١٨٧٠)

اضطر يهود الجزائر بعد فترة وجيزة من تشكيل هذه المجالس للاعتراف بالنظام الطائفي الجديد الذي فرضته القوة الاستعمارية ، فأصبح لزاما على اليهود الاستجابة للقانون المدني الفرنسي رغم أنهم كانوا يعدون من الناحية الرسمية من أبناء الجزائر . وأثار وضعهم المدني غير المحدد قدرا لا بأس به من المشكلات فلم يكن من الواضح على سبيل المثال أي مبرر يلزم اليهود بتسجيل زيجاتهم أمام السلطات المدنية ، كما لم يكن من الواضح أيضا أي مبرر يحظر عليهم ــ بموجب القانون المدني الفرنسي ـ الطلاق ، وتعدد الزوجات . وكان وجه الحيرة يكمن في أنه بينما كان لزاما عليهم الخضوع للقانون الفرنسي فإن السلطات اعترفت في الوقت نفسه بخصوصيتهم الدينية ، أضف إلى هذا أنه كان يحق للمسلمين في المقابل التمسك بأحكام الإسلام في كل ما يتعلق بقضايا الأحوال الشخصية . وتجلت مظاهر عدم تحديد أوضاع اليهود القانونية في التناقض الذي شاب أحكام القضاة الذين عرضت أمامهم العديد

من القضـايا، وتـوصلت السلطات الفـرنسية تدريجيـا إلى مخرج من هـذه الأزمة عبر تفكيرها في تطبيق قـانون المواطنة الفـرنسية على يهود الجزائر، وحظي هـذا الحل بتأييد الـرأي العـام الأوروبي والرأي العـام الجزائري، وبترحيب العشرات من الجمهـوريين الفرنسيين الـذين نفوا إلى الجزائر بعـد فشل ثورة ١٨٤٨، وبعـد أن تأسست المملكة الثانية في فرنسا، ورأى هؤلاء الجمهوريـون أن تحرير يهود الجزائر من كافة أنواع القيود ومنحهم حقوق المواطنة يعد استمرارا للنهج نفسه الـذي انتهجته فرنسا إزاء مواطنيها من اليهود، وأن مثل هذا الموقف يتماشى مع أفكار ومبادىء الثورة الفرنسية.

ودعـا أصحاب هـذا الاتجاه أيضـا إلى إلغاء النظـام العسكـري الذي فـرض على الجزائر منـذ عام ١٨٣٠، ورأوا أن تحقيق مثل هـذا المطلب يستلزم بـالضرورة العمل على زيـادة تعداد السكـان الفرنسيين في الجزائر، إمـا عن طـريق توسيع أطـر حركـة الاستيطـان الفـرنسيـة في الجزائر أو عن طريـق منح الجنسية الفـرنسيـة ليهـود الجزائر ولكافة الأوروبيين الذين هاجروا بكثرة في هذا الحين إلى الجزائر.

وعارضـت القيادة العسكريـة الفرنسيـة في ذلك الحين تغيير أوضاع اليهـود ليس فقط لاعتراضها على إلغاء نظام الحكم العسكري وإنما لتخوفها من أن يؤدي منح حق المواطنة الفـرنسية لليهـود إلى إثارة غضب المسلمين الـذين لن يـروا بعين الاستحسان تحسن أوضاع أهل الذمـة من اليهود ومساواتهم بأوضاع الفـرنسيين. واستمرت طيلة هذه الفترة المواجهة بين وجهتي النظر، وكانت هذه المواجهة مصحوبة بطرح وجهات نظر عـديدة بخصوص إمكان انـدماج اليهود في المجتمع الفرنسي، فصـدرت خلال الفترة ١٨٤٥ ــ ١٨٧٠ عشرات المقالات والكتب التي بحثت في مجملهـا إذا ما كـان من الواجب منح اليهود حق المواطنة أو عدم منحهم هذا الحق.

أما اليهـود فقد أعرب قادتهم الـذين نعني بهم قادة المجالس اليهـودية، وبعض رجال الأعمال، وموظفي الحكـومة من يهود الجزائر عن رغبة أبناء الطائفـة اليهودية في الحصول على حق المواطنة الفرنسية، ونجحوا في الحصول على تأييد المجلس اليهودي المركزي في بـاريس، وبعض الشخصيات اليهودية المرمـوقة مثل أدولف كرميـه الذي أعلن في أماكن عديدة عن ضرورة إخراج يهود الجزائر من عالم العبودية إلى الحرية.

وأسفرت هذه الضغوط عن أولى ثمارها في عام ١٨٥٦ أي بعد زيارة نابليون الثالث للجزائر، إذ أصدر القيصر عند عودته لباريس مرسوم Senatus Consulte الذي منحت فرنسا بمقتضاه لكل مواليد الجزائر من يهود ومسلمين حق الحصول بشكل فردي على حق المواطنة الفرنسية شريطة أن يعربوا عن استعدادهم للتخلي عن ارتباطهم بقوانينهم التقليدية .

وبذلت المجالس اليهودية والدوائر «التقدمية» في هذا الحين جهودا مستميتة في أوساط اليهود بغرض تشجيع أعداد غفيرة منهم على الحصول على حق المواطنة الفرنسية، ومع هذا لم تسفر كل هذه الضغوط إلا عن تقدم عدد محدود من يهود الجزائر بطلب الحصول على حق المواطنة الفرنسية فلم يتقدم من مقاطعة الجزائر التي بلغ تعداد اليهود بها ١١ ألف نسمة سوى خمسين مرشحا، ولم يتقدم من مقاطعة وهران التي بلغ تعداد اليهود بها ١٤ ألف نسمة سوى ٢٠٣ يهود، وكان من بينهم ١١٣ يهوديا مغربيا وتونسيا، ولم يتقدم سوى أربعين يهوديا من منطقة قسطنطينة للحصول على الجنسية الفرنسية، وكان هذا العدد قليلا للغاية خاصة أن تعداد يهود هذه المنطقة كان يقدر بـ ٨٠ ألف يهودي .

ولم يرغب يهود الجزائر في واقع الأمر في الحصول على حق المواطنة الفرنسية، لاسيما أن الحصول على مثل هذا الحق كان يلزمهم بالتخلي عن التقاليد اليهودية، وعلى خلاف الوضع الذي ساد في أوساط يهود أوروبا الذين ابتهجوا بمبادىء الثورة الفرنسية التي كفلت لهم حرية العبادة فلم يشعر يهود الجزائر بأن حصولهم على حق ممارسة شعائرهم يعد بمنزلة انتصار لهم، خاصة أن المسلمين كفلوا لليهود هذا الحق، ولذلك شعروا أن الحصول على حق المواطنة الفرنسية يعني بالضرورة إلحاق الضرر بمعتقداتهم اليهودية، وأنه ليس من الممكن تقديم مثل هذه التضحية . وذكر أدولف كرميه، الذي كان متفهما لدوافع معارضة يهود الجزائر لفكرة الحصول على حق المواطنة الفرنسية، وعند تعليقه على فشل مرسوم Senatus - Consulte الذي أصدره نابليون الثالث : «لا تقولوا لهم كونوا فرنسيين إذا شئتم حيث إنهم لن يتخلوا أبدا عن إلههم» .

ولا غرابة في أن كرميه تبنى بعد دخوله البرلمان في عام ١٨٦٧ فكرة منح حق المواطنة الفرنسية بشكل جماعي إلى يهود الجزائر، فذكر أثناء حديثه في البرلمان الفرنسي أن اليهود لن يعارضوا أي قانون فرنسي يجعل منهم مواطنين فرنسيين، كما تقدم وزير القضاء الفرنسي إميل أوليفيه في عام ١٨٧٠ بمشروع اقتراح يهدف إلى منح حق المواطنة الفرنسية إلى كل يهود الجزائر، باستثناء هؤلاء الذين سيعلنون في خلال اثني عشر شهرا عن رفضهم الحصول على الجنسية الفرنسية. ولكن حينما وصلت المناقشات والمداولات الخاصة بالتصديق على هذا القانون إلى ذروتها نشبت الحرب مع بروسيا، تلك الحرب التي انتهت بهزيمة فرنسا، وانهيار نظام نابليون الثالث في شهر سبتمبر من العام نفسه.

وتشكلت بعد انتهاء الحرب حكومة مؤقتة في فرنسا تولى رئاستها جامبتيه الذي كلف أدولف كرميه بتولي منصب وزير القضاء، وأصدر كرميه في الرابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٨٧٠ مرسوما قضى بتطبيق قانون المواطنة الفرنسية على كل يهود الجزائر. ونجح كرميه الذي كان من دعاة إلغاء الحكم العسكري في الجزائر في تطبيق هذا القانون، خاصة بعد أن استغل حالة الطوارىء التي كانت سائدة آنذاك في فرنسا، التي كانت تتيح للحكومة فرصة تنفيذ القوانين دون الحصول على تصديق البرلمان، ورأى كرميه في هذا الحين أن قيامه بتطبيق هذا القانون على يهود الجزائر يعد مكسبا حقيقيا لفرنسا فكان يؤمن أن حصول أربعين ألف يهودي جزائري على الجنسية الفرنسية يعد بمنزلة تعويض مناسب لبلاده التي فقدت أثناء حربها مع ألمانيا مقاطعتي إلزاس ولورين.

ولم يحظ هذا القانون الذي أصدره كرميه ـ كما كان متوقعا ـ بتأييد الفرنسيين المقيمين في الجزائر، ولذلك فحينما نشبت في الجزائر في عام ١٨٧١ ثورة قبائل البربر التي لم يكن لها أي صلة مباشرة بمرسوم كرميه رأت الجهات المعادية للسامية والقيادات العسكرية أن هذه الثورة تعد دليلا قاطعا على مدى الخطورة الكامنة في المرسوم الذي منح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر، والذي فضلهم على المسلمين. وكان جميع الفرنسيين يؤمنون آنذاك بأن هناك علاقة وثيقة بين ثورة القبائل وبين مرسوم كرميه، وظلت هذه العلاقة موجودة في أذهان الجميع حتى قام البرلمان الفرنسي في أول جلسة عقدها بإلغاء مبادرة

كرميه، ومع هذا نجح كـرميه الذي كان قد خرج من الحكومـة في إقناع أعضاء الجمعية القومية الفـرنسية بضرورة إلغاء قرار البرلمان، ومع هـذا اكتفى وزير الداخليـة الفرنسية الذي كـان متمسكا بفكرة إلغـاء مرسوم كرميـه الصادر في الرابع والعشرين من أكتـوبر بإدخال تعـديل بسيط على قرار البرلمان، فأصبح القرار ينص على أن الجنسية الفـرنسية ستمنح ليهود الجزائر بعـد أن يثبتوا أنهم من مـواليد الجزائر، وكان القـرار يعبر على هذا النحو عن تخوف السلطـات الفرنسية مـن هجرة يهود المغرب وتـونس إلى الجزائر بغرض الحصول على الجنسية الفرنسية.

ويشكل مرسـوم كرميه في حقيقة الأمـر نقطة تحول مهمة في تـاريخ يهود الجزائر، إذ أثر هذا المرسوم في كافة أوجه حياة اليهود، فأصبح يهود الجزائر يتمتعون بكافة حقوق وواجبات الفـرنسيين، فكـان من بين واجبـاتهم الانضمام إلى الجيـش والتصـويت في الانتخـابـات، وشكلت قـوتهم الانتخـابيـة مع مضي الوقـت إحدى ذرائع صراعهم مـع الدوائر المعـاديـة للسامية التي لم تسلم بمرسوم كرميه، وسنبحث فيما بعد مسألة قوتهم الانتخابية.

وساعد مرسوم كرميه يهود الجزائر على التخلص من الإحساس بالتبعية ليهود فرنسا، فلم يعـد هناك مبرر منـذ صـدور هذا المرسـوم لإبعـاد يهود الجزائر عن قيادة المجـالس اليهودية، ونجـح يهود الجزائر تدريجيا في تولي زعـامة الطائفة اليهـودية في الجزائر، وكان هذا النجـاح مرتبطا إلى حـد كبير بوجود العـديد من المشاحنـات فيما بينهم وبين اليهود الفرنسيين، وقـد أسدل الستار على هذه المواجهـة بعد أن صدر في عام ١٩٠٥ القـانون الـداعي إلى فصل الـدين عن الـدولـة، ومنذ هـذا الحين أصبح كل أعضـاء المجـالس اليهودية من يهود الجزائر، ولم يعد يتم تشكيل هذه المجالس من بين يهود فرنسا.

تونس

شعـر يهود فـرنسا بعـد قيـام بـلادهم بـاحتلال تـونس في عـام ١٨٨١ بأنهم يشهدون الأحـداث نفسها التي شهـدوها من قبل عند احتـلال فرنسـا للجزائر، فاستخـدمت الصحافة اليهـودية الفرنسية عنـد حديثها عن يهود تـونس الألفاظ والتعبيرات نفسها التي كانـت قد استخدمتها من قبل في إطـار حديثها عن يهود الجزائر، فوصفت المجتمع اليهـودي التونسي بقولها «إن تعـداد يهود تونس ضخم

للغـايــة، وأن يهود تـونس من المستنيريـن وأنهم على استعـداد لتقبل الثقــافـة الأوروبية، وأنهم من محبي ومؤيدي فرنسا».

وشهد المجتمع اليهودي في تونس في هذا الحين خلافات حادة بين الاتجاه الداعي إلى الحداثـة والاتجاه الداعي إلى التمسك بـالتقـاليد، وذكّـر هـذا الخلاف والانقسام اليهـود الفرنسيين بالخلافات التي سادت في أوساطهم قبل قيام الثورة الفرنسية، إذ شهد المجتمع الفـرنسي قبل هذا الحين خـلافـات عديـدة بين اليهـود السفاراد الـذين أقـاموا في بـوردو وبالمناطق الجنوبية من فرنسا وبين اليهود الأشكناز الذين أقاموا في منطقة إلزاس.

وطالب يهود فـرنسا حكـومتهم بعد احتـلالها تونس بتشكيل مجالس يهوديـة في تونس يتولى الحاخـامات الفرنسيـون رئاستها، كما طالبوا بمنح الجنسيـة الفرنسية ليهـود تونس، ولكن السلطـات الفرنسيـة رفضت الاستجابـة لهذه المطـالب، وعندمـا تدخل الحاخـام تسـدوق كوهين كبير حـاخـامـات فرنسـا لصـالح يهود تونس أثـار هـذا الموقف غضب السلطات الفرنسية. وتبنت السلطات الفرنسية هذا الموقف للسببين التاليين:

١ ـ كان السبب الأول سببـا قضائيا حيث إن وضع تونس كمحمية فـرنسية حظر على فرنسا من الناحية الرسمية إدخال أي تغييرات على نظم المجتمع، أضف إلى هذا أنه كـان من المحتمل أن يثور والي تونس عند قيـام القوة الاستعمارية بتغيير جنسية بعض رعاياه.

٢ ـ كـان السبب الثاني سببا سياسيـا وثيق الصلة بالاضطرابـات التي حدثت في الجزائر بعد صدور مـرسوم كرميه، تلك الاضطـرابات التي رأى الجميع أنها نجمت عن قيام فـرنسا بمنح حق المواطنة الفـرنسية ليهود الجزائر. فقـد ذكر المندوب السامي الفرنسي في تونس عام ١٨٩٩:

«في الوقـت الذي تعـاني فيه الجزائر من النتـائج السياسية لمرسـوم كرميـه فإن الوقت الـراهن ليس مناسبا لتحسين أوضاع اليهـود في تونس بالمقارنـة بالمواطنين المسلمين. إن كل محاولات منح المساواة في الحقوق ليهـود تونس ستخلق مشكلة عداء سامية خطيرة».

وكـان الثقل الديمـوغرافي لليهـود بـالمقارنـة بتعداد السكـان الأوروبيين من بين العـوامل التي منعت السلطات من الإقـدام على أي خطوة تـزيد من قـوتهم، وكتب المندوب السامي الفرنسي بخصوص هذا الموضوع :

«تعد الأحداث التي تشهدها الجزائر دليلا قاطعا على طبيعة المساوىء السياسية المحيطة بتنظيم المجـالس اليهودية . إن كل محاولات الإصلاح الهادفـة إلى وقوع قيادة الطائفة في أيدي الأثرياء من اليهود والشخصيات المؤثرة منهم ستخلق مراكز قوى في تونس لن يكون هنـاك مفر من تجاهلها . وفي الواقع فإن بنية الهيئة الحاخـامية الحالية بالغة القدم ولكنها تعطينا ضمانات كافية تكفل لنا الأمن والاستقرار» .

وفضل الفـرنسيون في حقيقـة الأمـر تجميد الـوضع الـذي منح اليهود التـونسيين المتمسكين بالتقـاليد الأفضليـة في إدارة مؤسسـات الطائفـة، ولم يحبذ الفـرنسيون في المقابل تشكيل أيـة مجالس حديثة تتيح ليهود تـونس الموالين لإيطاليا فرصـة السيطرة على شؤون الطائفة .

وأدخل الفرنسيون، رغم إحساسهم بـالحيرة إزاء الموقف الذي ينبغي عليهم تبنيه تجاه يهود تـونس، بعض التغييرات الجوهريـة على البنيـة التنظيمية للطـائفة فشكلـوا مجلسا مـن اثني عشر عضوا لبحث شـؤون الطائفة . وكـانت تجرى كل أربعـة أعوام انتخابات عامة لانتخـاب أعضاء المجلس، وكانت أعمار هؤلاء الأعضاء لا تقل عن واحد وعشرين عـاما، كما كانـوا من بين الذين يـدفعون الحد الأدنى من الضرائب . وكان رئيس هـذا المجلس ينتمي إلى الدوائر العلمانيـة المستنيرة، وكان من بين مهـامه تمثيل الطائفة أمام السلطات، وكان هذا المجلس مكلفا ببحث كافة القضايا الدينية والخيرية، والإشراف على المعابـد والمقابر والمؤسسات التعليمية الـدينية، ومع هذا لم تمنح فرنسا هـذا المجلس حق السيطرة على الطوائف المقيمة في الضـواحي التي كانت توجد بها لجان مستقلة تولت مهمـة الإشراف على شؤون الطائفة، ولم تعط أيضا كبير الحاخامات فرصة السيطرة على حاخامات سائر المدن .

وكانت صلاحيات كبير الحاخامات، الذي كـان يتلقى أجره من خزانة الدولة، محدودة للغـاية، وكـانت تتبع للحاخـام لجنة مكـونـة من ستة أعضـاء تولت مهمـة

الإشراف على شؤون العبادات، وكان كبير الحاخامات يشغل أيضا منصب رئيس المحكمة الربانية العليا، ولكن أصبحت صلاحيات هذه المحكمة منذ نهايات القرن التاسع عشر مقصورة على بحث قضايا الأحوال الشخصية، كما لم يكن يحق لها بحث قضايا اليهود ذوي الجنسية الفرنسية أو اليهود الذين من رعايا الدول الأجنبية.

وتجدر الإشارة بخصوص هذا الصدد إلى أن الفرنسيين أبدوا عشية الحرب العالمية الأولى قدرا أكبر من المرونة إزاء قضية منح حق المواطنة الفرنسية ليهود تونس، ولم تتبن فرنسا مثل هذا الموقف المرن إلا بعد أن بدأت إيطاليا في تلك المحاولات الرامية إلى تقويض سيطرة فرنسا في تونس، ولذلك حرصت فرنسا بعد أن أدركت حجم التهديد الإيطالي على تكثيف وجودها في تونس، فأتاحت لليهود فرصة الحصول على الجنسية الفرنسية شريطة قيامهم بالخدمة بالجيش الفرنسي لمدة ثلاث سنوات أو العمل لمدة ثلاث سنوات مع الإدارة الفرنسية أو القيام بأي أعمال تستحق التقدير والإعجاب لمصلحة فرنسا.

وحصل المئات من يهود تونس فيما بعد على الجنسية الفرنسية، وقدر عدد الذين حصلوا على الجنسية الفرنسية خلال الأعوام (١٩١١-١٩٣٠) بـ ٥٥٦٩ يهوديا، كما حصل ١٣١٢ يهوديا خلال الأعوام (١٩٣١ ـ ١٩٣٥) على الجنسية الفرنسية، وسافرت خلال هذه الفترة أعداد كبيرة من يهود تونس إلى الجزائر وفرنسا لإكمال دراساتها العليا، وحصل هؤلاء على الجنسية الفرنسية عند عودتهم إلى تونس، مما جعل الجنسية الفرنسية فيما بعد إحدى السمات المميزة لأبناء الطبقة العليا في المجتمع اليهودي في تونس. وفيما يتعلق باليهود الذين نعموا برعاية السلطات المحلية فقد تمتعوا بكافة حقوقهم المدنية، وتحرروا من كافة القيود التي فرضت عليهم إبان العصور الوسطى، كما كان لهم قدر من التمثيل المناسب في كافة الأجهزة الحكومية والمهنية العاملة في المحمية.

وكانت البنية التنظيمية للطائفة اليهودية في الضواحي شديدة الشبه بالبنية التنظيمية للطائفة اليهودية في مدينة تونس، فحافظت الطائفة اليهودية في جربة طيلة هذه الفترة على طابعها التقليدي. وكانت هذه الطائفة مقسمة إلى جماعتين، وبينما

أقـامت الجماعـة الأولى في الحارة الكبيرة أقامت الجماعـة الأخـرى في الحارة الصغيرة، وتولى الحاخامـات الذين عرفوا بأحبـار المدينة رئاسة الجماعتين. أما فـرنسا فلم يكن لحاخاماتها وجود ملحـوظ سواء في البنية الاجتماعية أو التنظيمية للطائفـة اليهودية في جربة، فاستمـر أبناء هذه الطائفة في إدارة كافـة شؤونهم عبر بعض المؤسسات التي شملت أنشطتها كافة أوجه حياة اليهود.

المغرب

أولى المارشال ليوطي المندوب السامي الفرنسي في المغرب بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى قدرا كبيرا من الاهتمام بكافة القضايا الخاصـة بأوضـاع اليهود، وكـان ليوطي متخـوفـا من أن يـؤدي تأثـر اليهـود ببعض العـوامل الخارجيـة مثل الصهيـونيـة أو بـالضغـوط التي يمارسهـا يهود أمـريكا إلى استغـلالهم لخصـوصيـة وضعهم الـديني الثقافي، وثقلهم الديموغرافي للمطالبـة بالحصول على بعض الحقوق أو الامتيازات في إطار المجتمع. ونظرا لسيطرة الفكر السيـاسي الفرنسي بطبيعة الحال على فكر ليوطي فإنه لم يكن مستعـدا لتقبل فكرة وجود دولة في داخل دولة، ولـذلك سعى ليوطي إلى دمج الطائفة اليهودية في الأطر القانونية والإدارية للمحمية، وتحكم عاملان رئيسيان في طريقة تفكيره عند قيامه برسم الأطر التنظيمية للطائفة اليهودية، وهما:

١ ـ فرض أقصى درجة من القيود على الحكم الذاتي الداخلي لليهود.

٢ ـ الإشراف الشامل على أنشطة مؤسساتهم المختلفة.

وصـدر في عام ١٩١٨ مـرسومـان أقـرا أسس تشكيل لجان الطوائف والمحـاكم الحاخاميـة، واقتصرت صلاحيات هذه اللجـان وبشكل مشابه لما حـدث في تونس على أمور العبادة والأنشطة الخيرية، كما تجنبت السلطـات بالمغرب، وكما حدث من قبل في تونس، تشكيل لجنة عليا للإشراف على أمور كل يهود المغرب، ومع هذا كان ليهـود كل مدينـة وكل مركـز لجنة خـاصة عملت على حـدة دون التشاور مع سـائر اللجـان. ولم يتم التنسيق بين كافـة هذه اللجـان إلا عن طريق السلطـة التي عينت مسؤولا يهوديـا للإشراف على المؤسسـات الطائفيـة اليهوديـة، وكان من بين مهـامه التصديق على ميزانيات اللجان التي كـانت تأتي عبر التبرعات، والرسوم التي كانت

تفرضهـا الطائفـة على المأكولات اليهـودية . وشغل يحيي زجوري هـذا المنصب حتى الحرب العالمية الأولى، وكانت مواقفه وآراؤه تعبر عن موقف السلطة أكثر من تعبيرها عن مواقف اليهود .

وضمت كل لجنة من هذه اللجان في صفوفها مايتراوح بين أربعة وعشرة أعضاء، وكان من الضروري أن يكون رئيس المحكمة أو حاخام المدينة عضوا في هذه اللجنة . ولم يكن أعضـاء هذه اللجنـة ـ وعلى خلاف مـا حدث في تـونس ـــ ينتخبون، وإنما كانت السلطة تقوم بتعيينهم لمدة عامين، وكانت السلطات تختارهم من خلال قائمة كانت تضم أسماء شرفاء المدينة . وكانت اللجنة تنتخب أحد أعضائها لشغل منصب الرئيس، ولكن كان من الضروري أن تصدق السلطات على تعيينه .

وأبدى الفـرنسيون تحفظهم إزاء مسألة دمج اليهود الـذين من الرعايـا الأجانب ـ حتى ولو كـانوا فرنسيين ـــ في المؤسسات الطائفيـة خوفا من أن يظهـروا قدرا كبيرا من الاستقـلالية في أعمالهم، ومن أن يضفـوا طابعـا سيـاسيا على أنشطتهم، كما تعـامل الفرنسيون بتشكك بالغ في نوايا ممثلي «الجيل الجديد» من القيادات اليهودية، ولم تكن هناك في واقع الأمر أي فروق جوهرية بين قيادات الطائفة اليهودية في المغرب إبان فترة كونها محمية فـرنسية وبين قيادات الطائفـة خلال الفترة السابقة، ومع هـذا تمثل وجه الفرق الوحيد في أن العصر الحديث شهد تـزايد قوة الاتجاهات «العلمانية» في أوساط القيادة، هذه الاتجاهات التي ظهرت في المجتمع اليهودي منذ القرن التاسع عشر.

وقصر الفـرنسيون أنشطـة المحاكـم اليهوديـة الحاخاميـة على بحث قضـايا الأحـوال الشخصية والمواريث، ولكنهم أسسوا في المقابل هيئة قضائية يهودية عليا، تولت المحكمة اليهوديـة العليا في الرباط رئاستهـا، وتشكلت هذه المحكمة من رئيس ونـائبين وكاتب . وكانت هذه المحكمة بمنزلة محكمة للاستئناف، ولم يكن من الجائز حتى من قبل السلطة الطعن في قراراتها، وكـان رئيس المحكمة العليا في المغـرب يعد حتى عام ١٩٥٥ ـــ الذي شهد إلغاء نظام المحمية الفرنسية ـ بمنزلة أعلى شخصية دينية في الطائفة .

وكانت بنية المحاكم الإقليمية في كبرى المدن بالمغرب شبيهة للغاية ببنية المحكمة العليا، فكانت هذه المحـاكم تتكون من ثلاثة قضاة وكاتب . أمـا الأماكن التي كان

وجود اليهود بها ضئيلا، فكانت صلاحيات اتخاذ الأحكام منحصرة في يدي قاض واحد فقط، كما كان يقوم أيضا بمهام حاخام الطائفة. وكان القضاة وكتبة المحاكم يتلقون أجورهم من السلطة، ولذلك كان ينظر إليهم بوصفهم من موظفي الحكومة، ومع هذا فبينما أضفى هذا الأمر عليهم قدرا كبيرا من الأهمية والاستقلال من الناحية الاقتصادية إلا أنه انتقص في الوقت نفسه من الحرية التي كانوا ينعمون بها في مواجهة السلطات، فرغم أن معايير انتخاب القضاة ظلت على ماهي عليه فإنه كان يحق لممثلي الحكومة إلغاء تعيين القضاة الذين لا يشعرون بالرضا أو الارتياح تجاههم. أما كتبة المحاكم فكانت تجرى لهم امتحانات لاختبار مدى معرفتهم بأصول القوانين العبرية والقوانين العامة. وبينما كانت أحكام القضاة تصاغ دائما باللغة العبرية، إلا أنه كان لزاما على كتبة المحاكم أن يقدموا باللغة الفرنسية قائمة مفصلة بالأحكام التي صدرت، وبالقضايا التي تم بحثها.

وتشكلت في عام ١٩٣٠ لجنة خاصة من القضاة تولت بدورها بحث ما إذا كان من الممكن منح الأبناء حق الآباء في العمل إما كحاخامات أو كقضاة، ولكن بعد أن اتسعت تدريجيا آفاق المعرفة الغربية وبعد أن ظهرت أنماط اجتماعية جديدة، فقدت مسألة توريث العمل في هذه المجالات أهميتها، بل كان أبناء «العائلات العريقة» من أوائل الذين بحثوا لأنفسهم عن مهن مختلفة عن مهن آبائهم. وكما هو معروف فقد اختصت المحاكم اليهودية ببحث قضايا الأحوال الشخصية فقط، ولذلك كان لزاما على اليهود أن ينظروا سائر قضاياهم أمام المحاكم الفرنسية ـ إذا كانوا من الرعايا الأوروبيين ـ أو المحاكم المغربية إذا كانوا من رعايا المغرب. وشعر اليهود بأن هذه التفرقة بين من ينعمون برعاية الدول الأوروبية ومن ينعمون برعاية المغرب تلحق الضرر بأوضاعهم، لاسيما أن المحاكم المغربية كانت تصدر أحكامها بما يتماشى مع الشريعة الإسلامية، أضف إلى هذا أنه حينما كانت تحدث أي نزاعات أو خلافات بين المسلمين واليهود، فلم يكن لليهود أي أمل في أن يحظوا بموقف عادل من قبل القضاة المسلمين* وتمثل المخرج الوحيد من هذه الأزمة في تطبيق

* هذا القول فيه مبالغة من المؤلف، لأن القضاة المسلمين كانوا دائما يحكمون بالشرع دون تمييز بين مسلم ويهودي متأسين في ذلك بموقف الرسول صلى الله عليه وسلم في مواقف كثيرة حكم فيها بين يهود ومسلمين ـ (المراجع).

القانون المدني الفرنسي على كل اليهود، ولكن الفرنسيين الذين كانوا على وعي كامل بتردي الأوضاع في المحاكم المغربية رفضوا هذا المطلب، ومع هذا تعهدوا لليهود بالعمل على تحسين أوضاع المحاكم الإسلامية، وبإدخال بعض بنود القوانين الفرنسية عليها، كما عارض الفرنسيون بشدة كل المبادرات الهادفة إلى منح حق المواطنة الفرنسية لليهود، وكانت المبررات التي طرحها الفرنسيون لتبرير رفضهم شديدة الشبه بالادعاءات نفسها التي طرحتها السلطات الفرنسية في حينها لتبرير رفضها منح الجنسية الفرنسية ليهود تونس، ومع هذا كان وضع فرنسا في المغرب مختلفا حيث لم تواجه فرنسا في المغرب أية ضغوط مثل تلك التي تعرضت لها من قبل إيطاليا في تونس والتي دفعتها ـ كما أشرنا من قبل ـ لتبني موقف مرن إزاء مسألة حصول اليهود على الجنسية الفرنسية.

وبررت فرنسا رفضها أيضا بأن أعلنت أنها تتمسك بميثاق مدريد «الذي نص على أن يهود المغرب من رعايا السلطان». كما أعلنت أن تمسكها بهذا الميثاق لا يتيح لها حق إدخال أي تغييرات على بنية المجتمع المغربي. ومع هذا يمكننا تصور أن كل هذه الضغوط التي تحدثت عنها فرنسا في حينها لم تكن سوى ذرائع لتبرير موقفها، لاسيما أن الفرنسيين لم يترددوا في أحيان كثيرة في إحداث العديد من التغييرات في المغرب التي أضرت بدورها ببنية المجتمع، فسعى الفرنسيون على سبيل المثال إلى التفرقة بين البربر والعرب عبر إحياء قوانين البربر السابقة على دخول المسلمين للمغرب. أما اليهود فلم تر فرنسا أن مصالحها تلزمها بتحسين أوضاعهم، وفي المقابل فقد استغلت فرنسا البربر لاستخدامهم ضد الاتجاهات القومية العربية.

وإذا كان يمكننا على هذا النحو تفهم الأسباب التي جعلت الفرنسيين يعارضون بشدة منح الجنسية الفرنسية ليهود المغرب، فلا شك أنه كان للوجود الفرنسي في المغرب أكبر الأثر في تحسن أحوال اليهود، فألغيت في عهد الاحتلال الفرنسي للمغرب كافة القيود التي فرضت عليهم إبان العصور الوسطى، أضف إلى هذا أن يهود المغرب لم يتعرضوا إلا في حالات قليلة للغاية لاضطهاد السكان.

ليبيا

وعند الحديث عن السياسة التي انتهجتها إيطاليا إزاء يهود ليبيا، يتضح لنا أن هناك أوجه شبه عديدة بين سياستها والسياسة التي انتهجتها فرنسا إزاء يهود الجزائر وتونس والمغرب، ومع هذا يمكننا الإشارة إلى أنه كانت هناك بعض الاختلافات التي تكمن أسبابها في:

١ ـ الصعوبات التي واجهتها إيطاليا في السيطرة على منطقتي طرابلس وغربان، فرغم أن إيطاليا دخلت ليبيا في عام ١٩١١ فإن سيطرتها ظلت مقصورة على منطقة طرابلس فقط ولم تنجح إيطاليا في فرض سيطرتها على ليبيا إلا بعد انتهاء الثورة العربية في منطقة غربان في عام ١٩٣١. ولم تمض سوى أعوام قليلة على هذه السيطرة حتى أضحت إيطاليا حليفة لهتلر مما حول ليبيا إلى ساحة قتال بين جيوش إنجلترا وألمانيا، وقد انتهت سيطرة إيطاليا على ليبيا في عام ١٩٤٣ بعد أن ألحقت قوات مونتجمري الهزيمة بقوات روميل.

٢ ـ التغييرات المستمرة التي طرأت على النظام في إيطاليا بعد نجاح موسوليني في الوصول إلى السلطة في عام ١٩٢٢. وبينما لم تتبن الحركة الفاشية في بدايات عهدها موقفا معاديا لليهود إلا أنه كلما كانت تتزايد قوة العلاقة بين موسوليني وهتلر كان يشتد في المقابل موقف السلطة الاستعمارية الإيطالية إزاء اليهود، ولذلك يشكل عام ١٩٣٨ نقطة تحول في تاريخ يهود ليبيا، إذ طبقت في هذا العام بعض القوانين المعادية لليهود.

واتسمت السياسة الإيطالية تجاه اليهود طيلة الفترة السابقة لظهور النظام الفاشي بعدم الوضوح، بل وبالتخبط بين وجهتي نظر رئيسيتين إحداهما ليبرالية داعية إلى تطوير أوضاع اليهود السياسية والثقافية، وأخرى محافظة براجماتية معارضة لمبدأ تفضيل اليهود على العرب. وتخوف أصحاب وجهة النظر هذه من اتخاذ أي إجراء في مصلحة اليهود خشية أن يثير مثل هذا الإجراء غضب السكان المسلمين الذين كانوا يشكلون بطبيعة الحال غالبية السكان.

وآمن الإيطاليون، كما حدث مع الفرنسيين من قبل، بأن تطور أوضاع اليهود

السياسية والثقافية يرتبط إلى حد كبير بتقليص صلاحيات الحكم الذاتي الممنوحة للطائفة، ولذلك قلصوا في عام ١٩١٢ صلاحيات المحكمة اليهودية الحاخامية في طرابلس، وجعلوها مقصورة على بحث قضايا الأحوال الشخصية والمواريث. وكانت الأحكام التي تصدرها هذه المحاكم، على خلاف ماحدث في البلدان التي سقطت تحت الاحتلال الفرنسي، تنفذ فور صدورها شريطة أن تكون متماشية مع روح وبنود القانون الإيطالي.

وأثار هذا الشرط حالة عارمة من الغضب في أوساط اليهود الذين نجحوا بعد جهود عديدة في إجبار إيطاليا في عام ١٩٢١ على إلغاء هذا القانون. وتبنى الإيطاليون في ليبيا بعض المواقف الشبيهة بالمواقف التي تبناها الفرنسيون في الجزائر، فأعطت إيطاليا يهود ليبيا الذين كانوا من رعاياها أو من رعايا الدول الأوروبية مكانة بارزة في مسيرة إصلاح الطائفة، فنص القانون الصادر في عام ١٩١٦ الخاص بتنظيم الطائفة اليهودية في طرابلس أنه من الضروري أن يكون كبير حاخامات ليبيا من أصل إيطالي، وكما كان حق دخول مجلس الطائفة مقصورا على المواطنين الذين من رعايا إيطاليا، فكان يحق لمن يعرفون فقط اللغة الإيطالية ترشيح أنفسهم لمنصب رئيس أو سكرتير لجنة الطائفة.

والجدير بالذكر أنه على خلاف المواقف التي تبناها حاخامات المجالس اليهودية في الجزائر رأى الحاخامات الإيطاليون الذين قدموا إلى ليبيا أنه يتعين عليهم الحفاظ على التقاليد اليهودية في ليبيا، والعمل على تطوير الطائفة اليهودية بها، ووضعها على درب الحداثة. وفوجئت السلطات الإيطالية من موقف هؤلاء الحاخامات الذين عارضوا كافة الإجراءات التي اتخذتها إيطاليا، لإحساسهم بأنها تلحق أشد الضرر بتعاليم الديانة اليهودية، فأعرب الحاخام إيليا صموئيل هارتوم في عام ١٩٢١ على سبيل المثال عن تأييده لموقف الطائفة اليهودية في ليبيا المعارض لأحد الأحكام التي أصدرتها المحكمة الإيطالية والتي أجازت زواج فتاة يهودية من ضابط غير يهودي دون الحصول على موافقة والديها، كما هاجم الحاخام جوستافو كاسنلبولونيسي في عام ١٩٣٣ المرسوم الذي أجبر اليهود على إرسال أطفالهم إلى المدارس يوم السبت، واستمر الحاخام في تبني موقفه هذا حتى أصدرت السلطات الإيطالية أمرا بترحيله من ليبيا.

وكانت قضية احترام قداسة يوم السبت واحدة من بين القضايا التي تسببت في دخول اليهود في صدام مع السلطة التي لم تتوقف عن التدخل في شؤون الطائفة اليهودية، واكتسبت هذه القضية في نهايات عام ١٩٣٥ بعدا جديدا إذ أصدرت السلطات في هذا الحين مرسومين أجبرا أصحاب المحال اليهودية المقيمين بالحي الجديد في طرابلس على افتتاح محالهم يوم السبت. وأثار هذا الموقف غضب يهود ليبيا بل وكافة الطوائف اليهودية في كل العالم، ومع هذا لم يكن من شأن هذه الثورة أن تثني السلطات عن موقفها، فقامت السلطات بمصادرة تراخيص التجار اليهود الذين أصروا على عدم العمل في هذا اليوم، بل واعتقلت أيضا بعض الذين رفضوا الاستجابة إلى أوامرها. وبينما يسلم الجميع بأن هذين المرسومين صدرا نتيجة لحالة التقارب التي سادت آنذاك بين موسوليني وهتلر، إلا أنه من المرجح أن دافع صدور هذين المرسومين لم يكن مرجعه ماحدث في روما من تقارب مع هتلر، وإنما كان مرجعه الرغبة في تكثيف النشاط الاقتصادي في طرابلس. وقد عللت الصحيفة الرسمية الفاشية في طرابلس هذه الإجراءات بقولها:

«إن طرابلس الحديثة الأوروبية التي شيدها الإيطاليون على نحو يجعل أسلوب حياتها شديد الشبه بأسلوب حياة المدن المتطورة الواقعة في مملكتنا، عاصرت خروج التجار اليهود من أسوار المدينة القديمة، واختيارهم للأماكن المناسبة والممتازة بغرض أن يؤسسوا فيها محالهم الحديثة، وفروعا مختلفة للسوق، بما يخدم حركة التجارة المحلية. ولكن وجه الفوضى يكمن في أن هذه المدينة الإيطالية الحديثة أخذت في بعض الأحيان طابع المدن اليهودية التي نذكر من بينها على سبيل المثال مدينة تل أبيب، ففي يوم السبت تغلق محال اليهود دون أدنى اعتبار لاحتياجات السكان» (نقلا عن صحيفة Avvenire di Tripoli عدد ١٥ نوفمبر ١٩٣٦).

ووافق موسوليني عند زيارته لليبيا في عام ١٩٣٧ على الالتقاء بمندوب الطائفة اليهودية، وذكر موسوليني عند التقائه بكبير الحاخامات الدو لاطس أنه بمقدور يهود ليبيا العيش في هدوء، وأن الحكومة الفاشية ستحترم تقاليدهم، فألغيت في هذا العام كل العقوبات المفروضة على التجار اليهود من قبل الحاكم بالبو، مما ساعد كبير الحاخامات على حل بعض المشكلات الاجتماعية الصعبة التي واجهها سكان الحي اليهودي.

كانت أوضاع يهود مصر السياسية والاجتماعية متباينة أشد التباين عن أوضاع سائر الطوائف اليهودية في شمال أفريقيا، وكان مرجع هذا الاختلاف أن السياسة التي طبقتها بريطانيا، وعلى خلاف سياسة كل من فرنسا و إيطاليا في دول شمال أفريقيا، قللت إلى أقصى حد ممكن من حجم التدخل في شؤون الطائفة في مصر. وإذا استثنينا إلغاء بريطانيا لضريبة الرأس، والأثر الذي تركته المحاكم الأهلية التي تشكلت في عام ١٨٨٣ على أسس علمانية، فيحق لنا قول إن البنية التنظيمية للطائفة اليهودية في مصر تطورت على نحو مستقل و إن التحولات التي شهدتها الطائفة في العصر الحديث كانت استمرارا للتحولات نفسها التي شهدتها الطائفة من عهد محمد علي. وأسهمت العديد من العوامل في تميز يهود مصر عن سائر يهود شمال أفريقيا، كان من بينها أن نحو نصف يهود مصر كانوا ينعمون برعاية الدول الأجنبية، وقد ظل يهود مصر ينعمون بالعديد من الامتيازات الخاصة حتى تم إلغاء هذه الامتيازات بموجب اتفاقية مونترو في عام ١٩٣٧. وحينما منحت بريطانيا مصر في عام ١٩٢٢ الاستقلال لم يتسبب هذا الأمر في تدهور أوضاع اليهود السياسية، فحظي يهود مصر منذ عام ١٩٢٤ بحق التمثيل النيابي في كل من القاهرة والإسكندرية. وكان من بين مظاهر حصول مصر على الاستقلال أن الطائفة اليهودية في مصر أصدرت في عام ١٩٢٦ تشريعات جديدة كان من بينها أنه من الضروري أن تضم لجنة الطائفة المكونة من ثمانية عشر عضوا ستة يهود من حاملي الجنسية المصرية.

وكانت البنية التنظيمية للطائفة اليهودية في مصر متشعبة للغاية، بالمقارنة بلجان الطوائف اليهودية في سائر بلدان شمال أفريقيا فلم تقتصر أنشطة الطائفة على بحث القضايا الدينية، بل شملت تأسيس المدارس والمؤسسات الصحية تلك الأنشطة التي كانت تقوم بها السلطات أو الجهات الأجنبية الأخرى مثل جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء». ونجح يهود مصر في ممارسة كل هذه الأنشطة بفضل أثرياء الطائفة الذين لم يتوقفوا عن ممارسة الأنشطة الخيرية، فأسست عائلة دي منشه في عام ١٨٩١ مستشفى يهوديا في الإسكندرية، كما أسست طائفة مستشفى آخر في القاهرة في نهايات الحرب العالمية الأولى.

وبالإضافة إلى مبادرات لجان الطوائف المختلفة وقادتها يجب ألا نغفل أنشطة المنظمات الخيرية مثل منظمة «بني بريت» التي مارست أنشطتها الخيرية في كل من القاهرة والإسكندرية منذ عام ١٨٩١، وأنشطة بعض المنظمات الطائفية مثل رابطة «الشباب» الإشكنازية ورابطتي «مهاجري كورفو» و«اتحاد اليهود الشرقيين». وحرصت كل هذه المنظمات والروابط على تقديم يد العون والمساعدة للمحتاجين عن طريق إقامة بعض المؤسسات الخيرية والملاجىء لخدمة المسنين مثل «مهر العذارى» و«نقطة اللبن» و«الصدقة في السر»، أو عن طريق بعض المبادرات الخاصة التي كان لها طابع ثقافي، والتي شملت تأسيس المكتبات الثقافية والعمل على نشر اللغة العبرية. وكانت الطائفة اليهودية في مصر على قدر عال من الكفاءة التنظيمية، فنجحت على سبيل المثال خلال الحرب العالمية الأولى في استيعاب أعداد كبيرة من اللاجئين الذين تدفقوا على مصر من اليمن والقسطنطينية وأزمير وسالونيكا وكورفو ورومانيا. وجدير بالذكر أنه فر إلى مصر بعد نشوب هذه الحرب نحو أحد عشر ألف لاجىء يهودي من فلسطين، ولذلك تأسست في كل من القاهرة والإسكندرية العديد من اللجان الخيرية التي عملت على تقديم المساعدة لهؤلاء اللاجئين، ولا شك في أن مجيء هؤلاء اللاجئين من فلسطين أدى إلى تزايد قوة الأنشطة اليهودية في أوساط يهود مصر، وإلى تزايد اهتمام المؤسسات الصهيونية بمصير الطائفة اليهودية في مصر.



الفصل الثاني

الحداثة الاستعمارية وتأثيرها في مسيرة التطور الاجتماعي ليهود شمال أفريقيا

صاحب احتلال القوى الأوروبية لبلدان شمال أفريقيا، وكما حدث في أماكن أخرى عديدة في العالم، العديد من التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية كان من أبرز مظاهرها اتساع حركة الهجرة إلى المدينة، وتزايد قوة حركة التصنيع، وتغيير المهن، وتحسن الظروف الصحية، وتزايد نسبة المواليد، وانتشار التعليم الغربي، وظهور أنماط جديدة من السلوك الاجتماعي.

وشهد بعض يهود شمال أفريقيا مثل هذه التحولات قبل بدايات الفترة الاستعمارية، ولذلك لم يشعر يهود مصر، على سبيل المثال، بأن احتلال بريطانيا لمصر يشكل بدايات عهد جديد، وإنما رأوا أن هذا الاحتلال يعد استمرارا للواقع الاجتماعي، والواقع الثقافي نفسيهما اللذين شهدا تحولات عديدة حدثت في مجملها ملامح الطائفة اليهودية في مصر، ومن المثير أن نلاحظ في هذا المجال أن الاحتلال البريطاني لمصر لم يترك أثره في مجال اللغة حيث ظل يهود مصر يستخدمون اللغة الفرنسية في أوساطهم حتى بعد احتلال بريطانيا لمصر في عام ١٨٨٢.

وتختلف مسيرة تطور المجتمع اليهودي في مصر في ظل الاحتلال عن نظيرتها في أوساط يهود الجزائر وتونس والمغرب، وبغض النظر عن تباين المصالح الاستعمارية الفرنسية عن نظيرتها البريطانية، فقد انتهجت كل قوة في مستعمراتها سياسة متباينة عن الأخرى. فبينما اكتفت بريطانيا بفرض سيطرتها على المجالين الاقتصادي والإداري في مصر رأت فرنسا أنه يتعين عليها إحداث تغييرات جذرية في بلدان شمال أفريقيا التي احتلتها فأسست مجتمعا ذا طابع حديث في كل بلد من البلدان التي وقعت تحت سيطرتها، وكان للسياسة

الاستعمارية على هذا النحو تأثيرها في مسيرة الحداثة في أوساط يهود بلدان المغرب العربي، وبرز هذا التأثير في هذه البلدان أكثر من تأثيره في يهود مصر.

ورغم أن فرنسا أدلت بتصريحات كثيرة بشأن ضرورة تطوير هذه المجتمعات فإن التغييرات التي أدخلها الفرنسيون لبلدان شمال أفريقيا كانت موجهة في المقام الأول لخدمة المصالح الفرنسية أو المستوطنين الأوروبيين، فحصر الفرنسيون كل جهودهم في المناطق الساحلية التي أقاموا بها فمهدوا بها الطرق، كما شيدوا بها خطوط السكك الحديدية والمؤسسات الصناعية والتعليمية، وفي المقابل لم يهتموا بالمناطق الداخلية باستثناء تلك الأماكن التي جذبت اهتمام المستوطنين الأوروبيين.

ولم تكتف القوة الاستعمارية برسم حدود وأطر مسيرة الحداثة، بل حددت أيضا النهج الذي من الواجب اتباعه، وتجدر الإشارة هنا إلى أن فرنسا كانت تعيش آنذاك في حالة من التخلف، وأنها تعاملت مع اقتصاد مستعمراتها من منظور أنه اقتصاد مكمل لفرنسا، ولذلك اكتفت على مدى فترة طويلة بفرض سيطرتها الاقتصادية على المجال الزراعي، ولم تهتم فرنسا في الحقيقة بتطوير الجانب الصناعي من اقتصاد مستعمراتها إلا منذ عام ١٩٢٠، كما أولت هذا الجانب اهتماما أكبر منذ نهايات الحرب العالمية الثانية. وكان المغرب واحدا من أكثر بلدان المغرب العربي التي حظيت باهتمام السلطات والمستثمرين الفرنسيين لما عرف عنه من وفرة ملحوظة في الثروات الطبيعية، كما كان المغرب من أكثر بلدان شمال أفريقيا التي شهدت في العصر الحديث العديد من التغيرات الديموغرافية الحادة، فبينما كان تعداد السكان في مدينة الدار البيضاء يقدر في عام ١٩١٢ بخمسين ألف نسمة وصل تعدادها السكاني في بداية الخمسينيات إلى مليون نسمة، وكما هو معروف فكانت هذه المدينة في العصر الحديث واحدة من أهم المراكز اليهودية الضخمة التي جذبت إليها أعدادا كبيرة من اليهود.

وألحق الاحتلال الفرنسي بشكل عام أضرارا بالغة باقتصاديات هذه البلدان فتعرض اليهود الذين اشتغلوا بتقديم القروض وبالتجارة إلى أضرار بالغة خاصة في السنوات الأولى التي أعقبت الاحتلال الفرنسي، وكان أبناء الطبقة البرجوازية اليهودية في الجزائر من أوائل ضحايا هذا الوضع حيث عجزوا عن منافسة أصحاب المتاجر الفرنسية والمستوطنين الفرنسيين، مما أدى إلى إفلاسهم، ومع حلول نهايات

القـرن التاسع عشر لم يعـد بـالجزائر أي وجود للعـائلات اليهـودية التي سيطـرت في الماضي على الحياة الاقتصـادية وعلى حيـاة الطائفة ، والتي كـان من أبرزهـا : عائلات بكري وبوجناح ودوران .

أما في المغـرب وتونس فقـد نجحت البرجوازيـة اليهودية في التكيف مـع الوضع الجديـد الـذي ظهـر في الفترة الاستعمارية ، وكـان من بين أسبـاب هـذا النجـاح أن السياسة التي انتهجتها فرنسا في هـذين البلدين اختلفت عن السياسة التي انتهجتها في الجزائر، بالإضافة إلى أن العائلات اليهوديـة في هذين البلدين كانت على قدر كبير من القوة والنفوذ، فكانت أنشطتها الاقتصاديـة قبل الاحتلال الفرنسي قوية للغاية ، وسـاد وضع شبيـه لهذا الـوضع في كل من ليبيـا ومصر، حيث نجحت البرجـوازيـة اليهودية في هذين البلدين في الحفاظ على مكانتها والاستمرار في العمل .

وعاد الهدوء تـدريجيا إلى حيـاة هذه الطـوائف بعد أن تجاوزت مـرحلة انهيـار الأسس التقليدية التي كانت تتبعها ، وكان عامل الـزمن كفيلا باجتياز هذه المرحلة فكان احتلال الفرنسيين للجزائر على مدى مائة وثـلاثين عاما كفيلا بتمكين المجتمع اليهودي من تبني أساليب حياة جديدة بدلا من تلك التي انهارت بعد التقاء اليهود بالثقافة الغربية .

أما المغرب فلـم يستقر به الفرنسيون إلا لأربعين عـاما فقط ، الأمر الـذي كان له أثره في عدم اكتمال مرحلة الاستقرار الداخلي في المجتمع اليهودي ، أضف إلى هذا أن رحيل الأوروبيين عن المغرب تزامن مع الفترة التي بدأ فيها يهود المغرب في الرحيل إلى إسرائيل . ولم ينجح المجتمع اليهـودي في المغـرب في خلق أنماط تنظيميـة ومؤسسيـة مستقرة لحالة الترحال الدائمة التي كانت عليها الطائفة اليهودية في المغرب .

وسنحاول في هـذا المجال تعرُّف أهـم التحولات التي طـرأت على حياة يهود شمال أفريقيا خلال الفترة التي هي محل بحثنا ، وهذا بعد أن نتعرف المعطيات التالية ، التي قسمناها وفقا للبنود التالية :

١ ـ الزيادة الطبيعية والتوزيع الجغرافي .

٢ ـ التوزيع المهني .

٣ ـ تطور التعليم الأوروبي .

أعداد اليهود

اتسمت الفترة الواقعة بين احتلال فرنسا للجزائر ونهاية الحرب العالمية الثانية بتزايد تعداد اليهود في كل بلدان شمال أفريقيا، فقدرت الزيادة في الجزائر خلال عامي ١٨٣٠ ـ ١٩٤١ بسبعة أضعاف عما كانت عليه من قبل، كما قدرت الزيادة في تونس خلال عامي ١٨٨١ ـ ١٩٤٦ بأربعة أضعاف، وكانت الزيادة تربو على الضعف في مصر خلال الفترة الممتدة من عام ١٨٩٧ حتى عام ١٩٤٧، وينطبق الوضع نفسه على كل من المغرب وليبيا خلال الفترة ١٩١١ ـ ١٩٤٧ (انظر الجدول رقم ١).

ورغم هذه الزيادة السريعة في تعداد اليهود فإن اليهود لم يشكلوا أكثر من ٣,٥٪ من تعداد السكان، ولكن كان تعدادهم بالمقارنة بالسكان الأوروبيين في هذه البلدان مناسبا للغاية فشكلوا في مصر ٢٥٪ من تعداد السكان الأجانب في عام ١٨٩٧، كما شكلوا في تونس خلال عامي ١٩٢٦ ـ ١٩٤٦ ما يتراوح بين ٢٧٪ و٣٠٪ من مجمل تعداد الأجانب، وشكلوا في الجزائر في عام ١٩٤١ نحو ١٥٪، وشكلوا في المغرب خلال الفترة (١٩٢١ ـ ١٩٤٧) مايتراوح بين ٤٠٪ و٦٠٪.

واستوطنت أعداد كبيرة من اليهود في مناطق معينة ـ خاصة المدنية منها ـ مما قضى على حقيقة أنهم يشكلون أقلية في المجتمع، ومما خلق إحساسا سواء في أوساط اليهود أو الآخرين بأن لهم وجودا قويا، وقد شكل يهود المغرب على سبيل المثال عشية الحرب العالمية الأولى ١٠٪ من التعداد الكلي للسكان في المدن الخمس الضخمة التالية: الدار البيضاء، مراكش، فاس، مكناس، الرباط، كما كان لليهود وجود قوي في بعض المدن الواقعة بجنوب المغرب مثل مدينتي أربود وريساني، إذ شكلوا في هاتين المدينتين غالبية السكان. أما في ليبيا فقد شكل يهود طرابلس نحو ٣٤,٥٪ من التعداد الكلي للسكان في عام ١٩١٧، ولكن نسبتهم في المجتمع تضاءلت في الثلاثينيات من هذا القرن إذ شكلوا في هذا الحين ٢٠٪ من تعداد السكان.

وشاعت خلال هذه الفترة التي هي محل البحث ظاهرة الهجرة اليهودية إلى المدن، تلك الظاهرة التي ترجع بداياتها إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر فعاش في عام ١٨٩٧ نحو ٨٥٪ من يهود مصر في القاهرة والإسكندرية، ووصلت

هذه النسبة في عام ١٩١٧ إلى ٩٠٪، ثم ارتفعت في عام ١٩٤٧ لتصل إلى ٩٨٪. أما في ليبيا وتونس فقد عاش نحو ٦٠٪ من يهود البلدين في العاصمتين طرابلس وتونس، أما في الجزائر فقد عاشت النسبة نفسها من اليهود في المدن الثلاث الرئيسية بالجزائر وهي: الجزائر ووهران وقسطنطينة، كما عاش ٦٠٪ من يهود المغرب في مدن الدار البيضاء ومراكش وفاس ومكناس والعاصمة الرباط، وعاش ٢٥٪ من يهود المغرب في نحو عشرين مدينة أخرى، وعاش ١٠٪ منهم فقط في ضواحي الريف.

وشهد العصر الحديث أيضا رحيل أعداد كبيرة من اليهود عن أحيائهم التقليدية، إما لظاهرة تكدس هذه الأحياء أو نتيجة لتزايد قوة مسيرة الحداثة التي شجعت أعدادا كبيرة منهم على الخروج من أحيائهم التقليدية والعيش في الأحياء الجديدة التي تم توطين الأوروبيين بها، ففي طرابلس على سبيل المثال عاش نحو ٤٠٪ من مجمل السكان اليهود منذ عام ١٩١٧ خارج الحارة الكبيرة والحارة الصغيرة. أما في المغرب فقد ترك نحو نصف السكان اليهود الأحياء التقليدية قبيل الحرب العالمية الثانية.

ورغم حدوث هذا التحول فإن الأحياء التقليدية في كل هذه البلدان ظلت تشكل مركز جذب للمهاجرين، فشيدت بالقرب من هذه الأحياء أحياء جديدة أقامت بها أعداد كبيرة من اليهود. ومن الملاحظ أنه كلما كانت تتحسن أوضاع اليهود الاجتماعية والاقتصادية، كانت تتزايد في المقابل ظاهرة ابتعادهم عن الأحياء التقليدية. وتجدر الإشارة هنا إلى أن الطائفة اليهودية في مكناس شيدت في عام ١٩٢٤ أحد الأحياء الجديدة بغرض وقف مسيرة رحيل اليهود عن أحيائهم القديمة إلى المدن الحديثة.

وكان للتحسن العام الذي طرأ على الأحوال الصحية أكبر الأثر ليس فقط في معدلات الزيادة الطبيعية، إنما أيضا في متوسط أعمار السكان اليهود ففي المغرب على سبيل المثال كان ٤٥٪ من تعداد اليهود في عام ١٩٥١ دون الخامسة عشرة، كما قدر عدد يهود ليبيا الذين كانوا دون هذه السن في عام ١٩٣٦ بـ ٤٠٪ من مجمل تعداد اليهود. (وقد كانت النسبة في أوساط المسلمين تقدر بـ ٣٤٪). وكانت هذه النسبة في تونس في عام ١٩٤٧ تقدر بـ ٣٤٪، كما كانت تقدر بنحو ٣٠٪ في الجزائر في عام ١٩٤١. ومن الملاحظ أن الانخفاض الذي طرأ على معدل الوفيات تزامن مع حدوث انخفاض في نسبة المواليد خاصة في أوساط الطبقتين المتوسطة والعليا.

وكان من بين مظاهر تأثير مسيرة الحداثة في يهود هذه البلدان أنه ارتفعت في أوساطهم سن الزواج، وهذا على خلاف المسلمين الذين شاعت في أوساطهم ظاهرة الزواج في سن مبكرة، فشاعت في أوساط يهود ليبيا ظاهرة تجنب الزواج في سن مبكرة، فكان ١٥٪ من الفتيات اليهوديات في ليبيا ممن تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والتاسعة عشرة متزوجات في عام ١٩٣٦، ولكن كانت النسبة في أوساط المسلمين تقدر بـ٣٩,٨٪. أما في المغرب فيفيد الإحصاء السكاني الذي أجري في عام ١٩٥١ أن إحدى عشرة فتاة فقط من بين كل عشرة آلاف فتاة كن متزوجات، وكانت أعمارهن دون الرابعة عشرة، ة ولكن كانت نسبة المتزوجات في المجتمع الإسلامي أضخم بكثير، إذ كانت هناك ٢٢٤ فتاة متزوجة من بين كل عشرة آلاف فتاة.

وجدير بالذكر أن الكثيرين طلبوا من حاخامات المغرب بحث مسألة الزواج في سن مبكرة، ولذلك أصدر هؤلاء الحاخامات في عام ١٩٣٤ تشريعا حظر زواج الفتيات اللاتي هن دون الثانية عشرة من العمر، ثم أصدروا في عام ١٩٤٨ تشريعا جديدا حظر زواج الفتيات اللاتي هن دون الرابعة عشرة.

وشاعت في الجزائر ظاهرة الزواج المختلط، إذ أظهر الإحصاء السكاني الذي أجرته سلطات فيشي في الجزائر في عام ١٩٤١ أن هناك مايربو على ألفي زيجة مختلطة في مدن الجزائر ووهران وقسطنطينة.

مهن اليهود

ويعد التطرق إلى موضوع المهن التي اشتغل بها اليهود من أشق موضوعات البحث، إذ لا توجد في حوزتنا أي معطيات من شأنها مساعدتنا على تعرف ملامح كل فترة من فترات التطور الاقتصادي ليهود شمال أفريقيا. أما المعلومات المتوافرة فهي تتسم بوجود فروق ضخمة بين بلد وآخر سواء من ناحية المصطلحات أو التعريفات الخاصة بالمهن للدرجة التي يصعب معها المقارنة بين مهن الطوائف المختلفة. أضف إلى هذا أن بعض المصطلحات المهنية تغيرت في بعض الأماكن من عصر إلى عصر. أما عن إمكان الاعتماد على الإحصائيات السكانية فلم تتطور هذه الإحصائيات بشكل ملموس إلا بعد الحرب العالمية الثانية وحينما أُجري الإحصاء

السكاني في عـامي ١٩٥١ و١٩٦٠ فقد كانت أعداد كبيرة من اليهـود قد رحلت عن المغرب إما لفلسطين أو لفرنسا، ولذلك فإن المعطيات التي سجلها الإحصاءان ذات أهمية محدودة للغاية بالنسبة لفترة ما قبل الحرب.

ويمكننا على كل حال حصر أهم التحولات التي شهدها يهود شمال أفريقيا حتى نهايات الحرب العالمية الثانية في:

١ ـ انخفاض عدد المشتغلين في المهن «التقليدية» مثل المهن اليدوية والتجارة.

٢ ـ تزايد عدد الأجراء.

٣ ـ تزايد عدد النساء العاملات خارج الإطار الأسري.

٤ ـ ظهور طبقة وسطى من أصحاب المهن الحرة والموظفين.

٥ ـ تزايد أهمية التعليم الغربي وتحوله إلى معيار رئيسي في الحياة الاجتماعية.

وسنرى فيما بعد إذا ما كانت هذه التغيرات قد أثرت في مسيرة التطور الاقتصادي لكل طائفة.

مصـر

لا شك أن يهود مصر كانـوا من أكثر يهود شمال أفـريقيا الـذين انخرطـوا بأعداد كبيرة في القطـاع الاقتصادي الحديث الـذي شهـد تطـورا ضخما منذ النصف الثـاني للقرن التاسع عشر. ونتيجة لأن معظم يهود مصر كانوا من المهاجرين، فلم يجدوا أي صعوبة في التخلص سريعا من أشكال العمـل التقليدية، أضف إلى هذا أنهم تمكنوا من التفوق سريعـا في الحياة الاقتصـادية، كما كان من بين العـوامل التي أسهمت في نجاحهم الاقتصـادي في مصر أن معظمهم كانـوا ممن هاجـروا إلى مصر خلال الفترة التي ازدهر فيها الوضع الاقتصادي، والتي منحت فيها كافة الأقليات الأجنبية عددا لا بأس به من الامتيازات.

ويفيد الإحصاء السكاني الذي أجري في عام ١٩٣٧ أن نحو ٦٠٪ من يهود مصر، أي نحو ثلثي يهود مصر، اشتغلوا بالتجـارة، ولكن كان معظمهم من التجار الصغار،

ومع هذا فإن أهم مـايميز تاريخ يهود مصر في العصر الحديث أن أعـدادا ضخمة منهم اشتغلت في البنوك والشركات المالية، وفي مجال الصناعة التي جذبت بمفردها ٢١٪ من التعداد الكلي للموظفين اليهـود. وأسهم يهود مصر في تطوير صناعـة الغزل والنسيج، ومصانع السكر، وفي تشييد خطوط السكك الحديدية، وفي إدارة بعض البنوك الضخمة في مصر مثل البنك الإنجليزي المصري (والمعـروف حاليـا باسم البنك الأهلي المصري)، والبنك المصري للقـروض، والبنك الـزراعي. وظهـرت خـلال هـذه الفترة طبقـة من الرأسماليين اليهـود كان من أبرزهم عـائلات قطاوي، ودي منشه وهـاده، وموصيري، وهراري، ورولو، وسوارس، وشيكوريل ومندلباوم وهوروفيتس.

وظهرت أيضا الطبقة الـوسطى التي كانت تضم أصحاب المهن الحرة مثل المحامين والأطباء والمدرسين والمهندسين والموظفين، ويفيد الإحصـاء الذي أجري في عام ١٩٣٧ أن ٨, ١٠٪ من الموظفين اليهود اشتغلـوا في الجهات الإداريـة، ويوضح هـذا الإحصاء أيضا نصيب المرأة اليهودية في العمل، حيث أوضع الإحصـاء أنه كان لـ ٩٪ من النساء اليهوديات اللاتي جاوزن الخمسة عشر عـاما بعض الأنشطة الاقتصادية وبيّن الإحصاء نفسه أن ٨, ٣٣٪ منهن كن يشتغلن بالتجارة، وأن ٩, ٢٨٪ اشتغلن بالصناعة وأعمال البناء، وأن نحو ١٧٪ اشتغلن في مجال الخدمات الإدارية.

وبينما لم يتسبب إلغاء سياسة الامتيـازات في عام ١٩٣٧ في الإضرار باليهود إلا أن القانون الصادر في عام ١٩٤٧ بشأن تسوية وضع الشركات المصرية أضر كثيرا بيهود مصر، إذ نص هذا القانون أنه من الضروري أن يكون ٤٠٪ من أعضاء إدارة أي شركة تجارية أو مالية حاملي الجنسية المصريـة، وتسبب هذا القانون بالطبع في فصل أعداد كبيرة من اليهود من العمل في هذه الشركات، خاصة أن أعدادا بسيطة من يهود مصر كانت من رعايا مصر. وقد صدر هـذا القانون في مصر خلال الفترة التي تزايدت فيها قوة الاتجاهـات المعاديـة لليهود، وبعد أن تأسست دولـة إسرائيل وكان صـدور هذا القانون يمثل بدايات نهاية الوجود اليهودي في مصر.

وكانت الطائفة اليهودية في مصر تتميـز عن غيرها من الطوائف اليهودية في البلدان الإسـلامية بأنها كـانت الأكثر ثـراءً، ولكن كانت توجـد في داخلهـا العديـد من الفروق الاجتماعيـة، ولم تقتصر هذه الفروق على الفروق الاقتصـادية التي أدت إلى خلق

حالة من الانفصال بين فقراء الطائفة الذين عاشوا في الحارة والأثرياء الذين عاشوا في الأحياء الراقية في كل من القاهرة والإسكندرية، وإنما تزايدت نتيجة لبعض الخلافات الطائفية بين اليهود السفاراد واليهود الأشكناز، كما كانت هناك العديد من الخلافات والتناقضات السياسية التي حدثت نتيجة للاختلاف في الانتماءات الثقافية والسياسية. وعلى الرغم من أن الطائفة كانت تبدو للخارجين عنها في صورة الطائفة الموحدة فإنه حدثت على الصعيد الداخلي العديد من الخلافات بين العائلات الثرية العريقة التي توارثت مهمة إدارة الطائفة والجيل الصغير الذي كان ينتمي إلى الطبقة المتوسطة، والذي انتقد على صفحات الجرائد المحلية النظام المتبع في أوساط الطائفة.

ليبيا

اتسمت السنوات الأولى من الاحتلال الإيطالي لليبيا بتدهور أوضاع اليهود نتيجة لحالة الثورة العربية ضد الاحتلال والتي أسفرت عن تضاؤل قوة العلاقات بين الطوائف المختلفة، والإضرار بمستوى الحياة الاقتصادية، وكان من بين مظاهر حالة التدهور التي حلت على يهود ليبيا تزايد عدد الفقراء في أوساط الطائفة اليهودية في طرابلس التي تدفقت عليها أعداد ضخمة من اللاجئين الذين فروا من المناطق التي نشبت فيها المعارك، أما صغار التجار من اليهود فقد اضطروا لمنافسة المستوطنين الإيطاليين، والواردات الإيطالية رخيصة الثمن التي غمرت الأسواق المحلية.

وكان معظم يهود ليبيا ينتمون إلى الطبقتين المتوسطة والفقيرة، ورغم اشتغال غالبيتهم بالعديد من الأنشطة الاقتصادية فإن أعدادا كبيرة منهم عاشت على تبرعات أثرياء الطائفة.

ولم تبدأ سلطات الاحتلال الإيطالية في تطوير الأوضاع الداخلية في ليبيا وتأسيس المصانع بها إلا بعد أن استقرت الأوضاع في المستعمرة، وبعد ظهور النظام الفاشي في إيطاليا، ولكن سرعان ما توقفت حركة النهضة الصناعية نتيجة لنشوب الحرب. ونتيجة لأن ليبيا تحولت منذ عام ١٩٤٠ إلى ساحة للقتال بين جيوش المحور وقوات بريطانيا، فكان تأثير الفترة الاستعمارية على البنية الاجتماعية الاقتصادية ليهود ليبيا محدودا للغاية بالمقارنة بتأثير الفترة الاستعمارية في يهود شمال أفريقيا. وقد ظلت

أوضاع يهود ليبيا حتى نهايات القرن التاسع عشر كما كانت عليه من قبل إذ اشتغل نحو ٨٠٪ من يهود ليبيا حتى هذا الحين بالتجارة بكافة صورها. وفيما يتعلق بالتغييرات التي طرأت على أنشطتهم فكانت نتيجة أن الإيطاليين سمحوا لهم بالاشتغال في بعض المهن الجديدة، ومع هذا كان عدد اليهود الذين اشتغلوا في المهن الحرة أو الذين عملوا بالإدارة ضئيلا للغاية بالمقارنة بالوضع الذي ساد في دول شمال أفريقيا. ويفيد على سبيل المثال الإحصاء الذي أجري في عام ١٩٣٦ أنه لم يكن يوجد في أوساط يهود طرابلس سوى مهندس معماري واحد، ومهندس، وطبيب، ومدرسين ومائة وعشرين موظفا.

تونس

كان عدد المشتغلين من يهود تونس في عام ١٩٣١ يشكل ١٥٪ من التعداد الكلي ليهود تونس، ولكن ارتفعت هذه النسبة في عام ١٩٤٦ لتصل إلى ٢٨,٤٥٪، ولم تشمل هذه النسبة يهود تونس الذين كانوا من رعايا فرنسا أو إيطاليا، والذين كانوا يعتبرون كما كانت الحال عليه في دول شمال أفريقيا من الأوروبيين. وعلى كل حال كان عدد اليهود المشتغلين في تونس أقل بكثير من الأوروبيين.

وتفيد المعطيات التي في حوزتنا أن العصر الحديث شهد انخفاضا ملحوظا في عدد اليهود المشتغلين بالتجارة، فبينما قدرت نسبتهم في عام ١٩٣١ بـ ٣٨,٤٩٪ فإن هذه النسبة قدرت في عام ١٩٤٦ بـ ٣٣,١٪ فقط، وفي المقابل تزايدت في الفترة نفسها نسبة العمال اليهود فارتفعت من ٣٦,٢٪ إلى ٤٦,٥٪. وظهرت في الفترة نفسها طبقة جديدة من أصحاب المهن الحرة شكلت ٩٪ من تعداد السكان المشتغلين، ويوضح الإحصاء الذي أجري في عام ١٩٤٦ أنه كان يوجد في أوساط اليهود ١٧٥ طبيبا، و١٦٠ محاميا و٢٥٤ حاخاما وقاضيا ومدرسا. أما عدد المشتغلين من اليهود في الوظائف الحكومية فلم يشكل سوى ٦,١٪ من العدد الكلي للعاملين من اليهود، وقد عمل في مجال الزراعة نحو مائة يهودي.

وإذا وضعنا في اعتبارنا حقيقة أن نسبة كبيرة من يهود تونس كانت من رعايا الدول الأوروبية الذين تلقوا قدرا كبيرا من الثقافة الغربية الحديثة، والذين كانوا ينتمون

إلى الطبقة الثرية في المجتمع فإنه، يمكننا تصور أن عدد اليهود الذين اشتغلوا في المهن الحرة والإدارة كان أكبر بكثير من الأرقام الواردة في الإحصائيات.

الجزائر

كان لحرص اليهود الدائم على الاتصال مع فرنسا أثر محدود في البنية الاقتصادية للمجتمع اليهودي في الجزائر الذي حافظ على مدى فترة طويلة على بنيته التقليدية، ويكمن سبب هذا الأمر في أن مسيرة الحداثة اقتصرت حتى الحرب العالمية على المجال الزراعي الذي لم يشتغل به اليهود. ومن جهة أخرى كان من أبرز مظاهر تأثير الاحتلال الفرنسي في يهود الجزائر أنه سرعان ما تم القضاء على البرجوازية اليهودية التي كان لها وجود ملحوظ في المجتمع اليهودي قبل بداية الفترة الاستعمارية، فلم تظهر طبقة الأثرياء من اليهود إلا في بدايات القرن العشرين، ومع هذا لم يكن من شأن هذه الظاهرة تغير الانطباع السائد في أذهان الجميع عن تردي أوضاع اليهود. وبينما نعم يهود الجزائر بعد حصولهم على الجنسية الفرنسية بفرصة التمتع بكل الامتيازات في مجال التجارة فإن تزايد قوة الحركات المعادية للسامية في الجزائر لم يتح لليهود فرصة تحسين أوضاعهم، وإحراز المزيد من التقدم، كما زاد من حدة الوضع أنه تدفقت على الجزائر أعداد كبيرة من يهود المغرب وتونس مما أدى إلى تفشي البطالة في أوساط يهود الجزائر.

وكان عدد اليهود الذين اشتغلوا بالمهن اليدوية في الجزائر في عام ١٩٣١ أكبر بكثير من عدد اليهود الذين اشتغلوا في هذه المهن في سائر دول شمال أفريقيا (انظر جدول رقم(٥)، ويوضح الإحصاء الذي أجرته سلطات فيشي أن نسبة المشتغلين من يهود الجزائر كانت مرتفعة للغاية، وأنهم شكلوا ٢٧٪ من التعداد الكلي للعمال في الجزائر، فاشتغل نحو ٢٢٪ منهم في العديد من المهن مثل إنتاج المنسوجات (الذي ضم أعدادا كبيرة من اليهود) والدباغة وقطع الأشجار، وسك المعادن، كما أوضح الإحصاء نفسه أن ٣٠,١٪ منهم اشتغلوا بالزراعة، وأن ٤٪ منهم اشتغلوا بالمهن الحرة حيث اشتغل منهم ٢٣١ بالطب، و١٣٥ بالمحاماة، و٧٠ بطب الأسنان كما كان من بينهم تسعة وثمانون موظفا ونحو ستمائة مدرس. وتزايد عدد العاملين

من اليهود في الأجهزة الحكومية خلال الفترة ١٩٣١ ـ ١٩٤١ . فبينما قدرت نسبتهم في عـام ١٩٣١ بـ ١٧,٥٪ ارتفعت نسبتهم في عـام ١٩٤١ لتصل إلى ٨٠,٩٪، وشهدت الفترة نفسها انخفاضا مطردا في تعداد التجار اليهود فبينما قدرت نسبتهم في عام ١٩٣١ بـ ٣٣,٨٪ قدرت نسبتهم في عـام ١٩٤١ بـ ٣٠,٨٪، ولكـن قدرت خلال هذه الفترة نسبة العاطلين عن العمل بـ ١٤,٨٩٪ .

ويفيد الإحصاء الـذي أجري في عام ١٩٤١ أن مايربـو على ثلث نساء اليهود في الجزائر، خاصة من بين اللاتي كانت أعمارهـن تتجاوز الخمسة عشر عاما كن يعملن في مهن دائمة .

المغرب

قدر عـدد المشتغلين من اليهود في عام ١٩٣١ بـ ١٥٪ من مجمل تعـداد يهود المغرب (انظر جدول رقم ٥)، ولكن وصلت هذه النسبة بعد مضي نحو عشرين عاما إلى مايربو على ٣٠٪ من تعداد اليهود، وعمل نصف هؤلاء في وظائف دائمة، وفي المقابل كان ٣٠٪ من مسلمي المغرب يعملون في وظائف دائمة، وكان من بين مظاهر الفروق الاجتماعية بين اليهـود والمسلمين أنه كـان للمرأة اليهـودية نصيـب أكبر في الحياة الاقتصـادية بـالمقارنـة بنظيرتها المسلمة . فبينما شكلت المرأة اليهودية ٢٤٪ من قوة العمل اليهودية لم تشكل المرأة المسلمة سوى ١٩٪ من قوة العمل . وبلغت نسبة السيدات اللاتي كانت لهن مهن دائمة ٥٥,٤٪، وكانت هذه النسبة أكبر بكثير من نسبة السيدات المسلمات اللاتي كانت نسبة العاملات منهن في وظائف دائمة تقدر بـ ١٢,٢٪ .

وشهدت الفترة التي هي محل البحث العديد من التغيرات في مجال الأنشطة التي اشتغل بها اليهود كـان من أبرزها حدوث انخفاض ملحـوظ في عدد المشتغلين منهم بالتجـارة . فبينما قدرت نسبة المشتغلين منهـم بالتجارة في عـام ١٩٣١ بـ ٤١,٣٠٪، فإنها قدرت في عـام ١٩٤٧ بـ ٤٦,٥٪ . أما نسبـة الذين عملـوا بالصناعـة فكانت مستقـرة نسبيا إذ إنها تـراوحت بين ٤٥٪ و٥١٪ . وقـد اشتغلت أعـداد متزايـدة من اليهود في المهن الفنيـة التي تتطلب قدرا عاليا من المهـارة والتأهيل مثل مهنتي الميكنة والكهرباء، كما شهدت الفترة نفسها تـزايد عدد المشتغلين من اليهود في المهن الحرة،

فبينما قـدرت نسبـة المشتغلين منهم في هذا المجـال في عـام ١٩٣١ بــ ٦٩,٠٪ فإنها قدرت في عام ١٩٥١ بما يـربو على ٢,٥٪. وقد قدم الإحصاء الـذي أجري في عام ١٩٥١ تصورا دقيقا لعدد المشتغلين من اليهود في المهن التالية:

مهندسون معماريون ٢	صيادلة ٣٥٠
كيميائيون ٥	محامون ١٣
أطباء ١٥	مديرو بنوك ٤
أطباء أسنان ٤٨	رجال صناعة ٣٤
أطباء بيطريون ٣	رجال صناعة ٣٤

وطـرأت خـلال هــذه الفترة زيـادة ملحـوظـة على عــدد المشتغلين من اليهـود كموظفين، فبينما لم يكن لهم أي وجود في عام ١٩٣١ في الجهات الحكومية والوظيفية أصبحـوا يشكلون في عـام ١٩٥١ نسبـة ٨٣,٥٪ من مجمل قوة العمل في المغـرب. وفيما يتعلق بـالـزراعـة تضاءل نصيب المشتغلين مـن اليهود بها. فبينما قـدرت نسبـة المشتغلين منهم في هذا المجـال في عام ١٩٣١ بـ ٩٣,٣٪ قدرت هـذه النسبة في عام ١٩٥١ بنحو ١٪، وقد يكمن سبب ابتعادهم عن الزراعة في تـزايد قوة ظاهرة الهجرة إلى المدن، وهجرة أعداد كبيرة من يهود القرى إلى المدن.

وبعـد أن بحثنـا حتى الآن أهم التحــولات التي حـدثت في أوسـاط يهود شمال أفـريقيا في ظـل الفترة الاستعمارية، وبعـد أن رأينـا طبيعة الفـروق التي سـادت بين الطوائف، ومـدى تأثر كل طائفـة بمسيرة الحداثة، يمكننـا الآن تعرُّف أهم الملامح المشتركة لتاريخ هذه الطوائف، ويمكننا أن نحصرها على النحو التالي:

١ ـ أسفـرت الاتصالات مع أوروبـا عن ظهور عـدة أنماط اجتماعية وثقـافية كـانت في مجملهـا نتيجة لمتغيرات عـديـدة كـان من بينها: تغير أوضـاع اليهـود السياسية والاقتصادية، وأنماط العمل، وأماكن السكن. كما كان من بين مظاهر التغيير عدم الارتباط الوثيق بالتقاليد الدينيـة، وتأثر اليهود بالثقافة الغربية، ومع هذا فلم تسد في أوساط الطوائف اليهودية ببلدان المغرب العـربي ـ كما حدث في

الطوائف الأخرى التي تعرضت للفكر الحديث ــ تناقضات صارخة بين الأسس التقليدية للمجتمع وبين أسس الحداثة حيث نجح بعض أبناء هذه الطوائف في التوفيق بين الأصالة والمعاصرة.

٢ ــ رغم أن الفترة الاستعمارية لم تسفر عن حدوث ثورة حقيقية على البنية الاجتماعية الاقتصادية للمجتمع اليهودي فإنها زادت من عمق الهوة بين اليهود وغالبية السكان من المسلمين، كما زادت من حدة الخلافات في أوساط المجتمع اليهودي، وحقا فقد كانت أنماط التطورين الاجتماعي والثقافي في أوساط اليهود بالغة الاختلاف عن نظيرتها لدى المسلمين، إذ كان اليهود أكثر حرصا من المسلمين على التقرب إلى الأقلية الأوروبية الحاكمة التي أصبحت بمنزلة مركزي جذب سياسي وثقافي لأعداد كبيرة من اليهود، كما سادت في أوساط كل الطوائف العديد من الخلافات الداخلية التي مست كافة جوانب الحياة اليهودية، مما تسبب في انفصال فئات المجتمع اليهودي عن بعضها البعض، ولم تكن هذه الفروق مجرد فروق اقتصادية وإنما كانت فروقا ثقافية وسياسية.

٣ ــ لم ينجح يهود شمال أفريقيا ــ باستثناء يهود مصر ويهود جربة في تونس، ومكناس في المغرب ــ في خلق الأطر التنظيمية والاجتماعية اللازمة التي من شأنها مساعدتهم على مواجهة التحولات الديموغرافية التي حدثت إبان الفترة الاستعمارية، وعلاوة على هذا فقد اضطر يهود شمال أفريقيا لأسباب سياسية إلى تقليص حجم الأنشطة التي كانت تقوم بها الطائفة، كما أجبروا للأسباب نفسها على نقل صلاحيات الطائفة إلى السلطات والمؤسسات الأجنبية التي احتكرت مهمة الإشراف على مجالات التعليم والإعداد المهني، تلك المجالات التي كانت حتى بدايات العصر الحديث تحت إشراف الطائفة والعائلة. وعند النظر إلى سلم الأولويات الذي أقره النظام الاستعماري، وحجم الطاقات والإمكانات التابعة للجهات المختلفة التي اهتمت بالارتقاء بأوضاع السكان اليهود نجد أن أعدادا كبيرة من يهود هذه البلدان عانت من الإهمال والفقر، ويعتقد البعض أن نحو ربع سكان الطائفة اليهودية في الدار البيضاء التي ازداد تعدادها عشرة أضعاف خلال أربعين عاما كانوا عاطلين عن العمل، وعاشوا على تبرعات أثرياء الطائفة، ويمكننا على هذا النحو ملاحظة

أن ظهور طبقة البروليتاريا اليهودية كان من السمات المميزة لتاريخ المجتمع اليهودي بالمغرب إبان الفترة الاستعمارية، وأثارت مشكلات هذه الطائفة إحساسا بالحرج في أوساط اليهود، ولكن القيادة اليهودية أحست بالعجز إزاء إمكان إيجاد حل لمشكلات هذه الطبقة.

التعليم اليهودي الحديث

كان التعليم اليهودي في العصر الحديث يعد وسيلة لتغيير أوضاع اليهود الاجتماعية، ولتحقيق بعض المكاسب الاجتماعية والاقتصادية، وكانت المناهج التعليمية الحديثة بالغة الاختلاف عن نظيرتها التقليدية التي كانت تهدف إلى تأهيل الطفل اليهودي للمشاركة في حياة الطائفة. وكانت المدارس اليهودية في معظم الأماكن خاضعة إما لسيطرة جهات يهودية دولية أو لسيطرة مؤسسات الطائفة، ولذلك فلم ير اليهود أن التعليم الحديث يشكل أي تهديد يذكر على التعليم التقليدي، ولذلك فإنه لم يلق أي معارضة من قبل قادة الطائفة. ولكن قد ظهر في مجال التعليم كما حدث مع سائر المجالات العديد من الفروق بين الطوائف اليهودية في شمال أفريقيا. فبينما تولت جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في المغرب، على سبيل المثال، مسؤولية الإشراف على التعليم الدنيوي تم السماح لهذه الجماعة بتأسيس مدارس دينية فقط في الجزائر. أما في مصر وتونس فقد سمح لليهود بتلقي تعليمهم في المدارس الحكومية علاوة على تلك التي أسستها الطائفة أو جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» لليهود. وفيما يتعلق بالمغرب لم يسمح لسكانه من اليهود بإرسال أطفالهم إلى أي مدارس سوى تلك التي أقيمت خصيصا لهم، ولكن لم يشمل هذا الحظر اليهود الذين كانوا من رعايا الدول الأوروبية أو الأثرياء منهم، وتسببت هذه الفروق في ظهور تفاوتات ضخمة في مستوى التعليم من بلد إلى آخر ومن مكان إلى آخر.

الجزائر

لم ترحب العائلات اليهودية في الجزائر بين عامي ١٨٣٠ ــ ١٨٤٠ بإرسال أطفالها إلى المؤسسات التعليمية الفرنسية، ورغم أنه أسست بضع مؤسسات تعليمية

فرنسية خاصة باليهود فإن الآباء سرعان ما أخرجوا أبناءهم منها بعد أن أدركوا أن بعض المدرسين يسعون إلى تشجيع التلاميذ على اعتناق المسيحية، ومن هنا ظل «الكتَّاب» (الحيدر) اليهودي هو الجهة الوحيدة التي تولت مهمة الإشراف على تعليم الأطفال اليهود، فكان يوجد في أوساط الطائفة اليهودية بمدينة الجزائر ـ التي قدر عددها بستة آلاف نسمة ـ نحو اثني عشر «كتَّابا» كان من بينها «كُتَّاب» خاص بالفتيات. وبينما قدر عدد التلاميذ الدارسين فيها بـ ٤٢٥ تلميذا، فلم يتجاوز عدد الدارسين في المؤسسات الفرنسية المائة تلميذ. وفيما يتعلق بالوضع التعليمي الذي ساد في سائر مدن الجزائر، فكان عدد الدارسين من التلاميذ اليهود الذين تلقوا تعليما فرنسيا ضئيلا للغاية.

وتغير هذا الوضع بعد عام ١٨٤٥ أي بعد صدور القانون الذي أعطى المجالس اليهودية صلاحية الإشراف على التعليم اليهودي، وإعداد مناهج تعليمية جديدة للمؤسسات التعليمية التقليدية. وكان من أولى أنشطة هذا المجال أنها حظرت على «الكتَّاب» التدريس للتلاميذ الذين لم يلتحقوا بالمؤسسات التعليمية الحكومية، ومع هذا استمرت أعداد كبيرة من التلاميذ اليهود في تلقي تعليمها في «الكُتَّاب»، بل وفاق عددهم عدد الدارسين في المدارس الفرنسية، ولذلك بدأت المجالس اليهودية وبمساعدة السلطات الفرنسية في إغلاق المدارس التقليدية، وفي تأسيس مدارس يهودية حديثة اتسمت بحفاظها على تعاليم الديانة اليهودية، وبحرصها على تجنب روح التطرف الديني.

ومع تزايد حجم التحولات التي طرأت على أوضاع اليهود السياسية والاجتماعية، شهد عقد الستينيات من القرن التاسع عشر تدفق أعداد كبيرة من اليهود على المدارس الفرنسية، واختفت في هذا الحين كل مظاهر الحيرة التي راودت اليهود في عقدي الثلاثينيات والأربعينيات إزاء المدارس الفرنسية فنشرت الصحف اليهودية المحلية تقارير كثيرة عن مدى حرص اليهود على تلقي التعليم الفرنسي، هذا التعليم الذي رفضوه من قبل، وربما يكون خير دليل على تحمسهم للتعليم الفرنسي أن حاخام طائفة بيلده في الجزائر أحضر معه كل تلاميذ طائفته إلى المدرسة الفرنسية بالمدينة للإعراب عن تأييده للتعليم الفرنسي، ولكن بعد أن اتضح لهذا الحاخام

مدى تدهور المستوى التعليمي في هذه المدرسة أخرج التلاميذ اليهود منها، وأدخلهم إلى إحدى المدارس المسيحية التي تولى أحد المبشرين إدارتها.

وتلقى غالبية الأطفال اليهود التعليم الفرنسي الإلزامي بعد أن صدر قانون كرميه في عام ١٨٧٠، وبعد صدور قانون جول فيري الخاص بالتعليم الإلزامي، وقد قدر عدد التلاميذ اليهود في مؤسسات التعليم الإلزامية في عام ١٨٧٢ بـ ٥٧٠٠، ثم قدر عددهم في عام ١٨٧٤ بـ ٦٢٢٠، كما قدر عددهم في عام ١٨٨١ بـ ٦٧٥٣، كما شهدت الفترة نفسها زيادة ملحوظة في عدد الدارسين في المدارس الإعدادية، فقدر عددهم في عام ١٨٨١ بـ ٤٤٣ دارسا بعد أن كان عددهم في عام ١٨٧٢ يقدر بـ ٢١٢ دارسا.

وفيما يتعلق بالتعليم الديني فقد كان وضعه يتدهور كلما كان يتزايد عدد الدارسين في المؤسسات العلمانية، وظل هذا التدهور قائما حتى تدخلت في نهايات القرن التاسع عشر جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» التي أخذت على عاتقها مهمة تأسيس ثلاث مدارس دينية حديثة في مدن الجزائر ووهران وقسطنطينة، وعملت هذه المدارس على الدمج بين الدراسات الدينية والدراسات المهنية، ومع هذا لم تتأسس في الجزائر أي أكاديميات دينية متخصصة لإعداد الحاخامات، ولذلك كان يتوجه الراغبون من اليهود في العمل كحاخامات إلى المراكز الدينية المتخصصة في فرنسا أو في المغرب وتونس لتلقي المزيد من المعرفة بالعلوم الدينية، وجدير بالذكر أنه تم تأسيس أول أكاديمية دينية متخصصة في الجزائر في عام ١٩٤٩.

ولا شك أن التقدم الذي طرأ على نظام التعليم الحديث يعد من أبرز مظاهر التغيير التي طرأت على المجتمع اليهودي في الجزائر خلال القرن العشرين، وتفيد الإحصائيات التي أجرتها سلطات فيشي في عام ١٩٤١ أن يهود الجزائر شكلوا آنذاك ٣٪ من التعداد الكلي للسكان، و١٥٪ من تعداد حاملي الجنسية الفرنسية. وقد شكّل التلاميذ اليهود ١٣٪ من تعداد التلاميذ المسجلين بالمدارس الثانوية، أما على صعيد الجامعات فقد شكلوا ٨٧٪ من عدد طلاب كلية الطب، و٤,٢٦٪ من طلاب كلية الحقوق و٤,١٧٪ من طلاب كلية الصيدلة و٨,١٦٪ من طلاب سائر الكليات العلمية و١٠٪ من طلاب الكليات الأدبية، وشكل اليهود أيضا ٢٢٪

من العـدد الكلي لـلأطبـاء و٥,٦٪ من عـدد المحـامين، و١٢٪ من عـدد المدرسين ومايربو على ١٥٪ من الممرضات ونحو ١٨٪ من الموظفين .

وعند مقارنة هذه النسبة بـالنسب التي كانت سائدة في أوساط المسلمين نجد أن الوضع التعليمي في أوساط اليهـود كان أفضل من نظيره لدى المسلمين حيث كـان ٨٪ فقط من المسلمين مسجلين في المدارس الفـرنسية، وفي المقـابل كـانت النسبة لدى اليهود ١٠٠٪ .

مصر

عـرف يهود مصر النظـام التعليمي الحديث منذ الأربعينيـات من القـرن التـاسع عشر، ويـرجع إلى أدولف كرميـه فضل إنشـاء المدارس اليهوديـة الحديثة في مـدينتي القاهرة والإسكندرية، ولكن لم يكتب لهذه المدارس النجاح خاصة أن أثرياء الطائفة اليهـوديـة فضلـوا إرسـال أبنـائهم إلى المدارس المسيحيـة التي شكلت طيلـة العصر الحديث منافسا قويا للمؤسسات التعليمية التابعة للطائفة اليهودية في مصر.

وقـد حرصت الطـائفـة اليهوديـة في كل من القـاهرة والإسكنـدريـة على إقامـة مؤسسات تعليمية تقدم لتلاميذها المعـارف الدينية والدنيوية في آن واحد، فأسست عائلـة أجيون بـالإسكندرية في منتصف القـرن التاسع عشر مـؤسسة تعليميـة مجانية للبنين والبنـات كان تـلاميـذهـا يدرسـون بها أربع لغـات وهي: العبريـة والعربيـة والفـرنسيـة والإيطاليـة، كما تأسست في عـام ١٨٩٧ مـدرسة أخـرى بغـرض تعليم محـدودي القـــدرات والمواهـب بعض المهـــن البسيطـة، كمـــا أقام البـارون يعقوب دي. منشه في عام ١٨٨٣ أول مدرسة تتبع النظم التعليمية الحديثة في الإسكندرية، وكان معظم العاملين فيهـا من الكاثوليك الذين أعدوا لتلاميـذهم البرامج الدراسية وفقا لمناهج التعليم الفرنسية .

وأسهمت بعض العائلات اليهـودية في القـاهرة مثل عائلات أجيـون وموصيري وقطاوي في إقامة بعض المدارس الدينية لأبناء الطبقات الفقيرة، وقدر عدد الدارسين في هذه المدارس عشيـة الحرب العالميـة الأولى بألف وأربعمائة تلميذ فقط، ومـع هذا تلقت غـالبيـة أبنـاء الطائفـة تعليمهـا في المدارس المسيحيـة التـابعـة للإرسـاليـات

التبشيرية، الأمر الذي دفع جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» لممارسة أنشطتها في مصر فأسست هذه الجماعة في عام ١٨٩٦ مدرسة للفتيات اليهوديات في القاهرة، ومع تزايد الإقبال على هذه المدرسة افتتحت الجماعة في عام ١٩٠٣ مؤسستين تعليميتين أخريين في القاهرة. وانتقلت صلاحيات كل مدارس هذه الجماعة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى إلى الطائفة، وهذا باستثناء المدرستين اللتين أسستهما الجماعة في مدينة طنطا، وظلت هذه الجماعة تشرف عليهما حتى منتصف عقد الخمسينيات الذي هاجر فيه يهود مصر إلى الخارج.

ورغم تأسيس الطائفة للعديد من المؤسسات التعليمية وإشرافها على البعض الآخر فإن هذا الوضع لم يحل دون إقبال يهود مصر على المدارس غير اليهودية، فكان ٥٠٪ من يهود مصر يدرسون عشية الحرب العالمية الثانية في مؤسسات غير يهودية.

ومن المؤكد أن حرص اليهود على الانخراط في صفوف المؤسسات التعليمية الغربية أدى إلى تزايد نسبة عدد العارفين منهم باللغات الأوروبية، فبينما كان ٥٠٪ من يهود مصر لا يعرفون في مطلع هذا القرن أية لغة أوروبية، فقد قدرت هذه النسبة في عام ١٩٤٧ بـ ٢٠٪. وفي الواقع فإن أعدادا كبيرة من يهود مصر كانت على قدر كبير من الثقافة، فعلى سبيل المثال كان ٧٪ من أبناء الطائفة في عام ١٩٤٧ من متخرجي الجامعات، وفي النهاية فإنه تجدر الإشارة إلى أن قلة قليلة من يهود مصر استخدمت العربية في حديثها، حيث درس معظمهم اللغة العربية كلغة أجنبية، وفيما يتعلق بإسهامهم في الأدب المصري فكان محدودا للغاية.

ليبيا

عرف المجتمع اليهودي في ليبيا التعليم الأوروبي الحديث قبل احتلال إيطاليا لليبيا، فوصل إلى طرابلس في عام ١٨٧٦ مندوب عن الحكومة الإيطالية قام بافتتاح أول مدرسة إيطالية في ليبيا، والتحق بهذه المدرسة عشرات التلاميذ اليهود، كما أسست جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في عام ١٨٩٠ مدرسة لتعليم اليهود بعض المهن اليدوية ثم افتتحت فيما بعد مدرستين كانت إحداهما للبنين، والأخرى للفتيات. وأثارت أنشطة هذه الجماعة مناقشات واسعة النطاق في أوساط الطائفة،

وعلى الرغم من أن قادة الطائفة كانوا من الموالين لإيطاليا ولثقافتها فإنهم لم ينظروا بعين الرضا إزاء تدفق الأطفال اليهود على المدارس العلمانية، الأمر الذي شجعهم على إحداث بعض التغييرات في البرامج الدراسية المتبعة في مدارسهم التقليدية التي ظلت تلعب حتى بعد عام ١٩١١ الذي شهد احتلال إيطاليا لليبيا دورا مهما في تعليم أبناء الطائفة. وحرصت الطائفة اليهودية مع مضي الوقت على إقامة بعض المؤسسات التعليمية الدنيوية، وربما يكون خير دليل على نجاح مؤسسات الطائفة التعليمية أن معظم يهود ليبيا أرسلوا أطفالهم إلى هذه المؤسسات رغم أن السلطات كانت قد سمحت لهم بإرسال أبنائهم إلى المدارس الحكومية.

وتجدر الإشارة إلى أن الجماعات الصهيونية في ليبيا حرصت على أن تسهم في مجال التعليم، فبدأت هذه الجماعات منذ نهاية عقد العشرينيات في تنظيم دورات مسائية في طرابلس لتدريس اللغة العبرية، والتاريخ اليهودي للتلاميذ اليهود، وحرصت هذه الجماعات على أن تدمج بين الدراسات اليهودية وأسس الثقافة الإيطالية، وافتتحت في الثلاثينيات عدة فروع لهذه الجماعات في كل من بنغازي وحومس وزليتان، وسرعان ما شكلت مدارس هذه الجماعات عشية الحرب العالمية الثانية حجر الأساس في النظام التعليمي اليهودي في ليبيا الذي تعين عليه منذ هذا الحين استيعاب مئات التلاميذ اليهود الذين فُصلوا من المدارس الحكومية. وحتى يتضح لنا مدى تأثير القوانين العنصرية التي سنتها إيطاليا في نظام التعليم اليهودي في ليبيا يكفينا هنا معرفة أنه بينما قدر عدد التلاميذ اليهود في طرابلس خلال عامي ١٩٣٦ـ ١٩٣٧ بـ ٥٤٤٦، قدر عددهم بعد أن تم تطبيق القوانين العنصرية خلال عامي ١٩٣٩، ١٩٤٠ في ليبيا بنحو ٥ آلاف تلميذ.

وعلى أية حال وعلى الرغم من أنه كان لهذه القوانين تأثير واضح في يهود ليبيا فإن نسبة اليهود الذين تلقوا تعليما أوروبيا فاقت نظيرتها لدى المسلمين ففي عام ١٩٣١ تحدث ٥٪ من سكان ليبيا اللغة الإيطالية، بينما تراوحت النسبة في أوساط اليهود بين ٤٣,٨٪ (في طرابلس) و٦٧٪ في (بنغازي)، أما في أوساط النساء اليهوديات فإن النسبة كانت تتراوح بين ٢٩٪ و٤٠٪.

تونس

كـان للتعليم الأوروبي قدر من الـوجود في تـونس قبل سقـوطها تحت الاحتـلال الفرنسي، فقد اعتـاد أثرياء اليهود في تـونس إرسال أبنائهم إلى إيطاليـا لتلقي العلوم الحديثـة، كما انجذبت أعـداد كبيرة من اليهـود إلى المدارس التبشيرية التي مـارست أنشطتها بتونس خلال عقدي الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر.

وافتتحت جماعـة «كل شعب إسرائيل أصدقـاء» في عام ١٨٧٨ أول مـدرسة لها في تونس، وحظيت هذه الجماعـة على خلاف ما تعرضت له في ليبيا، بتأييـد قادة الطائفة اليهودية في تونس الذين خصصوا جـزءا من الضرائب المفروضة على اللحم المذبوح وفقا للشريعة اليهودية لتمويل أنشطة المدرسة التي افتتحتها الجماعة وسائر المدارس التي كان من المقرر افتتاحها في تونس. وحققت هذه الجماعة مزيدا من النجاح بعد عام ١٨٨١، فقامت بافتتاح المزيد من المدارس للبنين والبنات في مدن بشة وسوسة ومهدية.

وقد واجهت أنشطة هذه الجماعـة في مدينة جربة في المقابل معـارضة شديدة من قبل قادة الطائفـة الذين عارضوا افتتاح أي مؤسسات تعليميـة علمانية، فظلت هذه الطائفة تتبع نظاما تقليديا في التعليم. أما التغييرات التي طرأت على هذا النظام فإنها كانت بتـوجيهات من عالم «اليشيفـوت» (الأكاديميات التلمـودية) في فلسطين، ولم تكن نتيجة للتوجهات الحديثة في تونس.

وأسست هذه الجماعة في عام ١٩٠١ مدرسة زراعية في مدينة «جديدة»، وكانت هذه المدرسة أول مدرسـة من نوعها تفتتح في شمال أفريقيا، وكان مـدير هذه المدرسة وبعض العاملين فيها من فلسطين، وجذبت هـذه المدرسة إلى أن تم إغلاقها في عام ١٩١٧ أعدادا كبيرة من يهود شمال أفـريقيا وبلـدان الشرق الأوسط. وقد تم السماح ليهود تونس منذ عام ١٨٨٣ بالالتحاق بكافة المؤسسات التعليمية، الأمر الذي أدى إلى انتشار التعليم الغربي في أوسـاط يهود تونس، وكانت الزيـادة في تعداد الدارسين اليهود إبـان الفترة الواقعـة بين الحربين العالميتين تتواكب ل خـلاف ما كـان عليه الـوضع في المغرب أو ليبيـا، مع الزيـادة الطبيعية التي طـرأت على تعداد اليهـود في تونس، وفيما يتعلق بالمدارس اليهودية في تونـس فقد التحقت بها أعداد ضئيلة للغاية

من تلاميذ اليهود فلم يتعد عدد التلاميذ اليهود المسجلين في مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» أو في مدارس الطائفة ٥٪ من التعداد الكلي للتلاميذ اليهود الذين أقبلوا على المدارس الحكومية. وقد سادت في تونس أيضا فروق ضخمة بين المجتمع اليهودي والمجتمع الإسلامي بخصوص موقف كل منهما تجاه التعليم الغربي، كما سادت فروق عديدة بينهما كان من بينها أنه بينما ألم ٩٠٪ من يهود تونس بأصول القراءة والكتابة لم تتعد هذه النسبة في أوساط المسلمين ١٣٪.

المغرب

ترتبط بدايات التعليم اليهودي الحديث في المغرب بأنشطة جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» التي أسست في عام ١٨٦٢. وبعد مضي بضعة شهور على تأسيسها مدرسة حديثة في مدينة تطوان الواقعة شمال المغرب، وآمن قادة هذه الجماعة إيمانا عميقا بأن تحسين أوضاع اليهود الاجتماعية اولاقتصادية سيؤدي إلى تطوير أوضاعهم القانونية واندماجهم في حياة المجتمع الاقتصادية، فحرص مدرسو هذه الجماعة على إكساب تلاميذهم مبادىء اللغة الفرنسية ومبادىء الرياضيات، وتعليمهم بعض المهن اليدوية، ولذلك تمكن اليهود من الالتحاق بالقنصليات الأوروبية التي انتشرت في مدن المغرب الساحلية إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

وحصرت هذه الجماعة في البداية أنشطتها في أوساط الطبقات اليهودية الفقيرة في المدن الساحلية، ولكن لم تحظ أنشطتها دائما بقبول قادة الطوائف اليهودية في طنجة وموجادير الذين فضلوا إرسال أبنائهم إلى المؤسسات السفاردية والإنجليزية التي كان من بينها المؤسسة الإنجليزية اليهودية.

وحينما أصبحت المغرب في عام ١٩١٢ محمية فرنسية كان عدد التلاميذ اليهود المقيدين في المدارس التابعة لجماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» يقدر بخمسة آلاف تلميذ، وكانت هذه المدارس منتشرة في المدارس منتشرة في مدن: تطوان وطنجة والعرايش والرباط وكازابلانكا وسافي وفراجان وموجادير ومراكش ومكناس وفاس.

وحظيت جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» بعد دخول الفرنسيين للمغرب بتأييد السلطات التي منحت هذه الجماعة حق الإشراف على التعليم، ولكنها حظرت

على اليهود الالتحاق بالمدارس التابعة للمستوطنين الأوروبيين. وفي واقع الأمر لم ينظر الفرنسيون بعين الرضا إزاء حرص اليهود على الحصول على قسط وافر من الثقافة الغربية، ونظرا لتخوف الفرنسيين من تزايد حدة الفروق بين اليهود والمسلمين حظروا على اليهود الالتحاق بالمدارس الفرنسية، ومن المرجح أنه حينما اتخذ الفرنسيون مثل هذا القرار فإنهم كانوا يعلمون أنه ليس بمقدور مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» الإيفاء باحتياجات يهود المغرب، كما أصدرت السلطات في عام ١٩٢٥ مرسوما يقضي بإلزام مدارس هذه الجماعة بالتقليل من مستوى الدراسة المتبع في مدارسها والذي كان حتى هذا الحين شبيها بمستوى المدارس الفرنسية، وألزمت السلطات مديري هذه المدارس ببذل مزيد من الاهتمام بقدرات الطلاب الفنية والبدنية، وعدم حصر كل اهتمامهم في الدراسة، كما طالبت هذه المدارس بتدريس طبيعة الدور الذي لعبته فرنسا في تطوير أوضاع يهود شمال أفريقيا والشرق الأوسط.

وقد عارض قادة الطائفة سيطرة جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» على التعليم، وبغض النظر عن حقيقة أن مدارس هذه الجماعة لم تتح لليهود فرصة الالتحاق بالمدارس الثانوية فإن قادة الطائفة لم يشعروا بالرضا إزاء مستوى المدرسين وموقفهم تجاه التقاليد اليهودية، ولكن لم تثمر معارضتهم حتى نهاية الحرب العالمية الثانية عن أية نتائج، ولذلك لم يكن أمامهم أي بديل سوى إرسال أبنائهم إلى المدارس اليهودية التقليدية التي أسستها منظمة «أم الأبناء» في كل من فاس ومكناس وصفرو، وفي الواقع فإن نحو ٥٠٪ من الأطفال اليهود في المغرب تلقوا تعليما تقليديا، وأن أنشطة جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» لم تشمل سوى اليهود المقيمين في كبرى المدن. وبينما شهدت الفترة ١٩١٢ - ١٩٣٢ زيادة ملحوظة في عدد الطلاب المسجلين في مدارس هذه الجماعة شهدت الاثنا عشر عاما التالية تضاؤل عدد الدارسين فيها، ويرجع السبب في ذلك غالبا إلى الأزمة الاقتصادية والمشاكل الناجمة عن نشوب الحرب العالمية الثانية.

وتزايدت بعد الحرب العالمية الثانية قوة أنشطة هذه الجماعة في المغرب، وتمكنت هذه الجماعة بفضل المساعدة التي حصلت عليها من هيئة الجوينت اليهودية من إنشاء فروع لها في كل المناطق التي يربو فيها تعداد التلاميذ اليهود على ثلاثمائة تلميذ، والممتدة من الساحل الشمالي حتى الصحراء فأقامت هذه الجماعة في كبرى المدن بعض المدارس

الثـانـويـة، كما عملت على الارتقــاء بمستـوى المعلمين، فأسست في عـام ١٩٤٩، في كازابـلانكا وبالتعاون مع هيئـة «ماجين دافيد» (درع داود) مدرسـة لإعداد المدرسين من أبناء المغرب الذين حصلوا على قسط وافر من المعارف الدينية والدنيوية.

ولم تصبح هـذه الجماعة في العصر الحديث هي الجهـة الوحيـدة العاملـة في مجال التعليم فقد أسست هيئة أورت في مدينة الدار البيضاء مـدرسة ثانوية مهنية لليهود، كما عملت بجانبهـا العديـد من المنظمات الأخرى التي نـذكر منهـا منظمتي «أوتسار هتوراه» (كنز التـوراة)، و«أوهلي يوسف يتسحاق» (خيام يـوسف إسحق) الدينيتين اللتين أسستـا مؤسسـات تعليمية عـديـدة جمعت مابين دراسـة المواد الدينيـة والمواد العلمانيـة، وقدر عـدد الـدارسين في المدارس التقليديـة التـابعة للمنظمتين، عشيـة حصول المغرب على استقلاله بثمانية آلاف طالب.

وعلى كل حال فعلى الـرغم من تعرض جماعـة «كل شعب إسرائيل أصـدقاء» إلى ضغوط عديدة فإنـه كانت لهذه الجماعة العديد من المنجزات، ويكفينـا هنا معرفة أن كل أبناء الصفوة مـن يهود المغرب تلقوا في مؤسسات هـذه الجماعة، تعليما أفضل من التعليم الذي تلقاه اليهود في سائر البلدان، وكان لهذه الجماعة إسهام ملحوظ في دفع مسيرة التعليم الحديث في المغرب، وعند المقارنة بين مستوى معرفة اليهود بنظيره لدى المسلمين إبـان نهايات فترة الاستعمار الفـرنسي نجد أنـه في الـوقت الذي حصل فيـه ١٣٪ من مسلمي المغـرب على قسط وافـر مـن التعليم الغـربي الحديث، فإن هـذه النسبة في أوساط اليهود قدرت بـ ٦٠٪.

ويتضح من كل مـاتقدم بشأن الصعـوبات التي واجهت التعليم اليهـودي أنه كـان بمقدور عدد ضئيل للغاية من اليهود الوصول إلى مرحلـة ما بعد الدراسة الإلزامية خاصة أن المؤسسات التعليمية الحكـومية لم ترحب بقبول التلاميذ اليهـود. وتفيد المعطيات التي في حوزتنـا أن نحو خمسمائة طـالب يهودي فقط تمكنوا خـلال الفترة ١٩٤٥ ـ ١٩٥٥ من إنهاء مرحلة التعليم الثـانوي، وفي عام ١٩٥٥ أنهى مائتان وثمانية وستـون طالبا تعليمهم الثانـوي، كما أن عدد الطـلاب اليهود في المؤسسـات الأكاديميـة لم يتعد في العـام نفسه الثلاثين طالبا، ولذلك اعتاد الـراغبون من يهود المغرب في الحصول على المزيد من التعليم التوجه إلى فرنسا، وكان شأنهم في هذا النحو شأن يهود تونس.

وقد شملت التغييرات التي شهدها المغرب النظام التعليمي اليهودي، ومع هذا فقد ظلت اهتمامات «الكُتّاب» اليهودي في المغرب مقصورة على التلمود والشريعة وتفاسير العهد القديم. كما اهتم «الكُتّاب» بتدريس روائع الأعمال الفلسفية اليهودية التي يرجع تاريخها للعصور الوسطى، وكان من أبرز الأعمال التي درسها الطلاب اليهود: كتاب «فرائض القلوب» للحاخام ابن بقودا، وكتاب «الخوزاري» للشاعر الفيلسوف يهودا هليفي.

وشغلت دراسة التلمود مكانة جوهرية في المدارس الدينية، وعادة ما كان الحاخام يبدأ شرح نص التلمود باللغة العربية، ثم كانت تعقبها مرحلة الاستعانة بتفسير «راشي»، وتفاسير بعض حاخامات المغرب الذين كان من أبرزهم الحاخام رفائيل بردوجو.

ومجمل القول أن المناهج التعليمية التي اتبعها الكتاب كانت ذات طابع براجماتي إذ إن غرضها الرئيسي تمثل في إعداد الطلاب لشغل مناصب الحاخامات أو القضاة، ولكن مع مضي الوقت تضاءلت قيمة وأهمية هذه المناهج التي لم تعد مناسبة لاحتياجات المجتمع في العصر الحديث، ولذلك افتتحت في مدينة الرباط في عام ١٩٥٠ مدرسة حديثة حرصت على الدمج بين الدراسات الدينية والدنيوية، وكان لزاما على الدارسين فيها دراسة اللغتين الفرنسية والعربية، وتعرُّف أسس القانون المدني الفرنسي.

ويرجع فضل تأسيس هذه المدرسة إلى مجلس حاخامات المغرب الذي حرص منذ عام ١٩٤٨ على عقد اجتماع سنوي لبحث كل القضايا التي أثارت اهتمام اليهود في العصر الحديث، وبينما حرصت المدارس اليهودية التقليدية على تأهيل التلاميذ اليهود لشغل مناصب الحاخامات والقضاء في المجتمع اليهودي إلا أنه ظهرت مع مضي الوقت علامات استفهام عديدة حول مدى ملاءمة المناهج الدراسية المتبعة في هذه المدارس لاحتياجات العصر الحديث، ومن هنا فقد تأسست في عام ١٩٥٠ في مدينة الرباط مدرسة حاخامية حديثة حرص مدرسوها على تدريس الشريعة بجانب اللغتين الفرنسية والعربية والقوانين المدنية.

ويرجع فضل تأسيس هذه المدرسة إلى مجلس حاخامات المغرب الذي كان يعقد بدءا من عام ١٩٤٨ اجتماعا مرة كل عام أو عامين، وفي إطار هذا الاجتماع كان يتم بحث القضايا الخاصة بحياة اليهود.

النشاط الأدبي والنشاط السياسي

أسفر اتصال يهود شمال أفريقيا بالثقافة الغربية عن ظهور طبقة جديدة من الشخصيات اليهودية المستنيرة، عبرت في نتاجيها الصحفي والأدبي عن طبيعة المتغيرات التي شهدها المجتمع اليهودي في العصر الحديث. وقد ازدهر في تونس بشكل ملحوظ في العصر الحديث الأدب اليهودي العربي المدون بحروف عبرية، وقد ظهر هذا الأدب في نهايات القرن التاسع عشر في أعقاب إنشاء المطابع اليهودية التي حرصت على نشر قصص الفولكلور اليهودي التونسي، وقد ذكر الباحث أفراهام هطل أنه صدرت في تونس إبان هذه الفترة نحو ثمانين مجلة متخصصة في الفولكلور اليهودي، وحرصت هذه المجلات مع مضي الوقت على توسيع إطار اهتمامات يهود تونس فنشرت بعض روائع الأدب اليهودي الوسيط مثل كتاب «فرائض القلوب»، كما نشرت بعض أعمال حركة التنوير اليهودية «الهسكالاه»، فترجمت هذه المجلات كل قصص الأديب أفراهام مابو إلى اللغة اليهودية العربية، وحرصت الصحف اليهودية في تونس على تزويد قرائها بمعلومات عما يدور في كافة أنحاء العالم وخاصة في أوساط اليهود، فقدمت هذه الصحف تغطية خبرية وافية لاجتماعات الكونجرس الصهيوني والحوادث التي تعرض لها يهود كيشنيف في روسيا (عام ١٩٠٣) وللوضع السائد في فلسطين، وكان اهتمامها بمثل هذه الأحداث لا يقل عن اهتمامها بزيارات القادة الفرنسيين لتونس أو بأحداث الحرب العالمية الأولى، ولكن كلما كانت تتزايد قوة الثقافة الفرنسية في أوساط يهود تونس كان يقل في المقابل عدد قراء الصحف اليهودية العربية، ولكن استمرت مجلة «النجمة اليهودية» العربية، التي تأسست في عام ١٩٢٠ في الصدور في سوسة حتى عام ١٩٦١، وكانت هذه المجلة هي آخر صحيفة يهودية عربية تصدر في شمال أفريقيا. وجدير بالذكر أنه صدرت في الجزائر وتونس صحف شبيهة ولكنها لم تكن على القدر نفسه من الجودة.

وكانت الصحافة اليهودية في كل بلدان شمال أفريقيا هي الوسيلة الوحيدة التي عبرت من خلالها الشخصيات اليهودية المستنيرة عن أفكارها، وكان صدور الصحافة اليهودية بشكل منتظم في كافة هذه البلدان بدءا من المغرب وحتى مصر من أهم مظاهر حياة اليهود الثقافية في العصر الحديث، فكانت صحيفة «الشمس» اليهودية التي صدرت خلال الثلاثينيات والأربعينيات بالقاهرة واحدة من أهم الصحف اليهودية في مصر، كما كانت مجلة «إسرائيل» التي صدرت خلال الفترة ١٩١٩ ــ ١٩٢٣ من أبرز المجلات اليهودية الصادرة بالفرنسية في مصر، ولكن صدرت بعض الطبعات من هذه المجلة باللغة العبرية وبلغة اللادينو، كما صدرت في مصر قبل وبعد الحرب العالمية الأولى بعض المجلات الصهيونية مثل مجلة «متسرايم» (مصر) التي صدرت باللغة العربية المدونة بالحروف العبرية، وكان من بين هذه المجلات أيضا مجلة La Sionisto ومجلة Revue Is-raelited Egypte التي أسسها بعض المهاجرين القادمين من فلسطين، واهتمت هذه المجلة بالقضايا الثقافية.

وفيما يتعلق بسائر بلدان شمال أفُريقيا ـ باستثناء الجزائر ـ فإن المجلات الصهيونية شغلت مكانة بارزة في الحياة الفكرية للطوائف اليهودية، وقد كانت مجلة Lavenir Tllustre (المستقبل الواضح) التي أسسها يوناثان طورشر مندوب الاتحاد الصهيوني العالمي في المغرب في منتصف العشرينيات من هذا القرن من أبرز المجلات اليهودية في المغرب، ولم تحظ هذه المجلة باستحسان الدوائر الداعية إلى الاندماج، التي أصدرت في عام ١٩٣١ مجلة منافسة بعنوان Union Marocaine (الاتحاد المغربي). وفي الواقع فإن اللهجة الحادة غير المهذبة التي استخدمتها هذه المجلة نفرت الشباب اليهودي منها مما دفعهم إلى اعتناق الفكر الصهيوني.

وصدرت في تونس صحيفة Le Reveil Juif «الصحوة العبرية»، الناطقة بلسان الاتجاه التصحيحي، وأصبحت هذه الصحيفة في العشرينيات والثلاثينيات من أكثر الصحف اليهودية انتشارا في شمال أفريقيا، وصدرت بالإضافة إلى هذه الصحيفة حتى مطلع الثلاثينيات بعض المجلات اليهودية كان من بينها مجلة La Justice (العدالة) الداعية إلى الاندماج في المجتمع، وتطبيق القانون الفرنسي على اليهود، ومجلة L' Egalite (المساواة) التي عبرت عن موقف الدوائر المحافظة الداعية إلى الحفاظ على الخصوصية الثقافية لليهود،

وبعد انتهـاء الحرب العايـة الثانيـة صدرت في تـونس ثلاث صحف يهوديـة كان من أبـرزها صحيفة La Gazette D, Israel التي كانت مقربة لفكر حركة «بيتار» الصهيونية .

وفي مجال النتـاج الأدبي فمن الواضح أن التقـاء اليهـود بالفكـر العربي لم يـؤد إلى ظهور مثقفين يهود بارزين كما حدث في أوساط المجتمـع العربي، ومع هذا فقد كان من أبـرزهم في مجال النتاج الشعـري والروائي والفكـري الصادر بـالفرنسيـة كل من : ريمون بنيشو Ravmono Benichon في الجزائر، وبلانش بن دهان Blanche Ben-dahan، وكارلوس دي نسري Carlos de Nesry في المغرب، وفيتاليس دانون Vita-lys Danon ورفائيل ليفي Elrvy في تونس، وألبير أدس Albert Hadas وإيليان فينبيرت Elian Finbert وكارلو سوارس Carlo Suares في مصر، وعلى كل حال فإن الأديـب ألبير ميمـي Albert Memmi كان هـو الوحيد من بين أدبـاء اليهود بشمال أفريقيا الذي حظي بقدر كبير من الشهرة .

وقـد حلل ألبير ميمي في رواياتـه ومقـالاته بشكـل بالغ الـدقـة مدى الأزمـة النفسيـة التي واجههـا الشبـاب اليهـودي في شمال أفـريقيـا، والتي نجمت عن اختلاطه بـالفكر الغربي الحديث . وقد عبر ألبير ميمي في روايـة «عمود الملح»، التي تحمل في طياتها جزءا كبيرا من سيرته الذاتية، عن طبيعة هذه الأزمة، وتدور أحداث هذه القصـة حول حياة ابن إحدى العائلات اليهـودية الفقيرة في تونس، وكيف عـانى هـذا الابن من انهيـار عـالمه الطفـولي المشبع بالعـادات والتقـاليـد اليهودية، ويقدم ميمي لنا بطل رواياته في صورة من يبحث عن سبل الخروج من حارة اليهود، وكيف أنه فضل الارتماء في أحضان الثقافة الغربية وتبني الاتجاهات الفكرية الحديثة التي مثلها المجتمع الاستعماري الأوروبي، ولكنه يوضح لنا كيف أن البطل شعر بخيبة الأمل في ظل نظام فيشي الذي تخلى فيه رفاقه ومدرسوه عنه، وكيف أنهم دفعـوه للعودة إلى محيطـه اليهودي العـربي الـذي نشأ فيه والـذي أراد الانسلاخ منه . وقـد كان من بين أعماله الأخرى : قصـة «الغريب» التي صدرت في عـام ١٩٥٥، وقصـة «العقــرب» التي صــدرت في عـام ١٩٦٩، وقصـــة «الصحـراء» التي صدرت في عـام ١٩٧٧، وقـد تـرجمت بعض أعماله إلى اللغـة العبرية كان من بينها : كتاب «اليهود والعرب»، وكتاب «تحرير اليهودي» . وقدم

ميمي في كل هـذه الأعمال وصفـا دقيقـا لمحاولاتـه الهادفـة للخـروج من المأزقين الثقافي والسياسي اللذين دخل فيهما، كما يوضح فيهـا أيضا أنه اعتنق الصهيونية بعد أن فشل في التقرب من اليسار الفرنسي، ومن الحركة القومية التونسية.

وقـد برز طيلـة الفترة الاستعماريـة عدد كبير من البـاحثين اليهـود الذين اهتمـوا بدراسة تاريخ اليهود في المغرب، وأولى هؤلاء الباحثون اهتماما ضخما بمجال التاريخ الفكري ليهود بلدان المغرب العربي، وتطور أوضـاعهم القانونية، وكان من أبرزهم: داود كازس الـذي أصدر في عام ١٨٨٨ كتـابا بالفـرنسية عن النتاج الفكـري ليهود تونس، والحاخام بن نائيم الذي أصدر في عام ١٩٣٠ معجما ضم معلومات مفصلة عن حيـاة حاخـامـات المغرب. وفيما يتعلـق بالبـاحثين الـذين نبغوا في مجال دراسـة أوضـاع اليهود القـانونيـة برز منهم كل من ر. أرديطي، ور. درمـون وش. طيفي في تونس، وبرزاً. زجـوري وأ. ملخا في المغرب، ولا يفوتنا في هذا المجـال ذكر موريس برجون الذي ألف كتابين مهمين عن يهود مصر، وأنـدريه شوراكي الذي أصدر عدة مؤلفات عن تاريخ اليهود في شمال أفريقيا.

ومن جهـة أخـرى فإن الشخصيات اليهـوديـة المستنيرة أبدت قـدرا ضئيـلا من الاهتمام بتاريخ بلدانها وثقافتهـا، ونستثني من هذا الوضع الصحفي والمؤرخ المصري يعقوب صنوع (١٨٧٩ ـ ١٩١٢) الذي أصدر أعماله بـالعربية، والذي يعـد واحدا من أبرز مفكـري الحركة القوميـة المصرية، وقـد ظهر في مصر أيضا الشـاعر والأديب مـراد فرج بيـه (١٨٦٧ ـ ١٩٥٥) كما برز أيضـا داود حـزان ابن إليـاهو حـزان كبير حاخامات مصر، الذي كان من الشخصيات اليهودية المقربة إلى زعيم الحركة القومية المصريـة مصطفى كامل، وقـد بـرز في مصر أيضا ليـون كسترو الذي شغل في عقـد العشرينيات رئيس تحرير مجلة La liberte «الحرية» التي كان يصدرها حزب الوفد، والذي كانت له العديد من الأنشطة اليهودية والصهيونية.

وفيما يتعلق بسـائر بلدان شمال أفـريقيـا فقد كـانت عـلاقـات اليهود مع قـادة الحركات القومية في هذه البلدان محدودة للغاية، ولكن كانت لليهود أنشطة ملحوظة في الأحزاب الشيوعية في كل من تونس والمغرب ومصر، وتزايدت أعداد اليهود في هذه

الأحزاب الشيوعية خاصة بعـد الحرب العالمية الثانية، وانضم، على سبيل المثال، في عـام ١٩٤٨ خمسمائة يهودي إلى الحزب الشيوعي المغـربي الـذي كان يضم آنـذاك في صفـوفـه ستـة آلاف يهودي، على الرغـم من أن اليهود كـانـوا يفضلـون بشكل عـام الانضمام لـلأحزاب المؤيـدة للوجـود الاستعماري على الأحزاب المعـادية لـلاستعمار. ورغم أن السلطـات الفرنسيـة كانت تعـارض كل التنظيمات السيـاسية المحليـة فإن اليهود الذين كانـوا من رعايا أوروبا نعموا بقدر كبير من الحريـة، فكانت لهم أنشطة ضخمـة في كل من الحزب الاشتراكي الفـرنسي والحزب الشيوعـي، الذي قـدم دعما ضخما للاجئي الحركات المعادية للفاشية الإيطالية والذين وجدوا ملاذا في تونس.

وبشكل عام يمكننا قول إن عدم توافر المعطيات اللازمة لا يساعدنا على أن نقيم بشكل جيد حجـم الأنشطة السياسيـة لليهود في كل بلـد من بلدان شمال أفـريقيا، ولكن بغض النظر عن حجم هذه الأنشطة فمن الواجب هنا تأكيد أن الطابع المنغلق للمجتمع الاستعماري علاوة على الفروق العرقية ـ الثقافية التي فصلت بين أعضائه لم يساعد على عقد لقاءات رسميـة بين اليهود والعرب والأوروبيين. وفي واقع الأمر فإن عدم معرفة مفكري اليهود في هذه البلدان باللغة العربية حال دون اتصالهم بمفكري المسلمين في بلدان شمال أفريقيا، كما أسفر هذا الأمـر عن عدم معرفة مفكري اليهود كل مظاهر الثورة العربية على الثقافة الغربية.

جدول رقم (١)

التطور الديمغرافى ليهود شمال افريقيا (١٨٣٠ - ١٩٥١)

الجزائر	تونس	المغرب	ليبيا	مصر
١٨٣٠ ١٧٠٠٠	١٨٨١ ٢٥٠٠٠	١٩١١ (٥)١٠٠٠٠٠	١٩١١ (٧)١٤٢٠٠	١٨٩٧ ٢٥٢٠٠
١٨٧١ ٣٤٦٠٠٠	١٩١١ (٣)٥٠٥٠٠	١٩٢١ ١١٠٠٠٠	١٩٢١ ٢٤١٠٠	١٩٠٧ ٣٨٦٠٠
١٨٩١ ٤٧٥٠٠	١٩٢١ (٤)٥٤٠٠٠	١٩٢٦ ١٢٥٠٠٠	١٩٣٦ ٢٧٦٠٠	١٩١٧ ٥٩٦٠٠
١٩٠١ ٥٧١٠٠	١٩٢٦ ٦٠٠٠٠	١٩٣١ ١٤٣٠٠٠	١٩٣٩ ٣٠٤٠٠	١٩٢٧ ٦٣٦٠٠
١٩١١ ٧٠٣٠٠	١٩٣١ ٧٠٠٠٠	١٩٣٦ ١٨٦٠٠٠	١٩٤٥ ٣١٨٠٠	١٩٣٧ ٦٥٦٠٠
١٩٢١ ٧٤٠٠٠	١٩٣٦ ٨٠٠٠٠	١٩٤٧ ٢٣٠٠٠٠		١٩٤٧
١٩٣١ (١)١١٤٠٠٠	١٩٤١ ٨٩٧٠٠	١٩٥١ (٦)١٩٩٢٠٠		
١٩٤١ (٢)١٢٣٠٠٠	١٩٤٦ ١٠٠٠٠٠			
١٩٤٦ ١٣٠٠٠				

١ ـ تشمل هذه الأرقام سكان المناطق الجنوبية من الجزائر الذين لم يكونوا من حملة الجنسية الفرنسية، وقدر عددهم في عام ١٩٣١، وقفز في عام ١٩٤١ ليصل إلى ٦١٤٨ . وجدير بالذكر أن تعداد السكان الذي أجرته السلطات الفرنسية في عام ١٩٤١ كان هو التعداد الوحيد الذي أجري منذ نهايات القرن التاسع عشر. وقد تجنب الفرنسيون عقب صدور مرسوم كرميه ولتخوفهم من الاتجاهات المعادية للسامية من أن يحددوا تعداد اليهود الذين كان يتم تصنيفهم مع الأوروبيين، وفيما يتعلق بالتعداد السكاني السابق لعام ١٩٣١ فقد أجراه كبير حاخامات الجزائر م. إبزنبيت، وفيما يتعلق بالأرقام الخاصة بتعداد السكان خلال عامي ١٨٩١ ـ ١٩١٢ فهي تقديرية فقط .

٢ ـ وفقا لتقدير غير رسمي .

٣ ـ تتضمن هذه الأرقام حملة الجنسيتين الفرنسية والإيطالية وغيرهما، وقد تعاملت الإحصائيات معهم، وكما حدث في الجزائر على أساس أنهم أوروبيون، ولذلك لم تتم إضافتهم إلى تعداد

اليهود ونستثني من هذا الـوضع الإحصاء الذي أجرته سلطـات فيشي في عام ١٩٤١ الذي قسم تعداد اليهود على النحو التالي: ٢٨٢٦٥ : رعايـا محليون، ١٦٤٩٦ من حملة الجنسية الفرنسية، ٣٢٠٨ من حملة الجنسية الإيطالية، ٦٦٨ من حملة الجنسية البريطانية، و١٠٣٠ من رعايا جهات أخرى.

٤ ـ يعتمـد هذا التقـدير غير الـرسمي على الإحصاء الجزئي الـذي أجرته «جماعـة كل شعب إسرائيل أصدقاء» عشية قيام المحمية الفرنسية.

٥ ـ تتضمن سـائر الأرقام الواردة (حتى عام ١٩٧١) يهود المنطقـة الإسبانية، ومدينـة طنجة، ولم يهتم الإسبان، وعلى خلاف الفرنسيين، بنشر أي معطيات إحصائية دقيقة عن سكان المنطقة قبل عام ١٩٨٤. ويعتقد البعض أن تعداد اليهود في طنجة خلال هذه الفترة تراوح بين ١٥ و ٢٥ ألفا.

٦ ـ يشمل هذا الرقم يهود المنطقة الفرنسيـة الذين قدر تعدادهم في عام ١٩٤٧ بـ ٢٠٣٨٠٠ يهودي، ويرى البعـض أن أسباب تضاؤل تعـداد اليهود في عـام ١٩٥١ تكمن في هجرة أعـداد كبيرة من اليهود إلى إسرائيل بعد عام ١٩٤٨.

٧ ـ يشمل هذا الرقم يهود طرابلس فقط، ويجب أن نضيف إليهم يهود قيرينـابقه الذين تراوح عددهم بين ٢٠٠٠، و٣٠٠٠ يهودي.

جدول رقم (٢)

مراكز التجمعات السكانية اليهودية فى دول شمال افريقيا خلال عامى ١٨٣٠ - ١٩٥١

مصر	١٨٣٠	١٨٥	١٨٨٢	١٨٩٧	١٩١١	١٩١٧	١٩٢١	١٩٣١	١٩٣٦٨	١٩٦١/٢	١٩٤٦/٧	١٩٥١
القاهرة			٥٠٠٠	٨٨١٩		٢٧٢٠٧			٣٥٠١٤		٤١٨٦٠	
الاسكندرية			٣٠٠	٩٨٣١		٢٤٨٥٨			٢٤٦٩		٢١١٢٨	
ليبيا												
طرابلس					٨٥٠٩			١٥٢٧٩	١٧١٩٦	١٨٨٩٢	١٩٣٣٠	
بنغازى								٢٠٦٤	٣٠٩٨		٣٠٠٠	
تونس												
تونس					٢٤٠٠٠		٢٢٦٨٠	٢٩٤٤٧	٣٢٢٨٢	٤٢١٤٦		
سوسه					٢٦٨١		٣٥٣١	٣٦٧٢	٣٧٤١		٣٥٧٤	
صفاقس					٢٧٢٢		٣٣٣١	٣٠٥٨	٣٤٦٦		٤٢٢٣	
جربة					٣٠٠٠		٣٧٧٩	٣٨٢٨	٤٠٩٨		٤٢٩٤	
الجزائر												
الجزائر	٥٠٠٠	٥٧٥٨			١١٠٠٠			٢٣٥٥٠		٢٥٤٧٤		
وهران	٢٣٧٢	٥٠٧٣		١٠٦٣٦	١٠٠٠٠				٢٠٤٩٣		٢٥٨٥٣	
قسطنطين	٣٠٠٠	٣٤٣٦			٨٠٠٠			١٣١١٠		١٢٧٦١		
تلمسان	١٥٠٠	٢٦٨٨			٥٠٠٠					٤٩٠٧		
المغرب												
كازابلانكا					٧٠٠٠		١٧٠٠٠	١٩٩٦٠	٣٨٨٠٦		٦٤٩٩٠	١٤٧٨٣
مراكش					١٥٠٠٠			٢١٦٠٧	٢٥٦٤٦		١٨٣١١	١٦٣٩٢
فاس					١٠٠٠٠			٧٨٢٦	١٠٥٠٧		١٤١٤٠	١٢٦٤٨
مكناش					٦٠٠٠			٧٧٤٥	٩٥٢١		١٣٦٧٠	١٢٤٤٥
رباط					٢٠٠٠			٤٢١٨	٦٦٩٨	--	١١٠٠٠	
طنجة					١٠٠٠٠			٧٠٠٠	٨٠٠٠		١٠٠٠	
تطوان					٤٠٠٠			٢٦٤٨	٦٠٠٠		٢٨	٧٦

جدول رقم (٣)

نسبة المواليد والوفيات فى أوساط يهود تونس

(بالآلاف)

	١٩١٩ - ١٩٢٣	١٩٢٤ - ١٩٢٨	١٩٢٩ - ١٩٣٣	١٩٣٤ - ١٩٣٨
نسبة المواليد	٣٧	٣٣	٣٣	٣٠
نسبة الوفيات	٢٢	٢٠	١٨	١٧

جدول رقم (٤)

النشاط الاقتصادى ليهود ليبيا خلال عام ١٩٣٦

	العدد الكلى		الزراعة والصيد		الصناعة		النقل		التجارة		مهن حرة		القطاعات العام والخاص		اقتصاد منزلى		عدد اليهود غير الحرفيين		عدد العاطلين عن العمل	
مناطق التوزيع	عائلات	أفراد	عائلات	أفراد	عائلات	أفراد	عائلات	أفراد	عائلات	أفراد	عائلات	أفراد	عائلات	أفراد	عائلات	أفراد	عائلات	أفراد	عائلات	أفراد
مقاطعة طرابلس	٤٨٤٨	٢١٠١٩	٥٠	٢٣٧	١٨٥٩	٨٥٦٦	١٣٣	٦٢٤	١٧١٠	٨٤٠٥	٧٢	٣٤٨	١٤٦	٦٧٢	٨٧	١٣٧	٧٦٥	١٩٢٠	٢٦	١١٠
بلدة طرابلس	٤١٠٢	١٧٢٨٦	٤٢	٢٠٣	١٥٦٠	٧٢٦٦	٩٣	٤٤٣	١٢٨٨	٦٤٠٤	٦١	٢٩٦	١٤١	٦٤٨	٨٧	١٣٧	٧١٩	١٨٠٤	٢١	٨٥
مقاطعة مصراتة	٧١٠	٣١٠٠	٤	٢٢	٢١٤	٩٤٤	٤	٢٢	٣٨٧	١٨١٨	١٢	٦٢	٩	٣١	٣	٥	٦٦	١٤٢	١١	٥٤
بلدة مصراتة	٢٠٣	٨٣٨	--	--	٥٣	٢٢٩	١	٣	١١٥	٥١٦	٣	٢٠	٧	٢٢	--	--	٢٣	٤٦	١	٢
مقاطعة بنغازى	٧٦٧	٣٤٧٢	٢	٨	١٩٦	٨٧٤	١٢	٦٢	٣٥٠	١٧٧٥	١٧	٧٨	٤٢	١٩٧	١٤	٢٦	١٣١	٤٤٣	٣	٩
بلدة بنغازى	٦٩٥	٣١٢١	٢	٨	١٧٥	٧٨٧	١٠	٥٢	٣٠٩	١٥٤٦	١٥	٧٠	٤١	١٩٦	١٤	٢٦	١٢٦	٤٢٧	٣	٩
مقاطعة درنة	١٥٣	٧١٤	--	--	٤٠	١٦٥	١	١	٩٧	٤٨٨	٣	١٠	٤	٢٠	--	--	٨	٣٠	--	--
بلدة درنة	٥٥	٣٢٢	--	--	١٢	٦٤	--	--	٣٧	٢٣٤	١	٢	١	٦	--	--	٤	١٦	--	--
المنطقة العسكرية بالجنوب	٧	١٦	--	--	٥	١٠	--	--	٢	٦	--	--	--	--	--	--	--	--	--	--
ليبيا	٦٤٨٥	٢٨٣٢١	٥٦	٢٦٧	٢٣١٤	١٠٠٥٩	١٥٠	٧٠٩	٢٥٤٦	١٢٤٩٢	١٠٤	٤٩٨	٢٠١	٩٢٠	١٠٤	١٦٨	٩٧٠	٢٥٣٥	٤٠	١٧٣

جدول رقم (٥)

التوزيع المهنى ليهود شمال افريقيا خلال عام ١٩٣١

البلد	نسبة العاملين من مجمل السكان	مهن حرة	تجارة	صناعة	إدارة	زراعة
الجزائر	٢٦,٩٢	٨,٨٦	٣٣,٨	٥١,١٩	٥,١٧	٠,٤٣
تونس	٢٤,٩٠	٩,٨	٤٩,٣٨	٣٦,٢١	٠,٢٤	٠,٧٧
المغرب	١٤,٦٢	٠,٦٩	٤٣,٢٤	٥١,٥٤	--	٣,٩٣
التعداد الكلى	٢١,٣٦	٦,٥٩	٣٩,٩٨	٤٧,٨٠	٠,٥٣	١,٥١

جدول رقم ٦

التوزيع المهنى ليهود الجزائر خلال عامى ١٩٣١ - ١٩٤١ (١)

	نسبة العاملين من مجمل تعداد السكان	مهن حرة	تجارة	صناعة	إدارة	زراعة
مقاطعه الجزائر	٢٧,٥٧	١١,٩٣	٣٥,٠٠	٤٥,٣٢	٥,٦٧	٠,٢٥
مقاطعة وهران	٢٥,٣١	٨,٥٦	٣٧,٠٢	٤٨,٤١	٤,٢٢	٠,٤٨
مقاطعة قسطنطينة	٢٩,١٣	٦,٤	٢٤,٩٦	٦١,٣٣	٦,٣	٠,٥٥
العدد الاجمالى	٢٦,٢ (٢٧,٥)	٨,٨٦ (٤,٨)[٢]	٣٣,٨ (٣٠,٨)	٥١,١٩ (٤٩)	٥,١٧ (٩,٨)	٠,٤٣ (١٠٥١)

١ ـ المعطيات الواردة بين قوسين تشير إلى بيانات عام ١٩٤١ .

٢ ـ ينبع هذا التفاوت من الفروق الخاصة بالمصطلحات .

جدول رقم (٧)

نسبة النشاط الاقتصادى فى أوساط يهود المغرب وفقاً للجنس (١٩٥١)

	الدار البيضاء	مدن أخرى	القطاع المدنى	القطاع الريفى	العدد الاجمالى
الرجال	٤٥٠١	٤٢,٣	٤٣,٦	٤١,٨	٤٣,٣
النساء	١٤٠٦	١١,٣	١٢,٩	٥	١١,٣

الفصل الثالث

اليهود والمجتمع حتى الحرب العالمية الثانية

كان الأديب اليهودي ألبير ميمي واحدا من أفضل الأدباء الذين قدموا وصفا دقيقا لمشاعر يهود شمال أفريقيا في العصر الحديث، فقدم ميمي في كتاب الوطن المسيطر (L'Homme Domain) الذي صدر في باريس في عام ١٩٦٨ وصفا بالغ الدقة لمشاعر اليهود، فجاء في كتابه «كان التونسيون ينظرون إليّ بوصفي مواطنا من الدرجة الثانية . ومن هنا لم تكن لي أية حقوق سياسية، كما لم يكن لي حق التقدم إلى الوظائف . وكانت اللغة الفرنسية هي اللغة الأم لليهود، وكان مظهرهم أوروبيا بالكامل، ومن ثم فإنهم كانوا متفوقين على المسلمين، وبالرغم من أن هذه الفروق جعلتهم يتعرضون لكراهية السكان إلا أنها جعلت الفرنسيين يعاملونهم بشكل مختلف عن معاملتهم للمسلمين الذين كانوا يشكلون بالنسبة للفرنسيين أدنى طبقات السلم الاجتماعي» .

وتعبر هذه الفقرة عن طبيعة مشاعر اليهود في شمال أفريقيا، وكان من بين مشكلات اليهود آنذاك أنه بينما احتقر السكان المسلمون جهود اليهود الرامية إلى التقرب من الأقلية الأوروبية الحاكمة وثقافتها، فلم يكن الأوروبيون على استعداد لتقبل اليهود الذين حاكوا تقاليدهم . وكان إحساس اليهود بالاغتراب عن الغالبية المسلمة، وبالرفض من قبل الأوروبيين، يعد ملمحا رئيسيا من ملامح الحياة اليهودية في دول شمال أفريقيا في ظل الفترة الاستعمارية . كما عانى يهود هذه البلدان في هذه الفترة من عداء الأوروبيين الذين نجحوا في إشعال عداء العرب لليهود .

وكان يهود الجزائر من أكثر يهود شمال أفريقيا تعرضا لعداء السكان ولكن

يجب أن نميز بين فترتين رئيسيتين في تاريخ هذه الحالة من العداء، فقد بدأت الفترة الأولى بعد صدور مرسوم كرميه الذي منح حق المواطنة الفرنسية لليهود، ودامت هذه المرحلة حتى عشية الحرب العالمية الأولى. وبدأت الفترة الثانية منذ منتصف العشرينيات وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، واتسمت هذه الفترة بتزايد قوة الأنشطة المعادية لليهود في كافة بلدان شمال أفريقيا، وشارك المسلمون والأوروبيون على حد سواء في هذه الأنشطة.

تطور الحركة الصهيونية في دول شمال أفريقيا من مؤتمر بازل حتى الحرب العالمية الأولى

تعود بدايات الحركة الصهيونية السياسية في دول شمال أفريقيا إلى الفترة ما بين ١٨٩٧ و١٩٠٠، العام الذي قررت فيه اللجنة الصهيونية العاملة تعيين الدكتور فالنسين الجزائري، ممثلا للحركة الصهيونية في دول المغرب العربي، ومع هذا فقد شارك قبيل هذه الفترة مندوب عن دول شمال أفريقيا في المؤتمر الصهيوني الأول في بازل، ولكنه حضر في إطار الوفد الفرنسي المشارك في أعمال المؤتمر. وقد أولى المشاركون في هذا المؤتمر اهتماما ضخما بأوضاع يهود الجزائر، إذ تحدثوا بشكل مستفيض عن المظاهرات المعادية لليهود التي شهدتها الجزائر في هذا الحين، ومع هذا لم يكن لهذا المؤتمر صدى واسع النطاق في أوساط يهود الجزائر باستثناء يهود مدينة قسطنطينة التي بعث أحد سكانها من اليهود في شهر سبتمبر عام ١٨٩٧ خطابا إلى تيودور هرتزل جاء به:

«حظيت مبادرتك الهادفة إلى تطبيق الفكرة الصهيونية باهتمام واسع النطاق في قسطنطينة، وتحظى الفكرة الصهونية التي حققت قدرا كبيرا من الانتشار في أوساط أبناء طائفتنا الذين يعانون من الاضطهادات، شأنهم في هذا شأن إخوانهم من اليهود في روسيا ورومانيا، بتأييد كل يهود قسطنطينة الذين يرون أن هذه الفكرة هي الحل الوحيد للقضية اليهودية. وباسم كل أبناء ديانتنا فإننا موافقون على كل القرارات التي اتخذها المؤتمر الصهيوني، ونتعهد أمامك بتقديم تأييدنا الكامل».

وعملت في نفس الحين في القاهرة رابطة «بركوخفا» الصهيونية التي أسسها في شهر فبراير عام ١٨٩٧ الشاب اليهودي ماركو باروخ الذي كان من مواليد القسطنطينية، والذي تعرف أثناء دراسته في أوروبا الغربية على الأفكار الثورية. وقد أتى ماركو باروخ إلى مصر في عام ١٨٩٦، بعد أن قام بجولة في كل من الجزائر والنمسا وبلغاريا، وأصدر باروخ في مصر صحيفة فرنسية تدعى «الكرمل»، وارتحل ماركو باروخ بعد تأسيسه لهذه الرابطة الصهيونية إلى إيطاليا، ومثل في مرحلة لاحقة يهود إيطاليا في المؤتمرين الصهيونيين الثاني والثالث، وقد توفي باروخ في مدينة بيرنتشه في عام ١٨٩٩.

وحرص باروخ إبان إقامته في مصر على ترويج الفكرة الصهيونية في أوساط اليهود، فدعا إلى هذه الفكرة في المعابد والمنتديات، والمؤسسات اليهودية المختلفة. وكان من بين الأفكار التي دعا إليها باروخ احتلال فلسطين بالقوة، وتدريب اليهود تدريبا عسكريا حتى يصبح بمقدورهم أن يشكلوا في الوقت المناسب نواة الجيش اليهودي، وفي الحقيقة فإن هذه الرؤية لم ترد في البرنامج الخاص برابطة «بركوخفا» التي تمثلت أهدافها في تشجيع اليهود على الاندماج في مجتمعاتهم، وتقبل فكرة الاستيطان الزراعي في فلسطين.

وتفيد شهادات باروخ أن دعوته للحركة الصهيونية جذبت اهتمام أعداد محدودة من اليهود الأشكناز بالقاهرة الذين كانوا أكثر اندماجا في هذا الحين بالحياة الثقافية في مصر بالمقارنة باليهود السفاراد، الذين كانوا يتحدثون الإسبانية والعربية والإيطالية. وفي واقع الأمر فقد كانت مشكلة كيفية جذب الحركة الصهيونية لليهود السفاراد واحدة من أبرز المشكلات التي واجهتها الحركة الصهيونية في مصر.

وعلى كل حال تزايد عدد أعضاء هذه الرابطة الصهيونية بشكل ملحوظ بعد تأسيسها، فقدر عددهم في عام ١٩٠٢ بثلاثمائة وستين عضوا، وأبدى أعضاؤها اهتماما ملحوظا بالحصول على «الشيقل» الصهيوني وتوزيع أسهم الاستيطان في فلسطين، كما كان من بين منجزاتهم نجاحهم في عام ١٩٠٠ في

افتتـاح مدرسة صهيونية بلغ عدد الـدارسين فيها في عام ١٩٠١ ثلاثمائة تلميذ، كما افتتحوا في نفس العام فرعا لرابطة «بركوخفا» في مدينة الإسكندرية التي ترجع بدايـات النشاط الصهيـوني فيها إلى عـام ١٨٩٨، ويـرجع فضل ترويج الفكـرة الصهيونية في أوساط يهود الإسكندرية إلى شارل بوجودادلي، نجل أحد الصيارفة اليهـود، الذي شـارك في أعمال المؤتمرين الصهيـونيين الثاني والثـالث، ورغم أن بوجودادلي سعى إلى إقناع شباب اليهود في الإسكنـدرية بأهمية المشاركة في جهود الحركة الصهيونية إلا أن جهوده باءت بالفشل . .

وواجهت رابطة «بركـوخفا» في عام ١٩٠٣ العديد من الصعـوبات التنظيمية والمالية، ولذلك تـوقفت في عام ١٩٠٤ عن مزاولة أنشطتهـا، وحلت مكانها في السنوات السابقـة للحرب عدة روابط صهيونيـة افتقرت إلى أي تنسيق فيما بينها، ومع هذا طـرأت تغيرات على هذا الوضع عشية نشـوب الحرب، ويرجع الفضل في هذا الأمـر إلى المبادرات التي قام بها مبعوثـو الحركة الصهيونيـة في مصر الذين كانوا على وعي تام بمدى أهمية صلة القرب الجغرافي بين مصر و إسرائيل، ومكانة مصر في العـالمين العـربي والإسـلامي. وكان مـن بين مظاهـر هـذا الاهتمام أنـه تأسست في نهايات عـام١٩٣١ لجنـة تابعـة للمركـز الصهيوني في مصر، تـزامن تأسيسها مع الفترة التي تدفق فيهـا الآلاف من اللاجئين اليهود من فلسطين على كل من القاهرة والإسكندرية.

أما في تونس فقد تشكلت أول رابطـة من الشباب الصهيوني بعد انتهاء المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بازل، ولا نعرف عن تـاريخ هذه الرابطة سوى أنها بعثت بـرقيـة تهنئـة إلى المشـاركين في المؤتمر الصهيـوني الثـالث، وكما يبـدو فقـد تأسست في تونس وفي كافـة الأماكن، التي وصل إليها نبأ قيام الحركـة الصهيونية سواء عن طريق السياح أو الصحافة، عدة جماعات حرصت على العمل لصالح الحركة الصهيونية، وتعد «رابطة صهيون» التي تأسست في عام ١٩١١ بمنزلة أول جهة قامت بتنظيم النشاط الصهيوني في تونس، وضمت هذه المنظمة في صفوفها الشخصيـات التي أصبحـت فيما بعـد، وخـاصـة في العشرينيـات، من أبـرز الشخصيات الصهيونية في تونس، والتي كـان من بينها: الفرد ولنسي، ويوسف

رامي، . وهنري معرق، وكان من بين أنشطة هذه الرابطة إصدارها لصحيفة «صوت صهيون». وضمت هذه الرابطة في صفوفها الاتجاهات العلمانية والدينية على حد سواء، وكانت هذه السمة من بين السمات المميزة أيضا لرابطة «يوشيفيت تسيون» الصهيونية، واقتصرت أنشطة الرابطتين على مدينة تونس، كما كان من بين السمات المميزة لهما حرصهما على عدم التعاون أو تنسيق الأنشطة مع الروابط الصهيونية التي أقامت في الضواحي مثل رابطة «ترحام تسيون» التي عملت في مدينة سوسة، ورابطة «محبة صهيون» التي عملت في صفاقس، ورابطة «أبناء صهيون» التي تأسست في مدينة بيجة إبان الفترة التي وصلت فيها الحرب إلى الذروة.

وقد مارست كل هذه الروابط أنشطتها بموافقة الفرنسيين، وكانت لكافة هذه الروابط صلات مباشرة أو غير مباشرة بالاتحاد الصهيوني، فقامت هذه الروابط بتوزيع «الشيقل الصهيوني»، وأسهم الاستيطان في فلسطين.

وفي المغرب تأسست في المدن الساحلية، التي كانت أكثر تأثرا من غيرها بالفكر الأوروبي، أولى الروابط الصهيونية، فتأسست في مدينة موجادير في عام ١٩٠٠ رابطة «أبواب صهيون»، وجاء في الخطاب الذي بعثه رئيس الرابطة إلى تيودور هرتزل: «إن يهود المدينة تعرفوا على الفكر الصهيوني من خلال مدير مدرسة جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء»، ومن خلال الزيارة التي قام بها يهودي مغربي الأصل مقيم في مدينة مانشيستير البريطانية إلى المغرب، والتي قام خلالها بشراء بعض أسهم صندوق الاستيطان اليهودي في فلسطين»، كما تأسست في نفس الفترة في مدينة تطوان رابطة «العودة إلى صهيون»، ويرجع فضل تأسيسها إلى أحد الأطباء العاملين في المدينة والذي كان من مواليد روسيا. وقد طلب هذا الطبيب في أحدخطاباته التي بعث بها إلى مسؤولي اللجنة الصهيونية العاملة أن يرسلوا إليه مضمون برنامج مؤتمر بازل، وقرارات المؤتمرات الصهيونية، وكافة الأمور التي يرون أنه من الأهمية بمكان بعثها إلى يهود مدينته.

وأوضح ليون خلفون رئيس الرابطة في خطاب آخر أنه تأسست بالإضافة إلى الرابطة مكتبة عبرية، وأن الغرض من إنشائها يتمثل في العمل على نشر اللغة العبرية ونشر الفكرة الصهيونية في أوساط اليهود.

وتأسست فيما بعد في مدينة صافي رابطة «محبة صهيون» التي أعربت عن استعدادها لخدمة الفكرة الصهيونية، وجاء في خطابها الذي بعثته إلى تيودور هرتزل، قبيل انعقاد المؤتمر الصهيوني السادس: «إن الوضع الراهن لإخواننا من اليهود خطير للغاية... مما يستدعي قيام قادة الحركة الصهيونية بتقديم المساعدة والنهوض بهم. وفي الوقت الحالي الذي تشتد به قوة الحركة القومية فإن نصرة إسرائيل مازالت تتلكأ، وإذا استمر الوضع على ما هو عليه فإن الآمال التي يعقدها شعبنا على المستقبل ستتبدد».

وترجع بدايات النشاط الصهيوني في المدن الواقعة بوسط المغرب إلى الفترة التي تأسست فيها في مدينة فاس رابطة «محبة صهيون» التي بعثت بعد تأسيسها خطابين إلى يسرائيل زانجفيل رئيس جماعة «اليوم الطيب الأخير» وكان من بين أنشطة هذه الرابطة قيامها بتوزيع الشيقل الصهيوني وأسهم صندوق الاستيطان في فلسطين، كما حرصت الرابطة أيضا على توسيع إطار أنشطتها التي امتدت لتصل إلى مدينتي صفرو ومكناس.

أما في ليبيا فقد بدأ سكانها في ممارسة النشاط الصهيوني بعد الاحتلال الإيطالي، ومع هذا كانت لهم قبل هذه الفترة اتصالات محدودة ببعض المؤسسات الصهيونية. ويرجع إلى المصور اليهودي الياهو نحيمس الذي عمل مراسلا لصحيفة «يسرائيل» (اسرائيل) التي كانت تصدر في مدينة بريتسا فضل تأسيس أول رابطة صهيونية في طرابلس، ودعا نحيمس بالاشتراك مع مجموعة صغيرة من الشباب اليهودي المستنير إلى إحياء الثقافة اليهودية، ونشر اللغة العبرية. وعلى خلاف سائر الروابط الصهيونية التي تأسست في دول شمال أفريقيا، سعت «رابطة صهيون» التي أسسها نحيمس إلى السيطرة على كافة مؤسسات الطائفة، فقام نحيمس في عام ١٩١٧ بتقديم مرشحي رابطته

لدخول مجلس الطائفة في طرابلس مما أثار غضب القادة اليهود المحافظين، ولكن يهود إيطاليا أسرعوا بتأييد نحيمس لاسيما أنهم كانوا يرحبون بجهوده الرامية إلى الارتقاء بالوضع الثقافي ليهود ليبيا، وتعريفهم بالفكر الصهيوني. ومع انعقاد الانتخابات حظيت قائمته بثلثي مقاعد المجلس، كما حظي بتأييد يهود طرابلس الذين شعروا بمدى صدق مشاعره الدينية، ولكنه لم يتمكن من ممارسة أنشطته الصهيونية لفترة طويلة إذ وافته المنية في عام ١٩١٨ أي لم يكن يتجاوز عمره الثمانية والعشرين عاما.

وعند الحديث عن بدايات الحركة الصهيونية في دول شمال افريقيا فلابد من معرفة أنه بينما تطلب نشر الفكر الصهيوني في كل من المغرب وليبيا قدرا من الانفتاح على العالم الخارجي فإن الحفاظ على التقاليد وعدم المساس بها كانا شرطا رئيسيا لممارسة أي نشاط صهيوني في تونس وفي الجزائر على وجه الخصوص.

وكانت مدينة قسطنطينة، التي اتسم سكانها من اليهود بالحفاظ على التقاليد اليهودية، بمنزلة المركز الوحيد للحركة الصهيونية بالجزائر، التي لم يكن لها في المقابل وجود ملموس في مدينتي الجزائر أو وهران اللتين اتسمت الحياة اليهودية فيهما بقدر ما من الحداثة. وفيما يتعلق بالمدن الساحلية بالجزائر مثل بون، وسطيف أو تلمسان، فكان لبعض سكانها من اليهود صلات بالمؤسسات الصهيونية، وقد رأى هؤلاء أن الصهيونية تعد بمنزلة درع في مواجهة محاولات الاندماج في المجتمع، وفي مواجهة الفكر الديني.

وتجلت مظاهر هذه الرؤية الداعية إلى عدم المساس بالتقاليد في كل من المغرب وليبيا اللتين ارتبطت فيهما الفكرة الصهيونية بحركة الصحوة الدينية، ولذلك تزايد تعداد الحاخامات في صفوف الحركة الصهيونية بدول شمال أفريقيا باستثناء مصر، فضمت «رابطة صهيون» في طرابلس الحاخام اسحاق بوحوبزه نائب رئيس المحكمة الشرعية العليا، كما ضمت العديد من الحاخامات الذين كان من بينهم الحاخام مردخاي هكوهين مؤلف كتاب «هجيد مردخاي»، والحاخام رفائيل دفوش، والحاخام يوسف جيان، والحاخام تسيون تشوفاه كما

ساد نفس الوضع في المغرب، إذ شغل كبير حاخامات مدينة موجادير منصب سكرتير الرابطة الصهيونية المحلية، . كما ساد نفس الوضع في مدينتي آسفي ومكناس، كما انضم معظم حاخامات فاس إلى رابطة «محبة صهيون». وساد في تونس وضع شبيه بالوضع الذي أشرنا إليه في كل من المغرب وليبيا حيث تولى الحاخام بخاره رئاسة رابطة «بوشيفيت تسيون»، وساد نفس الوضع إلى حد ما في مدينة قسطنطينة بالجزائر، إذ انضم حاخامات المدينة إلى رابطة «محبة صهيون» الصهيونية.

وكان من بين السمات المميزة للروابط الصهيونية في دول شمال أفريقيا، وخاصة في كل من تونس والمغرب، أن هذه الروابط ضمت في صفوفها أعدادا كبيرة من اليهود ذوي الأوضاع الاجتماعية المتميزة والمناصب المهمة، فكان من بين قادة رابطة «بوشيفيت تسيون»، على سبيل المثال، محاضر للاقتصاد وقاضيان وأحد الصيارفة وثلاثة من كبار التجار، كما كان خمسة من بين أعضاء لجنة الرابطة من حملة النياشين والأوسمة. ولا شك أن وجود هذه الشخصيات البارزة ساهم كثيرا في تطور الحركة الصهيونية في تونس، وفي إقبال السكان اليهود على الحركة. وقد طالبت الشخصيات الصهيونية النشيطة بتونس قادة الاتحاد الصهيوني العالمي بضم وجهاء الطائفة إلى صفوف الاتحاد بغرض تعزيز مكانة الفكرة الصهيونية في تونس.

واستوعبت قيادة الاتحاد الصهيوني العالمي بشكل جيد هذا المطلب، ولذلك فحينما أقدمت هذه القيادة في عام ١٩١٦ على تأسيس منظمة مركزية تضم في صفوفها كافة الروابط الصهيونية المصرية، التي كانت كل واحدة منها تعمل بشكل مستقل، فقد حرصت على أن يتولى شخص من صفوة المجتمع المصري قيادة هذه المنظمة الأم، ومن هنا وقع اختيارها على جاك موصيري الذي كان من أبرز الصيارفة في حينه.

أما في المغرب فقد كانت الرغبة في البحث عن الوسائل التي من شأنها إكساب الحركة الصهيونية مكانة مرموقة في المجتمع من بين العوامل التي شجعت أتباع

الحركة الصهيونية في مدينة فاس على مطالبة اللجنة الصهيونية العاملة في عام ١٩١٠ بأن تحدد الجهة الأوروبية التي بمقدورها رعاية رابطة «محبة صهيون»، وكما هو معروف فقد كانت أعداد كبيرة من يهود المغرب تحظى، وحتى قبل أن يتحول إلى محمية فرنسية، برعاية وحماية القوى العظمى. ولم تقتصر مزايا هذه الرعاية على توفير الإحساس بالأمن والاستقرار لليهود في مواجهة السلطة وإنما كانت هذه الرعاية تعطي من يتمتع بها إحساسا بالعزة والشرف، ولا غرابة في أن حصول اليهود على هذه الرعاية أصبح من بين السمات المميزة للنجاح في المجالين الاقتصادي والاجتماعي. ولقد استشعرت رابطة «محبة صهيون» في المغرب أن حصولها على مثل هذه الرعاية سيصبح أمرا يدعو لإحساسها بالتميز، فجاء في الخطاب الذي بعثته هذه الرابطة إلى اللجنة الصهيونية العاملة: «إن الرعاية التي ننشدها ستوفر لنا الإحساس بالأمان، كما أنها ستشجع أعدادا كبيرة من يهود المغرب على الانضمام إلى رابطتنا». وقد رسمت الرابطة في خطابها صورة قاتمة للغاية للوضع الذي يواجهه يهود المغرب فجاء في خطابها: «وإننا نعمل على ترويج الفكرة الصهيونية ولكن الشعب يواجه أزمات عديدة، إن كل مراد الشعب لا يتعدى الحفاظ على أرواح أبنائه».

ولم يلق هذا المطلب قبول ولفنسون رئيس اللجنة الصهيونية العاملة الذي برر رفضه بقوله: «إنه من الضروري أن يتحلى الاتحاد الصهيوني بالحذر، وألا نقوم بأي شيء يجعل البعض يتصور أننا نرغب في التدخل في الشؤون الداخلية لأية دولة، ولو أرسلنا إلى جماعتكم خطابات توصية موجهة إلى مندوبي الدول الأوروبية المقيمين في مدينتكم فمن المحتمل أن يسفر هذا الموقف عن إلحاق أشد الضرر بالحركة الصهيونية». وبالرغم من أن المبررات التي طرحها ولفنسون تبدو منطقية ومقبولة من ناحية المبدأ، إلا أن هناك شكا في مدى مصداقية مواقفه لا سيما إذ وضعنا في اعتبارنا طبيعة الظروف التي كان المغرب يعيشها في هذا الحين.

وتعد هذه القضية مثالا على حالة سوء الفهم التي ميزت علاقة المؤسسات الصهيونية بهذا الجزء من العالم اليهودي، وقد كان عامل اللغة من أهم العوامل

التي حـالت دون تحقيق قـدر كاف مـن التواصل بين الطـرفين حيث اعتـادت الحركة الصهيونية حتى نهايات العشرينيات أن تـرسل نشراتها الإعلامية إما بلغة اليـيـديش أو باللغـة الألمانيـة التي لم تكن معـروفة إلا لعـدد ضئيل من يهود مصر، كما أنها لم تكن معروفة لقادة الفكر الصهيـوني في دول شمال أفريقيا الذين كانـوا يعرفـون العربيـة والفرنسية والإسبـانية فقط، ويعـد الخطاب الـذي بعثه سكرتير رابطـة «بني صهيـون» في مدينـة جايـا بالمغـرب إلى اللجنة الصهيـونية العاملة خير دليل على أن عـامل اللغة حال دون إقامة صـلات مباشرة مع قادة الحركة الصهيونية فجاء بخطابه: «إن خطابكم الذي بعثتموه مازال لغزا محيراً، وباسمي وباسم كل إخواني نطلب منكم ألا تكتبـوا خطاباتكم بأي لغة أجنبية خاصـة أننا نعتـز باللغة العبريـة المقدسة. ومـا شأننا بهذه اللغـات الأجنبية، ولذلك اكتبوا لنا باللغة العبرية».

ولم تستجب المؤسسـات الصهيونيـة حتى العشرينيات لطلبـات دول شمال أفـريقيا — بـاستثنـاء مصر التي كـانت لها مكـانة خـاصـة لـدى قادة الحركـة الصهيونية — الخاصة بإرسال مبعوثين مـن قبلها للالتقاء بسكانها من اليهود. وكان من بين العوامل التي ساهمت أيضا في عـدم وجود صلات وثيقة بين قادة الحركـة الصهيـونيـة وأتبـاع الحركة الصهيـونيـة في بلـدان المغـرب العـربي، أن المؤسسات الصهيونية أحست أنها غير ملزمة بتقديم شروح مستفيضة عن ماهية الحركة الصهيـونية وطـرق عملها، ولاشك أن الإجابـات المقتضبة التي قـدمها سـوكـولوف، وولفنسـون على الأسئلـة التي وجهت لهما من قبل يهود المغـرب لم تشف غليل القراء، فجاء، على سبيل المثال، في الخطاب الذي بعثه سوكولوف لـرئيس رابطة «يـوشيفيت تسيـون» بالمغـرب: «انضموا إلى الاتحاد الصهيـوني، وستعرفون تدريجيا كل ما تشاؤون من معلومات».

وبالرغم من أن المؤسسات الصهيونية لم تبد اهتماما ضخما بيهود شمال أفريقيا إلا أن مراسلات المؤسسات الصهيونية المركزية تتضمن تفاصيل عديدة توحي بأن قـادة هـذه المؤسسات أولـوا اهتمامـا كبيرا بترويج «الشيقل» الصهيـوني، وأسهم صندوق الاستيطـان في هذه الـدول. وإزاء هذا الـوضع كتب رئيس رابطـة «محبة

صهيون» في مدينة صافي بالمغرب خطابا إلى تيودور هرتزل أعرب فيه عن إحساسه بالدهشة من موقف الحركة الصهيونية غير المبالي بوضع يهود بلاده. وعلى ضوء هذا الوضع أحس الكثيرون من يهود المغرب أن المؤسسات الصهيونية تعد بمنزلة هيئة خيرية يقتصر دورها على جمع التبرعات، وظل هذا الإحساس مسيطرا لفترة طويلة على نفوس يهود شمال أفريقيا.

وكان من بين العوامل التي حالت دون تحقيق قدر كاف من التواصل بين قادة الحركة الصهيونية ويهود هذه البلدان أن كل الروابط الصهيونية التي سبق التحدث عنها تأسست لأسباب وثيقة الصلة بعامل الحنين الديني إلى «صهيون»، وأن شخصيات محدودة فقط من يهود هذه البلدان كانت على معرفة بالطابع العلماني للصهيونية السياسية التي رأت وجود اليهود بين غير اليهود ليس مجرد حكم فرضه الإله على شعبه، وإنما هو قضية يمكن للبشر التوصل إلى حل سياسي لها، وأنه ليس من المقبول انتظار معجزة مسيحانية لحلها.

وعلاوة على هذا فقد تزامن ظهور الصهيونية السياسية في دول شمال أفريقيا مع الفترة التي كانت فيها الطوائف اليهودية تتلمس أولى خطواتها على درب التحرر من أغلال الماضي، هذا بالإضافة إلى أن التغييرات التي شهدتها هذه الطوائف في العصر الحديث لم تكن مرتبطة بقضية الاندماج في المجتمع والقضاء على الهوية اليهودية، ومن هنا رأى يهود هذه البلدان أن عملية الانعتاق من أغلال الماضي ليست سوى وسيلة لتغيير أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية.

وبالإضافة إلى الظروف الاجتماعية- الثقافية التي لم تسمح بدورها للحركة الصهيونية بالتسلل إلى بلدان شمال أفريقيا فمن الضروري أن نتذكر أنه قد عملت جهات منافسة للحركة الصهيونية في بعض هذه البلدان كان من بينها جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» التي سعت أيضا لحل مشكلات يهود هذه البلدان وفقا لرؤيتها الخاصة بها، كما أن هيئة الإليانس التي عملت في هذه البلدان لم تكن مجرد مؤسسة خيرية، وإنما كانت مؤسسة دعت إلى أفكار

شكلت بدورها بـديلا أيديولـوجيا وعمليا للفكرة الصهيونيـة . وقد يكون خير دليل على ماهيـة الفروق التي سـادت بين فكر الحركة الصهيـونية وفكـر جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء»، أنه بينما أولت الصهيـونية اهتماما ضخما بفكرة الهجرة إلى فلسطين والاستيطان بها، عملت هذه الجماعة على ترويج مجموع قيم الثقافة الفرنسية في نفوس يهود شمال أفريقيا، كما آمنت هذه الجماعة بأن إصلاح أحوال اليهـود الاجتماعية والثقافية، وانـدماجهم في حياة بلدانهم الاقتصـادية كفيلان بحل كـافة مشكـلات اليهود، ومن هنـا فلا غـرابة في أن قـادة الفكر الصهيـوني بدول شمال أفـريقيـا انتقدوا بشـدة سيطـرة فكـر هذه الجماعـة على المجالس اليهـودية في دول شمال أفـريقيا، وفي المقـابل اتهم أتباع هـذه الجماعة الحركة الصهيونية بأنها حـركة معادية لفرنسا تهدف إلى تقليص مكـانة فرنسا في منطقة الشرق الأوسط .

الوضع بين الحربين العالميتين

أثار تصريح بلفـور وقرارات مؤتمر سـان ريمو موجـة ضخمة من الحماس في أوسـاط يهود شمال افريقيـا، كـان من بين مظاهـرهـا : تنظيم يهود هذه البلـدان لصلوات جماعيـة وعقدهم لمؤتمرات ضخمة أعـربوا خلالها عن تأييـدهم للفكرة الصهيونية، وللأنشطـة الصهيونية، كما كان من بين مظاهر تأييـدهم للصهيونية إقامتهـم العديد مـن التنظيمات بغرض الهجـرة إلى إسرائيل، وتزايـد إقبالهم على شراء الشيقل الصهيوني.

وفي مصر شـارك الآلاف من اليهـود في نهايـات عـام ١٩١٧ في المؤتمرات الجماهيرية التي عقدت في مدينتي الإسكندرية والقـاهرة والتي شارك فيها حاييم وايزمان وعدد من قادة الحكومـة المصرية . ونجح جاك موصيري في هذا الحين في ضم المزيد من اليهـود إلى صفوف الاتحاد الصهيـوني، والحصول على تأييـد قادة الطائفتين الاشكنازية والسفاردية في مصر، وكان من بين أنشطة الحركة الصهيونية في مصر قيام قـادتها بإصـدار مجلة La Revue Sioniste التي كـانت تنطق بلسان الحركـة . كما قام البرت مـوصيري الذي كـانت تـربطه صلـة قرابـة بجاك

موصيري، بإصدار مجلة «إسرائيل». أما في الإسكندرية فقد بدأت «اللجنة العاملة لصالح أرض إسرائيل» منذ عام ١٩١٨ في ممارسة أنشطتها، وساهمت هذه اللجنة منذ العشرينيات في نقل الآلاف من مهاجري أوروبا إلى فلسطين، وكانت هذه اللجنة تضم في صفوفها عدداً كبيراً من وجهاء المدينة.

وفي ليبيا شملت الأنشطة الصهيونية مدينة قيرنايقة، وهذا بعد أن تأسست بها في عام ١٩١٩ «رابطة هرتزل» التي أثرت مثل «رابطة صهيون» في طرابلس في مسيرة التعليم العبري في ليبيا، ونجحت «رابطة صهيون» التي كانت تصدر صحيفة «راية صهيون» في تعزيز مكانتها في أوساط مؤسسات الطائفة، وكان من بين أنشطتها تأسيسها لأربع روابط حرفية لتعليم الشباب اليهودي في ليبيا.

أما في تونس فقد شهدت الفترة ١٩١٧-١٩٢٢ زيادة ملحوظة في عدد الروابط الصهيونية، وكما هو معروف كانت هناك في تونس في عام ١٩١٧ اثنتا عشرة رابطة صهيونية، وكانت هذه الروابط الصهيونية منتشرة في كل من تونس، بيروطة، صفاقس، سوسه، مهديه، نابول، جربه، قيوان، وموقنين، وبلغ أعضاء كافة هذه الروابط ألفي يهودي. ومع حلول عام١٩٢٠ وافقت كافة هذه الروابط على الاتحاد فيما بينها، وتشكيل ماعرف فيما بعد باسم «الاتحاد الصهيوني التونسي» الذي حظى بعد مضي ثلاثة شهور على تأسيسه باعتراف رسمي من قبل السلطة، الأمر الذي أتاح للحركة الحرية في ممارسة أنشطتها، وفي التعبير عن كافة آرائها في مجلة **La Voix Juive** التي كانت تصدرها. ولاشك أن موافقة السلطات على النشاط الصهيوني، علاوة على نجاح الفريد فالنسي زعيم الاتحاد في الإمساك بزمام الأمور ساهما في انضمام صفوة المجتمع اليهودي وأبناء الطبقات الشعبية من المجتمع على حد سواء إلى الاتحاد الصهيوني، وربما يكون خير دليل على نجاح الحركة الصهيونية بتونس أن كافة زعماء الطائفة رحبوا بالتوقيع على البيان الذي أصدره الاتحاد الصهيوني في عام ١٩٢٢ بمناسبة افتتاح صندوق التبرعات لصالح الصندوق القومي اليهودي.

أمـا في الجزائر فلم يطرأ أي تغيير على مـوقف السكـان اليهـود اللامبـالي تجاه الحركـة الصهيونيـة، وإن كان هـذا الأمر لا ينفي أنـه تشكلت بعد الحرب عـدة روابط يهودية في مدن تلمسان، ومديه، ومستغانم، وبريفيل أعربت جميعها عن تـأييدهـا للفكرة الصهيونيـة. ولكن قد عملـت بالجزائر منـذ عام ١٩٢٠ رابطة «العودة إلى صهيـون» التي ضمت في البدايـة حوالي مـائتين وسبعين عضوا، ومع هذا تفيد شهـادات زعيمها أن الرابطة لم تكن على قـدر كبير من التأثير في أوساط يهود الجزائر فجاء بإحدى شهاداته: «إن أثـرياء اليهود والشخصيات ذات النفوذ تقـاطع الحركة الصهيـونيـة، ولا يمكننا حتى الآن الاعتماد على تأييـدهم. وتضم رابطتنـا في صفـوفها فقـراء اليهـود والعمال والمستضعفين، ونأمل في أن ننجح في جذب أثريـاء وشرفاء اليهود ولكنهم يدعون دائما أنهم فـرنسيون وأنهم غير ملزمين بالاهتمام بالمسألة الصهيونية، وأنهم يشعرون بالارتياح في الجزائر».

وتساعدنا•هذه الشهادة على تفهم الجهود التي بذلها مبعوثو الحركة الصهيونية في الجزائر بغرض إزالـة كافـة الحواجز التي كـانت تعوق تحقيق القـدر الكافي من التـواصل بين قـادة المجالس اليهـوديـة وأتبـاع الحركـة الصهيونيـة ولكن بـاءت جهودهم التي بذلوها في كل زمان ومكان بالفشل.

وفي المغـرب تزامن ظهـور الـروابط التي عملت على الارتقـاء بمعارف اليهـود الدينية مثل جماعة «شجرة الحياة» في مكناس مع ظهور روابط صهيونية جديدة في مدن الرباط، والجديـدة ومراكش، وواجده، وكازابلانكا. وقـد شهدت المناطق الشماليـة من المغـرب، والتي كـانت تقع حتى بـدايـة العشرينيـات تحت حمايـة أسبانيا، تحولا ملمـوسا في مكانة الحركـة الصهيونية فوصلت إلى هـذه الأماكن في هذا الحين عـدة شخصيات صهيونية بـارزة كان من بينها د. اريـال بن تيسون، ونتان هالبرن، كما تأسست في مدينة طنجة رابطة «درع داوود» التي حرصت على نشر اللغة العبرية، وتأسست أيضا في مدينة العرايش فور انعقاد مؤتمر سان ريمو رابطة «بناة القدس» التي عبرت عن تحمسهـا للفكرة الصهيونية في خطاب بعثت به إلى د. ماكس نورداو الذي كان من أبرز الشخصيات الصهيونية في هذا الحين، وجاء بخطابها:

«أشرقت الشمس فبددت الظلام، لقد عادت وحدة شعب إسرائيل إلى سابق عهدها، وعادت كل قوى الحياة لتنهض من جديد. وقد عاد البعداء قريبين منا، كما عادت الحياة إلى كل الأنشطة كما أصبح شعب إسرائيل شعبا واحدا في الأرض ولنغن ترانيم الثناء لإلهنا».

وبدأت عشرات العائلات اليهودية في هذا الحين في الهجرة إلى فلسطين، ولذلك طلب رئيس رابطة «الصوت المبشر» في مدينة صفرو من رئيس الاتحاد الصهيوني العالمي إرسال مندوب خاص بشؤون الهجرة إلى المدينة، وجاء بخطابه الذي بعثه «سيشعر الرواد منا بالطمأنينة والسعادة إذا قمتم بتوطين المهاجرين في المستوطنات الزراعية أو في الأحياء العربية لاسيما أنهم قد اعتادوا العيش مع العرب».

وحصل رئيس الرابطة الصهيونية المحلية في مدينة موجادير إبان نفس الفترة من القنصل البريطاني على تأشيرات دخول لليهود الراغبين في الرحيل من مدينته إلى فلسطين، وقد أقدم على هذه الخطوة بعد أن لم يحظ مطلبه بخصوص هذا الشأن بقبول قادة المؤسسات الصهونية، ومع هذا لم يصل كل المهاجرين إلى فلسطين إذ رجعت أعداد كبيرة منهم إلى المغرب بعد أن رفضت السلطات في فلسطين السماح لهم بالنزول في يافا. وقد علق ليو زوسمان الذي كان مندوبا «للصندوق القومي اليهودي» في الجزائر التي مر بها المهاجرون عند عودتهم من فلسطين إلى المغرب على هذا الوضع بقوله: «إن الأنباء التي يروجها اليهود المغاربة الذين عادوا من فلسطين إلى المغرب تلحق بالحركة الصهيونية أشد الضرر».

ومع حلول منتصف العشرينيات تضاءل عدد الراغبين من يهود هذه البلدان في الهجرة، كما تضاءل في نفس الحين حجم النشاط الصهيوني في كافة بلدان شمال أفريقيا، وقد استغرقت هذه الأزمة سنوات طوالا، ودامت حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. وكانت هذه الأزمة في واقع الأمر نتيجة للعديد من العوامل فكان الموقف الذي تبنته السلطات الفرنسية تجاه الحركة الصهيونية من

بين العوامل التي ساهمت في عرقلة مسيرة الحركة الصهيونية في هذه البلدان. وبالرغم من أن موقف السلطات الفرنسية في تونس إزاء الصهيونية كان أفضل من موقفها تجاه نفس الحركة في المغرب إلا أن الفرنسيين عارضوا بشكل عام قيام رعايا البلدين وخاصة من بين اليهود بممارسة أي أنشطة سياسية فجاء، على سبيل المثال، في خطاب أحد المستشارين الفرنسيين: «يجب ألا تختلف السياسة التي نتبعها تجاه يهود شمال أفريقيا عن السياسة التي نتبعها مع المسلمين. ويجب أن نعارض فكرة القومية اليهودية لأننا نعارض أيضا فكرة القومية العربية. ويجب أن نعمل على دمج الشعبين في ثقافتنا. وفيما يتعلق باليهود، فمن الممكن أن نحقق هذا الهدف من خلال التعاون مع جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء».

وبالإضافة إلى المخاوف التي أبداها الفرنسيون من رد الفعل العربي تجاه الصهيونية، أحست السلطات الفرنسية أن للحركة الصهيونية ومنظماتها ميولا موالية لبريطانيا، ولهذا تشككت السلطات الفرنسية في دوافع حركة الهجرة اليهودية من المغرب إلى فلسطين التي تمت في نهايات الحرب العالمية الأولى، فجاء بأحد التقارير التي بعثت من شمال أفريقيا إلى مسؤولي «الصندوق القومي اليهودي»: «إن الفرنسيين يشعرون بأن الهجرة اليهودية إلى فلسطين تهدف إلى تعزيز الوجود البريطاني وعلى حساب الوجود الفرنسي». ونظرا لتشكك الفرنسيين في نوايا الحركة الصهيونية فقد اعترضوا في عام ١٩١٩ على فكرة إقامة رابطة صهيونية في كازابلانكا، كما أنهم لم يشعروا بأن تحسين الطائفة اليهودية في المغرب لا يستلزم الاتصال بالجهات الأجنبية، كما حظر الفرنسيون في عام١٩٢٣ ممارسة أي أنشطة صهيونية في مدينة فاس، كما حظروا في عام ١٩٢٤ توزيع صحيفة، العالم الناطقة بلسان «الاتحاد الصهيوني العالمي» في المغرب، وأوقفوا أيضا حملات التبرعات لصالح «الصندوق القومي اليهودي»، ولكنهم سمحوا بتوزيع «الشيقل» الصهيوني الذي تم منذ عام ١٩٢٤ السماح بتحويله عبر لجان الطائفة إلى القنصلية الفرنسية في القدس.

وعلاوة على كل هذه الصعوبات التي اعترضت طريق الحركة الصهيونية في دول شمال أفريقيا فقد أسفر الموقف السلبي الذي تبنته السلطات تجاه الحركة الصهيونية عن ابتعاد وجهاء الطوائف اليهودية وقادتها عن مزاولة الأنشطة الصهيونية، وكان هذا الإحساس بالاغتراب عن الحركة الصهيونية سائدا في كافة دول شمال أفريقيا وفي مصر على وجه الخصوص التي كان لموقف الرأي العام والسلطة فيها قدر كبير من الأهمية بالمقارنة بالوضع الذي ساد دول شمال أفريقيا الخاضعة للاحتلال الفرنسي أو الإيطالي.

ولم تنجح الحركة الصهيونية في مصر في الحصول على تأييد أعداد كبيرة من اليهود، خاصة أن رئيس الطائفة اليهودية بالقاهرة يوسف قطاوي، وكبير حاخاماتها حاييم ناحوم تبنيا مواقف معادية للصهيونية. أما في الإسكندرية فقد حظيت الحركة الصهيونية بقدر يسير من تأييد الطبقات الفقيرة، ومع هذا لم يبد رؤساء الطائفة تأييدهم للحاخام داود بروتو الذي تولى منصب كبير حاخامات المدينة خلال الأعوام (١٩٢٧-١٩٣٦)، أو للحاخام موشيه فنطورا الذي شغل نفس المنصب خلال الأعوام (١٩٣٨-١٩٤٨). ومن المتصور أن الأنباء التي وصلت ليهود الإسكندرية عن الإضرابات التي شهدتها فلسطين في نهاية العشرينيات والثلاثينيات دفعت قادة هذه الطائفة لتبنى مواقف أجبرت بدورها المنظمات الصهيونية على تقليص وجودها في هذه المدينة.

ومع هذا فإن الموقف الذي تبنته السلطات وقيادة الطوائف اليهودية تجاه الصهيونية لم يكن بالعامل الوحيد الذي تسبب في تقليص مكانة هذه الحركة الصهيونية، لأنها عانت أيضا في هذا الحين من مشكلات تنظيمية عديدة أضف إلى هذا أنه لم تكن لديها الوسائل التي تساعدها على تحقيق أهدافها.

وعند النظر إلى الوضع الذي واجهته الحركة الصهيونية بالمغرب فلابد من أن نضع في اعتبارنا مجموعة من الحقائق الرئيسية قد يكون من أهمها أن الطائفة اليهودية بالمغرب كانت طائفة تقليدية لم يكن لها عهد بالمشكلات

السيـاسية والأيـديولـوجية ، وأنها نظـرت إلى الهجرة المعـاصرة إلى فلسطين من منظـور ارتباطهـا الروحي — الـديني التقليـدي بفلسطين ، ولذلك يمكننـا تصور أن عجز اليهود المغاربـة عن دخول فلسطين في بدايات العشرينيات ، وعدم قدرة المؤسسـات الصهيونية على استخراج الشهادات الـلازمة للراغبين في الهجـرة جعـلا يهود شمال أفـريقيـا يشعـرون بـاليأس من قـادة الحركـة الصهيونية . وتفاقمت حدة هذه المشكلة بعد أن لقيت المطالب التي تقدم بها أتباع الحركة الصهيونية بشأن الهجرة إلى فلسطين الرفض من قبل قادة الحركة ، الأمـر الـذي تسبب في إحسـاسهم بـالإحبـاط ، والغبن ، وقـد سـاهم هـذا الإحساس في عرقلة أنشطتهم في المجـال الصهيوني . كما كان من بين العوامل التي تسببت في حـدوث هـذا الأمـر أنه قـد وصلتهم أنبـاء تفيـد بأن اليهـود الشرقيين يتعـرضـون للظلم في إسرائيل . وليس من الممكن أن نغفـل أيضـا حقيقة أن مسـؤولي الحركة الصهيـونية أوحـوا ليهود شمال أفـريقيا أن الهجـرة تهدف في المقام الأول إلى إنقاذ يهود شرق أوروبـا ، وأنه يتعين على إخوانهم من اليهـود المقيمين في سـائر البلـدن بما فيهـا دول شمال أفـريقيـا المشـاركـة بمجهوداتهم من أجل تحقيق هذا الهدف .

وقـد عانت الحركـة الصهيونيـة في دول شمال أفريقيـا خاصـة في منتصف العشرينيات من مشكلة عـدم وجود قيادة يهودية تتسم بـالقوة ، ومن مشكلة عـدم توافـر أطر تنظيميـة مناسبـة تستطيع بـدورها تـوحيد جهـود المنظمات الصهيـونية ، فقـد عملت كل رابطـة في المغرب على حـدة دون أي تنسيق مع سـائر الـروابط الصهيـونيـة المحليـة التي تضـاءل عـدد أعضـائهـا بشكل ملحوظ .

وفي مصر استقـال جـاك موصيري مـن رئاسة الاتحاد الصهيـوني في عـام ١٩١٨ ، كما أن مجلـة La Revue Sioniste التي كان يصـدرها هذا الاتحاد تـوقفت عن الصـدور بعـد مضي ست سنوات على هـذا التـاريخ ، كما فقـد الاتحاد أيضا سيطرته على فروعه الرئيسية في مدينتي القاهرة والاسكندرية التي عمل كل فرع منها نتيجة للمشاحنات الداخلية بشكل مستقل .

أمـا ليبيـا فلم يكن بها أيضـا أي نـائب يستطيع القيـام بمهـام اليـاهـو نحيمس، كما أنه تـزايدت في ليبيا منـذ بداية العشرينيات حـدة المواجهة بين قادة الحركة الصهيونية وقادة الطـائفة، إذ دارت المواجهة منذ هذا الحين حول زعـامة الطـائفة. وعلى ضـوء هذه المواجهـة تشكلت في ليبيا رابطـة «الاتحاد والتقدم»، التي كانت تتبنى آراء الدوائر اليهودية المدنية في القدس، وفي واقع الأمر فقـد كان الغرض الرئيسي من تأسيسهـا متمثلا في مواجهة فكـر «رابطة صهيون»، ولكن تم التـوصل إلى تسوية بين الجهتين في عام١٩٢٤، وهذا في أعقاب الزيارة التي قام بها إلى ليبيا أفراهام المالح، وأسفرت هذه التسوية عن اتحاد الرابطتين فيما بينهما، وتشكيل ما سمي باتحاد يهود طرابلس، واقتصرت مهـام هذا الاتحاد على التعليم اليهـودي في ليبيـا الذي حظي بقـدر كبير من اهتمام الاتحاد.

وعلاوة على المشكلات التنظيمية التي واجهتها الروابط الصهيونية واجهت أيضا العديد من المشكلات المادية، نجم بعضها عن ضآلة مواردها التي كانت تأتيها إما من خلال الاشتراكات أو من خلال التبرعات، ولاشك أنه كان لهذه المشكـلات تأثيرهـا على أنشطـة هـذه الـروابط التـي أصبحت مقصـورة على المناسبات الاجتماعية، ونشر المعلومات اللازمة عن فلسطين.

وكان قادة «الاتحاد الصهيوني العالمي» على وعي كـامل بخطورة الوضع الذي كانت تواجهـه الحركة الصهيونية في دول شمال أفريقيـا، ولكن كما يبدو قد حصر قادة هـذه الحركة جهودهـم على المغرب التي أرسلوا إليهـا في عام١٩٢٤ يونـاثان طورتش الذي مثل في مرحلة لاحقة يهود المغرب في كافة المؤتمرات الصهيونية التي عقـدت حتى نشـوب الحرب العـالميـة الثـانيـة، ويـرجع إلى طـورتش فضل أول المنجزات التي حققتهـا الحركة الصهيونيـة في المغرب. وكـان من أولى المشكلات التي واجهها طورتش مشكلة كيفية إضفـاء القدر اللازم من الشرعية على النشاط الصهيوني في المغـرب. وبالرغم من أن طـورتش بذل جهودا عـديدة من أجل أن تحظى الحركة الصهيـونية في المغـرب بمكانـة شبيهة بـوضع الحركة الصهيـونية في تـونس إلا أن كل جهـوده بـاءت بالفشل، ولكنـه نجح بفضل المسـاعـدة التي

حصل عليها من بعض الشخصيات الموالية لفرنسا مثل . ل . ور. قاسن ، في أن يدفع الحكومة الفرنسية لتبني موقف أفضل تجاه النشاط الصهيوني في المغرب . وقد حدث هذا التحول بعد أن أصدرت السلطات قرارا جعل من النشاط الصهيوني بالمغرب امتدادا لنشاط الاتحاد الصهيوني الفرنسي ، وتسبب هذا القرار في انفصال هذه الروابط عن تنظيماتها الصهيونية التي عملت في تلك المناطق الخاضعة لرعاية أسبانيا ، والتي أسست فيما بعد اتحادا صهيونيا خاصا بها حظي بإشراف السلطات الأسبانية .

وفي مجال الإعلام الصهيوني يرجع إلى طورتش فضل تأسيس مجلة L'Avenir Illustre التي تبنت سياسة معتدلة للغاية تجاه السلطات الفرنسية ، وقد حرصت هذه المجلة على تزويد قرائها بأخبار العالم اليهودي والحركة الصهيونية ، كما حرصت على أن تعرفهم بمدى التقدم الذي أحرزه النشاط الاستيطاني في فلسطين ، كما اعتادت نشر مقتطفات مختارة من كتابات قادة الحركة الصهيونية . ومن المتصور أن الصلة التنظيمية التي ربطت يهود المغرب بالاتحاد الصهيوني الفرنسي أتاحت لقادة النشاط الصهيوني بالمغرب فرصة الحصول على النشرات الإعلامية الصادرة بفرنسا ، وفرصة التعرف على مبعوثي الحركة الصهيونية بفرنسا الذين قاموا كثيرا بزيارة المغرب ، ومن الواجب أن نتساءل هنا إلى أي مدى نجحت الصهيونية التي اتسمت بالاعتدال في الحصول على مؤيدين بالمغرب ، وتستلزم الإجابة عن هذا السؤال معرفة أن المقالات التي صدرت في مجلة Avenir Taustre والمحاضرات التي ألقاها مبعوثو الحركة الصهيونية بالمغرب الذين أعربوا في محاضراتهم عن تأييدهم لفرنسا أكثر من تأييدهم للصهيونية اتسمت بتقديم أنباء الاستيطان اليهودي في فلسطين ليس من منظور العمل اليهودي الذي يستلزم مشاركة كافة اليهود ، وإنما من منظور إنساني شامل ، وكان تصوير الأمور على هذا النحو يوحي أنه يتعين على يهود المغرب أن يحققوا في وطنهم ما حققه إخوانهم من اليهود في فلسطين ، وأنه يتعين عليهم إقامة مؤسسات زراعية يعملون من خلالها في استصلاح الأراضي ، وبنفس الحماس الذي يظهره الرواد اليهود في فلسطين ، كما كان تقديم الأمور على هذا النحو يوحي أنه ليس من

المطلوب قيام يهود المغرب بالهجرة إلى فلسطين للاستيطان بها، وأن مهمتهم تقتصر على تقديم المساعدة المالية إلى المستوطنين، وقد جاء على سبيل المثال في إحدى المقالات التي نشرت في مجلة L'Avenir Illustre: «إننا لا نرغب في الحصول على الذهب المغربي».

وإذا قيمنا النشاط الصهيوني بالمغرب من منظور نتائج حملات التبرعات لوجدنا أنه لم تتدفق أية أموال طائلة على الصناديق اليهودية، ولم يكن سبب هذا الوضع تدهور الوضع الاقتصادي ليهود المغرب وإنما تمثل في تبني السلطات الفرنسية لموقف سلبي تجاه حملات التبرعات التي لم يكن الغرض منها موجها للأنشطة الخيرية.

ورغم انشغال طورتش بإدارة وتحرير صحيفته إلا أنه نجح في إرساء بنية تنظيمية قوية تولى عدد محدود من الأفراد الإشراف عليها، وقد كانوا جميعهم من اليهود الذين تمتعوا برعاية القوى الأوروبية، ومع هذا كان بعضهم من مواليد المغرب، وقد تشكلت في غالبية كبرى المدن بالمغرب فروع عديدة للحركة الصهيونية اقتصر معظم نشاطها على العمل لصالح الصندوق القومي اليهودي. أما في كازابلانكا وحدها فقد اتسعت دائرة النشاط الصهيوني وشملت مجالات تعدت حدود جمع الأموال، فكان من بين الأنشطة الصهيونية بهذه المدينة: العمل على نشر اللغة العبرية وتدريب المنظمات الشبابية، وإقامة منتدى لحركة «مكابي».

وعقد قادة الحركة الصهيونية بالمغرب في شهر يناير عام١٩٣٦ اجتماعهم الأول، وبحث المشاركون فيه إمكان اتخاذ قرارات بشأن تنظيم الحركة، كما قرروا إقامة عدة لجان، تتولى مسؤولية العمل في مجالات الإعلام والثقافة وبحث شؤون الهجرة، «الشيقل» الصهيوني. وقد نجحت الحركة الصهيونية بالمغرب وحتى نشوب الحرب العالمية الثانية في عقد اجتماعين حظيا بدورهما باهتمام أعداد كبيرة من يهود المغرب الذين وصلتهم في هذا الحين أول الأخبار عن أوضاع يهود ألمانيا، وعن مباحثات اللجنة الرسمية المختصة ببحث شؤون فلسطين.

وبينما توحي الصورة المقدمة للنشاط الصهيوني في المغرب بأن يهود المغرب انصرفوا لإرساء أسس بنية تنظيمية قوية، وبأنهم لم يهتموا بخوض أي مناقشات سياسية أو أيديولوجية فإن الوضع الذي ساد في تونس كان شديد الاختلاف إذ شهد المجتمع اليهودي في تونس مع انهيار البنية التنظيمية التي تم إرساء أسسها بعد الحرب العالمية الأولى حالة من الهيجان الفكري والعديد من المناقشات الحادة بين الاتجاهات الصهيونية المختلفة. وقد حرص «الصندوق القومي اليهودي» على تهدئة الوضع في تونس، ولذلك قام بإرساء مبعوثين ومدرسين من فلسطين إلى كبرى المدن في تونس، فوصل إلى تونس في عام١٩٢٦ ن. هالبرين الذي ألقيت على عاتقه مهمة إصلاح مؤسسات الاتحاد الصهيوني التونسي، وكللت الجهود التي قام بها هالبرين بالنجاح، فقام بتعيين المحامي فيكتور قطان رئيسا مؤقتا للاتحاد، كما نجح هالبرين في التوصل إلى تسوية بين الاتحاد الصهيوني ومنظمة الشبيبة الصهيونية التي قام المركز الصهيوني في هاج في حينه بتحويل أموال التبرعات إليها، كما تم التوصل إلى تسوية بشأن توزيع الصلاحيات بين المركز الصهيوني في تونس، وسائر المنظمات الصهيونية المحلية، وقد تقرر في النهاية إجراء انتخابات عامة للجنة الإدارية الجديدة التابعة للحركة.

وقد أسفرت الانتخابات التي جرت في التاسع عشر من يونيو عام١٩٢٧ عن حدوث تحول مذهل أثر بدوره وحتى عقد الخمسينيات في الطابع العام للحركة الصهيونية في تونس. إذ نجحت القائمة التصحيحية في الفوز بكافة نتائج الانتخابات التي أجريت في تونس حتى إقامة دولة إسرائيل.

وقد تزعم هذه الحركة التصحيحية المستشرق الفرنسي الأصل ر. برونشفيج، وضمت هذه الحركة مجموعة من الشباب الصهيوني المتحمس كان من أبرزهم الفريد فالنسي مؤسس «الاتحاد الصهيوني» في تونس، والذي أقام في باريس، وب. علوش الذي تولى تحرير مجلة Reveil Juif التي لم يقتصر دورها على تمثيل الاتجاه التصحيحي، وإنما أصبحت من أكثر الصحف اليهودية انتشارا في كافة دول شمال أفريقيا.

ورغم حدوث هذا التحول إلا أن المؤسسات الصهيونية المركزية ظلت تتجاهل معطيات الواقع الجديد، بل تعاملت مع قادة الاتجاه غير التصحيحي من منظور أنهم القادة الحقيقيون للاتحاد الصهيوني التونسي، هذا بالرغم من أنهم كانوا لا يحظون بقدر كبير من الشعبية في أوساط اليهود أضف إلى هذا أنهم كانوا يفتقدون القدرة على الزعامة. وقد باءت كل المحاولات التي قامت بها المؤسسات المركزية الصهيونية والرامية إلى تغيير الوضع في تونس بالفشل لا سيما أنه كان من الصعوبة بمكان بث روح الحياة والنشاط في نفوس الشخصيات التي حرصت دائما على عدم القيام بأية أنشطة من شأنها إثارة الاهتمام، وفي المقابل كان خصومهم، الذين تعرضوا إلى ضغوط شديدة من قبل لجنة الطائفة والسلطات، لايتوقفون عن استغلال كافة الفرص الممكنة وتحويلها إلى أحداث بالغة الأهمية في تاريخ الحركة الصهيونية، وفي حياة الاستيطان اليهودي.

ومن هنا فلا غرابة في أن المؤسسات الصهيونية المركزية أحست أن «الاتحاد الصهيوني» في تونس ليس ذا قيمة، وأنه يعد في حقيقته منظمة سلبية يتولى إدارتها مجموعة من رجال الأعمال المسنين. ومع هذا قد ارتكبت هذه المؤسسات خطأ فادحا حينما طبقت هذا الاستنتاج على كافة الأنشطة الصهيونية في تونس حيث إن معطيات الواقع كان تشير إلى أن النشاط الصهيوني غير التابع للجهات الرسمية قوي للغاية خاصة في أوساط الشباب اليهودي المستنير الذي كانت أعداده تتزايد بشكل مطرد في تونس.

وتشكلت في تونس في عام ١٩٣٠ نواة منظمة «هشومير هستعير»، التي كانت تابعة لاتحاد المراقبين العبريين المحلي، وكان الغرض من تأسيسها التقليل من نفوذ الحركة التصحيحية ومنظمة بيتار، ومع هذا قد أثارت آراؤها المتطرفة — التي صورت بشكل سيىء من قبل منافسيها معارضة شديدة في أوساط اليهود، ولذلك توقف أعضاء هذه الجماعة بعد مضي أربع سنوات على تأسيسها، عن ممارسة أنشطتهم، وانضموا في مرحلة لاحقة إلى صفوف الحزب الشيوعي التونسي وعلى هذا النحو أصبح الاتجاه التصحيحي عشية

الحرب العالمية الثانية، وباعتراف معارضيه، بمنزلة أكثر القوى الصهيونية قوة في تونس، فبلغ عدد التابعين له في هذا الحين ثلاثة آلاف يهودي.

وكان أتباع هذا الاتجاه في مصر أيضا من أبرز العاملين في المجال الصهيوني، وكان تأثيرهم ملموسا للغاية في أوساط يهود الإسكندرية الذين من أصل إيطالي، وتزعم هذا الاتجاه الصحفي ألبرت سطاروسلسكي الذي أصدر خلال الفترة (١٩٣١-١٩٣٤) مجلة La Vaix Juive. وعلاوة على أنشطة هذا الاتجاه فقد أسهمت حالة الصحوة التي حلت على الطائفة اليهودية بمصر، عقب وصول هتلر إلى السلطة في إحياء المنظمات الصهيونية القديمة التي انضم إليها بعض الأعضاء الجدد، ومع هذا ظل حجم هذه المنظمات الصهيونية محدودا للغاية، ويمكننا قول إنه لم يطرأ أي تغيير جوهري على الطابع العام للحركة الصهيونية في دول شمال أفريقيا طيلة الفترة السابقة للحرب العالمية الثانية.

النشاط الصهيوني في دول شمال أفريقيا خلال الفترة (١٩٤٣-١٩٤٨)

شكلت الحرب العالمية الثانية نقطة تحول مهمة في موقف يهود شمال أفريقيا تجاه الحركة الصهيونية، وفي موقف قادة الاستيطان اليهودي في فلسطين تجاه أبناء هذه الطوائف، فبينما أثارت الأنباء التي ترددت عن الأحداث التي تعرض لها اليهود على أيدي النازي، وعما تعرض له اليهود إبان حكم فيشي انفعالات يهود هذه البلدان ودفعتهم للتساؤل عن جدوى الأفكار التي طرحتها جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» والتي تبنتها المجالس اليهودية والتي كان مفادها أن تبني الفكر الفرنسي كفيل بحل المشكلة اليهودية، فقد شعر قادة الاستيطان اليهودي في نفس الفترة أنه من الضروري العمل على إنقاذ يهود البلدان الإسلامية. ولم يساور أحدا من هؤلاء القادة في هذا الحين الشك في أنه ستطرأ تغييرات جوهرية على الوضع السياسي في هذه البلدان بعد انتهاء الحرب، وفي أن الثورات التي ستنشب في

هذه البلدان ستعادي إسرائيل، ولم تحسن معـاملة سكانها من اليهود. ونظراً لتـزايد حـدة هذه المخـاوف تم البدء في إعـداد مشاريع تهجير يهود البلـدان الإسـلامية إلى إسرائيل وكـان ليهود مصر وليبيـا الـذين التحقوا بـالوحـدات العبريـة بـالجيش البريطـاني دور مهم في إقـامـة عـلاقـات وثيقـة بين قـادة الاستيطان اليهودي بفلسطين ويهود البلدين.

لقد وصل إلى مصر منـذ عام١٩٤٠ الآلاف من الجنود اليهود الـذين كان من بينهم بعض المشتغلين بـالحركة الصهيـونية، وذوي الخبرة في تنفيـذ المهام التي كانـت تلقى على عاتقهم من قبل قـادة الاستيطان اليهـودي، والخاصة بمخاطبة يهود الشتـات. وأجرى هؤلاء المبعوثـون اتصالات عديدة مـع كافة فئات المجتمع اليهودي في مصر بما فيها الطبقة الثرية التي لم يبد أبناؤها حتى هذا الحين قدرا كـافيا من الاهتمام بالنشـاط الاستيطاني في فلسطين، وحرص هـؤلاء المبعـوثون على زيـارة كـافـة الطـوائف اليهـودية، وتقـديم يـد العـون والمسـاعـدة لها سـواء في مجال تـدريس اللغـة العبريـة، أو في مجال تـدريب المنظمات الشبـابيـة المحلية، وتحولت منتـديـات الجنـود العبريين في كل من القاهرة والإسكندرية إلى مراكـز التقاء المشتغلين بالنشاط الصهيوني في مصر، كما تحولت إلى مراكز لـلأنشطة الصهيونية السرية الـرامية إلى تهريب اللاجئين والمهاجرين اليهود بشكل غير شرعي إلى فلسطين.

وانضم إلى هؤلاء الجنـود في صيف عام١٩٤٣ مبعوثـو الوكالة اليهـودية، والمؤسسة التي تـولت تنظيم الهجرة اليهوديـة الثانية إلى فلسطين الـذين تلقوا قبل مجيئهم تدريبا خاصـا للتعرف على طبيعة مهامهم التي تمثلت في تأسيس حركات شبيبة طلائعية، وانضم خلال الفترة (١٩٤٤-١٩٤٨) ما يقرب من ألف وخمسمائة يهودي إلى الحركـات الصهيـونيـة العاملـة في كل من القـاهـرة والإسكندرية وبورسعيد. وكانت هذه الحركات مقسمة على النحو التالي:

١- حركة «الرائد الصغير» التي انقسمت في عام١٩٤٧ إلى حركتين متنازعتين فيما بينهما وهما حركة «البناء»، وحركة «درور» (الحرية)

٢- حركة «العبري الصغير». وتأسست هذه الحركة في عام١٩٣٢، وكانت أفكارها شبيهه بفكر منظمة «هشومير هتسعير» (الحارس الفتى).

٣- حركة «أبناء عقيفا».

٤- حركة «بيتار» التي اضطرت لوقف أنشطتها بعد اغتيال اللورد موين في عام١٩٤٤.

وأعيد في عام١٩٤٥ تأسيس «الاتحاد الصهيوني المصري» الذي تولى رئاسته كل من: اليون كاسترو — وأميل نجار، ويعقوف فيسمان، ومارس هذا الاتحاد، أنشطته بشكل قانوني، هذا بالرغم من أنه عمل في ظل الفترة التي شهدت قيام المنظمات اليمينية المتطرفة بإثارة كراهية المصريين للصهيونية ولليهود، فقد نظمت حركة «الإخوان المسلمون» في الثاني من شهر نوفمبر عام١٩٤٥ مسيرات شعبية للتنديد بتصريح بلفور، قام المتظاهرون خلالها بمهاجمة الحي اليهودي، ونهب المحال اليهودية، وإشعال النيران في المعبد الأشكنازي، والإضرار بكافة المؤسسات اليهودية، مما اضطر السلطات المصرية نظرا لقيام هذه المظاهرات، ولحالة الهيجان التي كانت تشهدها مصر في هذا الحين ضد البريطانيين، إلى إيلاء المزيد من الاهتمام بطبيعة النشاط الصهيوني.

وشهدت الطائفة اليهودية إبان نفس الفترة تزايد حدة التوتر بين أتباع الحركة الصهيونية الذين طالبوا بتنظيم أنفسهم للدفاع عن الطائفة اليهودية، وبين قيادة المؤسسة اليهودية التقليدية التي طالبت بوقف أنشطة حركات الشبيبة، والجنود العبريين، ومبعوثي الاستيطان اليهودي في مصر الذين قاموا بتهجير اللاجئين اليهود الذين قدموا من أوروبا إلى مصر، ويهود مصر إلى فلسطين. وبدأت أنشطة هؤلاء الجنود تتوقف تدريجيا مع تزايد معدل تسريح الجنود البريطانيين من الخدمة وعودتهم إلى أوطانهم، ومع هذا تجدر الإشارة إلى أن السلطات المصرية لم تصدر حتى عام١٩٤٨ الذي تأسست فيه إسرائيل أي قانون يقضي بحظر الأنشطة الصهيونية.

وقد تعرض يهود مصر في عام١٩٤٨ إلى العديد من الاضطهادات والقيود كان

من بينهـا عدم السماح لليهـود بمغـادرة مصر إلا بعد الحصـول على تصريح من السلطات، كما صادرت السلطات ممتلكات ما يـربو على مئة شركة يهودية كانت لها جميعاً اتصالات بـالحركة الصهيونية وبقيـادة الاستيطان اليهودي في فلسطين، كما اعتقلت السلطـات أيضا مئـات اليهود بتهمـة ممـارسة الأنشطـة الصهيونيـة والشيوعيـة، وعلاوة على كل هذه القيود قـد وقعت خلال شهور يـوليو وسبتمبر ونوفمبر عدة عمليـات إرهابية ضد اليهود مما أسفـر عن مقتل وإصابة العشرات من يهود القاهرة والإسكندرية.

وشكلت كل هـذه الأحداث بـدايات تصفيـة الوجـود اليهودي في مصر، ورغم أن الهدوء عاد إلى مصر خلال الفترة (١٩٤٩-١٩٥٤)، إلا أنه سرعان ماتجددت الحملة المعادية لليهود بمزيد من القوة، هذا بعد أن تولى جمال عبد الناصر مقاليـد الحكم. وبدأت مصر بعد انتهاء حرب١٩٥٦ في ترحيل كافة اليهود الذين كـانوا يحملون جنسيات أجنبية مختلفة فطـردت السلطات حوالي ٢١ ألف يهودي من أبنـاء الطائفـة التي كان عددهـا حوالي ٤٠ ألف نسمة، واستمـر هـؤلاء في الـرحيل عن مصر حتى نهايـات عـام ١٩٥٧ تـاركين كل أموالهم وممتلكاتهم. ولم يتـوجه كل المهاجرين إلى إسرائيل، إذ تـوجه بعضهم إلى أوروبا وإلى الولايات المتحدة الأمريكية. أما اليهود الذين بقوا في مصر فقد تدهـورت أوضاعهم بشكل ملحوظ، ومع حلول منتصف السبعينيـات قدر عدد اليهود في مصر ببضع مئات.

أما في ليبيا فيعود تاريخ الاتصالات التـي أجراها الجنود العبريون مع أبناء الطوائف اليهـودية إلى بـدايات عـام ١٩٤١، أي عقب الهجـوم الذي شنـه الجنرال فيفـل ضد الجيش الإيطـالي في الصحراء الغـربية، وكانـت الطوائف اليهودية التي التقى بها هؤلاء الجنـود تعيش في حالة لا مثيل لها من الفقر، كما أنها كانت في أشد الحاجة إلى المساعـدات المادية، وهذا على خلاف الطوائف اليهودية الثرية في مصر. ونجح هـؤلاء الجنود أثناء انسحاب الجيش البريطاني في مواجهـة جيش روميل في نقل مائتين وخمسين يهوديا من بنغـازي ودرنه إلى فلسطين. وعادت الوحـدات العبرية إلى ليبيا في نهايات أكتـوبر عام ١٩٤٢

أي بعد الهزيمة التي لحقت بالقوات الألمانية والإيطالية في معركة العلمين، وقام جنود هذه الوحدات وبموافقة السلطات العسكرية البريطانية بالتدريس للأطفال اليهود ومساعدتهم في حل المشكلات التي واجهوها، وبنقل ما يقرب من ستين يتيما يهوديا إلى فلسطين. وبنقل ما يقرب من ستين يتيما يهوديا إلى فلسطين، كما بعث قادة الاستيطان في فلسطين، معلمين وممرضات ومبعوثين إلى يهود ليبيا، وبدأ هؤلاء المبعوثون تدريجيا في إصلاح مؤسسات الطائفة وإحياء الروابط الصهيونية التي عملت في بنغازي وطرابلس عشية الحرب، كما أسس هؤلاء المبعوثون حركة «الرائد» التي عملت على تشجيع الشباب اليهودي على الهجرة إلى فلسطين.

وبدأت تظهر في الأفق بعد خروج غالبية الجنود العبريين من ليبيا في عام١٩٤٤ أولى علامات تدهور علاقات اليهود بالمسلمين الذين ألقوا على اليهود مسؤولية تدهور الأوضاع الاقتصادية بدعوى أن اليهود قاموا بتخزين الأطعمة ورفع أسعارها مما أدى إلى تدهور الاقتصاد الليبي، وبالإضافة إلى هذه الادعاءات ساهم قادة الاتجاهات القومية الذين عادوا من المنفى بعد انتهاء الحرب في إثارة مشاعر السكان ضد الصهيونية وضد بريطانيا.

ووقعت في شهر نوفمبر عام١٩٤٥ بعد أن تزايدت حدة المشاعر المعادية لليهود واحدة من أكثر الحوادث بشاعة في تاريخ يهود ليبيا، على إثر الاضطرابات التي شهدتها ليبيا في الخامس من شهر نوفمبر من نفس العام والتي حدثت نتيجة لإحدى المشاحنات التقليدية التي وقعت بين بعض المسلمين واليهود بالقرب من الحي اليهودي في مدينة طرابلس القديمة، وسرعان ما تزايدت حدة هذه الاضطرابات التي تعدت حدود المدينة لتصل إلى خارجها، ودامت هذه الاضطرابات على مدى ثلاثة أيام متصلة، ومع هذا لم تتدخل السلطات البريطانية إلا في اليوم الأخير فاستدعت السلطات قوات الجيش للسيطرة على الوضع، وأسفرت هذه الاضطرابات عن مقتل ١٢١ يهوديا وإصابة خمسة وعشرين، واحتراق تسعة معابد، وتدمير المئات من المحال اليهودية في مدن طرابلس وعمروتس وتاجارة وقسبات، وزنزور، والزاوية.

وكان لهذه الاضطرابات أسوأ الأثر في يهود ليبيا، إذ تسببت في أنه طرأ تغير ملموس على طبيعة العلاقات بين المسلمين واليهود، كما تسببت هذه الأحداث في تزايد رغبة ليبيا في الهجرة إلى فلسطين، ومع هذا أصرت السلطات حتى شهر فبراير عام ١٩٤٩ على عدم منح تأشيرات خروج ليهود ليبيا. وتزايد إحساس يهود ليبيا باليأس من واقعهم على أثر المذبحة الثانية التي تعرضوا لها في عام ١٩٤٨ التي أسفرت مثل حادثة ١٩٤٥ عن إلحاق خسائر شديدة بأرواح وممتلكات اليهود.

ورغم تعرض يهود ليبيا لكل هذه الحوادث إلا أن بريطانيا لم تسمح لهم بمغادرة ليبيا إلا بعد أن تعرضت لضغوط شديدة من قبل الرأي العام العالمي، وقدر عدد اليهود الذين رحلوا عن ليبيا خلال عامي ١٩٤٩-١٩٥٠ بـ١٦ ألف يهودي، كما تزايدت معدلات الهجرة اليهودية بعد حصول ليبيا على استقلالها في عام١٩٥٢، ومع حلول عام ١٩٥٣ قدر عدد اليهود الذين رحلوا عن ليبيا بـ٣١ ألف يهودي، كما هاجرت البقية الباقية من اليهود في السنوات التي أعقبت هذه الفترة.

أما دول شمال افريقيا التابعة لفرنسا فقد تجددت علاقات سكانها من اليهود بقادة الاستيطان اليهودي في فلسطين، وبقادة «الاتحاد الصهيوني العالمي» بعد أن غزت قوات الحلفاء الجزائر والمغرب، وبعد رحيل الألمان من تونس، ولعب قادة الروابط الصهيونية المحلية في الجزائر دوراً رئيسياً في الصراع من أجل استعادة الحقوق السياسية لليهود، كما نجحوا في توسيع دائرة أنشطتهم، والحصول على مؤيدين للحركة الصهيونية في مدينة الجزائر، ومع هذا تضاءلت قوة النشاط الصهيوني بالجزائر، وتزايدت في المقابل قوة ارتباط اليهود بفرنسا بعد أن قررت السلطات في شهر أكتوبر عام١٩٤٣ إعادة تطبيق مرسوم كرميه.

وانضم العشرات من يهود الجزائر مع بداية حرب الاستقلال الجزائرية إلى صفوف المتطوعين الراغبين في الهجرة، فهاجر المئات منهم في ذلك الحين إلى

فلسطين، كما كان من بين مظاهر هذه الفترة أنه كان لممثلي الحركة الصهيونية في الجزائر وجود دائم في كافة المؤتمرات الصهيونية التي عقدت إبان الخمسينيات، ومع هذا لم يكن من شأن كل هذه المعطيات إنكار حقيقة فشل الأيديولوجية الصهيونية في السيطرة على المجتمع اليهودي في الجزائر الذي لم يتقبل الفكر الصهيوني، وإذا كان البعض يطرح أسبابا بعينها لتفهم حركة الهجرة اليهودية من الجزائر إلى فرنسا في عام١٩٦٢ إلا أنه لاشك في أن هناك صلة مباشرة بين دوافع هذه الهجرة وبين إحساس يهود الجزائر باللامبالاة تجاه الفكر الصهيوني.

وفيما يتعلق بوضع الحركة الصهيونية في تونس، فقد أعيدت العلاقات بين القدس وقادة «الاتحاد الصهيوني التونسي» في شهر يونيو عام ١٩٤٣، أي بعد مضي شهر واحد فقط على خروج الألمان من تونس. وكان من بين مظاهر اليقظة الصهيونية في هذا الحين، أن الروابط الصهيونية عادت لممارسة أنشطتها من جديد، كما أن تونس أصبحت بعد مضي عامين على هذا التاريخ مركزا لحركة «شباب صهيون» الطليعية في كافة دول شمال أفريقيا، وكانت لهذه الحركة عدة فروع في مدن سوسة، وجابس، وبيزرطه، وجربة، فبلغ عدد أعضائها بالاشتراك مع حركة الشبيبة ألفا وخمسمائة عضو. ورغم انتماء هؤلاء الأعضاء إلى فئات وطبقات اجتماعية متفاوتة فقد تمثل هدفهم الأسمى في تشكيل نواة جماعة للحركة الصهيونية في شمال أفريقيا، وكان لأعضاء هذه الحركة برنامج تعليمي شامل احتوى على عدة موضوعات كان من بينها: تاريخ الصهيونية، والمؤسسات الصهيونية ومضمون الأيديولوجية الصهيونية. واعتمد هذا البرنامج التعليمي على تقديم مقتطفات من أعمال أبرز الزعماء الصهاينة الذين كان من بينهم: هيس، آحاد هعام، جوردون، وبوروخوف، وغيرهم. وبالإضافة إلى حرص هذه الجماعة على تدريس اللغة العبرية لطلابها فقد حرصت أيضا على تدريب اليهود على الدفاع عن أنفسهم، وعلى الاشتغال بالزراعة. كما كان من بين أنشطة هذه الحركة إصدارها لصحيفة «التجسيد» التي كان الغرض منها مواجهة الصحف

اليهودية الصادرة في تونس التي تبنت آراء موالية للحركة الصهيونية التصحيحية .

وانتمى معظم أبناء هذه الحركة إلى الطبقة البرجوازية اليهودية ، و إلى العائلات التي كانت على قدر كبير من المعرفة بالثقافة الفرنسية والتي لم تكن لها في المقابل صلات قوية بغالبية اليهود الذين ظلوا يقيمون في «الحارة» الذين هاجر الآلاف منهم إلى فلسطين فور تأسيس دور إسرائيل ، وسعى قادة هذه الحركة إلى مخاطبة اليهود المقيمين في الجيتو.

أما في المغرب ، فقد عاود «الاتحاد الصهيوني» منذ عام١٩٤٥ ممارسة أنشطته ، ولكن في إطار التبعية «للاتحاد الصهيوني الفرنسي» ، ولكنه حافظ في واقع الأمر على صلاته المباشرة بمؤسسات الحركة الصهيونية . وتولت رئاسة الاتحاد نفس الشخصيات التي تولت قبل الحرب مهمة الإشراف على الأنشطة الصهيونية في المغرب ، ولكن لم يكن من بينها طورتش الذي كان ارتحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية . ووصف أحد مبعوثي الحركة الصهيونية في المغرب هذه الشخصيات بقوله «إن هذه الشخصيات تعد على قدر كبير من الأهمية لما تتمتع به من نفوذ اقتصادي واجتماعي ، وكرسوا أنفسهم لخدمة الحركة الصهيونية ، ويؤمنون بأن فلسطين هي مركز حياتهم ، وأن الوكالة اليهودية حكومتهم ، وهم على أتم الاستعداد لخدمتها والخضوع لها» .

وبالإضافة إلى المهام التقليدية التي قام بها الاتحاد رأى قادته أنه لزام عليهم العمل على توجيه الشباب اليهودي وتنظيمه ، والتأثير في حياة الطائفة ، وتجلى هذا الهدف بشكل واضح في مشروع القرار الذي أعده الاتحاد لعرضه على المؤتمر الصهيوني الذي عقد في عام١٩٤٦ فجاء بهذا المشروع في الوقت الذي يتطلع فيه يهود المغرب لإقامة دولة يهودية ديمقراطية في فلسطين فإن قادة الحركة الصهيونية بالمغرب يسعون من أجل الارتقاء بأوضاع يهود المغرب المادية والروحانية ، وتوسيع دائرة التعليم العبري الذي يتلقاه الشباب اليهودي في المغرب .

وعلى ضوء هذا الهدف حرص الاتحاد الصهيوني في المغرب على افتتاح فصول لتدريس اللغة العبرية بالاشتراك مع جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» التي حرصت منذ الحرب على بذل مزيد من الاهتمام بالتعليم العبري في مؤسساتها التعليمية، وتولت ثلاث روابط في مدينة كازابلاكا مهمة الإشراف على التعليم العبري وهي: رابطة «ماجين داوود» رابطة «محبي اللغة العبرية» ورابطة «كارل نيطر». ولم يتلق التلاميذ دروسا في اللغة العبرية فحسب وإنما تلقوا أيضا محاضرات عن تاريخ الاستيطان والفكرة الصهيونية، كما شارك التلاميذ أيضا في الأمسيات الشعرية، وفي الحفلات الاجتماعية. أما في فاس فقد كانت هناك قبل الحرب «دائرة الدراسات اليهودية» التي أصبح اسمها بعد عام ١٩٤٤ «منتدى هرتزل»، ولم تقتصر أنشطة هذه الرابطة على المجال التعليمي وإنما شملت أيضا الأنشطة الرياضية وتلك الخاصة بالدفاع عن النفس. وفي مدينة صفرو كان الطلاب اليهود يتلقون دراستهم في إطار ما يسمى «بمنتدى بياليك»، وفي مكناس تلقى التلاميذ دروسهم في إطار ما سمي «بجماعة يهودا». والجدير بالذكر أن كل هذه الروابط لم تكن تحمل تصريحا من السلطات لممارسة أنشطتها، ولذلك اضطر البعض منها مثل «منتدى بيتح تكفا» في الرباط الذي تعرض لضغوط شديدة من قبل السلطات ولجنة الطائفة إلى وقف أنشطته.

وفي مجال المنظمات الشبابية تركزت جهود الحركة في أوساط روابط خريجي المدارس التابعة لجماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء»، وخاصة في أوساط أعضاء «منتدى كارل نيطر» في كازابلانكا الذي شهد بدايات تشكل حركة شباب صهيون، والذي أصبح فيما بعد واحدا من أهم المنتديات الصهيونية، ولذلك فسرعان ما أصبحت مجلة «الشباب» التي أصدرها هذا المنتدى بمنزلة المجلة الرسمية الناطقة بلسان أتباع الحركة الصهيونية في المغرب الذين لم تسمح لهم السلطات بإصدار جريدة خاصة بهم، ومع هذا سمح الفرنسيون باستيراد الصحف الصهيونية من فرنسا وتونس بما فيها صحيفة Voix Juive التي خصصت بعض صفحاتها لموضوع النشاط الصهيوني في المغرب.

وأصبح شأن الحركة الصهيونية بالمغرب بعد انتهاء الحرب شأن وضع الحركة في تونس اذ حظيت كافة اتجاهات الحركة الصهيونية منذ هـذا الحين باهتمام عدد محدود من اليهود، كـان معظمهم من الشباب اليهـودي المقيم في المدن والـذي تلقى تعليما فرنسيا، ويمكننا تصـور أنه لو كان تزايد عـدد خريجي مدارس هذه الجماعة والمؤسسـات الأخرى، كما أنه لـو كان اتسع نشاط المؤسسـات التعليمية لكان تزايد عدد أتباع الحركة الصهيونية بالمغرب.

ومع تأسيس دولـة إسرائيل في عام ١٩٤٨ أحس الكثيرون أن تأسيسهـا يعد أقرب إلى تحقق نبـوءة الأنبياء منه إلى الواقع، فهاجـر الآلاف من يهود المغرب إلى إسرائيل. ومع بدء حركـة الهجرة الجماعية إلى إسرائيل شهدت كافـة مدن المغرب زيـادة ملحـوظـة في عـدد الجهـات التي تـولت مهمـة تأهيل اليهـود للهجـرة، فبالإضـافة إلى الأنشطـة التي قامت بها حـركة «شباب صهيـون» التي عملت في إطار حركة «الهاجاناه» عملت حركـات أخرى من بينها حركة «هشومير هتسعير» (الحارس الفتي) و«حـركة البنـائين» وحركـة «بني عقيفـا» (أبناء عقيفـا) وحركـة «بيتـار». واتحدت كافـة هـذه الحركـات لتنظيم الشباب اليهـودي في دول شمال أفريقيـا وإعداده للهجرة، ومع هذا لم تسد دائما روح التعاون بين هذه الحركـات أو بينهـا وبين الاتحادات الصهيـونيـة المحليـة، ولـذلك تحولت هـذه الحركـات تدريجيـا إلى «مكاتب هجـرة» تمثلت مهمتها في تنفيـذ الأوامر الصـادرة إليها من القدس. وشكل المهاجرون اليهود الذين قدموا من دول شمال أفريقيا إلى إسرائيل خلال عامي١٩٤٨-١٩٤٩ مـا يقدر بـ ٨٪ من مجمل تعداد المهـاجرين الذين قدموا إلى إسرائيل في هذا الحين، كما شكلـوا حتى عام ١٩٥٢ مـايربو على ١٢٪ من المهـاجرين. أمـا الفترة الواقعة بين عـامي ١٩٥٢-١٩٥٦ التي تـزايدت بها حـدة نضال دول المغـرب العربي من أجـل نيل استقلالها، فقـد شهدت هجـرة أعداد ضخمة من اليهـود إلى إسرائيل، فشكل يهود هذه البلدان ٨٧٪ من مجمل المهاجرين الذين قدموا إلى إسرائيل في عام ١٩٥٥.

الخاتمة

نهاية الوجود اليهودي في شمال أفريقيا

شكلت الحرب العالمية الثانية نقطة تحول مهمة في تاريخ الطوائف اليهودية بشمال أفريقيا، فقد انهارت مع انتهاء هذه الحرب غالبية النظم التي وفرت فيما مضى الأمن لليهود، فمع انهيار نظم الحكم الاستعمارية في بلدان شمال أفريقيا ساءت علاقات المسلمين باليهود، وازدادت هذه العلاقات سوءا بعد أن تزايدت حدة الصراع في فلسطين.

وكان لموجة الحماس التي أثارها تأسيس دولة إسرائيل، وموجات الهجرة اليهودية الأولى التي تدفقت عليها أكبر الأثر في تمهيد الطريق لخروج اليهود من شمال أفريقيا، ومع هذا كانت معدلات هذه الهجرة مرتبطة بعدة عوامل كان من بينها: حصول دول هذه المنطقة على استقلالها، ونشوب العديد من الحروب بين العرب وإسرائيل.

ودون التقليل من أهمية هذه العوامل فمن المتصور أن يهود تونس والمغرب والجزائر خرجوا طواعية من بلدانهم، وأن عملية خروجهم كانت وثيقة الصلة بطبيعة التغيرات الجوهرية التي طرأت على حياة يهود شمال أفريقيا منذ النصف الثاني للقرن التاسع عشر. ولاشك أن علاقات يهود شمال أفريقيا الوثيقة بأوروبا التي تجلت مظاهرها في صدور مرسوم كرميه- الذي منح حق المواطنة الفرنسية ليهود الجزائر ـ وإقامة مدارس جماعة «كل شعب إسرائيل أصدقاء» في المغرب قضت على إمكانات اندماج اليهود في مجتمعاتهم، وأدت في المقابل إلى انفصالهم عنها. وفيما يتعلق بالمناطق التي لم تتأثر بالفكر الأوروبي فقد عاش فيها اليهود بما يتماشى مع أنماط الحياة التقليدية التي كانت تعتمد على تصنيف السكان بما يتماشى مع المقاييس العرقية- الدينية والمهنية، وأقام اليهود في هذه الأماكن حتى تم تأسيس

دولة إسرائيل في عام١٩٤٨ الذي شهد هجرة أعداد كبيرة من يهود هذه البلدان إلى إسرائيل .

وبينما تدهورت أوضاع اليهود في كل من مصر وليبيا في نهايات الأربعينيات نجح يهود شمال أفريقيا وحتى بدايات السبعينيات في الحفاظ على نظم حياتهم التقليدية . وفيما يتعلق بيهود المغرب وتونس فمازالوا يحافظون حتى يومنا هذا على نظم حياتهم . ومن الملاحظ أنه بينما جذبت الهجرة أبناء الطبقات الفقيرة بالمجتمع اليهودي ، فإنها لم تشكل عامل جذب لأثرياء اليهود الذين كانت أوضاعهم الاقتصادية أكثر رسوخا في المجتمع ، أو لأبناء الطبقة الوسطى الذين طرأ تحسن ملموس على أعمالهم وأنشطتهم الحرة ، فنجح يهود المغرب بعد الاستقلال في تطوير نظامهم التعليمي ، كما أسسوا بعد أن ألغيت القيود التي فرضت على التحاقهم بالمؤسسات التعليمية العالية العديد من المدارس العبرية التي حرصت مناهجها على الدمج بين أسس الثقافة العامة والتعليم الديني .

ورغم أنه طرأت تحولات عديدة على أوضاع يهود هذه البلدان فقد فشلت كافة الجهود الرامية إلى دمج اليهود في الحركات القومية المحلية ، ومع هذا انضم بضع مئات من اليهود إلى حركة الدستور الجديد بتونس ، وإلى حزب الاستقلال المغربي . ومع حصول تونس والمغرب على استقلالهما تبنى الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة ، وملك المغرب محمد الخامس مواقف طيبة إزاء يهود بلديهما بل وقاما في بعض الأحيان بتعيين بعضهم في المناصب الوزارية أو كمندوبين لحكومتيهما . ومع هذا لم تكن لكل هذه الإجراءات أي قيمة تذكر بعد انضمام تونس والمغرب إلى ساحة العمل العربي ، ولذلك لم يكن بمقدور هذه الإجراءات وقف تيار الهجرة اليهودية من هذه البلدان إلى إسرائيل . أما في الجزائر فقد تبنى اليهود قبل حصول الجزائر على استقلالها في عام١٩٦٢ موقفا سلبيا تجاه الحركة القومية الجزائرية ، كما كانوا من أكثر الجهات التي طالبت بإبقاء الجزائر تحت سيطرة فرنسا .

وبينما قدر تعداد يهود شمال أفـريقيا بعد انتهاء الحرب العالميـة الثانية بنصف مليـون يهودي، والــذين رحل معظمهم خـلال السنـوات التـي أعقبت انتهـاء الحرب، فإن تعدادهم حـاليا يقدر بخمسة وعشرين ألف نسمـة وهم منضمون في العديد من الطـوائف المتفرقة، ويشكل هؤلاء البقية المتبقيـة من أبناء الطوائف اليهوديـة التي كان لها على مدى مئـات السنين مستوطنـات في كل مناطق شمال أفريقيا بدءا من قيرينايقة شرقـا وحتى المحيط الأطلسي غربا، ومن ساحل البحر الأبيض المتوسط شمالا حتى منطقة الصحاري في الجنوب.

أما في ليبيا التي استقر بها اليهـود منذ فترات قديمة للغاية، بـالمقارنة بتاريخ سائر الطوائف اليهودية في شمال أفريقيا، فقد ارتحل كافة اليهود منها بعد أن تولى العقيد معمر القذافي مقاليد الحكم بها في الأول من سبتمبر من عام١٩٦٩ .

ولا يختلف وضع اليهود في الجزائر عن وضع الطـائفة اليهوديـة في ليبيا، إذ لا يتعدى عـدد يهود الجزائر حاليا ألف نسمة معظمهم من الشيـوخ والمسنين الذين رفضوا ترك ممتلكاتهم مع باقي اليهود إلى فرنسا.

وأما تـونس فيقدر حـاليا تعداد سكـانها من اليهود بأربعـة آلاف نسمة يقيم معظمهم في مـدينتي جـربـة وتونـس، وقدر تعـداد يهود تـونس في عـام ١٩٦٢ بخمسة وثلاثين ألف نسمة، ولكن تزايدت معدلات الهجرة اليهودية إلى إسرائيل وفرنسا عقب حرب يونيو١٩٦٧ .

أما في المغـرب فيقدر تعداد اليهـود بعشرين ألف نسمة. ومازال المغـرب هو الدولة العـربية الوحيدة التي مازال لليهود بها وجـود منظم، ومع هذا فلا يشكل تعدادهم أي نسبة ذات أهمية بالمجتمع بالمقارنـة بالسنوات السابقة، ويكفينا هنا معرفة أنـه بينما قدر تعداد اليهود في مطلع الخمسينيـات بما يقرب من ربع مليون نسمة، قـدر تعـدادهم في عـام ١٩٦٢ بمائة وثـلاثين ألف نسمـة، وشكلـوا في عام١٩٧٠ حـوالي خمسين ألف نسمة. وفي الوقت الراهن فإن يهود شمال أفـريقيا موزعـون بالتساوي في كل من إسرائيل ودول الغـرب، فقد هاجـرت أعداد كبيرة منهم إلى فـرنسا، كما هـاجر إليهـا في بـداية الخمسينيـات بعض يهود مصر، كما

هـاجـر إليها أيضـا كل يهود الجزائر، ونصف يهود تـونس، وربع يهود المغـرب، ولذلك من شبه المؤكد أنهم يشكلون غالبية يهود فرنسا الذين يقدر تعدادهم حاليا بسبعمائة وخمسين ألف نسمة.

وتأسست إبان الستينيات في مدينة مونتريال، التي تقع على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي، طائفة يهودية ضخمـة قدر عدد أبنائها بعشرين ألف نسمـة ضمت في أوساطهـا ستـة عشر ألف يهودي من أصـول مغربيـة، كما تأسست في نفس الحين طـائفة يهودية في أسبـانيا يقـدر تعدادهـا بستة آلاف نسمة يقيم معظمهم في مدريد وبرشلونة ومالاجا ومايوركا، ومعظم أبناء هذه الطائفـة من أبناء المقـاطعات الشمالية بـالمغرب التي كانت تـابعة لإسبـانيا. وبالإضـافة إلى هذه الطـوائف فإن بضعة آلاف من يهود ليبيا يقيمـون في روما وميلانو، كما يقيم في هاتين المدينتين بضع مئات من يهود تونس.

وتعد هجرة يهود الجزائر إلى فرنسا حادثا فريدا من نوعه في تاريخ الهجرات اليهوديـة بالقـرن العشرين، إذ انتقلت كل الطائفـة اليهوديـة بالجزائر بكـافة مؤسساتها التنظيمية والأسرية والثقافية إلى أرض مهجر جديدة. ولم يكن يهود الجزائر الذين قدمـوا إلى فرنسا بمنزلة «لاجئين» بـالمعنى التقليدي للكلمة، إذ كانوا يعـرفون اللغة والثقافة الفـرنسيتين، هذا بالإضافة إلى حقيقـة أنهم كانوا يحملون الجنسية الفرنسية. وعلى خلاف سائر اللاجئين الذين قدموا إلى فرنسا في هذا الحين لم يطلب يهود الجزائر من المجتمع المضيف الحصول على تعاطفه فقط وإنما طلبـوا منـه الحصـول على حقـوقهـم المشروعـة بـوصفهم مـواطنين فرنسيين شأنهم شأن الفـرنسيين الذين غـادروا الجزائر. وتبنى يهود الجزائر بعد هجـرتهم إلى فرنسـا مـوقفا معـارضا للنظـام الفـرنسي الذي منح الاستقـلال للجزائر، كما حرصوا على إضفاء قدر ما من الخصوصية السياسية الثقافية على جماعتهم، إمـا من خـلال الإعلاء مـن شأن قادة الجزائر الفـرنسيـة، أو عبر الضغط المستمر على القيادة السياسية الفرنسية بغرض دفعها للاعتراف بخطأ الانسحاب من فرنسا.

وتزايدت حدة مشاعر الاغتراب عن المجتمع بعد حرب ١٩٦٧ خاصة أن فرنسا تبنت بعد هذه الحرب موقفا معـاديا لإسرائيل . وبالإضافة إلى المخاوف التي راودت يهود فرنسا بشأن المخـاطر التي تعرضت لها إسرائيل، أحس يهود الجزائر المقيمون بفرنسا أن تخلي ديجول عن إسرائيل ، وتقربه من العرب يعدان استمـرارا لنفس السياسـة الفرنسيـة التي تخلت من قبل عن الجزائر، ولـذلك كـان زعماء يهود الجزائر من أوائل الشخصيـات التـي حـرصت على تنظيم مظاهرات تأييدا لإسرائيل ، كما لعبت هذه الشخصيات منذ ذلك الحين دورا رئيسيـا في حـركتي الصحـوتين الـدينيـة والقـوميـة اللتين يشهـدهما المجتمع اليهودي بفرنسا منذ عشرين عاما .



المحرر في سطور

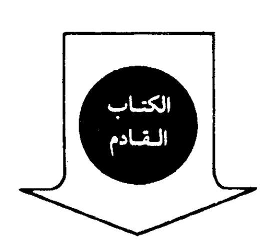
صموئيل أتينجر

* مؤرخ إسرائيلي بارز.
* ولد عام ١٩١٩ في مدينة كييف في روسيا.
* يعمل منذ عام ١٩٦٥ أستاذا للتاريخ اليهودي الحديث بالجامعة العبرية بالقدس.
* له عدة مؤلفات من أبرزها كتاب «تاريخ اليهود في العصر الحديث».

المترجم في سطور

د. جمال أحمد الرفاعي

* من مواليد محافظة القاهرة بجمهورية مصر العربية ١٩٥٨
* حصل على الماجستير في اللغة العبرية وآدابها من جامعة ليدز - بريطانيا ١٩٨٣.
* حصل على الدكتوراه في اللغة العبرية وآدابها من جامعة ليدز - بريطانيا ١٩٨٨.
* عمل باحثا بجامعة برينستون بولاية نيو جيرسي الأمريكية خلال عام ١٩٩٣.
* صدرت له أبحاث عديدة في الأدب العبري الوسيط والحديث.



فلسفات تربوية معاصرة

تأليف : د. سعيد إسماعيل علي

* عضو هيئة التدريس في كلية الألسن، قسم اللغات السامية، جامعة عين شمس، بمصر.

المراجع في سطور

د. رشاد عبدالله الشامي

* أستاذ ورئيس قسم اللغة العبرية وآدابها بكلية الآداب - جامعة عين شمس.

* صدرت له المؤلفات التالية:

١ - إنشاء وتطوير سلاح الطيران الإسرائيلي (١٩٧٢).
٢ - جولة في الدين والتقاليد اليهودية (١٩٧٨).
٣ - قواعد اللغة العبرية للمبتدئين (١٩٧٩).
٤ - لمحات من الأدب العبري الحديث (١٩٧٩).
٥ - تاريخ وتطور اللغة العبرية (١٩٧٩).
٦ - الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية (١٩٨٦).
٧ - الفلسطينيون والإحساس الزائف بالذنب في الأدب الإسرائيلي (١٩٨٨).
٨ - عجز النصر - الأدب الإسرائيلي وحرب ١٩٦٧ (١٩٩٠).
٩ - الشخصية اليهودية في أدب إحسان عبدالقدوس (١٩٩٢).
١٠ - الوصايا العشر في اليهودية - دراسة مقارنة في المسيحية والإسلام (١٩٩٣).

صدر عن هذه السلسلة

العنوان	المؤلف	التاريخ
١ـ الحضارة	تأليف : د/ حسين مؤنس	ينـــاير ١٩٧٨
٢ـ اتجاهات الشعر العربي المعاصر	تأليف : د/ إحسان عباس	فبرايــر ١٩٧٨
٣ـ التفكير العلمي	تأليف : د/ فؤاد زكريا	مــارس ١٩٧٨
٤ـ الولايات المتحدة والمشرق العربي	تأليف : / أحمد عبدالرحيم مصطفى	أبريــل ١٩٧٨
٥ـ العلم ومشكلات الإنسان المعاصر	تأليف : د/ زهير الكرمي	مايـــو ١٩٧٨
٦ـ الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها	تأليف : د/ عزت حجازي	يونيـــو ١٩٧٨
٧ـ الأحلاف والتكتلات في السياسة العالمية	تأليف : / محمد عزيز شكري	يولـــيو ١٩٧٨
٨ـ تراث الإسلام (الجزء الأول)	ترجمة : د/ زهير السمهوري تحقيق وتعليق : د/ شاكر مصطفى مراجعة : د/ فؤاد زكريا	أغسطس ١٩٧٨
٩ـ أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة	تأليف : د/ نايف خرما	سبتمبر ١٩٧٨
١٠ـ جحا العربي	تأليف : د/ محمد رجب النجار	أكتوبر ١٩٧٨
١١ـ تراث الإسلام (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ حسين مؤنس، د/ إحسان العمد مراجعة : د/ فؤاد زكريا	نوفمبر ١٩٧٨
١٢ـ تراث الإسلام (الجزء الثالث)	ترجمة : د. حسين مؤنس، د/ إحسان العمد مراجعة : د/ فؤاد زكريا	ديسمبر ١٩٧٨
١٣ـ الملاحة وعلوم البحار عند العرب	تأليف : د/ أنور عبدالعليم	ينايــر ١٩٧٩
١٤ـ جمالية الفن العربي	تأليف : د/ عفيف بهنسي	فـبراير ١٩٧٩
١٥ـ الإنسان الحائر بين العلم والخرافة	تأليف : د/ عبدالمحسن صالح	مـارس ١٩٧٩
١٦ـ النفط والمشكلات المعاصرة للتنمية العربية	تأليف : د/ محمود عبدالفضيل	أبـريل ١٩٧٩
١٧ـ الكون والثقوب السوداء	إعداد : رؤوف وصفي مراجعة : زهير الكرمي	مايـــو ١٩٧٩
١٨ـ الكوميديا والتراجيديا	ترجمة : د/ علي أحمد محمود مراجعة : د/ شوقي السكري، د/ علي الراعي	يونـــيو ١٩٧٩
١٩ـ المخرج في المسرح المعاصر	تأليف : / سعد أردش	يولـــيو ١٩٧٩

٧٣ـ التخطيط للتقدم الاقتصادي والاجتماعي	تأليف : د/ مجيد مسعود	ينـــايـــر ١٩٨٤
٧٤ـ مشاريع الاستيطان اليهودي	تأليف : أمين عبدالله محمود	فبرايـــــر ١٩٨٤
٧٥ـ التصوير والحياة	تأليف : د/ محمد نبهان سويلم	مـــــارس ١٩٨٤
٧٦ـ الموت في الفكر الغربي	ترجمة : كامل يوسف حسين مراجعة : د/ إمام عبدالفتاح	أبـــــريل ١٩٨٤
٧٧ـ الشعر الإغريقي تراثا إنسانيا وعالميا	تأليف : د/ أحمد عتمان	مـــايـــو ١٩٨٤
٧٨ـ قضاياالتبعية الإعلامية والثقافية	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن	يـــونيـــو ١٩٨٤
٧٩ـ مفاهيم قرآنية	تأليف : د/ محمد أحمد خلف الله	يـــوليـــو ١٩٨٤
٨٠ـ الزواج عند العرب (في الجاهلية والإسلام)	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني	أغسطس ١٩٨٤
٨١ ـ الأدب اليوغسلافي المعاصر	تأليف : د/ جمال الدين سيد محمد	سبتمبر ١٩٨٤
٨٢ ـ تشكيل العقل الحديث	ترجمة : شوقي جلال مراجعة : صدقي حطاب	أكتـوبـر ١٩٨٤
٨٣ ـ البيولوجيا ومصير الإنسان	تأليف : د/ سعيد الحفار	نـــوفمبر ١٩٨٤
٨٤ ـ المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية	تأليف : د/ رمزي زكي	ديسمبر ١٩٨٤
٨٥ ـ دول مجلس التعاون الخليجي ومستويات العمل الدولية	تأليف : د/ بدرية العوضي	ينـــايـــر ١٩٨٥
٨٦ ـ الإنسان وعلم النفس	تأليف : د/ عبدالستار إبراهيم	فبرايـــــر ١٩٨٥
٨٧ ـ في تراثنا العربي الإسلامي	تأليف : د/ توفيق الطويل	مـــــارس ١٩٨٥
٨٨ ـ الميكروبات والإنسان	ترجمة : د/ عزت شعلان مراجعة : د/ عبدالرزاق العدواني، د/ سمير رضوان	أبـــــريل ١٩٨٥
٨٩ ـ الإسلام وحقوق الإنسان	تأليف : د/ محمد عماره	مـــايـــو ١٩٨٥
٩٠ ـ الغرب والعالم (القسم الأول)	تأليف : كافين رايلي ترجمة : د/ عبدالوهاب المسيري، د/ هدى حجازي مراجعة : د/ فؤاد زكريا	يـــونيـــو ١٩٨٥
٩١ ـ تربية اليسر وتخلف التنمية	تأليف : د/ عبدالعزيز الجلال	يـــوليـــو ١٩٨٥
٩٢ ـ عقول المستقبل	ترجمة : د/ لطفي فطيم	أغسطس ١٩٨٥
٩٣ ـ لغة الكيمياء عند الكائنات الحية	تأليف : د/ أحمد مدحت إسلام	سبتمبر ١٩٨٥
٩٤ ـ النظام الإعلامي الجديد	تأليف : د/ مصطفى المصمودي	أكتـوبـر ١٩٨٥

٤٥ـ حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي	تأليف : د/ محمد رجب النجار	سبتمبر ١٩٨١
٤٦ـ دعوة إلى الموسيقا	تأليف : د/ يوسف السيسي	أكتوبر ١٩٨١
٤٧ـ فكرة القانون	ترجمة : سليم الصويص مراجعة : سليم بسيسو	نوفمبر ١٩٨١
٤٨ـ التنبؤ العلمي ومستقبل الإنسان	تأليف : د/ عبدالمحسن صالح	ديسمبر ١٩٨١
٤٩ـ صراع القوى العظمى حول القرن الأفريقي	تأليف : صلاح الدين حافظ	يناير ١٩٨٢
٥٠ـ التكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية	تأليف : د/ محمد عبدالسلام	فبراير ١٩٨٢
٥١ـ السينما في الوطن العربي	تأليف : جان ألكسان	مارس ١٩٨٢
٥٢ـ النفط والعلاقات الدولية	تأليف : د/ محمد الرميحي	أبريل ١٩٨٢
٥٣ـ البدائية	ترجمة : د/ محمد عصفور	مايو ١٩٨٢
٥٤ـ الحشرات الناقلة للأمراض	تأليف : د/ جليل أبو الحب	يونيو ١٩٨٢
٥٥ـ العالم بعد مائتي عام	ترجمة : شوقي جلال	يوليو ١٩٨٢
٥٦ـ الإدمان	تأليف : د/ عادل الدمرداش	أغسطس ١٩٨٢
٥٧ـ البيروقراطية النفطية ومعضلة التنمية	تأليف : د/ أسامة عبدالرحمن	سبتمبر ١٩٨٢
٥٨ـ الوجودية	ترجمة : د/ إمام عبدالفتاح	أكتوبر ١٩٨٢
٥٩ـ العرب أمام تحديات التكنولوجيا	تأليف : د/ انطونيوس كرم	نوفمبر ١٩٨٢
٦٠ـ الأيديولوجية الصهيونية (الجزء الأول)	تأليف : د/ عبدالوهاب المسيري	ديسمبر ١٩٨٢
٦١ـ الأيديولوجية الصهيونية (الجزء الثاني)	تأليف : د/ عبدالوهاب المسيري	يناير ١٩٨٣
٦٢ـ حكمة الغرب	ترجمة : د/ فؤاد زكريا	فبراير ١٩٨٣
٦٣ـ الإسلام والاقتصاد	تأليف : د/ عبدالهادي علي النجار	مارس ١٩٨٣
٦٤ـ صناعة الجوع (خرافة الندرة)	ترجمة : أحمد حسان عبدالواحد	إبريل ١٩٨٣
٦٥ـ مدخل إلى تاريخ الموسيقا المغربية	تأليف : عبدالعزيز بن عبد الجليل	مايو ١٩٨٣
٦٦ـ الإسلام والشعر	تأليف : د/ سامي مكي العاني	يونيو ١٩٨٣
٦٧ـ بنو الإنسان	ترجمة : زهير الكرمي	يوليو ١٩٨٣
٦٨ـ الثقافة الألبانية في الأبجدية العربية	تأليف : د/ محمد موفاكو	أغسطس ١٩٨٣
٦٩ـ ظاهرة العلم الحديث	تأليف : د/ عبدالله العمر	سبتمبر ١٩٨٣
٧٠ـ نظريات التعلم (دراسة مقارنة) القسم االأول	ترجمة : د/ علي حسين حجاج مراجعة : د/ عطيه محمود هنا	أكتوبر ١٩٨٣
٧١ـ الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي	تأليف : د/ عبدالمالك خلف التميمي	نوفمبر ١٩٨٣
٧٢ـ حكمة الغرب (الجزء الثاني)	ترجمة : د/ فؤاد زكريا	ديسمبر ١٩٨٣

٢٠ـ التفكير المستقيم والتفكير الأعوج	ترجمة حسن سعيد الكرمي مراجعة : صدقي حطاب	أغسطس ١٩٧٩
٢١ـ مشكلة إنتاج الغذاء في الوطن العربي	تأليف : د/ محمد علي الفرا	سبتمبر ١٩٧٩
٢٢ـ البيئة ومشكلاتها	تأليف : رشيد الحمد د/ محمد سعيد صباريني	أكتوبر ١٩٧٩
٢٣ـ الرق	تأليف : د/ عبدالسلام الترمانيني	نوفمبر ١٩٧٩
٢٤ـ الإبداع في الفن والعلم	تأليف : د/ حسن أحمد عيسى	ديسمبر ١٩٧٩
٢٥ـ المسرح في الوطن العربي	تأليف : د/ علي الراعي	يناير ١٩٨٠
٢٦ـ مصر وفلسطين	تأليف : د/ عواطف عبدالرحمن	فبراير ١٩٨٠
٢٧ـ العلاج النفسي الحديث	تأليف : د/ عبدالستار ابراهيم	مارس ١٩٨٠
٢٨ـ أفريقيا في عصر التحول الاجتماعي	ترجمة : شوقي جلال	أبريل ١٩٨٠
٢٩ـ العرب والتحدي	تأليف : د/ محمد عماره	مايو ١٩٨٠
٣٠ـ العدالة والحرية في فجر النهضة العربية الحديثة	تأليف : د/ عزت قرني	يونيو ١٩٨٠
٣١ـ الموشحات الأندلسية	تأليف : د/ محمد زكريا عناني	يوليو ١٩٨٠
٣٢ـ تكنولوجيا السلوك الإنساني	ترجمة : د/ عبدالقادر يوسف مراجعة : د/ رجا الدريني	أغسطس ١٩٨٠
٣٣ـ الإنسان والثروات المعدنية	تأليف : د/ محمد فتحي عوض الله	سبتمبر ١٩٨٠
٣٤ـ قضايا أفريقية	تأليف : د/ محمد عبدالغني سعودي	أكتوبر ١٩٨٠
٣٥ـ تحولات الفكر والسياسة في الشرق العربي (١٩٣٠ـ ١٩٧٠)	تأليف : د/ محمد جابر الأنصاري	نوفمبر ١٩٨٠
٣٦ـ الحب في التراث العربي	تأليف : د/ محمد حسن عبدالله	ديسمبر ١٩٨٠
٣٧ـ المساجد	تأليف : د/ حسين مؤنس	يناير ١٩٨١
٣٨ـ تكنولوجيا الطاقة البديلة	تأليف : د/ سعود يوسف عياش	فبراير ١٩٨١
٣٩ـ ارتقاء الإنسان	ترجمة : د/ موفق شخاشيرو مراجعة : زهير الكرمي	مارس ١٩٨١
٤٠ـ الرواية الروسية في القرن التاسع عشر	تأليف : د/ مكارم الغمري	أبريل ١٩٨١
٤١ـ الشعر في السودان	تأليف : د/ عبده بدوي	مايو ١٩٨١
٤٢ـ دور المشروعات العامة في التنمية الاقتصادية	تأليف : د/ علي خليفة الكواري	يونيو ١٩٨١
٤٣ـ الإسلام في الصين	تأليف : فهمي هويدي	يوليو ١٩٨١
٤٤ـ اتجاهات نظرية في علم الاجتماع	تأليف : د/ عبدالباسط عبدالمعطي	أغسطس ١٩٨١

العنوان	المؤلف / المترجم	التاريخ
١٣١ ـ مقدمة لتاريخ الفكر العلمي في الاسلام	تأليف : د/ أحمد سليم سعيدان	نوفمبر ١٩٨٨
١٣٢ ـ أوروبا والتخلف في أفريقيا	تأليف : د/ والتر رودني ترجمة : د/ أحمد القصير مراجعة : د/ إبراهيم عثمان	ديسمبر ١٩٨٨
١٣٣ ـ العالم المعاصر والصراعات الدولية	تأليف : د/ عبدالخالق عبدالله	يناير ١٩٨٩
١٣٤ ـ العلم في منظوره الجديد	تأليف : روبرت م . اغروس جورج ن . ستانسيو ترجمة : د/ كمال خلايلي	فبراير ١٩٨٩
١٣٥ ـ العرب واليونسكو	تأليف : د/ حسن نافعة	مارس ١٩٨٩
١٣٦ ـ اليابانيون	تأليف : إدوين رايشاور ترجمة : ليلى الجبالي مراجعة : شوقي جلال	أبريل ١٩٨٩
١٣٧ ـ الاتجاهات التعصبية	تأليف : د/ معتز سيد عبدالله	مايو ١٩٨٩
١٣٨ ـ أدب الرحلات	تأليف : د/ حسين فهيم	يونيو ١٩٨٩
١٣٩ ـ المسلمون والاستعمار الاوروبي لأفريقيا	تأليف : عبدالله عبدالرزاق ابراهيم	يوليو ١٩٨٩
١٤٠ ـ الانسان بين الجوهر والمظهر (نتملك أو نكون)	تأليف : إريك فروم ترجمة : سعد زهران مراجعة : د/ لطفي فطيم	أغسطس ١٩٨٩
١٤١ ـ الأدب اللاتيني (ودوره الحضاري)	تأليف : د/ أحمد عتمان	سبتمبر ١٩٨٩
١٤٢ ـ مستقبلنا المشترك	إعداد : اللجنة العالمية للبيئة والتنمية ترجمة : محمد كامل عارف مراجعة : علي حسين حجاج	أكتوبر ١٩٨٩
١٤٣ ـ الريف في الرواية العربية	تأليف : د/ محمد حسن عبدالله	نوفمبر ١٩٨٩
١٤٤ ـ الإبداع العام والخاص	تأليف : الكسندرو روشكا ترجمة : د/ غسان عبدالحي أبو فخر	ديسمبر ١٩٨٩
١٤٥ ـ سيكولوجية اللغة والمرض العقلي	تأليف : د/ جمعة سيد يوسف	يناير ١٩٩٠
١٤٦ ـ حياة الوعي الفني (دراسات في تاريخ الصورة الفنية)	تأليف : غيورغي غانشف ترجمة : د/ نوفل نيوف مراجعة : د/ سعد مصلوح	فبراير ١٩٩٠
١٤٧ ـ الرأسمالية تجدد نفسها	تأليف : د/ فؤاد مُرسي	مارس ١٩٩٠

١١٥ ـ معالم على طريق تحديث الفكر العربي	تأليف : د/ معن زيادة	يــوليــو ١٩٨٧
١١٦ ـ أدب أمريكا اللاتينية قضايا ومشكلات (القسم الأول)	تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو ترجمة : أحمد حسان عبدالواحد مراجعة : د/ شاكر مصطفى	أغسطس ١٩٨٧
١١٧ ـ الأحزاب السياسية في العالم الثالث	تأليف : د/ أسامة الغزالي حرب	سـبتمبر ١٩٨٧
١١٨ ـ التاريخ النقدي للتخلف	تأليف : د/ رمزي زكي	أكتوبـر ١٩٨٧
١١٩ ـ قصيدة وصورة	تأليف : د/ عبدالغفار مكاوي	نـوفمبر ١٩٨٧
١٢٠ ـ سيكولوجية اللعب	تأليف : د/ سوزانا ميلر ترجمة : د/ حسن عيسى مراجعة : د/ محمد عماد الدين إسماعيل	ديـسمبر ١٩٨٧
١٢١ ـ الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم	تأليف : د/ رياض رمضان العلمي	ينـايـر ١٩٨٨
١٢٢ ـ أدب أمريكا اللاتينية (القسم الثاني)	تنسيق وتقديم : سيزار فرناندث مورينو ترجمة : أحمد حسان عبدالواحد مراجعة : د/ شاكر مصطفى	فبرايـر ١٩٨٨
١٢٣ ـ ثقافة الأطفال	تأليف : د/ هادي نعمان الهيتي	مـارس ١٩٨٨
١٢٤ ـ مرض القلق	تأليف : د/ دافيد . ف . شيهان ترجمة : د/ عزت شعلان مراجعة : د/ أحمد عبدالعزيز سلامة	أبـريل ١٩٨٨
١٢٥ ـ طبيعة الحياة	تأليف : فرانسيس كريك ترجمة : د/ أحمد مستجير مراجعة : د/ عبد الحافظ حلمي	مـايـو ١٩٨٨
١٢٦ ـ اللغات الأجنبية (تعليمها وتعلمها)	تأليف : د/ نايف خرما د/ علي حجاج	يـونيـو ١٩٨٨
١٢٧ ـ اقتصاديات الإسكان	تأليف : د/ إسماعيل إبراهيم درة	يـوليـو ١٩٨٨
١٢٨ ـ المدينة الإسلامية	تأليف : د/ محمد عبدالستار عثمان	أغسطس ١٩٨٨
١٢٩ ـ الموسيقا الأندلسية المغربية	تأليف : عبدالعزيز بن عبدالجليل	سـبتمبر ١٩٨٨
١٣٠ ـ التنبؤ الوراثي	تأليف : د/ زولت هارسيناي ريتشارد هتون ترجمة : د/ مصطفى إبراهيم فهمي مراجعة : د/ مختار الظواهري	أكتوبـر ١٩٨٨

٩٥ ـ تغيّر العالم	تأليف : د / أنور عبدالملك	نــــوفبر ١٩٨٥
٩٦ ـ الصهيونية غير اليهودية	تأليف : ريجينا الشريف ترجمة : أحمد عبدالله عبدالعزيز	ديسمبر ١٩٨٥
٩٧ ـ الغرب والعالم (القسم الثاني)	تأليف : كافين رايلي ترجمة : د / عبدالوهاب المسيري، د / هدى حجازي مراجعة : د / فؤاد زكريا	ينــايــر ١٩٨٦
٩٨ ـ قصة الأنثروبولوجيا	تأليف : د / حسين فهيم	فبرايــــر ١٩٨٦
٩٩ ـ الأطفال مرآة المجتمع	تأليف : د / محمد عماد الدين إسماعيل	مــــارس ١٩٨٦
١٠٠ ـ الوراثة والإنسان	تأليف : د / محمد علي الربيعي	أبــــريل ١٩٨٦
١٠١ ـ الأدب في البرازيل	تأليف : د / شاكر مصطفى	مــايــو ١٩٨٦
١٠٢ ـ الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية	تأليف : د / رشاد الشامي	يــونيــو ١٩٨٦
١٠٣ ـ التنمية في دول مجلس التعاون	تأليف د / محمد توفيق صادق	يــوليــو ١٩٨٦
١٠٤ ـ العالم الثالث وتحديات البقاء	تأليف جاك لوب ترجمة : أحمد فؤاد بلبع	أغسطس ١٩٨٦
١٠٥ ـ المسرح والتغير الاجتماعي في الخليج العربي	تأليف : د / إبراهيم عبد الله غلوم	سبتمبر ١٩٨٦
١٠٦ ـ «المتلاعبون بالعقول»	تأليف : هربرت . أ . شيللر ترجمة : عبدالسلام رضوان	أكتــوبــر ١٩٨٦
١٠٧ ـ الشركات عابرة القومية	تأليف : د / محمد السيد سعيد	نــوفمبر ١٩٨٦
١٠٨ ـ نظريات التعلم (دراسة مقارنة) (الجزء الثاني)	ترجمة : د / علي حسين حجاج مراجعة : د / عطية محمود هنا	ديسمبر ١٩٨٦
١٠٩ ـ العملية الإبداعية في فن التصوير	تأليف : د/ شاكر عبدالحميد	ينــايــر ١٩٨٧
١١٠ ـ مفاهيم نقدية	ترجمة : د/ محمد عصفور	فبرايــــر ١٩٨٧
١١١ ـ قلق الموت	تأليف : د/ أحمد محمد عبدالخالق	مــارس ١٩٨٧
١١٢ ـ العلم والمشتغلون بالبحث العلمي في المجتمع الحديث	تأليف : د/ جون . ب . ديكنسون ترجمة : شعبة الترجمة باليونسكو	أبــــريل ١٩٨٧
١١٣ ـ الفكر التربوي العربي الحديث	تأليف : د / سعيد إسماعيل علي	مــايــو ١٩٨٧
١١٤ ـ الرياضيات في حياتنا	ترجمة : د / فاطمة عبدالقادر الما	يــونيــو ١٩٨٧

العنوان	المؤلف	التاريخ
١٤٨ ـ علم الأحياء والأيديولوجيا والطبيعة البشرية	تأليف : ستيفن روز وآخرين ترجمة : د/ مصطفى إبراهيم فهمي مراجعة : د/ محمد عصفور	أبـــريل ١٩٩٠
١٤٩ ـ ماهية الحروب الصليبية	تأليف : د/ قاسم عبده قاسم	مـــايـــو ١٩٩٠
١٥٠ ـ حـاجات الإنسان الأسـاسية في الـوطن العربي «الجوانب البيئية والتكنولوجية والسياسية»	(برنامج الأمم المتحدة للبيئة) ترجمة : عبد السلام رضوان	يــونيــو ١٩٩٠
١٥١ ـ تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية	تأليف : د/ شوقي عبد القوي عثمان	يــوليـــو ١٩٨٩
١٥٢ ـ التلوث مشكلة العصر	تأليف : د/ أحمد مدحت إسلام	أغسطس ١٩٩٠

(ظهـــــــر هـــــــذا العـــــــدد في أغسطـس ١٩٩٠، وانقطعـت السلسلـــــــة بسبب العـدوان العراقـي الغاشم على دولـة الكـويت، ثم استـؤنفت في شهـر سبتمبر ١٩٩١ بالعـدد ١٥٣)

العنوان	المؤلف	التاريخ
١٥٣ ـ الكويت والتنمية الثقافية العربية	تأليف : د/ محمد حسن عبدالله	ســـبتمبر ١٩٩١
١٥٤ ـ النقطة المتحولة : أربعون عاما في استكشاف المسرح	تأليف : بيتر بروك ترجمة : فاروق عبدالقادر	أكتـــوبـــر ١٩٩١
١٥٥ ـ مؤثرات عربية و إسلامية في الادب الروسي	تأليف : د/ مكارم الغمري	نـــوفمبر ١٩٩١
١٥٦ ـ الفصامي : كيف نفهمه ونساعده، دليل للأسرة والأصدقاء	تأليف : سيلفانو آرتي ترجمة : د/ عاطف أحمد	ديـــسمبر ١٩٩١
١٥٧ ـ الاستشراق في الفن الرومانسي الفرنسي	تأليف : د/ زينات البيطار	ينـــايـــر ١٩٩٢
١٥٨ ـ مستقبل النظام العربي بعد ازمة الخليج	تأليف : د/ محمد السيد سعيد	فبرايـــــر١٩٩٢
١٥٩ ـ فكرة الزمان عبر التاريخ	ترجمة : فؤاد كامل عبدالعزيز مراجعة : شوقي جلال	مـــارس ١٩٩٢
١٦٠ ـ ارتقاء القيم (دراسة نفسية)	تأليف : د/ عبداللطيف محمد خليفة	أبـــريل ١٩٩٢
١٦١ ـ أمراض الفقر (المشكلات الصحية في العالم الثالث)	تأليف : د/ فيليب عطية	مـــايـــو ١٩٩٢
١٦٢ ـ القومية في موسيقا القرن العشرين	تأليف : د/ سمحة الخولي	يـــونيـــو ١٩٩٢
١٦٣ ـ أسرار النوم	تأليف : الكسندر بوربلي ترجمة : د/ أحمد عبدالعزيز سلامة	يـــوليـــو ١٩٩٢
١٦٤ ـ بلاغة الخطاب وعلم النص	تأليف : د/ صلاح فضل	أغسطس ١٩٩٢
١٦٥ ـ الفلسفة المعاصرة في أوربا	تأليف : إ.م. بوشنسكي ترجمة : د/ عزت قرني	ســـبتمبر ١٩٩٢

١٦٦ـ الأمومة : نمو العلاقات بين الطفل والأم	تأليف : د/ فايز قنطار	أكتـوبـر ١٩٩٢
١٦٧ـ تاريخ الدراسات العربية في فرنسا	تأليف د/ محمود المقداد	نـوفمبر ١٩٩٢
١٦٨ ـ بنية الثورات العلمية	تأليف : توماس كون ترجمة : شوقي جلال	ديسمبر ١٩٩٢
١٦٩ ـ تاريخ الكتاب (القسم الاول)	تأليف : د/ الكسندر ستيبشفيتش ترجمة : د/ محمد م . الأرناؤوط	ينـايـر ١٩٩٣
١٧٠ ـ تاريخ الكتاب (القسم الثاني)	تأليف : د/ الكسندر ستيبشفيتش ترجمة : د/ محمد م . الأرناؤوط	فبرايـر ١٩٩٣
١٧١ ـ الأدب الأفريقي	تأليف : د/ علي شلش	مـارس ١٩٩٣
١٧٢ ـ الذكاء الاصطناعي واقعه ومستقبله	تأليف : آلان بونيه ترجمة : د/ علي صبري فرغلي	أبـريل ١٩٩٣
١٧٣ ـ المعتقدات الدينية لدى الشعوب	أشرف على التحرير جفري بارندر ترجمة : د/ إمام عبدالفتاح إمام مراجعة : د/ عبدالغفار مكاوي	مـايـو ١٩٩٣
١٧٤ ـ الهندسة الوراثية والأخلاق	تأليف : ناهدة البقصمي	يـونيـو ١٩٩٣
١٧٥ ـ سيكولوجية السعادة	تأليف : مايكل أرجايل ترجمة : د/ فيصل عبدالقادر يونس مراجعة : شوقي جلال	يـوليـو ١٩٩٣
١٧٦ ـ العبقرية والإبداع والقيادة	تأليف : دين كيث سايمنتن ترجمة : د/ شاكر عبدالحميد مراجعة : د/ محمد عصفور	أغسطس ١٩٩٣
١٧٧ ـ المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والغربيين	تأليف : د/ شكري محمد عياد	سبتمبر ١٩٩٣
١٧٨ ـ الكون	تأليف : د/ كارل ساغان ترجمة : نافع أيوب لبّس مراجعة : محمد كامل عارف	أكتـوبـر ١٩٩٣
١٧٩ ـ الصداقة (من منظور علم النفس)	تأليف : د/ أسامة سعد أبو سريع	نـوفمبر ١٩٩٣
١٨٠ ـ العلاج السلوكي للطفل أساليبه ونماذج من حالاته	تأليف : د/ عبد الستار إبراهيم د/ عبدالعزيز الدخيل د/ رضوى إبراهيم	ديسمبر ١٩٩٣

العنوان	المؤلف	التاريخ
١٨١ـ الأدب الالماني في نصف قرن	تأليف : د/ عبدالرحمن بدوي	ينـــايـــر ١٩٩٤
١٨٢ـ الشفاهية والكتابية	تأليف: والتر ج. أونج	فبرايـــــر ١٩٩٤
	ترجمة : د. حسن البنا عزالدين	
	مراجعة : د. محمد عصفور	
١٨٣ ـ الطاغية	تأليف : د. إمام عبدالفتاح إمام	مـــــارس ١٩٩٤
١٨٤ ـ العرب وعصر المعلومات	تأليف : د. نبيل علي	أبـــريل ١٩٩٤
١٨٥ ـ عندما تغير العالم	تأليف: جيمس بيرك	مـــايـــو ١٩٩٤
	ترجمة : ليلى الجبالي	
	مراجعة : شوقي جلال	
١٨٦ ـ القوى الدينية في إسرائيل	تأليف : د. رشاد عبدالله الشامي	يـــونيـــو ١٩٩٤
١٨٧ ـ آلاف السنين من الطاقة	تأليف : فلاديمير كارتسيف	يـــوليـــو ١٩٩٤
	بيوتر كازانوفسكي	
	ترجمة : محمد غياث الزيات	
١٨٨ ـالاتجاه القومي في الرواية	تأليف : د. مصطفى عبد الغني	أغسطـس ١٩٩٤
١٨٩ ـ عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة	تأليف : جان ـ ماري بيلت	سبتمبر ١٩٩٤
	ترجمة : السيد محمد عثمان	
١٩٠ ـ مقدمة في علم التفاوض السياسي والاجتماعي	تأليف : د. حسن محمد وجيه	أكتـــوبـــر ١٩٩٤
١٩١ ـ النهاية	تأليف : فرانك كلوز	نـــــوفمبر ١٩٩٤
الكوارث الكونية وأثرها في مسار الكون	ترجمة : د. مصطفى إبراهيم فهمي	
	مراجعة : عبدالسلام رضوان	
١٩٢ ـ جذور الاستبداد (قراءة في أدب قديم)	تأليف : د . عبدالغفار مكاوي	ديســـمبر ١٩٩٤
١٩٣ ـ اللغة والتفسير والتواصل	تأليف : د. مصطفى ناصف	ينـــايـــر ١٩٩٥
١٩٤ ـ جوته والعالم العربي	تأليف : كاتارينا مومزن	فبرايـــــــر ١٩٩٥
	ترجمة : د. عدنان عباس علي	
	مراجعة : د. عبدالغفار مكاوي	
١٩٥ ـ الغزو العراقي للكويت	ندوة بحثية	مـــــارس ١٩٩٥
١٩٦ـ المدينة في الشعر العربي المعاصر	تأليف: د. مختار أبوغالي	أبـــــريل ١٩٩٥

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولاراً أمريكياً
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية

الاشتراكات :	أفراد	مؤسسات
دولة الكويت	١٥د.ك	٢٥د.ك
دول الخليج	١٧د.ك	٣٠د.ك
الدول العربية الأخرى	٢٥دولاراً أمريكياً	٥٠دولاراً أمريكياً
خارج الوطن العربي	٥٠دولاراً أمريكياً	١٠٠دولار أمريكي

الاشتراكات / ترسل باسم :

الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص . ب : ٢٣٩٩٦ الصفاة/ الكويت ـ 13100

برقيا : ثقف ــ فاكسميلي : ٤٨٧٣٦٩٤

وتحرص سلسلة عالم المعرفة على ان تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على أن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته، وفي حالة الترجمة ترسل صفحة الغلاف والمحتويات، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع - المؤلف أو المترجم - تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل خمسة عشر فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي أو تسعمائة دينار أيهما أكثر (وبحد أقصى مقداره ألف ومائتا دينار كويتي)، بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتياً مقابل تقديم المخطوطة - المؤلفة و المترجمة - من نسختين مطبوعتين على الآلة الكاتبة.



سلسلة عالم المعرفة

عالم المعرفة سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ دولة الكويت ـ وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير عام ١٩٧٨ .

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارىء بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفاً وترجمة :

١ ـ الدراسات الإنسانية : تاريخ ــ فلسفة ـ أدب الرحلات ـ الدراسات الحضارية ـ تاريخ الافكار.

٢ ـ العلوم الاجتماعية : اجتماع ـ اقتصاد ـ سياسة ـ علم نفس ـ جغرافيا ـ تخطيط ـ دراسات استراتيجية ـ مستقبليات .

٣ ـ الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي ـ الآداب العالمية ـ علم اللغة .

٤ ـ الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن ـ المسرح ــ الموسيقا ـ الفنون التشكيلية والفنون الشعبية .

٥ ـ الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) ـ الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) والدراسات التكنولوجية . أما بالنسبة لنشر الأعمال الإبداعية ـ المترجمة أو المؤلفة ــ من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي .

طبع من هذا الكتاب أربعون ألف نسخة



مطابع السياسة ـ الكويت